

مصر القديمة

في مدينة مصر وثقافتها
في الدولة القديمة والعهد الأماني

سليم حسن

البحر



Bibliotheca Alexandrina



0132611

مصر القديمة

تأليف

سليم حسين

الجزء الثاني

في مدينة مصر وثقافتها في الدولة القديمة والعهد الهنوبي



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٢

مقدمة الجزء الثانى

بسم الله والحمد لله وبعد فأقدم الجزء الثانى فى « مصر القديمة » وهو يبحث فى مدينة الدولة المصرية القديمة حتى الأسرة العاشرة وما يتصل بها من نظمها الاجتماعية والسياسية والثقافية وهو يعد كسابقه يلم بجميع أطراف الموضوعات التى تعرض لها ، وكثيراً ما كانت الرغبة فى الاستيفاء والأجادة داعية إلى أن يتخطى فى بحوثه عصور الدولة القديمة وأن يستنجد بما عداها فى تدعيم نظرية أو توضيح رأى أو تقرير بحث . ولقد كانت مهمتى أن أفتح الطريق وأزال صعابه وأنبه إلى مخاطره ومزالقه . وعلى زملائى وتلامذتى أن يكملوا ما بدأت ويحققوا ما حاولت وأرجو أن يصلوا إلى خدمة الوطن والتاريخ من أقوم طريق والسلام ؟

سليم مسن

الحكومة فى عهد الدولة القديمة

(١) المملكة الطينية واداراتها

(٣٤٠٠ . ٢٩٨٠ ق م)

كانت الحكومة فى العهد الطينى حكومة ملكية مطلقة قوامها ملك مؤله ،
ولذلك يجب البدء بالملك عند درس المدينة المصرية فى هذا العهد .
والذى نعرفه أن الملك فى هذا العصر كان يمثل الإله الأعظم للقطر ،
أى الإله « حور » وهذا هو السبب فى أن أول إسم ملكى هو الحورى .
وكان يكتب فى داخل رسم قصر يعلوه صورة إله الصقر « حور » : ولما
تم اتحاد القطرين كانت هذه الحادثة تخلد ذكرها برمز دينى ؛ فكان يوضع
الملك تحت حماية إلهتين كانتا تقدسان فى عاصمتى البلاد القديمتين . وهما
إلهة النسر التى كانت فى الكاب « نخت » وإلهة السل فى « بتو »
« وازيت » وبذلك أصبح له اسم آخر وهو « نبتى » كما سبق ذكره .

لقاب الملك

وكذلك عندما نذكر اتحاد شطرى القطر القديمين نعيد إلى ذاكرتنا
احتفال تتويج الملك . وهذا الاحتفال كان يمثل فى ثلاثة مناظر : (١) ظهور
ملك الوجه القبلى ، وملك الوجه البحرى . (٢) ثم اتحاد الملكة الثانية . (٣)
والطواف حول الجدار . وكانت هذه الاحتفالات تقام فى مصر طوال
كل عصور التاريخ المصرى .

الاحتفال بتتويج
الملك

أما الاحتفال بهذه المراسم فكان كما يأتى : أولا كان يلبس الملك
التاج الأبيض لمصر العليا ثم يصعد إلى رصيف وضع عليه تاج . وكان
هذا المنظر يطلق عليه (طلعة ملك الوجه القبلى) . ثم يلبس الملك التاج
الأحمر للوجه البحرى ويصعد كذلك على الرصيف وهو لابس التاج الأحمر

وكان يطلق على هذا المنظر (طلعة ملك الوجه البحرى) واحتفال إتحاد المملكة
الثنائية يتكون من دق وتد فى الأرض ، وحوله يزرع نبات رمز الوجه القبلى
ونبات رمز الوجه البحرى (البردى والبشنين) أما احتفال الطواف حول
الجدار فتفسيره غامض بعض الشيء ، ولكن يظن أن من أهم الأمور التى
قام بها ملوك طيبة هو إقامة جدار بالقرب من المكان الذى أسست عليه
منف ، حماية للجنوب من هجمات أهل الدلتا ، ويقال إن الملك
عند ما كان يلف حول هذا الجدار ، يحجى ذكرى الظروف التى
بعثت على إقامته ، أى انتصار الجنوب على الشمال واتحاد البلاد .
ومنذ ذلك العهد كانت المملكة المصرية تجدد جزأ عظيما من قوتها فى
تذكر الماضى وما كانت عليه البلاد من التقاليد .

الطواف حول الجدار
رمز لاتحاد البلاد

ومن المحتمل جدا أن يكون الاحتفال بعيد « سد » من التقاليد القديمة ؛
لأنه يظن أن السلطة الملكية كانت لا تعطى فى الأصل للفرعون إلا لمدة
ثلاثين عاما ، يخلع عند نهايتها أو يقتل . ولذلك يعتقد أن العيد
« سد » لم يكن إلا عادة وحشية بقيت لنا من تراث الأزمان القديمة
ولكنها أخذت صبغة أكثر إنسانية مما كانت عليه من قبل . فبدلا من
عزل الفرعون كان يظهر (بعد مضى الثلاثين سنة) كأنه ملك جديد للوجه
القبلى والوجه البحرى وبهذا التجديد المصطنع كانت تنبعث فيه قوة جديدة ،
بها يمكنه أن يبدأ عهدا جديدا . وهذا الاحتفال الذى كان فى الأصل
يحدث كل ثلاثين عاما يظهر أنه كان يقام منذ العصر الطينى فى زمن أقل
ولكن الاسم بقى كما كان قديما .

الاحتفال بعيد « سد »
وسببه

ولما كان الملك له صبغة إلهية فإن الأعياد التى كانت تقام تعظيما

للآلهة أصبحت لها أهمية عظيمة جدا . فكانت سننها تعتبر تاريخا ثابتا يؤرخ به ، كما يمكن مشاهدة ذلك على حجر « بلرم » . وأهم هذه الأعياد في بلاد يدعى الملك فيها أنه متفص الإله « حور » هو العيد الذى كان يقام تعظيما لهذا الإله ، وكان يحتفل به كل عامين . وكذلك كان يحتفل في فترات غير منظمة بعيد الولادة للإله « سكر » إله سقارة والإله « مين » رب قفط « وأنوبيس » و« سد » (يحتمل أنه لقب للإله « وبوات ») وهو يمثل على أية حال كهذا الإله الأخير في شكل ابن آوى مرفوعا على حامل . والإلهة « سشات » إلهة الكتابة ؛ وأخيرا يذكر لنا حجر بلرم عدة مرات عيدا يدعى « زت » . وقد اختفى في العهد الطينى ولا نعرف عنه شيئا .

وقد كانت المعابد تقام لهذه الآلهة المختلفة ، وعند بنائها ووضع أساسها كانت تعقد الاحتفالات ، وقد حفظت لنا واجهة باب عثر عليها في هيراكنبوليس منظرا لاإحدى هذه الاحتفالات ولكنه لسوء الحظ وجد متأكلا ناقصا والمنظر ينقسم قسمين : ففي الجهة الشمالية يرى الملك قابضا بيده على عصا عظيمة وعلى صولجان ، وهو واقف أمام اثني عشر رجلا من عطاء القوم ولكنهم رسموا بصورة مصفرة عنه . وهذه الشخصيات موزعة على ثلاثة صفوف في الرسم ومن المحتمل أنهم يمثلون الشعب أو رجال البلاط . وفي الجهة اليمنى تشاهد الإلهة « سشات » والملك وجها لوجه وهما يدقان بمطرقة وتدا في الأرض . وهذا المنظر أصبح متبعا في تأسيس المعابد إلى عهد البطالمة .

كيفية وضع أساس
المعبد

وكان الفرعون يعيش هو وأسرته ورجال حاشيته في القصر الفرعونى وقد مثلت واجهة هذا القصر بكل عناية ودقة على لوحة الملك زت « ثعبان » ،

ويمكن الإنسان أن يأخذ فكرة عن هذا المبنى رغم أنه رسم رسماً تخطيطياً والواقع أنه كان يتألف في الأصل من باين عظيمين وهما يذكران بالملكة المصرية الثنائية القديمة ويحيط بهما أعمدة مرتفعة من الخشب . وكانت العادة المتبعة أن يقيم كل ملك لشخصه قصراً جديداً والظاهر أن ابتداء إقامة هذا المسكن الجديد كان في السنة الرابعة من حكم الفرعون . وكان الملك يأمر بإقامة قصر جديد في السنة الرابعة بعد عيد « سد » وتلك نتيجة منطقية وذلك لأن العيد « سد » كان فاتحة حكم جديد .

الملك يقيم لنفسه
قصر في بداية حكمه

وكان الملك يحكم البلاد بموظفين مختلفي الدرجات وهذا كل ما يمكننا أن نجزم به في العهد الطيني عن الإدارة . وليست لدينا معلومات عن هؤلاء الموظفين إلا ما وجد على الأختام التي كانوا ينقشون عليها أسماءهم وألقابهم واسم الملك الذي عاشوا في عهده . ولحسن الحظ وجد معظم هذه الألقاب فيما بعد مضبوطاً . وإذا اعتمدنا على هذه المعلومات التي حققناها فيما بعد عن هؤلاء الموظفين فإنه من الممكن بواسطتها أن نميز بين الإدارة الرئيسية والإدارة الإقليمية ؛ ولكن الواقع أننا لا نعرف لقب الموظف الذي كان يشرف على الإدارة الرئيسية العامة . ويظن بعض المؤرخين أن وظيفة الوزير كانت قائمة في العهد الطيني ؛ ويعتمدون في ذلك على الكتابة التي وجدت على لوحة « نعرمر » إذ يشاهد عليها شخصية صغيرة تتبع الفرعون مرتدية جلد فهد وهذه الكتابة تقرأ « تيت » وهي لفظة معناها وزير ولكن هذه مجرد نظرية لا يمكن الاعتماد عليها بصفة قاطعة ، فإن أول وزير عرف لقبه بالتحقيق على الآثار هو « كا نفر » الذي عاش في بداية الأسرة الرابعة في عهد الملك سنفرؤ .

أهمية الأختام في
العهد الطيني

الوزير في العهد
الطيني ؟

وإذا فرضنا أنه لم يكن في هذا العصر الذى نحن بصدده وزير، فإنه من المحتمل جدا أن يكون الملك نفسه على رأس الإدارة الرئيسية ولا نزاع فى أن جعل موظف كبير صلة بين مصالح الإدارة العامة المختلفة وبين الفرعون لا يمكن إلا أن تكون نتيجة وجود حكومة راقية تستدعى أعمالها المتشعبة وجود هؤلاء الموظفين الذين يقومون بجميع مراقبتها .

ويجب علينا أن نعرف أن الملك كان يشرف على كل مختلف المصالح، أى على الوزارة والإدارة العامة الرئيسية . وكان يعاونه حاملا الخاتم وهما حامل خاتم الإله (أى ملك الوجه القبلى) وحامل خاتم الوجه البحرى وكانا يشرفان على الخزينة الثنائية (مصر السفلى ومصر العليا) ومن ذلك نلاحظ أن الإدارة المزدوجة كانت لا تزال قائمة من حيث المبدأ وإن لم تكن فى الواقع ، ونجد هذا النظام قائما فى الألقاب الفخرية للشخصيتين العظيمتين نائب الملك فى نحن (هيراكليوبوليس) ونائب الملك فى ب (بوتو) على أن وجود الموظف نفسه حاملا هذين اللقبين برهان على أن هذه الحكومة الثنائية فى المملكة الطينية لم تتعد العرف والتقليد فحسب . وكان يتبع الإدارة الرئيسية مكاتب السجلات الملكية ، التى كان لا بد من وجودها لإيداع الوثائق وحفظها وإلا لما بقيت لدينا سجلات تاريخية مثل حجر بلم الغنى بالمعلومات عن الأزمان السحيقة وهى التى دونت فيما بعد فى عهد الأسرة الخامسة . أما اللوحات التى من العاج والتى يحتمل أن تكون بطاقات أو أوائى فإنها تدل على أن الملوك كانوا متعودين على أن يدونوا بالكتابة سنة فسنة الحوادث الهامة فى عهد حكم كل منهم .

والآن نتكلم عن الإدارة فى الأقاليم أو المقاطعات فى هذا العصر

وظيفة حامل الخاتم

حفظ السجلات

وإن كانت لا تزال معلوماتنا عنها ناقصة على أن تقسيم البلاد إلى مقاطعات في هذا العهد أمر مؤكد بل ويرجع إلى أقدم عهود التاريخ وإلى عهد ما قبل التاريخ . ففي بلاد مثل مصر حيث تكون الزراعة أهم ثروة للبلاد وحيث الحياة نفسها تتوقف على فيضان النيل ، فإنه من المستحيل ألا يتقدم نظام طرق الري تقدما سريعا نحو الكمال . ومن أجل ذلك يرجح أنه في هذه الفترة التي بدأ فيها العصر التاريخي في البلاد قد انتشرت فيها الترعة العدة التي كان يعتنى بصيانتها . ولا بد أنه كان في كل مقاطعة موظف مكلف بالتفتيش على هذه الترعة وتعهدها بصيانتها والعمل على رقيها . ومن المحتمل أن يكون هذا هو الأصل في وجود وظيفة حاكم المقاطعة وقد اشتق اسمه من نوع عمله الهام فنجد العصر الطيني ظهر أمامنا لقب « عز مر » ومعناه حرفيا (المشرف على حفر الترعة) وهذا اللقب كان أهم ألقاب حاكم المقاطعة في بداية الدولة القديمة . والظاهر أن لقب « عز مر » الذي نشاهده على آثار العهد الطيني كان يطلق على حاكم المقاطعة ، وكان عمله ينحصر في الحصول من الأرض بالطرق المتبعة على كل ما يمكن الحصول عليه ليزيد من الثروة العامة وبخاصة الخزنة الملكية . وكذلك كان يقع على كاهل حاكم المقاطعة الإحصاء وقد شوهدت هذه العملية لأول مرة في عهد الفرعون « عز لب » ومنذ بداية الأسرة الثانية قد اتبعت هذه العملية بانتظام في كل عامين مرة ، بل وقد استعملت لعد سنى حكم الفرعون فيقال السنة س إحصاء أو السنة بعدس إحصاء .

تقدم نظام الري

مهام حاكم المقاطعة

يضاف إلى ذلك أن ارتفاع النيل كان يدون سنويا وبسبب هذه العناية كان من السهل أن يعرف الإنسان مقدما على وجه التقريب ما

ستكون عليه ثروة البلاد حتى تتخذ الاحتياطات إذا حدث انخفاض في النيل تجنباً لحدوث قحط أو مجاعة . وكان في عاصمة كل مقاطعة مجلس يدعى « زازات » موكل إليه الأمور القضائية وذلك مما يوحى بوجود قانون مدنى لم يصل إلينا منه أى شىء بكل أسف .

أما نظام الجيش فى هذا العهد فإنه سر غامض . وأنه يكاد يكون من الصعب أن يعرف الإنسان إذا كان فى البلاد جيش قائم أو أن الجنود كانت تجند وقت الحاجة فحسب . وكل ما يمكن أن نؤكد أنه لقب قائد كان موجوداً منذ نهاية الأسرة الأولى وستنكلم عن الجيش بالتفصيل فى خلال الدولة القديمة .

(٢) الحكومة فى العهد المنفى (٢٩٨٠-٢٤٧٥ ق . م .)

كان نظام الحكومة المنفية نظاماً ملكياً ثابت الأركان . فقد كان الملك هو القوة الرئيسية فى البلاد وكان القوم يعدونه إلهاً أكثر منه إنساناً ، ولذلك كان يطلق عليه اسم (الإله الطيب) وكان قصره يدعى (البيت العظيم) « برعا » وقد اشتق منها فيما بعد كلمة فرعون التى استعملت فى اللغات السامية ؛ وقد تكلمنا عن ألقابه فيما سبق .

وإنه لمن الأمور الصعبة جداً أن نعرف كيف كان الفرعون يدير شئون البلاد . حقا إن النقوش المصرية فى العهد المنفى كثيرة جداً غير أنها غامضة إذ يتألف معظمها من الألقاب والعلاقات التى يتمتع بها حامل هذه الألقاب عند الملك فنقرأ فى النقوش قول الموظفين : « إنهم قاموا بواجبهم حسب رغبة الملك ولهذا كوفئوا » . غير أنهم لم يعنوا قط بذكر عملهم ، ولذلك ليس

لدينا طريقة أو سند تتوكل عليه في إعطاء فكرة عن إدارة البلاد في هذا العهد إلا « الألقاب » التي قرؤها على جدران المقابر غير مشفوعة بتفسير ما . والظاهر أنه كان في يد الملك السلطة التنفيذية والسلطة القضائية في عهد الأسرة الثالثة ، ولكن كان يساعده في القيام بهما موظفون كثيرون ، ليسوا أشرفا ، والظاهر أنه لم يكن بين المصريين في عهد الأسرة الثالثة (خلافا للفرعون) من يمكنه أن يتصرف في أى سلطة سياسية بحق الوراثة ، وقد كانت الوظائف التي يمنحها الملك لموظفيه هي مصدر السلطة الوحيد . غير أنه لا يفوتنا أن نذكر هنا أن الملك رغم ما لديه من قوة ، لم يكن يعين في هذه الوظائف بمحض رغبته ، بل كان خاضعا لنظام قائم ليس هناك من يستطيع التحويل فيه .

تحديد سلطة الملك

وكان الموظفون الذين ينتخبون من بين المتعلمين يعينون بمرسوم . وكان الواحد منهم يتدعى بوظيفة كاتب ، ثم يتقلب في عدة وظائف إدارية حددها القانون ، ثم بعد ذلك يعين الواحد منهم بمرسوم آخر ليقوم بعمل إداري هام يرمز له بحمل العصا . ويطلق عليه (نائب الملك) أولا في القرية ثم في المدينة . وقد كان الموظف الذي يتقلب في هاتين المرحلتين الإدارية والتنفيذية له الحق فيما بعد أن يشغل أعظم مناصب الحكومة ، فيكون إما حاكما لمنطقة ، أو مديرا لإحدى مصالح الحكومة الرئيسية أو أمينا للملك الخ . والواقع أن كثرة الألقاب التي كان يحملها الموظف الواحد قد أخذت تزداد تدريجا حتى أننا أصبحنا لعدم وجود تفسير لكل في حيرة في ترتيبها حسب أهميتها وتقسيمها حسب نوعها إذ نجد أحيانا الموظف الواحد يحمل معظم ألقاب الدولة الضخمة وقد كان عدد ألقاب الواحد منهم تصل

نظام التوظيف

إلى أكثر من أربعين^(١). ولكن رغم ذلك يمكننا أن نقسم هذه الألقاب إلى مجاميع منفصلة أهمها ما يأتي :

أولا : ألقاب الشرف وهي ألقاب حقيقية بطل استمالتها فيما بعد . من ذلك نرى أن إقامة شعائر الملك الدينية قد جعلت بين الملك وكنهه علاقة وطيدة مما جعل لهم مقاما عاليا . وكذلك نشاهد أن أهم الشخصيات المكلفة بأقامة هذه الشعائر قد أغدق عليهم الملك أعظم الألقاب الفخرية في الدولة . فكان يطلق مثلاً لقب : رئيس المرتلين ، والكاتب الإلهي ، ورئيس كل الوظائف الإلهية ، على أولاد الملوك . ومنذ عهد الأسرة الثالثة كان كنهه الملك يمنحون اللقب الفخري «رخ نيسوت» أى قريب الملك أو «المعروف لدى الملك» وفى عهد الأسرة الرابعة كان المرتلون الأول يلقب كل منهم «إرى بت» أى أمير وقد كان هذا اللقب لا يطلق فى عهد الأسرة الثالثة إلا على الكاهن الأكبر للإله رع فحسب ، الذى كان يعد أكبر شخصية فى الدولة بعد الفرعون . ولكن الملك عندما أصبح يطلق عليه لقب الإله العظيم (أى أن رع تقمص فيه) ، منح بسبب ذلك مرتله الأعظم الذى كان ينتخب من بين أولاد الملك ، لقب «إرى بت» ، الذى لم يكن يتمتع به إلى هذا العهد أحد غير كاهن «رع» الأعظم .

وكذلك نشاهد أن الإله «تحت» إله العلم قد أخذ مكانة عالية حتى أن وظيفة إقامة شعائره قد منحت الوزير الذى كان دائما من أولاد الملك ، وقلده لقب «إرى بت» أيضا .

(١) من المحتمل جدا أن الموظف كان يذكر كل الوظائف التى تقلب فيها مضافا إليها الألقاب الفخرية ولذلك يكثر عدد ألقابه كما سنشاهد ذلك فيما بعد .

وأخيرا نرى أن كاتب الملك الإلهي الخاص « شش نتر » قد أصبح كذلك مساويا للكهنة الأعظم للإله رع وللإله تحوت والملك ؛ لذلك لقب « إرى بت » (أمير) . ومن ذلك يتضح أن لقب « إرى بت » قد فقد صبغته القديمة وأصبح لقباً فخرياً . وكذلك في كثير من الألقاب كالسمير الوحيد ولقب « حاقى عا » (أمير) ، ولقب « قريب الملك » وغيرها فقد كانت كلها قاصرة على أفراد معينين ثم أصبحت فيما بعد تمنح لألقاب فخرية لجم غفير من كبار رجال الدولة .

ثانياً : ألقاب خاصة بالملك وقصره من أهمها : مدير القصر ، وحارس التاج ، وحاكم القصر ، ومدير مالية القصر ، ومنذ الأسرة الخامسة كان يطلق على القصر لفظة « خنو » (أى الداخل) ويظهر أن هذا الاسم كان خاصاً ببيت الملك الخاص وهو الذى كان يربى فيه مع أولاد الملك أولاد أمراء بعض المقاطعات ، وكانت له مالية خاصة وموظفون معينون . وكان للملك حامل نعل ، ومرجل شعر ، وطبيب خاص وغسّال ومنظف أظافر « منكير » إلخ .

ثالثاً : ألقاب كهنوتية . كان القصر الملكي ، والهرم ومعبد الشمس ،

موظفو القصر الملكي

هى الأماكن الرئيسية المقدسة التى كانت تقام فيها الشعائر الدينية بكل عظمة وخفامة . فكانت تقام فى القصر للملك الحاكم ، وفى الهرم للملك المتوفى ، وفى معبد الشمس للإله « رع » الذى كان يعتبر والد كل الفراعنة على أن توحيد الملك مع إله الشمس جعله مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالشعائر التى كانت تقام للتاسوع فى معبد عين شمس المشهور الذى يطلق عليه اسم « برسنوت » .

ولما كان الملك هو الوارث لفراغة الوجهين القبلى والبحرى فقد استمر

حلافا لما ذكرنا يقدس في الهيكلين العظيمين التاريخيين وهما معبد «نخب»
(الكاب) ويسمى «برور» (المعبد العظيم)، ومعبد «بوتو» ويسمى «برنسر»
(معبد النار). وقد كان الفراعنة يفردونها بعناية خاصة ويهبونها الهدايا
العدة والقربان الكثيرة.

تقديس الملك في
معبدى «نخب»
و «بوتو»

ثم أصبحت إقامة شعائر الفرعون أهم الشعائر ، ولم تكن يحتفل بها فقط
في الهياكل الملكية ، بل في كل معابد آلهة البلاد حيث كانت تقام فيها
مذابح وموائد قربان للإله رع والآلهة ختخور والملك ، يشيدها ملوك
الأسرة الخامسة .

وقد كان من الضروري لإقامة هذه الشعائر خدم كثيرون وعلى رأس
هؤلاء كان يشرف عدد من أعظم كبار الدولة . وأقدمهم كهنة معبدى
«نخب» و «بوتو» . وقد كان معبد «نخب» تحت إشراف رئيس كهنة «نخب» .
ولم نجد في عهد الأسرة الخامسة ذكر كهنة أرواح «نخن» الكوم الأحمر الحالية ،
ولا كهنة أرواح «بوتو» وهم الذين كانوا يحتفلون بإقامة الشعائر الجنائزية للملك الشمال
والجنوب مع أننا وجدنا ذكرهم في عهد الأسرة السادسة ، ولكن ربما يعثر في
المستقبل على آثار تدل على وجودهم في الأسرة الخامسة أيضا .

أما الرئيس الأعظم لكهنة الملك فكان له مقام عظيم ربما كان
أعظم من كهنة «نخب» و «بوتو» ، وقد كان مثلهم رئيس «إقامة الشعائر»
ويحمل لقب أمير ، أو لقب الذى فى القلب (أى قلب الملك) وفى عهد
الأسرة الرابعة نلاحظ أن لقبى رئيس كهنة نخب ، ورئيس المرتلين ، لا
يلقب بهما إلا أولاد الملك ، أما فى الأسرة الخامسة فلم نجدهما ، وسبب
ذلك أنه قبل هذا العهد كانت شعائر الملك الدينية لها صبغتان ، صبغة

إلهية وصفة جنازية، وهذا من غير شك هو السبب الذى جعل كهنة الملك ينتخبون من بين أولاده ؛ لأن اتسايهم إليه جعل من الطبعى أن يكونوا كهنته الجنازيين كما هو الحال فى أفراد الشعب ، وعلى العكس فى عهد الأسرة الخامسة لم تعد إقامة شعائر الملك أسرية ، بل أصبحت عامة ورسمية . وذلك أن القوم كانوا يعتقدون أن روح الإله « رع » تقتصر الملك فهو إذن إله حى ، ولهذا أصبح كباقي الآلهة يجب أن يعبده الشعب ويقيم شعائره . يضاف إلى ذلك أن أمراء البيت المالك لم يصبحوا المحكرين لوظيفة (المرتلين) وغيرها من الوظائف الدينية التى كانت وقفا عليهم فى الكهنوت الملكى . إذ أخذ يشغل هذه الوظائف عظماء رجال الدولة كالوزير وغيره .

تأليه الملك

وفى عهد الأسرة الخامسة ظهر بجانب الكهنة المرتلين « خرحب » طائفة أخرى من الكهنة تسمى « حنك نيسوت » وهم الذين كانوا يقومون بالقران الملك وليس من بينهم من أولاد الملك من يحمل هذا اللقب ، ولا بد أنهم كانوا أقل من المرتلين .

لقب « خرحب »

والظاهر أن ظهور الكهنة « حنك نيسوت » ، يدل على علاقة وثيقة بين إقامة شعائر الإله « فتاح » وإقامة شعائر الملك ، وذلك أننا نجد كبار كهنة الإلهين « فتاح » و « سكر » يحملون لقب « حنك نيسوت » (١) وعلى ذلك كانوا يساهمون بصفتهم هذه فى إقامة شعائر الملك وقد كان هذا الصنف من الكهنة يؤلف طائفة خاصة على رأسها كبير كهنة « حنكو

طائفة كهنة

« حنك نيسوت »

(1) Excavations at Giza vol II p. 7.

حيث نجد شرحا وافيا لهذا اللقب الكهنوتى

نيسوت» . وهؤلاء الكهنة كانوا ينتخبون جميعهم من بين الشخصيات العظيمة وبخاصة من كبار رجال القصر الملكي ١٠

« الكهنة المطهرون » (١). نجد في الواقع هذا الصنف من الكهنة في كل

المعابد ، وعلمهم أنهم كانوا يحتفلون يوميا بإقامة الشعائر ، ويؤلفون فرعا مميزا من رجال الدين لهم إدارة خاصة منفصلة تسمى « وعبتى » (بيت التطهير المزدوج) الذى يلحق به هؤلاء الكهنة وعلى رأسهم مدير بيت التطهير المزدوج ؛ وقد كان فى خلال الأسرة الخامسة ينتخب من بين الوزراء . وهذه الإدارة كانت تمثل الوجهين القبلى والبحرى ، وكان لها فروع يسمى كل منها « بيت » ، تحت إدارة مديرين يسمى كل منهم « إمرا وعبت » . وكان كل فرع مكلفا بضمان إقامة الشعائر فى هيكل بالقرب من هرم ، أو فى معابد الشمس الكبيرة الملكية ، وفيه موظفون مؤلفون من كتاب . وكان الكهنة المطهرون ورؤسائهم ينتخبون من بين رجال القصر وعظماء رجال الدين فى الأسرة الرابعة ؛ أما فى الأسرة الخامسة فكان ينتخب بعضهم من بين كبار الموظفين .

وأخيرا نجد نوعا من كهنة يسمى « حم كا » أى خدام الروح المادية وهم الذين كانوا يحتفلون بإقامة الشعائر الملكية فى القصر وفى معابد الأهرام ، وفى معابد الشمس ، وفى الهياكل العظيمة وكذلك فى المعابد المحلية حيث يوجد للملك مذبح .
وكما سبق يتضح أن الكهنة بوجه عام لم يكونوا طائفة قائمة بذاتها بل كانوا يعينون بطرق مختلفة من بين كبار رجال الدولة ولذلك نجد الألقاب الكهنوتية مختلطة بالألقاب الأخرى الحكومية .

كهنة الروح المادية
ووظيفتهم

الكهنة ليسوا
طبقة معينة

(٣) الألقاب الادارية الرئيسية ، والقاب الادارة الاقطاعية

لقد كان أمم مظاهر التجديد في الحكومة المصرية في عهد الأسرة
الرابعة هو إنشاء وظيفة « وزير » . وقد كان يشغلها دائما أحد أولاد الملك
الذى كان في الوقت نفسه كاهنا للإله « تحوت » وهو مع الإلهة
« معات » إلهة المدل والإلهة « سشات » إلهة الإدارة ، الآلهة الرسميين الذين
كان في يدهم السلطة الحكومية . وقد كان أهمهم « تحوت » إله القانون ، فكان
الوزير كاهنه ، وفي الوقت نفسه رئيس الحكومة . والوزراء المعروفون في
عهد الأسرة الرابعة هم « كافر » و « نفرعات » وهما ابن « سنفر » وحفيده
على التوالي . ثم « حميون » بن « نفرعات » ثم « نى كا ورع » بن « خفرع » ، الخ .
وقد ظن البعض أن إمحوتب مهندس الفرعون « زوسر » كان يحمل
لقب وزير ، ولكن يجب هنا أن نفرق بين اللقب والوظيفة ، فمن المحتمل جدا
أن « إمحوتب » كان يقوم بأعمال الوزير ومهامه ، ومع ذلك فإننا لا نعرف
أن هذا اللقب قد منح له إلا من وثائق متأخرة ولذا يعد من الخطأ أن
نعتبره أول وزير مصرى ، بل على ما نعرف حسب ما جاء على الآثار هو
« كافر » ثم « نفرعات » الخ والواقع أن الوزير كان الرئيس الأعلى للإدارة
المصرية ، وكان لا بد له أن يدرس كل الأعمال الهامة في البلاد
يساعده في عمله رئيس البعوث ، وهو الذى كان يحمل أوامره ويضع أمامه
كل التقارير الخاصة بمصالح المقاطعات ، وكذلك كان يشرف الوزير على
السجلات الملكية التى كانت تحفظ فيها الأوراق الهامة كالمراسيم الملكية
والعقود والوصايا .

الحكومة في أصل
نظامها إلهية

« إمحوتب » لم يكن
وزيرا لذلك
« زوسر »

ومن أعمال الوزير أنه كان رئيس القضاة ، ولذلك كان هو الرئيس لمحكمة
الستة العليا كما سنشرح ذلك فيما بعد . ولما كان الوزير بحكم
وظيفته يقوم بالأمور القضائية ، فإنه كان يحب أن ينسب إلى الإلهين الحامين
للعادلة ، فكان يلقب أحيانا أعظم الخمسة القائمين على بيت « تحوت » إله القانون ،
وكذلك كان يدعى كاهن إلهة العدل « معات » ، وذلك منذ ختام الأسرة
الخامسة وأخيرا كان في يد الوزير إدارة مصلحتين من أهم مصالح الدولة
وهما الخزانة ، ووزارة الزراعة اللتان سنتكلم عنها فيما بعد . ويجب
هنا أن نلاحظ أن من بين ألقاب الوزير الرسمية الكثيرة ، عددا عظيما
لا يعتبر وظائف حقيقية يقوم بها ، ولكنها في الواقع ألقاب شرف تدل
على سلطانه العظيم في طول البلاد وعرضها . فمنها أنه كان يلقب
بمدير كل أعمال الملك ، ورئيس بيت الأسلحة ورئيس حجر زينة
الملك الخ .

ومن أهم الوظائف في الدولة القديمة وظائف حاملي أختام الإله (أى
ملك الوجه القبلى) وحاملي أختام ملك الوجه البحرى . وهذه الألقاب
وجدت منذ عهد أواسط الأسرة الأولى و بقيت طوال الدولة القديمة ؛ ولكن
اللقب الثانى يظهر أنه أصبح لقب شرف أما الأول فكان له شأن عظيم .
والواقع أن هؤلاء الموظفين كانوا قبل كل شئ رؤساء بعثات . إذ كانوا
ينظمون ويديرون البعثات فى المناجم والرحلات التجارية فى الخارج ولهذا
السبب كان لديهم غالبا جنود مسلحون أو أسطول تحت إدارتهم وكانوا
يحملون أحيانا لقب قائد الجيش أو أمير الأسطول يضاف إلى ذلك أنهم
ربما كانوا يديرون الأوقاف الملكية .

أعمال الوزير

حاملو الاختام
وعملهم

(٤) طائفة الكتبة

وعلى أية حال فإن الإدارة في العصر المنفي كانت مشتقة من إدارة العصر الطينى مع فارق هو حدوث تقدم محسوس في عهد ملوك منف وذلك أمر طبعى تتطلبه سنة الرق ، وبخاصة إذا علمنا أن مصر في عهد الدولة القديمة أصبحت من أعظم ممالك الشرق تقدماً ولذلك فإن نظام الإدارة البسيط الذى كان متبعاً في عهد ملوك الأسرتين الأولىين أصبح غير متكافئ مع مملكة قوية متحدة مثل المملكة المنفية . وربما كان هذا هو السبب في إنشاء وظيفة وزير . وزيادة عدد الموظفين ، فقد ذكرنا أنه كان بجانب مدير أهمية وظيفة الكاتب المصالح وكلاء وكتبه كثيرون . وكانت وظيفة الكاتب في كل عصور تاريخ مصر وظيفة مرغوباً فيها ، ولذلك كانت المدرسة عندهم تسمى « بيت الحياة » وهذا الاسم الجميل كاف في الدلالة على أهمية وظيفة الكاتب . والواقع أن الكتاب كانوا مخورين بمعلوماتهم وبخاصة أنهم كانوا يحكم عملهم واقفين على كل القرارات الهامة جداً في مصالح الحكومة العظيمة . والظاهر أن أهمية الكتاب ومقامهم في إدارة حركة مصالح الحكومة حبتهم بألقاب خاصة ترفع من مكانتهم وتعظم من شأنهم . ولذلك نرى أن بعض الألقاب كانت تبتدىء بلقب رئيس الأسرار « حرى سشتا » وهذا اللقب يدل بطبيعة الحال على أن حامله عالم بالأسرار التي يرأسها ، ولكن مما يؤسف له أن اللقب في بعض الأحيان لم تحدد وظيفته أو السر الذى هو مشترك في كنه . وقد وصلت إلينا من الدولة القديمة قائمة عظيمة بألقاب موظفين يبتدىء كل منها « رئيس أسرار » وسنعطى هنا بعض الأمثلة :

المدرسة تسمى
بيت الحياة

رئيس أسرار كل أوامر الملك ، رئيس أسرار كل القرارات القضائية (محكمة الستة العليا) ورئيس أسرار كل الأشياء التي يراها إنسان ، ورئيس أسرار الأشياء التي يسمعها رجل واحد ، ورئيس أسرار الملك في كل مكان ورئيس أسرار الكلام المقدس ، ورئيس أسرار محكمة العدل . وسنرى أن هذه الألقاب كانت لها معان خاصة في وظائف الدولة ولا يبعد أن يكون هذا اللقب (رئيس الأسرار) في الأصل نعتا يوصف به الكتبة ثم بعد ذلك عمم وأصبح يستعمل لتأليف عدة ألقاب تتميز بها ألقاب الشرف ومقدار علاقة كل لقب بالملك أو كبار رجال البلاط والدولة كما سنوضح ذلك كله في حينه .

إدارة مصالح الحكومة وتسييرها

(١) بيت الملك « برنيسوت »

وعلى الرغم من ارتباط هذه الألقاب والوظائف وإشتباك بعضها ببعض فإن الدرس الدقيق أثبت أنه كان للحكومة نظام قائم غاية في الدقة وحسن التنسيق منذ أقدم العهود . وقد كان الفضل الأول في إبراز هذا النظام الدقيق من بين آلاف الألقاب والوظائف التي ورثناها عن الدولة القديمة يرجع إلى الأستاذ « بيرن » القانوني البلجيكي وإلى بعض علماء الآثار المصرية ونخص بالذكر منهم الأستاذ جردنر والأستاذ زيته والمرحوم الأستاذ برستد . والواقع أنه كان يوجد في عاصمة البلاد مقر رئيسى لإدارة حكومة البلاد

يسمى « بيت الملك » وهو غير القصر الملكى . « برعا » ويشمل أربع إدارات على جانب عظيم من الأهمية . وكان لكل إدارة منها فرع فى مختلف مقاطعات القطر وكان يطلق على كل منها لفظة بيت وهى :

أولاً : بيت التحريرات الملكية « برع » أو إدارة القيودات ، وهى مكلفة بتوثيق الروابط بين الإدارات الحكومية وضمان توصيل حركة نقل الأوامر ، وكان على رأسها الوزير . وقد كان هناك موظفون يحمل الواحد منهم لقب « مدير كتاب التحريرات الملكية » كالوزير نفسه ، مما يدل على أن الوزير كان رئيس شرف فحسب . وكان مديرها ينتخب من بين أعضاء مجلس العشرة العظم .

ثانياً : بيت المكاتب أو إدارة المحفوظات . وتودع فيه العقود المسجلة

والمكلفات فى سجلات الزمامات . وكان مديرها يحمل لقب مدير كتاب السجلات (أمراش ع) . ولا شك فى أن الوزير كان مديرها كما كان مديرا للمحفوظات . والظاهر أن وظيفة بيت المحفوظات الأصلية هى نسخ كل العقود التى تحررها إدارة العقود المختومة ؛ وكذلك ضمان حفظ كل الأوراق التى تحدد حالة كل شخص وحقوقه ، وصقار كل مواطن مصرى .

ثالثاً : بيت العقود المختومة . (برخرخم) . وينقسم إلى إدارتين

أحدهما للوجه القبلى والثانية للوجه البحرى ويديرها مدير إدارتى العقود المختومة وينتخب من بين أعضاء مجلس العشرة العظم فى عهد الأسرة الخامسة . وهذا البيت يقابل عندنا إدارة السجلات ووظيفته تسليم العقود ونقل التكليف ، والسندات ، والوصايا ، وإعطائها صبغة رسمية وجعلها تأخذ صورة شرط ملكى ، وذلك بطبع خاتم الحكومة عليها ، وكذلك كانت تحافظ على نسخها فى دفاتر السجلات الخاصة بالزمامات ، هذا إلى أنها كانت

مكلفة بتسليم العقود والأوامر التي كان يجب نسخها وتسجيلها في الدفاتر إلى أصحابها.
رابعا : بيت رئيس الضرائب أو التوزيع (١) « بر حرى وزب » وهو
يكون مصلحة قائمة بذاتها من أهم مصالح الحكومة وأهم عمل لها جباية
الضرائب وسنتكلم عنها فيما يلي :

مصلحة التوزيع أو الضرائب (١) « بر حرى وزب »

وهذه المصلحة كانت تعد من أعظم مصالح الحكومة في عهد الدولة
القديمة وكانت مقسمة في عهد الأسرة الخامسة إلى إدارتين ، تحت سلطان
موظف كبير يلقب مدير إدارتي التوزيع أو الضرائب . ومدير وهذه المصلحة
كانوا دائما من أعضاء المجلس التشريعي الملكي ، ومن أعضاء مجلس العشرة
العظيم . والمراسيم التي تصدر بتقرير مقدار الضرائب والقواعد التي يعمل
بها يصدرها موظف كبير إلى « رئيس الضرائب » ليقوم بتنفيذها . وهذا
الموظف الكبير ينتخب دائما من مجلس العشرة العظيم .

والواقع أن مصلحة التوزيع أو الضرائب تشمل إدارتين منفصلتين ، مهمة
إحدهما جباية الأموال المستحقة على أهل المدن « رخيت » والثانية لجمع ما يستحق
على الفلاح « مريت » . وقد كان هذا النظام قائما في عهد الأسرة الخامسة مما يدل
على أن سكان مصر كانوا ينقسمون إلى نوعين مميزين هما مديون وفلاحون .
والواقع أن الضرائب المصرية كانت لها صبغة مزدوجة ، فمن جهة كانت

(١) وقد فسر الاستاذ جردر الأثرى الانجليزي العظيم لقب « حرى وزب » بأنه يدل على القائم بأعمال
القرابين الملكية وتوزيعها . والظاهر أن هذا اللقب له علاقة وثيقة بالزراعة لانه عثر على نقوش
للعظيم « حتى » ويحمل لقب مدير كتاب الضياع ومدير كتاب بيت رئيس التوزيع (وزب) ولا
يمد أن يكون هنا بيت التوزيع هو ما يخزن فيه من دخل الضرائب

تفرض على كل شخص نوعا من الضرائب يشبه جزية الروس ، وهي بعض أعمال سخرة يقوم بها الشخص ، كان يعفى منها الكهنة ومن يماثلهم في عهد الأسرة الخامسة ، ومن جهة أخرى كانت هناك ضرائب تفرض على دخل التركة ، والجزية على حسب قيمة العقار .

أما مركز الممولين ، ومقدار ما يدفعونه فتقرره السلطات المحلية وهم مجلس السراة وذلك بمقتضى أمر . وهذا الأمر يجب أن يكون وفقا للقانون من كل الوجوه ، حتى يكون نافذ المفعول ؛ وهذا الأمر يعرض على حاكم الجنوب . الذى يعطيه صبغة رسمية لينفذ ، بعد أن يتحقق من قانونيته ؛ وذلك بوضع خاتمه عليه . على أن الأمر لا ينتهى عند هذا الحد ، إذ بعد ذلك يسلم حاكم الجنوب هذا الأمر إلى « بيت الملك » حيث يسجله مدير العقود المختومة حسب نوعه فى سجلات المحفوظات . وبيت الملك يحدد لكل ممول مقدار العقار الذى يدفع عليه الضرائب . متخذاً أساساً له فى ذلك دفاتر الحكومة ودفاتر الزمامات ، وذلك ليكون على تمام الأهبة إذا اقتضى الحال أى تحقيق مباشر .

كيفية وضع
الضرائب

وبعد ذلك يوضع أمر لكل ممول ، ويسلم إليه بقلم الضرائب . أما تحصيل الجزية والضرائب وأعمال السخرة فتقوم بها إدارة الضرائب التى تنقسم قسمين . الأولى إدارة التحصيل وهى التى تجمع الضرائب بالمعادن الثمينة ، او المحاصيل الطبيعية .

أنواع الضرائب

والثانية : مكان السخرة وهو المكلف بتنفيذ أعمال السخرة . وقد كان الوزير والحكام مكلفين بوضع الشرطة ، وإذا اقتضت الأحوال ، الجيش تحت تصرف الإدارة ليضمن تطبيق الأوامر ؛ ولضمان تحصيل الضرائب بنظام .

مصلحة الحقول (الضياع)

لقد عثرنا على اسم هذه المصلحة على أختام الأسرة الثانية^(١).

وكذلك فى عهد الأسرة الثالثة وجدنا لقب « مدير الحقول » . وفى عهد الأسرة الرابعة نجد أن مصلحة الحقول كان يديرها موظف يسمى مدير كتاب الحقول . وفى عهد الأسرة الخامسة قسمت هذه المصلحة كباقي مصالح الحكومة قسمين ، وكان مديرها يلقب « بمدير كتاب الحقول فى اليتنين (الإدارتين) ، وكان مدير هذه المصلحة عضوا فى مجلس العشرة العظيم . وكان تحت إدارته عدد من كبار الموظفين منهم : مدير وضياع الوجه القبلى والوجه البحرى ومدير وبيت زراع الوجهين القبلى والبحرى . ومصلحة الحقول تحتوى حينئذ على إدارتين عظيمتين ، إدارة الحقول وإدارة المستخدمين . وقد كانت كل ضيعة تحت إدارة بيت زراعة « بر سكا » المقسم إلى أربع إدارات : (١) بيت المحراث « بر شنو » وهو مكلف بإدارة الأراضى الزراعية (٢) بيت الراعى ومن اختصاصه المراعى (٣) بيت حيوانات الإنتاج (٤) بيت حيوانات التربية .

وكانت كل ضيعة مهما اتسعت مساحتها (وفى الغالب تكون صغيرة الحجم) توضع تحت إدارة مدير خاص . فمثلا نجد أن « بيبى الثانى » قد منح بمرسوم لمعبد « مين » فى قفط عقارا يبلغ نحو ثلاثة أرورا ؛ وقد أنشأ لإدارته « بيت زراعة » خاصا تحت إدارة مدير كهنة « مين » . ومما يسترعى النظر ، أن الحكومة أحيانا كانت تقسم جزءا من أراضيها إلى مساحات صغيرة مستقلة لتستثمرها

تقسيم مصلحة
الحقول

(1) Petrie, Scar. pl. VI. No 151

المزارع الصغيرة

مباشرة ، ومن ذلك يتضح أنها كانت تستعمل نظام المزارع الصغيرة المساحة ، التي تستوجب مصاريف كثيرة ولكنها عظيمة الإنتاج ، وذلك ما يشعر بإدارة فنية مرنة . وعلى حافة الصحراء كانت توجد مساحات من الأرض لا يغمرها الفيضان إلا نادراً ؛ وهذه الأراضي كانت تسمى «ختوشى» وكان يديرها ويرعى مصالحها موظف يسمى ختوشى أيضاً ، يظهر أنه كانت له أهمية في عهد الدولة القديمة . ويجب هنا أن نلاحظ وجود هذه الأراضي أحياناً في وسط منطقة الأهرام الملكية ، ولذلك كانت تعفى من كل أنواع الضرائب . وهذه الأراضي (ختوشى) (١) كانت تستعمل مراعى أو حدائق للبقول والخضر وكان لا يزرع فيها إلا محاصيل قصيرة الأجل . وهذه المحاصيل كانت تحتاج إلى عناية مستمرة من جهة الرى . والواقع أنه كان لا بد من وجود مصلحة خاصة بأمر الرى غير أننا لم نعثر على ألقاب تدل على وجود هذه المصلحة اللهم إلا لقب « رئيس بيت الماء » الذى كان يحمله « رع ور » الذى عاش فى أوائل حكم الأسرة الخامسة (٢) وكذلك كان يحمله القزم « سنب » فى عهد الملك « ددف رع » من الأسرة الرابعة (٣) . يضاف إلى ذلك أن « كام نفرت » التى كان مديراً للقصر الملكى فى أواسط الأسرة الخامسة ويحمل لقب رئيس تصريف المأكولات فى بيت الحياة كان كذلك يحمل لقب مدير الترع .

مصلحة الرى

(٣) مصلحة المالية

كانت الخزانة تتألف فى بداية الأمر من البيت الأبيض (خزانة الوجه القبلى) ومن البيت الأحمر (خزانة الوجه البحرى) ولكنها اتحدت بسرعة

(1) Dykmans. Histoire Economique et Sociale de L'Ancienne Egypte, II, p. 108 - 112.

(2) Excavations at Giza Vol I P. 2

(3) Excavations at Giza Vol. II P. 105

تقسيم مصلحة المالية
قديما قسبين

وأصبحت واحدة وكان الاسم الذي أطلق عليها حينئذ البيت الأبيض المزدوج؛ ومن ذلك نرى أن هذا الاسم حفظ لنا في ثناياه تقسيم الفطر قديما قسبين، وأظهر لنا بصورة واضحة تغلب الوجه القبلى على الوجه البحرى ، وذلك لأن اسم الخزانة القديم للوجه القبلى تغلب وأصبح مستعملا لتكوين الأسم الجديد لهذه المصلحة. ومنذ الأسرة الخامسة كانت الخزانة كباقي مصالح الحكومة مقسمة قسبين. وكان المدير العام للمالية يحمل منذ ذلك العهد لقب « مدير البيت الأبيض المزدوج » ، وكان تحت إدارة الوزير مباشرة . وقد كان لهذه المصلحة فروع محلية يسمى كل منها « البيت الأبيض » يديره مدير؛ وكان بعض الوزراء يحمل هذا اللقب مع لقب « مدير البيت الأبيض المزدوج » للدولة؛ عامة وربما يرجع السبب في ذلك ، إلى أن اللقب الأول كان يحمله الوزير عند ما كان موظفا صغيرا وبقى عالقا به . كما حدث في بعض الحالات (١).

وكان البيت الأبيض المزدوج هو المصلحة الرئيسية لإدارة المالية ويجب أن نعتبرها المصلحة المكلفة بحفظ المعادن الثمينة ، وكل المواد غير القابلة للعطب التى كانت تجبى بصفة ضرائب . وكذلك يظهر أنها كانت مركز خزانة المالية والمحاسبة . والواقع أن البيت الأبيض المزدوج كان مكلفا بدفع المرتبات التى كانت تدفعها الحكومة للموظفين « والمقربين » من الملك الذين كانوا يتمتعون بإقطاعات منظمة أو بإيراد هذه الإقطاعات . والواقع أن وصية « ثنتى » تعلن صراحة أن قرابين والدتى « بى » « المعروفة لدى الملك » وهى التى تحتوى على حبوب من « الشونة ، وملابس من البيت الأبيض ،

(١) Mariette. Mastaba . D. 70, PP 370 & 229

قد استخرجها الكاهن الدائم « كام نفرت » هناك لأجل والدتي ولأجلي^(١).
بيت الذهب « برنوب » . وفي عهد الأسرة الخامسة قد أكل نظام
الخزينة وذلك بإنشاء (بيت الذهب) حيث كان يخزن احتياطي الذهب
الحكومي . ويلاحظ أن في عهد الأسرة الرابعة كان هناك موظفون عظماء
في القصر الملكي يشغلون وظيفة بيت الذهب ومن ذلك يتضح أن « بيت
الذهب » كان يؤلف جزءاً من مصلحة خاصة بالقصر . ولكن من جهة
أخرى نلاحظ أنه في عهد الأسرة الخامسة كان مدير البيت الأبيض المزدوج
في الوقت نفسه « مديراً لبيت الذهب » ، ومن ذلك يمكننا أن نستنتج أن
« بيت الذهب المزدوج » كان ضمن مصالح المالية الرئيسية . ولا نزاع في
أن البيت الأبيض (المالية) كان له مصلحة كما كان للقصر مصلحة ؛ والظاهر
أن الذهب كانت تزداد أهميته في عهد الأسرتين الرابعة والخامسة في تكوين
مالية الحكومة . ولا يبعد أن يكون وجود هذه المصلحة دليلاً على ازدياد
مقدار الذهب الذي كان يدفع للحكومة بصفة ضرائب ، أو أن هذا الذهب
كانت الحكومة تجمعها إما باستثمار المناجم أو من الجزية التي كانت تدفعها
البلاد المشمولة بحماية مصر . وقد كان من جراء ذلك ازدياد شراء
البلاد المنقول ، وذلك ما يبرهن على رخاء البلاد المطرد في عهد الأسرة
الرابعة ، وأكبر دليل تجلي فيه هذا المظهر المباني الفخمة التي أقيمت في عهد
الأسرتين الرابعة والخامسة ، ونمو المدن ، وبخاصة في مصر الوسطى .
وهذا الاحتياطي من الذهب على أي حال كان على ما يظهر من
أزمن ما يكون للبلاد لتحقيق الأعمال الضخمة التي كانت قائمة في هذا

أهمية الذهب في
المالية المصرية

(1) Moret, Une nouvelle disp. test, Ac. Insc. 1914 p. 538

العهد ، وهى التى كانت تحتاج إلى موارد عظيمة ، وكان لا يمكن أن يدفع أجرها بالمواد الطبيعية فحسب ؛ يضاف إلى ذلك أن مصر فى هذا العهد كان لها أسطول عظيم مصنوع من خشب الأرز الذى كان يجلب من جيل (بيلوص) منذ الأسرة الثالثة بكميات وافرة فمن المحتمل جداً أن الذهب كان يستعمل لدفع ثمنه ؛ وعلى أية حال فإن الذهب كانت له مكانة عظيمة فى الحياة الاجتماعية فى عهد الأسرة الخامسة . إذ نشاهد فى نقوش معبد الملك « سحورع » أنه كان يوزع أشياء من الذهب على موظفيه ، ولا بد من أن نرى فى منح المكافآت بهذه الطريقة نوعاً جديداً من صرف المرتبات ؛ وبخاصة أنه كان يطلق عليها لقب « توزيع الذهب » . وإذا كانت نقوش القبر الملكى تمثل الذهب وهو يوزع ، فإن هذا التوزيع كان يجرى من غير شك بطريقة منظمة قبل ذلك العهد .

توزيع الذهب
على الموظفين

ادارة (الشونة) المزدوجة

وقد كان للحكومة كذلك إدارة (شون) مزدوجة مثل إدارة بيت الذهب والبيت الأبيض . وكانت خاصة بخزن مواد الجزية التى كانت تقدم من المحصولات الطبيعية ، ومن المحتمل أنها كانت كذلك لخزن محاصيل أملاك الحكومة . وقد كانت وظيفة (الشونة) على الأخص تخزين الحبوب التى كانت تلعب دوراً هاماً فى حياة مصر الاقتصادية . وذلك أن الحبوب كان أساس الغذاء فى مصر ، يضاف إلى ذلك أنه كان يؤلف جزءاً من مرتبات الموظفين وأجور العمال التى كانت تدفع حبوباً أو خبزاً فى

دفع الاجور عينا

عهد الدولة القديمة كما تشير إلى ذلك نقوش الموظف « متن » . ومن ذلك يلاحظ أن (الشون) كانت تحتل مكانة عظيمة في إدارة مالية البلاد . وقد كانت مصلحة (الشون) مزدوجة منذ عهد الأسرة الخامسة يديرها مدير مصلحة (الشونة) المزدوجة . وقد كانت الرئاسة العليا كما هو الحال في الخزينة وبيت الذهب ، في يد الوزير . وكذلك نجد بين مديري (الشونة) المزدوجة أعضاء من مجلس العشرة العظيم ، وحكام الجنوب . أما (شون) غلال الإدارة الحرية فكانت مستقلة . وقد كانت هناك (شون) أخرى لتموين القصر يديرها مديرو التشريفات الملكية وليس لها علاقة بالخزينة العامة .

وإدارة (الشون) تملك (شونا) عدة مقامة في مختلف المقاطعات ، كل واحدة منها تحت إدارة مدير خاص ، يساعده عدد عظيم من الكتبة والعمال ، والمتمنين كما يلاحظ ذلك من نقوش « متن » (١)

إدارة التموين

وتشمل إدارة (الشون) على إدارة خاصة «إست زفا» تسمى إدارة التموين وهي تضمن المحافظة على المحاصيل القابلة للعطب التابعة للمالية العامة . وقد أصبحت مزدوجة في عهد الأسرة الخامسة ويديرها مدير إدارة التموين المزدوجة . وقد كان لهذه الإدارة فروع تدير المخازن المحلية يطلق على رئيس كل منها « مدير محل التموين » أما القصر فكان له كذلك إدارة

(1) Sethe Urkunden I, P. 1 etc.

للتموين خاصة تابعة للقصر الملكي مباشرة .
على أن (الشون) ومخازن التموين لم تكن مقسمة إلى إدارات محلية
فحسب بل كان يعين وظيفة كل منها إذ نجد منذ الأسر الأولى مخازن
الشعير ومخازن القمح ، وموظفين مكلفين بالمحافظة على البلح ، والعسل
والخضر . وفي مرسوم « بيبي الأول » يذكر لنا إدارة الخبز .

الجمارك والتجارة الخارجية

تدل شواهد الأحوال على أن المحصولات التي كانت تجلب إلى مصر
كان يفرض عليها ضرائب أو على الأقل كانت تحت مراقبة شديدة .
إذ نلاحظ منذ الأسر الأولى أن حامل الخاتم كان مديراً للقوافل ، وكان
على ما يظن مكلفاً بإدارة مرور القوافل التجارية ، فقد كان أهل الواحات
بصفة خاصة يحملون محصولاتهم بالقوافل إلى وادي النيل ^(١) .

ولما كانت الضرائب تجبى على مقدار الدخل ، فمن المحتمل أن
التجارة كان يفرض عليها جزية . وبخاصة إذا علمنا أن التجارة تلب في مصر
دورا هاما أكثر مما يمكننا أن نعرفه من النقوش الجنازية ، فقد كان الملاك
الاغنياء يصدرون الحبوب ، وكان في الدلتا عدة مدن تعد مراكز هامة
للتجارة ، واقعة عند ملتقى الطرق التي كانت تجارة الغلال تمر فيها وتربطها
بالبلاد الأجنبية ، ولا أدل على ذلك من متن الملك « خيتي » أحد
فراعنة الأسرة التاسعة ، إذ يذكر لنا صراحة ثراء بعض المدن فيقول : أن

أهمية التجارة في
دخل البلاد

(1) Jéquier, Le Nil et la Civil. Eg. p. 261....

« أتريب » (بها الحالية) يرجع ثراؤها إلى تجارتها في الغلال مع البلاد الأجنبية . ومع ذلك فإن البلاد في هذا العهد كانت في غاية الانحطاط^(١) وقد كانت الأساطيل المصرية تبحر إلى بيلوص (جيل) في هذا العهد وكذلك كان يجلب إلى مصر الزيت من جزيرة كريت . على أن أهمية الملاحة كانت مؤكدة في البلاد ، وذلك باستمرار بناء السفن منذ الأسر الأولى .

وإذا صدقنا الأستاذ « بترى » فإن كل الصادر والوارد من التجارة كان مراقبا ، ففي البر كان يراقبه سكرتاريون يدونون الوارد إلى موانئ الشمال وموانئ الجنوب^(٢) . وكان في الموانئ كتاب على جوانب السفن ، مكلفون بتسجيل كل ما يدخل وما يخرج ، غير أن رواية « بترى » هذه مشكوك فيها . ورغم ذلك فإنه يظهر أن بعض بعثات بحرية كانت تنظمها الحكومة ، مثل قافلة السفن العظيمة التي ذهبت إلى بلاد بنت ، وقد حفظت لنا النقوش ذكرها . فقد كان « يبي نخت » مدير القوافل في عهد « يبي الثاني » يلقب رئيس حسابات سفن بيلوص (جيل) التي تذهب حتى بلاد بنت . وهذا المتن يدل صراحة على أن البعثات البحرية كانت تحت مراقبة الدولة المالية . وهناك نقش آخر على جانب عظيم من الأهمية وهو « لخنوم حنب » الذي قد مثل في قبر سيده « خوى » ويقول : أنه أنا الذي ظهرت مع أسيادى ، الأمراء وحاملى الختم المقدس ، « تيتى وخوى » في بيلوص^(٣) و « بنت » إحدى عشرة مرة ، وقد عدت بهم في سلام وهذا القبر يوجد في أسوان . وتشير النقوش فيه بلا نزاع إلى أمراء الفنتين الذين كانوا مديري القوافل ، وكان الفرعون يعتمد عليهم

البعث التجارية
إلى آسيا

1. J. Eg. Arc ; 1914. P 22-35.

2. Petrie. Scarabs Index. VI. Dyn. No. 1755.

3. Montet, Byblos p. 270.

في عهد الأسرة السادسة للمحافظة على سلطانه في البلاد التابعة له في الجنوب ، أمراء الفنتين وأهميتهم ولاجل أن ينظموا البعوث إلى البلاد الأجنبية . وهذه المعلومات رغم في التجارة الخارجية ضآلتها ترسل بعض الضوء على العلاقات الأجنبية وبخاصة التجارة التي ربما كانت تحت إشراف مالية البلاد .

حسابات الخزينة . ولم تكن الإدارة المالية محصورة في خزن المحاصيل بل كان لها دفاتر حسابات منظمة تنظيما دقيقا . فلدينا صفحة من دفتر حسابات منذ الأسرة الخامسة ^(١) ويحتوي على بيان ضرائب من أنواع مختلفة من الخبز ، والملح (النخ) يسلمها معبد ، وجرايات تعطى إلى موظفين مختلفين ، ولا شك أن مثل هذه العمليات كانت تعمل في مخازن الحكومة وشونها . وهذه الحسابات كانت قائمة على نظام معقول تماما . فنجد الجزء الأول منها كان خاصا بالتحصيل . وقد وضع ذلك في أعمدة عمودية ومجموعة في عمودين أفقيين ، واحد منهما يدل على مجموع المال الذي يجب أن يجبي والثاني على الخراج الذي أخذ وقد دون الحساب بالمداد الأسود ، في كل ما يختص بتفاصيل الدفع أما المجاميع فقد دونت بالمداد الأحمر . وهناك جزء آخر يدل على المنصرف ، ونجد فيه أسماء المتنفعين وأهمية الجرايات التي تعطى . ويجوز أن الصحيفة بقيت لنا من دفتر حسابات إدارة ضياع أو من مصلحة المالية نفسها . ولا شك في أنها قد سهلت علينا فهم مقدار الدقة في مسك الدفاتر في عهد الدولة القديمة ومنها نفهم أن كل فرد كان مفروضا عليه ضريبة معينة يدفعها للحكومة .

(١) Borchardt, Ein Rechnungsbuch. des Königlicher Hofes aus dem alten Reiches, Ebers Festschrift Leipzig 1897,

مصلحة الاشغال العمومية

أن ما نشاهده من المباني الضخمة وقرؤه عن الأعمال العظيمة التي كانت تنفذ في عهد الدولة القديمة ، يشعر بوجود مصلحة خاصة للقيام بهذه الأعمال . والواقع أنه كانت توجد مصلحة للأشغال ، لها مكانة ممتازة بين مصالح الحكومة المصرية منذ بداية التاريخ في مصر ، بل هناك ما يدل على أنها كانت قائمة منذ عصر ما قبل الأسرات ، ولا أدل على ذلك من السور العظيم الذي أقيم في نخن^(١) (الكوم الأحمر) . وفي عهد الأسر الأولى نشاهد القلاع التي كانت تحيط بمصر والأسوار التي أقامها « زوسر » ، بين أسوان والفيلة ، لحماية الحدود^(٢) الجنوبية ، والأسوار التي كانت تسد خليج السويس لتقف غزوات البدو الوافدين من الشرق ؛ وكذلك إقامة المعابد والقصور والبوابات العظيمة ، هذا إلى بناء أسطول عظيم يحتوى على عدة سفن يبلغ طول الواحدة منها نحو ٥٠ متراً ، مما يحتاج إلى إدارة منظمة ودراية بفنون المباني وتنفيذ المشروعات العظيمة .

ومنذ الأسرة الرابعة أخذت أهمية الأشغال العامة تحتل مكانة أعظم مما كانت عليه من قبل ، إذ في عهدها أقيمت الأهرام الضخمة وتوابعها من معابد ومدن كما أسلفنا الكلام عنه . وكذلك اتسعت مساحة العاصمة بسرعة اتساعاً عظيماً يدل على مقداره مساحة جباتها المترامية الأطراف (هذه الجبانة تمتد من أهرام الجيزة إلى دهب وما بعدها) .

(١) J. Eg. Arch. 1921, P. 54 etc...

(٢) Baillet. Régime Pharaonique P. 241 et 242

مصلحة الأشغال
لست مزدوجة

وفي عهد الأسرة الخامسة بدأ الملوك ينشئون معابد عظيمة للشمس
« رع » ، كل ذلك كان يستلزم غوا مطردا في مصلحة الأشغال العمومية .
ومن المدهش أن نظام الإدارة في عهد الأسرة الخامسة لم يجعل هذه
المصلحة مزدوجة كباقي مصالح الحكومة ، أى مصلحة أشغال الوجه القبلى
ومصلحة أشغال الوجه البحرى ، بل جعلها مصلحة واحدة تحت إشراف
الوزير الذى كان يحمل من بين ألقابه العدة لقب (مدير كل الأشغال
الملكية) « إمرأ كات نبت ن نيسوت » ، كما كان يحمل فى الوقت نفسه لقب
(مدير القيودات) « إمرأ سشع نيسوت » . ولكن الواقع أن مدير مصلحة
الأشغال الفعلى كان أحد أعضاء مجلس العشرة العظيم الذى كان بدوره
تحت مراقبة الوزير . غير أن عضو مجلس العشرة العظيم للجنوب الذى
كان يشغل وظيفة مدير مصلحة الأشغال لم يكن يدير إلا شئون مصلحة
الأشغال المدنية ، وذلك لأنه كما سنذكر فيما يلى كان للجيش مصلحة
للأشغال خاصة . وقد كان تحت إدارة مدير مصلحة الأشغال العمومية
مديرون آخرون يقومون بإدارة مصالح خاصة أو فروع للمصلحة الرئيسية؛
وكان كل منهم يلقب مدير مصلحة الأشغال الملكية « إمرأ كات ن نيسوت » .
وأهم هذه المصالح هى مصلحة المباني التى كانت متصلة تمام الاتصال
بالمباني الجنائزية للملك . ونشاهد فى الألقاب أن رئيس المماريين الملكيين
« مدح نيسوت » كان منذ الأسرة الثالثة ، من أهم شخصيات الحكومة
المصرية ، إذ كان يحمل الوزير هذا اللقب غالبا ، وكذلك كان يحمله
أولاد الملوك وأعضاء مجلس العشرة العظيم .
وعلى وجه عام كان مهندس المباني الملكى فى الوقت نفسه

يحمل لقب « مدير كل أشغال الملك » ، ولا غرابة في ذلك فإن وظيفته كانت في ترتيب المناصب الحكومية أعظم من منصب مدير كل أشغال الملك ، إذ كان يحمل قانونا لقب الشرف (السمير الوحيد) ، وهذا اللقب لم يكن يلقب به « مدير كل الأشغال الملكية » قانونا .

على أن هناك عددا من كبار الموظفين يحمل لقب مهندس معمارى « مدح » وأهمهم مهندس القصر المعمارى « مدح ن برعا » ومهندس السفن « مدح دبت » . والظاهر أن الأول كان تابعا لإدارة القصر ، والثاني لإدارة الجيش . ومنذ الأسرة الأولى كانت الحكومة المصرية ، ترسل البعوث لمناجم سينا ؛ وقد عثر هناك على نقوش يرجع تاريخها إلى عهد الملك « سمرخت » من الأسرة الأولى ، وإلى الملك « زوسر » من الأسرة الثالثة ، وإلى الملكين « سنفرو » ، « خوفو » من عهد الأسرة الرابعة ثم من عهد الملوك « سحورع » و « منكاو حور » و « زت كا إيسى » وكلهم من الأسرة الخامسة ومن عهد « بيبى الأول » و « بيبى الثانى » من الأسرة السادسة . وقد أرسلت حملات في عهد « بيبى الأول » إلى محاجر حمامات ، كان الغرض منها البحث عن الأحجار الكريمة والذهنج (حجر التوتيا الذى يستخرج منه النحاس) وأحجار البناء .

وهذه البعوث كانت تديرها مصلحة الأشغال العمومية ، ففي عهد الملك « بيبى » الأول قام مدير كل الأشغال الملكية بقيادة حملة إلى سينا ، لإحضار منتجات مختلفة لتستعمل في قربان الملك وإقامة شعائره ؛ وقد كان يصحبه موظفان عظيمان كل منهما يحمل لقب حامل الخاتم المقدس ، وكذلك مدير بعوث لمصلحة القرايين الإلهية (١)

(١) (Br. A. R. (I), p.p. 298, 299 et 301)

وقد ذكرنا فيما سبق أن حاملي الأختام المقدسة كانوا يصحبون تأليف أعضاء البعوث البعوث البحرية إلى جبيل (بيلوص) وإلى بلاد بنت لأحضر الحشب والمحاصيل الأخرى المختلفة^(١). وقد كان يصحب الحملة كتاب من إدارة القيودات « شش ع نيسوت » وقضاة ، هذا إلى تجريدة عسكرية هامة كانت تستعمل جنودها في قطع الأحجار وحراسة القافلة .

يضاف إلى ما سبق أنه كان من أعمال مصلحة الأشغال العامة ، استئجار المناجم والمحاجر ، فقد ذكرنا فيما سبق أن الملك « منكاورع » قد أهدى مقبرة إلى المقرب « دبحن » ؛ وقد أصدر جلالته الأوامر إلى مدير مصلحة الأشغال ليقطع الأحجار اللازمة لبناء هذه المقبرة من محاجر طرة . ولا بد أنه كان هناك عدد عظيم من العمال التابعين لهذه المصلحة . والواقع أن النقوش تدل على أن الجنود كانت تستعمل في قطع الأحجار ومعهم عمال ؛ ولكن لا نعلم بالضبط إذا كان هؤلاء العمال الذين يقومون بالأشغال العامة ؛ هم عمال قد استخدمتهم الحكومة لهذا الغرض أو من أسرى الحروب ولكن تدل الأحوال على أن الأسرى كانوا يستعملون في إقامة هذه المباني الضخمة وإلا ماذا كان يفعل الفرعون بهم . فقد ذكرت لنا الآثار أن « سنfro » أحضر معه من حملة واحدة أسرى يبلغ عددهم ٧٠٠٠^(٢) .

ومن الجائز كذلك أن مديري الأشغال العمومية كانوا يستعملون بعض العمال المصريين وبخاصة الذين كانوا يدفعون بدلا عن الضرائب أعمالا

(١) (Montet Byblos p. 270. Sethe Urk. (I) 134)

(٢) (Br. A. R. (I) n 146.)

أعمال السخرة يؤدونها سخرة للحكومة ، كما ذكرنا ذلك عند الكلام على مصلحة المالية .

حكومة المقاطعات

كانت مصر مقسمة إلى مقاطعات منذ فجر التاريخ كما ذكرنا ، وكان تقسيم البلاد بهذه الكيفية الأساس في إدارتها ، غير أن نظم الإدارة فيها كانت تتمشى بطبيعة الحال مع تطورات التقدم العمراني الذي يحدث في كل أمة ناشئة فنية تسير نحو الفلاح ؛ ولذلك نشاهد بعد انقضاء العهد الطيني حدوث تغير محسوس في نظام الحكم . وأول شيء يلفت النظر في المقاطعات هو ازدياد سلطان حاكم المقاطعة وذلك أمر طبعي ، إذ أعطى سلطة واسعة في عهد الفراعنة الضعفاء ، ولهذا بدأ يعمل على استقلاله من التاج . وهذه المحاولات كانت سهلة كلما كانت المقاطعة بعيدة عن العاصمة ، لأن طرق المواصلات لم تكن تسمح للسلطة الرئيسية بأن تقوم بتحقيقات مستفيضة . وقد كانت الطريقة الوحيدة عند الفرعون لتجنب استقلال حكام المقاطعات أن يعتبرهم حكاما قابلين للنقل عدة مرات في أثناء خدمتهم ، غير أن هذا الحق لم ينفذ فعلا . ومنذ ذلك العهد أصبح حاكم المقاطعة بمثابة موظف ثابت في مقاطعته ، ولذلك كان من الطبعي أن ينفصل شيئا فشيئا عن التاج . وأول ظاهرة لذلك أن أخذ حاكم المقاطعة يقطع صلته بالبلاط الملكي فأصبح لا يكون جزءاً منه ، وبعد أن كان يدفن في الجبانة الملكية بالقرب من العاصمة أصبح يقيم لنفسه مصطبة في مقاطعته ليدفن فيها وحوله رجال بلاطه . ولقد كان من نتائج هذا التغير أن أصبحت

كيف استقل حكام المقاطعات

وراثه حكم المقاطعة أمراً طبعياً . فأخذ حاكم كل مقاطعة يطالب العرش بأن يكون ابنه الأكبر هو الوارث لوظيفته بعد مماته . والظاهر أن الملك لم يمانع في ذلك بل سلم بسهولة . وهذا العطف أصبح فيما بعد عادة ، ثم بعد مدة أصبح حقاً ، وبهذه الكيفية تكونت الأسرات الإقطاعية العظيمة . ويلاحظ أن ما ذكرناه لا ينطبق إلا على الصعيد إذ لا نكاد نعرف شيئاً عن النظام في مقاطعات الدلتا . على أن الوثائق المنقوشة التي تركها لنا « متن » في قبره الذي يرجع عهده إلى بداية الأسرة الرابعة ، نفهم منها أنه لم يكن هناك في هذا العصر أى فرق بين الوجه القبلى والوجه البحرى ولكنه من الخطر أن نعتمد على وثيقة واحدة في تقرير نظام الحكم في الدلتا . وقد بقى حاكم المقاطعة يلقب « عزمر » (رئيس حفر الترع) كما كان الحال في العهد الطينى ، ولكن لم يلبث أن أضيف له لقبان جديدان هما حاكم المقاطعة أو حاكم القصر « حكا حت » ومرشد الأرض « سشم تا » . ومن منطوق هذين اللقبين يمكن الإنسان أن يلاحظ اتجاه حاكم المقاطعة نحو الاستقلال . ولأجل أن نفهم الفرق بين ما لحاكم المقاطعة المعين وبين حاكم المقاطعة الوراثى ، سنورد هنا ما لكل من السلطة في إدارة المقاطعة . كان حاكم المقاطعة في عهد الأسرة الرابعة يعد موظفاً ويلقب « ساب عزمر » ، وكان يعين بمرسوم ملكى وينتخب من بين « الكتّاب » الذين تقلبوا في مختلف الوظائف ، وكان ذلك لزاماً على كل كاتب يصل إلى مثل هذا المركز . ولم يكن حاكم المقاطعة ثابتاً في مقاطعة واحدة ، بل كان ينتقل في مختلف مقاطعات القطر حسب الأحوال . وبعد وقت ما كان يأمل هذا الحاكم في أن يرقى إلى إحدى وظائف الحكومة المركزية في العاصمة ،

حكم المقاطعات أصبح
وراثياً

القباب حاكم المقاطعة

مركز حاكم المقاطعة
المعين

وذلك بأن يعين مديرا لأحدى المصالح الحكومية الرئيسية ثم تتوق نفسه في ختام حياته الحكومية إلى أن يكون عضوا في مجلس محكمة الستة العليا أو مستشارا سرىا ، أو نائب الفرعون فى «نخن» أو وزيرا .

أما الأمير «حاتى عا» حاكم المقاطعة فإنه لم يكن موظفا بل كان من علية القوم وأشرفهم ، وكان يتسلم بالوراثة حكومة مقاطعة معلومة هبة له ؛ وعلى ذلك كان أمير المقاطعة يرثها حقا مكتسبا ، وكان من الضرورى أن يكون من كبار رجال الملك حتى يتسلم إرث والده . وكان لا بد من أن يوافق الفرعون على هذا التعيين بمرسوم . وهذا المرسوم لا يشمل أمر تعيين فحسب ، بل كذلك يتضمن إطلاق يده فى ربيع هذه المقاطعة . وكان يقام عند صدور هذا المرسوم احتفال ، (يدشن) فيه الحاكم الجديد فى حضرة أقرانه . ومنذ تلك اللحظة يصبح الحاكم الجديد مطلق التصرف فى كل أمور المقاطعة ويحكم كيف شاء .

سلطة حاكم المقاطعة
الوراثية

وكان أمير المقاطعة يقسم منطقة نفوذه بين أفراد أسرته كحكام قلاع أو نواب له على أن يكون الفرعون هو الذى يصدر أمر تعيينهم . وقد أصبحت هذه الوظيفة وراثية فى عهد الملك «دمزى باتوى» من أواخر ملوك الدولة القديمة .

وفى عهد الدولة القديمة كانت علاقة الملك بموظفيه فى بادىء الأمر علاقة فرد يودى واجبه وفى مقابل ذلك كان الموظف يأخذ ما يقتات به ويحفظ كيان حياته . أما الموظفون أصحاب الكفايات فكانوا يوضعون فى مناصب تليق بهم حسب أهمية كل منهم . وكان ذلك كل مكافأتهم . ولكن بعد زمن قليل أخذت محبة الملك لهم وعطفه عليهم

علاقة الفرعون
بموظفيه

يظهران بمظاهر أخرى ، وبخاصة في منحهم مكافآت جنازية . وذلك أن المصرى لما كان يعتقد أن الحياة في الآخرة مثل الحياة الدنيا مع الفارق في كون الثانية أبدية ، فإنه كان في كل الأزمنة يرغب في أن يكون له قبر عظيم جميل مجهز بكل الاثاث المائى ؛ وكان الفرعون في مثل هذه الأحوال يعطف على كبار موظفيه فيمنح الفرد منهم تابوتاً أو لوحة أو مائدة قربان . والواقع أنه كان من الصعب على موظف بسيط أن يقطع لنفسه من المحاجر النائية الكمية الكافية من الأحجار لبناء قبره ، وأن يتعهد نقلها من المحجر إلى الجبانة . فكان الملك يقوم بهذا العمل وقد كان ذلك أول عطف يظهره لخدمته . على أن الحصول على قبر جميل لم يكن كافياً بل كان من الضروري أن يضمن صاحب المقبرة استمرار الترحم على قبره ، وإقامة الاحتفالات الخاصة به مما حتم أن يكون للقبر دخل ثابت ، جزء منه يوقف بوثيقة للمحافظة على الشعائر الدينية اللازمة لصاحب المقبرة ، والجزء الآخر كان يقسم بين الكهنة الذين يقومون بالصلاة وإقامة الشعائر الدينية اللازمة . وقد كان الملك كذلك في هذه الناحية يعطى موظفيه « المقربين » أراضى كان القصد منها أن توقف للأغراض السابقة . وهذه المنح من الأرض كانت أحياناً عظيمة ؛ على أن الموظفين لم يكونوا هم الطائفة الوحيدة الذين كانوا يتمتعون بكرم الفرعون بل كان الكهنة كذلك يطلبون دخلاً عظيماً لمعابدهم . وكان من جراء ذلك أن الضياع الملكية أخذت في التقصان شيئاً فشيئاً وبخاصة إذا علمنا أن معظم الأراضى التى كانت تمنح للمعابد بمراسيم كانت تعفى من كل أنواع الضرائب . وهذا الانتقاص فى أملاك الفرعون كان بداية انحلال

منح الملك لموظفيه

لقب « المقرب »

سبب انحلال الدولة القديمة
السلطة الرئيسية من يد الملك . وإذا لم تظهر بوادر هذا الانحلال بشكل خطر في خلال الأسرة الخامسة فإن الحالة أصبحت تهدد بالخطر، وإذا أضفنا إلى ذلك استئلال حكام المقاطعات الذى كان فى ازدياد علمنا السبب الرئيسى الذى من أجله سقطت المملكة المنفية فى نهاية الأسرة السادسة .

السلطة القضائية

لا نزاع فى أن فكرة العدالة والحق كانت موجودة بين سكان القطر المصرى منذ أقدم العهود ، وقد كانت إلهة العدل تسمى المحاكم ، ويقوم بأداء شغلها القضاة ، فمن ذلك يتضح أن العدالة كانت تمثل على شكل إلهة تعبد ، يضاف إلى ذلك أن المصرى كان منذ القدم يخاف عقبي الآخرة ، ويجهده أن يعمل فى دنياه ما يشعر بأنه ينتظر يوما يعاقب فيه على كل سيئة اقترفها أو ذنب ارتكبه . وقد عثرنا على وثيقة من عصر الملك « منكاورع » لأحد كبار موظفيه ورجال الدين ، نرى منها أن هذه الشخصية وقفت موقفا تبرئ فيه نفسها مما لا بد كان يرتكبه غيرها من الآثام وأنواع الظلم فى هذا العصر . وهذا العظيم هو « رمنوكا » كبير كهنة الملك « منكاورع » وكبير كهنة هرمه (١) . فهو من رجال الدين ومن يخافون الله . وقد ترك لنا عتبة باب علوية نقش عليها ما يأتى : « إن الذى يحب الملك والإله أنويس الذى على قمة جبله ، لا يأتى بأذى لمحتويات هذا القبر ، من القوم الذين سيعمدون إلى القرب (مقر الآخرة) . أما من جهة هذا القبر الأبدى فأنى قد أقتته لأنى كنت « مقربا » لدى

العدالة تمثل على شكل
آلهة

(1) Sélim Hdssdn, Excavations at Giza vol II P. 173.

الناس والملك . ولم يحدث قط أنى اغتصبت أى شىء من أى إنسان لهذا القبر ، لأنى أذكر يوم الحساب فى الغرب (الآخرة) . وقد أقت هذا القبر مقابل أجور من الخبز والجمعة التى أعطيتها العمال الذين أقاموه . تأمل ! لا نزاع فى أنى أعطيتهم أجورا عظيمة من الكتان الذى كانوا يطلبونه ، وقد دعوا الله لى من أجل ذلك » . وليست هناك وثيقة تدل على مقدار خوف المصرى من عقاب الدنيا وعقاب الآخرة مثل هذه . فصاحبها يقرر بأنه لم يغتصب شيئا من أى إنسان خوفا من حساب الآخرة ، وفى الوقت نفسه يشعر الأحياء بالألا يتعدوا على قبره لأنه أقامه من ماله ودفع أجورا عالية للعمال الذين أقاموه .

أول وثيقة تشعر
بوجود الوازع
الخالق والدينى عند
المصرى

ولكن من سخرية القدر أننا وجدنا هذا الحجر الذى عليه هذا النقش قد اغتصب من مقبرة صاحبه ، واستعمل ثانية مع أحجار أخرى لأقامة قبر حقير بجوار قبر « رمنوكا » العظيم . وقد تكلمنا على اغتصاب القبور فى الجزء الأول بإسهاب (انظر صفحة ٣٤٦) .

على أنه ليست لدينا معلومات مدونة عن كيفية سير العدالة فى عهد الدولة القديمة ، وكل ما نعلمه عن سير القضاء فى مصر مشتق من الألقاب القضائية التى كان يحملها رجال الدولة ، أو مستخلص من الوصايا والعقود ، والسندات وشروط الأوقاف . ومما يؤسف له أنه لم يصلنا من الألقاب القضائية فى عهد الأسرة الرابعة إلا عدد محدود ، لم تتمكن من أن نستخلص منه الشىء الكثير .

مصادر النظام
القضائى

ففى عهد الأسرة الرابعة نلاحظ أن كل أمراء المقاطعات كانوا يحملون لقب « قاض » مضافا إلى وظيفة حاكم المقاطعة ، فكان الواحد منهم

يلقب « القاضى حاكم المقاطعة ». وقد كان ذلك سبب اختفاء لقب (حاكم القصر العظيم) « حكا حت عات » الذى كان يطلق على نائب الملك فى المقاطعة قبل ذلك العهد . والظاهر حينئذ أن السلطة التى كان يمثلها الأخير قد حل محلها لقب قاض فى اللقب الأول ؛ ومن المحتمل جدا أن « نائب القصر العظيم » كان يمثل السلطين القضائية والتنفيذية . وعلى ذلك يمكننا أن نستخلص أن « حاكم القصر العظيم » أو نائب الملك فى الأسرة الثالثة كان مثله كمثل حاكم القصر العظيم فى عهد الأسرة الخامسة يرأس محكمة المقاطعة ، وهذه النظرية لا غرابة فيها .

حاكم المقاطعة فى
يده السلطة القضائية

أما مدن الوجه البحرى التى كان لا يحكمها أمراء ، والتى كانت حكومات مستقلة تتألف كل منها من عشرة رؤساء ، فلها نظام قضاء خاص . ومهما يكن من أمر فإن إخضاع الملك « نمرمر (مينا ؟) » لهؤلاء الرؤساء وإدخال لقب (حاكم القصر العظيم) « حكا حت عات » فى نظام حكم الوجه البحرى (وقد كان يمثله نائب من قبل الملك) ، قد جعلهم تحت سلطة الملك التنفيذية والقضائية . وسنرى أن هذا الحاكم كان يعين رئيسا للمحاكم المحلية . وتدل النقوش أن « حاكم القصر العظيم » كان يحيط به موظفون من رجال السلك القضائى . فنجد من بين موظفى المقاطعة لقب (القاضى رئيس الشرطة) « ساب حرى سكر » والقاضى الجابى « ساب

نظام الحكم
فى الوجه البحرى

نخت خرو » . والواقع أن رئيس الشرطة كان رئيس قوة مسلحة ، وقد كان العظيم « متن^(١) » حارس إقليم ، وحاكم مقاطعة الحدود الغربية ، يطلق عليه لقب رئيس الشرطة أى أنه رئيس الجنود فى هذه الحكومة . وعلى

ذلك يكون (القاضى رئيس الشرطة) قاضيا له السلطة على قوة مسلحة وهذه القوة كانت فى خدمة العدالة ويتألف منها رجال الشرطة .

وبجانب حاكم المقاطعة كان يوجد « قاضى جباية » مكلف بالفصل فى المخاصمات التى تقوم بين جابى مخازن الغلال والممولين . وكما ذكرنا يهتم جدا أن محكمة المقاطعة كان يرأسها حاكم القصر العظيم (أى حاكم المقاطعة) . وكانت تتألف من أشرف يطلق على كل منهم لقب « سر » . وكانوا يجلسون فى المحكمة بصفهم قضاة . وقد جادت الصدف بوثيقة من أوائل الأسرة الرابعة . عرفنا من منطوقها اختصاصات هذه المحكمة وإجراءاتها^(١) .

وتتلخص هذه الوثيقة فى أن أحد رؤساء كهنة « نخب » (الكاب الحالية) وقف عينا على أغراض جنازية وجعل نظارتها إلى جماعة من الكهنة ، وقد نص فى صلب العقد على الشروط التى كانت واجبة على هؤلاء الكهنة بالنسبة لوقفه . فحدد أولا مدى الحقوق التى يجب أن تكون « للشخص المدنى » على العقار الذى سلمه إياه . ومن أجل ذلك اشترط الواقف أنه « فيما يختص بكل شئ قد تصرف فيه قبل عمل الهبة لهم (أى الكهنة) فإنه ستجرى محاكمة معهم فى المكان الذى يحاكم فيه الناس »

والمكان الذى يحاكم فيه الناس هو محكمة « السراة »^(٢) كما يقول المتن . يضاف إلى ذلك أن الواقف قد أبعد اختصاص « محكمة السراة » فيما

1. Acte de Fondation d'un dignitaire de la Cour de Khéren Rec. Tr. XIX PP. à 75-91

(٢) استعملت لفظة سراة جمع سرى للدلالة على أعضاء مجلس المحكمة . وذلك لقرب اللفظة المصرية من اللفظة العربية شكلا ومعنى.

يختص بالمنازعات التي يمكن أن تحدث بين أعضاء طائفة الكهنة أى بين الشركاء أنفسهم . ولذلك يقول المتن : « كل كاهن أبدى يرفع دعوى ضد زميل له ، فلا بد للمدعى من أن يقدم ما يدل على أنه كاهن من الموقوف عليهم ، وإذا حدث أن نصيبه قد قيس ووجد أنه لا يتفق مع شكواه ، نزع من يده ، الأرض ، والناس ، وكل شيء قد أعطيته له ليقدم لى قربانا هنا . (وذلك بوساطة طائفة الكهنة التى ينتمى إليها هنا) . وهذا يكون آخر إجراء له حتى لا نرفع دعوى أمام محكمة السراة فيما يتعلق بالأرض ، والناس ، وكل شيء قد خصصته للكهنة الأبديين ليقوموا لى يعمل القربان هنا فى القبر الأزلئ . » غير أن الواقع لا يمكنه أن يمنع خصما آخر من رفع دعوى ضد الكهنة أمام محكمة السراة ولكنه مع ذلك كان يراعى عدم إلحاق أى ضرر بأوقافه . فيقول : كل كاهن يحضر أمام « السراة » لسبب آخر (فلا بد له أن يعلمهم بأنه قد حضر لسبب آخر . على أن نصيبه يكون حسب الطائفة التى ينتمى إليها ، وأن تقدر الكهنة الأرض والناس ، وكل شيء أعطيتهم إياه العمل القربان لى هنا فى القبر الذى فى جبانة « خفرع ور » ، وكل يخصه بصفة دخل له .

ومن هذه الوثيقة نرى أن محكمة السراة كانت المحكمة المختصة للفصل فى المسائل الخاصة بالمقار .

أما الإجراءات التى كانت تتبع لرفع الدعوى فكانت تنحصر فى أن يقدم المدعى عريضة « ع » يشرح فيها طلبه . وإذا كان الموضوع خاصا بمقار فإن المحكمة ترجع فى حكمها إلى الأوراق الخاصة بهذا المقار المستخرجة من مصلحة الزمامات . والواقع أننا كنا نرى الواقع يضع

الإجراءات لرفع
الدعوى

أمام المحكمة قائمة بمقاره بطريقة واضحة تفصل بين أملاكه وأملاك الكهنة الذين يدخلون في مقاضاة مدنية . ومن ذلك يتضح أن الإجراءات القضائية تركز على أساس مكتوب يحتوى على وثائق لها أصل محفوظ في السجلات ، وقد كان من حق المتخاصمين أحيانا أن يتفاديا اختصاص محكمة السراة وذلك بعمل تحكيم إذا نص على ذلك في صلب عقد الوقف كما جاء في عقد وقف « رئيس كهنة نخب » السابق الذكر إذ يقول : أن كل الخاصات التي يمكن أن تحدث بين أعضاء الوقف تعرض على لجنة تحكيم من جماعة الكهنة الذين يمثلون هذا الوقف ؛ ويكون حكمها هو النهائى أى أنها تبعد في هذه الحالة عن اختصاص المحاكم العادية . ومن ذلك يتضح أن القانون المصرى يميز التحكيم ويعترف به بمثابة سلطة قضائية ، ولا نزاع في أن الاجراءات التي شرحناها في هذه الوثيقة كانت بطبيعة الحال تستدعى وجود مستخدمين وإدارة قضائية . ولا نذهب بعيدا فإن والد « متن » كان « موظفا قضائيا » ، وتقرأ كذلك في عهد الأسرة الرابعة في النقوش الألقاب الآتية : قاض كاتب « ساب سش » وقاض كاتب أول « ساب سحز سش » وقاض مدير الكتبة « ساب امرا سش » ولا نزاع في أن لقب كاتب ؛ وكاتب أول ومدير الكتّاب ، كلها تدل على درجات مختلفة يحملها موظفو الإدارة ، فنستخلص من ذلك أنه كان للعدالة مصلحة خاصة قائمة بذاتها بجانب المصالح الإدارية ويتميز موظفوها عن الأخيرة بلقب قاض قبل كل لقب إدارى كما ذكرنا.

السلطة القضائية في عهد الأسرة الرابعة .

تدل النقوش في عهد الأسرة الرابعة على أن لقب حاكم القصر العظيم « حكا حت عات » قد حل محله لقب إدارى آخر « مدير القصر الكبير » وسنرى عند درس الألقاب القضائية أن القصر الكبير « حت ورت »

هو المحكمة وإنه في عهد الأسرة الخامسة كانت المحكمة العليا للدولة تسمى محكمة الستة العليا « حت ورت سو » ، وهي التي حلت محل المحكمة الكبيرة ، التي كانت تعد المحكمة العليا للدولة في عهد الأسرة الرابعة ، ولم يكن الوزير رئيسها الأعلى في هذا العهد . ولكن من جهة أخرى كان في عهد الأسرة الخامسة يحمل لقب مدير محكمة الستة العليا « امرا حت ورت سو » والواقع أن الوزير رغم أنه لم يرأس أى جلسة ، فإنه كان القاضى الأعظم أى القاضى للباب الملكى . وهذا الباب يعلوه الصل (الثعبان) الذى يمثل به الوزير سلطته القضائية ، وهو فى الحقيقة تجسيد فى عهد الأسرة الرابعة ، ويمكن تفسير ذلك بكل سهولة وذلك أننا نعرف أن اسم المحكمة « حت ورت » مؤلف من كلمة « حت » التى فى الأصل معنى قصر السيد « حكا » . وقد كانت السلطان القضائية والتنفيذية مختلطتين ببعضهما ، قبل توحيد البلاد بين أيدي الأمراء المحليين . ولكن تجمع السلطة فى يد الملك تدريجاً جعلت محل هؤلاء الحكام ، موظفين من قبل الملك ، وبقيت فى يدهم السلطة القضائية ، غير أنهم كانوا يستعملونها بصفتهم ممثلين للملك . ومن ذلك يتضح ان السلطة القضائية انتقلت من يد الأمراء الحكام إلى يد الملك . فكان حينئذ أعظم القضاة هو الذى يجلس فى قصر الملك نفسه . وهذا القاضى هو الوزير كما يبرهن على ذلك الباب الذى يعلوه الصل الملكى الذى مثل فى لقبه ويسميه « قاضى باب الصل » أى القاضى الملكى بكل مدلول العبارة . وتدل الألقاب التى فى متناولنا أن كلا من الوزير والمحكمة العليا « حت ورت » كان مستقلا عن الآخر فى السلطة . فكان الوزير ينتخبه الملك ليكون ممثله المباشر وفى يده السلطة

سلطة الوزير القضائية

القضائية العليا التي كانت فوق كل المحاكم القضائية ، على أننا لا يمكننا أن نحدد اختصاصاته . ولا بد من أن نرى في هذا الإصلاح مظهراً لسياسة الملك الاستبدادية إذ الواقع إن في تعيين الملك للوزير قاضياً أعلى ، قد ألقى في يده إدارة القضاء في البلاد مباشرة .

قاضي المدنيين « مدوخت »

يدل الدرس الدقيق على أن هذا اللقب كان يطلق على الموظف الذي كان يقود هذه الطائفة من سكان القطر ، ويتكلم بلسانهم ، ويحكمهم . و« الرخيت » هم في الأصل سكان المدن في الوجه البحري ثم عمم فيما بعد وأصبح يطلق على سكان المدن في البلاد كلها في عهد الأسرة الخامسة كما سنشرحه .

وتدل الدراسات الدقيقة في تتبع ظهور هذا اللقب على حادث من أهم حوادث سياسة تجمع السلطة في أيدي الملوك . فنعلم أن الملك « نعرمر » قد أمر بقطع رقاب عشرة رجال من « متليس » ، غربي الدلتا (فوه ؟) . وكذلك منذ ذلك العهد قد عثرنا على أختام عرفنا منها أن المدن كان يحكمها حكام يطلق على كل منهم لقب « عزمر » . وفي عهد الأسرة الثالثة أصبحت مقاطعات الدلتا تحت سلطان حاكم يلقب (حاكم القصر العظيم) وحاكم الفلاحين « مريت » « حكا حت عات عزمر » .

وفي عهد الأسرة الرابعة أصبح حاكم المقاطعة « عزمر » يلقب « القاضي وحاكم المقاطعة » ، وبذلك أصبحت له سلطة قضائية على السكان الذين يحكمهم . وفي نفس العصر وكل الملك للوزير رئاسة السلطة القضائية العليا ، وأول وزير أسندت إليه الوزارة هو « كانفر ^(١) » ؛ وكان يحمل لقب

(1) Journ. Egypt. Arch. 1918 P.P. 146 etc.

« مدو - رخيت » (أى قاضى المدنيين) ، وربما كان منحه هذا اللقب دليلا على أن اختصاصه القضائى قد امتد إلى سكان المدن « رخيت » . وفى عهد الأسرة الخامسة كان مستشارو (محكمة الستة العليا) يلقب كل منهم « مدو رخيت » . وكذلك كان يمنح هذا اللقب كل حكام المقاطعات الذين كانوا رؤساء للمحاكم الإقطاعية . ومن ذلك يتضح أن السلطة القضائية التى كانت فى يد حكام المقاطعات ، وكذلك سلطة المحكمة العليا ، قد فرضت منذ ذلك العهد على سكان المدن « رخيت » ، ومنذ ذلك الوقت فقد سكان المدن امتيازاتهم القضائية التى كانوا يتمتعون بها . ولا أدل على ذلك من أنه فى عهد الأسرة الخامسة كان حكام الوجه القبلى يحملون لقب « مدو رخيت » . ويمكننا أن نستنتج أن الأسرة الخامسة قد أعادت تنظيم قانون التشريع الخاص بالسكان المدنيين الذين أصبحوا منذ ذلك العهد يلقبون فى الوجه القبلى والوجه البحرى على السواء بإسم « رخيت » . ومن المحتمل جدا أن هذا اللفظ فى معناه اللغوى الأصلى يدل على الأفراد الذين كانت تقيد أسمائهم فى قوائم خاصة .

الإصلاح التشريعى ونظام العدالة فى عهد

الأسرة الخامسة

وفى عهد الأسرة الخامسة حدث إصلاح بعيد المدى فى نظام العدالة وفى نظام السلطة التنفيذية ، إذ ظهرت محكمة جديدة تسمى محكمة الستة العليا يرأسها الوزير الذى كان وحده يلقب مدير محكمة الستة ، وبهذه الصفة كان هو القاضى الأعلى للبلاد ، ويحمل لقب « مدير كل المحاكمات »

وظيفة محكمة
السة العليا

أى أنه كان صاحب السلطان على كل محاكم البلاد ، وأعضاء هذه المحكمة كانوا يلقبون « رؤساء أسرار » ويقومون بدور المستشارين ، وكانوا يحملون لقب « رؤساء الكلام السرى الخاص بمحكمة السة » ، وينتخبون من بين أعضاء مجلس العشرة العظيم . وكان هناك آخرون يطلق عليهم رؤساء أسرار المحاكمة فى محكمة السة وكلهم كذلك يحملون لقب « أعضاء مجلس العشرة العظيم » أو لقب موظف ممتاز للإدارة القضائية « ساب سحر سش » . والظاهر أن من أهم شخصيات هذه المحكمة القاضى فم « نحن » وهذا الموظف كان يحمل لقبين آخرين يحددان بالضبط أعماله ، « فهو رئيس الأسرار الذى ينطق بأحكام محكمة السة » ، وكذلك يحمل لقب « رئيس الأسرار الذى يجلس وحده فى محكمة السة^(١) » وتفسر لنا نقوش « ونى » هذا اللقب فيقول « ونى » : « أن جلالة قد نصبنى قاضى فم « نحن » . وقد جلست وحدى مع القاضى الأعلى فى كل الأمور السرية أعمل باسم الملك . . . فى محكمة السة^(٢) العليا » . والواقع أن « ونى » بصفته « فم نحن » قد كلفه الملك أن يساعد الوزير وهو القاضى الأعلى فى التحقيق فى مجرّم مع زوجة الملك العظيمة « إمتس » فى عهد « بيبى الأول » . وقد قام بهذا التحقيق وحده مع قاضى فم « نحن » . والظاهر أن الأخير كان رئيس جلسة فى محكمة السة .

والواقع أن محكمة السة كانت المحكمة العليا للقطر ، وكانت تحت سلطة الوزير مباشرة وقد كان له وحده الحق فى رياستها . وقد

1. Mariette. Mast. D. 56, p. 329.

2. A. R. (I) p. 30.

كانت تحتوى على جلسات مختلفة تحت رئاسة قضاة ، كل منهم يحمل لقب قاضى « فم نحن » ورؤساء الجلسات هؤلاء « سمو هايت » ، كان يحيط بهم مستشارون « حرى سشتا » ، فمهم من يلعب « رئيس الأسرار للتحقيق الخفى » وهم مكلفون خاصة بالتحقيق فى القضايا ، ومنهم من يلعب « رئيس أسرار الأحكام » وهم مستشارون ، وظيفتهم تنحصر فى تحضير الأحكام التى ينطق بها الرئيس . والظاهر أن القضاة المحققين كانوا يؤلفون طبقة خاصة منفصلة تمام الانفصال عن قضاة الجلسة ، فالطبقة الأولى تحقق القضايا التى يقدمها لهم قلم كتاب المحكمة ، وبعد انتهاء التحقيق تقدم القضية أمام إحدى جلسات المحكمة ، وبعد ذلك يقوم مستشارو المجلس الذى يرأسه القاضى فم « نحن » بمناقشة القضية وتحضير الحكم الذى ينطق به الرئيس .

وقد كان القاضى فم « نحن » بصفته رئيسا يجلس منفردا فى عدة قضايا سميت فى متن « ونى » (أمور سرية) . ومن المحتمل أن هذه لم يكن فيها أى تحقيق . وكذلك تنبئنا نقوش « ونى » أنه فى بعض الأحيان كان يجلس الوزير نفسه على كرسى القضاء يساعده أحد رؤساء جلسات المحكمة . وهناك قضايا خاصة فى غاية الدقة يحقق فيها الوزير مباشرة ومعه القاضى فم « نحن » . والحكم الذى ينطق به الوزير أو رؤساء الجلسات كان يدون باسم الملك (١) كما جاء ذكر ذلك فى متن « ونى » وقد كانت محكمة الستة العليا تؤلف من بين أهم أعضاء عظماء الموظفين فى الدولة .

فكان الوزير الرئيس الأعلى ؛ أما رؤساء الجلسات فكان كل منهم

1. Br.A. R. (1) N. 307.

له ماض مجيد فى القضاء فثلا نجد فى عهد الأسرة الخامسة أن كل ألقاب القاضى « فم نغن » كلها قضائية^(١). أما قضاء التحقيق فكانوا كلهم ينتخبون من بين أعضاء مجلس العشرة العظيم ، على حين أن قضاء الجلسة كانوا إما من مجلس العشرة العظيم أو قضاء خدموا فى السلك القضائى ويحملون ألقابا عظيمة مثل قاض ممتاز « ساب سحرشش » .

وقد عثرنا حديثا على نقش من الدولة القديمة لموظف يحمل لقب مدير محكمة العشرة العظيمة « حت ورت مز » ولا نعلم كنه هذه المحكمة بالضبط لأن الأمثلة لدينا تنحصر فى هذا المثل الوحيد ومن المحتمل أنه كانت هناك محكمة أخرى مؤلفة من عشرة أعضاء أو عشر دوائر . ولكن على أية حال فإنها لا بد كانت مؤلفة على نمط محكمة الستة العليا .

محاكم المقاطعات « حت ورت »

من دراسة ألقاب حكام المقاطعات فى عهد الأسرة الخامسة يمكننا أن نستنتج أن شكل حكام المقاطعات فى الوجه القبلى ، أو الوجه البحرى ، كانوا يرأسون محكمة المقاطعات « حت ورت » ، وهذا الإصلاح على ما يظهر قد أحدث تجديدا قانونيا عظيم الشأن ، وذلك أن الحقوق التى كان يتمتع بها سكان مدن الوجه البحرى « رخيت » إلى هذا الوقت قد اكتسب مثلها سكان مدن الوجه القبلى . ولا أدل على ذلك من أن كل حكام المقاطعات فى القطر عامة فى عهد الأسرة الخامسة كانوا يحملون لقب « مدو رخيت » قاضى المدينين . وهذا العمل قد تم

(١.) Mariette, Mastabas, D. 56. P. 329.

توحيد القانون في كل بلاد الدولة .

ومن المحتمل جدا أن محكمة المقاطعة لم تكن إلا تغييراً شكلياً لمحكمة السراة القديمة التي كان يطلق عليها « المكان الذي يحاكم فيه الناس » . وقد تكلمنا عنها في عهد الأسرة الرابعة . والواقع أن « السراة » كانوا قد حافظوا على حقهم حتى في الأسرة السادسة على النطق بالأحكام ولكن اختصاصهم القضائي كان خاضعاً لأحكام الوزير القاضي الأعلى لمحكمة الستة العليا . وحق مراقبة الوزير أو بعبارة أخرى استئناف الوزير لأحكام محاكم السراة قد ذكره الوزير « مرا » ^(١) صراحة إذ كان يلقب « رئيس الأسرار لأحكام السراة » . ويمكننا القول بأن محكمة المقاطعة « حت ورت » كانت على شكل محكمة يرأسها حاكم المقاطعة يساعده السراة بصفتهم مستشارين .

المجلس « هايت »

أن لفظة « هايت » لم نثر عليها قط إلا في الألقاب القضائية فثلاً نجد أن لقب « سموهايت » أى كبير ال « هايت » كان دائماً يطلق على القاضي فم « نحن » رئيس الجلسة . وكذلك نجد في لقب « الناطق بالحكم فى ال « هايت » . ومن ذلك يمكننا نستخلص أن لفظة هايت هى قاعة تجلس فيها المحكمة . وقد أخذت فى الألقاب القانونية معنى مجلس المحكمة . وعلى ذلك يجوز أن المحكمة « حت ورت » كانت تشمل عدة مجالس أى عدة دوائر .

1. Gunn, Cemetery of Teti pp. 133 etc.

وفى محكمة الستة كان لقب كبير المجلس «سمسو هاييت» هو
القاضى فم «نخن» . وفى محاكم المقاطعات كان رئيس المجلس قاضيا يلقب
« كبير قضاة المجلس » .

الادارة القضائية « وسخت »

يلاحظ أن الوزير كان يلقب كثيرا « خرب وسخت » أى رئيس
القاعة العظيمة أو « إمرا وسخت » أى مدير القاعة العظيمة . وقد لاحظنا
من جهة أخرى فى مصالح الحكومة المختلفة أن لقب « إمرا » لمدير يدير
الإدارة أما « خرب » فيطلق على رئيس الموظفين ، وربما ينطبق ذلك على
الإدارة القضائية « وسخت » . والواقع أن « وسخت » متصلة اتصالا
مباشرا بالمقالة . فنرى فى الحقيقة أن « عنخ إرس »^(١) أحد عظماء الأسرة
الخامسة كان يلقب ! مدير الأحكام فى القاعة العظيمة « وسخت » . فلا
ندهش إذن إذا رأينا أن رئيس القاعة العظيمة « أى الإدارة القضائية » ،
ومدير القاعة العظيمة كان إما الوزير وهو بطبيعة الحال رئيس محكمة الستة
العليا أو حاكم مقاطعة أى رئيس محكمة المقاطعة . وعلى أية حال فلا
يمكن توحيد محكمة الستة العليا مع القاعة العظيمة « وسخت » ، لأن
كثيراً من الوزراء كانوا فى الوقت نفسه مديرين لمحكمة الستة العليا
ورؤساء للقاعة العظيمة . وكذلك الحال مع حكام المقاطعات والظاهر من
ذلك أن القاعة العظيمة كانت من ملحقات المحكمة وأعتقد أنها كانت
مقر الإدارة القضائية بما فى ذلك الموظفون الذين كانوا يديرونها .

1. Murray, Mastabas Saqq. PL. XVIII

والواقع أن القاعة العظيمة أو الإدارة القضائية كانت تتألف من عدد عظيم من الموظفين منها رئيس كتبة الإدارة القضائية ، وكبار كتّاب . وعلى ذلك لا تكون القاعة العظيمة محكمة مؤلفة من رؤساء أسرار بل مصلحة إدارية أى مكتباً مؤلفاً من كتّاب .

وقد شرحنا فيما سلف أن المجلس الذى يصدر الأحكام كان يسمى « هايت » . وعلى ذلك يجب أن نستنتج هنا أن المحكمة كانت تشمل المجلس « هايت » . والإدارة القضائية « وسخت » .

وكان القانون فى مصر يدون فى كتب ، وهذه الكتب كانت تودع المحكمة العليا^(١) وبخاصة فى قاعة « حور » العظيمة « وسخت حر » أى « الإدارة القضائية » . ومن ذلك يمكن أن نستخلص أن قاعة « حور » العظيمة (الملك) التابعة للمحكمة العليا هى الإدارة المكلفة بتسجيل قوانين الدولة والمحافظة عليها . ولا شك فى أن قاعة « حور » العظيمة (أى الملك) كانت تابعة للمحكمة العليا . ولا نزاع أذن فى أن قاعة « حور » العظيمة كانت من أهم إدارات مصلحة الإدارة القضائية ، إذ كانت تودع فيها القوانين وتسهر على تنفيذ إدارة حور (أى الملك) ؛ ومن ذلك اشتق اسمها « قاعة حور العظيمة » أو بعبارة أخرى إدارة الملك القضائية . ومن كل ذلك يتضح أن الإدارة القضائية هى مجموع المصالح القضائية التى تؤلف ال « وسخت » ، وكان من أهم أعمالها المحافظة على القوانين والأحكام القضائية .

1. Admonitions d'un Vieux sage, dans Moret, Le Nil, p. 262

إدارة العرائض أو الشكاوى « سبر »

تشمل الإدارة القضائية إدارة قلم كتاب المحكمة ؛ وقد كانت كل قضية تقدم للمحكمة بعريضة « سبر » والموظفون المكلفون بتسليم هذه العرائض يلقبون « المشرفين على العرائض » « إرى سبر » وكانوا تحت إدارة رئيس الكتاب ، والمشرف على العرائض .

ويظهر أنه كان هو رئيس كتاب المحكمة . وقد كان هذا الأخير تحت السلطة العليا لرئيس المحكمة ، الذى كان فى الوقت نفسه رئيسا للإدارة القضائية أى الوزير أو حاكم المقاطعة .

على أنه من المؤكد أن الوزير لم يكن هو الرئيس الفعلى للإدارة القضائية رغم أنه كان يحمل لقب رياستها اسما . وقد عثرنا على كثير من لقب « رئيس الإدارة القضائية » يحمله أحد أعضاء مجلس العشرة العظيم ، والظاهر أن الوزير بصفته الرئيس الأعلى لمحكمة الستة العليا كان يساعده أحد أعضاء مجلس العشرة العظيم فى إدارة قلم كتاب المحكمة والإدارة القضائية . وكذلك كان الحال مع حاكم المقاطعة فقد كان بجانبه لتسيير أعمال الإدارة القضائية فى مقاطعته « موظف كبير » أو قاض مدير كتبة .

الإدارة الرئيسية للعدل « حتى ورتى »

كانت مصلحة العدل كباقي مصالح الحكومة لها مركز رئيسى . فقد كان فى كل مقاطعة محكمة يرأسها حاكم المقاطعة ، ولكن كان يوجد فى مقر الإدارة الرئيسية مصلحة قائمة بذاتها مكلفة بإدارة العدالة فى البلاد

قاطبة على رأسها أحد أعضاء مجلس العشرة العظيم . ولا أدل على ذلك من أن «وسركاف عنخ»^(١) كان يحمل لقب «امرا مخاوت» وهو على ما يظهر يعنى «مدير العدل» . ومن جهة أخرى نرى أن «ورخو»^(٢) الذى عاش فى عهد الملك وسركاف ، كان «رئيس كتاب ومشرفا على الشكاوى» وكان يلقب بأنه «قاض وكاتب أول للمحكمة المزدوجة» . على أنه يلاحظ منذ الأسرة الخامسة أن كل مصلحة من مصالح الحكومة مزدوجة ، أى أن السلطة الإدارية كانت تمتد على الوجهين القبلى والبحرى ولا بد لذلك من أن تكون «حتى ورتى» المحكمة المزدوجة ، وهى المقر الرئيسى لإدارة كل محاكم مصر .

قلم قضايا العدل والادارة

ذكرنا أن «متن» فى أواخر الأسرة الثالثة الذى كان يشغل وظيفة حاكم المقاطعة كان فى الوقت نفسه ، رئيس الشرطة ، وكذلك رئيس المنازعات القضائية^(٣) ، وقد كان من اختصاصه أن يفصل فى المنازعات التى تقوم بين الإدارة والمولين فيما يختص بحججهم عن ممتلكاتهم وضرائبهم . ومنذ الأسرة الثالثة وجد هذا النظام القضائى فى مقر حكومات المقاطعات ؛ غير أنه فى الوقت نفسه كان يشمل موظفين قضائيين فى مقر الحكومة الرئيسى الذى كان يشرف عليه مجلس العشرة العظيم ، وذلك يشعر بأن المولين كان لهم الحق فى استئناف قرارات القاضى

(1) Borchardt, Grabdenkmal des konigs Neussere. pp 113-114

(2) Sethe, Urk I., 47

(3) Sethe, Urk. P, I

حاكم المقاطعة « في المنازعات ، أمام الحكومة الرئيسية . والواقع أن « ورخو » الذي كان يشغل وظيفة « رئيس كتبة » وكان مشرفا على الشكاوى في المجلس العظيم ، كان في الوقت نفسه قاضيا ممتازا للحجج والضرائب ، ولذلك كان يحمل لقب « قاض ممتاز في الإدارة الرئيسية للعدل » . وعلى ذلك يمكننا أن نستخلص أنه كان هناك قضاة ممتازون ، مكرم مكاتب الإدارة الرئيسية ولهم الحكم الأخير في المنازعات الخاصة بالضرائب أو للحجج التي يقدمها الممولون وكذلك نلاحظ أن القاضي حاكم المقاطعة ، كانت في يده سلطة تأديبية ينفذها على الموظفين الذين تحت سلطته ، وقد كان ينفذ هذه العقوبات بواسطة « قاض مدير الكتّاب » .

ولدينا دليل مادي على ذلك في مقبرة الوزير « مرا »^(١) إذ نجد منظر موظفين يقودهم رئيس الإدارة التساميين لها . ليوقع عليهم العقاب أمام « قاض مدير كتبة » على ما اقترحوا من ذنوب .

النظام القضائي في عهد الاسرة الخامسة

ومن كل ما سبق يمكن أن نتضح ميلا تقريبا للنظام القضائي في البلاد في عهد الأسرة الخامسة ليكن رجال العدل في عهدنا قرنه بنظامنا القضائي الحالي . كانت المحكمة العليا « حت ورت سو » أي محكمة الستة العليا ، يرأسها الوزير بصفته القاضي الأعلى في البلاد وتدل النقوش على أنه من المحتمل

(1) Pirenne, Institutions, Vol. III P 515-19.

جدا أنها كانت تنقسم إلى ستة مجالس «هايت» كل منها يرأسه قاض «فم نخن» ، وكان يساعد الوزير ورؤساء الجلسات مستشارون «حرى شستا» ، ومن بين هؤلاء المستشارين : «مستشارو التحقيق» وكانوا ينتخبون من بين أعضاء مجلس العشرة العظيم «مستشارو الجلسة» وينتخبون من بين أعضاء مجلس العشرة العظيم ومن بين القضاة كبيرى الكتاب .

وكان فى كل مقاطعة محكمة يرأسها حاكم المقاطعة «ساب عز مر» ومن المحتمل أنها كانت تحتوى على عدة دوائر تحت رئاسة «القاضى رئيس المجلس» «ساب سمسو هايت» . أما «السراة» الذين كانوا يمثلون السلطات المحلية فكانوا يجلسون فيها بصفة مستشارين .

ومن المحتمل أن هذا هو السبب فى أن كلا كان يلقب رئيس أسرار المحكمة «حرى شستا» إن حث ورت ، اللهم إلا إذا اعتبرنا رؤساء أسرار المحكمة بمثابة قضاة محترفين يساعدون «السراة» .

وكانت كل محكمة لها إدارة «وسخت» تحت إشراف مدير الإدارة القضائية «وسخت» ، وكذلك كان للإدارة رئيس «خرب وسخت» . وكان تحت يده كتاب وكبرو كتاب، وقد كانت الإدارة القضائية «وسخت» تشمل مكتب الشكاوى^(١) «سبر» وقلم كتاب المحكمة . والأخير كان يشمل مستخدمين خصوصيين منهم المشرفون على الشكاوى «ارى سبر» ويديرهم موظف يلعب «رئيس الكتبة والمشرى على الشكاوى» .

(١) لى مكتب الشكاوى هو ما يقابل الآن قلم المضرين ولعل قلم كتاب المحكمة هو الاصطلاح المصوب به الآن وهو ما يطلق على القلم المدنى .

إدارة المحفوظات

وكذلك تحتوى الإدارة القضائية على محفوظات مودع فيها أوراق قضائية والسجلات « مزات » التى كانت فيها على ما يظهر تنسخ الأحكام ؛ ويقوم بالمحافظة عليها موظفون لقب كل منهم « قاض مشرف على السجلات » ، « ساب ارى مزات » وقاض ممتاز مشرف على السجلات .

أما حاكم المقاطعة فكان كذلك رئيس الشرطة ، ورئيس قلم قضايا ورئيس الإدارة فى مقاطعته ، وكان ينب عنه فى هذه الإدارة موظفا قضائيا . « ساب سش »

مصلحة العدل
وتأليفها

وكانت الإدارة الرئيسية فى العاصمة تحتوى على مصلحة العدل مهمتها إدارة محاكم كل القطر ، وهى التى يطلق عليها « حيتى ورقى » ، وهذه المصلحة تشمل على إدارة خاصة للشكاوى تحت سلطة « رئيس كتبة ومشرف على الشكاوى » وعلى قلم قضايا يتألف من « قضاة ممتازين للمنازعات الخاصة بالحجج » « ساب سحر سش ن وب ت » ، ومن قضاة ممتازين للفصل فى الضرائب « ساب سحر سش حرى وزب » ، وكانت وظيفة هؤلاء بلا شك الفصل فى الأحكام التى قضى بها الموظفون القضائيون الذين يجلسون بجانب حاكم المقاطعة ، فيما يختص بالمنازعات القانونية .

الألقاب القضائية

ويلاحظ أن موظفى المحاكم وإدارة العدل يحملون الألقاب الآتية « ساب » قاض ، « ساب سحر » قاض ممتاز . « ساب سش » موظف قضائى . « ساب سحر سش » موظف قضائى ممتاز ؛ « ساب . إمرا . سش » مدير الإدارة القضائية .

الاجراءات القضائية

الظاهر أن الاجراءات التي كانت تتخذ أمام تلك المحاكم التي وصفنا نظامها فيما سبق كانت لا تختلف كثيرا عن الاجراءات التي شرحناها عند ما كان يفصل في المنازعات بالتحكيم . فقد كان المدعى يرفع دعواه أمام محكمة السراة بتقديم عريضة مكتوبة « سير » يشرح فيها بالضبط طلبه الذي كان يتخذ أساسا للمرافعة . وكانت المحكمة تحكم بمقتضى مستندات ، فإذا كان الموضوع مسألة حقوق عقارية أو أملاك فإنها ترجع إلى العقود الأصلية (وفي الموضوع الذي نحن يصده هو عقد الأوقاف الذي يقرر حق كل من الطرفين) ؛ فإذا كان هذا العقد يظهر في صالح المدعى فالمحكمة تحكم له ، أما إذا كان الأمر على العكس فالمحكمة ترفض طلبه . ويستنتج من هذا الاجراء أنه كانت ثمة «دفتر أو سجلات ل قيد التصرفات العقارية .

كينة
رفع الدعوى

وهو نظام يقضى بإعطاء كل طرفي العقد نسخة من العقد الذي أبرم بينهما ، ومن ثم نفهم الدور الهام الذي يقوم به الكتاب المشرفون على المرائض في الاجراءات ، وقد استخلصنا كل ذلك من فحص الألقاب القضائية ، وقد أثبتنا كذلك عند تحليل عقد الأوقاف في عهد « خرق » أن الشخص المعنوي (٢) يمكنه أن يترافع أمام المحكمة كالشخص الحقيقي ، كما يمكن لشخص ثالث أن يدخل خصما في دعوى لحفظ حقوقه ، وأخيرا وصلنا إلى أن الطرف الذي حكم لصالحه يمكنه أن يحجز على عقار الطرف المحكوم عليه .

(1) Person, Morales.

صفات المحقق
النزيه

وبردية « بريس »^(١) تثبت وجود عريضة افتتاحية لرفع دعوى ، إذ نعلم منها ، أنه بعد تقديم عريضة الدعوى ، يسأل المدعى أمام قاضى تحقيق ، ولذلك يقول الوزير « فتاح حنب » : « إذا كنت أنت الذى يتسلم الشكوى فكن هادئا عندما تسمع كلام المدعى « سبرو » ولا تعامله بقسوة (أى دعه يتكلم) حتى يفرغ قلبه ، وحتى يمكنه أن يقول لماذا قد حضر . أن المدعى يجب الذى يسمع ظلاماته ، حتى ينتهى من سرد السبب الذى من أجله حضر . أن المجلس الباش يسر القلب » ، وعلى ذلك يجب أن يكون القاضى المحقق متحليا بكثير من الفضائل حتى يؤدي مهمته كما يجب ؛ وهذا بلا جدال هو السبب الذى من أجله كان القضاة يعتلون المكانة الأولى فى مصر قديما ، بين موظفى الحكومة ، وقد حفظت لنا الصدف محاكمة يرجع عهدها إلى الأسرة السادسة وقد أجرى فيها تحقيق من نوع خاص قبل النطق بالحكم . وذلك بجعل أحد الطرفين يحلف اليمين ومعه كذلك ثلاثة أشخاص شهود . والموضوع أن « سبك حنب »^(٢) ادعى أن « وسر » قد أوصى له بمحق الانتفاع بمقاراته ، وأنه قد نصب بوصية ليكون صاحب حق ، وأن يكون مريا لأطفاله . ومن جهة أخرى كان « تاو » ابن « وسر » الأكبر ، ينكر انكارا باتا صدور هذه الوصية من والده ، وأن الوثيقة التى يقدمها « سبك حنب » مزورة . ولما لم يكن فى وسع المحكمة أن تحصل على الوثيقة الأصلية أصدرت الحكم الآتى : قدم « سبك حنب » عقدا كتبه « المعروف لدى الملك » ،

قضية
« سبك حنب »

(1) Pap. Prisse. The Lit. of the Ancient Eg. PP. 59 - 60

(2) Sethe, Ein Processurteil aus dem alten Reich Z. A. S. LXI
(1926) P.72.

مدير القافلة « امرا ع » « وسر » . وقد وكل فيه أمر زوجته وأولاده ؛ وكل عقار بيته ، ليستخدمه في حسن تربية أولاد « وسر » معاملا الكبير ، والصغير ، كل على حسب سنه ، أما « تاو » فيقول إن والده لم يكتب هذا العقد قط في أى مكان وإذا أحضر « سبك حتب » ثلاثة شهود محترمين ، يمكن أن يوثق بهم على أن يحلفوا اليمين القانوني : لتكن قوتك ضده « تاو » يا الله ! لأن هذه الوثيقة حقيقية وقد عملت طبقا لما قاله « وسر » في هذا الصدد ؛ أى أن العقار يبقى في بيت « سبك حتب » ، بعد أن يكون قد قدم هؤلاء الشهود الذين قيلت في حضرتهم هذه الأشياء ، وفي هذه الحالة لا يبقى عقار « وسر » معه ، بل يبقى مع ابنه (أى ابن وسر) « المعروف لدى الملك » ومدير القافلة « تاو » ونرى في هذا أن الحكم هنا كان تمهيدا . إذ في الواقع يلخص أولا طلبات الطرفين ، ثم قبل أن ينطق بالحكم أمر بعمل تحقيق .

والواقع أن هذه الوثائق المختلفة تسهل لنا وصف إجراءات محكمة السراة ؛ وذلك أن المدعى الذى يرفع دعوى « شن » يحضر شكوى « سبر » ثم يودعها قلم كتاب المحكمة حيث يتسلمها المشرف على العرائض « إرى سبر » . وبعد ذلك يسلم قلم الكتاب الشكوى إلى قاض يجلس بصفة قاضى تحقيقات ، وهو الذى بدوره يطلب حضور الطرفين ويسألهما ويفحص المستندات ويسمع الشهود بعد حلف اليمين . وعلى أثر انتهاء التحقيق تعرض القضية على المحكمة ، وكل من الطرفين يقدم طلباته في ملف يحتوى على نسخ العقود الأصلية التى تقرر أحقية هذه الطلبات . وإذا أمكن حكمت المحكمة حسب المستندات ، ولكن إذا لم يكن الموضوع واضحا بمقتضى المستندات

الادوار
التي تمر بالقضية

المودعة ، فيمكن للمحكمة أن تأمر بإجراء تحقيق جديد أو بسماع شهود .
وأخيرا يصدر الحكم النهائي ويحتوى على ملخص أقوال الطرفين ، وأسباب
الحكم ، ثم نص الحكم .

اختصاصات
محكمة السراة

والواقع أن اختصاصات « محكمة السراة » تمتد إلى كل مسائل العقار ،
وكذلك تشمل كافة المنازعات المدنية الأخرى والسندات ؛ فعلم أن كل
عقود انتقال الملكية من بيع وهبة ، ووصايا كانت مسجلة ، وكذلك فلم
أن كل المصريين كانت حالتهم المدنية مقيمة في دفتار ، وأن سندات
العمل ، والايجار كانت كذلك تدون . وكانت كل المنازعات الخاصة بهذه
العقود ، وكل الأحوال التى تنجم عنها كانت من اختصاص محكمة السراة .
وفى حالة عدم وجود عقد مثبت حق المدعى كانت المحكمة تقرر بطريق
الأمر ، بمتضى شكوى من المدعى ، الحالة المدنية للمدعى والخصم الثالث .
وقد كان كذلك من اختصاصها عند تقديم شكوى من طرف ، أن
تقرر ما هى حقوق الارتفاق والالتزامات التى تقيد العقار ؛ وبهذه الكيفية
نجد أن كاهن « نخب » الأعظم قد وقف ضيعة لشخص مدنى أى معنى
ليقوم بنفقات مؤسسته الجنازية . فيقول : أما فيما يختص بكل شئ قد حدث
فيه تصرف قبل أن أعمل لهم الهبة فستجرى محاكمة معهم « الموهوب لهم »
فى المكان الذى يحاكم فيه الناس ^(١) . والمكان الذى يحاكم فيه الناس
هو محكمة السراة كما يشير إلى ذلك عقد الوقف بصراحة ، وكذلك كان فى
يد محكمة السراة اختصاص رادع . ويثبت هذا متن من عهد الأسرة
السادة للوزير « بيبى عنخ » الذى أصبحت أسرته أمراء فى قوص فى عهد

(1) Br. A. R. (1) No. 200 & Urk (1) p p. 11-15

الملك يبي الأول (١) إذ يقول : « لم يقبض على قط ، ولم أحبس قط ؛ ولقد برئت تماما من كل مانسب إلى أمام محكمة السراة » ، كما أن التهمة التي وجهت لي قد وقعت على عاتق من اتهمني ، إذ عند ما طلبت من أجل ذلك أمام السراة ، ظهر أن ما قاله منهي كان محض قذف . وقد كنت مقربا لدى الملك ولدى الآلهة . وقد بقيت كل الأشياء حسنة في يدي عند ما كنت كاهنا للإلهة « حتحور » سيدة قوص ، وحينئذ كنت أحافظ على الآلهة . ويدل المتن على أن « يبي عنخ » قد اتهم بلا شك في جريمة كان يعاقب عليها بالسجن ، لو ثبتت ضده ؛ إذ يفتر بأنه لم يسجن ؛ ونرى هنا أن محكمة السراة قد دخلت بصفة هيئة قضائية تأديبية . وأهمية هذه الوثيقة لا تنحصر في شخص ارتكب جنحة ، بل أهميتها العظمى أن « يبي عنخ » كان موظفا كبيرا أصبح فيما بعد وزيرا وأميرا لمقاطعة قوص في آن واحد . ويفهم من تاريخ خدمته أنه خلف والده في كهنوت الإلهة حتحور في مقاطعته ، وأنه قد طلب أمام محكمة السراة للدفاع عن نفسه في التهمة التي وجهت إليه . ومن ذلك نعلم أن محكمة السراة كان من اختصاصها محاكمة أكبر رجال الحكومة والكهنة أنفسهم ، وأصدار الأحكام ضدهم بمقتضى القانون العام . ويؤكد ما استنتجناه من هذا المتن ما جاء في نقوش تاريخ حياة « نزم إيب » (٢) رئيس الأسرار الذي عاش في عهد الملك إيسيسى إذ يقول : أنى لم أضرب قط منذ ولادتي أمام سرى (عضو من أعضاء المحكمة) .

(1) Blackman, The Rock Tombs of Meir, P. 25-26 Pl. IV, A,

(2) Br. A. R. (1) No 279.

استئناف
حكم محكمة
السراة

وتدل النقوش على أن أحكام محكمة السراة كان يمكن استئنافها . ولا أدل على ذلك من لقب الوزير « مرا » : « رئيس الأسرار لمحاكمات السراة » (١) وذلك يقرر أن الوزير يتصرف بمحكم استئنافي للحكم الذي حكمت به محكمة السراة . ومن ذلك يمكننا أن نعتبر أن المحاكمة التي كانت تجري أمام محكمة السراة يمكن استئنافها أمام المحكمة العليا التي يرأسها الوزير .

اجراءات محكمة الستة العليا . تدل الألقاب التي يحملها موظفو محكمة الستة العليا ومحكمة السراة على أن الأجراء في كل كان واحدا . غير أن كل موظفي محكمة الستة العليا كانوا يتألفون كلهم من قضاة عظماء جدا قد حددت اختصاصاتهم على ما يظهر بكل وضوح كما أسلفنا من قبل . وعلى ذلك فإن كل طلب يقدم أمام محكمة الستة العليا كان يقدم بصفة وثيقة مكتوبة « سير » بين يدي المشرف على الشكاوى أو في قلم كتاب المحكمة ، وبعد ذلك كان يوكل أمر التحقيق إلى مستشار محقق « حري سشنا ن مدو سناو » فيأخذ في فحص القضية ثم يحيلها أمام إحدى جلسات « هاييت » المحكمة . ثم بعد ذلك يسمع الرئيس « ساب رانغن » القضية يساعده مستشاروه في الجلسة . وفي النهاية ينطق رئيس الجلسة بالحكم باسم الملك « مرن ن نيسوت » . وفي بعض الأحوال كان يوكل التحقيق إلى رؤساء المجلس مباشرة عند ما يكون الموضوع دقيقا .

قانونه العقوبات

أن مالدينا من الوثائق الخاصة بقانون العقوبات في عهد الدولة القديمة قليل جدا حتى الآن .

(1) Pirenne, Institutions p. 516

وقد استخلصنا من نقوش الوزير « مرا » ونقوش الأمير « يبي عنخ »
الذين تكلمنا عنهما فيما سلف أنه كان هناك عقاب بالضرب والحبس ولدينا
بعض صور في مقبرة الوزير « مرا » يظن أنها تدل على وجود المعاقبة بقطع
الرقبة غير أن هذه النظرية قد عارض في صحتها بعض علماء الآثار،^(١)
ولكن الظاهر أن هذا العقاب كان مقررا للجرائم السياسية . إذ في لوحة الملك
« نمرمر »^(٢) نشأه ممثلا وهو يعيد سلطانه على إقليم « متليس » الثائرة في غربي
الدلتا وقد قطع رموس رؤسائها العشرة طرحهم أرضا وأذرعتهم مكبة ورءوسهم
مقطوعة وموضوعة بين الفخذين . ومن جهة أخرى نشاهد على رأس دبوس
الملك « عقربا » ممثلا سكان مدن الدلتا « رخيت » وهو يخضهم وقد ظهروا
مشنوقين في رموز مقاطعاتهم المختلفة^(٣) . ولكن خلافا لهذا الشنق السياسي لا
نعرف أن عقاب القتل كان موجودا في القانون العام . ولا يفوتنا أن نذكر ورقة
« وستكار »^(٤) التي تقص علينا أسطورة « خوفو » والسحرة ، وتشير فيها إلى مجرم
قد حبس حتى ينفذ عليه حكم الإعدام بضرب رقبته ، وكان هذا العقاب
لا بد موجودا في مصر ولكن لا يمكننا أن نعرف في أي وقت بالضبط كان
يطبق ولا عن أي جريمة يحكم به . وكذلك نعلم من نفس الورقة أن المرأة
الزانية كان يحكم عليها بالحرق حية . حقا إن العصر الذي تحدثنا
عنه هذه الورقة هو عصر الدولة القديمة ولا بد إذن من أن يكون هذا
العقاب نافذا في هذا العصر ولكن من جهة أخرى نعلم أن القصة من أولها
إلى آخرها حديث خرافة ، هذا فضلا عن أن النسخة التي في أيدينا قد كتبت

(1) Klebbs, Reliefs des alten Reiches, P. 24.

(٢) انظر الجزء الأول من (١٥٦)

(3) Pirenne, Institutions Vol. I. Annex. II Chap. II. & III

(4) Maspero, Conte de Cheops et des magiciens, P. 34.

محكمة المقربين^(١) مقاضاة الاشراف .

لقد تكونت في البلاد طبقة من المقربين لدى الملك وهم كهنة إقامة شعائره ، مما أوجد رابطة متبادلة بينهم وبين الملك ، وكانوا يلقبون « بالمقربين » له . وقد كان المقرب يأخذ على نفسه أن يقوم بالاحتفال بشعائر الملك وأن يكون له بمثابة الكاهن للإله . وقد كان الملك مقابل ذلك يسبغ عليه نعمة تكون إما « دخلا » أو أرضا ، ويعطيه امتياز دفن جثته في الجبانة الملكية ، وهذا الإنعام الأخير كان يكسبه مشاطرة أبدية الفرعون في مملكة الآلهة الأخيرة . وفي عهد الأسرة الخامسة أصبحت طائفة « المقربين » وراثية ، وكونوا طبقة اجتماعية جديدة قائمة بذاتها تتمتع بأحكام قانونية خاصة بهم ، أخذت تنمو بعيدة عن القانون العام بامتيازاتها الخاصة . ومنذ حكم الملك « نفرإدكارع » ثالث ملوك الأسرة الخامسة ، كانت هذه الطائفة الوراثية تتمتع بمحكمة منفردة اختصاصها بالحكم في المنازعات التي يمكن أن تنتج من وظيفة المقربين ، فمن ذلك أن خرق الالتزامات التي قد تعاقدها عليها « مقرب » مع كهنة وقفه ، كانت تفصل فيه هذه المحكمة الخاصة . وكان يرأس هذه المحكمة الملك نفسه ، الإله العظيم « نترع » يحيط به مستشارون يلقبون « رؤساء أسرار التحقيق الإلهي » ، وهم مقربون عظام وكانت مأموريتهم تنحصر في مساعدة الملك عندما يحاكم أندادهم . والواقع أن هذه المحكمة وقد نشأت من إجراءات التحكيم كانت ، أحيانا توقع عقابات صارمة مستندة إلى القانون العام مما يزكي إنشاءها . إذ لا نزاع في أنه كان من اختصاصها أن تنتزع من المقرب الخائن كل ما يربحه من وظيفة المقرب . .

(١) أنظر مصادر هذا الفصل

والواقع أنه بعد عهد الأسرة السادسة بقليل نجد مرسوم الملك « دمر با تا وى » يهدد الموظفين الذين يعتدون على الضياع التى كان يملكها ال « خنت شى » وهم أهم المقرين للملك ، بأن يحرمهم كل الامتيازات التى كان يتمتع بها المقرب ، او يتنزع منهم أبديا إمكان حصولهم على لقب مقرب لدى الملك ، ويمكن القول بأن عقوبات محكمة الإله العظيم التى كانت توقعها منذ البداية تشمل نزع ممتلكات الشخص بصفته مقربا ومنعه من الدفن فى الجبانة الملكية (1) .

على أن كل هذا النظام القضائى العظيم أخذ يتدهور شيئا فشيئا خلال عهد الأسرة السادسة حتى أصبح يكاد يكون منعما ، ولم يبق أحد بجوار الملك فى يده السلطة المدنية متجمعة إلا الوزير الذى كانت تزدد قوته وتنمو ، ولكن كل هذه كانت مظاهر اسمية إذ أن البلاد فى هذا العهد كانت مقسمة إلى ولايات مستقلة ليس للملك عليها سلطان إلا الاسم.



جزء من تمثال لقاضى يحمل فلادة وسطها رمز آلهة العدل « معات » وكان كبير القضاة فى مصر يلبس صورة من اللازورد تمثل الآلهة معات « آلهة العدل » وكان من عادته أن يدير رمز العدالة هذا نحو الحق عند النطق بالحكم . ويوجد ثلاثة تماثيل صغيرة من هذا النوع فى متحف برلين (2)

(1) Moret, C.R. Insc. 1914 p.p. 565...

(2) Z. A. S. Vol 56 p. 67. 68.

مصادر فصل نظام الحكم والقضاء

أن أول من بحث موضوع نظام الحكم في عهد الدولة القديمة بحق هو الأستاذ « بيرن » في كتابه المشهور :

J. Pirenne, Histoire des Institutions de l'ancienne Egypte
3 vol Bruxelles 1935.

وقد كتب قبله وبعده عدة علماء بعض مقالات متفرقة في مجلات
وكتب أحدهما ما يأتي :-

- (1) Moret, L'administration locale sous l'ancien Empire. Comptes-rendus de l'Académie des Inscriptions, Paris, 1916. P.P. 378 et suiv.
- (2) Moret et Boulard. Donations et fondations en droit égyptien (Rec. Tr. XXIX pp. 57-95.)
Petrie (a) The palace titles. (Ancient Egypt. 1924, PP. 109-122).
(b) The royal officials. op. cit. 1925, pp. 11-18.
(c) Justice and revenue op. cit. 1925, pp. 45-54.
(d) The rulers op. cit. 1925, pp. 79-88.
- (3) Revillout (E.) Cours de droit Egyptien, Paris, 1884.
- (4) Revillout (L.) La propriété, ses démembrements, la possession et leurs transmissions en droit égyptien, comparé aux autres droits de l'antiquité Paris, 1897.
- (5) Sethe (a) Ein prozessurteil aus dem alten Reiche (Z.A.S. LXI pp. 72 et suiv).
(b) Urkunden des alten Reichs 4 vol. 1932.
(c) Geschichte des Amtes im alten Reiche (Z. A. S. XXVIII pp. 43-49)
- (6) Vinogradoff. (P.) Historical jurisprudence 1, Oxford 1920.
- (7) Breasted, The Dawn of Conscience, New-York, 1934, (pp. 115-151).
- (8) Jean Sainte Fare Garnot, L'Appel aux vivants.
وفي هذا الكتاب نجد بعض الآراء التي تخالف ما في كتاب الأستاذ « جاك بيرن » في موضوع محكمة المقربين إذ يعتقد بعض العلماء أنها خاصة بالآخره مثل الأستاذ زينة والأستاذ جردنر ، هذا إلى أن « جردنر » مؤلف هذا الكتاب قد كتب مقالا خاصا بحثفيه هذا الموطوع تحت عنوان :
Le tribunal du Grand Dieu sous L'ancien Empire Egyptien (Revue de l'histoire des Religions 1937).

ثروة مصر الطبيعية ومنتجاتها

لقد وهبت الطبيعة أرض مصر تربة خصبة ، وجواً صالحاً ، وجبالاً زاخرة بالأحجار والمعادن ، ونهراً فياضاً يعم أرضها كل عام ، وحيواناً انتشر في أرجائها ، وطيوراً اختلفت أنواعها . كل ذلك هياً لأهل البلاد أن ينشئوا مدينة منذ أقدم العهود لم تضارعها مدينة في الشرق ، ولا في الغرب في تلك الأزمان السحيقة . وكان أول ما وجه إليه المصري هم زراعة الأرض ، وتربية الماشية؛ ثم إقامة المباني لسكنه ، واستثمار الأحجار الصلبة ، والمعادن في صناعاته ، وحرفه المختلفة التي كانت نتيجة طبيعية لتدرجه نحو الحضارة والعيشة الهنيئة . وستتكمم عن الزراعة أولاً ، إذ هي في الواقع الأساس الأول لحياة سكان وادى النيل .

الزراعة

إن أهم ما يجب على الباحث في الزراعة عند قدماء المصريين ، أن يعرفه أولاً أنواع الأشجار ، والنباتات التي كانت تنمو في تربة البلاد ، وكذلك النباتات والأشجار التي كان يجلبها المصري من الخارج ويستفيع بها في بلاده .

الأشجار الكبيرة : كان المصري منذ أقدم العهود يستعمل خشب الأشجار العظيمة في إقامة مبانيه وفي صناعاته فكان منذ فجر التاريخ وما قبله يصنع سقف مقبرته من الخشب ، كما يشاهد ذلك في سقارة ، وفي نجع الدير (1) ، وكذلك كان يستعمله في بناء السفن ، وفي الأدوات المنزلية ، غير أن مصر طوال تاريخها لم يكن لديها الخشب الكافي لسد حاجاتها ، لذلك لجأت منذ الأزمان السحيقة إلى جاب

(1) Reisner, The Early Dy. Cemeteries of Nage- el Deir Part I, t II P. 16, 19 & 22.

الأخشاب اللازمة لها من البلاد المجاورة وبخاصة من بلاد سوريا وما جاورها
وأكثر الأشجار التي وجدناها مرسومة على جدران المعابد المصرية ، والمقابر
لم يتسن تعرفها وتمييزها بصفة قاطعة في كثير من الأحيان . وذلك لأنها كانت
ترسم دائماً بصورة مختصرة . وأهم ما عرف منها على وجه التأكيد ما يأتي :
السنت (*Acacia Nilotica Del*) وقد عثر على أجزاء منه في عصور ما قبل
التاريخ ، وبخاصة في البداري^(١) وفي العصر التاريخي من عهد الأسرة الثالثة^(٢)
والأسرة الخامسة ، ثم في الأسرة السادسة^(٣) ، وكان يجلب من « حثوب » . وقد عثر
على رسم شجرة سنط في عهد الأسرة الثانية عشرة في مقابر بني حسن^(٤) . وكان
خشبه يستعمل في بناء السفن الحربية ، والقوارب ؛ كما يستعمل الآن في مصر لهذا
الغرض ، وكان يجلب كذلك من بلاد « وولت » بالنوبة . كما كان زهر السنت
يدخل ضمن صناعة أكاليل الموتى ، وثماره المعروفة بالقرض كانت تستخدم في
الطب ، وبعض الصناعات الأخرى كاللبانة .

النخيل *Phoenix Dactylifera* : عثر على بقايا من جذوع النخل في
مصر منذ العصر الحجري القديم العلوي في الواحة الخارجة^(٥) .

والواقع أنه كان يزرع في مصر منذ أقدم العهود ، وكانت تستعمل جذوعه في
السقف ، وقد عثر على سقف مقبرة من فلول النخل في سقارة ، يرجع عهدها إلى
الأسرة الثانية ، أو الثالثة^(٦) ، وكذلك عثر على سقف من الحجر مقلدة عليه جذوع

(1) Brunton., Badarian Civil. P. 95.

(2) Br. A. R., I, P. 336.

(3) Rec. Tr. XVIII. P. 85. & Br. A. R. I, 323 & 234

(4) Beni-Hassan IV Frontspiece.

(5) Caton Thomp. & Gard. Geog. of Kharga oasis in the Geog.
Journ. IV P. 27

(6) Ex. Saq. (1912-1914) P. 21.

النخل فى حفائر الجامعة بمنطقة الأهرام بالجيزة فى مقبرة « رع ور » من الأسرة الخامسة ، وفى مقبرة من الأسرة الرابعة ، وفى مقبرة « فتاح حتب » بسقارة .

ونخيل الدوم (*Hyphaene thebaica* Nart) أول رسم عثر عليه لهذه النخلة وجد فى مقبرة العظيم « كا إم نفرت » فى عهد الدولة القديمة (١) . ولا شك أنها كانت موجودة فى مصر منذ عهد ما قبل الأسرات ، إذ عثر على بذورها فى مقابر البدارى (٢) . وفضلا عن أكل ثمار النخل والدوم ، فإن خوص أشجارها كان يستعمل فى عمل السلال ، وليفها لعمل الحبال والشباك . ويلاحظ أن عمل حبال أسطول الفرعون « سحورع » (٣) ، التى كان يبلغ طول الحبل منها نحو ٣٠ ذراعاً كانت تصنع من ليف النخيل ، وكان يصنع من خوص الدوم وفروعه السلال والحصير ، والأطباق ، والنعال والعصى والأقفاص .

الجميز (*Ficus sycomorus*) لا جدال فى أن شجرة الجميز كانت تزرع فى مصر منذ عصر ما قبل الأسرات إذ عثر على خشبها (٤) فى مقابر نقادة وبلاص ، وعلى ثمارها فى عهد الأسرة الأولى (٥) . ويوجد فى المتحف المصرى ستة نماذج لشجرة الجميز ، عثر عليها « ونلوك » فى نماذج حدائق من عهد الأسرة الحادية عشرة (٦) وكذلك عثر على قطع من خشب الجميز يرجع عهدها إلى الأسرة الخامسة وشجرة الجميز كانت تعتبر عند المصرى القديم من الأشجار المقدسة (أنظر الجزء الأول ص ١٩٧) هذا فضلا عن أنه كان يعتقد أن تابوت الإله أوزير نفسه

(1) Selim Hassan, Ex. Giza, Vol II P. 136.

(2) Brunton., Badarian Civil. P' 63.

(3) Borchardt, Grabdenkmal des Königs Sahure Pl 12 & 13

(4) Flinders Petrie & Quibell, Nagada & Ballas, P. 54.

(5) Petrie, Royal Tombs of the Earliest Dy. II P. 36, 38.

(6) Winckel. Bull. Met. Museum of Art New York, II (1922) P. 26,

صنع من خشبها ؛ وكانت تظله بفيها من اليوم الرابع والعشرين من شهر كيهك⁽¹⁾ إلى نهايته ، وهذه المدة هي عيد الإله أوزير . وكان خشب الجيز يستعمل عادة لعمل تماثيل الإلهات ، ولصنع الأثاث والتوابيت والتماثيل على العموم . أما ثماره فكانت تؤكل وتقدم قربان . وتستعمل المادة التي تتقاطر من لجاء هذه الشجرة عند قطعها ببدية في الأدوية⁽²⁾ ، وبخاصة للعين وأمراض الجلد (القوب) وكان يصنع منه نوع من الخريسى⁽³⁾ نيزد التين .

ولما كان الجيز في مصر لا يتكاثر بنفسه فإن زراعته كانت تتوقف على نشاط الإنسان ، مما يدل على تعرف قدماء المصريين على طرق الإكثار الخضرى ، كما أنهم عرفوا طريقة التختين . وتوجد عينة من الجيز المحنن ، وجدت بمخازن هرم «زوسر» المدرج بسقارة من عصر الأسرة الثالثة وهي محفوظة الآن بقسم الزراعة القديمة بمتحف فؤاد الأول الزراعى .

البرساء (اللبخ عند العرب) (*Mimusops Schimperii Hochst*) وكانت هذه الشجرة مقدسة للإله أوزير .

وقد عثر على فروع منها يرجع عهدها إلى الدولة الوسطى⁽⁴⁾ وكان يصنع من خشبها الأثاث وتماثيل المجاوبين ، وتؤكل فاكهتها . وهى غير اللبخ المعروف في مصر الآن . وكانت أوراقها تدخل في صناعة معظم

(1) Fêtes d'Osiris au mois de Khoiak Chap. V Rec Tr.
t III P. 66.

(2) Loret, la Flore, P. 47. & Von Bissing, Geninikai.

(3) Newberry, Proc. Soc. Bib. arch. XXI P 304.

(4) Moret, Rois et Dieux d'Egypte, 2^e Ed. P. 9.

الأكاليل الجنائزية . وعثر في مقابر دير المدينة بالاقصر على طاقات كاملة من أفرع هذه الشجرة من الأسرة الثامنة عشر ووجدت ثمارها بمقبرة «توت عنخ آمون» . وقد اقترضت من مصر حوالى القرن السابع الهجرى .
شجرة النبق (*Zizyphus Spina Christi*) وقد عثر على فاكهتها في قبور عصر ما قبل الأسرات⁽¹⁾ ويستعمل خشبها كثيرا في التجارة المصرية حتى الآن .

شجرة الأثل (*Tamarix nilotica*) يوجد من هذه الشجرة أنواع عدة في مصر ؛ وقد عثر على قطع متحجرة منها في وادى قنا منذ العهد الحجري القديم ، وكذلك عثر على خشبها منذ العصر الحجري⁽²⁾ الحديث وفي البدارى⁽³⁾ ، وفي عهد ما قبل الأسرات ؛ وقد جاء ذكرها منذ عهد الأهرام⁽⁴⁾ . وقد كانت مقدسة للإله أوزير . لذلك زرعوها على بعض القبور . ولا تزال تنمو بكثرة في مصر وكان يصنع من خشبها كثير من أدوات الفلاحة .

شجرة الصفصاف (*Salix safsaf Forsk*) هذه الشجرة يرجع تاريخ وجودها في مصر إلى عصر ما قبل الأسرات ، إذ عثر على يد سكين من خشبها⁽⁵⁾ ، وعلى صندوق من الأسرة الثالثة وكانت أوراقها تستعمل

(1) Flinders Petrie, Prehistoric Egypt, 44.

(2) Sandford, The Pliocene & Pliostocene Deposits of Wadi Qena in Quart, J. G. S. LXXXV (1929) P. 503.

(3) Caton Th. The Neolithic Ind, of the N. Fayum Desert in Journ. Royal Anth. Inst. LVI (1926) P. 314 No. 2 & Brunton & Caton op. cit. 38 & 62.

(4) W. M. t III, P. 349.

(5) Mollers & Scharff, Das Vorgeschitliche Graberfeld Von Abusir El Meleq P 47.

في عمل الأكاليل في عهد الأسرة الثامنة عشرة وما بعدها . وهذه الشجرة كانت مقدسة في دندرة ، وكان الملك يأتي في أحد أعياد السنة المقدسة وينصب شجرة صفاف أمام الإلهة حتحور (1) ويخاطبها .

شجر المحيط : Cordia Myxa وجدت فروعه في مقابر الأسرة الثانية عشر بطيبة كما صنعت من ثماره بعض أنواع الخمر ، واستعمل ثمره في صيد الطيور .

أشجار التين : Ficus Carica توجد منقوشة على جدران المقابر ، وخصوصا في بني حسن والأقصر ، وقد تسلقها القردة لتطف ثمارها .

الهجليج أو تمر العرب : Balanites aegyptiaca وجدت ثماره في كثير من المقابر وخصوصا منذ الأسرة ١٢ وكان يستخرج منه زيت يستعمل في التطيب ومحفوظة منه عينات بمتحف فؤاد الأول الزراعى .

وتدل الأحوال على أن صناعة النجارة لم تتقدم تماما في مصر إلا منذ كشف معدن النحاس . والآلات التي كانت تستعمل في النجارة وجدت مرسومة على المقابر أو وجد منها نماذج صغيرة في المقابر كالمجاميع التي عثر عليها في سقارة في مقبرة ابن « قى » وفي مقابر حفائر الهرم السليمة ، وهذه الآلات بعضها معروف استعماله ، وبعضها لم يعرف بعد ، وأهم ما عرف منها القدوم ، والبلطة ، والفخرز ، والإزميل أو المنقار ، والأجنة ، والمطرقة والمنشار . ونشاهد صناعة الأخشاب في مقابر الدولة القديمة في سقارة من عهد الأسرة الخامسة . (2)

ومن أهم الأمثلة التي تبرهن على مهارة المصرى في صناعة الخشب

(1) Bull. I. Eg. 1882. 2e Serie t. III P 68.

(2) Das Grab des Ti (Steindorff) Pls 119, 120, 132, & 133.

تمثال شيخ البلد ، ونجارة الملكة « حتب حرس » من عهد الأسرة الرابعة
في المتحف المصرى .

الاشباب الاجنبية

ظلت مصر منذ أقدم العصور حتى الآن فى حاجة إلى جلب الأخشاب
من البلاد المجاورة لها . وأهم البلاد التى كانت تجلب منها الأخشاب عدا
الأبانوس ؛ بلاد آشور ، وأرض الإله « البنت » ، وبلاد الحثيين ،
ولبنان ، والنهرين ، وبلاد زامى « سوريا » وفلسطين . وكل هذه البلاد
ماعداء بلاد « بنت » التى كان يأتى منها خشب الابانوس ، وبعض الأخشاب
ذوات الروائح العطرية التى كانت تستعمل « بخورا » واهتمت فى غرب آسيا .
وقد ذكرت لنا المتون المصرية أنواعا عدة من الأخشاب ، والأشجار
لم يحقق منها إلا عدد يسير جدا .

وأهم الأخشاب التى جاء ذكرها فى نصوص الدولة القديمة ما يأتى : —
الأرز ، والسرو ، وشجر العرعر ، والبلوط والصنوبر .

وقد ذكر خشب الأرز فى المتون المصرية باسم « عش » . ولكن
علماء الآثار اختلفوا فى بادىء الأمر فى ترجمة هذا الاسم . فمن قائل
أنه السنط المصرى ، ومن قائل إنه اللبخ . ولكن الرأى الأخير أثبت
أنه الأرز الذى يكثر فى جبال لبنان . وقد جاء اسمه فى متون الدولة
القديمة وبخاصة فى متون الأهرام . وكانت هذه الشجرة مقدسة للإله
« أوزير » إله الموتى الذى كان ينتحب مثل صوت شجرة الأرز ، والذى كان

مختبثا في قلبها في جبال بيلوص (1) « جيبيل » . ورغم كل ذلك فإن الأستاذ « لوريه » يقول إنها شجرة الضنوبر ، ويقال إن خشبها يستعمل في مصر منذ عهد ما قبل الأسرات . وكان خشب الأرز يستعمل في عمل الأبواب وفي صنع أثاث المعابد ، والقصور وغيرها .

الابانوس « هبني » : وتدل النقوش على أنه كان يجلب من بلاد كوش وبلاد النوبة ، وبلاد بنت ، والممالك الجنوبية . والظاهر أنه كان لا ينمو في كل هذه الجهات ، ولكنه كان يصل إلى مصر من الجنوب فقط ، وكان يستعمل منذ عهد الأسرة الأولى (2) ، إذ عثر على لوحة منه ، وعلى خاتم أسطوانى الشكل منه أيضا . ولكن اسم الخشب ذكر أولا على ما نعلم في عهد الأسرة السادسة (3) ، وكان يستعمل في أغراض شتى كعمل الصناديق ، والتوايت وآلة الطرب (العود) ، والمحاريب الصغيرة ، والتماثيل والعصى ، ولكننا لا نعرف إذا كانت هذه الأشياء صنعت في مصر أو كانت تجلب إليها من الخارج . ويقول الأستاذ لوريه أن المصريين عرفوا الابانوس عن طريق الحبشة (4) .

البخور والروائح العطرية : مما لا جدال فيه أن البخور كان يستعمل في مصر في المعابد ، والمقابر . وقد جاء ذكر استعمال البخور في مصر في نقوش الأسرتين الخامسة والسادسة (5) . وأهم ما كان يجلب منه إلى مصر « الكندر » ، وهو نوع من الصمغ « عنتى » لونه أبيض مائل إلى الصفرة أو أسمر ، وهو شفاف ، وأشجاره تنبت في الصومال ، وجنوبي بلاد العرب .

(1) Sethe A. Z. t XLVP. 13 & L X L VIII P. 71

(2) Flinders Petrie, Royal Tombs of the First Dy. P P. 11, 22, 40.

(3) Br. A. R. I. P 336.

(4) Agt. A. E., Hart, P 34.

(5) Frankfurt, The Cemeteries of Abydos, 1925-1926 in J. E. A., XVI 1930, P 217.

ومن أهم مواد البخور التي كانت تجلب إلى مصر المر ، واللبان الذ كر . وكانت من أهم مستلزمات الطقوس الدينية كما كانت تستعمل الأصماغ والراتبجات من الأشجار الصنوبرية . وهناك نوع آخر يأتي من بلاد شرق السودان بالقرب من جلابات ، ومن البقاع المتاخمة لبلاد الحبشة . وقد ذكرت لنا المتون المصرية أنه كان يجلب من بلاد قبائل العبيد في عهد الأسرة السادسة (1) ، ومن بلاد بنت . وقد ذكر الأستاذ «نيوبري» أن اللادن كان يستعمل في مصر منذ الأسرة الأولى (2) .

النباتات ذات الألياف

كان المصري يستعمل النباتات ذات الألياف في حاجاته اليومية . وأهمها الكتان وألياف النخيل والحلفاء التي كانت تستعمل في عمل الحبال منذ أقدم العهود (3) .

الغاب أو البوص : كان يستعمل منذ الأزمان السحيقة ، وكان نباته يتخذ وهو مزهر شارة تدل على الوحه القبلى لكثرة نموه فيه . واستعمل في بناء مساكن فقراء القوم ، وكانت أزهاره تعمل طاقات منذ عهد ما قبل الاسرات ، وكان كثير الانتشار في مناطق الدلتا وعمل منه بعض الأثاث كالسلال ؛ وكذلك السهام ، وأنايب للنفخ في كور الصائغ ، واليراع المثقب ، والاقلام ، والحراب . هذا إلى أنه كانت تصنع منه قوارب صغيرة في الأعياد والاحتفالات الدينية على طراز القوارب التي كانت تصنع من البردى (4)

(1) Br. A. R. t P 336, 369.

(2) J. E. A., XV, 1929, P 94.

(3) Loret. La Floie P 106.

(4) Agt. A. E. Hart, P 41.

السعد وحب العزيز : وهما من الفصيلة البردية ، وينموان في أراضي الجزر الرملية والجهات الرطبة وهما على أنواع شتى ، ويعتقد الأستاذ شيفنهورث أنه ينبت منهما في مصر ثمانية عشر نوعاً (1). والنوع المسعى حب العزيز كان ولا يزال يؤكل ويتفكه به. والسعد نبات مثلث الشكل كالبردى له رائحة طيبة ، ولذلك كان يستعمل في التحنيط ، وقد وجدت منه حبوب ترجع إلى عهد ما قبل الأسرات .

البردى *Cyperus papyrus* : هو النبات الدال على الوجه البحرى ، وكان يستعمل في أغراض شتى . فكان يصنع منه الورق كما سنذكر بعد ، ويؤكل ويعمل من سيقانه الحصر والسلال والغرايل الخ .

البشنين *Nymphaea* وهو اللوتس وكان ينمو في مصر بنوعيه الأزرق *N. coerulea* ، والأبيض *N. Lotus* منذ أقدم العصور ، وكانت جذوره تؤكل على ما يظهر منذ عهد ما قبل التاريخ كما كان يصنع من بذوره نوع من الخبز . أما أزهاره فكانت تستعمل في صنع الأكاليل ، والطاقات . كما كان لها المقام الأول في الحفلات والزينات (2) .

أما البشنين *Nelumbium spiciosum* المعروف باسم «القول المصرى» فهو من ألطف أنواع البشنين وقد أدخله الفرس في مصر حوالى سنة ٥٢٥ ق . م . وقد ذكر « هردوت » (3) أن المصريين كانوا يتزينون به . ومما هو جدير بالذكر أن زهر اللوتس على الإطلاق اتخذ محوراً للزخرفة ورمزه إلى الجمال والركة . ولا يزال إلى يومنا هذا يتحكم في الفنون الجميلة .

النباتات الطبية : يظهر أن المصرى منذ أقدم العهود قد برع في استعمال النباتات

(1) Illustration De la Flore d'Egypte N. 1079-1096.

(2) Agr. A. E. Hart., P 42.

(3) H. II, P 92 & W. m. t. III P 346.

الطب . ويمكن القول حسب رأى الأستاذ موريه أنه جاء فى الأوراق الطبية أكثر من ٥٠٠ نبات استخرجت منها مواد طبية (١).

الحبوب التى كانت تزرع فى مصر .

لما اهتدى الإنسان أول الأمر إلى النباتات الغذائية التى كانت تنبت بالطبيعة ، وعرف فائدتها ، أخذ فى زرعها وتعمدها بالرى والسماذ وأهم هذه النباتات على ما نعلم هى الحنطة . وهى نبات يشبه الشعير ، ولكنه فى الواقع نوع من القمح . وقد بقى يزرع فى مصر طوال عهودها التاريخية ولعله انقرض من البلاد فى القرن الأول المسيحى ويعرف عند الفرنج باسم Emmer . وقد وجدت حبوبه فى مقابر « مرمدة » كما ذكرنا ذلك آنفاً فى عهود ما قبل التاريخ . وكذلك عثر عليه فى مقابر عصر الأسر الأولى وما بعدها . ويعزى استعماله فى الأساطير إلى الإله « أوزير » الذى يقال إنه وجد الشعير نامياً بين النباتات البرية بطريق الصدفة فدرس طباعته (٢) ثم صنعت له أخته وزوجه إيزيس منه الخبز ، ولذلك تعتبر سنابل القمح والشعير من الأشياء المقدسة التى يرمز بها لهذه الآلهة ؛ وقد وجد الشعير فى المقابر القديمة مع الحنطة منذ عصر ما قبل الأسرات ، وكذلك عثر على سنابل شعير منذ عهد الأسرة الخامسة ولكن فى حالة تحلل وقد استعمله قدماء المصريين خبزاً فى عهد بناء الأهرام ولعمل الجعة حسب رواية هردوت (٣) .

(1) Moret, L'Egypte au temps des Pharaons, 1890, P 220

(2) Deodore II P. 8.

(3) Herodote II, 77.

ورغم كل ما ذكر فإن الرسوم التي وجدناها على مقابر الدولة القديمة لم تعطينا فكرة معينة عن أنواع الحبوب ، كما أن قوائم موائد القربان لم تترجم إلى الآن ترجمة تجعلنا في مركز نحكم به على أنواع هذه الحبوب . وعلى أية حالة فإننا نعرف على وجه التقريب الحبوب الرئيسية من النماذج التي حفظت لنا في المقابر المختلفة منذ عصر ما قبل الأسرات ، وهي التي نسبها القوم كما ذكرنا للإله أوزير⁽¹⁾ وقد كشف عن نوع من القمح منذ عصر نقادة ، وهو ما تسميه النقوش

في الدولة القديمة « بدت »⁽²⁾ *Triticum, Decocum*

وكذلك عثر على نوع من الشعير أطلق عليه المصري في النقوش اسم «أت»^(2bis) وهذا النوع قد حققه العالم شفينفورت تحت اسم (*Hordeum Hexastichum*) وقد ذكر «موتيه» نوعاً آخر يسمى «بش»⁽³⁾ . نتعرفه في مقبرة « مرا » بسقارة وفي مصطبة ليدن . ويقول الأستاذ بترى أن القمح النشوى يرجع تاريخ وجوده في مصر إلى العصر الحجري الحديث ولا يزال يزرع الآن في ممالك أوروبا ، وعلى حسب قول المؤرخين كان يصنع منه الخبز المصري المعتاد⁽⁴⁾ ، أما الحنطة أو الجاودار (*Triticum Vulgare*) فتعد أنها أقدم نوع من الحبوب بذل الإنسان فيه مجهوداً لتجسيته بعد أن كان نباتاً برياً . وقد عثر على حبوبه محفولة في الأواني وفي الإقداح وهو ما يطلق عليه في النقوش لفظة « سوت »⁽⁵⁾

أما الذرة (*Sorghum Vulgare*) فقد أنكر العالم شفينفورت وجود الذرة في

(1) Breasted, The Place of the Near Orient in the career of man, PP. 174.

(2) Junker Giza I, pp. 178, 246.

(3) Montet, Scène de la vie Privée, P. 200.

(4) Petrie, Descriptive Sociology Col 211 n 2,

(5) Kees Aegypten P. 32 et n 2. & Junker Giza I, P. 178.

مصر ولكن «مسبرو» يظن أنه قد عبر عنها في كلمة «ديراتي» أو دوراتي « وهي المذكورة في ورقة بردى من عهد الأسرة التاسعة عشرة ، وشاركه في رأيه «ولكنسون» و «إرمن» وغيرهما ممن ظنوا أنهم حققوا وجود هذا النبات على الآثار المصرية (1) ومهما يكن من أمر فإن زراعة الذرة في عهد الدولة القديمة لم تتم على دليل قاطع وهذا خلافاً للقمح فإن وجوده كان مميزاً في كثير من المتون، فأحياناً يذكر المتن حبوباً بيضاء وأحياناً يذكر حبوباً حمراء وفي متون أخرى نجد ذكر شعير الوجه البحرى وشعير الوجه القبلى (2)

وقد تساءل الاستاذ «إرمن» عن سبب هذه التسمية دون أن يجاب (3) والواقع أن قمح الوجه البحرى له طابع خاص في أيامنا هذه وقمح الوجه القبلى له ميزة خاصة (قمح بحيرى ، وقمح صعيدى) وربما كانت هذه التسمية جاءت عن طريق التسمية الثنائية للقطرين .

الخضر : كان المصرى منذ أقدم العهود يستعمل الخضر في طعامه لفائدتها من جهة واقتصاداً في أكل اللحوم من جهة أخرى ، وكان يقدم كثيراً منها على موائد القربان التى منها تعرفنا على كثير من أنواع الخضر المصرية القديمة ، وأهمها الخس ، والبصل ، والفاقوس ، كما عرفوا الكرفس ، والحليض ، والفجل ، والكراث ، والثوم الخ .

الفول Faba Vugaris : وقد ذكر هردوت أن أكله كان محرماً في بعض الجهات . وقد عثر على حبوب منه ، ولكن من عهد الأسرة الثامنة عشرة (4)

(1) Schweinfurth. Bull. Inst. Eg. t VII P 422.

Maspero, Histoire t I, P 66. (3) Wilkenon, Manners & Customs, t II, P 27.

Hartmann, Agriculture, P 53. (4) Kees, Aegypten, P 338 note 7 .

(2) Kees, Aegypten, p p 31, 36, n 2,40-41, 207 th 294

(3) Erman-Ranke, Aegypten P 522.

(4) Loret, la Flore Phar. II P.94

العدس *Lens esculenta* ذكر «هردوت» أنه كان يستعمل طعاماً لبناء الأهرام ، وقد عثر على إبقاء فيه عدس مطبوخ في مقبرة في دراع أبو النجا بالأقصر ، وهذا الإبقاء موجود الآن بمتحف القاهرة (1) .

الحمص : عرف بمصر منذ عهد الدولة القديمة . ويوجد نموذج منه من عصر الأسرة الثامنة عشرة محفوظ بقسم الزراعة القديمة بمتحف فؤاد الأول الزراعى بالاميا . لم يثبت وجودها في العصر الفرعونى ، ولكنها وجدت في العصر الإغريقى الرومانى .

الفاقوس : وجد كثيراً ممثلاً على موائد القربان المصرية في العهد الفرعونى (2)

البطيخ : *Citrullus Colocynthoides* Schwf. : ويقال إن رسم البطيخ شوهد على موائد القربان ، إلا أن البطيخ الذى عرف أيام الفراعنة ، يرجح أنه من النوع البرى الصغير الذى ينمو للآن في بلاد النوبة ، وشرق السودان . وربما كان هنا هو أصل الأنواع الكبيرة . وقد ذكره «أنجار» فى كتابه عن النباتات ، وكذلك «لبسيوس» ، وأعطى صوراً منه منذ عهد الأسرة الخامسة (3) . وكان ورقه كذلك يوضع على تابوت المتوفى . وقد ذكر اسمه فى قصة البحار الغريق من عهد الدولة الوسطى .

الكراث : وهذا النبات الذى لا يزال يؤكل فى مصر إلى الآن كان يزرع فى مصر منذ الأسرة الخامسة على الأرجح ، إذ أن اسمه باللغة المصرية القديمة قد وجد فى تركيب اسم إحدى ضياع العظيم «تى» (4) ،

(1) Bull. I. Eg. 1884 P. 7, No. 18.

(2) Agr. A. E., Hart., P. 35.

(3) Lep. Denk. II, Pl. 69 Saqqara, V th, Dvii

(4) Loret, Rec. Tr. t. XVI, p p. 1, Sq., t. XVII, p. 184.

الذى يرجع عهده إلى الأسرة الخامسة وقد وجد هذا الاسم ثانية فى عهد الدولة الوسطى^(١) .

الكرفس : عثر على حبات من بذوره محفوظة فى متحف فلورنس ، وكانت أوراقه وزهوره تحلى بها الموميات . وتوجد فلادة منه من العصر الفرعونى محفوظة بقسم الزراعة القديمة بمتحف فؤاد الأول الزراعى ؛ وكان يستعمل كثيرا مادة طبية .

الحس : وهو من النباتات ذات الأنواع العدة ، وكان يزرع فى مصر منذ أقدم عهود الفراعنة . وقد مثل فى سلال القبرابين بوبرقه الأخضر . وقد عثر على حبات من بذوره ، وهى محفوظة الآن بمتحف برلين ، وكذلك بمتحف فؤاد الأول الزراعى ، وهذا النبات هو الذى يرسم أمام المعبود «مين» إله التناسل ؛ لأنه يعد من النباتات التى فيها قوة حيوية . وقد عثر على نباتات أخرى عدة بعضها على الموميات ، وبعضها ممثل على موائد القربان ، أو مذكور فى قوائمها ، وأهمها الحميض ، والفجل^(٢) ، والشبث وقد ذكر «بترى» فى كتابه Descriptive Sociology من ١٤٥ - ١٤٦ جدولاً لكل أسماء هذه النباتات والمصادر التى استقاها منها . أما البصل فإنه رغم كثرة زراعته فى مصر فلم يظهر على موائد القربان إلا فى عهد الأسرة الخامسة^(٣) . ويظهر أن المصريين كانوا يأكلونه بكيات عظيمة إذا صدقنا ما ذكره «هردوت»^(٤) . وقد كان يستعمل

(١) Sphinx, t. VIII, p. 145.

(٢) Agr. A. E. Hart. P. 56 op. P 57.

(٣) Sphinx, t. VIII, p. 144.

(٤) H. 125.

في الوصفات الطبية كثيرا لشفاء عدة أمراض . (1) ولا نزاع في أن عادة أكل البصل ، وتعليقه في عيد شم النسيم ترجع إلى عادة مصرية قديمة . وقد كان عند المصريين عيد خاص يسمى عيد « تريت » يحل في فيه جيد الناس بالبصل في ليلة العيد وذلك في ٢٥ كيهك . ويمشون وراء تماثيل الإله فتاح « سكر » .

الثوم : وكان المصري يستعمل الثوم كثيرا في أكله كما هو الحال الآن ، وفي الوصفات الطبية وقد عثر على حباته منذ عهد ما قبل الأسرات (2) على شكل نماذج من الحجر والعاج ، وتوجد عينات منه طبيعية محفوظة بمتحف فؤاد الأول الزراعى .

التوابل : وتدل الكشوف الأثرية على أن المصري كان يستعمل كثيرا التوابل ، التي لم يستعملها الأوريون ؛ إلا بعد الحروب الصليبية ، عندما تقلوها معهم من الشرق . وأهم هذه النباتات هي الكزبرة (3) ، وقد وجدت ضمن مخلفات الملك « توت عنخ آمون » كما وجدت كذلك في قوائم القربان منذ عهد الأسرة الخامسة مذكورة هي والكراويا .

وكذلك استعمل المصري الينسون ، والسكون الذي كان يستخرج (4) منه الزيت .

أشجار الفاكهة : كانت أشجار الحقائق ، والكروم تزرع في مصر منذ أقدم العهود . ونخص بالذكر منها أولا . الكرم (العنب) وقد عثر

(1) Rec. Tr. XVI, p. 101. & Egyptian Religion, 1933, p. 52 etc.

(2) Petrie, Prehis. Egy. Pl. 46 No. 24 and Ayrton, & Loat, Predyn. cemetery at El Mahasna, 1911, p. 17.

(3) Louvre, Bas Relief, B. 49. V. Dyn.

(4) La Flore, p. 57 & 415,

على رسم عصارة نبيذ العنب من عهد الأسرة الأولى (1) . وكذلك عثر على أواني نبيذ ترجع إلى هذا العهد ، ولكن أول ما ذكر اسم العنب بالمصرية ، كان فى الأسرة الثالثة (2) فى تاريخ حياة « متن » (ص ١١ الجزء الأول) وما كان له من الكروم العظيمة المساحة ؛ وكان النبيذ يستعمل قربانا إلهيا ، فى قرابين المساء ، وفى قرابين الأعياد ؛ والقرابين المأتمية ، كما كان يؤخذ شرابا ويحصل ضريبة . ومناظر جمع العنب ودهسه بالأرجل ، أو عصره تشاهد على جدران مقابر عصور مصر المختلفة منذ الأسر الرابعة والخامسة (3) والسادسة (4) ، وقد كانت عملية عصير العنب فى غاية من البساطة ، والظاهر أن لون النبيذ كان أحيانا أسود ، وأحيانا أبيض ، وربما كان ذلك هو السبب الذى دعا الأستاذ « إرمن » ؛ إلى أن يقول بوجود صنفين من النبيذ الأبيض ، والأسود (5) فى عهد الدولة القديمة .

ومن المرجح أنه كان يسود فى العصور الفرعونية ، العنب الأحمر القاتم لأن معظم الثمار التى وجدت كانت بيضية الشكل ، ذات لون أحمر قاتم . قرينة الشبه من الصنف الذى يزرع فى مصر العليا ، والفيوم الآن . ويوجد نموذج من الزبيب (من النوع الأسود) محفوظ بقسم الزراعة القديمة بمتحف فؤاد الأول الزراعى . يرجع عهده للأسرة الثامنة عشرة عثر عليه فى مقابر دير المدينة بالأقصر .

(1) Flinders Petrie, Social life, p. 102, 135.

(2) Br. A. R., I, P. 173.

(3) Davies, Ptah hotep at Sakkara, I, P. XXIII.

(4) The Tomb of Meruka (Mera).

(5) Erman, Life in Anc. Egy. 1894, p. 196.

وبهذه المناسبة نذكر أنه كان يستخرج من نخيل البلح نوع من الخمر، ذكر منذ عهد الأسرة السادسة في متون الأهرام. (1) . يختلف عن النبيذ الذي كان يستخرج من البلح منذ الأسرة السادسة (2) أيضا ، وهو المعروف الآن بالعرق .

الزمان : وجد اسمه في اللغة المصرية « رمن » غير أن أقدم رسم له كان في عهد اخناتون (3) ؛ وكانت منتجاته كثيرة . أما النبيذ الذي كان يستخرج منه فلم يذكر إلا في العصور (4) المتأخرة .

زراعة نباتات الالياف

الكتان : هو النبات الوحيد ، الذي استعملت أليافه في صناعة النسيج ، طوال عصور مصر الفرعونية ؛ للاعتقاد السائد وقتئذ بأن « أوزير » كفن في الكتان بعد موته . وتدل بقايا الأقمشة التي عثر عليها منذ عصر البدارى ، على أن صناعة نسيج الكتان كانت منتشرة في مصر منذ أقدم عهودها ، وبخاصة عند ما نعلم أن الأستاذ « ينكر » عثر في مقابر مرمدة (بنى سلامة) على قطع من غزل الكتان أقدم مما وجد في البدارى (5) وكذلك عثر على أقمشة من العهد الحجري الحديث في الفيوم (6) . ولا

(1) F. F. Bruijning, The Tree of the Herakleopolite Nome in Anc. Eg. 1922, p. 1-8.

(2) Lucas, Ancient Egyptian Materials, p 22.

(3) Petrie, Tell-el Amarna, Pl. 32.

(4) Hunt. The Oxyrhynchus Pap. VIII, P. 241.

(5) Badarian Civil. Brunton, P. 46-7.

(6) Caton Thompson The Neolithic Ind. of the N. Fayum Desert, in Jour. Royal. anth. Inst. LVI, (1926) P 315.

نزاع إذن في أن الغزل والنسيج كانا من أقدم الحرف في مصر. ولكن تمثيل هذه الصناعات لم يعثر عليه منقوشاً إلا في عهد الأسرة الثانية عشرة في مقابر بني حسن ، حيث مثلت الأدوار التي تمر على النبات من تعطيل ، ودق ، وتمشيط ، وغزل ، ونسيج . هذا إلى أنه كشف عن نماذج للنساء يشتغلن بالغزل والنسيج في مقابر الأسرة الحادية عشرة في طيبة وهذه النماذج محفوظة الآن في متحف القاهرة (1)

وتدل البذور الكثيرة التي عثر عليها في المقابر المصرية على أنه كان هناك نوع خاص من الكتان يختلف عن النوع الذي يزرع في البلاد الآن (2). وقد تكلم مؤرخو اليونان عن نسيج الكتان المصرى ودقة صنعه ، وخصوا نوعاً منه دقيقاً جداً حتى أنهم قالوا إنه نسيج بالهواء ويطلق عليه اسم Byssus (3) ، ويعتقد الأستاذ « لوريه » أن هذه اللفظة تقابل في اللغة المصرية القديمة كلمة « نيسوت » ، أى ملكى للدلالة على أ finer نوع من نسيج الكتان (4)

زراعة القطن ، واستعماله في مصر (5) : لقد تضاربت الأقوال ؛ والآراء في موضوع استعمال القطن في مصر ؛ ومعرفة المصريين له ؛ فمن ذلك أن « روزليني » يقول بوجود بذور هذا النبات في مقابر المصريين القدماء (6) . وكذلك عثر على بعض أكفان فحست ويقال إنها

(1) H. E. Winlock, The Egy. Exp. 1918-1920, In Bull. Met. Mus. of Art New-York, 1920, P. 22.

(2) Bull. I. Egy., 1884, P. 5.

(3) Décret de Canope, Ligne 17.

(4) Loret, L'Egypte au temps des Pharaons, P. 178.

(5) Griffith & Crowfoot. On the Early use of Cotton in the Nile Valley in J. E. A. XI, 1934, P. 5-12.

(6) Rosellini, Mon. Civ. t. I, P. 60. Monum. della Egizia P. 2.

مصنوعة من القطن ؛ بيد أنه لم نعثر على وثائق حتى عصر الرومان تدل على صناعة القطن في مصر أو زرعه فيها . غير أن الأستاذ « ريزنو » اكتشف قطع نسيج قطنية من العهد الإغريقي الروماني في السودان في بلدة « مرو » (1) وكذلك ذكر لنا « هردوت » الذي عاش في القرن السادس قبل الميلاد (٥٦٩ - ٥٢٥ . ق . م) أن « أحس » أحد ملوك الأسرة السادسة والعشرين أهدى قميصين من القطن (2) . وكذلك ذكر لنا « بليني » الذي عاش في العصر الأول بعد الميلاد ؛ أن الجزء العلوى من مصر المجاور لبلاد العرب كان يزرع نباتا يسمى *Gossypium* ؛ وأن أحسن ملابس يلبسها الكهنة كانت من قنائل هذا النبات (3) ؛ غير أن كلام « بليني » لا يعتمد عليه كثيراً . ويمكن القول بأن القطن لم يعرف في مصر الفرعونية .

النباتات التى تستعمل فى الصباغة : أهم النباتات التى كانت تستخرج منها الأصباغ فى مصر هى النيل ، والعصفر المستخرج من زهر القرم
وقد عثر على اسمه منذ عهد الملك « تيتى » فى الأسرة السادسة كما ذكر الأستاذ « لوريه » ؛ وكان يزرع (4) فى حقول القمح ؛ وكذلك الحناء (5)

شجرة الزيتون وزيتها : كان أول من عثر على اسم شجرة الزيتون فى المتون المصرية هو « نيوبرى » فى متون الأسرة الثالثة (6) . غير

(1) Loret, la Flore, P. 105.

(2) E. Massey, A note on the early history of cotton in Sudan. Notes and records, VI, (1923) P. 231-3.

(3) H., t. III, P. 47.

(4) Rec. Tr. t. XVI, p. 1

(5) Agr. A. E. Hart, p. 64

(6) Meidum, pl. 13, col. I .

أن اسم زيت الزيتون لم يعثر عليه إلا نادراً جداً في عهد الدولة الحديثة (ويعتقد الأستاذ « نيوبرى »⁽¹⁾ أن الزيتون كان يزرع في مصر منذ بداية العصر التاريخي غير أن ذلك مشكوك فيه) . وأول تمثيل عثر عليه لشجرة الزيتون يرجع عهده للأسرة الثامنة عشرة⁽²⁾ . ويدعى « بليت »⁽³⁾ أن شجرة الزيتون قد أحضرت إلى مصر في عهد فتوحها العظيمة من آسيا ، وقد وافقه على ذلك « كيمر » ، إذ يقول : إن هذا النبات أحضر إلى مصر في عهد الأسرة الثامنة عشرة⁽⁴⁾ ، وقد عثر على بعض فروع صغيرة من الزيتون في مقبرة « توت عنخ آمون » .

نبات البردى : كان البردى ينبت في مناطق الدلتا ، ولكنه اختفى منها الآن . ويكثر نموه في السودان . وكان المصري القديم يستخدمه لأغراض شتى ، قد ذكر بعضها « هردوت » و « تيوفستس »⁽⁵⁾ و « بليني »⁽⁶⁾ . ولكن أهم استعمال له هو صناعة الورق منه الذى جاء على غرار الورق المعروف لنا الآن ؛ ويبلغ طول نبات البردى من سبعة إلى عشرة أقدام ؛ هذا عدا الزهرة ؛ والجذور ، ويبلغ عرض البردية نحو بوصة ونصف وقطاع الساق مثلث الشكل ؛ ويحتوى على : لحاء رفيع خشن ؛ ولب له أنسجة خلوية ؛ ومن هذا

(1) Ancient Egypt. t III, P.97 to 103.

(2) Nina de G. Davies, The Mural Painting of El-Amarna PL IXc.

(3) Bloemen en plante nit oud Egypte in het Meuseum te Leiden p. 13. Leiden, 1882.

(4) Bull. I.F.A O XXXI. 1931. p 133

(5) Bull I.F.A.O. XXXI. p. 133.

(6) Haward Carter, The Tomb of Tut-Ankh-Amon Vol II, p, 33.

كيفية صناعة
ورق البردى

اللب كان يصنع ورق البردى ؛ وقد وصف لنا « بلىنى » كيفية صنع ورق البردى ، بأنه كان يقطع ساق النبات قطعاً رفيعة كانت توضع جنباً إلى جنب على لوح من الخشب ؛ وكان يوضع فوقها عدة قطع أخرى متقاطعة تكوّن مع الأولى زوايا قائمة ، ثم تبلل بماء النيل ؛ وبعد ذلك تضغط ؛ وتجفف فى الشمس . وأضاف بعد ذلك « بلىنى » أن ماء النيل عند ما يكون معكراً يحتوى على مادة لزجة . ولكن طريقة « بلىنى » هذه على ما يظهر غامضة ؛ وخاطئة ، إذ لم يذكر لنا أن اللحاء الخارجى كان يزال قبل تقطيع اللب ، إلى أجزاء صغيرة ، وإن كان ظاهراً فى كلام له أتى بعد ذلك ؛ إذ يقول إن اللحاء كان يستعمل فقط لعمل الحبال . هذا إلى أن ماء النيل لم يكن فيه مادة لزجة عند ما يكون عكراً . وقد عملت تجارب لعمل ورق البردى كما كان يصنعه المصريون القدماء فلم تفلح إلى أن توصل الأستاذ « بتسكوم جن » إلى عمل ورق بردى مماثل لما كان يصنعه قدماء المصريين .

والطريقة التى اتبعها أنه قطع النبات الأخضر من البردى إلى عدة قطع يمكن تناولها ثم أزال اللحاء الخارجى ، وبعد ذلك قطع اللب الداخلى قطعاً غليظة ووضع نسيجاً ماصاً على لوحة من الخشب ؛ ثم رتب عدداً من هذه القطع موازياً بعضها لبعض ، ومماساً بعض الشئ . ثم وضع فوقها طائفة أخرى من هذه القطع متلاصقة ، ومكونة زوايا قائمة مع القطع التى تحتها ، ثم غطى الجميع بنسيج رفيع ماص ودقه لمدة ساعة أو ساعتين بمطرقة من الخشب ؛ وبعد ذلك وضع هذه المادة فى مكبس صغير عدة ساعات وعند الكشف عنها وجد أن القطع قد التأمت وكونت ورقة رفيعة متجانسة صالحة للكتابة ،

ثم صقلها بمض الشئ مما جعلها أكثر ملاسة ، وكان لون الورق الذى نتج من هذه العملية يكاد يكون أبيض . غير أنه كان فيه بعض عيوب أمكن إصلاحها قبل أن توضع المادة فى المكبس .

على أننا لا نعرف بالضبط التاريخ الذى بدأ فيه استعمال الورق وصناعته ، وأقدم ما عثر عليه قطع من وثائق البردى يرجع عهدها إلى الأسرة الخامسة والسادسة وهى محفوظة بالمتحف المصرى الآن (1) .

زراعة البساتين

لقد صورت النقوش والرسوم التى بقيت من عهد الدولة القديمة وغيرها صورة واضحة تفسر لنا بجلاء أن المصرى القديم ، كان مغرماً بالأزهار وزراعة البساتين ، فكان يذكرها فى شعره ، ويتخذها رموزاً وشارات ، ويجعلها تلعب فى حياته دوراً هاماً ؛ حتى أن أحد فلاسفة اليونان كان يتغنى بالعبادة التى أظهرها المصريون فى تربية الأزهار . ولا غرابة فى ذلك فإنهم كانوا يزينون بها جدران قاعات أعيادهم ويحلون بها مواعيد قربانهم حتى أننا وجدنا مائدة قربان أمام صاحب المقبرة ، وليس عليها شئ سوى الزهور (2) . وكانت تحلى أواني الخربتيجان من الزهر ؛ تشبه قلاند الأزهار التى كان يضعها الخدم حول نحور الضيوف . أما النساء فكان يضعن الزهور فى شعورهن وفى أيديهن . وقد ذكر المصرى القديم فى الوثائق التى تركها لنا أنه كان يتفياً ظلال الأشجار الياقة عند ما كان ينتظر حبيبته وهى آتية إليه وصدرها مكلل بالزهور ، وكان الفرعون نفسه يذهب إلى ساحة

(1) Cairo Museum, Nos. 49625, 5804, 58063, & 58064 .

(٢) مقبرة « دواكا » بحفائر الجامعة المصرية بمنطقة الهرم .

القتال في عربته ونحره مزين بأكاليل الزهر المختلف الأشكال والألوان .
على أن فقراء القوم لم يهتموا التزين بالأزهار ؛ إذ نجد غالباً في رسوم
الدولة القديمة أن الفلاحين كانوا يعلقون الأزهار حول نحورهم ؛ وكذلك
كانوا يزينون بها الحيوانات ، كما نجد الثيران العظيمة التي كانت تربي
لتذبح قربانا تحلى رقابها بأكاليل الزهر وتلف حول نحورها زهور البشني
كما يشاهد ذلك في مقبرة « تي » في سقارة والاميرة « حمت رع » في
مقابر أهرام الجيزة .

وكانت المومياة توضع على أسرة من الزهور الياقة وحول جباها
تيجان من الزهور مثبتة بدبابيس ؛ وفوق صدورها كانت توضع الأكاليل
وطاقات الأزهار .

وكانت تصنع هذه الزهور أحياناً من الخشب ؛ أو من الورق المقوى
وتوضع بجانب المتوفى . وكانت توجد بجوار طاقات الزهور الطبيعية التي
نسقتها يد الزهار . وكانت النأحات في يوم الدفن يحملن الزهور أمام عربة
المتوفى حتى يصلن إلى القبر ، ومن ثم كانت تأتي حاملات القرايين بالزهور
كل يوم إلى المقبرة . كما يشاهد ذلك في ققوش الدولة القديمة ؛ وكان
أحب الزهور إلى المتوفى زهرتا البردى والبشني (اللوس) .

ومنذ أقدم العهود كانت تزرع البساتين وتقام في وسطها البرك ؛ التي
تحيط بها أحسن زهور المشاتل كالبشني والعنبر والبقلة المباركة ؛ والأقحوان
والنرجس ، والزنبق الأبيض ، وشجرة الغار الوردية اللون ، والخشخاش ،
وكانت الزهور تقطف وتوضع في زهريات من كل الأنواع وتمنق بطريقة
تكسيها هيئة طاقة الزهر ، كما يشاهد ذلك في مقبرة العظيم « تسن » بمنطقة

الأهرام ومقبرة « بتاح حنب » في سقارة .
ومن كل ذلك يتضح لنا أن المصرى بحكم البيئة الزراعية التى كان يعيش فى وسطها عرف كيف ينشئ لنفسه زراعة وطنية قوية منقطعة القرن فى تلك العهود ، فلم يفلح فى الوصول إلى ذلك بتأثير الموارد الطبيعية التى هياها له وادى النيل الخصب فحسب ، بل كان الفضل فى ذلك أيضا إلى جهوده التى لا تعرف الملل وإلى ذكائه الموروث ، وإلى حبه للبحث وراء التقدم والنمو فى هذه الناحية . ولا أدل على ذلك من بذله المجهود فى تحسين آلات زراعته ، وطرق استثمار أرضه ، مما جعل وادى النيل فى عهد الدولة القديمة البقعة التى ازدهرت فيها زراعة الحقل فى وقت كانت فيه كل بلاد العالم عامة (اللهم إلا وادى نهر دجلة والفرات) لا تزال فى طفولتها فى فن الزراعة . ولا شك فى أن تقدم مصر ونفوقها فى هذه الناحية أهم العناصر المادية التى جعلت مصر منبعاً لمدينة العالم . ولا أدل على سرعة تقدم مصر فى الزراعة من اختفاء أنواع النباتات النجيلية فى مدة وجيزة ، تلك النباتات التى لاحظ وجودها العالمان « شفينفورت » « وانجار » فى فوالب اللبن التى بنى بها أهرام دهشور منذ الأسرة الرابعة وحل محلها أنواع الغلال . حتى أن الأستاذ « بترى » لم يجد فى خرائب « كاهون » فى عهد الأسرة الثانية عشرة أى أثر لهذه النباتات السالفة الذكر . وقد كان المصرى فى كل عصور تاريخه يعمل جهد طاقته لجلب الأشجار والنباتات من الأقاليم المجاورة ليستثمرها فى بلاده . ويبدل جهده ليجعلها صالحة للنمو فى أرضه الخصبة فلا تلبث أن تستقر فى مصر وتزدهر وتأنى أكلها ولا أدل على ذلك من جملة الأشجار والزهور والنباتات التى جلبها « تحتمس

الثالث « معه من آسيا وصورها على جدران قاعة الأعياد التي أقامها في الكرنك والمعروفة بمجرة الزراعة . كما سنتكلم عن ذلك في حينه .

آلات الفلاحة

جرت العادة بل وسنن الطبيعة على أن تكون الآلات التي يستعملها الإنسان في حرفة من الحرف خاضعة في تقدمها وتحسنها إلى درجة الرقى التي يبلغها الإنسان في الطرق التي يتبعها في إبراز منتجات حرفه وهذه القاعدة تنطبق بنوع خاص على الرقى الزراعى . فالآلات الزراعية في الواقع تتقدم بتقدم الزراعة والصناعة والتجارة . على أن تقدم العلم نفسه الذى يؤثر بطريقة غير مباشرة في طرق الزراعة لايؤثر على تقدم الآلات إلا من بعيد . فنجد أحيانا آلة جديدة تظهر مستعملة في زراعة بلدما لكشف صناعة جديدة بها وأحيانا نجد أن هذه الصناعة الحديثة تستعمل مادة جديدة تمتاز بسرعتها أو خفتها أو سهولتها أو غير ذلك فتكون ذات فائدة محققة عن المادة التي كانت تستعمل من قبل ، فيؤثر الفلاح استعمالها على غيرها .

وأحيانا تجلب من البلاد الأجنبية آلات من مادة أرقى أو في شكل أصلح مما يستعمل في البلاد ، غير أن هذه الآلات الجديدة تحتاج إلى مران طويل حتى يمكن استعمالها ويتعود الأهليون عليها .

ومنذ عهد ما قبل الأسرات نجد في مصر آلتين أصليتين خاصتين بالزراعة ، وهما الفأس لفلح الأرض والمنجل لقطع المحصول وضمه . أى أن الأولى تجهز للفلاح عمله ، والثانية تهىء له حصده محصوله ، وإذا فحصنا

كلا من هاتين الآلتين نجد أن الطبيعة قد ساعدت على اختراعها ،
فالفأس فى الواقع حلت محل اليد عند ما يراد نبش الأرض لزرعها ، وإذا
تخيل الإنسان هذا المنظر فأن يده تمثل شكل الفأس عند حفر الأرض .
أما المنجل فقد اخترع على غرار أسنان الحيوان وهو يأكل الحشائش .
فأسنانه هى أسنان الحيوان . وقد تقل الإنسان هذا فى المادة وأصبح
يستعمله فى كل أغراضه لضم محصله .


وقد ظهرت الفأس للمرة الأولى فى التاريخ المصرى على طوابع الاختام
الأسطوانية الشكل التى كانت تجلى سدادات الأواني العظيمة التى عثر
عليها فى قفاده (1).

ومنذ الأسرة الأولى الفرعونية ، أصبحت الفأس شائعة الاستعمال فى
الحقول وأعمال البناء وغيرها ، وقد استعملت الفأس من الخشب واستعين
على تثبيت مشطها فى اليد بالخلفاء أو الليف ؛ إذ كان الخشب أقرب
منالا للفلاح وأسهل صنعا . واستمرت الفأس تصنع من الخشب حتى العصور
المتأخرة وهى لا تزال تصنع أحيانا من الخشب فى الواحات كما صنعت
الفأس من النحاس فى عهد الأسرة الخامسة (2) وأخذت تتدرج فى التحسن
شيئا فشيئا حتى أخذت أشكالا عدة .

ولست أدرى إذا كان لاسم رسم الفأس باللغة المصرية القديمة « مر »
علاقة بالاسم الذى أطلق على كل مصر الزراعية وهو « تامرى » أى
أرض الفلاحة أو أرض الفأس ، وربما كان ذلك هو السبب فى نسبة

(1) De Morgan, Rech. t. II P. 151, 166.

(2) Petrie, Tools & weapons, 1917. pl. 19 No 3.

مصر كلها لاسم الآلة التي كانت أول شيء استعمل في فلاحتها . ومن المحتمل جداً أن لفظة « دميرة » التي يطلقها فلاحو الوجه القبلى عندما يكون الفلاح قد هبأ أرضه للزراع في وقت بداية الفيضان في النصف الأول من شهر مسرى ، يرجع أصلها إلى لفظة « تامرى » أى أرض الزراعة أى الأرض التي هبئت للزراعة بالفأس . ومن ذلك يمكننا أن نفهم بسهولة معنى لفظة « مروت » التي تكتب بنفس الإشارة ويخصصها رجل وامرأة  أى الفلاحون وهنا يمكننا أن نفهم جيداً معنى المثل القائل « كل فلاح مصرى وليس كل مصرى فلاحا » .

المحراث : تقص الأساطير أن مصر مدينة بالمحراث للإله « أوزير » إله التبت والزرع . والواقع أن المحراث هو فأس مكبرة من اختراع المصرى عند ما أراد أن يقتصد في الوقت في شق أرضه . ويدل شكله على أنه كان يحرك بوساطة الأنسان لا بالحيوان في بادىء الأمر ، وقد عثر في الرسوم المصرية القديمة على ما يثبت ذلك .

وقد عثر على محراث في شكله المعروف لأول مرة يجر بالثيران في آثار ميدوم^(١) في عهد الأسرة الثالثة ، وكان يستعمل في بادىء الأمر بسلاح واحد ثم استعمل بسلاحين .

المحشة (المنجل) : من الطبيعي أن الإنسان الأول سواء أ كان صياداً في البر أم في البحر لم يهتم بأمر النباتات واستعمالها لأغراضه الخاصة إلا في اليوم الذي أصبح في يده آلة من الطران صالحة لقطع الحشائش البرية أو نشرها ليستفيد منها ، ومنذ آتقن المصرى صناعة المحشة أصبح

(1) Meidum, PL. 18.

يصنعها بكثرة فى معامل خاصة . وقد جمع الأستاذ « دى مرجان » فى بحثه عن الآلات بين المنجل والمنشار ، لأن وظيفتهما تكاد تكون واحدة وقد عرفنا شكل المنجل من الأشارات المصرية القديمة التى حفرت على مقابر الأسرات الأولى^(١) والدولة القديمة . إذ نجد فى النقوش الملونة فى ميدوم رسماً دقيقاً للمنجل . فالمقبض والسلاح قد لونا باللون الأخضر على حين أن الظران الأبيض يظهر فى داخل المنجل ، وكذلك نجد هذه الأشارة محفورة بهذا الشكل فى عهد الأسرة الخامسة^(٢) ولكن الرسم لم يبين لنا من أى عهد بدأت صنعها من النحاس

وتوجد آلات أخرى كانت تصنع من الظران كاللطة التى يرجع عهد استعمالها إلى العصر الحجري القديم . وقد بدأت تصنع من النحاس فى عهد الأسرة الثالثة ، كما يشاهد ذلك على آثار ميدوم^(٣) . إذ أن لونها الأصفر ، أو الرمادى الأخضر يبرهن بوضوح على أن سلاحها كان مصنوعاً من هذا المعدن .

أما السكينة فكانت تصنع فى مصر ، وكذلك فى كل البلاد الأخرى من الظران ويهذب سلاحها حتى يصير قاطعاً ، وقد وجدت السكاكين بين الأشارات الهيرغليفية وسلاحها من الظران ويدها من الخشب^(٤) . وقد وجدت نماذج منها من عهد الأسرة الخامسة^(٥) .

وهناك آلات أخرى كان يستعملها المصرى كالأمشاط التى كان

(1) Meidum, PL. 28 & Ptah-hotep t. I, p. 9 No. 210.

(2) Tombeau de Ti, Ed. Steindorff, PL. 47.

(3) Meidum, pl. 10, 13 & 14.

(4) Weill, Les Origines d'Egypte. Phar. p. 247.

(5) Petrie, Tools, pl. 24, No. 35.

يمشط بها ألياف الكتان والمطارق والمجارف والمكانس والمناخل والغرايل وألواح التذرية . أما المذراة فقد اخترعها لفصل التبن عن القمح وأصابعها تبرهن على أن الإنسان قد أخذ شكلها من يده عند ما كان في أول الأمر يستعملها لفصل القش عن القمح ، ثم اخترع المذراة على غرار اليد اقتصاداً في الوقت والمجهود .

وقد وجدت في بعض مقابر الدولة القديمة حديثاً عدة مجاميع من نماذج الآلات النحاسية التي كان يستعملها الإنسان في حياته اليومية . غير أن بحثها يحتاج إلى دراسات خاصة ، وقد عثر على مجاميع منها سليمة أهمها مجموعة حفيد الملك «منكاورع» في حفائر الجامعة بالجيزة إذ تبلغ نحو ٩٠ قطعة ؛ ومعظمها لم يعرف بعد كيفية استعماله . وقد تعرفنا من بينها الأبر الدقيقة المثقوبة والموسى والمقطع .

طرق الزراعة

لا نزاع في أن طرق الزراعة في بلد ما تتوقف قبل كل شيء على مقدار مدنية أهلها . ثم تتدرج معها ، ولكن في أقاليم محدودة نجد أن استثمار الأقاليم من حيث النبات أو الحيوان خاضع إلى البيئة وبخاصة الجو وصلاحيته لنمو أنواع خاصة من النبات أو تربية نوع خاص من الحيوان ولذلك فإن الطرق التي يجب أن يستعملها أهل بلد ما تراها مرتبطة بهذه الأحوال . وقد استقينا معلوماتنا عن طرق الزراعة في مصر في عهد الدولة القديمة من مقابر عظماء القوم ، والنقوش التي وجدت على جدران الطرق

مصر القديمة ج ٢ -

الجنائزية للوك الأسر الخامسة والسادسة ، وأهمها منطقة أهرام الجيزة وسقارة وميدوم وكذلك مقابر أمراء أسوان من الأسرتين الخامسة والسادسة .

وطرق الزراعة في مصر في عهد الدولة القديمة لا تختلف كثيرا عن باقي ممالك العالم ، وبخاصة في بذر الأرض .

وكان المصري حسب ملاحظاته الشخصية ، وما تقتضيه طبيعة كل نبات يقسم السنة الزراعية ثلاثة أقسام متساوية تقابل ثلاث مراحل مختلفة في زراعة الأرض . فالفصل الأول وهو الشتاء عنده يبتدىء من أواسط أكتوبر إلى بداية فبراير وهو فصل بذر الأرض وزراعتها ويسمى بالمصرية « برت » (أى الخروج) أى ظهور الأرض من تحت ماء الفيضان ثم من فبراير إلى يونيو وهو فصل الحصاد ويسمى بالمصرية « شمو » (أى الصيف) ؛ ثم فصل الفيضان ويسمى بالمصرية « أخت » وذلك من منتصف يونيو إلى منتصف أكتوبر . والفلاح المصري الحالى لا يزال محافظا على حساب مواعيت زراعته بالأشهر المصرية القديمة التى كان يستعملها أحداه منذ أقدم العهود وهى المعروفة الآن بالأشهر القبطية ؛ ففي وقت الانقلاب الشتوى يبدأ زراعته الشتوية وهى الشعير والقمح ثم يحصد محصوله بعد ذلك فى شهرى مايو ويونيو ثم يزرع بعد ذلك الذرة ، وقبل حلول الانقلاب بشهر يزرع الصيفى (الذرة العوججة) .

وكان الفلاح يستعمل الفأس فى عزق أرضه ، والحراث فى شقها والشادوف فى ريها . والظاهر أن الشادوف استعمل عند قدماء المصريين منذ عصر بداية التاريخ كما يدل على ذلك رسم فى مقبرة فى

هراكنبوليس^(١) وكذلك عثر « ولكنسون »^(٢) على رسوم للشادوف في الآثار المصرية القديمة . أما الساقية فلم يعثر لها على رسم ، ولكن من المحتمل أنها كانت تستعمل منذ العصر الأغريقى الرومانى ويظن العالم « دارسى » أنه رأى ساقية عندما كان ينظف بئرا في الدير البحرى^(٣) .

أما النورج فلم يستعمله قدماء المصريين في درس الغلال واستعاضوا عنه بأرجل الماشية كما هي الحال الآن في النوبة . وبعض جهات السودان ومصر والواحات .

أما كيفية زراعة الأرض بأنواع الأشجار والحبوب المختلفة فقد رسمها قدماء المصريين على مقابرهم منذ أقدم العهود ، وهي لا تختلف كثيرا عن زراعة الفلاح وحصده وتخزينه لمحصولاته في أيامنا هذه . وليس هناك ما يلفت النظر إلا صناعة النبيذ من العنب وغيره فأنها قد اختفت في عصرنا هذا . ومن المحتمل جدا أن يكون السبب في ذلك هو دخول الدين الإسلامى في البلاد وهو يحرم شرب الخمر بكل أنواعها . يضاف إلى ذلك زراعة الكتان وطرق تحضير خيوطه ونسجها فأنه قد قل من البلاد بدرجة عظيمة وذلك لتغلب زراعة القطن وكثرة الواردات من منسوجاته من الخارج .

(1) Quibell and Green, Hierakonpolis, 1902. t. II pl. 74, 75.

(2) W. M. I, p. 281.

(3) Mem. Inst. Egypte 1915 t. VIII, Daressy, L'eau dans l'ancienne Egypte. p. 205.

صيد الحيوان وتربيته

كان المصري في بادية حياته يقتات من صيد حيوانات البر والبحر وقد اجتهد منذ القدم في أن يستأنس من حيوانات البر النافع منها لأغراضه الحيوية ، ثم أخذ بعد ذلك يضيف إلى تلك الحيوانات التي أخضعها له ما كان يجلبه من الخارج من الحيوانات المفيدة .

وقبل أن نتكلم عن الحيوانات التي استأنسها المصري القديم يجب أن نبحث أولاً عن الحيوانات المتوحشة التي كان يعيش على لحومها أو يحاربها خوفاً من سطوتها ، إذ كان وادي النيل ، بما حبته الطبيعة من جبال ووديان يرويها هذا النهر ، يجلب إليه الحيوانات المتوحشة الكثيرة ، هذا إلى أن ماء النهر كان يحوى أسماكاً متنوعة الأشكال ومن أجل ذلك كله كان المصري مضطراً بطبعه إلى أن يتعلم طرق الصيد للتغلب على هذه الحيوانات التي كان يتألف منها غذاؤه الرئيسى .

لحوم الصيد

يلاحظ أن الإنسان قبل أن يتسلح لصد غارات الحشرات المؤذية والحيوانات الضارية التي كانت تعترضه في حياته اليومية ويخشى فتكها به ، كان يجول بوازع الحاجة في المستنقعات رغم ذلك ليحصل على الحيوانات التي تقيم أوده .

وأهم هذه الحيوانات الثور الوحشى وهو قصير القامة له سنام في ظهره

وقرنه فصير وقد ظهر مرسومًا على الآثار منذ الدولة القديمة (1) . أما التور المستأنس فقرناه عظيمًا وهو أجب (2) .

فصيلة الأيائل : Cervidae . وهذه الفصيلة هي حيوانات لبون مجترة مصمتة القرون ورسومها على الآثار المصرية قليلة جدا ، وقد شوهد الأيل Stag على لوحة في « اللوفر » ، وكذلك في رسوم « نقادة (3) وبلاص » فيما قبل الأسرات ، وفي مقبرة « مير » (4) ، وما يمثله الفنان دائما هو « أيل آدم Cervus dama » الذي يصطاده الملك « سحورع » (5) نفسه كما هو ممثل على جدران معبد الجنازي . وبعد عصر الدولة الوسطى نجد أن هذا الحيوان بدأ يختفي من مصر .

عشيرة الظباء . Antilopinae . هذه الحيوانات تعيش معا في قطعان عدة ، وأنواعها مختلفة ، ولحومها مرغوب فيها جدا . وقد عثر على قرابين مطبوخة منها تدل على أنها من لحوم الظباء (6) . وفي عهد الدولة القديمة نشاهد مناظر لصيد الظباء من كل الأنواع (7) . وكانت تعد عند قدماء المصريين من بين اللحوم المختارة التي تقدم قربانا .

المها : Oryx . ويسمى في أيامنا « أبو عقص » أو « أبو سيف » . وقد وجد على الآثار المصرية نوعان منه الأول « مها بيسة Oryx Beisa » وهو نخيل القوام عظيم القرنين مستقيهما . وقد عثر عليه منذ عصر ما قبل

-
- (1) Davies, Ptah hotep, t. II P. 21.
(2) Loret et Gaillard, La Faune momifiée. P. 43.
(3) Petrie, Nagada & Ballas, P. 29. Vase No 91.
(4) Blackman, Rock tombs of Meir, t. II, pl. 7.
(5) Sahourâ, t. II P. 15 see especially t. I P. 167,
(6) Recherches. t. II P. 97
(7) Ptah hotep, t. I pl, 22, & Meir, t. I pl. 6.

الأسرات ؛ والنوع الثاني « أبو خراب *Oryx leucoryx* » وهو عظيم الجسم قصير الشعر مائل إلى البياض ومعروف بقرنيه الطويلين الرشيقين المتوازيين وقد يكونان أحيانا مستقيمين أو منحنيين بعض الشيء ومدببين وفي أسفلها حز في الذكر وفي الأنثى ، وقد استعمل قرن البيسة أقواسا للرماية ، وذلك بوصل قرنين بقطعة خشب من قاعدة كل منهما . ومن أجل ذلك يكون القوس لنا سهل الاستعمال .

المؤذر أو الديشون أو الهاة الوضيحي : *Addax* وهو في جملة يشبه الهاة وقرناه طويلان منفرجان بعض الشيء ، ومحززان إلى ثلثيهما ، وفي فصل الصيف يكون جلد هذا الحيوان مائلا إلى الصفرة ، وفي الشتاء يكون كل شعره رمادي اللون وهذا الفرق يمكن ملاحظته في إقليم منف حيث يكون تغير الجو محسوسا ، وقد رسم الفنان على آثار ميدوم (1) هذا الحيوان في الفصلين .

التيل : *Bubalis buselaphus* . وهو نوع من بقر الوحش عظيم الرأس قصير القرنين وفي معظم الأحيان يختلف القرنان بعضهما عن بعض ، وظهره منحدر ، وهو كالهاة ينير لونه ففي وقت البرودة يكون فراؤه رماديا قائما وفي الأوقات العادية يكون لونه أسمر مائلا إلى الصفرة ماعدا بطنه فإنه يكون أبيض ، وقطعانه تسير من خمسة إلى عشرة في الأماكن الصحراوية (2) المشقة . وقد شوهد شكل هذا الحيوان على أواني عصر

(1) Meidum, pl. 14, 27 & 28.

(2) Schweinfurth, Au cœur de l'Afrique, t. I, p. 192.

ما قبل التاريخ (1) ويوجد له هيكل محفوظ بقسم الزراعة القديمة بمتحف
فؤاد الأول الزراعى .

غزال آدم : Gazella dorcas . وقد وصفه العرب فى كتب اللغة
(الأدم من الظباء غير الألوان تعلوهن جدد طوال القوائم والأعناق
بيض البطون سمر الظهور) أما علماء الحيوان ، فقد وصفوه بأن له جسم
الحيوان الذى يقفز ، وقائمتاه طويلتان رشيقان ، ومتصلتان بصدرة
الضيق ، وهو خفيف . أما رجلاه الخلفيتان فأقصر ، ورقبته طويلة ،
ورأسه تحلى بقرنين منحنيين إلى الأمام ؛ والأنثى تتميز عن الذكر بقرنيها
الرقيقين ، وحزهما القليل ، وفراؤه قصير أسمر اللون أو أغبره ، وبطنه
أبيض وفى أرجله بعض خطوط بيضاء ، وسوداء .

غزال - إزابل (2) (جسا) : قرناه منحنيان (3) أحدهما نحو الآخر عند
طرفيهما . وكان منتشرا فى مصر العليا فى عهد الدولة القديمة . وكان
رأسه يوضع على موائد القربان (4) . وقد عثر على مومياء لغزال آدم ،
وغزال إزابل فى كوم مير (5) بالقرب من إسنا من العصر المتأخر .

الوعل أو البدن أو تيس الجبل (6) : (Ibex) Niaou . وهو جنس من
الماعز الجبلية ، وقرناه طويلان قويان منحنيان كسيفين أحدين يلتقيان حول
ذنبه من أعلاه ، وله لحية ، ولحومه كانت تقدم قربانا . وشكله يزين

(1) Petrie, Prehist. Eg. 1920, pl. 22. No. 47.

(2) Loret & Gaillard, La Faune momifiée p. 85.

(3) Mastaba of Ti, pl. 128.

(4) Deir el-Bahari t. III pl. 2.

(5) Loret, La Faune momifiée p. 81

(6) Meidum, pl. 9, 24.

كثيراً من أواني عصر ما قبل التاريخ^(١)، ولا يزال يوجد بكثرة في شبه جزيرة سيناء .
الكبش البري (مفلون) : *Ammotragus tragelaphus* ولذا كرر
والآنثى منه قرنان غليظان مديان قويان يتجهان إلى أعلى متباعدين
ثم ينحنيان في اتجاه مضاد ؛ أما شعره فأشقر اللون خشن قصير ما عدا
المعرفة ونهاية الذيل ، وقد عرف الكبش البري مرسوماً على أواني عصر ما قبل
التاريخ^(٢) ، وقد عثر على عدد من هذا الحيوان مخطأ في « كوم مير »^(٣) ،
ويوجد له هيكل عظمي بمتحف فؤاد الأول الزراعى .

الماعز : *Hircus mambrinus* . وقد عثر الأستاذ « دى مرجان » على
بقايا منه ترجع إلى عصر ما قبل التاريخ ، وكذلك يشاهد في نقوش مقبرة
« مرا » بسقارة ، وهو في حجم المهابة . ولكن قرنيه على شكل حلزوني
عمودي تقريباً ، ولكنهما ينفرجان عندما ينحنيان إلى الخلف بصورة تكون
شكل مثلث . أما أذناه فكبيرتان ، ومدلتان . وقد عثر على رسمه منذ
الأسرة الرابعة^(٤) .

العنز الأهلية : *Hircus thebaicus* وجسمها أقل من جسم الماعز السالف الذكر
وتتميز بأذنيها الطويلتين المتدليتين ، وقرنيها الصغيرين اللذين لا يكونان إلا للذكر^(٥)
الزرافة : وقد عثر على رسمها في عصور ما قبل التاريخ^(٦) ، وكانت تصاد
لكى تستأنس ، وكان يظن أنها لم تعرف في عهد الدولة القديمة ؛ ولكن عثر على

(1) Petrie, Prehist. Eg. pl. 18, No. 73.

(2) Petrie, Prehist. Eg. pl. 18 No. 73.

(3) Loret, La Faune momifiée, p. 81

(4) Lepsius Denk. II, pl. 104 t. 31, Saqqara IV Dyn.

(5) Loret, La Faune momifiée, p. 78.

(6) X = Lieblein, Z. A. S. t, XXIII p. 130.

رسم لها في الطريق الجنازى للملك «وناس» في سقارة في عام سنة ١٩٣٨ (1) .
الثعلب : وقد وجد على الآثار المصرية في ميدوم ، وفي سقارة . (2)
الأرنب الجبلى : أذناه طويلتان ، وجسمه أكبر من جسم الأرنب الأهلى
وقد عثر على رسمه في ميدوم وفي سقارة في الطريق الجنازى للملك « وناس » (3)

الحيوانات التى تصاد لجلدها أو فرائها .

كان المصرى مغرما دائما بلبس الفراء الوثيرة ، وبخاصة فراء الحيوانات التى كان يصطادها هو بنفسه من الصحراء ، وكان يعرف جيدا كيفية تحضير الجلود ، ودبغها ويلاحظ أنه في عهد العصر الحجري الحديث كان يستر عورته بكيس من الجلد (4) معلق بجبل مربوط حول وسطه . ثم استعمل بعد ذلك الجلد فى صناعة نعليه ، وقمص عمله . ثم جدل منه سيورا دقيقة وعمل منه درعه ، وكناتته ، وقربة مائه .

الفهد (5) : وهو من بين الحيوانات المتوحشة التى عثر على رسمها فيما قبل الأسرات ، وكذلك عثر عليه فى « ميدوم » (6) ، وكان جلده يستعمل لصنع الاثبسة ، وغطاء الكراسى ؛ وأهم من كل ذلك أنه كان يستعمل لباسا للكهنة فى الشعائر الدينية منذ الدولة القديمة . فكان يلبسه الكهنة ، ومن بينهم

(1) Ann. Ser. Ant. t. XXXVIII p. 520.

(2) Meidum, pl. 9 & Leps. Denk. II, pl. 46.

(3) Ann. Serv. Ant. t. XXXVIII pl. XCVII.

(4) Capart, Les débuts de l'art en Egypte,, PL. 37, 44.

(5) Rosellini, Mon. Civ. t. II, pl. 20.

(6) Meidum, pl. 17.

الكاهن الأعظم للإله «فتاح» في منف . ولم يكتف المصريون بصيده من مصر . بل كان يجلب كذلك من الخارج ، كما فعل ذلك « حرخوف » في رحلته الثالثة .

العسنت أوفرس النهر : وكان قدماء المصريين في عهد ما قبل الأسرات يستعملون أسنانه في صناعة مقابض الختاجر ، وسكينة جبل العرق مقبضها مصنوع من سن هذا الحيوان ، أما جلده السميك ، فكان يستعمل لصنع الدرق ، والزخمة وقد وجد مرسوما على الآثار المصرية ، وكان يصاد في الماء منذ الأسرة الخامسة الذئب (ونش) : وجد مرسوما على لوحة الشيست الموجودة في متحف « اللوفر » (1) ذئبان من طائفة الحيوانات التي كانت تصاد . وكان يقدس في أسبوط في صورة الإله « وبوات » كما ذكرنا آنفا .

الفيل : كان الفيل الأفريقي يصاد في مصر في عصور ما قبل الأسرات ، وقد عرف في الرسوم الساذجة ، وعلى مقابض السكاكين المصنوعة من العاج (2) . ومن المحتمل جدا أنه كان يصاد في الوجه القبلي في إقليم « إلفنتين » (أسوان) ، وربما اشتق اسم هذه الجهة من اسم الفيل الذي كان منتشرا هناك . على أننا لم نجده بين حيوانات الأسرة الثالثة في مصر ؛ ولذلك كان المصريون يجلبون العاج من الخارج ، من بلاد النوبة في عهد الدولة القديمة .

وحيد القرن أو الحريش : ويعتقد الأستاذ « دى مرجان » أنه كان يصاد في مصر في عصر ما قبل الأسرات ، ويظن أنه مثل على قطعة

(1) Gapart, Débuts de l'art en Egypte, 2e, éd. p. 222.

(2) J. E. A., 1916, p. 229.

من العاج من هذا العصر^(١). ولكننا لم نشاهده في مصر بعد ذلك العهد. وقد عثر أخيراً في معبد «متو» بأرمنت على رسم وحيد القرن اصطاده «تخوتس الثالث» من بلاد آسيا، وقد وضع في الرسم مقاسات هذا الحيوان، وكيفية صيده وكان من أهم مفاخره في براعة الصيد.

الحيوانات التي تصاد دفاعاً عن النفس أو للتسلية

الأسد، واللبؤة: مثل الأسد على آثار ما قبل الأسرات التي وجدت في «تقادة وبلاص»، وكذلك في «هراكنبوليس»^(٢)؛ وكان من بين الحيوانات التي تصاد في الصحراء في عهد الدولة القديمة، وقد عثر على رسوم له في الطريق الجنائزى للملك «وناس»، وكذلك في مقابر «مير»^(٣) إذ كان يصاد بالسهم، وسنرى أن صيده في عهد الأسرة الثامنة عشرة كان من مفاخر الملوك وكان المصري يجتهد في أن يستأنس الأسد في عهد الدولة القديمة، فكان يصطاده حياً ويضعه في قفص للفرجة^(٤)، وسنرى أيضاً أن الملوك كانوا يصطخبونه معهم في ساحة القتال وذلك بعد استئناسه.

التمساح: كان هذا الحيوان يمثل إله الشر «ست» في بعض جهات القطر، ولذلك كان يطارد فيها، وفي جهات أخرى كان يعبد بصفته الإله «سبك» إله الخير، فكان يقدس كما كان الحال في الفيوم وفي «كوم امبو» كما سبق ذكره.

(1) Hierakonpolis, t. I, pl. 16, No. 4 2d, reg. from up to down.

(2) Nagada & Ballas, pl. 60 & Hierakonpolis t. II, pl. 28.

(3) Meir, Vol. I, pl. 6.

(4) Davies, Ptah-hotep, t. I, p. 21. & 24.

الصل أو الثعبان : وهو ثعبان سام طوله نحو مترين ، وكان يعتبر حارسا للملك ومفيدا جدا للزراعة وكان يعبد بهذه الصفة باسم «رنتوت» إلهة الحصاد ، وكان يترك في وسط الحقول المزروعة دون أن يصاب بأذى ، يأكل الفيران الكثيرة التي كانت تهلك الحرث والزرع وتسبب القحط التام (١) وكان لكل مقاطعة كما كان لكل بيت ثعبان حارس .

كلمه عامة عن المراعى وتربية الحيوان

يجدر بنا أن نبرز هنا بنوع خاص ميل الممولين المصريين إلى تربية قطعان الماشية المختلفة الانواع وهذا الميل يمكننا أن نلمسه فيما نشاهده من الثروة الطائلة من رؤوس الأنعام التي كانوا يصورونها على جدران مقابرهم موضحة بالأرقام الدالة على عدد ما كان يمتلكه صاحب المقبرة لينعم به في آخرته . فمن ذلك نرى أن أحد الأشراف في عهد الدولة القديمة كان يملك ٢٢٣٥ رأسا من الماعز و ٩٧٤ من الضأن و ٦٧٠ من الحمير (٢) حقا أننا نشاهد أحيانا أن المصرى كان يبالغ في ثروته أو فيما استحوز عليه من بهيمة الأنعام فمثلا نجد في نقوش الملك « سحورع » أنه عاد من غزوته في بلاد لوبيا ومعه أكثر من ٧٠٠٠٠٠ رأس من الماعز والضأن والحمير وأكثر من ١٢٠٠٠٠ من الماشية الكبيرة (٣)

(1) Loret et Gaillard, La Faune Momifiée p. 171.

(2) Lepsius Denkmaler, II, p. 9.

(3) Borchardt Grabdenkmal des konigs Sahure, t. II, p. 74.

يضاف إلى ذلك أننا وجدنا في مقبرة العظيم سنب بالجيزة أنه كان يملك أكثر من ٢٠٠٠٠ ثورا ومثلها من الماعز وعددا عظيما من الحمير^(١) ورغم ما في هذه الأرقام الاخيرة من المبالغة فإنه يمكننا أن نعتبر الأرقام الأولى في حد المقول ؛ ومنها نستطيع أن نعرف على وجه التقريب أهمية أنواع البهائم التي كان يشارك فيها الممولون الكبار الرعاة الذين اتخذوا الرعى حرفة لهم ولا نزاع في أن الرعاة المصريين الحاليين يعدون فقراء إذا قيسوا بأجدادهم القدماء . وسبب ذلك يرجع إلى التطورات التي حدثت في أراضى وادى النيل . وذلك أنه كان لا بد من وجود مراعى شاسعة لتربية عدد عظيم من الماشية وكانت هذه بطبيعة الحال موجودة في مصر في العصور القديمة . أما في أيامنا هذه فليس لها أثر ، وتفسير ذلك أنه في الأزمان القديمة كانت المراعى الخضراء تظهر بعد نزول الفيضان وتعم البلاد عدة شهور ، وقد كان هذا يلاحظ بنوع خاص في الدلتا التي كانت غنية في مساحتها الشاسعة التي ينبت فيها كل أنواع الحشائش طبعيا وبخاصة البردى ، وفي هذه المراعى كان الرعاة يطلقون سراح قطعانهم العظيمة لتنمو وتتكاثر ولذلك يقول باران^(٢) .

إن وادى النيل قبل تنظيمه الذى جاء تدريجياً ، كان مغطى جزئيا بالمستنقعات التي كان ينمو فيها البردى والبشنين بكثرة . وهذه النباتات كان فقراء المصريين يعيشون على لبائها وجوبها في عصور التاريخ المصرى ؛ هذا

(1) Junker, Vorbericht Giza, p. 316.

(2) Ch. Parain, L'agriculture dans l'ancienne Egypte, Revue des études Juives, t. 97, 1934 VII Sqq.

إلى أنها كانت ترعاها البهائم ؛ ولا نزال نشاهد إلى يومنا هذا في مستنقعات الدلتا الأهلية لبلاد كلديه نوعاً من الحياة الفطرية إذ يعيش سكانها على تربية الماشية . فالسكان هناك يتجولون في المستنقعات بجاموسهم وياًكلون ما تأكله أنعامهم وينحصر ذلك في نبات الغاب والقصبات اللينة ، ويتخذون مأوى لهم أكوخاً من الغاب على الجزر أو أشباه الجزر ومن المحتمل أن المستنقعات التي بقيت زمناً طويلاً في الدلتا ، كانت تستعمل في فصل الصيف مراعى للقطعان التي كانت تغد من المناطق الزراعية في هذا الفصل ، ثم تعود ثانية عند حلول الفيضان . وكذلك كان الحال في الوجه القبلى ، إذ كان شريط الأرض الذى يقع بين الأراضى المغمورة بالفيضان وبين الصحراء يتخذ مرعى لتربية الحيوان الصغير غير أنه تجب هنا ملاحظة أن انتقال القطعان إلى الدلتا لم يكن في عهد الأسرة السادسة وهو عصر ازدياد سلطان الأشراف وانتشار ضياعهم واستثمار الأراضى الصالحة للزراعة بالرى الصناعى .

الحيوانات التى كانت تنتخب لترويضها وتربيتها

وهى التى كان يجتهد المصرى فى استئناسها لما تنتجها ، أو لمساعدته .
فمنها الثور والبقرة ، والعجول . وكلها من النوع الأفريقى مختلفة القرون ، وعلى أثر حدوث طابعون الحيوان فى البلاد كان المصريون يجلبون أنواعاً جديدة من إفريقية وآسيا . كما تدل على ذلك النقوش^(١) . ولا أدل على ذلك من

(1) Loret et Gaillard, La Faune momifiée, p, 8,25 & 65.

الثيران التي أحضرها الفرعون « سحورع » عند غزوه بلاد لوبيا ، وكذلك ما ذكره « بيبى ناخت » في رحلته (انظر ص ٣٨٩ من الجزء الأول) .
ولا تكاد تخلو مقبرة من مقابر عظماء القوم في الدولة القديمة من منظر ذبح الثيران ، أو سحبها للذبح ، سواء أكانت من الثيران ذات القرن الطويل ، أم الثيران التي لا قرن لها . ويجب أن نشير هنا إلى أن عملية ذبح الثور لأجل القران كانت تجري حسب قواعد وشعائر خاصة لا بد من اتباعها بكل دقة .^(١)

أما جلود الثيران فكانت تدبغ ، وتستعمل لصنع النعال ، وفي صناعة السفن ، وغير ذلك أما أنواع الغزلان والمها ، والظباء فإنها كانت تستأنس وتسمن للذبح . وتوجد في مقبرة « مروكا » أنواع للغزلان ، والمها مربوطة إلى المداود في شكل ينبيء باستئناسها وتسمينها للذبح . وقد شوهد على قطعة من الحجر رسم يبين كيفية ذبح مهاة في ميدوم^(٢)

الخنزير : وجدت آثاره في « كوم السبيل » من عصر ما قبل التاريخ . كما ذكرنا أنه عثر عليه في « مرمدة » من عصر ما قبل التاريخ فيما سبق ، وكذلك في « هراكنبوليس »^(٣) من عصر ما قبل الأسرات وفي عهد الدولة القديمة وجد اسم هذا الحيوان مقرونا باسم الملك « سنfro »^(٤) ثلاث مرات . وكذلك رسم هذا الحيوان منذ الأسرة الثالثة في الإشارات المصرية القديمة في مقبرة « متن » .

(1) Harl., Agr. A. E. p. 108-109.

(2) Meidum, pl. 22.

(3) Hierakonpolis, II pl. 76.

(4) Proc. S. B. A. 1892 t. XIV th. Dyn.

الضبع : لقد اختلفت الآراء فى تجدير الضبع ، وذلك ببلء بطنها بالأكل بواسطة اليد فى عهد الدولة القديمة ؛ فيظن العالم « جيار » أن هذا الحيوان كان يسمن بأكل الطيور واللحوم لإزالة الروائح الكريهة التى تتصاعد من فيه ، ولعدم التهام لحوم الصيد . وبذلك يمكن استعماله كالكلب للصيد . ولكن من جهة أخرى نشاهد فى قبور الدولة القديمة أنه كان ضمن الحيوانات التى تساق لتقدم قربانا ؛ كما يشاهد ذلك فى مقبرة الكاهن « دوا كا » بالجيزة . وقد جاء فى بعض النقوش (1) أنه كان يساق ليقدم قربانا .

الدواجن : تدل الرسوم القديمة فى عهد ما قبل الأسرات ، على أن المصرى قد اجتهد فى استئناس الطيور الكبيرة الحجم كالنعامة (2) ، والغرنوق (الكركى) . وقد عثر على بيض للنعام منذ عصر ما قبل التاريخ وفى عهد الأسرات الأولى كانت أفنية الدواجن تحتوى على أنواع عدة من الكراكى تعرف فى اللغة المصرية بالأسماء الآتية : « زات » ، « أو » ، « وز » ؛ ثم الأوز « سا » وكان على نوعين ويقدم طعاما للملوك ، والكهنة . وكانت توجد كذلك أنواع عدة من الأوز الصغير يشبه البط ، وقد عدت أسماؤه على مقابر الدولة القديمة . ونخص بالذكر منها ما يأتى . « را » ، « ترب » ، « خبت » ، « حز » ، « حاب » ، ومن البط الحقيقى وهو على أنواع منها : « سمن » ، « تست » ، « سا » ، « منوت » ، « سب » ، « سر » (3) .

(1) Leps. Denk. II, 15 b. Gizeh, VI th. Dyn.

(2) Capart, Les débuts de l'Art en Egypte fig. 144.

(3) Leps. Denk. II, pl. 69, 70, 74. Ti. p. 129. & Pth.hotep t. I, pl. 27.

على أن المصرى كان مغرماً بصيد الطيور فى حقول السبرى بمصاته المشهورة « البومرايح » وأهم هذه الطيور ما يأتى : الطائر « إيبس » (أبو منجل) ، أو اللقلق الأسود^(١) ، ومالك الحزين وهو طائر من طيور الماء طويل العنق والرجلين ، وسى بهذا الاسم لأنه على زعمهم يقعد بقرب المياه ، ومواقع نبعها من الأنهار فإذا جفت حزن على ذهابها ، ويبقى حزينا كثيرا ، ويعرف فى مصر كذلك بالبلشون^(٢) . ثم أبو ملعقة أو الدواس ، والغرة ، والهدهد ، والنطاس ، والنكات ، والبجعة ، وفرخة البرك أو حمار الحجل وأبو مغازل ، والقاق ، والسرذ أو الدقناس ، والحجل أو فرخ الغيط ، واليمامة ، والقنبرة ، والحمامة بأنواعها ، وعصفور الجنة ، والزقزاق ، والسمان ، والسلوى ، والبط ، والقطا .

الدجاج : والظاهر أن الدجاجة لم تكن معروفة فى مصر القديمة وليس لدينا أية صورة للدجاج إلا قطعة من الشيست^(٣) لطائر له عرف يشبه الديك ، ويظن « شمليون »^(٤) أنه عثر على رسم دجاجة ، فى مقابر « بنى حسن » . وقد جاء فى تاريخ « تحوتس الثالث » عند ما كان يعدد المحاصيل التى حصل عليها بعد غزوته الثانية^(٥) طائران غير معروفين ببيضان كل يوم . والواقع أن الدجاجة والديك ، لم يظهرأ على الآثار المصرية إلا فى العهد الإغريقى^(٦) وفى مقبرة « بتوزيريس » الواقعة

(١) معجم الحيوان ص ١٣٢

(٢) معجم الحيوان ص ١٢٥

(3) Capart, Débuts de l'Art en Egypte, p. 231.

(4) Champollion, Notices, II, p. 387.

(5) Sethe, Urk. IV, p. 700.

(6) Erman.Z. A. S. t. XXI, p. 97.

مصر القديمة ج ٢

بالقرب من « تونا الجبل » نجد أن حاملة القرايين تحمل ديكا . (1)
البيض : كان يستعمل البيض للأكل منذ العهد الحجري الحديث . (2)
وقد شوهدت سلات البيض بين القرايين التي كانت تقدم للموتى (3) ،
وقد عثر في جبانة الجيزة في حفائر الجامعة على أوان ، وجرار من الفخار
مملوءة بالبيض المختلف الأشكال . وتدل أوانيها على أنه كان من عهد
الأسرة الثامنة عشرة ، ولكن للآن لم تحقق أنواع هذا البيض .
النحل وتربيته : تدل الآثار المكشوفة حديثا في سقارة (4) في طريق
هرم الملك « وناس » ، على أن تربية النحل ، وقطف شهدة . كانا من الأمور
التي يعتنى بها وكانا يعدان من المحاصيل التي يعتمد عليها . إذ نشاهد في هذا
المنظر جمع الجميز وحصد الغلال وحتى النحل إلح وقد عثر في «زاوية الميتين» (5)
على حجرة فيها خلية نحل ، وقد اجتهد المثل في رسم هذا الإناء ليظهر
دخول النحلة فيه لتضع شهدها ، وهذه العملية نشاهدها إلى الآن متبعة
عند فلاحي الوجه البحري إذ يتخذون من (القادوس) خلية يأوى إليها النحل ،
وكان المصريون يأكلون الشهد كثيرا . إذ عثر على رسوم في معبد الشمس ،
تمثل رجلا منهمكا في وضع الشهد في أوان ثم يخبثها (6) .

(1) Ann. S. A. vol. XX p. 105, pl. 4.

(2) Loret, La faune momifiée p. 309.

(3) Mission du Caire, t. V, pl. 3, hors textes.

(4) Hamy, Les ruches en poterie dans la Haute Egypte, 1901.

(5) Ann. S. A. t. XXXVIII p. 520.

(6) Z. A. S. 1907, t. XXXIX p. 9; p. 78, In the temple of Neouserrà
& Z. A. S. 1900, pl. 5,

الحيوانات التى كانت تربي لمنتجاتها الصناعية

أهم هذه الحيوانات النعام ، والخراف ، والتبوس ؛ إذ كان ريش النعام يستعمل حلية للرأس منذ عصر ما قبل الأسرات ؛ ومنذ العصر التاريخي ؛ نجد أن الإله «أوزيريس» كان يحلى لباس رأسه بريشتين جانبيتين ، وكذلك الاثنان والأربعون قاضيا الذين كانوا يجلسون فى قاعة المحاكمة ؛ وعلى رأس كل منهم ريشة من ريش النعام علامة على العدالة والحق . ومع كل فيظهر أن النعامة لم تشاهد فى الآثار المكشوفة للآن فى الدولة القديمة ؛ والظاهر أن ما كانت تحتاج إليه مصر من ريش النعام كان يجلب إليها من بلاد النوبة .

الغنم : تدل الآثار على أنه لم يكن يوجد فى مصر قديما إلا نوعان من الضأن يختلفان اختلافا بينا .

والنوع الأول هو *Ovis longipes palaeoegyptiacus* وهو ما يعرف بالكبش الوثاب (الكبش مندس) . وهو نوع من الضأن المستأنس وقراه يرمزان للقوة على رأس الملك . ويمتاز بقرنين عموديين على محور الجسم ملتويين التواء حلزونيا يكاد يكون خطا عموديا مستقيما . وهذا النوع من الخراف وجد فى مصر منذ عصر ما قبل الأسرات . ويمتاز بطول قدميه وذيله . والخراف من هذا النوع عفرة عظيمة تعطى مقدمة العنق . وأذناه متدليتان فى بعض الأحيان والأنثى من هذه الفصيلة ليس لها قرنان . وقد عثر على هذا النوع فى مصر منذ عصر ما قبل الأسرات . والظاهر أن شعره كان قصيرا ولذلك لم يكن صوفه يستعمل فى صناعة الملابس .

وتدل شواهد الأحوال على أن هذا النوع قد اقترض من مصر منذ الدولة الحديثة وحل محله نوع آخر ظهر في مصر منذ الأسرة الثانية عشرة ، وقد تكاثر نتاجه تكاثرا عظيما حتى قضى على النوع الأول وهذا النوع الجديد يعرف باسم 15, *Platyra ægyptiaca* ويوجد عدد عظيم من بقايا هذا النوع وبخاصة قرونه ، وهى محنطة تحنيطا متقنا . ويوجد في متحف فؤاد الأول الزراعى مجموعة جميلة منها .

ويمتاز هذا النوع من الخراف بقامة اعتيادية ووجه مقوس وأذنين متدليتين متوسطة الطول . وله قرون غليظة القاعدة متجهة إلى الخلف ثم تنحني إلى أسفل ثم إلى الأمام وله ذيل طويل ، ضخم (اللية) عريض وقد جلب هذا الحيوان على ما يظهر إلى مصر حوالى ٢٠٠٠ ق . م . ومن المحتمل أنه كان محببا للأهلين بسبب (ليته) العظيمة . والظاهر أن شعره كان كذلك قصيرا . ومن ذلك يمكننا أن نستنتج أن المصريين كانوا يأكلون لحم الضأن ولم يكونوا يعرفون الملابس الصوفية ؛ إذ كان ضأنهم لا ينتج صوفا صالحا للغزل . والحقيقة أن كل الأقمشة القديمة التى عثر عليها للآن فى المقابر المصرية القديمة كانت مصنوعة من الكتان . ولم يعرف أن الملابس الصوفية استعملت فى مصر أحيانا إلا فى العهد الإغريقى . وكانت تلبس كثيرا فى العهدين الرومانى والقبطى . غير أننا لا نعلم إذا كانت قد صنعت فى مصر أم كانت تجلب من بلاد سوريا أو اليونان وغيرهما من بلاد البحر الأبيض المتوسط ، إذ كان الصوف يوجد فيها بكثرة . ولا يبعد أن يكون قد جلب إلى مصر صنف آخر منتج للصوف أو حسن نوع الشعر الذى كان يكسى به الجنس الجديد من الضأن حتى

أصبح صالحا لصناعة الملابس الصوفية .

ويقول « هردوت » أن المصريين كانوا يلبسون قباء من الكتان موشى بصور من الصوف الأبيض غير أنه في الوقت نفسه يقول أن دخول المعابد بملابس صوفية غير مباح . وقد كان بعض علماء الآثار يظنون أن الشعر المستعار الذى وجد في المقابر من الصوف ولكن البحث العلمى أثبت أنه لا توجد واحدة من بينها من الصوف .

وقد عثر على كمية من الصوف فى تل الهمارنة يرجع عهدها إلى الأسرة الثامنة عشرة ، مما يدل على احتمال استعمال الصوف والملابس الصوفية فى مصر فى هذا العهد غير أنه من المحتمل جدا أن هذا الصوف قد جلب إلى مصر من آسيا وبخاصة فى هذه الفترة التى كانت فيها مصر هى المسيطرة على هذه البلاد من كل الوجوه .

الجمار : كان الجمار يستعمل فى مصر لحمل الأثقال منذ عهد الدولة القديمة . وقد عثر له على رسوم عدة ، أهمها فى مصطبة « ورخو » ، من عهد الأسرة الخامسة (1) بالجيزة إذ نشاهد حمارين يحملان محفة بينهما لجلوس موظف للتفتيش على أعمال الحقول . وقد كانت أهمية الجمار عظيمة فى القوافل التى كانت تعد عند قدماء المصريين أهم طرق المواصلات مع خارج البلاد .

ولا نزاع فى أن البعثات التى قام بها المصريون فى عهد الدولة القديمة إلى سينا ، وفى مصر العليا كانت بوساطة الحمير . وفى عهد الأسرة السادسة

(1) Leps. Denk. II, pl. 43,

عند ما قام « حرخوف » برحلته للبحث عن البخور ، والعاج من أعلى بلاد النوبة كان معه ٣٠٠ حمار . وقد عاد بها محملة بالنفائس من هذه الجهات (انظر ص ٣٨٢ وما بعدها من الجزء الأول) .

الثور : كانت التيران ذوات القرون الطويلة تقوم بكل الأعمال التي يتطلبها الفلاح . فكانت تستعمل في حرث الأرض ، ودرس القمح ، وجر عربة الدفن ونقل الأحجار الثقيلة ^(١) من المحاجر إلى الأماكُن التي كانت تبني فيها ، كالمعابد ، والأهرام .

الحصان : لم يظهر الحصان إلا في عهد الدولة الحديثة وستكلم عنه في حينه .

الجل : تدل الأحوال على أن المصري لم يستعمل الجل في العهد التاريخي على الأقل ^(٢) . ولكن عثر على تمثال صغير له من الفخار من عصر « نقادة » ^(٣) . وكذلك عثر على تمثال صغير آخر من عهد الأسرة الثامنة عشرة ^(٤) يمثل الجل حاملاً إناءين متدليين على جانبيه . وقد ذكر أحياناً في متون الدولة الحديثة ، مما يدل على أنه كان مستأنساً « الجل يسمع الكلام » كما جاء في ورقة « بولوني » ^(٥) . وقد قال عنه « فيدمان » أنه هو الحيوان الذي يمثل الإله « ست » .

ويظهر أن الجل كان مكروها عند قدماء المصريين لصلته بالعرب (؟)

(1) Griffith, Pap. of Kahun, pl. 15, 1. 14 ; pl. 31, 1. 25.

(2) Congrès des Orientalistes, 1907 Art. Lefebvre, Le chameau en Egypte, et Wiedmann, Sphinx, t. XVIII. p. 174.

(3) Mariette, Abydos, t. II P. 40.

(4) Petrie, Giza, & Rifeh, 1907 pl. 27.

(5) Gr. pap. de Bologne, No. 1086

ولذلك لم يستعمل عندهم . أما في العصر الإغريقي الروماني فقد استخدم
الجل بكثرة .

الحيوانات التي تربي لمساعدة الانسان وحمايته

الكلب : لقد استؤنس الكلب في مصر منذ عصر ما قبل الأسرات (1) ،
ودفن بالقرب من صاحبه كما ذكرنا ؛ وكان الأول من بين حيوانات العالم
التي استأنسها الإنسان . ولا شك في أن الإنسان في بادئ الأمر قد لاحظ
فائدة هذا الحيوان في مساعدته على اقتناص فريسته حتى أصبح إخلاص
الكلب ، وتفانيه في حب صاحبه دافعا له ليتخذ منه صديقا ، إذ كان
حاميا له ، ومدافعا عن ماشيته عند إغارة الحيوانات المفترسة عليها . ومن
ذلك ما وجدناه في أحد مقابر « مير » (2) من عهد الدولة القديمة لرسم
كلب جالس في مؤخرة القارب بجوار الصياد . ويقص علينا « ديدور الصقلي »
أن الكلب قد ساعد « إزيس » في العثور على جثة « أوزير » (ربما
يقصد « أنوب ») ؛ ولذلك تأتي الكلاب في احتفال عيد إحياء « أوزير »
بعد الإلهة « إزيس » تخليدا لذكرى مساعدتها لها ، وقد كان نباح
الكلاب النذير بالخطر في الأرياف مما كان يؤكد لرجال الشرطة
القائمين بالحراسة في المنطقة بقرب وقوع خطر كما ذكر لنا كاتب مريض
كان يستشفى في الأرياف إذ يقول « كان على باب داري مائتا كلب

(1) De Morgan, Recherches, t. II p. 162, No 8.

(2) Meir, t. II, 4.

من الكلاب العظيمة ، وثلاثمائة كلب سلوق واقفة على باب بيتي طيلة اليوم . فيكون مجموعها خمسمائة ، وفي أثناء النهار لا تقول شيئاً . ولكن أثناء الليل عند ما تطلق أثناء نومها فإنها تضايق المار وتقوم جماعات لترجمه من حيث أتى بنباحها ، وإذا أمكن نهشته بأنيابها » (1) .

وقد كان الكلب يستخدم كالأسد في ساحة القتال . فعند ما كان الفرعون يحصد رهوس الأعداء ، كان الكلب السلوقي (2) يمزق ثيابهم . وتوجد أنواع عدة من الكلاب المصرية قد جاءت عن طريق التناسل مع ابن آوى ، والذئب ، والضبع ، وكل فصيلة الكلب الأخرى المتوحشة ومنها الكلب السلوقي . وهو مشهور باقتفاء الأثر ؛ ومهاجمة الغزلان ؛ والشعالب وقد كان مشهوراً في الصيد في الصحراء خلال عصر الدولة القديمة . (3) وتشاهد كلبة في ضيعة العظيم « زاو » من هذا النوع ترضع جراءها (4) الثلاثة ورقبتها محلاة بطوق ، ويوجد نوع آخر يشبه الضبع ، وفيه كل صفاتها ولا يمتاز عنها إلا بعلو مؤخرته ، (5) ولم يرسم هذا الكلب قط جالساً . وفي وقت الصيد لا يهاجم بل يبقى بالقرب من سيده الذي لا بد أنه كان يستعمله مثل الضبع لاقتفاء الأثر بشم رائحة الفريسة فيرشد سيده إلى مكانها .

(1) Pap. Anastasi, V, pl. 99 trad. Maspero, Notes au jour le jour, Bib. Egy. t XXXII p. 316.

(2) Rosellini, Mon. Civ. pl. 56. & Champ. mon. III pl. 63.

(3) Ann. S. A. E. t XXXVIII pl. XCVII.

(4) Deir el Gabrawi, t. II pl. II. & Ptah-hotep, I p. XXII.

(5) Lenormant, Comptes-rendus de L'Académie des Sciences, 1870 p 593, 632. Sur les Animaux employés par les Anciens Egypt. à la chasse et à la guerre, & Virey, Rekhmara pl. 6,

أما الكلاب العادية في مصر ذات اللون الأسود ، والاعضاء النحيلة والأذن المنتصبة . فيقال إنها هي التي تمثل الإله « أنوب » . ولكن ذلك مشكوك فيه جداً . وهناك أنواع أخرى من الكلاب رسمت على مقابر بني حسن وبخاصة الكلب السلوق ، الذي يشبه الثعلب ، ونوع الكلب الذئبي الذي ظهر في عهد الأسرة الثانية عشرة .

وقد أصبحت كل هذه الأنواع من الكلاب رمز « الانتباه » ، وقد استعمل نابحا في تسمية الشعرى النجم « سريوس » (نجم الكلب) الذي يظهر عند بداية الفيضان ، وينبه الزارع المصري إلى حلول الفيضان⁽¹⁾ . وقد كانت هناك كلاب صغيرة للهو والتسلية ، تكون دائماً مراقبة لأصحابها ، وهذه الكلاب تلاحظ كثيراً على اللوحات المائتية . وكان الكلب دائماً مع الأسرة لا يفارقها ، جالساً على مؤخرته . وقد كان أحياناً يؤدي دور الرجل فيتكلم عن نفسه مفتخراً بأمانته : « أنا الكلب الذي ينام في الفراش ، كلب السرير الذي يحب سيده »⁽²⁾ .

وكانت الكلاب الصغيرة تدفن في توايت ، ويوجد في متحف « بروكسل » تابوت من هذا النوع⁽³⁾

القطعة : كان قدماء المصريين يربون نوعين من القطط⁽⁴⁾ : نوعا عظيم الحجم وهو الذي يمثل الإلهة « باست » ، ويقول « استرابون » :

(1) Loret & Gaillard. Faune mom. p. 3.

(2) Stèle du Caire, Grab und Denks Lang & Schäfer, No. 20,506 p. 96.

(3) Capart Z. A. S. t XLIV (1908, p. 13)

(4) Loret, la Faune mom. pl. 4 & 19.

أنه لذلك السبب كانت تقدر القطه فى كل مصر وتسمى (Felis Maniculatas)
ونوعا آخر صغيرا يشبه القطه التى نراها بيننا الآن مستأنسة .
أخذت القطه تعتبر كالفرد حيوانا مدلا عند قدماء المصريين فى عهد
الدولة الحديثه (1)

وفى عهد الدولة الوسطى تشاهد القطه مستخدمة فى صيد الطيور ،
وذلك للقبض على الطيور التى اصطادها سيدها ، أو لصيدها (2) بقفزة
واحدة ؛ وأحيانا يرسم القط متحفزا للوثب على فأر (3) .

النمس المصرى . (أوفأر فرعون) : (معجم الحيوان ص ١٢٧) .
وهو مضر للتمساح ، والحية ، والظاهر أنه كان مستأنسا فى مصر حسب
قول بعض العلماء (4) منذ الدولة القديمة ، وهو يتقمص روح الإله « آتوم »
الذى يمثل الشمس الغاربة عند قدماء المصريين . وذلك لأنه يظهر عند
الغروب ، ويبتلع الثعبان (5) الذى كان يعتقد أنه يلتهم الشمس عند الغروب
(أى الإلهة آتوم) .

القرد : تدل الآثار المكتشفة إلى الآن على أن المصرى كان يستأنس
نوعين من القردة منذ الدولة القديمة (6) : نوعا منها لونه أخضر ،
وهو كلبى الرأس ويسمى « ميمون » أو « قردوح » Papio hamadryas

(1) Mem. Miss. du Caire, t. V p. 552.

(2) W. M. t. II p. 108.

(3) Leps. Denk. II pl. 130.

(4) Lifebure Bib. Egyp. t XXXIV. Le nom Egyptien d'Ichneumen
p. 314

(5) Leps. Denk. II, pl. 12, 60 & 77.

(6) Meidum, pl. 17. Mefermaat pl. 24 & Rock tombs of Sheikh
Saïd Urana, pl. 4.

وهو عظيم الخلق قبيح المنظر ؛ أما الثانى فيرسم بلون أصفر ، وهو أصغر من الأول بكثير ، ويلاحظ في رسوم « ميدوم » (1) أن قردين يلعبان مع طائر من فصيلة أبى مغازل ، وقزم ، وذلك لتسلية الميت فى قبره ، كما كان يتسلى به فى دنياه . ومن الطريف أن الأقزام كانت موكلة فى العادة بحراسة القردة (2) . وفى رسوم أخرى يشاهد القرد مربوطا فى كرسى سيده بطوق أحمر حول وسطه (3) . وقد لوحظ فى مقبرة « تسن » من الأسرة الخامسة أن الفرد كان يصحب سيده مع الكلاب للصيد ، والقنص (على الجدار الشرقى من مصطبة « تسن » بحفائر الجامعة المصرية) .

الرفق بالحيوان والعناية بتربيته

إن أظهر دليل على رقى أى شعب من الشعوب ، أو أى فرد فطرى ، هو معاملته للحيوان الذى يستخدمه فى عمله ، وفى غذائه ، وفى تسليته . وسنعرف الآن كيف كان المصرى يعامل الحيوانات التى يربئها ، وكيف كان يعمل جل ما فى طاقته لقضاء كل ما تحتاج إليه فى رفق ورحمة . كان الفلاح منذ استأنس الحيوانات يقودها إلى الحقل ، والمراعى فى أغلب الأحيان حرة طليقة ، وأحيانا كان يربطها بحبل ، ويقودها . أما الجاحظة فكانت توكل إلى خدم معينين . وعند ما يدعو الأمر الراعى

(1) Meidum, pl. 24.

(2) Deir el Gabrawi, t. 3, pl. 17, Sheikh Saïd, pl. 4 & 6.

(3) Mem. Miss. Arch. 1889, t. I, p. 3. Tomb d'Amenhotep.

إلى عبر قناة كان لزاما عليه أن يستخدم قاربين لنقل البهائم من شاطئ إلى شاطئ (1) . وذلك عند ما تكون القناة عميقة . لكن عند ما يكون الماء ضحضا . فإن الراعى يخوض الماء بجانب قطيعه حاملا العجل الصغير على كتفيه خوفا عليه ، وليجعل البقرة تتبعه شفقة على رضيعها ، وكان الفلاح دائما يخاف عبر القناة العميقة . ولذلك كان يقرأ تعويذة لحفظ ماشيته من شر التماسيح التي كانت تسبح في الماء (2) .

أما رعى البهائم فكان لا يختلف كثيرا عن عصرنا هذا . إذ كان الراعى يترك قطيعه في المراعى الخضراء ، ويتفيا ظلال الأشجار ، ولكن الحيوانات السريعة العدو مثل الوعول ، والظباء والغزلان ، كانت لا تترك حرة للرعى . بل كانت تبقى في الحظائر وتأكل في أوقات معينة بواسطة راعيها في مزاود خاصة . وفي الغالب يطعمها الراعى بنفسه (3) . وأما الطيور (4) مثل أنواع الكراكي ، وغيرها . والأوز والبط ، وأنواع الحمام فإن حوصلتها كانت تملأ بالحبوب بيد راعيها (الجفر) .

الحظائر : كانت البهائم تعود كل ليلة لتنام في حظائرها كما يقول المصرى نفسه ، ولكن في وقت الحصاد كانت تبقى في الحقول ويقيم لها الفلاح حظائر من غصون الأشجار وذلك للمحافظة عليها من الحيوانات الضارية . وكانت الحيوانات تربط في أوتاد مفروسة في الأرض وأمام كل حيوان مذوده الذى يأكل فيه ، وكذلك الطيور كانت لها أبراج خاصة

(1) Ti. p. 188.

(2) Agr. A. E. Hart. p. 250 Fig 65 & fig 65 P. 251.

(3) Agr. A. E. Hart. p. 255 fig. 67.

(4) Ti pl. 122.

فسيحة الأرجاء كما يشاهد ذلك في مقبرة « نى » و « بتاح حنب »^(١) بسقارة .
العناية بأجسام الحيوان : لم نشاهد على الآثار قط جزّ وبر الحيوانات
أو تطهيرها ، ولكن « ديودور »^(٢) يقول أن الغنم كانت
تجوز ثلاث مرات في العام وإذا حكمنا بالظواهر فإننا نعتقد أن
الحيوانات لابد أنها كانت تنظف دائما ، يضاف إلى ذلك أننا نعلم أنه
وقت تضحية الحيوان كانت حوافره تنظف بفرجون كان يصنع في عهد
الدولة القديمة من ليف النخل^(٣) ، كما هو الحال في عصرنا الآن ، إذ
يستعمل ليف النخل في غسل الحيوان والأنسان في الأرياف . وقد ذكر
لنا « مسبرو »^(٤) أن الثيران كانت تغسل مرة كل يوم على أقل
تقدير عند الظهيرة .

وكان الراعى يخصى ثيرانه ليسمنها وكذلك لجعلها صالحة للعمل ؛
وربما كانت هذه العملية تجري في مكان خاص يسمى « مكان الخصى »^(٥)
ويتساءل « جيار » هل المصرى كان يخصى الثور لأجل أن يشب بدون
قرن ليقدمه هدية لصاحب الضيعة العظيم وبذلك يتفادى كى الحيوان
مرات عدة وهو صغير حتى لا يكون له قرنان كبيران ؛ وهذه الطريقة
الأخيرة هى التى يستعملها أهالى أوساط أفريقيا حتى الآن ، فإذا كانت
هذه النظرية صحيحة فإنها تدل على مقدار عناية الرعاة المصريين بالحيوانات

(1) Agr. A. E. Hart. 260 .

(2) Diodore t. I, 36.

(3) Loret, La Flore. 2 édit. p. 35.

(4) Maspero, Etudes Egyptiennes, t. II p. 40,

(5) Pyr. Pepi, t. I, 605.

التي يميلون إليها ورقهم بها ؛ على أن الرعاة كانوا دائما كثيرى الاهتمام
بحيواناتهم وما عسى أن ينالها من البرد بعد أى عمل شاق ؛ ففى
« ميدوم » (1) نشاهد ثورين مغطيين بغطاء مربع مزين بخطوط سوداء
وحمر. يخيل للإنسان أنه حصير من القش ؛ وكان هذا الغطاء يوضع
دائما على العجل الصغار . (2) وكانت حيوانات الحمل لا يوضع على ظهورها
شئ إلا إذا غطت ظهرها بردعة مربوطة على وسط الحيوان وكان
معظم الحمير يزود بالبرادع (3) عند ما كانت تحمل المحصول من الحقل .

وكان كل من الراعى وحارس الثيران يفتخر بالزينة التى كان يحلى بها
حيواناته ؛ فكان الواحد منهم يتفنن فى تأنيق قلائدها (4) التى كانت
أحيانا قطع زينة حقيقية تستعمل تعاويذ لمنع الحسد (العين المؤذية) ،
وعندما كانت الحيوانات تذهب إلى المراعى كان سائقها يضع زهرة من
البشبين فى قلادة الحيوان (5) زينة له .

أما حراس الحيوانات المدللة التى كان يعتز بها سيد البيت فكان جلّ همهم
أن يتفانوا فى تجميل لباسها وتزيينها . ففى مقبرة فى « زاوية الميتين » (6)
نشاهد قردا مقيدا ومغطى بلباس على شكل (البرنس) محكم
رشيق المنظر .

وكان المصرى يعتنى بتنمية تاج ماشيته وقد رسم لنا عدة مناظر لهذه

(1) Meidum, pl. 28.

(2) Miss Murray, Mastaba Saqqara, pl. 23.

(3) Beni Hassan, I, p. 29.

(4) Leps. Denk. II, pl. 102

(5) Ti, pl. 129

(6) Leps. Denk. II pl. 107.

العملية واجتهد في تحسينها بالطرق المتبعة الآن ؛ فنشاهد مثلاً في مناظر إحدى مقابر « دشاشة » (1) ثورا بقرنين على شكل هلالين يلقح بقرة ذات قرنين رباعي الشكل (أى ملتويين) وفي مقابر « دير الجبراوى » نشاهد بقرة ذات قرنين جميلين يلقحها ثور بدون قرنين ؛ وفي مقابر « بنى حسن » نشاهد قطعانا من الماعز والحمير (2) تلقح . والواقع أن المصرى كان يفرح فرحا عظيما عند ما كانت ماشيته تلقح وتنتج نتاجا حسنا ؛ وكانت الماشية تضع حملها في الحقول وفي المراعى ، وقد رسم المصرى كل ذلك منذ الدولة القديمة ؛ كما يشاهد في مناظر طريق الملك وناس « وقد كان المصرى أول من اخترع التفرخ الصناعى كما ذكر ذلك لنا « ديدور » (3) وغيره وكان المصرى يتبع في حلب البقرة طريقة فنية إذ كان لا يحلب حلبة حلبة بل كان يحلب حلماتين أو ثلاثا أو أربعا (4) دفعة واحدة ويجهد في ألا يترك حلبة واحدة دون أن يبتز لبنها لأنه كان في ذلك شل للعضو الذى لا يحلب وقليل من إنتاج اللبن بشل الثدي الذى يهمل ولعمري فإن الإنسان في عصرنا هذا يجتهد في تلافي هذا الخطر وكان المصرى يخلط لبن البقرة بالشهد ويقدم للمتوفى قربانا مرطبا (5)

أمراض الحيوانات : تدل كل الظواهر على أن المصرى كان يعنى ببنية

(1) Leps. Denk. t. II, pl. 132.

(2) Ann. S. A. E. t. XXXVIII pl. XCVII.

(3) Diodore, t.I. 74. Plin, X 54. & Bull. I. Eg. 5 Séries, t. V, 1911, p. 177.

(4) Deir el Gabrawi, Tomb of "Aba" pl. 11, - 187.

(5) Pap Ebers, pl. V, 1, 1.

حيواناته إذ في الواقع كانت لها الأهمية الكبرى في حياته حتى أن الفرعون كان يعد سنى حكمه حسب التعداد الذى كان يعمل للحيوانات كل عامين وقد عثر على ورقة لطلب الحيوان من عهد الأسرة الثانية عشرة^(١) وهى فريدة فى نوعها؛ غير أنها لبوء الحظ ممزقة ولكن من البقية الباقية منها يمكننا أن نحكم بأن كل فلاح كان يهتم بحيوانه والأمراض التى تنتابه وطرق علاجه . ففى مقبرة « قى » لاحظ الراعى أن أحد العجول لم يكن فى نشاطه المعتاد فى شد حبله ولذلك كتب الفنان أن الراعى يفحص ما الذى حدث لهذا العجل^(٢) . والظاهر أن فن معالجة الحيوان قد بلغ شأوا عظيما عند الأطباء البيطريين إذ قد لاحظ « كيفة » Cuvier^(٣) عندما فحص بعض عظام مكسورة فى الحيوانات التى تعيش فى وادى النيل أن هذه العظام قد ضمت إلى بعضها بطريقة فى منتهى ما يكون من الخدق والمهارة تدل على نبوغ المصرى فى جبر العظام المكسورة بطريقة عملية ليسهل للحيوان استعمال العضو الذى حدث فيه الكسر .

معاملة الحيوان برفق : لم نر فى النقوش المصرية أن المصرى كان يعامل خيواناته معاملة سيئة اللهم إلا الحمار الذى كان يضرب لعصيانه وجوحه ، أما باقى الحيوانات فكانت تعامل على وجه عام برفق وحنان إذ الواقع أن العصا أو السوط (الفرقلة) كانت تستعمل للأرهاب فحسب . أما صفار الحيوانات فكانت موضع عناية وحنان إذ كانت تحمل على

(1) Griffith, Hieratic Papyri from Kahum, p. 12, Vol 3.

(2) Maspero, Etudes égyptiennes, t. II p. 105.

(3) Cuvier, Mémoires sur l'Ibis des Anciens Egyptiens dans les annales du Musée, 1804, p. 116 etc.

الأغناق أو في حضن حاملة القرابين كما يلاحظ ذلك في رسوم مقابر الدولة القديمة إذ نرى الغزال الصغير أو العجل محمولا بين ذراعى حامل القرابين (1) كما نشاهد أميرات يلاطفن بأيديهن عصافير صغيرة قد سقطت من أوكارها . وأطفالا يداعبونها كذلك (2)

وقد كان الراعى يقود ماشيته إلى الحقل وهو ينشد لها الأغاني بحدا، خاص . وقد كتب الفنان بعض هذه الأغاني التقليدية ، والظاهر أن هذه الأغاني كان لها تأثير على البقرات وقت حلبها مما يزيد في مقدار اللبن الذي كانت تعطيه يوميا ، إذ عملت تجارب لذلك في أمريكا فوجد أن البقرة تعطى ١٥ ٪ من اللبن زيادة على إنتاجها الطبيعي عندما تحلب والراعى يحدو لها بغناء يهذى من أعصابها (3) ويدخل عليها السرور . وكان الفلاح وهو يرعى ماشيته لا يكتفى بملاحظتها بل كان ينمت كلا منها بصفة تغلب عليها فكان يسمى « الذهبية » و « الجيلات » و « اللامعة » (4) إلخ .

وعند اشتداد الخطوب في البلاد بسبب الثورات مما يسبب أهوال الحيوان وعدم العناية به يصف الكاتب هذه الحالة بقوله : « الحيوان يشكو من الشكوى فقلبه يبكى أو ينتحب بسبب حالة البلاد » (5) .

وعند ما يتناطح ثوران أو تشبك قرومها معا كان الراعى يتدخل في

(1) Ptah-hotep, pl 15, 25. (2) Mémoires, Inst. Egypte, t. III p. 528, 532 & 555 (3) Journal du Paysan, Mars 1921.

(4) Lefebure, Recueil Champollion, 1922, Tombeau de Petosiris p. 83. (5) Admonitions, pl. III, I, Ed. Gardiner ; et Maspero, Causeries d'Egypte, p. 267.

الحال بينهما برفق (١) .

ولما كان المصرى يخاف ضياع حيوانه بين الحيوانات عند ورود الماء كما يخاف عليها من السرقة فإنه كان يعلمها بعلامة خاصة ، بكتيها في الغالب على الكتف أو على القرن وتوجد قرون كباش من نوع *Ovis platyra* مختومة على قرونها وهى محفوظة بقسم الزراعة القديمة بمتحف فؤاد الأول الزراعى . وقد عثر على مناظر لهذه العملية (٢) كما عثر على حيوانات تحمل علامات خاصة .

ومنذ الدولة القديمة نجد أن الكهنة كانوا يختمون الحيوان ، ومن المحتمل جدا أن هؤلاء الكهنة كانوا ينتخبون من بين الحيوانات ما يصلح للمعابد وما هو صالح للذبح . ويجب أن تكون هذه الحيوانات خالية من كل مرض أو تشويه مما يندس لحما . ويقول « هردوت » أنه على أثر موت أى عجل « أبيس » ترسل المعابد مقتشين عند مربى الحيوانات فيفحصون كل حيوان فى حالته وقوفه ورقاده على ظهره ثم يسحبون لسانه ويرون إذا كان سليما وخاليا من العلامات التى ذكرتها الكتب المقدسة فإذا لم يجدوا فى جسم الحيوان شعرة واحدة سوداء مما يجعله مقبولا فى أعين الآلهة فإن الكهنة تعلمه بوضع جبل حول قرنيه مصنوع من ألياف نبات البردى ويضعون عليه طينة ويختمون عليها بخاتم خاص .

تعداد الحيوان : ذكر على حجر « بلم » الذى يرجع عهده إلى الأسرة الخامسة أن الحيوانات كانت تحصى فى عهد الدولة القديمة كل عامين

(1) Deshasha, Tomb of Sheddu, pl. 28. (2) Rosellini, Mon. Civ. t. II, pl. 42 & Wilkenson, Manners t. II, p. 84.

مرة وذلك أمام ممثلين للإدارة الملكية ، كانوا يرسلون إلى الأرياف
لعدد الحيوان حتى تقدر الضرائب بمقتضى ذلك ، ولكن منذ عهد الدولة
الوسطى كان التعداد يعمل كل عام^(١). فكان يقدم كل فلاح الحيوانات
التي فى حراسته ، وهى التى يرعاها لحساب صاحب المقبرة حيث قد
رسم المنظر ؟ ، الذى يمثل ذلك آثارهم وأحسن مثال لدينا عن تعداد
الحيوانات وأهميته. ، عثر عليه فى « البرشة » من عهد الدولة الوسطى فى مقبرة
أحد أمراء مقاطعة «هرموبوليس» ، وهو « تحوت حنب »^(٢) . وفى مناظر
هذه المقبرة نجد تعداد كل أنواع الحيوان والطيور ، وحتى البيض .

أسماك النيل والبحيرات

تدل مناظر صيد الأسماك العدة التى نشاهدها على الآثار المصرية منذ
نقدم العهد على أن النيل كان يحتوى على أنواع أسماك مختلفة استعملها
المصرى طعاما له . وقد كان صيد الأسماك من الأشياء المحببة للمصرى منذ
عصر ما قبل الأسرات ، وقد رسمت الأسماك التى كانت تصاد فى النيل
بالشبكة أو بالشص بكل دقة ومهارة كل نوع بتفاصيله وخواصه ؛ وقد
استعمل المصرى منذ فجر التاريخ عشرة أنواع من سمك النيل إشارات
فى اللغة المصرية القديمة لكل مميزاتها ؛ ولذلك عرفنا اسم كل سمكة

(1) Hieratic Papiri Kahun. 1898.

(2) El Bersha, Part, I, Plates XVII — XIX.

بلغة القوم (١) وقد رسم « روزليني » كل أنواع السمك المصرى النيلى بألوان الطبيعة وسنسردها هنا أسماؤها بالعربية واللاتينية والمصرية حسب ما وصلت إليه البحوث العلمية حتى الآن .

(١) « عحا » : *Lates niloticus* وهذا النوع يطلق عليه اسم « لاطس » أو « القشر » أو « الفرخ » أو « حمار البحر » وأول ما عثر على رسمها في « ميدوم » (٢) وهذه السمكة يبلغ طولها أحيانا نحو ١٨٥ سنتيمتراً : وقد كانت هذه السمكة تقدر في بلدة « لاتوبوليس » (إسنا) وكانت تخطط هي وصغارها (٣)

(٢) *Tilapia nilotica* : وهو السمك « البلطى » أو « المشط » وله زعانف طويلة على الظهر . وأقدم رسم عثر عليه في « ميدوم » (٤) وكذلك في مصطبة « بتاح حتب » (٥) بسقارة .

(٣) « عز » *Mugil cephalus* : وهذا النوع يعرف في مصر باسم « البورى » ويمكن تمييزه بزعانفه الأربعة التى تشاهد كل اثنتين على جانب . وقد رسم أولا على آثار « ميدوم » (٦) ورسمت كثيرا في كل مناظر صيد الأسماك (ويقول عنها « جاردنر » أنها البورى) .

(٤) « خا » *Mormyrus Kannume Oxyrinque* : وهي سمكة تعرف في مصر باسم « قنومة » وهي طويلة ، لينة الزعانف ، صغيرة الفم لها خطم

(1) Montet, Bull. Inst. Franc. d'Arch. 1913 t. XI p. 39. & Resellini, Mon. Civ. t. II, pl. 25 : (كل أنواع سمك النيل ملونة .)

(2) Petrie, Meidum, pl. 12 & Von Bissing, Gem-ni-Kai, T. pl. 26, fig 39. (3) Loret, La Faune Mom. p. 5 (4) Meidum, pl. 11

(5) Ptah-hotep I, pl. 9 (6) Meidum pl. 9. pl 26, fig 44-

طويل دقيق ويحكى أنها مزقت الإله «أوزير» . وشاهدها مرسومة في مقبرة «تى» وفي مقبرة «جنى كاي» بسقارة .

(٥) «نعر» *Clarias anguillaris* : وهو المعروف في مصر باسم «القرموط» (في اللغة العربية) «الجرى» و «السلور» .

(٦) *Synodontis schall.* : وهو المعروف عندنا باسم «الشنال» وهو سمك سلوى من أسماك النيل .

وقد عثر على رسم هذه السمكة في مقبرة «تى» وكذلك في مصطبة «لیدن» وأيضا في مقبرة «جنى كاي» بسقارة . (1)

(٧) «بوت» *Schilbe mystus* ذكره «الدميرى» في باب السمك وسماء «شلبا» وصاحب «المحيط» سماه «شلبة» (معجم الحيوان صفحة ٢١٨) والظاهر أن هذا السمك كان له رسمان ، وقد وجد رسم هذه السمكة على جدران مقبرة «جنى كاي» (2) بسقارة .

(٨) «شبت» *Tedreodon. Fahaka* وتسمى عند الصيادين «الفقاقة» . ويطلق عليها كذلك إسم «فكة» ، و «فكة» (3) .

(٩) «بس» بنى (جردنر ٤٦٧) *Barbus bynni*

وقد شوهد مرسوما على جدران مقبرة «مرا» بسقارة وعلى آثار الأسرة الثانية عشرة من عهد «سنوسرت الأول» (4) .

(1) Gem-ni-Kai, I, pl. 26, fig 45. (2) Gem - ni - Kai, I, pl. 26, fig 48.

(3) معجم الحيوان ص ٢٤٦ .

(4) Bull. l. Eg. t. XI p. 41 fig 3.

وكذلك توجد أنواع أخرى كانت تصاد من الماء المالح والعذب على السواء وبخاصة الفرخ *Perea* ويسمى « فرخ نيل » . وكانت هذه الأسماك التى ذكرناها يتكون منها الطعام الأساسى لسكان وادى النيل فى عهد العصر الحجري الحديث كما تدل على ذلك بقايا المطابخ التى درسها العالم « دى مرجان » (1) والظاهر أن السمك كان من الأطعمة الأساسية عند المصريين فى العصور التى تلت حسب قول « هردوت » (2) إذ يقول : إنه كان يوزع على العمال جزية من السمك يبلغ وزنها نحو ٩١ جراما وفى بعض الأحوال كان يحرم أكل السمك إذ كان يعد نجسا . (3) وفى نتيجة « سليه » أو نتيجة الأسرات كان يحرم أكل السمك عامة فى أيام مخصوصة من السنة ولعلمهم أرادوا بذلك إفساح المجال لإكثار السمك فى النيل لأنه فى هذا الوقت تقل الأسماك لقلة المياه . مثال ذلك فى ٢٢ تحوت (توت) : « لاتأكل السمك فى هذا اليوم إذ فيه الكفرة يصيرون سمكا فى الماء » (4) وكذلك فى ٢٨ كيهك و ٢٥ برمودة وفى ٢٩ كيهك ينصح بطرد العامة

(1) Recherches t. I, p. 99.

وقد عثر كذلك على تعاويذ كثيرة المدد وعلى ألوان فى شكل أسماك من عصر ما قبل الاسرات أنظر من. ٨٤ الجزء الاول .

Diospolis Parva, pl. 3, pl 116. Nagada & Ballas pl. 12, No. 82 pl 27, No. 68 a. b. c. pl. 48 & Hierakonpolis, t. II pl. 64, Abydos, t. II pl 39. (2) H., II 72 & Strabon XVII 812 & 72.

(3) William Radcliffe, Fishing from the Earliest times, London 1921. p 319 to 326.

فى هذا الكتاب لعن المؤلف طرق صيد الاسماك فى مصر وعند كل الامم .

(4) Calendrier Sallier, p. 1 & 2.-Chabas, Le calendrier des jours fastes et néfastes de l'année, Paris.

الذين أكلوا سمكا . أما في المقاطعات التي تكون تحت حماية أى نوع من هذه الأسماك فإن القوم كانوا يمتنعون عن أكله فمثلا في « إيسنا » كان يحرم أكل « اللوطس » (1) الذى يقدر في هذه الجهة . وقد جاء في « بلوتارك » (2) أن في مقاطعة « القنومة » « أكسرنك البهنسا » لا يأكل القوم أى نوع من السمك وكذلك يقول متفقا (3) مع « هردوت » (4) أن الكهنة كان محرمًا عليهم أكل السمك الذى كان يعد لحمه نجسا ، (5) يضاف إلى ذلك أن فصل التعاويذ السرية من كتاب الموتى (6) لا يمكن أن يتلوه إلا رجل طاهر مطهر لم يكن قد أكل لحما ولا سمكا . وقد كان الكهنة يحرمونه أمام بابهم في اليوم التاسع من الشهر الأول من السنة على حين أن كل مصرى كان يأكل على عتبة بابه سمكة مشوية . (7)

وكان يجفف السمك ويحفظ وكذلك كانت البطارخ تستخرج منه كما يشاهد ذلك في رسوم مقبرة « نبكاوحر » في سقارة .

- (1) William Radcliffe Sacred fishes. p. 327 - 332 (2) Isis & Osiris p. 18. (3) Isis & Osiris p. 7. (4) H. II p. 37. (5) La Stèle de Piankhi I, 151, & Iacau, Z. A. S. t. XI 42. (6) Todtenbuch, Facsimilies of Papyri, 1889 pl. 26 The Chapter of Coming 1898 p. 145, 146. (7) H. II. 37

طرق الصيد وأنواعها

صيد الأسماك : كان لصيد الأسماك عند قدماء المصريين طرق عدة : وهى الصيد بالشص ، والصيد بالشبكة ، والصيد بالسلال ، والصيد بالخطاف ، والصيد بالنشالة ، وكان صيد الأسماك محبباً عند القوم لدرجة كبيرة كرياضة وتسلية كما أنهم قدسوا بعض الأنواع كالأنوم واليباض والبنى لورودها ضمن أقاصيصهم الدينية المتوارثة ، وكانوا يتجنبون صيدها فى أيام انخفاض الماء فى النيل محافظة عليها ، وقد تقدموا فى حفظ الأسماك وتعليقها كما يظهر ذلك على الأخص فى مقبرة « قى » بسقارة من الأسرة الخامسة .

أدوات صيد الطيور

عصا الرماية « البومرانج » : هذه الآلة كانت تستعمل لصيد الطير منذ عصر ما قبل التاريخ وهى تتكون من قطعة من الخشب رقيقة نوعاً ومنحنية عند ثلثها الأخير تقريباً فى شكل زاوية منفرجة ، وكانت تستعمل لصيد الطيور فى المستنقعات حيث يرى الصياد عادة واقفاً على قارب من البردى وسط النباتات المائية متحفزاً لرمى العصا أو لاستعمالها وهو قابض عليها لضرب الطيور القريبة منه ثم القبض عليها بعد إصابتها . وهذه الآلة تشبه آلة البومرانج التى لا تزال تستعمل فى استراليا للصيد .

شباك صيد الطيور : تتكون هذه الشباك في مصر القديمة من الجريد أو الخشب ونسيج الكتان وحبال الليف أو قشر جريد النخيل

١- الشباك السداسية الشكل التي نراها ممثلة بكثرة على جدران الآثار المصرية القديمة قريبة الشبه بالشباك التي كانت إلى عهد قريب جدا ، ولا تزال في بعض الجهات المصرية مستعملة خصوصا في بلدة « المطرية » « وأبو رواش » . وتتلخص طريقة استعمالها في تثبيتها في الأرض بأوتاد وتركها مفتوحة بواسطة مضارب من الجريد تتحرك عند إغلاقها بواسطة الحبل المعد للسحب بعدما تدخل الطيور مغرورة بالحلب الملقى فيها ، وتتحرك المضارب بعد إغلاقها ويبقى العمال يشدون الشباك حتى يلقى القبض على الطيور وتعبأ في الأقفاص كما هو موضح على جدران المعابد والمقابر القديمة في « سقارة وأهرام الجيزة وبنى حسن » .

ب - صيد السمك بشبك الحقول :

الطريقة التي كانت متبعة عند قدماء المصريين لصيد السمك تتلخص في أن يسحب الرجال شباكا مربعة تقريبا بنظام : اثنان من الأمام واثنان من الخلف وبين هؤلاء رجالان أو أكثر . والمعروف عادة أن السمك يأوى إلى الزرع ليلا فعندما يشعر بحركة الشباك والصيادين في أثناء سيرهم يهيم طائرا فيعوقه الشبك ويسرع الرجال الأواسط إلى التقاط ما يحجزه الشبك ؛ وهذه الطريقة واضحة في مقابر « سقارة » من عصر الدولة القديمة حوالى (٢٥٠٠ ق م .)

فخاخ الصيد :

كان قدماء المصريين مولعين بصيد الطيور بالفخاخ المختلفة

وكانت فى جملتها تتكون من الخشب أو الجريد ونسيج الكتان أو الليف والبوص ، وأهم هذه الفخاخ هو الفخ ذو الطارتين الذى يرى ممثلا على الأخص فى مقابر « بنى حسن » التى يرجع تاريخها إلى عهد الدولة الوسطى حوالى (٣٠٠٠ - ٢٠٠ ق م)

أدوات صيد الحيوانات البرية

القوس والنشاب : استعمل القوس والنشاب منذ عصر ما قبل التاريخ وقد صنع من الخشب والجلد والكتان (أو الليف) . أما النشاب فكان يصنع من البوص أو الخشب ورأسه من الصوان ثم البرنز فيما بعد ، وفى بعض الأحيان كانوا يصنعونها من عظام الحيوانات أو من سن الفيل إذ كانت تثبت القطعة بعد تشذيبها فى عود رفيع من البوص تربط فيه بخيط أو بقطعة من الجلد .

ولقد كان القوس والنشاب من أهم أدوات الصيد ويستعملها هواة الصيد والرمية الذين يرغبون فى أظهر مهارتهم .

فخاخ صيد الفزلان والتياتل :

تتكون هذه الفخاخ من حلقة من الجريد يخرج منها شوك النخيل من المحيط إلى المركز حيث تجتمع الأطراف المدببة وتكون بؤرة ويتصل بالحلقة جبل ذو عروة (خية) حول البؤرة ينتهى بقطعة من الخشب أو الجريد . وطريقة استعمالها هى أن يلقى عدد منها فى طريق الحيوانات وعند ما تطؤها بأقدامها ينزلق ظلف الحيوان فى البؤرة فتنجبس على التجويف الواقع أعلى الظلف فيضغط

الشوك على رجل الحيوان وتطبق الحية عليه ، وتعاكسه قطعة الخشب والحبل فتعوق جريه ، وفي هذه الحالة يسرع الصياد إلى القبض عليه .

الحية : استعمل قدماء المصريين ضمن أدوات الصيد الجبال ذات الحية وهى تحتاج إلى مهارة فى الرمي لإحكام تطويق الحيوان بها . وهذه الطريقة كانت تستعمل غالبا فى حالة ما إذا أريد اقتناص الحيوان حيا دون إصابته بضرر ما . وكان الصياد فى هذه الحالة يختبئ وراء الكشبان أو الشجيرات ويأخذ الحيوان على غرة . وهذه الطريقة تشبه ما هو متبع الآن فى جنوب إفريقية ، والفارق بينهما أنهم فى الأخيرة يستعملون الجبال ذات الحية وهم على ظهور الخيل .

ولأجل أن نربط الماضى بالحاضر نذكر هنا على وجه الأجمال الحيوانات والطيور التى لا تزال باقية فى صحارى مصر وما جاورها من البلدان ويصطادها غواة الصيد والقنص حتى الآن . وسنرى أن بعض الحيوان والطيور قد انقرض أو تقهقر إلى الشمال بسبب قلة المرعى والجفاف وغير ذلك من الأسباب . .

وأهم أنواع الطباء التى لا تزال تصاد فى مصر حتى الآن هى العفر والآرام والأولى سمراء الظهر بيضاء البطن تعلوها حمرة وتعيش فى الصحراء الغربية بعيدة عن الساحل الشمالى بعشرين كيلومترا فى الصيف وأربعين فى الشتاء . أما الرثم فهو الغزال الأبيض الذى يسميه عرب الصحراء الغربية « الآريل » ، والمعروف عنه أنه يسكن الرمال ويوجد فقط فى منخفض القطارة الجنوبية حتى الواحات البحرية . ويرى كثيرا فى الكشبان الرملية بين تبغى والعرج وفى رمال خيصة بواحة سيوة وفى أم عشاق حتى الققب .

والآريل أكبر من الفرجسما وأقل منه عدوا . ويصطاد الآن العرب هذه الغزلان بالبنادق ، وكانوا من قبل يطلقون في صيدها الكلاب والعقاب والفهود . ومنهم من كان يصطادها بإيقاد النار ليغشى بصرها فينقضون عليها . وتكثر الغزلان كذلك في سهول البحر الأحمر بالصحراء الشرقية حيث يصيدها العباددة والبشاريون بالشراك ويأكلون لحومها .

ويوجد في جبال العوينات الخراف البرية المعروفة بالودان وكذلك الماعز البرى أو البدن في جبال سيناء والصحراء الشرقية وبخاصة في وادى الرشراش القريب من حلوان .

أما الحمر الوحشية فتوجد في الصحراء الشرقية الجنوبية في منطقة جبال العلبة ويمتاز هذا النوع من الحيوان بأنه ينصب على القطيع واحداً منها يجرسها وهي نائمة فإذا اشم رائحة الخطر أعطى إشارة تنبئ بذلك ومن حيوانات الصحراء الشرقية الارنب البرى المسمى بالوبر ويكثر في وادى أبرق وجبال العلبة وجنوب سيناء وقد ورد ذكره في التوراة وكان محرماً أكله على بنى اسرائيل . أما المها فهو معروف في الصحراء الغربية وكان يصطاد بوساطة الخيل والكلاب .

ويوجد النمر في الجبال العالية ويندر ظهوره لأن من طباعه الانفراد والعزلة وهو يخاف الانسان إلا إذا هاجمه ومما يذكر عنه أن يحب افتراس ، مايلقاه من غنم وغزلان ويحب لحوم الخير ، ولذلك يصيده بها العرب في جنوب سيناء . والفهد يعيش في جهة تبغى بمنخفض القطارة وكذلك يوجد أحيانا بالصحراء الغربية بالقرب من منطقة أهرام الجيزة . وكذلك يوجد القط البرى في كل الصحراء وبخاصة بالصحراء الغربية وفي الواحات ووديان

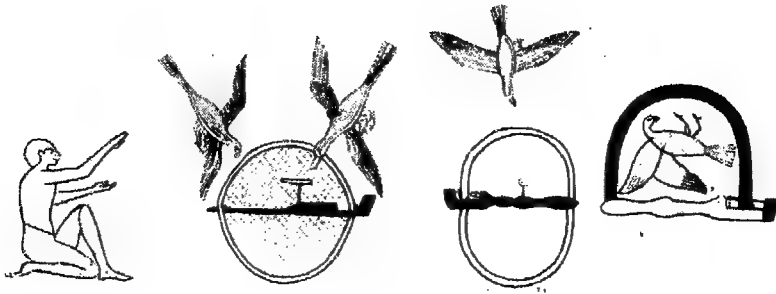
الواحات الشرقية . اما الثعالب فتوجد فى الصحارى المصرية كلها على ألوان شتى منها الأبيض والأسود وهى تعيش على الفيران الصحراوية . والذئب يوجد فى الواحات والوديان المتاخمة لوادى النيل وأحيانا تكون قرية من المساكن .

والضبع يوجد فى الصحراء الغربية ويقل فى الصحراء الشرقية ؛ ويعد الضبع عدواً لدوداً للحمير والأغنام فى الصحراء الغربية ويمكن العرب له ليرموه بالرصاص ويأكلون لحمه لاعتقادهم أنه دواء للسكبد وربما كان ذلك من الأسباب التى دعت قدماء المصريين لاستئناسه .

أما الطيور التى تعيش فى الصحارى المصرية فمنها السماء . ويكثر فى الساحل الشمالى من مصر ويصاد بأنواع مختلفة من الشباك . ومن عادته أنه ينزح إلى الواحات الجنوبية والبحرية وسيوه ويصاد بنوع من الفخاخ يسمى « المردخ » .

وأما جوارح الطير فتوجد فى مصر منذ أقدم عصورها ولا تزال إلى الآن ، وأهمها العقاب والنسر والصقر ، والشاهين ؛ وكذلك يوجد الكركى والبطل البري واللغلق والحبرج ، والغرنوق ، والكروان ، والقمرى ، وأنواع من القطا والقطقاط ، والجل ، وأبو حوام ، والهدهد ، وأبو صفر وأبو حواح وأبو قطقاط وأبو رقيص . ويوجد فى وادى النطرون الحضارى . والببلول ، والفرفور ، والشرشير ، والغر ، والكركى والغز والبشوررش ، وأبو قردان والنسر والصقر والشاهين والباقة ، والبومة والعصافير على اختلاف أنواعها . ومن المدهش أن سكان الصحارى لا يأكلون لحم الطير الحرأى الصقور لما يكونه له فى صدورهم من الأجلال والتعظيم فتراهم يدفنونها

كما تدفن (١) موتاهم لأن الصقر في عرفهم طير كريم حر وفي لصاحبه وقد يكون لهذا الاحترام علاقة بعبادة هذا الحيوان عند قدماء المصريين منذ أقدم العهود .



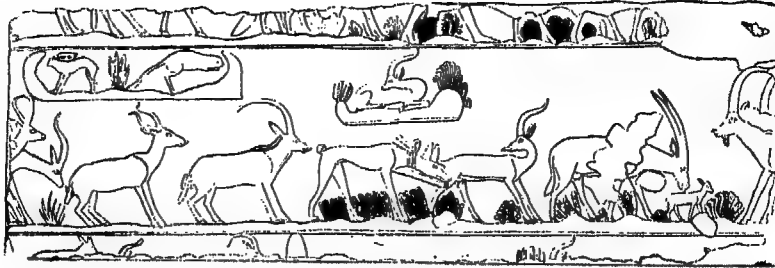
منظر يبين طريقة من طرق صيد الطيور بالفتاخ

(١) عن محاضرة ألقاها حسين بك عنان في نادى الصيد ومقال كتبه الدكتور مأمون عبيد السلام في جريدة الاهرام .

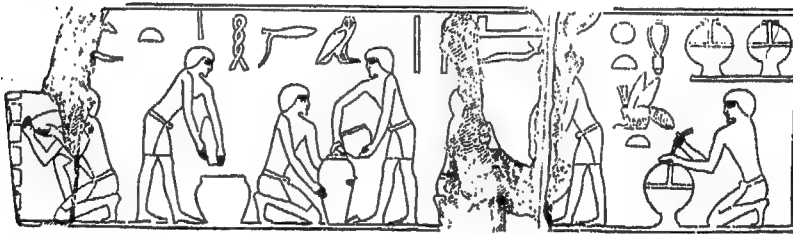


الطائر « مالك الحزين »

الطائر « أبو منجل »



منظر وجد في سقارة منقوشاً في طريق هرم « وناس » ويمثل مجموعة من طلباء الصيد وهي من اليمين : الوعل ، ومهابة بيسه ، وغزال آدم ، ومهابة أبو حراب ، والتيتل ، وغزال إزابل .



منظر يمثل جنى عسل النحل

أنواع الأحجار التى استعملت فى مصر قديماً

حب الطبيعة أرض مصر أنواعاً عدة من الأحجار الجميلة منها ماهو لبن ومنها ماهو صلب ، مما جعل مصر منبع صناعة الأحجار واستعمالها فى كل العالم . ولا غرابة إذن ، إذا وجدنا مصر أعظم أمم العالم إتقاناً وحذاقاً لفن البناء . وقد ضربت بسهم صائب فى هذا المضمار منذ أقدم العهود وبخاصة أنها قد توصلت إلى استعمال الآلات النحاسية لقطعها منذ عصر ما قبل التاريخ . وقد جاء على أثر ذلك استعمال الأحجار فى البناء منذ عهد الأسرة الأولى كما ذكرنا ذلك عند الكلام على الفن وستكلم هنا أولاً عن الأحجار التى استعملها المصرى فى البناء ثم تتبع ذلك الكلام عن الأحجار التى استعملها لصنع الأوانى ، والتماثيل والأثاث . ثم نفرد فصلاً خاصاً للأحجار التى كان يعدها المصرى ثمينة ، أو شبه ثمينة وهى التى لا يعد بعضها فى نظرنا اليوم كذلك .

وأهم أحجار البناء مايتأتى : -

الحجر الجيرى الأبيض ، ويكثر وجوده فى التلال التى تحف وادى النيل من القاهرة إلى ما بعد مدينة إسنا بقليل ، وكذلك يوجد فى نقط مختلفة ما بين إسنا وقرب أسوان . فمثلاً يوجد على شاطئ النهر فى « فرس » بجوار السلسلة ، وبالقرب من كوم امبو . أما فى الوجه البحرى فيوجد بالقرب من الاسكندرية عند المكس وفى جوار السويس وقد ظل المصريون يستعملون هذا النوع من الحجر ، حتى منتصف عهد الأسرة الثامنة عشرة ، إذ أخذ وقتئذ يحمل محله بكثرة الحجر الرملى ، غير أن

استعمله لم يهمل دفعة واحدة ، إذ استعمله « سیتی الأول » فى بناء معظم معبده بالعراصة المدفونة ، وفى بعض أجزاء معبد « رعمسيس الثانى » فى هذه البقعة أيضا ، يضاف إلى ذلك أن بعض المقابر من كل العصور كانت تنحت فى صخور هذا الحجر ، كما يشاهد ذلك فى الجيزة ؛ وسقارة وطية ، وغيرها .

وأحسن أنواع هذا الحجر كانت لها محاجر خاصة تقطع منها كمحاجر طرة والمعصرة (١) ؛ والجبلين ؛ وهى التى يمكن مشاهدة آثارها القديمة إلى يومنا هذا . وقد عثر فى محاجر طرة على نقوش يرجع عهدها إلى الأسرة الثانية عشرة وتمتد إلى الأسرة الثلاثين (٢) . غير أنه لدينا وثائق ونقوش ، تدل على أن قطع الأحجار من طرة يرجع عهده إلى الأسرة الرابعة (٣) ، ولكن مما لا شك فيه ، أن أحجار هذه الجهة كانت تستعمل فى بناء آثار سقارة منذ الأسرة الثالثة ، بل ومن المؤكد منذ الأسرة الأولى ، إذ وجدت بعض أحجار من طرة داخلية فى مباني هذه الفترة .

أما محاجر المعصرة ، فالنقوش التى عليها ترجع إلى الأسرة الثامنة عشرة (٤)

(١) Br. A. R. V, pp. 101, 154. & pp. 87, 73, 78.

(٢) op. Cit I, 7 39, & II p. 799, 875, & Flinders Petrie, A History of Egypt, t. I, (1923) p. 192, & II (1924) p 36 & III (1918) pp 166, 375, 385. & S. Birch, Tables found in the Quarries at Turah. & H. Vyse, Maasara in the pyramid of Giza III pp 93-103, & G. Daressy, Inscriptions des Carrières de Tourah et Maasarah dans Annales du Serv. XI (1911) pp. 257-68.) . & Spiegelberg Dic. Demotischen Inschriften der steinbrüche Von Tourah & Maasara dans Annal. du Serv. VI (1905)p. 219-33.).

(٣) Br. A. R. II p. 26. (٤) Flinders Petrie, op. cit, III p. 375

حتى عصر البطالسة . وفي محاجر الجبلين نجد نقوشا من الأسرة التاسعة عشرة حتى العصر الرومانى .

وهناك محاجر أخرى عليها نقوش فرعونية ، فنجد فى البرشا مثلا محجرا عليه خرطوش من عهد الأسرة الثلاثين (1) ، و بالقرب من العرابة عثر على محاجر قديمة ، وفى قاو الكبير (2) توجد محاجر عليها نقوش ديموطيقية وفى بنى حسن توجد محاجر تمتد أكثر من ثلاثة أميال على حافة التلال .

وقد كسيت أهرام الجيزة بأحجار من طرة . أما البناء الأصيل فكما ذكرنا قد قطعت أحجاره من محاجر محلية ، عثر عليها حديثا حول الأهرام نفسها أما قول الأستاذ « بترى » بأن أحجار الهرم قطعت من طرة فلا صحة له (3) . كما أثبتنا ذلك فيما سبق . وربما كان لكتّاب الأغريق والرومان العذر فى قولهم أن أحجار الأهرام قطعت من طرة ، وذلك لأن الأهرام فى عصرهم كانت لاتزال مكسوة بأحجار طرة ، ولذلك حكموا بأن كل الأهرام قد بنيت من هذا الحجر .

والظاهر أن أحجار طرة كانت أجود أصناف الأحجار الجيرية ، ولذلك لا يبعد أن يكون الملوك قد استعملوها فى بناء معابدهم ، حتى بعد نقل العاصمة إلى طيبة التى لم يكن يجوارها صنف ممتاز لبناء معبد كمعبد « امنحتب الأول » الذى تشبه أحجاره كثيرا أحجار طرة .

على أن الحجر الجيرى لم يقتصر استعماله على البناء فحسب بل كان

(1) Fraser, in E. Newberry El Bersheh, P. II p. 56. (2) Somers Clarke & Engelbach, Ancient masonry, p. 15. (3) Flinders Petrie, The pyramids & temples of Giza, p. 209.

يستعمل فى أغراض أخرى كنحت التماثيل ، وذلك لسهولة العمل فيه .
وقد تجلى فن إتيان التماثيل فى هذا النوع من الحجر فى عهد الأسرتين
الخامسة والسادسة فى الجيزة وسقارة ، وكذلك كانت تصنع منه الأبواب
الوهمية وموائد القربان ، وغير ذلك من الأثاث المائى .

الحجر الرملى : وهو مركب من كوارتز رمل ناتج من تحلل صخور
قديمة ومتماسك بعضه مع بعض بكيات قليلة من الطين والجير والحديد ، وتتألف
منه التلال الممتدة من إسنا على حافى النيل حتى أسوان ، ثم من
« كلبشا » إلى وادى حلفا . على أن المصريين لم يستعملوا الحجر الرملى مادة
للبناء إلا منذ الأسرة الثامنة عشرة . ولكن رغم ذلك وجدت منه بعض
كتل مستعملة فى المباني يرجع عندها إلى ما قبل الأسرات ، وكذلك
استعمل فى عهد الأسرة الحادية عشرة فى الأساس ، وفى رصف الأرضية
وفى العمد ، وفى أحجار السقف ، وفى حجرة العمد فى معبد « متوحتب »
فى الدير البحرى .

على أن انتشار استعمال هذا الحجر لم يبدأ إلا فى منتصف الأسرة
الثامنة عشرة إذ الواقع أن بناء معظم معابد الملوك منذ هذه الفترة حتى
العصر الرومانى كان من هذا الحجر ؛ وأهم هذه المعابد ما يأتى : معبد
الأتقصر ، والكركنك والقرنة ، والرمسيوم ، ومدينة هابو ، ودير المدينة ،
ودندرة ، وإسنا ، وأدفو ، وكوم امبو ، والفيلة ، وكذلك المعابد التى فى بلاد
النوبة ما بين أسوان ووادى حلفا ، يضاف إلى ذلك معابد الواحات الواقعة
فى الصحراء الغربية . على أن هناك معابد قد بنى بعضها بالحجر الجبرى
الأبيض وبعضها بالحجر الرملى ، ونخص بالذكر منها معبد « تحوتس الرابع »

ومعبد « منفتح » أما معبد « حثبسوت » بالدير البحري فقد بنى كله بالحجر الجيري الأبيض..

وأهم محجر رملى يقع عند السلسلة على النيل على مسافة ٤٠ كيلو مترا شمالى أسوان بين أدفو ، وكوم امبو ، و يوجد عليه نقوش منذ الأسرة الثامنة عشرة حتى العصر الرومانى (1) ، وكذلك توجد محاجر سراج على مسافة ٢٠ ميلا جنوبى اسوان ؛ وفى بلاد النوبة فى قرطاس على بعد ٢٥ ميلا جنوبى أسوان أيضا ، وهذه المحاجر الأخيرة كانت مستعملة حوالى الأسرة الثلاثين حتى العصر الرومانى ، وبخاصة لقطع الأحجار التى بنى بها معبد قرطاس ، ومعبد الفيلة (2) . أما الأحجار التى بنيت بها معابد بلاد النوبة فكانت تقطع من محاجر بالقرب من تلك المعابد نفسها ، كما يشاهد ذلك فى المحاجر الصغيرة القريبة من دابور ، وتافا ، وبيت الوالى .

حجر الجرانيت : تطلق لفظة جرانيت على فصيلة كبيرة من الأحجار المتبلورة البركانية الأصل ، وهى ليست منسجمة فى تركيبها كالحجر الجيري ، أو الحجر الرملى بل فى الواقع تتركب من عدة عناصر مختلفة أهمها الكوارتز والفلسبار ، والميكا ، غير أن السليكون هو المادة السائدة فى تكوين هذا الحجر .

وقد استعمل الجرانيت مادة للبناء ، منذ بداية عصر الأسرات ، وقد

-
- (1) Weigall, A guide to the Antiq. of Upper Egypt, 1913 p. 358-360., & Br. A. R. II, 348, 932, ; III, 205, 552, 627. ; IV, 18, 702. & Flinders Petrie, A Hist of Eg. III, 1918 pp 8, 119, 143, 144.
(2) Borchardt, Travels in Nubia, pp 113-116 & Weigall., op. cit. pp. 496-497.

ذكرنا فيما سبق استعماله فى البناء ، وفى كسوة الهرم الثالث وفى بناء معبد الهرم الثانى لخنفرع ، وفى داخل الأهرام . والجرايت الذى كان يستعمل فى أقدم العهود ، هو الجرايت الحجب المستخرج من أسوان وكان الجرايت الرمادى يستعمل كذلك ، ولكن بقلّة .

ولا نزاع فى أن الجرايت السينى التى ذكره « بلىنى » نسبة إلى قطعه من « سينى »⁽¹⁾ (أى أسوان) هو الحجر الجرايتى الأحمر . غير أن لفظة « سينى » الآن تستعمل للدلالة على الصخور الجرايتية ذات اللون الرمادى القائم .

ويوجد الجرايت منتشرًا فى أماكن عدة فى جهات القطر ، ولكنه يكثر فى أسوان ، وفى الصحراء الشرقية ، وفى سيناء ، وبكميات قليلة فى الصحراء الغربية . وأهم محاجر أسوان اثنتان أحدهما على مسافة كيلو متر جنوبى المدينة والثانى يقع على الجانب الشرقى من الهضبة . على أنه توجد محاجر صغيرة فى جزيرتى الفتين وسهيل ، وكذلك فى أماكن أخرى قليلة ، وقد ذكرت محاجر أسوان والفتين والمحاجر التى عند الشلال الأول فى الوثائق القديمة منذ الأسرة السادسة⁽²⁾ ، يضاف إلى ذلك محجر فى مكان يدعى « إيهت » لم يعين مكانه بالضبط بعد ، غير أنه من المحقق أنه يوجد بجوار الفتين . ولا نعرف محاجر للجرايت استغلها قدماء المصريين خلافاً لمحاجر أسوان وماجاورها ، إلا محجر الجرايت الأحمر فى وادى الفواخير⁽³⁾ ، وهو

(1) Pliny. XXXVI p. 17. (2) Breasted, op cit. 1, 42, & 1, 322, 324, 321. (3) Barron & Hume, The Topog. & Geol. of the Eastern Desert of Egypt, Central Portion, pp. 49, 118, 119, 265.

جزء من وادى حمامات بين قنا والقصر . ولا نعرف تاريخ بداية العمل فيه ولكن من المحتمل أنه فتح في عهد الرومان .
وقد كان الجرانيت يستعمل بقلّة منذ عهد ما قبل الأسرات لأغراض أخرى غير البناء ، وبخاصة في صنع الأواني (1) ، والأطباق ؛ وفي بداية عصر الأسرات كثر استعماله ، وذلك لكثرة استعمال الآلات النحاسية . وكان كذلك يستعمل لعمل التوايت ثم لنحت التماثيل والمسلات ، واللوحات ، وأشياء أخرى .

حجر المرمر : يعرف اسم المرمر عادة بكلسيوم السلفات (الجبس) . ولكن المرمر المصرى يختلف عنه تماما إذ يتركب من كربونات الكلسيوم . والمرمر المصرى هو حجر مكون من كربونات الكلسيوم المتبلور . والمضغوط ، ويكون لونه أبيض ، أو أبيض مائلا إلى الصفرة وقطاعاته الرقيقة تكون شفافة بعض الشيء ذات عروق في غالب الأحيان ، وقد كان المرمر يستعمل في رصف الممرات وكسوة الحجر ، وفي عمل المحاريب ، وبدء استعماله منذ الأسرات الأولى إلى عهد الأسرة التاسعة عشرة ؛ فثلا استعمل في حجرة في هرم سقارة المدرج (2) (الأسرة الثالثة) وفي حجرة في معبد الوادى للملك « خفرع » ، وفي هرم « وناس » بسقارة (الأسرة الخامسة) . وكذلك في عهد ملوك الأسرة السادسة (3) في رصف الجزء الأوسط من معبد هرم « تيتى » وفي الأسرة الثانية

(1) Lucas, Egyptian predynastic, stone vessels. in J. E. A. t, XVI 1930 p. 202. (2) Firth, Annales du Ser. t. XXV, 1925 pp. 153-154. (3) Quibell, Excav. at Saqqara. 1907-8 p. 19.

عشرة في محراب معبد الملك « سنوسرت الأول » (1) في الكرنك الح. ويوجد المرمر في سينا ، وفي أماكن أخرى مختلفة في الصحراء على الشاطئ الشرقى للنيل . فنجد منه محاجر في وادى جراوى القرب من حلوان يرجع عهدها إلى الدولة القديمة(2) ، وفي الصحراء الواقعة بين القاهرة والسويس ، وفي مغاغة ، حيث قطعت منه الأحجار في عهد محمد على(3) وفي الأقليم الواقع ما بين المنيا وجنوبى أسيوط ، وفي هذا الأقليم تقع أهم المحاجر القديمة لهذا الحجر ، وأهمها محجر « حنتوب » الواقع على بعد ١٥ ميلا شرقى المارنة ، وفيه نقوش يرجع عهدها إلى الأسرة الثالثة ، حتى الأسرة العشرين (4) وهناك محجر آخر في الجنوب واقع في وادى أسيوط استعمل في أوائل الأسرة الثامنة عشرة ، ثم استعمل ثانية في عهد محمد على وقد ذكره الكتاب الأغريق منذ القرن الرابع قبل الميلاد .

والواقع أن هذا النوع من الحجر كان محببا لدى المصريين القدماء وذلك لأنه كان جميل المنظر بعد الصقل هذا إلى أنه كان لنا يسهل العمل فيه . وفوق استعماله للبناء فإنه كان يتخذ لأغراض أخرى فقد عثر على أدوات منه في عهد ما قبل الأسرات (5) إلى أواخر العهد الفرعونى وما بعده ؛ فكانت تصنع منه الأواني العدة ، ورؤوس الدبابيس الجميلة الأشكال

-
- (1) Chevrier, Annal. S. A. XXVIII p. 120. (2) Flinders Petrie, & Mackay. Heliopolis, Kafr Ammar & Shurafa pp. 39-40.
(3) Dr, Hassan Sadek Bey. Controller, Mines & Quarries Dep. Egypt & Hume, Notes to the Geological Map. of Eg. p 46.
(4) Breasted, op. cit. I, 7, 305 690. & Fraser. Hatnub. in proc. Bib Arch. XVI (1893-4) p. 73-82. (5) Lucas, Egyptian pre-dynastic stone vessels in, J. E. A. XVI p. 201.

وتنحت منه التوايت منذ عهد الأسرتين الثالثة والرابعة كتابوت الملكة « حنب حرس » وتابوت الفرعون « سبتى الأول » ؛ يضاف إلى ذلك أن الأواني التي كانت توضع فيها أحشاء المتوفى وموائد القربان ، والأطباق والجرار ، والتماثيل كانت تصنع منه أحيانا ، وبخاصة في عصر الدولة القديمة إذ وجدت كميات ضخمة من الأواني في هرم « زوسر » مصنوعة من هذا الحجر .

حجر البازلت : هذا الحجر لونه أسود ثقيل الوزن متماسك الذرات تظهر حياته في أغلب الأحيان بريقا ، وهو على نوعين ، النوع الأول حياته دقيقة جدا لا يمكن تمييزها إلا بآلة الميكروسكوب وهو البازلت الحقيقي أما النوع الثانى فيمكن تمييز حياته بالعين العادية ، وهو ما يسمى « الديوريت » ، ونوع البازلت الذى يستعمل في مصر هو في الواقع ديوريت ذو حبات دقيقة ، وكان يستعمل في عهد الدولة القديمة لرصف بعض أجزاء من المعابد كما يشاهد ذلك في رقعة هرم «خوفو» التى لايزال جزء منها باقيا إلى الآن ؛ ومن هذا الحجر كذلك رصفت بعض أجزاء من معابد ملوك الأسرة الخامسة في سقارة كالردهات والطرق الجنائزية ، وبعض الحجرات وكذلك بعض أجزاء معابد الشمس في «أبو صير» الواقعة بين الجيزة وسقارة (1) .

ويوجد حجر البازلت في جهات عدة من القطر كمحاجر «أبو زعبل» والمحاجر الواقعة في الشمال الغربى من أهرام الجيزة في منطقة أبو رواش وفي الصحراء الواقعة بين القاهرة والسويس ، وفي الفيوم ، وعلى مسافة قريبة من الجنوب الشرقى من

(1) Firth, Annal du Serv. XXIX p. 65, 68.

سمالوط ، وفي أسوان ، وفي واحة البحرية ، وفي الصحراء الشرقية وسيناء (1) والظاهر أن البازلت الذى كان يستعمل فى عهد الدولة القديمة فى الجبانة الممتدة من الجيزة إلى سقارة قد جلب من الفيوم . إذ ليس هناك أى دليل على أن البازلت الذى كان يستعمل فى هذه الجبانة قد جلب من « أبو زعبل » ، وبخاصة إذا علمنا أن نوع البازلت الذى استعمل فيها يقرب من النوع الذى فى الفيوم ؛ وقد ذكر الدكتور حسن بك صادق فى خطاب له سنة ١٩٣٣ بأنه ليس هناك أدلة على أن محاجر بازلت أبو رواش قد استعملت قديما ، هذا رغم أن نوع البازلت الذى فيها من صنف ردىء متحلل .

وقبل أن يستعمل حجر البازلت فى البناء كان يستعمل رغم صلابته فى عمل الأواني التى يرجع بعضها إلى العصر الحجري الحديث ، وعصر البدارى وعصر ما قبل الأسرات . يضاف إلى ذلك أنه عثر على رؤوس بلطات منه من العصر الحجري الحديث ، وقد استعمل البازلت أحيانا فى عمل التوايت ، ومن المحتمل أن تابوت الملك « منكاورع » الذى غرق فى البحر كان من هذا الحجر ، غير أن هناك عدة توايت ظن أنها من البازلت ؛ ولكنها فى الواقع من الشيست الرمادى الأزرق الخفيف (2) .

وكان البازلت يستعمل كذلك فى عمل التماثيل ، والناس أحيانا يخلطون بين الجرانيت الرمادى ، والجرانيت الأسود ، والشيست ، وبين البازلت . ومن أجل ذلك كانت تعرف أشياء بأنها بازلت ، والواقع أنها ليست ببازلت .

(1) Lucas, in J. E. A. t. XVI p. 202

(2) Lucas, Ancient Egyptian materials & Industries p. 357.

حجر الكوارتسيت : وهو أحد أنواع الحجر الرملى المتماثل الحبات وقد تكون من الحجر الرملى العادى متماسك بالسليكا المتداخلة باختلاط كوارتس متبلور بين حبات الرمل ، وتختلف ألوانه ونسجه فيكون أبيض أو مائلا إلى الصفرة أو أحمر كما وتكون حباته دقيقة أو غليظة ، ويوجد فى الجبل الأحمر^(١) القريب من القاهرة ، وفى الصحراء الواقعة بين القاهرة والسويس ، وفى مغارة على طريق بيرحام^(٢) وفى منخفض وادى النطرون وكذلك على قمم تلال الأحجار الرملية فى النوبة فى شرق النيل^(٣) حتى شمال أسوان ، وفى سيناء^(٤).

ولم يستعمل فى المباني بكثرة ، ومعظم ما نعرفه أنه صنع منه بعض أعتاب أبواب هرم الملك « تيتى » فى سقارة وفى كسوة حجرة الدفن فى هرم هواة . (الأسرة الثانية عشرة) . وكذلك فى الهرم الشمالى والهرم الجنوبى فى مزغونة (الأسرة الثانية عشرة) . ومحاجر الجبل الأحمر لا تزال مستعملة وقد كان على صخورها نقوش ، ولكنها اختفت الآن ، وهذا الحجر والأحجار التى كانت تقطع منه قد جاء ذكرها مرات عدة فى الوثائق القديمة^(٥) .

وكان يستعمل هذا النوع من الحجر خلافا للمباني فى عمل التوايت والتماثيل كالتابوت الذى فى هرم هواة من (الأسرة الثانية عشرة) ، وتابوت « تحوتمس الثالث » ، و « حتشبسوت » ، و « توت عنخ آمون »

(1) Barron, Topog. & Geol. of district between Cairo & Suez p. 56.

(2) op. cit. p. 61, 62, 103, 104. (3) Lucas op. cit. p. 61.

(4) Barron. Topog. & Geol of Peninsula of Sinai. Western portion, pp. 163, 199. (5) Breasted, op. cit. V p. 78, 130.

وكلها من الأسرة الثامنة عشرة ، وكأش الملك « ددفرع » من الأسرة الرابعة ، وتمثال الملك « سنوسرت الثالث » من الأسرة الثانية عشرة ، و « تحوتمس الرابع » ، و « سنموت » (الأسرة ١٨) وتمثال الإله « فتاح » (الأسرة ١٩) . وهناك شك في أن تمثال « ممنون » (منحوتب الثالث) مصنوعان من هذا النوع من الحجر .

الاحجار التي استعملها المصري في غير البناء

وهناك أحجار أخرى استعملها المصري غير ما ذكرنا في صنع التوابيت والتماثيل ، والأشياء الصغيرة كالكتوس والأواني ، والآلات والأسلحة . وأقدم شيء بقي لنا في مصر إلى الآن هو ما صنع من حجر الطمران . والواقع أن أنواع الأحجار التي استعملت في مصر وتتميز بعضها عن بعض من أعقد الأشياء التي تعترض عالم الآثار في بحوثه ؛ وسنكتفي هنا بذكر هذه الأحجار واستعمالها على أبسط وجه ، غير متدخلين في التفاصيل الفنية .

حجر البرشيا : هو حجر مركب من قطع ذات زوايا حادة ، وتوجد منه أنواع مختلفة في مصر فمنها الأحمر المائل إلى البياض ، والنوع الأخضر وهو صخر مختلط بأم من مادة أخرى ، أما البرشيا الحمراء والبيضاء فتتألف من قطع بيضاء مختلطة بأم حمراء ويوجد بكثرة على الشاطئ الغربي للنيل في مواطن عدة . فيوجد في شمال المنيا ، وبالقرب من أسيوط (1) ،

(1) Hume, Explan. notes to Geol. Map. of Egypt. p. 46.

وفي طية ، وبالقرب من أسنا ، وكذلك في الصحراء الشرقية (1) ، وهذا الحجر كان يستعمل على وجه خاص في عهد الأسرات الأولى في صناعة الأواني (2) ، ثم اختفى بعد ذلك حتى العهد الروماني إذ كان يصدر وقتئذ إلى إيطاليا.

أما البرشيا الخضراء فتحوى على قطع من صخور ذات أوصاف مختلفة جدا مدفونة في أم مختلفة اللون . واللون الأخضر هو السائد غير أنه ليس بالبرشيا الأصلية .

وتوجد البرشيا الخضراء في مواطن عدة ، وأحسن المعروف منها في وادي حمامات ، غير أن هذا المكان لم يستعمل إلا في العصور المتأخرة وتوجد البرشيا كذلك عند فم وادي دهب ، وفي المنطقة الواقعة غربى جبل دارا ، وجبل منقول ؛ في سلسلة العرف ، وفي جبل حمادة (3) . وكل هذه الأماكن واقعة في الصحراء الشرقية ، وكذلك يوجد في سيناء (4) .

حجر الديوريت ، أو حجر جبل النار : ويطلق على فصيلة من الحجر المتبلور ذى الحبوب ، ويتألف من الفلسبار الأبيض والهرنبلند الأسود وتكون جباهه دقيقة أو غليظة ؛ ويوجد في مصر بكثرة في مواطن عدة وبخاصة في أسوان وفي الصحراء الشرقية والغربية وفي سيناء (5) ، ويرجع استعمال الديوريت إلى العصر الحجري الحديث . إذ عثر منه على قطع

(1) Barron. & Hume, The Topog. & Geol. of the Eastern Desert. of Eg. Cent. Portion, p. 171. (2) Lucas. J. E. A. t. XVI p. 201.

(3) Ball. The Geog. & Geol. of South-Eastern Egypt, p. 351.

(4) Hume, Explan. notes to Geol. Map. of Eg. p. 49.

(5) Lucas, op. cit. p. 202.

من لوحات وعلى رأس بلطة (1) والديوريت الذى كان مستعملا فى مصر قديما على أنواع عدة مختلفة ؛ فواحد منها حباته غليظة ، ولونه أسود أبيض ، وكان يستعمل فى عصر ما قبل الأسرات ، وفى الأسرات الأولى لعمل ربوس الدبابيس والكثوس والأوانى (2) ، وأحيانا لعمل اللوحات الصغيرة . وهذا النوع الخاص كان يجلب من أسوان ، وكذلك كان يجلب نوع مشابه لذلك من الصحراء الشرقية من التلال الواقعة بين قنا والقصر فى وادى سمته . وقد استغل الأخير فى العهد الرومانى ، وهناك نوع آخر سماه علماء الآثار ديوريت ، وهو الذى نحت منه تمثال الملك « خفرع » المشهور بالمتحف المصرى ، وقد استعمل هذا النوع فى عهد الدولة القديمة ، وهو ذو بقع بيضاء وسوداء ، ويختلف كثيرا فى ظاهره حتى فى القطعة الواحدة ، ولكن فى معظم الأحيان يكون رماديا قاتما ، أو رماديا فاتحا ، أو أبيض معرقا بالأسود والنوع الأخير كان يستعمل كثيرا فى صناعة الأوانى والكثوس . أما الأنواع الأخرى فكانت تستعمل فى عمل التماثيل وبخاصة فى عهد الأسرة الرابعة .

وقد عثر حديثا على المكان الذى كان يستخرج منه هذا النوع من الحجر فى الصحراء الغربية على مسافة ٤٠ ميلا فى الشمال الغربى من أبو سنبل ببلاد النوبة . (3)

وهناك نوع آخر من الديوريت البروفيرى ، يتركب من أم لونها

(1) Caton -Thompson, Journal Royal Anthropol. Inst. LVI pp. 313 pl. XXXV, 3 (2) Lucas op. cit. p. 202. (3) Ann. S. A. t. XXXIII p.p. 65-74.

أسود فيه بلورات كاملة التكوين كبيرة في وسط أم سوداء فيها قطع
بيضاء ناصعة

حجر الديوريت : وهو نوع من البازلت الحشن ، وليس بينهما
فوارق محدودة ؛ ويوجد في الصحراء الشرقية بالقرب من القصير (1) ،
وبالقرب من جبل الدخان وفي سيناء . ومن أهم استعماله صنع المدقات
التي كانت تستعمل في صناعة الأحجار الصلبة ، ويمكن رؤية كرات كبيرة
منه ملقاة في محاجر الجرانيت القديمة في أسوان ، وفي محاجر الكوارتسيت
بالجبل الأحمر القريبة من القاهرة . وقد بقيت هذه الآلات منذ عهد
قدماء المصريين دليلا قاطعا على استعمالها آلات صالحة لصناعة هذه الأحجار .
حجر الدوليت : (Dolomite) وهو كما عرفه « فلندرز بترى »

حجر صلب غير شفاف لونه أبيض يتخلله عروق تكون أحيانا ناصعة
البياض ، ولكن في معظم الأحيان تكون رمادية ، وأحيانا تكون سوداء
ويقول الكيميائي « لوكاس » أن كل الأنواع التي فحصها بيضاء يتخللها
عروق أو بقع رمادية قائمة ، ويوجد في الصحراء الشرقية في عدة أماكن ؛
وكان يستعمل في عصور الاثرات الأولى لعمل الكنوس والأواني ؛
ثم أستعمل فيما بعد في أشياء أخرى وقد ذكر « بترى » أنه عثر على أربعة
وأربعين (2) إناء مما يسميه هو بالمرمر الدوليتي من عهد
الأسرة الأولى .

(1) Barron & Hume, op. cit. p.p. 52, 263.

(2) Flinders Petrie, The Royal Tombs of the Earliest Dynasties
II, p. 41, pls. IX (2-10) LI (c, d, e). & Flinders Petrie,
Abydos I p. 7; pl. IX (5, 6, 7, 10) .

حجر الطران أو الصوان : وهو أول حجر استعمل في مصر وفي باقي
أمم العالم قبل معرفة النحاس . وقد صنع إنسان العصر الحجري
أسلحته وأدواته من هذا الحجر حتى بعد كشف النحاس ، ولكن
بكميات قليلة ، وقد استمر استعماله في عمل أدوات الزينة التي كانت لمجرد
اتباع التقاليد المحضة ؛ ويشتمل الطران على نوع متماسك جدا من السليكا
وهو رمادي قاتم ؛ أو أسود اللون ، وينكسر على شكل شظايا ؛ ويكون
حده قاطعا ، ويوجد بكثرة في أماكن مختلفة في مصر على هيئة عقد صغيرة
وطبقات في صخور الحجر الجيري وكذلك يوجد مبعثرا على سطح
الصحراء ، وذلك بعد أن تخلص من الصخور الجيرية بفعل التعرية .

الجبس : هو المادة التي كان يستعملها قدماء المصريين بدلا
من الجير لبياض الجدران حتى عرف استعمال الجير في عهد البطالسة ؛
وهو مادة طبيعية تختلف كثيرا في اللون والتركيب ، فقد يكون لونها أبيض
أو رماديا متنوع الألوان ، أو أسمرًا خفيف السمرة وأحيانا يكون ورديا
خفيفا وهو يوجد في الطبيعة على شكل قطع بلورية مبعثرة غير صالحة
للحفر عليها كما يوجد على هيئة صخور متماسكة التركيب . كالتى توجد في
منطقة مريوط غربى الإسكندرية ، وبين الإسماعيلية والسويس ، وفي
اليوم كما توجد بكثرة زائدة قرب ساحل البحر الأحمر .

ويشبه الجبس في شكله المرمر ، ولذلك يسمى أحيانا مرمرًا .
وفضلا عن استعماله ملاطًا فإنه كان يستعمل بقلّة في مصر القديمة في
عمل الأواني والأطباق ، كما أشارت إلى ذلك « مس كيتن تومسن »

في عهد الأسرة الثالثة (1) ، وكذلك عثر الأستاذ بترى على أوان عدة من عهد الأسرتين الثانية والثالثة من مصنع الفيوم وكذلك عثر على أشياء من محتويات قبر « توت عنخ آمون » مصنوعة من هذه المادة ، وعثر بترى على طبق من (2) عصر ما قبل التاريخ من الجبس .

ويمتاز الجبس عن المرمر بأنه أكثر نعومة ، ويمكن التأثير فيه بالظفر في حين أن المرمر لا يمكن التأثير فيه بأى شئ أقل متانة من الصلب .

الأبسديان Obsidian وهو حجر البجج أو حجر البحيرة : وهومادة

زجاجية الشكل (الزجاج الأسود) وعند ما تكسر تكون قطعها غير منتظمة كالزجاج ، وهو في الواقع زجاج طبيعي بركاني الاصل لونه في العادة أسود ، ولكن قد يكون أسمر قاتما ، أو رماديا قاتما ، أو أخضر داكنا ، وعند ما يكسر على شكل قطع يكون شفافا بعض الشيء ، و إلى الآن لم يوجد طبيعيا في مصر ، ولكنه يوجد في بلاد العرب والحشة (3) في الوديان ، وفي شبه جزيرة عدن وفي أما كن أخرى في بلاد العرب (4) ، وفي أرمينيا ، وفي جهات مختلفة من جزر البحر الأبيض المتوسط .

وكان يستعمل بقله منذ عصر ما قبل الأسرات آلات وأسلحة مثل رموس الحراب ، ثم استعمل تعاويذ وجعارين وأواني صغيرة وأعيناً للتأثيل . ومن أهم الأمثلة التي بين أيدينا رأس « أمنحيت الثالث » (الأسرة الثانية عشرة) (5) إلخ

(1) G. Caton Thompson, Recent. Excav. in the Fayum in Man. XXVIII p. 80. (2) Petrie, Prehist. Eg. p. 36. (3) H. Salt., A voyage into Abyssinia p.p. 190-194 (4) R. F. Burton, The Land of Midian I, p. 282 (5) J. E. A. IV (1917) p.p. 71-73

وقد فحص موضوع مصدر الأبسديان فقال أحد علماء الآثار إنه يجب إلى مصر من أرمينيا (1) . ولكن المرجح أنه كان يجب إليها من الحبشة وبلاد العرب لقربهما .

الصخر البورفيرى : ولفظة بورفير معناها فى الأصل أرجوانى وكان يطلق فى الأصل على نوع من الصخر له هذا اللون (البورفير الأمبراطورى) . ولكن اسم بورفير فى الجيولوجيا يطلق على أى صخر بركانى فيه بلورات ظاهرة منتشرة فى أجزائه فى أم من مادة منسجمة اللون . والصخور البورفيرية تختلف كثيرا من حيث طبيعة بلوراتها الظاهرة وحجمها ، وكذلك فى لونها ؛ ويوجد منتشرا فى أنحاء القطر بالقرب من أسوان وفى الصحراء الشرقية (2) وفى سيناء .

وكان يستعمل البورفير فى عصر ما قبل الأسرات ، وفى عهد الأسرات الأولى لصنع الأوانى ، وكان اللون المختار لذلك هو الأسود والأبيض أى بلورات بيضاء فى أم سوداء . وليست لدينا معلومات تنبثنا عن المصدر الذى كان يأخذ منه قدماء المصريين ما يلزم لهم من هذا الحجر ؛ وكل ما يمكن الإشارة إليه فى هذا الصدد أن الدكتور «هيوم» يقول إن صخورا من هذا الحجر تشبه التى صنع منها المصريون أوانيتهم توجد فى الصحراء الشرقية .

وأحسن نوع من الصخر البورفيرى قطع فى الأزمان القديمة هو بلا شك البورفير ذو الحبات الدقيقة الأرجوانى اللون الذى يطلق عليه عادة .

(1) G. A. Wainwright, Obsidian in ancient Egypt, 1927. p.p. 77-93. (2) Lucas, J. E. A. XVI p. 202.

البورفير الأمبراطورى ، وهو الذى كان يستخرجه الرومان ويستعملونه بكثرة فى إيطاليا أحجاراً للزينة ، وهذا النوع من الحجر يوجد فى ثلاثة أماكن فى الصحراء الشرقية ، وهى جبل الدخان ، وجبل عش (1) وبالقرب من ساحل البحر الأحمر عند العرف بالقرب من وادى ديب . وقد كان الرومان يأخذون ما يحتاجون إليه من هذا الحجر من جبل الدخان (2) . وليس لدينا ما يثبت أن المصريين كانوا يستعملون البورفير الأمبراطورى إلا قطعة من كأس قيثارى الشكل ، وجدت فى بلاص فى مصر العليا ، وربما يرجع عهدها إلى الدولة القديمة . وهذا لا يعنى أن المصريين كانوا يستعملون هذه المحاجر فى عصور تاريخهم القديم .

حجر الشيست والأردواز :-

الشيست نوع من الصخر مركب فى طبقات ، وهو قابل للتشقق ، وليس لأسمه علاقة بتركيبه الصخرى ، والشيست الخاص الذى استعمل فى مصر القديمة هو صخر جباته دقيقة متماسكة صلبة متبلورة ، يشبه كثيراً الإردواز فى الشكل ، وتختلف ألوانه من الرمادى الخفيف إلى الرمادى القاتم تعلوه أحياناً خضرة . ويوجد الشيست ، والإردواز فى مواطن عدة فى الصحراء الشرقية . وكان الشيست يستخرج فقط من وادى حمامات حيث وجد أكثر من ٢٥٠ نقشا من الأسرة الأولى إلى الأسرة الثلاثين (3) ؛

-
- (1) T. Barron & W. F. Hume, Topog. & Geol of the Eastern Desert. of Eg. p. 118, 238, 241, 622. (2) Hume, Geol of Egypt, II, part I, p. 273-282
(3) Weigall, Travels in the Upper Egyptian Desert p. 39, & Gouyat et Montet, Les Inscriptions hierog. & hierat. du Ouadi Hammamat. dans Mem. de l'Inst. d'Arch, Orientale du Caire XXXIV p. 122-3 & Breasted op. cit. I, 7, 10, 295-301, 286-9, 427-56, 466-8, 674-5, 707- 9., & IV, 457-68.

وهذه المحاجر قد ذكرت كثيرا في الوثائق القديمة . وقد اعتقد علماء الآثار إلى عهد قريب أن الشيست الرمادى المستخرج من وادى حمامات هو حجر « بنجن » القديم كما ذكر على ناووس الملك « قطانب الثاني » المتخذ من هذا الحجر ، أنه من حجر « بنجن » . ولكن البحوث العلمية أظهرت أن لفظة « بنجن » تطلق على أحجار أخرى مثل ناووس الملك « أحس الثاني » مصنوع من حجر الجرانيت الرمادى الدقيق الحبات الخ . وكان الشيست يستعمل في عصر ما قبل الأسرات ، وعصر الأسرات الأولى في صناعة الكؤوس ، والأواني ، والألواح ؛ ثم فيما بعد في التوابيت والمحاريب ، والتماثيل . أما الإردواز فهو من فصيلة الشيست في التركيب ، ويكون في العادة صلبا ، وكان يستعمل في العصور الأولى لعمل الألواح الإردوازية .

حجر الثعبان ، وحجر استائيت (الطلق) : وهما يتشابهان في معظم التركيب غير أنهما ليسا من نوع واحد . ويوجدان مع بعضهما في الصخور . وحجر الثعبان صخر قائم ليس بشفاف ، وهو في لون جلد الثعبان بقلعه ويكون غالبا أخضر قائما إلى حد السواد ، وهو لين بعض الشيء إلا أنه أصلب من حجر استائيت ؛ ويمكن قطعه أو خدشه بسهولة . ويوجد في الصحراء الشرقية ، وأهم مراكزه هي منطقة براميا (١) ودونجاش (١) في وادى شايث ، وبالقرب من جبل درارا ، وفي التلال الواقعة شمال سكيت ، وجبل سكيت ، وفي منطقة مقسم ، وفي أقاصى الصحراء الشرقية حيث تشغل مساحة نحو ٤٠٠ ميل من رأس بنارس جنوبا إل رأس علبة (٢) .

(1) Hume, A prelim. Report on the Geol. of the East. Desert. p. 34.

(2) Hume, Geology of Egypt. II, part I, p.p. 144-159 .

ويوجد نوع من حجر الثعبان أخضر فى وادى أم ديسى الواقعة بين قنا والبحر الأحمر ، وعند سفح جبل الربشى ، ونوع أسود فى وادى «صدمن» (1) ، وهما فى الشمال الغربى من القصير ؛ وكان حجر الثعبان يستعمل فى عمل الأواني (2) ، وأشياء أخرى (3) منذ عصر ما قبل الأسرات وقد عثر «لأمنحيت الثالث» (4) على رأس من هذا الحجر .

أما حجر استايتيت فهو نوع من الطلق ، وهو أبيض اللون عادة أو رمادى وأحيانا يكون أسود دخانيا ، وهذا النوع الأخير طبيعى لا صناعى كما يظن البعض ، ولمسه كالصابون ، وكان يستعمل منذ عصر ما قبل الأسرات وما بعده لعمل الخرز ، والأشياء الأخرى الصغيرة (5) التى كانت تطفى بطبقة زجاجية ، والجزء الأعظم من الجمارين المعروفة فى العالم هى من الأستاييتيت المطفى ، ويوجد هذا الحجر بالقرب من أسوان (6) فى همر ، وفى جبل الفطيرة (7) التى على خط عرض طحطا بالقرب من النيل وفى وادى غولان شمال رأس بنارس ، . وهى تستغل الآن (8) .

قطع الأحجار

كان. من الطبيعى ألا تنتشر صناعة قطع الأحجار إلا بعد معرفة المعادن وصناعة الآلات ، التى بواسطتها يسهل قطع الأحجار الصلبة .

-
- (1) Barron & Hume, op. cit. p. 265. (2) Lucas. J. E. A. t. XVI 201.
(3) Petrie, Prehist. Eg. p. 44. (4) J. E. A. t. IV, p. 211-212.
(5) Petrie, op. cit. p. 44. (6) Hume, Geol. of Eg. II, part I p.p. 131-2, 164-5.
(7) Mines & Quarries Department, op. cit. p. 37. (8) Lucas, Ancient Eg. Materials & Indust. p. 375.

ومن أجل ذلك لم يستعمل المصري في بادئ الأمر الأحجار للمباني بل كان يستعمل اللبن . أما الأحجار التي كانت تستعمل في عصر ما قبل الأسرات لعمل الأواني ؛ فإنها كانت قطع من الصخور التي فصلتها الطبيعة بمؤثرات العوامل الجوية ، وبفعل تآكل المياه ، ولا تزال قطع من الجرانيت في أسوان مفصولة عن الصخرة الأصلية تشهد بذلك . أما طريقة قطع الأحجار بالآلات التي كان يستعملها الإنسان فيمكن استنباطها من أماكن التحجير القديمة التي لا تزال باقية إلى الآن في منطقة أسوان .

كان قطع الأحجار السهلة اللينة كالمرمر والحجر الجيري ، والحجر الرملي يتم بفصل الكتلة المرغوب في قطعها من جهاتها الأربع عن الصخر الأصلي ، وذلك بخوابير من الخشب ، وعروق مبللة بالماء . والآلات التي كانت تستعمل في ذلك من المعدن هي أزامل أو مناقير من النحاس حتى الدولة الوسطى ؛ إذ حلت محلها وقتئذ آلات من البرنز ؛ ومن ثم كان الاثنان يستعملان جنبا لجنب ، وكذلك كانت تستعمل مدقات من الخشب ومطارق من الحجر (1) .

أما قطع الأحجار الصلبة فلم يبدأ فيه إلا في عهد الدولة الوسطى عند ما أخذ المصريون في قطع الكتل الضخمة الطويلة لصنع المسلات والتماثيل الهائلة . أما قبل ذلك فإنهم كانوا يسدون حاجاتهم من القطع التي فصلتها الطبيعة لهم ، وهي التي لا تزال باقية إلى الآن في منطقة أسوان ، وقد أخذ منها بعض الأحجار اللازمة لبناء خزان أسوان . وقد درس بعض المهندسين المعماريين طريقة تحجير الجرانيت والكوارتسيت ، ويقال أن

(1) Ancient Egyptian Masonary, p.p. 12-22.

الجرانيت كان يفصل بالدق بكرات من الديوريت ، وباستعمال الخواير
التي كانت تجهز بواسطة آلات من المعدن ، وكذلك كان يستعمل الدق ،
والخواير في قطع الكوارتسيت مع استعمال آلة أخرى ربما كانت معولا .

كيفية صناعة الأحجار

يمكن استنباط طريقة صناعة الأحجار بعد قطعها من المحاجر من الآثار
التي تركتها الآلات على القطعة المصنوعة ؛ وبخاصة التماثيل التي وجد منها
عدد عظيم . لم يتم صنعه بعد ، ومن الإيضاحات التي وجدت مرسومة
على بعض المقابر ، وقد درس هذا الموضوع طائفة من علماء الآثار نخص
بالذكر منهم « بترى » (1) و « ريزنر » (2) .

والواقع أن التماثيل المصنوعة من الحجر ، وبخاصة المنحوت منها في
الأحجار الصلبة كالديوريت والجرانيت ، والكوارتسيت ، والشيست .
كانت مشار إعجاب الكل لدقة صنعها . ولا يزال العالم متأثرا بجمال
تلك القطع الفنية ، غارقا في عالم التخیلات والظنون في كنه الآلات التي
استعملت لإبرازها في ذلك الثوب البهيج حتى أن بعضهم ذهب به الخيال
إلى أن معدن الصلب كان يستعمل في صنعها ، وأعجب من ذلك أن
بعضهم ظن أن آلات النحاس أو البرنز التي كانت تستعمل في صنعها كان

(1) Petrie, On the mechanical methods of the Ancient Egyptians
in Journ. Anthropol. Inst. XIII, 1883 ; Arts and Crafts of An-
cient Egypt p.p. 69-82. (2) Reisner, Mycerinus, p.p. 69,
232, 236.

يركب فيها قطع من الماس أو غيره من الأحجار الصلبة لصناعتها ؛ ولكن ثبت أن الأمر أسهل من كل ذلك إذ لخص لنا الأستاذ « ريزنر » (1) العمليات الهامة التي كانت تتخذ لإبراز التمثال أو غيره من القطع الفنية حتى مرحلته الأخيرة .

أولا : الدق بالحجر ، ومن المحتمل أن ذلك وجد ممثلا في مقبرة « قى » فى سقارة .

ثانيا : الحك بوساطة حجر فى اليد ومعه مسحوق موقت . وقد كان يظن احتمال وجود المسحوق الموقت ؛ غير أنه قد وجدت صورة ناطقة تثبت وجود هذا المسحوق ، وهو الرمل فى حفائر الجامعة بمنطقة الأهرام فى مقبرة صهر الملك ومدير قصره (2) « وب إم نفرت » إذ نشاهد فى مناظر الحرف والصناعات صانعين يصقلان تابوتا وفى يد واحد منهما حجر يحك به غطاء التابوت ، وفوق الصورة كتب ما يأتى : صقل التابوت ، ثم كتب بعد ذلك . « صب الماء وضع الرمل » . ونشاهد بعد ذلك الصانع يحك سطح غطاء التابوت بوساطة هاتين المادتين الماء والرمل . وإذا علمنا أن الرمل يحتوى على ١٥ ٪ من مادة السفرة سهل علينا فهم النقوش . وهناك منظر آخر من هذا القبيل عثر عليه فى حفائر سقارة فى طريق هرم الملك « وناس » .

ثالثا : النشر بوساطة سلاح من النحاس ومعه مسحوق موقت ، ولم يعثر على صور لذلك .

(1) Reisner, op. cit 117-18.

(2) Selim Hassan, Excavations at Giza, vol II, p. 195.

رابعا : الثقب بثقب أنبوبي الشكل ، ومعه مسحوق مقتت ، وهذا الثقب أنبوبة جوفاء من النحاس تستعمل بإدارتها بين اليدين أو بوتر ، أو قبضة متحركة ؛ وهناك أنواع أخرى من المثاقب تدار بطرق خاصة عثر عليها في سقارة من الأسرة الخامسة ، ومن عهد الأسرة الثانية عشرة في دير الجبراوى (1) ، وكان المثقب يستعمل في تفريغ الأواني المصنوعة من الحجر ، وبخاصة الأواني الأسطوانية الشكل التي كانت تتخذ من الأحجار الصلبة كاليازلت والديوريت .

خامسا : الثقب بالنحاس ، أو حجر مدبب معه مسحوق مقتت ، وقد شوهد في ثلاثة مقابر من عصر الأسرة الثامنة عشرة في طيبة (2) مثاقيب تدار بوساطة أوتار لثقب خرز ، وفي مقبرة رابعة لثقب شئ مجهول .
سادسا : الحك بآلة نحاسية معها مسحوق مقتت ، ولكن ذلك مشكوك فيه .

غير أن الذين يعتقدون باستعمال آلات من الصلب لهذه الأغراض يمكن أن يحتج عليهم بأن الصلب مهما طرق لتزيد متانته فإنه لا يمكن أن يقطع به أحجار صلبة مثل الديوريت والجرانيت ، والشيست . هذا فضلا عن أنه لا يمكن استعمال مثل هذه الآلات ، ومعها مسحوق مقتت كالسنفرة ، وهذا الرأي لا غبار عليه . يضاف إلى ذلك أن القواديم

(1) The Rock Tombs of Deir el Gabrawi I, pl. XIII

(2) Newberry, The life of Rekhmara pl. XIII ; Davies, The tomb of two sculptors at Thebes pl. XI ; Davies, The tomb of two officials of Tuthmosis the Fourth pl. X ; Davies, The tombs of Menkheper-Rasonb & another p. 25, pl. XXX.

المصنوعة من النحاس كانت لا تستعمل إلا في الأحجار اللينة فحسب ؛ أما من جهة استعمال المناشير والمثاقب بما فيها ما كان على شكل أنبوبي ، فإن هناك براهين واضحة على الأحجار المشغولة تدل على أنها استعملت لهذا الغرض فمثلا نجد علامات للمناشير في رقعة معبد « خوفو » (1) المصنوعة من البازلت ، وعلى تابوته المصنوع من الجرانيت الوردي ، وكذلك على تابوت « خفرع » .

أما آثار المثقب الأنبوبي الشكل فنشاهدها على تماثيل للملك « منكاورع » أحدهما من المرمر كامل النحت والثاني لم يتم نحته بعد ، وكذلك نشاهد أثر المنشار في مثال الملك « خفرع » المشهور المصنوع من الديوريت (2).

الأحجار الكريمة وشبه الكريمة

كان قدماء المصريين كغيرهم من أمم العالم مغرمين بالزينة ، ولذلك كانوا يبحثون وراء الحقول على الأدوات التي يتبرجون بها منذ ما قبل التاريخ ، وقد عثرنا في مقابرهم على أنواع شتى من الأحجار الكريمة ونصف الكريمة مما لم تسبقهم إليها أمة في العالم حسب معلوماتنا إلى الآن . وهذه الأحجار لا يزال بعضها إلى الآن يعتبر في نظرنا كريما ، والبعض الآخر لا يعتبر إلا حجرا عاديا لا قيمة له من الوجهة المادية ؛ وكان يستعملها المصري لعمل التعاويذ ، والخرز ، والمجوهرات ، والجعارين ؛ وكذلك في تطعيم

(1) Petrie, The Pyramids and Temples of Giza p.p. 46, 84, 106.

(2) Petrie, op. cit. p.p. 46, 84, 166.

وترصيع صناديقه ، وتوايته ، وأثاثه بما يشعر بحسن الذوق والأناقة .
وأهم هذه الأحجار ما يأتي : -

العقيق Agate ، والجشت Amethyst ، والزمرد المصرى Beyrl وحجر
الدم ، Carnelian ، والخلكيدونى أو العقيق الأبيض Chalcedony ،
والمرجان ، Coral العقيق أو حجر سيلان Garnet ، وحجر الدم
Haematite والنشم ، Jade ، والسرد أو العقيق الأحمر Sard واللأزورد ،
Lapis lazuli ، والدهنج Malachite ، وحجر الزبرجد Olivine ، والجزع
(حجر الظفر) Onyx ، واللؤلؤ ، Pearl ، والبلورات الصخرية Rock crystal
وجزع عقيق Sardonyx ؛ ثم الفيروز Turquoise .

ويلاحظ أن المصرى لم يكن يعرف الماس أو حجر الأوبال أو
الياقوت الأحمر أو الأزرق . وقد جاء ذكر الأحجار التى ذكرناها فى
الوثائق القديمة المصرية بأنها كانت تستعمل لأغراض خاصة للحلى والزينة ،
أو أنها وردت للبلاد جزية ، أو أخذت ضمن الغنائم الحربية .
ورغم أن هذه الأحجار قد سميت بأسمائها فى النقوش المصرية كل
على حدة ، إلا أن ترجمة بعضها لا يزال مشكوكا فيه ، وقد ذكر لنا
« بلىنى » نحو ثلاثين اسما من الأحجار الكريمة التى كانت ترد من
مصر وبلاد الحبشة ، إلا أنه لم يحقق إلا عددا قليلا منها . وسنكلم على
كل من هذه الأحجار وماهية فى الحلى المصرية وفى الصناعة بقدر ما
وصلت إليه معلوماتنا .

العقيق ، والجزع ، وجزع العقيق ، وكلها أنواع من الخلكيدونى
المجزع أو المعرق . وكل هذه الأحجار منسوب بعضها إلى بعض ، ويطلق

عليها غالبا اسم عقيق فحسب ، وكلها تحتوى على السليكا ، وليس بينها فرق غير لون العروق أو التجزيع . ففي العقيق نجد أن هذه العروق غير منتظمة ، وفي العادة تكون بيضاء وسما يخالطها بعض الزرقعة ، أما في الجزع وجزع العقيق فنجد أن العروق مستقيمة ، ومنتظمة على وجه التقريب ، ويكون لون الجزع لنيا متبادلا مع الأسود ؛ وفي جزع العقيق يكون الأبيض متبادلا مع الأسمر المائل الى الحمرة . ويوجد العقيق بكثرة في مصر ؛ وبخاصة في شكل حصوات ، وكذلك وجد بكميات صغيرة مختلطا بالشب ، والخلكيدوني في وادى أبو جريدة في الصحراء (1) الشرقية . ومن المحتمل أن الجزع وجزع العقيق موجودان في مصر طبيعيا ، غير أنهما لم يذكر في تقارير مصلحة الجيولوجيا .

وقد وجدت حصوات العقيق وخرزه في قبور ما قبل الاثرات (2) ، وكذلك وجدت في هذا العصر خرزات من الجزع ، وأقدم تاريخ معروف لاستعمال جزع العقيق هو عهد الأسرة الثانية والعشرين ، ويجوز من الأسرة التاسعة عشرة . وقد عثر حديثا على آنية من العقيق ربما يرجع عهدها إلى العصر الرومانى في قفط ، ستة منها في المتحف المصرى ، وإثناان عظيمان اشترى حديثا .

حجر الجشت (أمست) : ويتروك من الكوارتس الشفاف

الملون بأثار من مركب الماغنزيوم . وكان يستعمل قديما على وجه خاص لعمل القلائد ، وكذلك للأساور ، وأحيانا تعمل منه الجعارين ، ويرجع

(1) Barron & Hume, The Topog. & Geol. of the Eastern Desert of Egypt, Central portion, p. 266. (2) Petrie, Prehistoric Egypt, p. 44.

تاريخ استعماله إلى عهد ما قبل الأسرات (1) وقد وجد منذ عصر الأسرة الثانية عشرة وفي عهد الدولة الحديثة . فمثلا وجد في مقبرة « توت عنخ آمون » جعرانان من هذا الحجر ، وكان يستخرج قديما من جبل أبو ديابة ومنطقة (2) سفاجة في الصحراء الشرقية ، وكذلك عثر على مناجم له في الجنوب الشرقى من أسوان (3) ، وأخرى من عهد الدولة القديمة على مسافة ٤٠ كيلو مترا من الشمال الغربى لأبو سنبل .

الزمرد المصرى : هذا الحجر الكريم يكون لونه أخضر أو أزرق باهتا أو أصفر أو أبيض ؛ غير أننا لا نعرف منه إلا الأخضر الذى كان يستعمل فى مصر قديما ، ويوجد الزمرد فى منطقة سقاية زبارة فى تلال البحر الأحمر (4) حيث توجد مناجم عظيمة له ربما كانت من عهد الاغريق الرومانى . ومن المحتمل أن أنواعا جميلة من هذا الحجر قد وجدت قديما ولم يمكن العثور عليها الآن . والزمرد يكون دائما شفافا ، ولا يكون قط مظلما ، وكان المصرى يستعمله دائما فى قطعه الطبيعية السداسية الشكل ، وذلك لأنه أصلب من حجر الكوارتز فكان يصعب عليه قطعه بطريقة منظمة .

والظاهر أن الزمرد المصرى لم يستعمل قط فى مصر القديمة قبل عصر

-
- (1) Petrie, op cit. p. 44. (2) Mines & Quarries Department, Report on the Mineral Industry of Egypt, 1922 pp. 37-9.
(3) Nassim, Minerals of Economic Interest in the Deserts of Egypt, in Congrès Int. de Géog, Le Caire, Avril 1925, III 1926 p. 167. (4) Mines & Quarries, Report on the Mineral Industry of Egypt 1922 p.p. 37-9 ; Murry, in J. E. A. t. XI 1925 p.p. 144-145.

البطالسة ولذلك فإن الأحجار الكريمة التي وجدت في مجوهرات دهشور (1) وكان يقال عنها أنها من الزمرد عند ما فحست لأول مرة كانت في الواقع من الفلسبار الأخضر، وكذلك كل الأحجار التي أطلق عليها اسم زمرد «أوزيرجد» قبل عصر البطالسة فإنها ليست منها بل من أحجار أخرى ، وذلك بعد أن فحصها العالم الكيميائي «لوكاس» فحسبها فنيا .

حجر الدم ، والعقيق الأحمر Carnelian and Sard

حجر الدم هو خلكيدوني أحمر شفاف بعض الشيء ، وترجع حمته إلى وجود مقدار قليل من أكسيد الحديد فيه ، وهو يوجد بكثرة على شكل حصوات في الصحراء الشرقية ، وقد استعمل كثيرا منذ عصر ما قبل الأسرات (2) .

أولا : لعمل الخرز والتعاويذ، وثانيا لتطعيم الأثاث والمجوهرات ، والتواييت . وقد قلد في عهد الدولة الحديثة ، كما يشاهد ذلك في تابوتين من أثاث «يويا» ، وفي تابوت «سمنخ كارع» ، وكذلك في كثير من الأشياء التي وجدت في مقبرة «توت عنخ آمون» .

أما حجر السرد فهو نوع من حجر الدم غامق اللون ، وبعض أنواعه تقرب في لونها إلى السواد وكان يستعمل قليلا منذ عصر ما قبل الأسرات (3) وما بعده؛ ويقول «بليني» (4) أن السرد كان يوجد في مصر . الخلكيدوني أو العقيق الأبيض : وهو نوع من السليكا الشفاف

(1) J. De Morgan, Fossiles à Dahchour en 1894-1895 p.p. 51, 53, 58-65 (2) Petrie, op. cit. p. 44. (3) Petrie, & Wainwright & Mackay, The Labyrinth of Gerzeh & Mazghounah. p. 22. (4) Pliny, XXXVII, 31. Barron & Hume op. cit. p. 266.

بعض الشيء شمسى اللون ، وعند ما يوجد بقيا يكون لونه أبيض ، أو أبيض رماديا فيه بعض الزرقة . على أن هذا الحجر قد يكون بألوان متعددة ، ولكل لون اسم خاص . ويوجد في مصر في وادى صاغة ، (1) وفي وادى أبو حريدة في الصحراء الشرقية ؛ وفي الواحة البحرية في الصحراء الغربية . وكذلك على مسافة ٤٠ ميلا من الشمال الغربى من أبو سنبل ، وفي الفيوم . وكان يستعمل أحيانا في مصر القديمة لعمل الخرز والجمارين ، والدلايات ؛ ويرجع تاريخ استعماله إلى عصر ما قبل الأسرات (1) .

المرجان : وهو عبارة عن هياكل صلبة لمخلوقات بحرية ولونه يكون أبيض أو أحمر في ألوان شتى ، أو أسود ، والمشهور منها هو الأبيض والأحمر . ولم يعثر على المرجان الأبيض في الآثار المصرية إلا مرة واحدة في أدفينا (2) ، ويرجع تاريخه إلى القرن السابع قبل الميلاد . وقد عثر «بترى» على كمية كبيرة منه في شكل فروع طبيعية . والمرجان الثمين يستخرج من الجهة الغربية للبحر الأبيض المتوسط ، وكل ما عثر عليه في مصر من المرجان يرجع عهده إلى عصر البطالسة ، وما بعده . أما المرجان الأنبوبي الشكل فقد عثر عليه منذ عصر البدارى (3) ، وعصر ما قبل الأسرات . وكذلك عثر على هذا النوع في مقابر بلاد النوبة ، التي يرجع عهدها إلى عصر الدولة القديمة (4) .

حجر الأمزون أو الفلسبار الأخضر .

هو حجر غير شفاف أخضر باهت ، وليس منسجما في لونه ؛ وقد

(1) Petrie & Wainwright, op. cit p. 22.

(2) Petrie, Nebesheh & Defenneh p. 75.

(3) Brunton & Caton Thompson, The Badarian Civil. p.p. 38, 56.

(4) Reisner, Arch. Survey of Nubia, Report for 190s-1907 p. 42.

وجد بكيات قليلة في جبل مجيف في الصحراء الشرقية (1) ، وكان يستعمل لعمل الخرز منذ العصر الحجري الحديث (2) ، وكان يستعمل كثيرا في عهد الأسرة الثانية عشرة . كما يشاهد ذلك في مصوغات دهشور واللاهون . وقد كان يظن أنه هو الزمرد في هذه المجوهرات ، وكثيرا ما يختلط هذا الحجر بأنواع الأحجار الأخرى الخضراء ، حتى أنه يسمى أحيانا أم الزمرد .

حجر سيلان : والنوع الذى استعمل في مصر منه لونه أحمر قاتم أو أسمر مائل إلى الحمرة شفاف بعض الشيء ، ويوجد بكثرة في جهة أسوان في الصحراء الشرقية ، وفي سيناء ، وأحجاره صغيرة جدا للاستعمال ؛ وبخاصة ما عثر منها في أسوان . أما الكبيرة فوجدت في غرب سيناء ، وقد استعمل حجر السيلان لعمل الخرز منذ عصر ما قبل الأسرات .

حجر الهمتيت : (حجر الدم) وهو أكسيد الحديد ، ويوجد في الطبيعة بألوان مختلفة . فيكون أسود ، وأحمر ، ، وأسمر ، أو ذا صفائح رقيقة تكون طبقات لامعة بعضها فوق بعض ، والنوع الخاص الذى يستعمل في مصر من الهمتيت لصنع الخرز ، والتعاويد ، والمكاحل وأدوات الزينة الصغيرة ، هو الأسود القاتم ذو اللمعة المعدنية . وقد استعمل منذ عصر ما قبل الأسرات (3) . ورغم أن الهمتيت يوجد بكثرة في مصر في الصحراء الشرقية لاستخراج الحديد منه (4) إلا أننا لانعرف من أين جلب المقدار

(1) J. Ball. The Geog. & Geol. of South - Eastern Egypt, p. 272.

(2) Caton - Thompson. The Neolithic Industry of the Northern Fayum Desert, in Journ. Royal Anthropol. Inst. LVI 1926 p. 313
Petrie, op. cit. p. 43. (3) Petrie, op. cit p. 43. (4) Hume.
The Distribution. of iron (ores) in Egypt, p. 8.

الذى استعمل فى صنع تلك الأشياء .

اليشم أو حجر الجاد Jade ويطلق هذا الاسم على نوعين متميزين من المعدن ، أحدهما اسمه « نفريت » ، أو اليشم الحقيقى . والثانى شبه اليشم ، وهو فى مظهره مثل اليشم الحقيقى ؛ ولا يمكن تمييزه عنه إلا بالتحليل الكيمايى ، وكلاهما لونه أبيض ، أو رمادى ، أو أخضر على ألوان شتى . وهو شفاف شمعى اللعة . وقد عثر منه على رأس بلطتين يرجع عهدهما إلى ما قبل الأسرات ، (1) واحدة منهما فى المتحف المصرى ، والأخرى فى متحف لندن . وقد عثر الأستاذ « ينكر » حديثاً فى مرمدة بنى سلامة (2) على رأس بلطة يرجع عهدهما إلى العصر الحجري الحديث وكذلك وجد فى مقبرة « توت عنخ آمون » خاتم من هذا الحجر .

حجر اليشب : Jasper وهو نوع من السليكا الكثيفة غير النقية ، ويكون لونه أحمر أو أخضر ، أو بنيا ، أو أسود ، واللون الأحمر هو الذى كان يستعمل فى مصر قديماً لصناعة الخزف والتعاويذ ، وأحياناً لتطعيم المصوغات وعمل الجعارين . وقد عثر على قطعتين من إناء مفرطح من اليشب الأحمر يرجع عهدهما إلى الأسرة الأولى (3) . أما اليشب الأسمر ، والأسود فقد عثر على أشياء مصنوعة منهما من عهد الدولة الوسطى (4) ، وقد عثر على جمارين كذلك من ذلك العهد . أما اليشب الأخضر فعثر منه على أشياء ترجع إلى عهد الأسرة الرابعة (5) .

-
- (1) Quibell, Archaic objects, p. 235-6. (2) Junker, Merimde Beni-salame, Von 7 Februar bis 8 April 1936, p. 80 pl. VII.
(3) Quibell, Excav at Saqqara (1912-1914) p.p. 16, 17, pl. XII.
(4) Petrie, Scarabs and Cylinders with names, p. 8. (5) Brunton, Qua & Badari II, p. 20.

ويوجد اليشب الأحمر في بعض الصخور ، على شكل عروق في الصحراء الشرقية . مثال ذلك تلال الحضريية (1) ، وبالقرب من وادى صاغة Saga ، وفي وادى أبو حريدة . أما اليشب الأخضر المبقع بالأحمر فقد عثر عليه في طريق قنا والقصير (2) .

اللازورد Lapis-lazuli وهو حجر مظلم ذو لون أزرق قاتم يتخلله أحيانا بقع أو عروق بيضاء ، وأحيانا تكون فيه بقط صفراء دقيقة ، تظهر كأنها ذرات من الذهب ، والظاهر أن هذا الحجر لم يعثر عليه في مصر . غير أن الأديريسي قد ذكر أنه يوجد منه منجم في الواحة الخارجة . وأهم منبع له هي بلاد الأفغانستان في بلدة بدخشان Badakshan (3) ، والظاهر أن هذا هو المنبع الأصلي لهذا المعدن . وكان يستعمل اللازورد في مصر منذ عصر ما قبل الأسرات (4) ، وما بعده لصنع الخرز والتعاويذ ، والجمارين ، والأشياء الأخرى الصغيرة . وكذلك لتطعيم المجوهرات ، وبخاصة في عهد الدولة الوسطى والدولة الحديثة ، وقد ذكر هذا الحجر في النقوش المصرية منذ الأسرة الثانية عشرة وما بعدها (5) . في عدة جهات مختلفة

حجر الدهنج (التوتية) : Malachite وهو النحاس الغفل ولونه أخضر جميل ولم يعثر عليه في المقابر المصرية ، إلا على هيئة مسحوق يستعمل

-
- (1) Barron & Hume, op. cit. p.p. 52, 22, 228, 266. (2) J. Bruce, Travels to discover the sources of the Nile II, 2nd Ed. 1805, p. 85. (3) The Travels of Marco Polo the Venetian, p. 84 (Everyman's Library). (4) Petrie, Prehistoric Egypt, p. 44. (5) Br. A. R. (I) 534, 663, & op. cit. II, p.p. 446, 493, 447, 484, 509, 518, 536; III, p.p. 116, 434, 448; IV, p. 30.

للتكحل به ، وقد عثر عليه منذ عهد البدارى وعهد ما قبل الأسرات حتى الأسرة التاسعة عشرة (1) . وقد كان يستعمل أحيانا لصنع الخرز منذ عصر ما قبل الأسرات ، وفي عهد الأسرة الأولى (2) ، وقد اتخذ منه تعاويذ ، وجعارين من عصر الأسرة التاسعة عشرة . وقد فات على بعض العلماء التمييز بين هذا الحجر ، وحجر الزبرجد ، والزمرد الأخضر ، وحجر الفلسبار الأخضر كما حدث فى القلادة المستخرجة من دهشور فى الأسرة الثانية عشرة ، والسوارين اللذين وجدا فى هذا العهد أيضا . واتضح أن السوارين أحدهما من الفلسبار الأخضر ، والثانى من الفيروز ، ويوجد الدهنج فى سيناء وفى الصحراء الشرقية (3) ، وقد استعملت مناجمه فى العصور القديمة لاستخراج التوتية أولا ، وثانيا لاستخراج النحاس .

وقد كان النحاس يستخرج من وادى مغارة ، وسراية الخادم ، ومن هذين المكانين كان يستخرج الفيروز قديما . ومن هنا جاءت الصعوبة فى التمييز بين الدهنج والفيروز ؛ وبخاصة أنهما كانا يستخرجان من مكان واحد ، ولا يتميزان عن بعضهما فى اللون . ومن هنا جاء أيضا الخطأ فى أن بعض العلماء ترجم كلمة « مفكات » ، وهى اسم الفيروز باللغة المصرية القديمة بلفظة دهنج .

اللؤلؤ Pearl : ويستخرج من شواطئ البحر الأحمر ، وكذلك الخليج الفارسى ، وعلى مسافة من سواحل سيلان ، وأما كن أخرى .

ورغم أن الأصداف قد استعملت فى مصر منذ عصر ما قبل التاريخ

(1) J. E. A. XVI 1930 p.p. 41-4. (2) Petrie, Royal tombs II, p. 37 pl. XXXV. (3) J. E. A. XIII, 1927, p.p. 162-7.

فإن اللؤلؤ نفسه لم يستعمل حتى عهد البطالسة ؛ اللهم إلا أزرار قلادة الملكة « أعح حب » أم الملك « أحس الأول »⁽¹⁾، وهي ليست بلؤلؤ حقيق .

حجر الكوارتس والبلور الصخري Rock crystal : والكوارتس نوع من السليكا البلورية ، ولا لون له عند ما يكون نقيا ، وقد يكون شفافا بعض الشيء أو مظلما ، ويطلق على النوع الأول اسم البلور الصخري ، وعلى الثانى الكوارتس اللبني . وأحيانا يكون لون الكوارتس أسمر حتى السواد ، وفي هذه الحالة يسمى الكوارتس الدخاني اللون ، وهذا النوع يوجد فى منجم ذهب قديم فى « روميت » Romit فى الصحراء الشرقية⁽²⁾ . ويوجد الكوارتس بكثرة على هيئة عروق فى الصخور البركانية فى الصحراء الشرقية ، وبالتقرب من أسوان⁽³⁾ . وكان يستعمل بكمية قليلة فى عهد ما قبل الأسرات⁽⁴⁾ ، وما بعده ، إذ كان يصنع منه الخرز وأشياء أخرى ، كالأواني الصغيرة ، وقرنات العيون التى كانت تصنع للتماثيل وكذلك كانت توضع فى أعين التوايت ، التى كانت على شكل آدمى ؛ وكل أنواع الكوارتس أصلب من الزجاج ، وكذلك أكثر مقاومة من الصلب ، ولذلك لا يمكن أن يؤثر فيها هذا المعدن .

الفيروز أو الفيروزج Turquoise : ولونه أزرق سماوى ، وبعضه يكون أزرق مائلا إلى الخضرة ، وبعضه أخضر ، وهو يوجد على هيئة عروق فى أم الصخر . ومناجم الفيروز هى وادى مغارة وسراية الحادم فى شبه جزيرة

(1) The Necklace of Queen Aah-hetep, in, Annales. Sev. A. XXVII (1927) p. 69-71. (2) J. Ball. The Geog & Geol of south eastern Egypt. p. 353. (3) J. Ball. The Aswan cataract, p. 84. (4) Petrie, Prehistoric Egypt. p. 44.

سيناء^(١) . ويوجد على هيئة طبقات فى صخور الحجر الرملى . وقد استعمل فى مصر منذ عهد البدارى^(٢) ، وما قبل التاريخ ، وكان يستعمل فى صياغة الأساور منذ الأسرة الأولى ، وكذلك للحبال فى الأسرة الرابعة ، إذ عثر على أحجار منه فى مقبرة الملكة « حتب حرس » من عهد الأسرة الرابعة فى الجيزة^(٣) ، وقد ظن البعض أولا أنه دهنج . ووجد بكثرة فى عهد الأسرة الثانية عشرة فى مجوهرات دهشور . وقد ظن البعض أنه فيروز صناعى ، وذلك لجمال لونه . وكذلك وجدت بعض قطع منه فى مقبرة « توت عنخ آمون » منها جعران لونه أزرق جميل ، وقطع زرقاء مائلة للخضرة رصعت فى صداريتين .

المعادن

تدل الآثار المكشوفة فى مصر على أن سكان وادى النيل كانوا يستعملون منذ القدم معادن مختلفة الأنواع بعضها موجود طبيعيا فى تربة البلاد ، وبعضها جلب إليها من البلاد الأجنبية التى كانت تربطها بها روابط التجارة أو الاستعمار ؛ وأهم هذه المعادن النحاس ، والذهب ، والحديد ، والقصدير ، والفضة ، والرصاص . يضاف إلى ذلك استعمال البرنز ، وهو فى الواقع خليط من النحاس والقصدير ، والألكترولوم ، وهو خليط من الذهب والفضة

(1) Mines & Quarries Department Report on the Mineral Industry of Egypt. 1922 p. 38. & J. Ball. The Geog & Geol of West-Central Sinai, p.p. 11, 163. (2) Brunton & Caton Thompson op. cit. p.p. 27, 41, 56, & Petrie, Prehistoric Egypt, p. 44. (3) Lucas, Anc. Egyp. Materials, p. 204, note 7.

وفي العهود المتأخرة جدا استعمل النحاس الأصفر ، وهو خليط من النحاس الأحمر والزنك . وهناك خامات أخرى استعملها المصريون ، وسنتكلم عن كل فيما يلي .

النحاس : هذا المعدن لا يوجد عادة في الطبيعة بشكل معدني بل يستخرج من خامات مختلفة ، ويعد من أقدم المعادن التي عرفها الإنسان ، وقد استعمل في مصر قبل الذهب . ويرجع تاريخ وجوده في مصر إلى عهد البدارى ، ثم عهد ما قبل الأسرات . وأقدم أدوات نحاسية عثر عليها هي الخرز ، والمثاقب ، والدبابيس من عصر البدارى (1) ، وقد استمر استعمالها إلى عهد ما قبل الأسرات الذي عثر فيه كذلك على أساور ، ومعاول صغيرة ، وخواتم ، ورؤوس خطاطيف ، وإبر ، وملاقط ، وغير ذلك من الآلات الصغيرة ، وفي نهاية عصر ما قبل الأسرات أصبح في متناول المصري أسلحة من النحاس ليدافع بها عن نفسه ، ولم يأت عصر الأسرات الأولى حتى استعمل المصري رؤوس بلط ضخمة ، وقواديم ومعاول ، وسكاكين ، وخناجر ، وحراش ، وحلى ، وأدوات منزلية كالطست والإبريق وكل هذه كانت من النحاس بكميات وافرة ، ولم يوجد النحاس طبيعيا قط في أرض مصر بل كان يستخرج من خامات . أهمها الدهنج الذي كان يستعمل منذ أقدم العصور لتكحيل العين ، ولذلك كان من السهل أن يكشف عن هذا المعدن بسهولة بعد صهر هذه المادة . وتوجد خامات النحاس في داخل حدود القطر المصري في شبه

(1) Brunton & Caton Thompson, The Bad. Civil. p.p. 7, 27, 33, 41, 56, 60, 71, & Flinders Petrie, Prehist. Egypt p. 25, 26, 47.

جزيرة سيناء ، وفي الصحراء الشرقية . ففي شبه جزيرة سيناء عثر على مناجم يظن أنها كانت لاستخراج النحاس ، أو لاستخراج الفيروز في وادى مغارة وفي سراية الخادم . وهما يقعان فى الجنوب الغربى من شبه الجزيرة ، وبينهما نحو اثنى عشر ميلا (١) .

وتدل الاحوال على أن خام النحاس كان يعدن قديما ، فى وادى مغارة ؛ إذ وجدت بقايا مستعمرات للتنجيم يرجع عهدها بخاصة إلى الدولة القديمة ، وكذلك الدولة الوسطى . إذ وجدت كميات عظيمة من الرواسب ، وبقايا الصهر من مخلفات الدولة القديمة ، وكذلك وجدت قطع من خام النحاس ، وعدة أوان للصهر وجزء من قالب لسبك النحاس .

أما من عهد الدولة الوسطى فقد وجدت كميات من رواسب النحاس ، وقطع مصهورة ، وقطع من أواني الصهر ، وكذلك وجد جزء من آنية صهر لا يزال فيها مسحوق الخام . هذا إلى وجود قالب لسبك نصال أسلحة . أما فى سراية الخادم ، فإن آثار التعدين فيها أقل ، وذلك لأن هذا المكان لم يفحص بعد .

وأهم خام كان يعدن فى سراية الخادم ، وفى مغارة هو الدهنج الأخضر اللون ، ومعه قليل من الأزوريت الأزرق اللون . وقد كانت البعثات ترسل للبحث عن هذا المعدن وغيره . فى وادى مغارة ، وفى الوادى والمناجم القريبة من سراية الخادم منذ الأسرة الأولى ،

(1) Maptes, The Copper Axe in Ancient Egypt, 1929, p. 97; Petrie, Researches in Sinai, p.p 18, 19, 27, 46-53, 154-62 & Mines and Quarries Department of Egypt, Report on the Mineral Industry of Egypt, 1922 p.p. 36, 38.

وقد عثر فى وادى مغارة على ٤٥ وثيقة منها ٣٦ نقشاً على الصخر ،
وثمانية جرافيتى ، ولوحة . وأقدمها يرجع للأسرة الأولى حتى الأسرة
التاسعة عشرة .

أما فى الوادى والمناجم القريبة من سرابة الخادم ، فكان يوجد فيها
خمس عشرة وثيقة ، معظمها من الأسرة الثانية عشرة وبعضها من الدولة
الحديثة . أما فى المبد المقام فى هذه البقعة وما حوله ، فقد عثر
على ٢٨٨ نقشاً (١) معظمها على كتل من الحجر ، وتماثيل صغيرة ولوحات ،
ومن بين هذه النقوش واحد باسم الملك « سنفرو » ؛ غير أنه يظهر من
نقوشه أنه كتب فى عصر بعد عصر هذا الملك . ومعظم هذه النقوش
يرجع إلى عهد الدولة الوسطى ، والدولة الحديثة . ويلاحظ أن تعدين
الفيروزج قد ذكر كثيراً فى هذه الوثائق ولم يذكر تعدين النحاس إلا
مرة واحدة ، وفى الغالب نجد أن البعثات الأولى التى كانت ترسل إلى
هذه الجهات لم يترك رؤساؤها فى نقوشهم إلا اسم الملك ، وألقابه ؛ وبعد
ذلك أضيفت أسماء رؤساء الحملة وضباطها . وقد بدأ ذلك منذ عهد الأسرة
الخامسة . وبعد ذلك نجد أن الغرض من البعثة كان ينقش على الصخور .
ولذلك يصعب علينا فى بادئ الأمر معرفة الأغراض التى من أجلها أرسلت
الحملة من النقوش نفسها ، أكانت لاستخراج الفيروزج ، أم لاستخراج
النحاس أم لتأديب العصاة فحسب ؟ .

على أن تعدين النحاس لم يكن فى وادى مغارة وسرابة الخادم فحسب بل

(1) Gardiner & E. Peet, The Inscription of Sinaï I, p.p. 7-16.

كان يمتد إلى الجهات المجاورة للجهة الأخيرة مثل جبل أم رنة ، ووادى ملححة ، ووادى خارج . وكذلك فى الجنوب الشرقى من شبه الجزيرة كانت توجد مناجم للنحاس ، حيث وجدت خامات ورواسب منه فى عدة أماكن أهمها بالقرب من سهل سند ، وفى التلال الواقعة غربى سهل نبق شرم ، وفى وادى رماى أحد روافد وادى نسب . وتوجد خامات النحاس ، فى عدة أماكن فى الصحراء الشرقية أهمها وادى عربة وفى جبل عطوى ، وفى جبل دارا ، وفى مناجم ذهب دونجاش Dungash ، وفى التلال الواقعة جنوب وادى جمال Gemâl ، وفى أبو سيال Absciel ، وغيره .

ويختلف مقدار كمية النحاس التى تستخرج من الخامات حسب الأماكن التى يعدن فيها . مثلاً فى الأماكن التى فى الجنوب الغربى من شبه جزيرة سيناء وجد أنه يستخرج من الخام من ٥ إلى ١٨ ٪ . أما فى الصحراء الشرقية فوجد أن مقدار ما يستخرج من الخام ما بين ٣٦ و ٤٩ ٪ . ووجد فى أبو سيال أن النسبة ٣ ٪ . وفى أماكن منه وجد أن النسبة ارتفعت حتى ٢٠ ٪ (١) .

ولا بد أن النحاس الذى كان يستخرج فى مصر من مناجمها حتى الأسرة الثامنة عشرة عند ما بدأ يجلب إليها هذا المعدن من الخارج كان كافياً لسد حاجتها لأن البقايا التى وجدت فى مناجم النحاس ، وامتداد مساحتها يشعران بأن الكميات التى كانت تستخرج عظيمة ، وإذا اتخذنا رواسب مناجم وادى نسب مقياساً لما يستخرج من النحاس فإن أقل

1 J. Wells, Report of the Dep. of Mines, 1906 p. 34.

مقدار من هذا المعدن استخرجه معدنوسينا حتى تاريخ رواسب هذا الكوم
أى الأسرة الثانية عشرة فإنه لا يقل عن ٥٥٠٠ طن بل أكثر . يضاف
إلى ذلك ما كان يستخرج من مغارة وغيرها .

وأقدم وثيقة لدينا تشير إلى جلب النحاس من الخارج يرجع عهدها
إلى الأسرة الثامنة عشرة ، ثم التاسعة عشرة (١) . إذ نعرف أنه كان
يأتى إلى مصر من « رتنو » و « زاهى » وكلاهما فى سوريا ، ومن جهة
« أرابختيس » ، وهو مكان غير معروف فى آسيا ، ومن أرض « الإله » ، وهو
اسم استعمل ليدل على أما كن مختلفة تشمل جهات فى غربى آسيا ،
والصحراء الشرقية من مصر ، وبلاد بنت ، ومن « إيسى » وربما كان
يقصد بها قبرص .

وخامات النحاس فى مصر هى : الآزوريت ، وخام الكرسوكولا
والدهنج ، والكبريتور .

أما الآزوريت فهو خام أزرق غاسق جميل ، من القاعدة النحاسية
ويوجد فى رواسب النحاس ، ويكثر وجوده فى سيناء والصحراء الشرقية
ويكون دائما على سطح الأرض أو بالقرب من السطح ولذلك يسهل
استخراجه ؛ ولا يوجد بكثرة كالدهنج الذى يكون معه فى العادة وكان
الآزوريت يستعمل فى مصر القديمة لاستخراج النحاس وللأصباغ ثم استغنى
عنه المصرى عندما اخترع صبغة زرقاء (٢) صناعية .

الكرسوكولا : أو البورق أو ملح الصاغة : وهو خام أزرق أو

(١) Br. A. R. II, 447, 471, 491, 509, 790, 459, 462, 490.

(٢) Anc. Egypt. Materials, p. 283.

أخضر مائل إلى الزرقة ، وهو يحتوى كيميائياً على سليكات ، ويوجد فى سيناء ، وفى الصحراء الشرقية ، وقد استعمل مادة للكحل ، ولم يعثر منه إلا على تمثال صغير لطفل يرجع عهده إلى ما قبل الأسرات (1)

الذهنج : وهو قاعدة خضراء من كربونات النحاس ، وهو أول خام استخراج منه النحاس ، ويوجد على سطح الأرض فى سيناء وفى الصحراء الشرقية . ويرجع تاريخ استعماله إلى عصر البدارى إذ ؛ منذ ذلك العهد كان يؤخذ منه مادة الكحل (2) حتى الأسرة التاسعة عشرة وكذلك كان يستعمل لتلوين الجدران (3) والقاشانى والزجاج . يضاف إلى ذلك أنه كان يعمل منه أحياناً الخرز والتعاويذ ، وأشياء أخرى صغيرة ، ولكن فى الواقع كان أهم استعمال له فى مصر استخراج مادة النحاس إذ يحتوى على مقدار كبير منها.

البرنز (الشبه) : يعرف البرنز عند المصريين بأنه خليط من النحاس والقصدير ، ولكنه فيما بعد كان يحتوى فضلاً عن ذلك على كمية من الرصاص . على أن هذا الخليط لم يكن يطلق على البرنز فى عصرنا على ٩ ٪ أو ١٠ ٪ من القصدير ؛ أما البرنز القديم فكانت النسبة فيه متغيرة اذ يكون القصدير فيه من ٢ الى ١٦ ٪ ولكن اذا قلت نسبة القصدير عن ذلك فلا يطلق عليه لفظة برنز بل تكون هذه الكمية موجودة فى المعدن طبيعياً .

ويمتاز البرنز على النحاس بأنه اذا أضيف للأخير مقدار ٤ ٪ من القصدير زادت صلابته ومقاومته وبخاصة عندما يطرق ، على أن رفع هذه

(1) Quibell & Green Hierakonpolis, II p. 38.

(2) Lucas, Ancient Materials, p. 79. (3) op. cit. p. 287.

النسبة إلى ٥٠٪. تجمل النحاس سهل الكسر عند طرقه ، هذا إلى أن الإكثار من نسبة القصدير تقلل من مقدار ذوبان النحاس ، وتزيد في سيالته وبذلك يسهل تشكيله في القالب . والواقع أن هذه هي أهم فائدة في تحويل النحاس إلى البرنز ، إذ الواقع أن النحاس معدن رديء الصب ، لأنه ينكش عند ما يبرد وكذلك لأنه يمتص الغازات وبذلك يصبح ذا مسام ولكن وجود القصدير يمنع امتصاص الأكسجين والغازات الأخرى .

وتاريخ البرنز غامض في مصر ، إذ أنه لم يكشف في مصر ، وذلك لأنه فضلا عن عدم معرفة خامات القصدير في مصر قديما فإنه كان مستعملا في آسيا قبل أن يعرف في مصر بزمان طويل ، فقد عرف استعماله في « اور » منذ ٣٥٠٠ ق.م. ، ولا بد إذن أن يكون المصريون قد عرفوه عن طريق آسيا .

ولا يزال عصر الانتقال من استعمال النحاس إلى استعمال البرنز مجهولا إلى الآن ، والواقع أن البرنز لم ينتشر استعماله في مصر إلا منذ الأسرة الثانية عشرة ، غير أنه توجد أشياء يرجع تاريخها إلى عهد الدولة القديمة مصنوعة من البرنز فقد عثر على قطعة من عهد الملك « سنfro » (1) أى منذ بداية الأسرة الرابعة ، وكذلك عثر السير « روبرت موند » (2) على موسى يقال أنها من عهد الأسرة الرابعة . وقد وجد أن كمية القصدير فيها نحو ٨٥٪ .

(1) Petrie, Meidum, p. 36. (2) Report of British Association 1933, Abstraction Nature 132 (1933) p. 448.

والواقع أنه منذ عهد الدولة الوسطى (1) وجدت قطع تاريخها ثابت ولذلك يمكن تسمية هذا العصر عهد بداية استعمال البرنز . ومنذ الأسرة الثامنة عشرة وما بعدها عملت تماثيل صغيرة من هذا المعدن غير أن استعماله لم يعترض استعمال النحاس بل كانا يستعملان جنبا لجنب .

صناعة البرنز : كان البرنز مثل النحاس يشكل بالطرق ، أو بالسبك في قوالب ، ويمكن معرفة ما لهذا المعدن من الميزة إذا علمنا أن مقدار صلابته بعد الطرق يزداد ازديادا عظيما . فمثلا وجد أن قطعة من البرنز فيها كمية القصدير ٣٤ و ١٠٪ كان مقدار صلابتها قبل الطرق ١٧١ ؛ وأصبحت بعد الطرق ٢٧٥ . وقد كان البرنز يستعمل في العصور المتأخرة في مصر لعمل التماثيل الصغيرة ، وهي التي كانت تسبك صماء ، أو مفرغة ؛ وكانت التماثيل الصغيرة في العادة تصب صماء ، أما التماثيل الكبيرة فكانت تسبك جوفاء .

وطريقة السبك هي المعروفة بطريقة الشمع المفقود . وذلك أن يعمل نموذج من شمع النحل من الشكل الذي يراد سبكه ثم يغطى هذا الشكل بمادة تأخذ شكل القالب . ومن المحتمل أن هذه المادة كانت تصنع من الطين ، أو من الطين المخلوط بمواد أخرى . ثم يدفن الكل في الرمل ، أو في الأرض ؛ التي تقوم مقام حامل للقالب . ثم يحى الكل بدرجة تذيب الشمع ، أو تحرقه ، ويخرج من الثقوب التي كانت تعزل خصيصة ليصب فيها المعدن المصهور من البرنز . وبعد ذلك ، يصبح القالب صلبا جامدا معدا للاستعمال ، فيصب فيه المعدن المصهور من

(1) Lucas, Ancient Materials, p. 426.

البرنز ، ثم يترك ليبرد . وبعد ذلك يفتت القالب ، وينكشف عن الشكل المطاوب فتعمل فيه التصليجات النهائية بآلة خاصة . وقد رسمت مناظر تمثل سبك البرنز في مقابر الأسرة الثامنة عشرة (1) ، وتوجد قوالب المسبك في المتحف المصرى وبخاصة لصب أشكال الطيور ولا نعرف إذا كانت لسبك الذهب ، أو البرنز ، أو هي قوالب لعمل القاشاني ، والزجاج .
النحاس الأصفر : وهو خليط من النحاس ، والزنك ، وقد وجدت خامات في مصر تحتوى على المعدنين ، وكان يصدر هذا المعدن إلى مصوع في القرن الأول بعد الميلاد . وقد عثر على خواتم منه وأقراط في مقابر بلاد النوبة (2) من العصر المتأخر .

الذهب : يوجد الذهب في الطبيعة منتشرا بكثرة على هيئة معدن ، ولم يوجد قط في حالة نقية . بل يكون دائما محتويا على كميات من الفضة أو النحاس ، وأحيانا نجد فيه آثار حديد ، ومعادن أخرى . ويوجد الذهب في الطبيعة عادة في شكلين ، إما في عروق غير منتظمة ؛ في تنايا صخور الكوارتز ، أو في الرمال الغرينية ، والحصا . وهذا ناتج من تمزقت صخور تحتوى على مادة الذهب ، قد حملها تيار ماء جف فيما بعد . وقد عثر على الذهب في هاتين الحالتين . ولما كان من السهل معرفة الذهب بلونه الأصفر البراق ، وكذلك بسهولة استخراجة فقد عرفه المصري واستعمله منذ عصور سحيقة ترجع إلى ما قبل الأسرات .

(1) Newberry, The Life of P. Ramara, p. 37 pl. XVIII (2) Firth, Arch. Survey of Nubia, Report for 1910-11 p.p. 115, 157, 159, 165.

والذهب يوجد فى مناطق شاسعة فى مصر بين وادى النيل والبحر الأحمر ؛ وبخاصة فى الصحراء الشرقية جنوبا من طريق قنا والقصير إلى حدود السودان . يضاف إلى ذلك أنه قد وجدت مناجم ذهب شمالى خط عرض قنا حتى دققة فى السودان تقريبا ومعظم هذه المناطق تقع فى بلاد النوبة ، وهى اثيوبيا القديمة التى ذكرها الكتاب الأقدمون ، والجزء المصرى الحالى منها هو بلاد النوبة السفلى ، أى من أسوان (1) إلى وادى حلفا . أما القسم السودانى فهو بلاد النوبة العليا ، أى من حلفا إلى مرو . ولم يعثر إلى الآن على ذهب فى شبه جزيرة سيناء .

وقد وجد أن عدد المناجم التى شغلت قديماً فى الكوارتس لاستخراج الذهب يبلغ عددها نحو المائة ، والواقع أن المصريين كانوا من أمهر الباحثين عن هذا المعدن ، إذ لم يوجد مكان يشعر بوجود الذهب فيه ، إلا وجدنا المصريين قد سبقوا إليه ، وقتلوه فحسا وتنقياً . وقد أحييت صناعة تعدين الذهب منذ مدة وجيزة ، ولكنها أهملت ثانية لأسباب اقتصادية .

وقد ظن الأستاذ « بترى » (2) أن الذهب كان يجلب إلى مصر منذ الأسرة الأولى ، وعزا ذلك لوجوده مخلوطاً بالفضة . غير أنه نسى أن الذهب المصرى كان يحتوى أحيانا على مقدار عظيم من الفضة طبعيا ، وكذلك ذكر الأستاذ بترى أن الذهب يحتوى على مقدار من الاثمد منذ عهد الأسرة الثانية ، وبذلك استنتج أنه لا بد أن جلب إلى مصر من ترنسلفانيا موطن الاثمد ، ³ ولكن ذلك محض خطأ .

(1) Stanley C. Dunn, On the Mineral deposits of the Anglo-Egyptian Sudan p. 13. (2) Petrie, The Arts & Crafts of Ancient Egypt. (1910) p. 83. (3) Petrie, Descriptive Sociology Anc. Egypt. p. 57.

والواقع أن الوثائق المصرية القديمة تخبرنا أن الذهب كان يجلب إلى مصر من أقاليم الجنوب في عهد الأسرة الثانية عشرة . على حين أنه ليس لدينا وثائق ، تدلنا على أنه كان يجلب إلى مصر من الشمال قبل الأسرة التاسعة عشرة .

وقد كان يوثق بهذا المعدن إلى مصر في الأسرة الثانية عشرة من قفط ، وبلاد النوبة ، وفي عهد الأسرة الثامنة عشرة من الأراضى العليا ، وكاروى ، وقفط ، وكوش ، وبنت ، والأقاليم الجنوبية . وفي الأسرة التاسعة عشرة من أكتيا ، وأرض « الإله » ، وكاروى وبنت ؛ وفي الأسرة العشرين من إدفو ، وإيمو ، وقفط ، وبلاد الدهنج ، وأراضى العبيد ، وأميو ، ومن الشمال في عهد الأسرة التاسعة عشرة من لوبيا ، وفي الأسرة العشرين من آسيا ، وفي الأسرة الثانية والعشرين من « خنت نفر » (1) . وأقدم خريطة في العالم هي الموجودة الآن في متحف تورين ، رسمت على ورق بردى . وقد ظهر عليها مواقع مناجم الذهب في الصحراء الشرقية ، ويرجع تاريخها إلى عصر الملك « سبتى الأول » من الأسرة التاسعة عشرة . ولا نزاع في أن المصرى منذ الدولة القديمة كان في متناوله مقدار عظيم من الذهب كما تدل على ذلك مخلفات الملكة « حتب حرس » ، وبخاصة قبعتها الذهبية وكذلك ما وجد في بعض مقابر عظماء القوم وقد زاد مقدار الذهب في عهد الدولة الحديثة كما يشاهد في مقبرة « توت عنخ آمون »

(1) Br. A. R. (I) 520, 521. & op. cit. II 263, 373, 502, 514, 522, 526, 774, 889., op. cit. III, 37, 116, 274, 285 286., op. cit. IV, 30, 33, 34, 228, 409, 26, 770.

إذ نجد أن وزن تابوته فقط ما يقرب من ١١٠٥ كيلوجرام من الذهب الخالص . وكان الذهب يصاغ بالطرق والسبك . وكذلك كانت تنقش صفائح بالبارز والفاثر ، وتحلى صفائح الرقيقة الاكاث ، والتوايت الخشبية ، وغير ذلك من أدوات الزينة ، وكذلك كان يذهب النحاس . هذا إلى أنه كان يصنع من الذهب سلوكاً رفيعة لنظم العقود .

ولوحظ أن الذهب كان يطرق إلى أوراق رقيقة ، واستعملت للتذهيب وكذلك كان يلون الذهب ويلحم ، وبالاختصار فإن معظم الصناعات الحديثة لصياغة الذهب كانت مستعملة عند قدماء المصريين ، وقد شرح كل من « ويليمز وفرنيه » (١) تفاصيل طرق صناعة المجوهرات وكذلك قاس الكيماي « لوكاس » صفائح من الذهب يختلف سمكها ما بين ١٧ر٠ ، ١٠ر٥٤ من المليمتر ، ٠٩ر٠ من المليمتر وذكر « بترى » أن سمك الورقة كان غالباً ١ من البوصة أو ١٢٧ر٠ من المليمتر .

وعند ما كان يراد استعمال ورق الذهب في تزيين الشكل البارز في الخشب كانت توضع الصفائح مباشرة على الخشب المشغول ثم تثبت فيه بمسامير صغيرة من الذهب ، ولكن عند ما كانت توضع أوراق رقيقة جداً على الخشب ، كان يغطى الخشب أولاً بطبقة رقيقة من جس خاص كان يلصق عليه الذهب بمادة مثبتة ربما كانت الغراء . وعند ما كان يراد استعمال ورق أرق مما سبق ، كانت توضع كذلك طبقة من الجص غير أن

(1) C. R. Williams, Gold and Silver Jewelry and Related Objects.; Vernier (a) Bijoux et orfèvreries dans Cat. Gen. du Musée du Caire ; (b) La bijouterie et la joaillerie Egyptienne dans Bull. de L'Inst. Franc. d'Arch. Orient, du Caire, II, 1907.

نوع المادة المثبتة التي كانت توضع فوقها لم تعرف بعد بالضبط وقد قال الأستاذ « لورى » (1) إنه لاحظ في حالة من تلك الحالات ، أن المادة كانت بياض بيضة وكان كل من معدني النحاس والفضة يجليان أحيانا بقشرة من الذهب ، وكانت هذه القشرة توضع على النحاس بإحدى طريقتين ، الأولى بطرق ورقة رقيقة من الذهب على النحاس ، والثانية تثبيت ورقة الذهب على النحاس بمادة لاصقة ، ربما كانت الغراء وقد عثر على أمثلة من النوع الأول ، وهي أزرار استعملت كأختام من عهد الأسرة السادسة تقريباً ؛ وكذلك عثر على تعويذة تمثل الإله « تحوت » أما تذهيب الفضة فقد عثر على أمثلة منه في عهد الأسرة الثانية والعشرين . (2)

وقد لوحظ في الآثار التي عثر عليها من الذهب القديم أنها تكون على ألوان شتى فنجد من بينها الأصفر الفاقع ، والأصفر القاتم ، والأحمر المختلف الألوان كاللون البنّي المائل إلى الحمرة ، والطوبى الخفيف ، والدموى ، والأرجواني القاتم ، ثم الأحمر القرمي . وكل هذه الألوان عرضية ما عدا الأخير إذ قد نتج من مزج الذهب الخالص بكمية بسيطة من الحديد . كما يقول بعض علماء الكيمياء . أما الذهب الأصفر الفاقع فهو نضار خالص أما الأصفر القاتم المبقع فيحتوى على نسب من معادن أخرى كالفضة والنحاس . أما الذهب الرمادى فيحتوى على نسبة كبيرة من الفضة تغير لون مسطحه الخارجى .

الألكتروم : وهو مزيج من الذهب ، والفضة ، وقد يكون طبيعياً .

(1) Laurie, Methods of testery minute quantities of material from pictures & Works of Art, in the Analyst, LVIII (1933) p. 468.

(2) Vernier, op. cit. p. 240-1, 378-9 pl. LVIII-IV, LXXVII

أو صناعياً ، والنوع الذى استعمل فى مصر القديمة يحتمل أنه كان دائماً من صنع الطبيعة . وقد تحتوى سبيكة هذا المعدن على أى نسبة من الذهب والفضة ، غير أنه عند ما تكون نسبة الذهب عالية فيه يكون لونه كلون الذهب الطبيعى . وعند ما تكون نسبة الفضة عالية يكون لون المعدن أبيض فضياً . ويمكن فى هذه الحالة أن يعتبر المعدن أنه فضة : وفى كلتا الحالتين لا يمكن أن يسمى الكتروم لأن هذا الاسم قد وضع ليدل على المعدن ذى اللون الأصفر الباهت ، وهو ما أطلق عليه الأغريق الكترون ، وسماه الرومان الكتروم . ويقال إنه سمي بهذا الاسم لمشابهته بلون الكهرمان . وهو الاسم الذى أطلقه عليه كل من «هومر» ، «هزiod» (الكترون) . وقد ذكر فى الوثائق القديمة أن الألكتروم كان يجلب إلى مصر من بلاد بنت (1) ، «وآمو» ، والأراضى العالية ، والممالك الجنوبية ، ومن المناجم الواقعة شرقى رادسية ، ومن الجبال وكلها أماكن واقعة فى جنوب مصر ، وليس هناك ما يدل على أنه كان يجلب من الشمال ، أو من «بكتولس» كما ذكر الأستاذ «بترى» .

والواقع أنه ليس هناك فاصل حقيقى بين الذهب والألكتروم بل هو محض اصطلاح . فعند ما تكون السبيكة محتوية على أقل من ٢٠٪ من الفضة فإنه يطلق عليها كلمة ذهب وعند ما تكون النسبة ٢٠ أو أكثر فإن لونها يكون أصفر ، وبهذا يطلق على المعدن لفظة الكتروم . وهذا التعريف يتفق مع ما قاله «بلىنى» .

ولا نزاع فى أن الألكتروم كان موجوداً فى مصر طبعياً وأن المقادير

(1) Br. A. R. (I), & II 272, 298, 387, 374, 377.

التي استخرجت منه كافية لسد حاجة البلاد ؛ وقد كان المصري يفضل عمل مجوهراته منه أكثر من الذهب ، وذلك لصلابته ، وربما كان ذلك هو السبب الذي جعله كثير الاستعمال في مصر القديمة . وكان يستعمل في نفس الأغراض التي كان يستعمل فيها الذهب ، أى في صنع المجوهرات ، وتذهيب الخشب ، والتواييت الخشبية والأثاث ؛ ويرجع بداية استعماله إلى الأسرات الأولى .

الحديد : لانزاع في أن مركبات الحديد توجد بكثرة عظيمة في الطبيعة ، على حين أن معدن الحديد الخالص لا يوجد إلا بكميات قليلة . والحديد على نوعين مختلفين أولهما يوجد على شكل بلورات معينة من أكسيد الحديد في بعض الصخور البركانية ، ويندر وجوده في شكل قطع كبيرة . والنوع الثاني هو ما يسمى بالحديد السماوى وهو تراب أو قطع من شهب تحتوى على حديد ، ويمتاز هذا النوع الأخير بأنه يحتوى على كمية من معدن النيكل تتراوح بين ٥ و ٢٦ ٪ على حين أن الحديد الأرضى أى الذى يوجد في الصخور البركانية لا يحتوى على هذا المعدن إلا في الصخور فوق القاعدية نادرا و بكمية قليلة جدا .

والمعادن التي تحتوى على مادة الحديد كثيرة في مصر ، وأهمها خام الهيماتيت ، وقد تكلمنا عنه فيما سبق ، وكذلك توجد بعض مركبات الحديد في المغرة الحمراء والصفراء ، ويستعملان للتلوين وهذه الخامات توجد على الأخص في الصحراء الشرقية وفي سيناء (١) وفي المغرة القريبة من أسوان ،

(١) Hume, The Distribution of iron ores in Egypt. & Nasssim, Minerals of Economic Interest in the Deserts of Egypt, in Report of Congrès Inter; de Geol. Le Caire, 1925, III, 1926 p.p. 164-5.

وفي واحات الصحراء الغربية .

والواقع أنه لا يوجد موضوع **كثير** فيه النقاش ، والتضارب أكثر من تحديد العصر الذى بدأ فيه استعمال الحديد بصفة عامة ويزعم بعض العلماء أن الحديد كان حتما مستعملا فى مصر منذ أقدم العصور لقطع الأحجار الصلبة وحفرها ، إذ لم يعرف للآن أية وسيلة أخرى استخدمت للوصول إلى قطع هذه الأحجار وصنعها إلا إذا كان الحديد أو الصلب قد استعمل لهذا الغرض ويعتمد الذين يميلون لهذا الرأى ، على وجود بعض قطع من الحديد يرجع تاريخها إلى ما قبل الأسرات ، وأن عدم وجود كميات عظيمة من هذا المعدن إلى يومنا هذا فى الآثار المكشوفة يرجع إلى أن الحديد يغمره الصدأ ويتآكل وتختفى معالنه . وقد عثر على قطعة من الحديد بالقرب من الهرم الأكبر ، والظاهر أنها ليست قديمة بل قد تركها الذين كانوا يعملون فى تكسير أحجار هذا الهرم حديثا لاستعمالها فى مبانيهم .

وأهم القطع التى عثر عليها منذ عصر ما قبل الأسرات هى بضع خرزات (1) ولكنها عند ما حلت وجد أنها من الحديد السماوى أى من بقايا الشهب المتساقطة ، وكذلك عثر «مسبرو» على عدة قطع (2) من بلطة فى أبو صير ذكر أنها يجوز أن تكون من عهد الأسرة السادسة ، ولكنه لم يجزم بشئ قاطع فى تحديد تاريخها .

بعد ذلك عثر « بترى » على كمية من الحديد الذى يعالوه الصدأ ومعها

(1) Wainwright, The Labyrinth, of Gerzeh and Mazghuneh p.15-16. (2) Guide au musée de Boulaq, 1883. p. 296

معاول من النحاس يرجع عهدها إلى الأسرة السادسة (1) في أساس معبد في العراة المدفونة . ومن المحتمل أن الحديد الذي وجد هنا لم يكن على شكل آلة للاستعمال لأن كيفية صهر الحديد لم تكن قد عرفت بعد . يلي ذلك العثور على رأس حربة من الحديد في بلاد النوبة يقال إنها من عصر الأسرة الثانية عشرة (2) . غير أن هذا التاريخ ليس مؤكداً . وكذلك عثر على جزء من معول و جزء من فأس يقال إنهما من عهد الأسرة السابعة عشرة ، ولكن ذاك لم يؤكّد بعد .

وفي مقبرة «توت عنخ آمون» (3) أى في أواخر الأسرة الثامنة عشرة عثر على عدد من قطع الحديد ، وهو خنجر ونموذج مخدة وتعويذة للعين مرصعة في سوار من الذهب ، وست عشرة آلة لها مقابض من الخشب ، وأسلحتها صغيرة جداً رقيقة وكلها من الحديد ، ووزن كل هذه الأسلحة لا يزيد على أربعة جرامات ، وهذه كانت بلا نزاع تستعمل آلات سحرية لفتح فم مومياء «توت عنخ آمون» غير أننا لا نعرف إذا كانت هذه من حديد الشهب أو من حديد الأرض .

ومنذ عهد «توت عنخ آمون» أخذ عدد قطع الحديد يزداد وجوده حتى الأسرة الخامسة والعشرين (4) ، وفي هذا العهد عثر على كمية من الآلات مصنوعة من هذا المعدن ؛ ومن ثم أصبح الحديد كثير الاستعمال إذ لوحظ في آثار بلدة تقراش و بلدة إدفينا في عهد الأسرة السادسة

(1) Petrie, The Arts & Crafts of Anc. Egypt. p. 104. (2) Randall-Mac-Iver & Woolley, Ruben p.p. 193, 211, pl. 88. (3) Carter, The Tomb of Tut-Ankh-Amen, II, p.p. 109, 122, 135, pls LXXXVII, LXXXII, LXXXVII; III, p.p. 89-90, pl. XXVII.

(4) Petrie, Six Temples at Thebes p.p. 18-19.

والعشرين أن الحديد كان مستعملا كالنحاس بل أكثر ، وكان يصهر في البلاد ، وفي منتصف القرن الثالث قبل الميلاد عثر على آلات من الحديد في المحاجر .

ومن كل ما سبق يتضح أنه وجد في مصر في العهود الأولى مقدار صغير جدا من الحديد المتخلف من الشهب صنع منه خرز ، ولكن لم يكن يعرف الحديد بمعناه الحقيقي ، أو كيف يستخرج من خاماته . ولكن مما لا شك فيه أن لفظة معدن السماء كانت موجودة عند قدماء المصريين . وخلافا لذلك فإن كل القطع التي عثر عليها من الحديد تاريخها مشكوك فيه حتى نهاية الأسرة الثامنة عشرة ، عند ما عثر على قطع حقيقية من الحديد في « مقبرة توت عنخ آمون » ، ولا نزاع في أنها كانت قد أهديت له من ملوك غرب آسيا موطن صناعة الحديد .

ولا بد أن الحديد نفسه كان كشفا جديدا في سوريا وفلسطين في عهد أوائل الأسرة الثامنة عشرة ، إذ لم نعثر على اسم الحديد من بين الهدايا التي كان يقدمها ملوك هذه الجهات . وأقدم تاريخ عثرنا عليه لصناعة الحديد في مصر يرجع إلى القرن السادس قبل الميلاد ، وذلك عند ما كشف « بترى » معملا لصهر الحديد في قراش⁽¹⁾ الواقعة في الشمال الغربي من الدلتا . غير أننا لا نعرف من أين أتى بخاماته .

ومن جهة أخرى نعرف أن خامات الحديد قد استخرجت قديما من الصحراء الشرقية ، وبالتقرب من أسوان ، ويحتمل أن المكان الأول

(1) Petrie, Naukratis p. 39.

قد استعمل في عهد الرومان ، وأهم سبب في تعرف الإنسان على النحاس قبل الحديد رغم كثرة خامات الحديد عن خامات النحاس ، أن الأخير يمكن طرده باردا أما الحديد فلا يمكن طرده إلا بعد أن يحمى بدرجة عظيمة .

الرصاص : وجد هذا المعدن في مصر منذ عصر ما قبل الأسرات والسبب في ذلك يرجع إلى أن خامات هذا المعدن توجد في مصر منها الجليئة (فاز الرصاص) ، وتظهر بشكل معدنى يسترعى النظر هذا إلى أن هذا المعدن يمكن الحصول عليه بسهولة من خاماته .

وأهم الأماكن التي توجد فيها خامات الرصاص هي جبل الرصاص (1) الواقع على مسافة سبعين ميلا جنوب القصير . على أنه توجد رواسب منه في أماكن أخرى مثل رنجما على ساحل البحر الأحمر ، ومنطقة سفاجا بالقرب من البحر الأحمر ، وكذلك يوجد بالقرب من أسوان (2) .

وأهم خامات للرصاص هي الجليئة التي كانت تستعمل في مصر قديما لتكحيل العين منذ عصر ما قبل الأسرات حتى العهد القبطي ، وكان الرصاص يستعمل لأغراض شتى فصنعت منه تماثيل صغيرة للأتسان ، والحيوان (3) ومثقلات لشباك صيد السمك ، وخواتم ، وحلى ، ونماذج أطباق ، وصوان وسدادات . وأحيانا كان يستعمل لعمل الأواني وغير ذلك . ولا نزاع في أن معظم الرصاص الذي كان يستعمل في مصر حتى عهد الأسرة

(1) Mines & Quarries Dep, Report on the Mineral Industry of Egypt, 1922 p. 24. (2) Hume, Explan. notes to the Geol. Map. of Egypt. p. 38-9. (3) Petrie, Prehist. Egypt. p. 27 & Petrie, Objects of daily use, p. 49.

الثامنة عشرة كان يستخرج من مصر وليس هناك ما يدل على أنه كان يجلب من سوريا حتى عهد الفتوح المصرية في آسيا ، إذ تدل الوثائق على أنه كان يجلب من « زاهى » ، و « رتنو » ، و « إيسى » (1) ، ويظهر أن الأخيرة ليست قبرص بل هى إقليم واقع فى شمال سواحل سوريا ، وذلك لأن خامات الرصاص لا وجود لها فى قبرص .

الفضة : كانت الفضة نادرة فى مصر منذ أقدم العصور وكل ما عثر عليه هو بعض نماذج يرجع عهدها إلى عصر مدينة نقادة من عهد ما قبل التاريخ ، فقد كشف عن غطاء إناء صغير وملقطة صغيرة بمقبض مجدول (2) وكذلك عثر على آثار من الفضة فى مقبرة الملك « سمرخت » . وفى مقبرة الملكة « حتب حرس » (3) نجد أن الأدوات المصنوعة من الفضة كانت نادرة جدا بالنسبة للأدوات التى صيغت من الذهب ولذلك كانت تعد أنفس منها وأعلى قيمة ، إذ نشاهد أن الذهب كان يستعمل بسخاء لتذهيب الأثاث ، ولعمل أطباق صغيرة وأقداح للشرب وسكاكين وأمواس ، على حين أنه لم يصنع من الفضة إلا ٢٥ حجلا مرصعة بالفيروز واللآزورد والعقيق . وترى فى ظاهرها كأنها قطع صماء ولكنها فى الواقع مفرغة . يضاف إلى ذلك أنه حتى فى مقبرة « توت عنخ آمون » أى بعد عصر « حتب حرس » بنحو ١٥٠٠ سنة نجد أن الذهب لم يستعمل فى أثاثه إلا بمقدار طفيف . فمن ذلك نرى أن الفضة كانت مادة نادرة حتى عهد

(1) Br. A. R. II, 460, 462, 471, 491, 509, 494. 521.

(2) Petrie, Metals in Egypt. p. 16, Prehistoric Egypt, p.p. 27 & 43.

(3) G. A. Reisner, Tomb of Queen Hetep-Heres in Bull. Mus. Arts, Boston, 1917, XXV.

الأسرة الثامنة عشرة ولكن يظهر بعد ذلك أنها استعملت بعض الشيء وبخاصة أن الكشف الحديثة من عهد الأسرة الثانية والعشرين برهنت على أن بعض الفراعنة كانوا يصنعون توابيتهم من هذا المعدن . ولكن كثر استعماله في عهد البطالسة .

ولم يعثر على معدن الفضة في مصر حتى الآن لا في حالته الطبيعية ولا في حالته المعدنية . والفضة الطبيعية تكون تقريباً نقية ، وتوجد بكيات صغيرة في حالة متبلورة كالأبر والخیوط ، وكذلك توجد نادراً على شكل شذور وألواح رقيقة ، وتوجد الفضة في كل نوع من الذهب وتكون أحياناً بكية عظيمة . وأهم خامات الفضة هي كبريتات الفضة ، وتوجد وحدها أو مختلطة بكبريتات إلأئد أو الزرنيخ وكلورور الفضة . ومن هذه الخامات يستخرج نحو $\frac{1}{3}$ من محصول فضة العالم . أما الثتان الباقيان فيحصل عليهما من خامات الرصاص ، والزنك ، والنحاس وهي تحتوى على نسبة قليلة جداً من الفضة .

والذهب المصرى يحتوى في العادة على نسبة كبيرة من الفضة بين ١٠٪ و ٢٣٪ وهذه النسبة هي التي وجدت في الذهب المصرى المستخرج حديثاً ، وكذلك وجدت نسبة عظيمة من الفضة في الذهب الذى عثر عليه في الكشف الأثرية .

ويقول الأستاذ بترى^(١) إن الفضة التي استعملت في مصر منذ عهد ما قبل الأسرات يحتمل أنها جلبت من سوريا وهذا هو السبب في

(1) Petrie, Metals in Egypt, p. 16 & Prehistoric Egypt, p. 27.

ندورة استعمالها ويعزز هذا الرأى الوثائق التى وصلتنا من الأسرة الثامنة عشرة وهى عصر الفتوح العظيمة فى آسيا . فلا يبعد إذن أن السفن التى كانت تمخر عباب البحر قاصدة سواحل فنيقية فى العهد المنفى لتحضر الخشب اللبنانى كانت تحمل معها أيضاً الفضة . غير أن « لوكاس »⁽¹⁾ يقول إن هذا المعدن مستخرج من مصر نفسها حتى عهد الأسرة الثامنة عشرة وهذا هو السر فى أننا نجد الوثائق القديمة صامتة عن أصل مصدر الفضة حتى هذا العهد ، ومن ثم ذكرت لنا أنها كانت تجلب إلى مصر من آشور وبلاد الخيتا والنهرين وبلاد « الرتنو » ، و « زاهى » (سوريا) وكل هذه الأقاليم فى آسيا . وفى عهد الأسرة ١٩ كانت الفضة تجلب من أرض الإله (بنت) وبلاد الخيتا والنهرين وكذلك من لوبيا الواقعة فى الشمال الغربى لمصر . وفى اعتقاد « لوكاس » أنه لا شك فى أنه كان يوجد فى مصر وفى آسيا سبائك من الذهب والفضة تشبه فى طبيعتها معدن الأكلتروم وهذه السبائك كانت كمية الفضة فيها عظيمة مما أكسبها لون الفضة الأبيض ، وأن هذه السبائك كانت هى الفضة القديمة وقد سماها المصريون « الذهب الأبيض » . والظاهر أن هذا القول يقرب من الحقيقة ، إذ نجد أن كل الفضة التى عثر عليها فى مصر قديماً تحتوى على نسبة عظيمة من الذهب تبلغ أحياناً ١ ر ٣٨ ٪.

وقد عرف المصريون تفضيض النحاس بورق من الفضة إذ عثر « برنتن » على إبريق من النحاس عليه طبقة رقيقة من الفضة يرجع تاريخه

(1) Lucas, Ancient Eg. Materials p. 204 sq.

إلى عهد الأسرة الثانية (1)

وأهم إستعمال للفضة قديماً كان لصنع الخرز ، والمجوهرات ، والأقذاح والأواني . وكانت تطرق كالذهب الى ورق رفيع وتستعمل لتغطية الخشب كما يشاهد في أحد توابيت « يويا » من الأسرة الثامنة عشرة وقد عثر على مثال واحد لاستعمال الفضة للحام النحاس (2) .

القصدير : إن تاريخ كشف القصدير في مصر غامض جدا وكذلك لا نعرف على وجه التحقيق أى المعدنين استعمل أولاً: البرنز أم القصدير ولكن المحتمل جدا أن البرنز قد استعمل قبل اعتبار القصدير معدنا منفردا وهو في ذلك كالنحاس الأصفر (مزيج من النحاس الأحمر والزنك) الذى كان معروفا قبل الزنك . وعلى أية حال فإن أهم استعمال للقصدير في مصر كان لعمل البرنز .

ورغم أن خام القصدير لا يوجد في مصر ، فإن أقدم استعمال لهذا المعدن كان في وادى النيل . فأول شيء معروف في العالم صنع من القصدير على ما نعلم خاتم (3) وزمزية ماء عثر عليهما في المقابر المصرية من عهد الأسرة الثامنة عشرة (١٥٨٠ - ١٣٥٠ ق . م) .

وقد كان القصدير يستعمل في مصر بمقدار قليل منذ عهد الأسرة الثامنة عشرة وما بعدها لتبييض الزجاج (4) . وقد عثر على هذا المعدن

(1) Brunton, Qua & Badari, I, 67 pl. XVIII (10)

(2) Lucas, Ancient Eg. Materials, p. 173. (3) Flinders Petrie, The Arts & Crafts of Ancient Egypt. 1910 p. 104. (4) E. R. Ayrton C. T. Currelly & A. E. P. Weigall, Abydos 14, p. 50. Neumann and G. Katyga Z. für Angew Chem. 1925 p.p. 776-80, 857-64. & H. D. Parodi, La Verrerie en Egypte p.p. 34, 45.

في مقبرة «توت عنخ آمون»^(١). وأقدم إشارة لمعدن القصدير في النقوش المصرية جاءت في ورقة هرس التي يرجع عهدها إلى الأسرة العشرين^(٢). غير أن معنى الكلمة التي ترجمت بالقصدير مشكوك فيه.

وقد اختلف العلماء في مصدر القصدير الذي كان يستعمل في مصر فطائفة تقول إن مصدره أوروبا وأخرى تقول إفريقية وطائفة ثالثة تجعل مصدره آسيا . ولكن البحوث التي عملت تدل حتى الآن على أن كلا من معدني القصدير والبرنز كان يجلب من غربي آسيا وأنها كانا يستخرجان من الشمال الشرقي من بلاد الفرس حيث يوجدان بكثرة^(٣). وقد كتب « وبنرايت » مقالا دلى فيه على أن مصدر القصدير المصرى من مكان بالقرب من الشمال الغربى من بلدة بروت الحالية^(٤) .

الشب : إن أول إشارة إلى وجود الشب في مصر قد جاءت على لسان «هردوت» عندما ذكر أن الملك أمازيس^(٥) (٥٦٩ - ٥٢٦ ق . م) قد أرسل كمية منها لبلاد اليونان عند إعادة بناء معبد دلفى وسماه مادة قابضة (الشب) وكذلك ذكر هذا المعدن الكاتب الرومانى « بلينى » فى القرن الأول المسيحى . فقال إن من أهم مصادر الشب مصر^(٦) . ويوجد الشب فى الواحة الداخلة والواحة الخارجة .

وقد جاء ذكر استخراج الشب فى كتب المحدثين كالمقرئزى^(٧)

-
- (1) Lucas, Appendix II Carter, The Tomb of Tut-Ankh-Amen III p.p. 176-7. (2) Br. A. R. IV, p.p. 245, 302, 385, 929.
(3) Lucas, Notes on the Early History of tin & bronze, in J. E. A. XIV 1928 p.p. 100-101. (4) Wainwright, in J. E. A. XX 1934, p.p. 29-32. (5) H. II, 180. (6) Pliny, XXXV, 32.
(7) Meqrissi, Descrip. topog. II et Hist. de l'Egypte darrs Mem. Mission Arch. au Caire, 1900, p.p. 17, 691, 697, 698.

الذى يقول أنه كان يرسل إلى مصر من الواحات نحو ١٠٠٠ قطار من الشب، وكذلك يوجد على مسافة من الجنوب الغربى من الشلالات على مسيره عشرة أيام فى الصحراء، وكانت الكمية المستخرجة تكون جزءاً من دخل البلاد كما ذكر ذلك « هملتون » فى سنة ١٨٠٩ (١) . وأهم استعمال لها الآن هو تثبيت الألوان .

النطرون : توجد هذه المادة الآن فى ثلاث جهات من القطر المصرى وهى وادى النطرون ومديرية البحيرة وجهة الكاب فى الوجه القبلى . وقد ذكر القلقشندى الكاتب المصرى الذى عاش فى القرن الخامس عشر مكانين آخرين يستخرج منهما النطرون أحدهما بالقرب من بهنسا فى الوجه القبلى وكان يستغل فى عهد احمد بن طولون (٨٣٥ - ٨٨٤) م والثانى فى مركز فاقوس . على أن أهم مكان كان يستعمله قدماء المصريين هو وادى النطرون وماجاوره من مديرية البحيرة وبخاصة بالقرب من دمنهور . وقد كان النطرون يستعمل فى مصر قديماً فى احتفالات التطهير (٢) وبخاصة لتطهير الفم (٣) ولعمل البخور ، ولصناعة الزجاج ، والطلاء ، وفى الطهو (٤) ، إذ يقول « بلىنى » أن المصريين كانوا يستعملون النطرون فى طبخ الفجل ، وكذلك كان يستعمل فى الطب وفى التحنيط (٥) .

(١) W. Hamilton, *Ægyptiaca*, Remarks on several parts of Turkey, Part I, p. 428.

(٢) Br. A. R. IV, 865. A. M. Blackman, Some notes on the Ancient Egyptian Practice of Washing the Dead, in *J. E. A.* X, 1918 p.p. 118-20. (٣) Blackman, The House of Morning in *J. E. A.* V (1918) p. 156-7, 159, 161-3.

(٤) Pliny, XXXI. (٥) Breasted, The Edwin Smith Surgical Papyrus I, p.p. 412, 491.

الشنون الاجتماعية

نظام العمل وقانون العمال في عهد الدولة القديمة

الأعمال الحكومية .

يمكن تقسيم العمل في عهد الدولة القديمة إلى ثلاثة أنواع . وهي الأعمال الحكومية أو الأعمال الحرة كالخرف والصناعات ، ثم أعمال أصحاب الضياع العظيمة . وسنتكلم عن كل منها حسب ما لدينا من المعلومات . كانت الأعمال العظيمة التي تتطلب مجهودا كبيرا ومصاريف باهظة تقوم بها الحكومة بل أصبحت تحتكرها .

وأهم هذه الأعمال استغلال المناجم النحاس ، والذهب . وكانت الحكومة وحدها هي التي تشرف على هذه المناجم وتصريف الأعمال فيها على أكمل وجه . فكانت تجهز طوائف من العمال المختصين تحت إشراف رؤساء عمال ومفتشين ، وتعد الأساطيل والقوافل لنقل العمال وما يلزمهم من آلات ومهام . وقد كان لها إدارة خاصة لتزويد العمال ، وحامية من الجنود لحماية الطرق والمناجم من هجمات القبائل التي كانت تغير على بقاع المناجم في الصحراء .

وكذلك كانت الحكومة منفردة باستغلال المحاجر التي كانت تستوجب بطبيعة الحال انخراط عدد عظيم من الأيدي العاملة فيها ، واستعمال مهمات عظيمة من كل الأنواع . وذلك لأنها كما نعلم كانت الأساس الأول لأقامة المباني الضخمة التي بدأت تظهر بشكل جلي في عهد الملك « زوسر » .

فأقيمت الأهرام الملكية ومقابر المقربين ، ومعابد الآلهة ، ومعابد الشمس
بما كان يستلزم استخراج الأحجار من كل الأنواع ، ويتعذر على
عظماء البلاد القيام به .

وتدل كل النقوش من أقدم العهود والتواريخ الملكية وكل الوثائق
المكتوبة على أن الملك كان المحتكر لاستخراج المعادن والأحجار .
وقد كان لإقامة المباني بالأحجار شأن عظيم منذ بداية الأسرة
الثالثة ، ولا أدل على ذلك من أن المهندس المعماري الملكي (مدح نيسوت)
كانت له أهمية ممتازة في إدارة البلاد . فقد كان « إمحوتب » مستشار الملك
« زوسر » يحمل لقب مهندس معماري (1) ملكي وكذلك كان كل
المهندسين المعماريين الملكيين الذين خلفوا « إمحوتب » من كبار الشخصيات
في عهد الأسرة الثالثة نجد « نزم عنخ » وكان يحمل لقب نائب
الملك في « نخن » (2) ، « وحسى » ويحمل لقب (أحد أعضاء مجلس
العشرة العظيم) (3) ، وفي عهد الأسرة الرابعة كان يحمل هذا اللقب
« حميون » وهو أحد أحفاد الملك (4) . وفي عهد الأسرة الخامسة حمل
نفس اللقب « سنزم إيب » وكان في الوقت نفسه وزيرا (5) .

وهذا المهندس المعماري كان رئيسا لجيش من قاطعي الأحجار والمعماريين
والحفارين ، والمثالين ، وكان كل ذلك يحتاج إلى إدارة تستوجب وجود

(1) Inscribed Statue of King Zoser, in Ann. Ser. A. 1926 p.p. 192 sq. (2) Garstang, Mahasna, pl. XXVI, 7. (3) Weill, Origines, p. 233. (4) Junker, Giza I, p. 150.
(5) Pirenne, Institutions, t.II, Index No. 37.

عدد عظيم من الكتبة وإدارة منظمة ذات أقلام ومصالح (1) ؛ ولا أدل على ذلك من الألقاب التي يحملها الموظفون أو الكاتب الممارى الملكى والمشرف على الوثائق . ونجد البنائين خاضعين لأوامر مديرين (إمراكدو) عليهم ويساعدهم فى ذلك رؤساء بنائين (سحر كدو) (2) . وقد ترك لنا الذين أقاموا المباني العظيمة فى عهد الأسرتين الرابعة والخامسة علامات تدل على قطع الأحجار فى طرة وتكشف لنا بعض الشئ عن نظام العمل فى عهد « خفرع » (3) ومنكاورع وسحورع ونوسرع . وقد كان العمال يقسمون إلى فرق « عبرو » ثم الى زمر (سا) وقد كانت القطع التى تفصل من الصخر تحمل طابع المعمل الذى قطعها فى الحجر (4).

وقد عثر فى منطقة الأهرام نفسها على مساكن للعمال الذين كانوا يقومون بالبناء . وهى قاعات ضيقة طويلة ، أو بعبارة أخرى دهاليز يبلغ عددها نحو المائة كل منها يأوى نحو خمسين عاملا (5).

ومن ذلك يتضح أن الأعمال فى مشاريع الحكومة كانت منظمة على طريقة حرية والواقع أن لفظة « عبرو » ولفظة « سا » من الكلمات الحرية . وقد ذكر لنا « هردوت » أن بناء هرم « خوفو » استلزم جيوشا من عمال المحاجر لقطع الأحجار من جبال صحراء العرب ، ثم جرها الى النيل ،

(1) Weill, Origines, p.p. 232, 235. (2) Junker, Giza I, p. 150.
(3) Reisner, Mycérianus, app. E. p. 273-277; Chronique d'Egypte, No. 16, 1933 p. 240-2; Petrie, Meidum and Memphis, III, p. 9; Borchardt, Sahure, t. I, p.p. 85 sq.; Neferirkare, p.p. 45 sq.; Neuserre, p. 146. (4) Chronique d'Egypt, p.p. 45 sq.; Neuserre, p. 146. (5) Holscher, Das Grabdenkmal des Königs Chephren, p.p. 36, 70; Junker, Giza I, p. 124-125.

ووضعها في سفن لعبور النهر ، ثم نقلها الى قمة هضبة الجيزة . وفي هذه الجهة كان يشتغل ١٠٠.٠٠٠ عامل يعملون بالتناوب كل ثلاثة أشهر وقد استمر العمل عدة أعوام في بناء الطريق المأتمى من معبد الوادى إلى الجنازى وعشرين سنة لبناء الهرم نفسه (١)

ويظن المؤرخ الأغرقي أن هذا البناء الضخم قام على أساس الاستبداد الفرعونى وأثرة « خوفو » التى بلغت مبلغا عظيما . والقسوة المنقطعة النظير التى استعملها الفراغة فى استعباد الشعب لأقامة مدفن لهم هائل .

والواقع أنه إذا كانت المقابر العظيمة التى أقامها الفراغة تثقل المجهودات التى بذلتها آلاف النفوس البشرية ، وإذا كان كل ملك أعاد هذا المجهود الجبار ؛ وإذا كنا لم نر أية معارضة ملموسة للآلام التى لاحد لها التى قاساها العمال ؛ فإن ذلك برهان كاف على أن الأهرام ليست بأية حال من الأحوال رمزا للعبودية « والقسوة » بل رمزا للطاعة الإلهية يعملها الفرد وهو يشعر بأنه يؤدى واجبا مقدسا للإله الفرعون على الأرض (٢) ويجب هنا ألا نحكم بأفكارنا الحالية إذ الواقع أن بناء هرم أو معبد للشمس عمل من أعمال الحكومة ، ومشروع من المشروعات الأصلية الهامة فى حياة الدولة . ولأجل أن نفهم كنه هذا العمل لابد أن نعرف معتقدات القوم الدينية فى العهد المنفى ، وكذلك مهارتهم فى البناء واعتقادهم فى طبيعة الفرعون الإلهية ومقدار مهارتهم فى تنظيم العمل .

والواقع أن صبغة الفرعون الاستبدادية كانت مؤسسة على طبيعته

(1) Herodote, II, p. 124-125. (2) Jéquier, Hist. Civ. Eg. p. 163; Meyer, Histoire de l'Ant. t. II, p. 221.

الإلهية وقد برزت هذه الظاهرة في قوته السياسية والإدارية . وذلك أن الأسرار الأوزيرية وديانة عين شمس كانتا الأساس الذى ينبى عليه معتقدات القوم ، ومنهما نشأت نسبة الملك إلى أصل إلهى وأبديته حسب عمله الديوى ، فلم يكتف الملك بأن تكون له شعائر دينية تقام له فى مدة حياته ، بل كان يعمل كذلك لحفظ جثائه المادى بإقامة مقبرة على غرار الآلهة . فكان الفرعون يعتقد أن جسمه الذى لا يلى سيقى ساهرا على أقدار مصر من أعماق هرمه فكانت إقامة شعائره لا تنقطع وكانت تحبس الأوقاف لتكون ضمانا أبديا لاستمرار تقديم القران له .

المصانع الحكومية . وخلافا للمناجم والحاجر الحكومية ، كان للملك عدة مصانع تصنع فيها محاصيل الصياغ ، والضرائب التى كانت توردها خامات . فنجد العصر الطينى نرى على الآثار أن الذهب والنحاس كانا يصنعان بواسطة صياغ يعملون برقابة رؤساء قد ذكرت وظائفهم على جدران كثير من المقابر مثال ذلك رئيس صياغ البيت الملكى « خرب نبو برعا » وقد عثر على هذا اللقب فى مقابر الملوك « دن » ، و « مربابن » ، و « قع » ، و « حتب سخموى » و « نبرع » (1).

وقد كان هؤلاء الصياغ والجوهريون ، يصنعون مجوهرات الأسرة المالكة وكذلك يصنعون عدة أشياء من الكماليات ، كان يقدمها الفرعون إلى المقربين له ورجال قصره . هذا إلى أنواع التبيذ المختارة ، والمنسوجات

(1) Weill, Origines, p.p. 154, 157-159.

الكتانية الدقيقة ، وورق المحفوظات والأثاث المرصع والمطعم ، وأنواع الزيوت والعمود ، والأواني الفاخرة المصنوعة من الأحجار الصلبة الجميلة ، والأواني الخزفية المطلية ، كل هذه الأشياء وغيرها كانت تخرجها الأيدي الماهرة التي كانت تعمل في المصانع الملكية . وتدلتنا الألقاب التي نجدها على مختلف الآثار على وجود نظام وإدارة مرتبة لحسن سير هذه الأعمال . مثال ذلك أننا نجد من الأسر الأولى ألقاباً هامة كرئيس إدارة المال « خرب حمت إس » (1) ورئيس الخبازين ، « خرب رتم » ورئيس صناعات الحلوى « خرب بنر » ومدير مصنع الطحن (2) « إمرأ بر إنز » ومدير صناعات احتفال (3) الملك ومدير المرطبات (4) . والمشرف على الفطور « إرى خت ان سنى » (5) . وكبير صياغ القصر « إمى خت اموى بر عا » (6) .

قانون العمال الملكيين

تدل النقوش على أنه كان للعمال نظام غاية في الدقة قائم في البلاد منذ فجر التاريخ ولدينا من الألقاب ما يشير بقيام هذا النظام ، وأن هؤلاء العمال كانت تدون أسماؤهم في سجلات خاصة فقد ذكر لنا « بترى » أنه كان للعمال المدونة أسماؤهم مراقب خاص (7)

-
- (1) Weill, Origines, p.p. 238 sq. (2) Pirenne, Institutions t. I, Index III No. 42; Maspero, Carrière administrative dans Journ. Asia. t. XV, 1890 p.p. 405 sq. (3) Mariette, Mastabas, p.100. (4) Borchardt, Sahure, p.p. 89. (5) Mariette, Mastabas, p. 322. (6) Pirenne, t. III, & Index No. 66. (7) Ancient Egypt, 1926, p. 74.

وقد كان هؤلاء العمال مقسمين إلى فرق صغيرة ، أو جماعات كبيرة ، أو هيئات صناعية والظاهر أن أسرى الحرب كانوا يخصصون لأشق الأعمال في المناجم أو في ضياع الحكومة أو المصانع الملكية . وهؤلاء بلا نزاع لم يكن لهم أية حقوق بل كان سيدهم له الحق في التصرف فيهم كيف شاء ويقومون له بأى عمل يريد ، على أنهم في مقابل ذلك لا يأخذون إلا مايسد رمقهم . وعلى أية حال فإن ما قام به أسرى الحروب من الأعمال لم يكن إلا ثانويا . وعند الحاجة كان يطلب الجنود للأعمال الهامة وبخاصة إذا علمنا أن الحروب في هذه الأوقات كانت قليلة ولذلك كانت تستخدم الجنود في الأعمال الحكومية وقد ذكرنا فيما سبق أن الجنود كانوا يرافقون البعث التي كانت ترسل إلى مناجم سيناء . وقد عثرنا على بردية من عهد الأسرة السادسة علمنا منها أن الجنود كانوا يشتغلون في قطع الأحجار من طرة (١)

ورغم كل ذلك فإنه لم يكن في استطاعة الجيش والأسرى العبيد أن يكونوا النواة الحقيقية لطائفة الصناع الذين كانوا يشتغلون في المصانع والمعامل الحكومية ، وبخاصة في الأعمال التي كانت تحتاج إلى مران ومهارة فنية ؛ ولا بد إذن من أن نبحث عن هؤلاء الصناع والعمال في الطبقة التي تعلمت الحرف والصناعات الدقيقة وكانوا يقومون بهذه الأعمال سخرة ، لأنهم كانوا عبيدا تابعين لأعظم القوم ، أو بأجر لأنهم كانوا أحرارا يشتغلون بمقود تكتب يدهم وبين صاحب العمل . وربما كان الرأي الأخير هو الذى يمكننا

(1) Gunn, A sixth dynasty letter from Saqqara, in An. Serv. A. t. XXV, 1925, p.p. 242.

أن نسلم به وبخاصة إذا علمنا أن في مراسيم دهشور وقف ما يوجب على الأهالى تأدية التزامين للحكومة وهما الضرائب وأعمال السخرة .
والواقع أن حياة البلاد الزراعية كانت تتطلب تنظيم المياه والجسور وكذلك كان على الفلاحين أن يدخلوا المحاصيل فى مخازن الحكومة ، فكانت كل هذه الأعمال تسخر فيها السكان . على أننا من جهة أخرى لم تصادفنا أية وثيقة للآن فيها أن أى عمل صناعى كان مفروضا على صناع معمل ما . هذا إلى أن نظام التأجير لم يدخل فى هذا الباب ، وذلك فضلا عن أنه ليس لدينا أية إشارة تنبئ بذلك ، ولكنه من الصعب أن يتصور الإنسان أن العامل يرضى بأن يكون (تمليا) كالفلاح الذى كان منذ الأسرة الثالثة بل وقبلها يتمتع بالحرية الشخصية ، فكان فى قدرته أن يتعاقد مع التجار أو مع أصحاب الضياع لاستثمار الأراضى . والواقع أن المدن كانت تحوى بين جدرانها طبقة من العمال اليدويين لهم حقوقهم الخاصة ، وكان يجند من بينهم العمال المليون . ولدينا ثلاث وثائق تثبت أن هذه الطبقة من العمال كان أفرادها أحرارا وليسوا عبيدا . الوثيقة الأولى يرجع عهدها إلى عهد الملك « خفرع » وهى عقد بيع عقار يظهر فيه أن شخصا يدعى « محى » وصناعته عامل فى الجبانة ، كان من حقه أن يوقع شاهدا مع كهنته على عقد البيع (1) .
مما يدل على أنه كان متمتعاً بكل حقوقه المدنية . وحوالى هذه الفترة أمر الملك « منكاورع » ببناء قبر للمقرب « دبجن » وقد خصص

(1) Sottas, Etude critique sur un acte de vente immobilière du temps des Pyramides, Paris 1913, p.p. 5-21.

لهذا العمل خمسين رجلا وأمر جلالة بالألا يسخر واحد منهم بل يشتغل فيه برضائه . أما الوثيقة الثالثة فيرجع عهدها إلى عصر الملك « نوسرع » : وهى وصية العظيم « وب إم نفرت » رئيس القصر الملكى لابنه الأكبر « إبنى » ليشرف على وقف مقبرته . وقد جاء فى ذيل هذه الوصية رسم خمسة عشرة شاهدا كل باسمه وصناعته . فنجد من بينهم رئيس البنائين ، والصانع ، والحفار والنقاش (1) .

وهذا مما يدل دلالة واضحة على أن أصحاب الحرف والصناعات كانوا طوائف أحرارا ليسوا تابعين لفرد معين ولا للحكومة . على أن هناك من علماء الآثار من يعتقد بأن سكان الضياع الملكية كانوا يقدمون للمصانع الملكية أصحاب الحرف الذين كانوا يعملون فى هذه المصانع هذا فضلا عن الأيدى التى كانت تشتغل فى الزراعة . وهذا لا يتفق مع الواقع كما ذكرنا (2) . والحقيقة أن أصحاب الحرف كانوا شرعا رجلا أحرارا وكان فى مقدورهم أن يتعاقدوا مع أى رئيس عمل ، اى يعملون لحسابهم الخاص مستقلين . والنقوش التى تظهر لنا كل يوم من جوف أرض مصر تؤكد لنا هذه النظرية ففى مقبرة « رمنوكا » كاهن الملك « منكاورع » تقول لنا النقوش : لقد أقمت عدا القبر مقابل الخبز والجمعة التى أعطيتها كل الصناع الذين أقاموا هذا القبر . تأمل حقا لقد أعطيتهم أجورا عالية من الكتان الذى طلبوه وشكروا الله على ذلك ، (3) وفى عهد الملك « نوسرع » نجد فى نقوش « اخت حرى حتب »

(1) Excavations at Giza, Vol. II, p. 191. (2) Moret, Histoire de l'Orient, p. 218. (3) Excavations at Giza, II, p. 169.

أحد رجال القضاء وكاهن معبد الملك ما يثبت ما ذكرناه إذ يقول على نقوش قبره : إن كل الذين عملوا في مقبرته . صنعوا ذلك في مقابل الخبز والجمعة والمنسوجات والزيت والجبن بكمية عظيمة . (1)

وكذلك ترك لنا « إنتى » أمير المقاطعة في دشاشة نقوشا قال فيها : إن كل رجل عمل في هذا « القبر » لى لم يكن غير راض ، اما من جهة العمال وفعلة الجبانة ، فانى قد أرضيتهم (2) .

ولا يفوتنا أن نذكر هنا ما قاله الكاهن الملكى في مقبرته بالجيزة « لقد جعلت المثال ينحت هذا التمثال ، على شرط أنى جعلته مرتاحا للمأجر الذى أعطيته مقابل عمله (3) .

وفى هذا برهان واضح على أن الأغنياء كانوا يكلفون أصحاب الحرف بالقيام لهم بأعمال خاصة يؤجرونهم عليها . على أن نفس دفاع صاحب العمل عن نفسه سواء أكان بحق أم بغير حق ، بأنه لم يسخر أحدا للقيام له بعمل ، فيه ما يشعر بكل وضوح بأن العامل كان له حقوق من جهة عمله يتمتع بها وتحفظه من ظلم ينزل به .

ومما يؤسف له جد الأسف أنه لم تصل إلينا وثيقة حتى الآن نفهم منها أن أحد الصناع كان له مصنع خاص يعمل لحسابه ، ولا نزاع فى أن مثل هؤلاء كانوا موجودين فى المدن العظيمة ، ولكن لم يصلنا شئ عنهم وربما كان أهم سبب لذلك أنهم لم يكونوا من طبقة (المقربين) فيمنحون مقابر وينقشون عليها كل مفاخرهم وأعمالهم بل كانوا يدفنون

(1) Seth, Urk. t. I, p. 49.

Institutions, vol. I, p. 322.

(2) Sethe, Urk. I, p. 70; Pirenne

(3) Kees, Ægypten, p. 164

في مقابر حقيرة ، وهكذا توارث عنا صفحة مجيدة عن حياة القوم الاجتماعية من طبقة أصحاب الحرف والصنائع في عهد الدولة القديمة . ومع ذلك فإن ذلك لا يمنعنا من أن نعتقد أن أصحاب الحرف كانوا يعملون لحسابهم الخاص ما دنا قد وصلنا إلى أنهم كانوا رجالا أحرارا يتمتعون بحقوقهم اللهم إلا إذا فرضنا أن الحكومة كانت تحتكر كل هذه الأعمال ، ولكن ليس لدينا من الأدلة ما يعزز هذا الفرض يضاف إلى ذلك أن مدن عصر ما قبل الأسرات في الوجه البحري كانت مدنا حرة تجارية وكان يطلق على سكانها اسم « رخيت » (سكان المدن) ويحكم كلا منها جماعة من العظماء عددهم عشرة وقد كان الملك يقوم بإخضاع ثورتهم من حين إلى آخر . وليس لدينا من الوثائق ما يشير إلى أن مدن الدلتا الصناعة كانت في يوم من الأيام محرومة حقوقها الاقتصادية بل على العكس نقرأ في معبد الشمس للملك « سحورع » أن أحد الآلهة يقول للملك : لقد جمعت لك قلوب « الرخيت » (سكان المدن) (1) .

وكذلك نرى في متون الأهرام أن « يبي الثاني » يقول إنه « أرضى الرخيت » (2) .

والظاهر كما ذكرنا أن تقدير قيمة الضرائب بالذهب كان منتشرا في عهد الدولة القديمة إذ نرى في تاريخ حجر بلم أن قيد الحسابات الموسمية كان يعمل على أساس الذهب ومنتجات الحقول منذ العصر الطيني . وهذا الإجراء كان بلا نزاع موجودا بوجه خاص في المدن ، ولم يكن قاصرا على

(1) Borchardt, Grabdenkmal des Königs Sahure, p. 80. (2) I ramiden textes, 1068.

الموظفين بل كان يجبي على أكثر الإنتاج الصناعي والتجاري في البلاد الصناعية والتجارية . ويقول « ادوارد مير » عند كلامه على العهد الطيني أن هذا النظام كان يوجد في المدن التي فيها صناع وتجار أحرار وهم الذين كانت ثروتهم خاضعة لجباية الضرائب بالدفع ذهابا (1) .

وقد جاء في تعاليم « فتاح حتب » ما يأتي : كان الفقير والغني في المدن على قدم المساواة في الحقوق ، فإن الفقير كان في إمكانه أن يصبح غنيا بنفسه ، ولا يمكن أن ينسب ذلك طبعا إلى أعمال الفلاحة (2) . ومن كل هذه المعلومات المختلفة يمكننا أن نستنتج أنه كان يوجد في البلاد طبقة من صغار العمال والصناع الأحرار يشتغلون للحكومة ، وللعابد ولكبار الملاك ، وكذلك كان يوجد معهم رؤساء صناع وحرف ، يعملون بكل حرية واستقلال في مصانعهم الخاصة وحوانيتهم ومعاملهم في المدن ويعزز هذا الرأي أنه في عهد الأسرتين الثالثة والرابعة كانت الملكيات الصغيرة ونظام الفردية منتشرين في البلاد ، ولم تكن طبقة الأشراف التي ابتلعت ثروة البلاد واستحوذت عليها قد تم تكوينها .

ومنذ بداية الأسرة الخامسة أخذ ينتشر في البلاد نظام اقتصادي جديد وأعني بذلك صناعات الضياع التي نشأت في البلاد . وقد كان سبب ظهور هذا النظام تكوين طبقة كبيرة في البلاد تسيطر على ضياع شاسعة في مختلف الجهات . وقد تكلمنا فيما سبق عن كيفية ظهور طبقة الأشراف الممولين في البلاد . ففي العصر الهدي كانت فيه

(1) E. Meyer, Histoire de l'Antiquité, t. II, p. 173.

(2) Jéquier, Le pap. Prisse et ses variantes, Paris, (Geuthner), 1911.

تقسم الأملاك العقارية بدون انقطاع وتنقل من يد لأخرى بسرعة بالبيع أو بالقسمة ، أو بتنفيذ وصية ، لم يكن هناك مجال لوجود صناعات ريفية ذات أهمية . فلم يكن للصناعات نصيب خارج المدن التي نشأت وترعرعت فيها لأن سكانها يشترون معظم منتجاتها . على أن نفس الحالة لم تتغير منذ أخذ نظام الأسرة يتغير وأصبح عقارها متجمعا في يد الابن الأكبر بصفته المشرف العام على أفراد الأسرة كلها . وقد أصبح كل مالك في ضيعته سيدا مطلقا التصرف ، وقد كان حوله أقاربه وأصدقاؤه ومحاسبيه ، وكتّابه ، وخدامه وزرّاعه وهؤلاء جميعا بدءوا يفقدون شيئا من حريتهم . حقا أن ما تنتجه الضياع كان يغذى هذا المجتمع ، ولكن من جهة أخرى كان لابد من وجود أيد عاملة باستمرار مكلفة بصناعة المواد الأولية التي كانت حتى هذا الوقت تقوم بصناعتها على وجه عام مصانع المدن . وقد بدأ منذ ذلك العهد الجديد يلتف الصناع تدريجيا حول قصور العظماء أصحاب الضياع ، في المصانع التي كانوا يقيمونها لهم . ولذلك نجد على القوم يصورون على مقابرهم مناظر هذه الحرف كل على حسب قدرته وثروته . فنجد فيها . الصياغ والمثالين والجوهرين والنحاسين ، وصناع الألبوس ، والنجارين ، والدباغين ، وصناع الأحذية ، والساجين ، وصناع الفخار ، والجمعة والخبازين ، والصاقلين ، وصناعاً آخرين من كل أنواع الحرف وكل هؤلاء قد أستوطنوا هذه الضياع الشاسعة الغنية .

فبدلاً من عمل عقود مع هؤلاء الصناع للقيام بإتمام العمل يظهر أنهم كانوا يأخذون مرتبا طوال مدة حياتهم ، وتدل النقوش على أن كل صناعة

كان يرثها الابن عن الأب وبذلك تكونت في البلاد طائفة صناعية وراثية يظهر أنه كان لها حقوق شرعية تحدد بعقد مدى الحياة وكان يحدد باستمرار . وقد كان صاحبه يعتبر كأنه شبه (تملى) في الضيعة ومن بعده يخلفه ابنه . وقد نتج عن ذلك تطور يشبه التطور الذى ربط قانون الفلاح الذى يشتغل فى أراضى الضيعة ، وهذا القانون جعل كل فلاح خاضعا للتشريع الخاص الذى يسنه صاحب الملك ، وبذلك خرجت طائفة العمال من النظام القديم الخاص بالحقوق العامة مما أرنخى العنان للموجة التى كانت ترتفع نحو عصر الإقطاع ونظامه .

وهذا النظام الصناعى قد تجلى لنا بأكل مظاهره فى مصاطب الأسترتين الخامسة والسادسة . ولا غرابة فى ذلك فإن كل معلوماتنا عن الحرف والصناعات فى عهد الدولة القديمة قد استخلصت من المناظر التى عثر عليها فى مقابر الجيزة وسقارة وغيرها فى هذا العصر . إذ نرى فى كثير من هذه المصاطب صاحب الضيعة واقفا أو جالسا وهو يشرف على كل ما يدور فى ضيعته من مختلف الأعمال الزراعية والتجارية والصناعية ويدل الدرس الدقيق لهذه المناظر والنقوش فى مقابر الدولة القديمة والدولة الوسطى على أن المتوفى كان يأمل فى أن يحتفظ فى حياته الآخرة بما كان يملكه فى دنياه ، ولذلك كان ينقش أسماء زوجته وأولاده وألقابهم كما كان ينقش بالضبط اسمه وألقابه هو ، وكذلك كانت الحال مع أهم موظفى بيته . . .

هذا إلى أن الفلاحين الذين كانوا رمز الضيعة كان يكتب اسم كل منهم وليس هناك ما يحملنا على الظن بأن هذه الأسماء كانت خيالية ولذلك لانكون مغالين إذا قلنا إن مارسمة المتوفى فى قبره كان يمثل الواقع مدة حياته ولذلك

كان يريد ان ينقل معه كل شيء إلى الآخرة ، فكان يرسم معه بنفسه
خدام الحياة الدنيا دون زيادة واحد أو نقصان آخر ؛ وكذلك كانت
ثروته تحدد حسب ما كان له في الحياة الدنيا (1)

على أن حالة الصانع في هذا العصر لم تنحط عما كانت عليه من قبل ،
بل كانت أعماله تدون في دفاتر منظمة ويأخذ أجرا محددًا في مقابل إنجازها
ولكن على وجه عام كان حظه محددًا في أن يشتغل بالوراثة الابن بعد
الأب لمالك الضيعة صاحب السلطان والنفوذ . وقد كان حظه مرتبطًا
بحظ الضيعة التي يعمل فيها . ولما كان العامل مقيدًا مع صاحب الضيعة بشرط
ورأى كان عليه أن يطيعه وينتقل معه إذا أفتضت الأحوال الإدارية ذلك .

طرق المواصلات

طبيعة وادى النيل تحتم ان تكون الحركة العامة للمواصلات بوساطة
نهر النيل صعودًا وهبوطًا لحمل الانسان والبضائع . والواقع أن النيل
كان في الأزمان القديمة أحسن وسيلة للمواصلات لأنه كان في متناول
كل إنسان في كل وقت ولذلك كانت تغطي مياهه طوال العام
القوارب العدة والسفن المشحونة التي كانت تقل البضائع والحيوان
والمحاصيل ، ومواد المباني والصناعات هذا في الوجه القبلي أما في الوجه
البحري فكان التهر مقسمًا إلى افرع وترع مزدحمة تحضها المستنقعات ؛
يضاف إلى ذلك أن الأقليم الساحلي كان يحتوى على بحيرات وبرك ،
وفي هذه الحالة كانت الملاحة تسهل التجارة وتجبر الاهالى على استعمالها .

(1) Montet, Scènes de la vie privée, p.p. 406-407.

على أن تنظيم طريق للمواصلات في هذا العصر كان يعد مجهودا ضائعا في بلاد تغطي بالفيضان معظم السنة ولذلك يقول « هردوت » (1) :

« عندما يفيض النيل على البلاد ، لا تظهر إلا المدن فقط من وسط الماء ويكون مثلها كمثل الجزر الصغيرة في بحر » إنجة « وباقي مصر يصير بحرا وعندما يحدث ذلك ، فإن القوارب لا تمشى في مجرى النهر الطبيعي بل تسير في طول السهل وعرضه فالمسافر من قراش متجها نحو منف يمر بالضبط بالقرب من الأهرام » .

أما في انتقالات الأهليين اليومية والذهاب إلى الأسواق فكان الراجلة وراكبو الخمر يستعملون الجسور التي تربط بين القرى والبلاد وكان الحمار يلعب دورا هاما في المواصلات وذلك لأن الحصان والجل لم يستعملا إلا فيما بعد وكان الحمار هو دابة الحمل العادية لصبره وتحمله وشجاعته وقد استعمل منذ أقدم العصور في القوافل والبعوث التي كان يرسلها الملوك إلى الجهات النائية . وكذلك كانت تستعمل الثيران لجر الأحمال الثقيلة وبخاصة الأحجار الضخمة التي كانت تحمل على جرارات . على أن المصري نفسه كان يستعمل للقيام بهذه العملية ولدينا مناظر نشاهد فيها صاحب الضيعة محولا في محفة على الأعناق متجولا في حقوله (2) .

ولكن على العموم كانت الطرق النيلية هي أهم وسيلة في التجارة المصرية حتى أن القوم أصبحوا يعبرون عن سياحاتهم في النهر شمالا وجنوبا بالنزول من النيل والصعود فيه . وقد تغلب هذا التعبير حتى أصبح يستعمل للطرق البرية (3) .

(1) Herodote, II, p. 97. (2) Excavations at Giza, vol. II, p. 220, fig. 240.

(3) Erman-Ranke, Ägypten und Ägyptische Leben, p. 571.

وقد كان للملاحة أثر فعال فى معتقدات القوم الدينية وفى شعائهم (١) . فكان فى نظرهم الإله « رع » يسير فى الفجر فى سفينة الصباح وعند الغروب يسبح فى سفينة الليل أما النجوم فكانت تسبح فى قواربها الخاصة وكان للموتى قوارب لخدمتهم وكانت توضع نماذج منها فى مقابرهم . وهذه القوارب كما يقول « جوتييه » كانت تستعمل منذ الاحتفال بالجناز لنقل رفات المتوفى فى توابيتهم وكذلك لنقل تماثيلهم وأقاربهم وأصدقائهم وخدمهم والكهنة والبكائين . والطعام اللازم للولائم الجنائزية ، والصناديق التى تحتوى على الأثاث المائى الذى كان لابد منه لضمان بقاء المتوفى فى عالم الآخرة ولحمل الموسيقيين والمغنين والراقصين الذين كانت مهمتهم إدخال السرور على أقارب المتوفى الذين كانوا يشاركونه آخر وجبة (٢) . والواقع أن أقدم الآثار تدل على أن النيل كان له تأثير أدبى ومادى فى الحياة المصرية : وسنرى فيما يلى أن المصرى من العصور القديمة جدا كان بحارا ماهرا مجدا . وقد ذكر لنا « شارل بوريه » فى كتابه عن الملاحة المصرية « أن الملاحة لعبت فى مصر فى كل عصور التاريخ دورا هاما جدا ، حتى أن عددا عظيما من المسائل السياسية والاجتماعية والدينية التى كانت تظهر كل لحظة حسن سير الإدارة فى هذه البلاد الغريبة التى خلقها نهر النيل ، كانت لابد يتوقف فلاحها من قرب أو من بعد على القارب والسفينة (٣) .

(1) Kees, *Ægypten*, p. 108.

(2) Gauthier, *Les transports dans l'Anc. Egypte*, dans "Egypte Contemporaine" No. 139 Janvier 1933, p. 232. (3) *Etudes de Nautique Egyptienne*, t. I, 1925, cf. Préface, p.p. VI-VII.

طرق النقل بالقوارب وصناعتها

منذ عصر ما قبل التاريخ كان المصري يصنع زوارقه بطريقة ساذجة وذلك بربط حزم من سيقان البردى ببعضها ، وكان يصنع نماذج طين من هذه الزوارق في المقابر حتى يتمكن المتوفى من أن يسبح بها في عالم الآخرة حسب اعتقاده ، كما كان يعمل في مدة حياته في مياه المستنقعات (1) . وهذه الزوارق الخفيفة كانت شائعة الاستعمال في عهد الدولة القديمة . وقد كانت صغيرة الحجم لا تتسع أكثر من شخصين ، وقد عثر على أشكال زوارق أخرى أدق صنعا يحمل الواحد منها ثورا (2) . وهذه الزوارق كانت تسير بالمذرة والمجداف ، وكانت صالحة للنقل في المياه الهادئة ، إذ كان يستعملها صيادو الطيور في المستنقعات ، وصيادو الأسماك ، وكذلك لنقل الأبقار يوميا (3) .

أما في مياه النيل التي غالبا ما تكون سريعة وشديدة الأمواج فإن هذه الزوارق البردية كانت لا تستعمل إلا نادرا . وكذلك لم تستعمل لنقل المسافرين ، أو الحيوان ، أو البضائع الثقيلة الوزن ، إذ كان يلزم لذلك سفن من الخشب الصلب ، ونحن نعلم أنه منذ عصر ما قبل الأسرات كانت تصنع في مصر مثل هذه السفن ، ولا أدل على ذلك من الرسوم التي وجدناها مع الأواني الفخارية التي يرجع عهدها إلى عصر

(1) Capart, Débuts de l'Art, fig 141; The Earliest Boats on the Nile in J. E. A. 1917 p. 174 (2) Petrie, Meidum pl. 23; Egyptian shipping ap. Anc. Eg. 1933 pl. 12 (3) Boreux, Etudes de Nautique Egyptienne, p.p. 175 sqq.

تقادة (١) على أننا نصادف أحيانا فى مقابر عهد الدولة القديمة مصانع للسفن تعمل بكل نشاط ، فنشاهد مثلا على الجدران عددا لا بأس به من التجارين يشتغلون حول قفص السفينة الذى قد تم بناء جانبيه ، وكذلك نرى تجميع الألواح ، ونشاهد الثقوب التى تقرت لتلبس فيها القطع الثانوية ، وكذلك تنسيق حواف السفينة ومؤخرتها ليركب فيها المجاديف والسكان . والواقع أن ألواح قفص السفينة لم تكن مثبتة على هيكل بل كانت موضوعة بعضها فوق بعض كالبن الجدران ثم تضم على هيئة عاشق ومعشوق (٢) . وقد كانت السفن المصرية فى عهد « هردوت » تصنع من الخشب المصرى فيقول : « كانت سفن قلمهم تصنع من خشب السنت المصرى الذى كان يشبه الجلعان السيرينى (برقة الحالية) ، الذى يستخرج منه الصمغ . فكان يقطع السنت ألواحا يبلغ طول الواحد منها ذراعين ويصفها كما يصف اللبن . وها هى الكيفية التى كانت تتركب بها السفن : توضع عوارض طويلة متقاربة ويركب فيها ألواح طول الواحد منها ذراعان ، وبعد أن يتم صنع قفص السفينة بهذه الكيفية ، كانت تربط حافتا السفينة بلوح يركب فوق العوارض . وكانوا لا يسندون جانبي السفينة بقطعة خشب ذات فرعين ، بل كانوا يقلفون بمتانة اللحات التى فى داخل السفينة بالبردى . وكانوا يصنعون دفة واحدة تثبت فى سهم قاعدة السفينة . أما السارية فكانت تصنع من خشب السنت والشرع من البردى . وهذه السفن كان عددها عظيما وبعضها وكان يزن ما جمولته آلافا من التلنت

(1) Boreux, Etudes de Nautique Eg. p.p. 7 sqq. (2) Montet, Scènes de la vie Privée p.p. 334 sqq. Boreux, Etudes de Nautique p.p. 236 sqq.

(نصف قنطار) (١) « .

ونشاهد فى مقبرة « قى » القارب الذى قد تم صنعه يسير على النيل
فىرى الشراع منتشرًا ومعلقًا فى عارضة السارية كأنه قب الميزان . ونشاهد
كذلك جماعة المجدفين فى وضع منتظم ، وكان لا بد من ثلاثة رجال
على الأقل فى مؤخر السفينة لإدارة السكان (٢) .

والسفن النيلية التى كانت تصنع بهذه الكيفية كان فى مقدورها أن تحمل
شحنة عظيمة وتسير فى مياه أمواجها هائجة وقد ذكر لنا « ونى » فى تاريخ
حياته أنه أحضر مائدة قربان ضخمة محمولة على سفينة مصنوعة من خشب
السنط طولها ٦٠ ذراعًا وعرضها ٣٠ ذراعًا وقد تم صنعها فى سبعة عشر
يومًا فقط (انظر ص ٣٧٩ جزء أول) ولا شك فى أن هذا يعد مثلاً رائعًا فى سرعة
بناء السفن ؛ وليس لدينا أى مجال للرؤية فى ذلك عند ما نفحص تركيب
السفن النيلية الجميلة الممتلئة فى مناظر مقابر الدولة القديمة (٣) . وهذه الشواهد
تدل رغم فقر مصر فى الأخشاب ، على أن المصريين لم يكونوا
قط فى حاجة لخشب البلاد الأجنبية ليقوموا بأعمال الملاحة ،
وإن كان إحضار الأخشاب السورية يسمح لهم بتتمة بناء السفن
ويسهل لهم تجهيز أساطيل عظيمة للقيام بتجارة بحرية خارج بلادهم فى
عرض البحار .

(١) Hérodote II, 96.
p.p. 347 Fig. 45.

(٢) Montet scènes de la vie Privée
(٣) Erman Ranke, Aegypten und
Aegyptisches Leben, Fig. 242 - 245; & Gauthier Transport
dans l'ancienne Egypte, p. 232.

الملاحة

تدل النقوش حتى الآن على أن أول أسطول بحرى عرف في تاريخ البشر يرجع عهده إلى الملك « سنفرو » أول ملوك الأسرة الرابعة إذ يخبرنا حجر « بلرم » أنه فى عصر هذا الملك قد لجأ من بلاد سوريا أربعون سفينة محملة بمخشب « عش » (الأرز) . وفى مدى عامين - كما جاء على هذا الحجر نفسه - قد صنعت عدة سفن يبلغ طول كل منها نحو ١٠٠ ذراع من خشب الأرز ومن خشب « مر » الذى كان يجلب من لبنان ، هذا عدا ٦٠ سفينة أقل حجما (١).

وهذه السفن التى كانت تجرى فى البحر الأبيض المتوسط ، نراها ممثلة على جدران معبد الملك « سحورع » والملك « وناس » من عهد الأسرة الخامسة . وقد كانت هذه السفن تشحن بالحجارة ومعهم فصيلة من الجنود لحماية البعثة من هجمات أهالى سورية ، أو لتكون مظهرا من مظاهر سلطة الفرعون ، وهذه السفن كانت تبنى على نموذج السفن النيلية غير أنها كانت أكبر حجما وأثقل وزنا ، حتى يمكنها أن تقاوم هياج البحر من جهة وكذلك لتحمل شحنة عظيمة من السلع من جهة أخرى (٢) .

ومن كل ما سبق يتضح جليا بطلان النظرية القديمة القائلة بأن الفينيقيين هم أول قوم مخروا عباب البحار وأن المصريين لم يجبروا على الملاحة إلا بعد الفينيقيين بزمن بعيد جدا . وينسبون ذلك إلى موقع فينيقية الجغرافى من جهة وإلى ثروة بلادها فى الأخشاب الصالحة لبناء السفن

(1) Br. A. R. t. I, 146-147. (2) Boreux, Etudes de Nautique Eg. p. 465.

من جهة أخرى مما جعلها سيدة التجارة على شواطئ البحر الأبيض (١) ومن يقرأ الكتب القديمة يعرف مقدار انتشار هذا الرأي الذي أثبتت الكشف الحديثة بطلانه . ومما قيل في هذا الصدد وثبت أنه خرافة : « أن هناك أسبابا تدعو المصرى لعدم التوغل في البحر والتجارة مع بلاد الشاطئ ، منها : تكوين مصر الطبيعي ، والخوف من أهوال البحر ولصوصه » . وتورط كذلك بعض المؤرخين في القرن السالف فقال :

« لا بد أن الملاحة كانت تعتبر في حيز العدم في عهد الفترة الأولى من تاريخ مصر ، وذلك لأن عزلة أهلها عن باقى العالم قد منعتهم عن المغامرة في عرض البحار ، وأنهم لم يقوموا بالملاحة إلا في أواخر الأسرة الثامنة عشرة » ثم قال : « وللسبب الذى منع المصريين أن يكونوا ملاحين عظماء هو السبب الذى حال دون عظمتهم التجارية . وفي الوقت الذى كان فيه الفينيقيون يقومون بكل أعمالهم التجارية بطريق البحر مع جميع الدول كانت تجارة مصر محصورة في بلادها وجعلتهم تحت رحمة الأجانب الذين كانوا يقومون بالأعمال التجارية الخارجية لهم (٢) . وقد فات قائل ذلك أن سكان وادى النيل منذ أقدم العهود قد وجدوا في نهرهم المنقطع القرين مدرسا عظيما يتعلمون على يديه أول دوس في الملاحة عرف في تاريخ البشر ، فقد كانوا يعيشون طوال العام على شاطئيه الخصيبين ، وكان فيضانه السنوى يجبرهم على خوض الماء في

(1) Koster, Schiffahrt und Handelsverkehr des Oestlichen mitelmeeres im 3 und 2 Jahrtausend vor Chr. (Beihefte) zum Alten Orient, Heft I, 1924 cf. p.p. 1 sqq.

(2) Henry, L'Egypte pharaonique, ou histoire des Egyptiens sous leurs Rois nationaux t. II, p.p. 443-444 et 467.

كل وقت ، ولا على أن الملاحة في النيل كانت دائما سهلة لا
يعتورها أى خطر . بل كانت في مدة الفيضان وهبوب الرياح
تحفظها مخاطر جم . ولم يكن المصرى بالشخص الذى يخاف هذه المخاطر
ويجزم عن اقتحامها إذ كان النيل أهم طريق المواصلات ، وقد كان لديه
العدة لاقتحام أعمال هذا الهر بما صنعه من السفن المثينة التى أخذ في
تحسينها على مر الزمن حتى جعلها صالحة لتختر عباب البحر نفسه . على
أن الملاحة في البحار كانت ساحلية على وجه عام يقوم بها الملاحون
في أحسن فصول السنة الملاحة عند ما يكون الجو هادئا والرياح رخاء
بالقرب من الشاطئ كما سنتكلم عن ذلك في حينه (1) .

وقد ذكرنا فيما سبق أنه كان يوجد في مصر موان زاهرة غنية على
شاطئ الدلتا منذ عصر ما قبل الأسرات كمدينة متليس (فوة) التى رمز
لها بالخطاف والقارب على لوحة «نعرمر» ، وكانت أساطيل هذه المدن تقوم
برحلات تجارية مع السواحل السورية (2) .

على أننا من جهة أخرى لا ننكر أن الفينيقيين كانوا يتجرون مع
جزر البحر الأبيض المتوسط قبل ذلك العهد ولكننا ننكر أنهم أساتذة
المصريين في تعلم فن الملاحة الذى تفوق هؤلاء فيه ، ولدينا براهين
ساطعة تدل على أسبقيتهم الأمم الأخرى بعدة قرون . منها أن
المدن المذكورة وجدت قبل أن يكون للفينيقيين شأن في عالم
الملاحة البحرية .

(1) Cf. Koster, Schiffahrt und Handelsverkehr p.p. 10 sqq.

(2) Koster, op. cit. p. 19.

إذ الواقع أنهم لم يظهروا في هذا الأفق إلا في النصف الأول من الألف الثانية قبل الميلاد ، هذا إلى أن سفنهم قد بنيت على الطراز المصرى (1) . وعلى ذلك تكون النظرية القائلة بأن سفن « سنفرو » و « سحورع » كانت فينيقية لا أساس لها من الصحة (2) . يضاف إلى ذلك أن تمثيل السفن البحرية في معبد « سحورع » الجنائزى يشعر بأصل مصرى . وقد لاحظ البعض أن اسم السفينة « كبت » نسبة إلى « كبن » (بيلوص بالمصرية) ؛ ورأوا في هذا أن أصل صنع السفينة كانت في هذه الجهة ، ولكن لا يلزمنا أن نستنتج من هذا أن أهالى النيل قد تعلموا فن بناء سفنهم والملاحة من بيلوص . إذ الواقع أن لفظة « كبت » تفسر بوضوح أن أول سفن بحافة عالية كانت تلك التى سافرت إلى بيلوص أو أن هذه السفن قد صنعت من خشب لبنان الذى كان يشحن من شاطئ بيلوص وما يعزز ذلك أن السفن التى كانت تمخر عباب البحر الأحمر إلى (بنت) فى عهد « بيبى الثانى » وما بعده كانت تسمى كذلك كبت (3) . وعلى أية حال فهناك حقيقة لا مراء فيها وهى أن المصريين منذ فجر تاريخهم بل منذ عصر ما قبل التاريخ كانوا يسبحون فى البحر . وأن البعث التى كانوا يقومون بها فى عهد الدولة القديمة ما هى إلا استمرار لتجاراتهم الخارجية التى كانوا يقومون بها من موانئ النيل فى عصر ما قبل التاريخ ، يضاف إلى ذلك أن نشاطهم البحرى هذا كان نتيجة التجارب التى كانوا يقومون بها فى نياهم وما قاموا به من بناء السفن مما جعلهم

(1) Koster, zur Seefahrt den Alten Aegypter ap. Z. E. S. t. 58, 1923, p. 131. (2) Sethe, Z. E. S. t. 45 p. 7 sqq.

(3) Kees, Aegypten p. 22.

ليسوا في حاجة إلى أن يتعلموا من الخارج فن الملاحه .

التجاره الداخليه والعمله .

لقد بقى سر طرق المعامله مجهولا فى مصر القديمة وبخاصة فى عصورها الأولى حتى الآن ، وقد بذلت محاولات عظيمة للوصول إلى حل هذا اللغز ، ولكن كل ما وصل إليه العلماء لا يزال مبهما وذلك لقلة المصادر ونموض ما لدينا منها ، والرأى السائد أن المصريين كانوا يتعاملون بالمبادله ، تلك الطريقه الساذجه التى يتبعها سكان مجاهل إفريقيا حتى الآن ، ولكن كل ما وصلت إليه مصر من الحضارة فى مختلف نواحيها لا يجعلنا نصدق أن طريقه المبادله كانت طريقه المعامله الوحيدة فى عهد الدولة القديمه ولذلك يقول « بيرن » (1) : « يظهر لى أنه من الأمور الصعبه أن أعترف بأن مدينه متقدمه من الوجهه التشريعيه مثل المدينه المصريه فى عهد الدولة القديمه لا تعرف إلا نظام المبادلات بالمواد الطبيعيه دون مقياس متفق عليه يحدد قيمتها مع أنها كانت تعرف بيع النسيئه ، ومع أن لها نظام ضرائب ناضجا ، غاية فى الايقان . على أن نظام المبادله بلا نزاع لا يتفق فى سداجته مع كل الدقه التى نلاحظها فى نظام الوراثه ، والبيع والوصايا ، والقضايا التى كانت تنجم عن ذلك عديم » .
والواقع أن كل ما لدينا من النقوش عن سير المعاملات ينحصر

(1) Pirenne, Institutions, t. II p. 344.

ظاهرا فى المبادلات . ففى كل مدينة وفى كل قرية كان يقام سوق فى المحال العمومية وكان المدينون والفلاحون يتقابلون هناك فى أوقات معينة ويتبادلون سلعهم المتنوعة ؛ فكان القوم يأتون من كل حذب وصوب راجلين ، أو على ظهور حميرهم أو فى زوارقهم النيلية ، كل منهم يحمل منتجاته الزراعية أو الصناعية فكان الفلاح يحمل مكنل خضره . والصياد يحمل سلعة سمكه ، والصانع الصغير الحر يحمل النعال التى صنعها أو أوانى الفخار ، أو قطع التجارة والزيت والقطر ، والحلى من الخزف ، وعصى الخيزران والمراوح ، والشص ، ومئات من الأشياء الأخرى التى كانت تستعمل فى الحياة اليومية العادية . ولدينا مقابر عدة من عهد الدولة القديمة قد رسم عليها مناظر الأسواق فى نشاطها كما نشاهدنا الآن هذه كما ذكرنا هى المصدر الوحيد لدينا عن المعاملات المصرية (١) .

والظاهر أن كل المناظر المعروفة من هذا القبيل كانت كلها خاصة بالضيايع المائمية التى كانت تتبادل فيها سكان هذه الجهات سلعهم ولكن لا بد من أنه كان للعدن العظيمة أسواقها ونسشر ذلك فى حينه .
ونشاهد فى هذه الأسواق أن الذين كانوا يحملون سلعا ثقيلة الوزن كانوا يجلسون القرفصاء خلف سلالهم وقفافهم وفى منظر واحد شاهدنا

(١) . Leps-Denk. II, 96 ; Capart Rue De Tombeaux à Saqqara, pl. 32 p.p. 31.; Steindorff, Das Grab des Ti, pl. 133.; Klebs, Relief I, 116.; Von Bissing, Gem ni-Kai I, 23.; S. Hassan dans Ann. Ser. A. t. XXXVIII p. 52 pl. XXVI.; Etudes de Myth. et Arch. Eg. t. IV p.p. 253-257; Montet, Scènes de la vie privée p.p. 319-326; Erman, Reden, Rufe und Leider auf Graberbilden des Alten Reiches p.p. 48 sqq.

البائع جالسا على مقعد مرتفع وأمامه سلعته ويأتى إليهم المشترون لشراء حاجاتهم أما من خفت أحماهم فيسيرون فى أنحاء السوق ويتبادلون فيه سلمهم ، ويمكننا أن نتصور منظر هذه الأسواق فى أسواقنا الحالية بكل ما فيها من محاولات ، ومكر ودهاء وتحيات وإغراء ، ومشاغبات .

ولكننا نسأل هنا هل يدل تمثيل كل هذه الأشياء على الجدران حقيقة على أن كل شار فى الوقت نفسه بائع أو بعبارة أخرى أن النقود كانت على ما يظهر مبهولة ، وأن الأسواق المصرية كانت تنحصر فى مبادلات دون قوانين ودون تقاليد تجرى على مقتضاها ؟ إذا نظرنا إلى السوق المصرية وجدنا صاحب مكتل من البصل يقابله شخص آخر يريد أن يتخلص من مروحة ، أو من قلادة وبائع قيثارات ، أو أدوات للصيد يريد أن يبدل بها ما كولات وصانعا يعطى قلادة بدلا من نعلين ، وامرأة تقدم لمخاطبها قارورة من الروائح العطرية من صنع يدها . وبائع عصى من الخيزران وقد فرغ صبره أمام مشتر متردد ، وبائع السمك ناشراً سلعته أمام امرأة معها صندوق . وبائع مرايا يفخر بسلعته وبائع قرد يسوقه أمامه وييده حبله الذى يقوده به ، وبائع بصل يتأهب لمبادلة حزمة منه برغف من الخبز المصنوع من الدقيق الجيد ، (ولكن لا نعرف إذا كان المبادل يريد حقيقة بصلا أو لا) . والظاهر أن النعال كانت سوقها رائجة وعلى أية حال نشاهد فى رسوم سقارة أن فلاحا كان يبادل إسكافاً بكيل من الجيوب زوجا من النعال ، وقد كان كل منهما ينتظر صاحبه أو يبحث عنه وقد انتهى الأمر بإتمام الصفقة .

وفي الجملة كانت السوق العامة للأفراد رقيقى الحال المكان المختار لقيام المبادلات بينهم فيما يحتاجون إليه من المأكولات والمصنوعات وقد كان سكان المدن يدخرون ما يكفيهم طيلة الأسبوع من الخضر كما كان الفلاح يبيع ما عنده ويعود حاملاً معه قلادة جميلة ، أو قارورة من العطر ، أو حذاء يتعلمه في الأعياد ، ففي هذه الأحوال لم تكن الحاجة ماسة للمعاملة بالنقد ، وتدل التجارب على أن محاصيل الحقل كانت تجد من يبادل بها من أصحاب الحرف والصناعات وأن هؤلاء الآخرين كانوا متأكدين من أن يجدوا معاملتهم من الصيادين والفلاحين . والواقع أن مثل هذه المعاملات لم يكن فيها ما يدعو للارتباك عند ما تكون صغيرة القيمة أو قليلة العدد ، حيث تكون الحاجة لها نطاق ضيق ، وأنه يكفي لصنعها بعض المختصين لعدد محدود من الناس .

وعلى هذا يمكننا أن نجب بأن المبادلات كانت موجودة في مصر ولا تختلف فيها عن البلاد الأخرى الفطرية قبل أن يدخل فيها التعامل بالثور . ولا بد أن القوم كانوا قد وضعوا فيما بينهم بحكم العادة بعض قواعد للمبادلة اللهم إلا في بعض سلع لم يجز عليها التعامل من قبل كانت تحتاج لأخذ ورد ، ومناقشة ومساومة .

التجارة الداخلية : والواقع أن الأمور كانت تجري في سيرها الطبيعي عندما تكون المبادلة من الأشياء العادية ذات القيمة الضئيلة .

ولكن يتساءل الإنسان ماذا تكون الحال عند ما يكون موضوع المبادلة ، شيئاً عظيم القيمة كنزل أو ثور أو قطعة أرض ، إذ لا يمكننا أن نتصور ما يصنعه فلاح يريد أن يبيع ثوراً ليشتري بشمه مقداراً

من الحبوب ، وبعض آلات للفلاحة معينة وأشياء أخرى ، فهل كان في قدرته أن يجد مبادلا عنده كل هذه الأشياء في مقابل ثوره ؟ وماذا تقول في رجل يريد أن يبيع عقارا حتى ولو كان الشارى حاضرا ومتلهفا على إتمام الصفقة فإنه لا بد أن يكون في حيازته المقدار والنوع من البديل الذي يرغب فيه المستبدل ويجب ألا نخفى هنا أن التجارة بمعناها الحقيقي - شراء سلعة مقابل أخرى أغلى ثمنًا - قد أصبحت في هذه الأحوال مرتبكة لدرجة لا يمكن معها أن ينمو رأس مال التاجر بعض الشيء .

فيمكننا أن نتصور مثلا أصحاب حرف أحرار يعملون في مصنعهم في أحد أحياء (منف) ، ويعيشون مما يمكن أن يجلبه لهم معاملهم الدائمون أو ما يأتى إليهم به المترددون على الأسواق ، ولكن لا يمكننا أن نتصورهم بسهولة يشترون سلعهم ويتممون مصنوعاتهم حتى يمكنهم أن ينتجوا محصولا من العمال أو من المراهم تؤهلهم لشراء بهائم ، أو بعض أفدنة حتى يكون لهم في النهاية منزلة كبيرة بين أقرانهم . وكذلك لا يمكن لثرى بيده رأس مال من أى صنف كان ، أن يشرع في المبادلة به في مقابل شيء آخر يبادل به كرة أخرى وهكذا حتى يجد في النهاية أن رأس ماله الأصيل قد ازداد ، ثم يستمر على هذا المنوال . وتلك هي صفات التاجر الحقيقي الذى يدب في نفسه حب الكسب ؛ ولكن لا نزاع في أن المبادلة ليست هي الطريقة التى تشبع أغراض مثل هذا التاجر بصفة دائمة مرضية .

وليس معنى ذلك أنه لم تكن توجد تجارة داخلية في عهد الدولة القديمة ، وأن النظام الاقتصادى في هذا العصر لم يكن فى مقدوره أن ينتج

نظام الاتجار ، الذى يمكن به أن يصبح التاجر غنيا بفضل حركة التعامل بالنقد . والظاهر أن حركة التعامل بالمبادلة فى هذا العصر لم تلعب إلا دورا محدودا جدا إذ كانت محصورة فى أصناف معينة وهى التى كان يصنعها أصحاب الحرف الحرة الذين لهم مصانع صغيرة فى منازلهم أو فى الأسواق العامة . وتوجد اعتبارات عامة اجتماعية تعزز هذه الاستنتاجات .

إذ فى الواقع كان يوجد فى عهد الدولة القديمة طوائف اجتماعية تتلخص فيما يأتى : أولا : طائفة الأشراف ، أو كبار الموظفين الذين يملكون ضياعا وبخاصة فى عهد الأسترتين الخامسة والسادسة ، وقد كانوا منتشرين فى الوجه القبلى أكثر من الوجه البحرى . ثانيا : طبقة الكتّاب من درجات مختلفة . ثالثا : طبقة الفلاحين . رابعا : طبقة الصناع .

فطائفة الأشراف لم تكن فى حاجة لأى شىء خارج ضياعهم إذ كان ، محصول الأرض يدمم بأكثر مما يحتاجون . وكان كل ما يريدون صنعه يعمل فى مصانعهم الملحقه بقصورهم . أما طائفة الكتبة فكانوا يشرفون على ميزانية الحكومة فى كل الأماكن التى يؤدون فيها وظيفتهم ، أى أنهم يعاونون فى تصريف جزء ضخم من العقاز الذى يدفع عنه جزية أما الفلاحون وأصحاب الحرف فكانوا تابعين للضياع التى كانت تتمتع بمعيشتهم أو كانوا يعيشون أحراراً من كسبهم الخاص فى الحالة الأخيرة كان الفلاح يستثمر أرضه ، ويهتم بأحواله الاقتصادية . ويذهب إلى السوق لبيع ما يزيد عن حاجته من منتجات أرضه أما الصانع الصغير فكان من أجله يبادل فى حانوته أو فى السوق كل منتجات صناعته بما يقتات به أو ما يحتاج إليه من المصنوعات الأخرى . وهكذا كان سير الحياة فى نطاق

ضيق في الضياع أو المدن الصغيرة ، مما يدل على أنهم ربما كانوا يجهلون حركة التجارة بالمعنى الحقيقي التي كان لابد من استعمال العملة فيها . ومع كل ما ذكر فلا يمكن أن نعتقد بوقوف المصري عند هذا الحد في معاملاته إذ لا يعقل أن شعبا قد شاد مدينة مثل التي قامت في « منف » لم يكن في مقدوره تحسين حالة المبادلة التي تدل على منتهى السذاجة والتأخر ولا بد أن الواقع كان على تقيض ذلك ، إذ كان يوجد منذ العهد الطيني كمية لا بأس بها من المعدن الذي يحبه كل القوم ، وأعني بذلك الذهب فكان المصري في مقدوره أن يحجزه أو يحوله إلى سبائك دون أن يفقد شيئا كثيرا في هذه العملية ، وكذلك كان يمكنه ادخاره دون أن يصيبه عطب ما وتأثيره كان واحدا على كل فرد في أى وقت كان . على أن المشاريع التي كانت تقوم لاستخراج هذا المعدن ، والهبات من الذهب التي كان يهديها الملك للمقربين له ، وقطع المصوغات التي كانت تصاغ للزينة ، أو تكون علامة على الثراء ، كل هذه الأشياء تؤكد لنا أن الأصفر الرنان لم يكن موضع احتقار أى شخص ، وأنه كان يمكن المبادلة به مقابل أى شيء في كل الأحوال ويعزز ذلك أن حجر « بلرم » قد ذكر لنا أن ثروات الأفراد المنقولة كانت تشمل على معادن ثمينة كانت تحصى في أوقات معينة . فكيف والحالة هذه لا يمكن أن نعتبر الذهب عاملا ثالثا في المبادلات . ولا يبعد أن تجود لنا تربة مصر بنقش أوبردية تكشف لنا الغطاء عن التعامل بالذهب في التجارة وتحل لنا كل مسائل المبادلة التي لاتزال معقدة . على أنه مما يؤسف له جد الأسف أنه لم يعثر على تمثيل ظاهر واضح في مناظر الأسواق القديمة التي عثرنا عليها حتى الآن على المبادلة

بالذهب ، ولكن هذا لا يعنى شيئاً كبيراً إذا علمنا أن كل ما وصل إلينا من تمثيل الأسواق المصرية مصدره مناظر المقابر أو المعابد ، وهذه بالطبع لم يقصد منها قط أن تمثل لنا كل حياة البلاد الاقتصادية فى كل تفاصيلها وكل مآلينا عن الحياة الاقتصادية قد عرفناه من المناظر التى تركها لنا عليّة القوم . وليس من حقنا أن ننكر وجود كل شئ لم يتركه لنا غفلاء القوم فى مناظر مقابرهم . وقد يكون من الدهشة بكان أن تجود الصدف بالعثور على مقبرة أحد أغنياء التجار الذين أنجمل وجودهم حتى الساعة ، بل والذين يعتقد البعض عدم وجودهم كلية ، وبذلك يهدم لنا النظرية القائلة بأن بناء المقابر فى الجبانة الملكية كان وقفا على المقربين .

النقود

لقد ذكرنا فيما سبق أن المصريين فى العهد النفى لم يجهلوا استعمال المعادن الثمينة مقياساً لتقدير قيمة الأشياء غير أنه لم يبق دليل قاطع مآدى على كيفية استعمالها فى عهد الدولة القديمة وقد أشار إلى استعمال النحاس والذهب أساساً للمبادلات فى ذلك العهد الأستاذ « برستد » إذ يقول (1) : « يحتمل فى بعض الأعمال التجارية وبخاصة التى كانت قيمتها عظيمة ، أن كان النحاس والذهب يستعملان على هيئة خواتم لكل وزن معين كعملة . »

أما الأستاذ « بترى » فعلى العكس إذ يقول إنه لم يحدث ذكر

(1) Breasted, History of Egypt, p. 97.

أى معيار متفق عليه للتعامل ... وأن هذا المعيار المشترك من النحاس لم يظهر إلا فى عهد الدولة الوسطى عند ما كانت السلع والماشية تقدر بقيمة مساوية لثمنها من النحاس (1).

وقد كتب الأستاذ « مسبرو » مقالا ممتعا عن وصف منظر فى سوق لاحظ فيه أن المتبادلين يحملون صناديق صغيرة تحتوى على سلع مجهولة ويعتقد أن هذه الصناديق فيها قطع من المعدن كانت تستعمل عملة للمبادلة ، إذ يقول بعد أن فحص المناظر بدقة : « وبالاختصار أظن الصندوق يحتوى على معدن ، مشغول على هيئة مجوهرات صغيرة ، أو على شكل سبائك معروف وزنها ؛ وهذه هى الوسيلة الوحيدة لتفسير وجود هذا الصندوق فى ثلاثة مناظر من مناظر السوق التى تشمل على عشرة مناظر ، وكذلك أكد هذه النظرية عدم وجود أى شىء للمبادلة فى أيدي الذين يحملون مثل هذا الصندوق مضافا إلى ذلك صغر حجمه (2) . وهناك من الأدلة ما يعزز هذا الرأى ؛ فقد كشف الأستاذ « شتيندورف » لوحة صغيرة فى عام ١٩١٠ ، فى جبانة الجيزة عليها نقوش غامضة خاصة بموضوعنا هذا غير أنها لم تنقش أسرارها تماما رغم المحاولات التى بذلها علماء الآثار .

فترجمها الأستاذ « زيته » (3) ؛ ثم أدخل « سوتاس » (4) بعض

(1) Social life in ancient Egypt, p. 154. (2) Gazette Archéologique, 1880 p. 97-100; Mythe et Arch t. IV p. 257.

(3) Das Grabdenkmal des Königs Chephren, Leipzig, Heinrich 1912 p.p. III sq. (4) Sottas, Etude critique sur un acte de vente immobilière du temps des Pyramides, Paris 1913, p.p. 5-21.

تحسينات على ترجمته وكذلك تناولها بالبحث « فون بسنج » (1) ويرجع الفضل أخيراً إلى الإصلاحات والتعليقات التي كتبها كل من العالمين « شاسينا » (2) و « فايل » Weill (3) مما جعل هذه الوثيقة مفهومة . فأنارت لنا الطريق في موضوع استعمال العملة في عهد الدولة القديمة وسرى في هذا الموضوع آراء الأستاذ « فون بسنج » (4) الحديثة وكذلك رأى الأستاذ « بيرن » (5) . وموضوع هذه الوثيقة ، على أحسن وجه ، أنها خاصة بعقد بيع عمل في عهد الملك « خوفو » بين الكاتب « تنتي » الذي كان يبيع بيتا ، وبين الكاهن « كباو » الشارى . ولأجل أن تقرب للقارىء فهم هذا العقد سنضع ترجمته الحرفية في لغة سهلة . يقول « كباو » : لقد اشتريت هذا البيت في مقابل مكافأة للكاتب « تنتي » ، وقد أعطيته عشرة « شعت » ، وهى كما يأتى : قطعة أثاث (؟) من خشب « أنى » قيمته ثلاثة شعت وسرير من خشب الأرز من أجود صنف قيمته أربعة شعت وقطعة أثاث من خشب الجميز قيمتها ثلاثة شعب (6) ثم يقول « تنتي » (يعيش الملك) ، سأعطى ما هو حق لأنك قمت بالدفع بطريق التحويل ، وستكون

(1) Von Bissing, Ein Hauskauf im IV Jahrtausend Von Chr. Sitz. der Bayer. Akad. der Wiss. zu München Phil. Hist. Kl. 1920 Abh. 14 p.p. 1 sqq. (2) Chassinat, Un

type d'étalon monétaire sous l'ancien Empire dans Rec. Trav. t. XXXIX, 1920 p.p. 79-88. (3) R. Weill, L'unité de valeur, « Shat » et le papyrus de Boulaq n. II, Revue de l'Egypte ancienne t. I. 1925 p.p. 45-87. (4) Von Bissing, Das aelteste Geld (Chronique d'Egypte) No. 9 1930 p.p. 102-105.

(5) Pirenne, Institutions, t. II p. 293-296, 349-344.

(6) فى الطبعة الأخيرة من كتاب Urkunden للدولة القديمة يظهر أن الأشياء الثلاثة التى أعطيت ثمتا للبيت هى قطعة أثاث وقطعتان من القماش كما ذكر ذلك الأستاذ زبته .

مرتاحا من البيت ثم ختم في إدارة بلدة « خبوت خوفو » أمام شهاد تابعين لإدارة « تنى » ولطائفة كهنة « كايو » الشهاد . « محى » عامل بالجبانة ، « سبنى » ، « إنى » ، « ونى عنخ حور » كهنة جنازيون .

ولأول نظرة سطحية يخيل للإنسان أن هذا البيع لا يتخطى المبادلة وهى عبارة عن ثلاث قطع من الأثاث والنسيج فى مقابل بيت ولكن الواقع ليس كذلك . إذ لو جعلنا البائع وهو « تنى » شاريًا ، والشارى وهو « كايو » بائعا لما رضى كل منهما بإتمام الصفقة فالتفسير المعقول لعقدهما أنها قد تفاهما على أن ينفذا فى عقد واحد إجراء عمليتى بيع كان يمكن عمل كل منهما على حدة . وهذا التفسير يمكن إدعاهم بمحبتين . أولا : لو كان الموضوع هو عقد مبادلة فحسب لما كان هناك داع لذكر لفظة « شعت » التى لا بد قد قيلت عن قصد ، واكتفى المتعاقدان بذكر الأثاث فى مقابل البيت فقط . وثانيا : يعترف لنا « تنى » أن « كايو » قد جعل الدفع بالتحويل « وزب » وهذا الترتيب يحمل فى ثناياه طريقة أخرى ممكنة غير التحويل ، وليس هناك إلا دفع عشرة الشعت . والنتيجة أن الـ « شعت » كان بلا جدال معيارا لتقدير قيمة بيت ، أو أثاث ونسيج ، أو أى عقار مهما كان نوعه .

ولانزاع إذا ، فى أن أهل عهد الدولة القديمة كانوا يعرفون النقود وكان يمكن لكل أن يكون له رأس مال من الـ « شعت » ويشترون سلعا ليبيعوها ويكسبون فائدة منها تقدر بالـ « شعت » وخلافا للاحتكار الذى كانت تفرضه الحكومة ، وهذا ما لا نعلمه بالضبط ، كانت حرفة التجارة تجرى حسب طرقها الأولية فكانت تنمو فى الحدود

التي تسمح بها أحوال الضياع الاقتصادية والمبادلات الأهلية التي كانت تجرى في الأسواق العامة . وبقى علينا الآن أن نعرف ال « شعت » فقال عنه « زيته » أنه (مكيال للفطائر) . وهذا تفسير غريب في بابه ، وقد أراد كل من « سوتاس » و « فون بسنج » أن يعزز رأى « زيته » ولكنهما لم يوفقا ، وبقى الحال كذلك حتى جاء العالم « شسيناه » وتجاهل كل ما كتبه من سبق وأثبت في بحثه أن « شعت » هو معيار قيمي يمثل وزنا معيناً من المعدن الثمين ، ولذلك لا نشك الآن في النظرية التي أشار إليها « مسبرو » وهي الخاصة بأولئك الذين كانوا يذهبون إلى السوق بدون أية بضاعة معهم إلا صندوق صغير يحتوى على معدن ومن بين التفسيرات التي كتبت على المناظر في السوق ما يلفت النظر في موضوعنا ونصه هو : هاك « لأجلك » شعت » حسن جدا وهو ما تستحقه « تلك الكلمات قد فاه بها مشتر لبائع خضر . ولا نزاع في أن المشتري عند ما قدم « شعت » واحدا ثمن السلعة كان يدفع الثمن تقدا . (1)

العملة الحقيقية والعملة الحسابية

والآن لدينا مسألة عويصة يجب حلها بقدر ما لدينا من المعلومات وهذه المسألة هي هل كان ال « شعت » تقدا حقيقيا أو معيارا فقط للمعاملات ، وهل ال « شعت » كان يتبادل بين جميع الطبقات في شكل من المعدن أو سبيكة صغيرة ذات وزن معين ، أو كان مجرد معيار متفق عليه لتقدير

(1) Pirenne, Institutions t, II 343.

كل عقار ؟ ولاحظ أننا في بحثنا في عقد « تنق » عرفنا أن « الشعت » كان قدما ماديا ، إذ كان عشرة منه تساوى ثمن بيت وثلاثة منه تساوى قيمة أثاث . وقد وضع لنا ذلك الأستاذ « شسيناه » في بحثه لهذا الموضوع إذ يرى أن « الشعت » معيار من المعدن ويشاطره هذا الرأي الأستاذ « بيرن » (1) غير أن الأستاذ « فايل » Weill يعتقد العكس إذ يقول : « أن المصريين كان لديهم طريقة لتقدير قيمة الأشياء بمعيار حسابي ويدخل في ذلك كل الأشياء على كافة أنواعها ومنها المعادن وغيرها . » وقد جاء « فون بسنج » معززا رأي الأستاذ « فايل » قائلا : إن الـ « شعت » هو وحدة حسابية ولا يدل على مادة حقيقية كما يشير إلى ذلك مخصص الكلمة المصرية الذي هو عبارة عن ملف بردى (وهذه الإشارة تخص الأشياء المعنوية فقط) .

ولكن كل ذلك لا يمنعنا من أن نفحص الموضوع من بعض نواحيه لتبين مقدار ما في قول هذين العالمين من الصحة .

لقد شاهدنا في السوق مشترى يقول لبائع : « ها هو حقك » شعت » واحد . حسن . وهذا طبعاً يشعر في الحال بأن الذي يقدمه المشتري للبائع ليس بالشئ المعنوي بل شئ مادي محسوس من النقود ، وكذلك عند ما كان الكاهن « كباو » يشتري بيته بالتحويل ، فإن ذلك يشعر أنه كان يمكنه أن يشتريه بطريقة أخرى وبالتحقيق لم يدخل في ذلك طريقة حماية معنوية فحسب . ولا أظن بعد هذا أن هناك من يقول بأن المصريين في عهد الدولة القديمة كانوا يتعاملون بمعيار حسابي يسمى

(1) Pir-nne, Institutions t. II p.p. 296 et 343.

« شعت » بل الواقع أن هذا المعيار كان مقدارا معيناً من المعدن يستعمل وحدة هامة في تصريف أمور التجارة في مصر في عهد الدولة القديمة .

وإذا سلمنا أن الـ « شعت » قد استعمل في بداية الأمر على شكل ما (حلقة أو سبيكة) فمن المشكوك فيه جداً أن قيمته الأصلية قد ضبطت بسكة لها طابع خاص على وجهيه ، وإذا فرضنا جدلاً حسب رأى « فون بسنج » ، أنه كان يوجد على هذه العملة علامة خاصة تميزها فإن هذه العلامة لم تكن قد عملت بطريقة تضمن عدم الغش ، إذ أن ذلك في الواقع كان يسبب حدوث غش مما كان يدعو من وقت لآخر ، أن يزن البائع هذه العملة . وهذا هو الدبب الذي جعل لنظرية الأستاذ فايل Weill بعض الاعتبار ، إذ كانت الضرورة لوزن هذا المعيار قد جعلت حياته قصيرة ، وذلك لأن شكل الشعت الخاص لم يكن له وزن متفق عليه . وهذا هو السبب الذي كان يجعل النقود الفطرية بعد مدة قصيرة ينقص استعمالها في المجتمع فمثلاً توريد دفعة قدرها ثلاثة « شعت » لم تكن تعمل بدفع ثلاث وحدات من الشعت معروفة مسكوكة ، ولكن بدفع قطعة أو عدة قطع من المعدن وزنها قدر وزن « شعت » ثلاث مرات أو بدفع بضائع من أى نوع كانت تقدر قيمتها بثلاثة « شعت » . ومن ذلك يتضح أن النقود الأصلية لم تكن حافظة لكيانها ، ومن هنا جاءت الفكرة أن الشعت كان معياراً حسابياً . والظاهر أن الشعت كان يستعمل لزاماً في الحسابات القانونية ، وفي العقود وفي كل أمور الإدارة الخاصة بالعقار ، وقد لاحظ ذلك الأستاذ « شستناه » عند ما قال : ليس المراد أن الأموال الأميرية كانت كلها بحسب المعيار

الطبيعية ، وكذلك لم تدفع الإدارة المرتبات لموظفيها بالمحاصيل ، بل كانت العمليتان من غير شك تسيران جنباً لجنب على حسب الأحوال . ومن أجل ذلك قد اضطر الكاتب القائم بالحسابات أن يعمل الخصم من قيمة كل الأشياء التي يمكن أن تدخل الخزينة بصفة ضرائب أو تخرج منها بصفة مرتبات على هذا النمط . (وتدل لوحة) الجيزة ووثائق أخرى عدة من عصور أحدث منها ، على أن مصر كانت لها منذ زمن بعيد أو على الأقل منذ الأسرة الرابعة نظام تقوّد رسمى ، وكان لا يتغير إلا عند ما تتدخل الإدارة فيه لعملية ما خاصة بها ، وذلك إما لفائدتها أو لإعطائها صبغة قانونية . مثلاً كانت المالية تفرض الضرائب على المولين بجمعهم يدفعون قيمة تقدر بوزن خاص من المعدن . وكان الممول يدفعها حسب ما في يده . من قح ونيذ وزيت وحيوان أما الصانع فكان يدفع ذلك من منتجات صناعاته .

وقد كان المحصل يقيد الكل حاسباً كل مادة بالتعريف التي وضعت لها . وهكذا كان الحال في المعاملات الشخصية عند ما كان الأمر يقتضى إجراءات قضائية ، فكانت المواد تقدر حسب القواعد المتبعة في الحكومة غير أن قيمة الدفع ومقداره كان يترك لاختيار المتعاقدين ولكن قيمة الشيء نفسه الذي كان يدفع ثمنه كان يقدر على قاعدة معيار من المعدن يعتبر وحدة .

والعيار الرسمى « شعت » كان حينئذ يعد القيمة الحقيقية لوزن خاص من الذهب . وهذا الوزن قد وصل إلينا من مسأله حسابية في ورقة « رند » التي يرجع تاريخها إلى نهاية الدولة الوسطى . وقد بقى مدة طويلة غير

مفهوم (1) . إذ يقول فيها : أن « الدين » من الذهب يساوى ١٢ « شعت » .
ونحن نعلم أن « الدين » يزن ٩٠ جراما وعلى ذلك يكون « شعت »
وزنه ٧,٥ جراما . ونعلم فوق ذلك أن « الدين » من الفضة يساوى
٦ « شعت » . ومن الرصاص يساوى ثلاثة « شعت » .

وعلى ذلك كان الرصاص يساوى ثلثه نصف ثلث الفضة فى الوزن ،
وكذلك كانت الفضة تساوى نصف ثلث الذهب . وهذا طبعا لا يدهشنا
إذا علمنا أن كلا من الفضة والرصاص كان نادر الوجود فى هذا العهد .
ومن جهة أخرى نعرف أن منذ بداية العهد الفرعونى كان نظام معيار
الوزن يستعمل حلقة وزنها عشرة جرامات (2) .

والظاهر أن الشمت قد اتخذ وحدة تمثل نصف هذا المعيار من الذهب .
ولا بد أنه كان يعتبر بلا شك ذا قيمة عظيمة لتحديد أصناف كثيرة
من السلع . وبعد عهد الدولة القديمة أدخل على معايير الوزن نوع جديد
يسمى « كيت » ويزن تسعة جرامات ، وهو ما يساوى $\frac{1}{3}$ من « الدين » .
وفى عهد الأسرة الثامنة عشرة كانت « الكيت » شائعة الاستعمال
على حين أن الحلقة القديمة التى تزن ١٥ جراما كانت تختصر؛ وكذلك
اختفى استعمال « الشعت » وأصبح القوم لا يستعملون فى تقدير متاجرم
إلا « الكيت » من الذهب .

ولا نزاع فى أن المصرى من كل ما سبق كان أول من فكر فى

(1) Eisenlohr, Ein Mathematisches. Handbuch der Alten Aegypter, Leipzig 1877 p.p. 151-152 et No 62 pl. XX. (2) The Rhind Mathematical papyrus, Liverpool, 1923.; Weill, La "Kite" d'or de Byblos dans Rev. Egypt. t. II fasc. 3-4. 1924, p.p. 21-37.

العالم في إيجاد وحدة لها وزن معين للتعامل في كل أمور الدولة .
أما القول بأن هذا المعيار كان حاسيا فحسب فمثله كمثل الذي
بنى نظرية على حقائق معكوسة وسنتظر لعل تربة مصر قد تخرج
من بطنها ما يوضح لنا الطريق في هذا الموضوع الذي يريد علماء الآثار
المصرية أن يعقدوه رغم وضوحه .

تجاره مصر الخارجية وعلاقتها بالأقاليم المتاخمة .

العلاقات بين مصر وآسيا .

تدل التطورات التي حدثت في الدلتا في عصر ما قبل الأسرات على أنه
قد نشأت مدن عظيمة عند مصبات فروع النيل قديما ، بالقرب من البحر
الأبيض المتوسط . وقد كان رخاء هذه البلاد وثراؤها مثل « متليس »
(فوة) وصا الحجر وأبو صير وغيرها يرجع بلا نزاع إلى تبادل سلعها مع
مدن سواحل سوريا في الخارج ، ومع مقاطعات الوجه القبلي في داخل
البلاد . وقد كان من نتائج تبادل التجارة الداخلية اختلاط سكان الوجه
القبلي الذين تنسب ثقافتهم إلى مدينة تقاده القديمة ، بسكان مدن الشمال
التجارية الذين كانوا أكثر منهم تحضرا واعرق مدنية وأرق ثقافة . وقد
جاء مؤكدا لهذه الاستنتاجات التي تركز على وثائق قديمة وبحوث أثرية
حديثة ، ما أسفرت عنه حفائر بيلوص (جيبيل)^(١) إذ وجد مودعا في
أساس معبد هذه البلدة ، بلط من الحجر المصقول ، وسكاكين من

(1) Montet, Byblos et l'Egypte, p. 272 ; Montet, Les Egyptiens
à Byblos, p. 243.

الظران ، ولوحات ، وخرز من الذهب ، والبلور الصخرى ، ومن العقيق ومن المرمر هذا إلى صور أشياء أخرى مختلفة ، وبالاختصار عثر على عدة أشياء وجد مايمثلها بين التي كشف عنها في عصر ما قبل الأسرات ومحفوظة الآن بالمتحف المصرى .

وستكلم فيما يلى عن العلاقات التي كانت قائمة بين مصر وسوريا في عهد الدولة القديمة ، وذلك حسب الآثار والشواهد التي عثرنا عليها في خلال تاريخ هذا العصر .

والظاهر أنه بعد انتصار أمراء « نخن » (الكوم الأحمر) على مدن الدلتا لم تتوان هذه المدن في إعادة علاقاتها التجارية الخارجية ولكن تحت سيطرة ملوك طينة الأول . إذ الواقع أنه عثر في مقابر جبيل (بيلوص) على بعض آثار من طراز صناعة عصر ما قبل الأسرات في مصر . وقد استمر استعمالها في وادى النيل بعد عهد الملك « مينا » ، وبخاصة إذا علمنا أنه عثر على اسم الملك « خع سخموى » ⁽¹⁾ منقوشا على قطعة أثرية أى إنها ترجع إلى عهد الأسرة الثانية . يضاف إلى ذلك أن حجر « بلرم » قد ذكر لنا وجود علاقات بين مصر وآسيا في عهد الملك « سنفرو » أول ملوك الأسرة الرابعة . إذ قص لنا عودة اسطول مؤلف من أربعين سفينة محملة بأخشاب لبناء السفن البحرية ولإتمام إقامة القصر الملكى . هذا فضلا عن أنه عثر في أساس معبد بيلوص على قطع أثرية متنوعة عليها أسماء ملوك من الأسرة الرابعة منها إناء من حجر الديوريت ،

(1) Montet, Byblos et l'Egypte, p. 271; Br. A. R. t. I, p.p. 55, 146-147.

وقطع نقش عليها خرطوش الملك « خوفو »^(١) وكذلك عثر على قدح من البلور الصخرى مهشم حفر عليه بإتقان فائق اسم الملك « منكاورع » ، وقطعة من المرمر عليها ألقاب الملكة « مريت اتس » زوج « سنفرو » ، ثم زوج « خوفو » من بعده^(٢) . وقد عثر كذلك في نفس المكان على إناء آخر من المرمر نقش عليه ملك الوجهين القبلى والبحرى « وناس » عاش أبديا .^(٣) وهذا يتفق مع صور السفن البحرية التى عثر عليها فى طريق معبد « وناس » الجنائزى فى حفائرسقارة^(٤) وكذلك يتفق مع ما عثر عليه من الرسوم فى معبد الملك « سحورع »^(٥) إذ نشاهد تمثيل الأسطول المصرى عائدا إلى مصر يحمل الأسويين من رجال ونساء وأطفال ودبتين مقيدتين فى أغلال من غابات لبنان . أما فى عهد الاسرة السادسة والآثار التى عثر عليها يرجع تاريخها إلى عهد « تيتى » و « يبي الأول » ثم « يبي الثانى » وكلها على وجه عام أوان وتمائيل صغيرة نقش عليها اسم الفرعون^(٦) .

ويوجد فى متحف بيروت نقش غائر من عهد الدولة القديمة له أهمية خاصة . وهو مقسم إلى منظرين مثل فيها الملك « يبي الأول » أو الملك « يبي الثانى » يقدم قربانا إلى إله ثم إلى إلهة وقد نقش عليه ما يأتى : « محبوب حتحور سيدة بيلوص » ، هذا إلى قطعة أخرى محفورة

(1) Montet, Byblos et l'Egypte, p. 73 No. 58. (2) Op. Cit. p. 69, No. 46; Les Egyptiens à Byblos p. 255. (3) Ann. Serv. A. t. XXXVIII, p. 520.

(٤) أنظر الجزء الاول صفحة ٣٥٢ وما بعدها .

(5) Borchardt, Das Grabdenkmal des Königs Sahure, t. II, p.p. 25-28, 86 et pl. XI, XII (6) Montet, Byblos et l'Egypte p.p. 70 No. 47-63.

حفرا غائرا قد أحضرها معه الكاتب الشهير «رينان» الفرنسى وهى
الآن فى متحف اللوفر (1).

وقد مثل عليها فرعون يقدم تضحية إلى إلهة لاسة ملابس مصرية . ولا
يتردد الأثرى عند رؤية هذا النقش فى نسبته إلى عصر الدولة القديمة
وليس هناك مجال للشك فى أن كل هذه الأشياء تدل دلالة واضحة على
مقدار تأثير الحضارة المصرية فى بلاد سواحل سوريا فى عهد الدولة
القديمة . على أننا من جهة أخرى نجد فى نقوش عطاء المصريين فى عهد
الأسرة السادسة ما يضع أماننا تفاصيل غاية فى الأهمية عن العلاقات بين
القطرين ، ولا أدل على ذلك من متون « ونى » التى تكلمنا عنها بأسباب
فى الجزء الأول (انظر ص ٣٧٩ وما بعدها) ، وكذلك فى عهد الأسرة الخامسة
شاهدنا حاكم المقاطعة « إتنا » قد مثل فى مقبرته بدشاشة كيفية الاستيلاء على
مدينة (نديا) وحصنها من أعمال سوريا (جزء أول ص ٣٣٦ - ٣٣٧) .

وتدل كل ظواهر الأمور على أن فراعنة مصر كانوا يراقبون عن
كثب كل حركات الأقوام والقبائل التى كانت تهدد البلاد من حين إلى
حين وتكون سببا فى قطع العلاقات التجارية الخارجية وما ينجم عنها من
نضوب موارد الدولة . فكانوا يقضون على كل حركة عدائية من هذا
النوع كما كانت الحال فى سيناء التى كانت منبعا فياضا لاستخراج النحاس
والفيروز . وذلك يفسر لنا مناظر نزول الجنود المصرية الممثلة فى معبد
« سحورع » مقلعة إلى بيلوص . ولا شك فى أن الجنود فى هذا العصر
كانوا أهم عامل فى تسيير التجارة ؛ إذ كان كل بحار فى الوقت نفسه

(1) Montet, Byblos et l'Egypte, p. 35 pl. 24, 27; p. 38, pl. 28.

جنديا يستولى على كل المحاصيل التى لم يسلمها الأهليون طائعين وقد كانت هذه نفس الطريقة التى تستعمل فى البعوث التى ترسل إلى شواطئ البحر الأحمر وبلاد النوبة والسودان (1) .

والظاهر أن نفوذ المصريين وسلطانهم لم يكن عظيما فى بيلوص كما كان فى فلسطين ، ولكن على الرغم من ذلك لاحظنا أن نفوذهم كان ناميا فى بيلوص لدرجة أنهم قد أقاموا هناك بعض آثار مصرية ، ولا يبعد أنه قد أسست هناك مستعمرة صغيرة لربط العلاقات التجارية بين البلدين وبخاصة لتحضير البضائع وشحنها فى السفن إلى مصر ، وكانت فى الغالب تحتوى على الأخشاب السورية التى لا نظير لها فى مصر كخشب الأرز والصنوبر وخشب الوشح والبان والسرو وغيرها من الأخشاب التى كان يحتاج إليها النجرون وصانعو السفن ، والمهندسون المماريون للقصر الملكى ، ومطعمو العاج الذين كانوا يصنعون الأثاث الفاخر هذا إلى الأخشاب ذات الروائح العطرية والصمغ التى كانت لها أهمية عظيمة فى تحنيط الأجسام وفى الشعائر الدينية والقرايين الجنازية . والواقع أن الأخشاب وأنواع الصمغ كانت تجلب من منحدرات جبال لبنان التابعة لإقليم « جيل » وهى بيلوص القديمة . وقد سميت قديما بلاد « نجا » (2) . وإله هذه الجهة المحلى كان يسمى « خاى تاو » وقد توحد معه الملك « ييى » فى متون الأهرام : « أن ييى هو « خاى تاو » وساكن بلاد نجا » (3) .

(1) Boreux, Etudes de Nautique Egyptienne, p. 469.

(2) Montet, Byblos et l'Egypte, p. 268. sq. (3) Sethe, Pyr. 518 d.

وكذلك يقول أحد أمراء بني حسن في عهد الدولة الوسطى : لقد صنعت بابا ذرعه سبعة أذرع من خشب (الأرز) « عش نجا » لدخل مقبرتي الأول .

وقد كان وقوع أى حادث يكون من جرائه شل حركة تجارة بيلوص يظهر تأثيره المباشر فى نظام مصر الاقتصادى ، والاجتماعى ، فيلاحظ أن فى عهد التدهور الذى أعقب سقوط آخر ملوك الأسرة السادسة كان المصرى يتحسر على تبدد شمل التجارة البحرية : « والآن وقد أصبح ولا أحد يمكنه أن يبحر إلى بيلوص ، فكيف يمكننا أن نجلب لمومياتنا خشب الأرز الذى كنا نصنع منه توايت الكهنة ، والذى كان يستعمل صمغه لتحنيط العظام؟ (1) . »

ومن هنا نفهم السر فى حرص المصريين على المحافظة على حسن سير نظام البعوث البحرية ، وفى اهتمامهم بذكر الشحن التجارية فى نقوشهم .

على أن المصرى لم يجلب إلى بلاده من سوريا الأخشاب والطور المستخرجة منها فحسب ، بل كان يستورد زيت الزيتون ، والنبذ الذى كانت تنتجه هذه البلاد بكثرة ، والواقع أن كروم فلسطين قد ذكرها « وفى » فى نقوشه (صفحة ٣٧٢ جزء أول) . ورغم أن النبذ المصرى كان من مختلف الأنواع الجيدة جدا فى الغالب ، فإن النبذ الأسوى كان يجلب إلى مصر . أما زيت الزيتون فقد كان ضمن المحاصيل التى شحن بها أسطول الملك « سحورع » (2) .

(1) Gardiner, Admonitions, p. 32. (2) Borchardt, op. cit. t. I, fig. 13.

ويلاحظ في نقوش هذا الملك أن الأواني الأجنبية كانت تحتوى على سوائل مختلفة الأنواع جىء بها من بلاد سواحل سوريا . ومن المدهش أنه عثر في مقابر العصر الطينى على أوان تدل أشكالها حسب فخر المختصين على أنها غير مصرية (1) .

وعلى أية حال فإن المصريين كانوا يجلبون سلعا أخرى لم تكن معروفة أو متداولة في مصر إلا قليلا ، ولم يصل إلينا منها شيء قط اللهم إلا اللب الذى أحضر من جبال لبنان ليوضع في حديقة حيوان الملك « سحورع » . ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن اللازورد الذى كان معدوما في جبال مصر قد استعملت منذ عصر ما قبل الأسرات ، ولا بد أنه كان يستورد من آسيا ، ولا غرابة في ذلك إذ سنجده ضمن النفائس التى كانت تقدم جزية للفرعنة في عهد الدولة الحديثة .

ولا بد أن البحار المصرى كان ينتخب الوقت المناسب للإبحار إلى هذه الجهات . وأحسن الأوقات الصالحة كانت في شهرى مايو ويونية ، إذ في تلك الآونة كان يقلع البحارة بسفنهم عندما كانت تهب رياح جنوبية وجنوبية غربية فتملاً قلاع سفنهم وتزج بها في البحر نحو سوريا ويصل المسافرون إلى يלוوس في مدى أربعة أيام ، ويبلغ طول هذه الرحلة نحو ٥٥٠ كيلو مترا . وكان البحار المصرى في خلالها يتوخى محازاة الشاطئ غير مجازف بالتوغل في البحر . وقد كان أكبر خطر يخافه البحارة هو هبوب ريح غربية أو شمالية غربية إذ كانت تمنح بالسفن إلى الشاطئ ، ولكن ذلك لحسن الحظ كان نادرا جدا ، اللهم إلا في شهرى يناير

(1) Petrie, Royal tombs, t. I, p. 8.

وفبراير. وقد كانت « جيل » مجهزة برفاً ترسو فيه السفن لتشحن .
أما عند العودة فكانت السياحة متعبة شاقة ، إذ كان لا بد للسفن من أن تمر
عباب البحر في تيار معاكس وريح غير ملائمة ، ولذلك كانت تجهز السفن
بمجدفين أشداء وتستغرق السياحة مدة لا تقل عن ضعف مدة الذهاب ،
وفي أغلب الأحيان كانت تنقضى هذه المدة دون حدوث أى عائق (1) .
ومن كل ما سبق يمكننا أن نستخلص بحق أن العلاقات التجارية بين
مصر وسوريا كانت من الحقائق التاريخية التي لا تقبل الجدل أو الشك ،
وكان لها أثر فعال في نمو مصر وتقدمها في عهد الدولة القديمة ، وهذه
العلاقات لم تكن بحراً فحسب بل كانت كذلك بالطرق البرية أيضاً ، وبخاصة
إذا علمنا أن هناك ما يحملنا على الظن بأن بلاد فلسطين الجنوبية كانت تابعة
للفراعنة بعض الشيء ولا سيما في خلال النصف الأخير من عهد الدولة القديمة .

علاقة مصر بجزر البحر الأبيض المتوسط .

تدل الكشف الأثرية على احتمال وجود بعض علاقات تجارية
معيّنة بين مصر وجزر البحر الأبيض المتوسط ولا سيما بين مصر وجزيرة
كريت منذ عهد ما قبل الأسرات . غير أن الآراء متضاربة في هذا الصدد
بين علماء الآثار فبعضهم يرجح وجود هذه العلاقات (2) ، وبعضهم ينكرها
إنكاراً باتاً (3) .

(1) Koster, Schiffahrt und Handelsverkehr, p. 14.

(2) Hall, The relation of Aegean with Egyptian Art, in J. E. A.
1914, p p. 110-118. (3) Herman Kees, Ægypten, p.p. 109-110.

ولكن من جهة أخرى تعوزنا النقوش والوثائق المدونة عن العصرين
الطيني والمنفى معا لإثبات وجود علاقات تجارية بين مصر وجزر البحر
الأبيض المتوسط ، وكل ما لدينا من المعلومات ينحصر في المواد الأثرية
فقط . وقد غالى بعض علماء الآثار في أهمية هذه الآثار وبنوا عليها
نظريات هائلة في علاقات مصر مع جزر البحر الأبيض المتوسط ، على
حين أن البعض الآخر كان على العكس إذ نظر إلى هذه الكشف
نظرة سطحية دون أن يعيرها أى اهتمام جدى . وسنعرض نحن للموضوع
دون التحيز لأحد الطرفين .

يقول المؤرخ الألماني «كوستر» (١):

« أن الأسباب التي حدثت بالمصريين إلى التوغل في البحر حتى جزيرة
قبرص هي نفس الأسباب التي حدثت بهم إلى شق عباب اليم حتى سواحل
سوريا . ولا نزاع في أن السياحة إلى هذه الجهة كانت أكثر خطرا
ولذلك كانت قليلة ، ولكن وجود معدن النحاس في هذه الجزيرة كان
من الأشياء التي تستحق المجازفة بمثل هذه الرحلة . والواقع أن قبرص
كانت تورد النحاس لفراعنة مصر ، في عهد الدولة الحديثة عند ما كانت
مصر صاحبة فتوح عظيمة وسلطان ضخم وتجارة نامية في آسيا وجزر
البحر الأبيض وغيرها ، غير أنه لا يمكننا أن نقول مثل هذا القول عن
مصر في عهد الدولة القديمة ، إذ كان النحاس الذي يستعمل
في ذلك العهد يستخرج من مناجم ميناء كما شرحنا ذلك

(١) Koster, Schifffahrt und Handelsverkehr p. 23; Seefahrten der
Ägypter, p. 17.

في مكانه ، بل إنه ليس لدينا أى دليل في مصر ولا في قبرص على ما ظنه العالم « كوستر » ولذلك نعتبر كل ما قاله غير مقطوع من هذه الناحية ، وعلى أية حال فلا يمكن المؤرخ أن يطبق ما وجد في عصر من عصور التاريخ على عصر آخر وبخاصة إذا كان أقدم منه بعدة قرون . وعلى الرغم من كل ذلك فإنه توجد بعض علاقات بين مصر وكريت ولكن يجب ألا نبالغ في أهميتها .

وذلك أن الأستاذ « بترى » قد كشف في مقابر العهد الطينى بالعرابة المدفونة بعض أنواع من الفخار يعتقد هو من أشكالها وطرارز صنها أن موطنها الأصلي جزر بحر إيجه (كنوسوس)^(١).

غير أن هذا رأى لم يشاطره فيه معظم العلماء المتخصصين فقال « ا. ل. بيت » : إن الفخار الذى عثر عليه الأستاذ « بترى » لا ينتمى إلى أية صناعة إيجية^(٢) ولكن من جهة أخرى يوجد بالمتحف البريطانى آنية صغيرة من الفخار الأسمر اللون المحرز كشف عنها في انتباروس Antiparos يدل نموذج صناعتها على أنها مصرية بدون شك ، ويرجع عهد صناعتها إلى ما بين الأسرتين الثالثة أو الرابعة^(٣)

هذا إلى أنه عثر على أوان في مصر وجد لها مثيل فيما كشف عنه في حفائر سهل مسارا (Messara) وفي كنوسوس . ففي الأخيرة :

-
- (1) Petrie, Royal tombs, t. II, pl. 54, p. 46.; Abydos, t. I, pl. 8, p. 6; t. II, p. 42, 28; Social life in Ancient Egypt, p. 164-5.
(2) E. Peet, Early Egyptian Influence in the Medit. (Ann. of the British school of Athens,) XVII (1910-1911) p. 253-254.
(3) Hell, Relations of Aegean with Egyptian Art in J. E. A. 1912, p. 114 pl. XVII, Fig. 2.

السير « ارثر ايفانز » على قطع ذات أهمية أثرية بعضها أجزاء آنية من الديوريت ، بينها وبين الأواني التي عثر عليها في عهد الملك « سنفرو » شبه عظيم . وقد عثر على أوان أخرى من نموذج نفس العصر ولكنها مصنوعة من الطلق الأيولي (في آسيا الصغرى) (1).

وأنه لمن الصعب جدا أن تنسب القطعة الأولى لمصدر غير مصر ، إذ الواقع أن المادة التي صنعت منها والشكل الذي ركبت به عليها الطابع المنفى ، أما الثانية فإنه من المحتمل جدا أن نقلها الصانع الكريتي عن نموذج مصري كان لديه . ورغم ذلك فإن الأستاذ « بيت » قد عارض في ذلك أيضا ، ولكن حجته ضعيفة (2).

وأهم من كل ما سبق أنه قد عثر على أختام على شكل أزرار في مصر في عهد الدولة القديمة وكشف عن مثيلاتها في « كريت » (3)

ولكن ذلك لا يهم في موضوع بحثنا ، إذ الحقيقة التي وصلنا إليها والتي لا تقبل الشك هي استعمال هذه الأختام في البلدين وفي عصر واحد وهذا ما يؤكد الرأي القائل بوجود علاقات بين مصر وكريت في عهد الدولة القديمة ، يضاف إلى ذلك ، أنه عثر على بعض آثار مصنوعة من حجر الأبسديان (الزجاج البركاني) في المقابر المصرية منذ عصر ما قبل الأسرات ، وهذه المادة لا توجد في جبال مصر قط ، ولكنها من جهة

(1) Evans, Palace of Minos, t. I, (Oxford 1921) p.p. 85 sq. 54-55; Early Nilotic, Lybian and Egypt. Relations with Minoan Crete p.p. 11 sq.; Peet, Early Egypt. Influence p. 255.

(2) Peet, Early Egypt. Influence p. 255. (3) Fimmen und Reisinger, Die Kretisch Mykenische Kultur, p. 154; Evans, Scripta Minoa, p. 121; Newberry, Scarabs, p.p. 56 sq.

أخرى توجد في جزر بحر إيجه بكثرة في (ميلو) ولذلك ظن بعض العلماء أنها قد جلبت من هذه الجزر ، وهذا الرأي يعارضه طائفة أخرى من العلماء إذ يقولون إن هذا الحجر يوجد في بلاد الحبشة وفي أرمينيا ويجوز جدا أن مصر كانت تستورده منها . يضاف إلى ما ذكرنا أنه عثر على بعض أشياء مصنوعة من مادة الصنفرة في مقابر عصر ما قبل الاثرات ، ولا يمكن أن يكون أصلها إلا من جزر الأرخيل وبخاصة جزيرة (نكسوس) أو آسيا الصغرى (1) .

ومما سبق يجوز لنا أن نستخلص وجود رابطة بين مصر وجزر البحر الأبيض المتوسط وبخاصة مع (كريت) في عهد الدولة القديمة ، غير أنه لا يمكننا بحال ما أن نؤكد أهمية هذه العلاقات أو استمرارها أو صبغها بصبغة تجارية أو ودية ولكن كان المصريون على أية حال يعرفون جزر « البحر الأخضر جدا » (البحر الأبيض المتوسط) ، إذ ذكر في ورقة بردى محفوظة الآن في برلين ويرجع تاريخها إلى الأسرة الثانية عشرة ، أن هذه الجزر كانت معروفة سماعا لدى عصر الدولة القديمة . وقد جاء ذكر سكان هذه الجزر « حاو نبو » في متون الأهرام حتى أن « مسبرو » قال عنهم : « إن وجود هؤلاء القوم كان معروفا منذ أمد بعيد قبل تدوين متون الأهرام (2) .

وليس بعيدا أن البحارة المصريين بما لهم من الجرأة في اقتحام البحار

(1) Petrie, Nagada and Ballas, p.p. 29, 44, 45, 48 ; Petrie, Prehist. Egypt p. 41. (2) Maspero, Histoire Ancienne, t. I, p. 391 No. 3.

قبل أية أمة في التاريخ كانوا يخاطرون أحيانا في عرض البحار عند ما تسمح الأحوال الجوية لهم بخوض غمارها . والواقع أنه توجد ريج شمالية في البحر الأبيض عند ما تهب بشدة تقود السفن من جزر « سيكلاد » Cyclades إلى (كريت) ، ومن ثم إلى مصر (1) .

أما الأستاذ « برستد » فيقول أن الثلاثة والأربعين ميلا البحرية التي تفصل مصبات النيل عن سهل (مسارا) يمكن قطعها في مدة ثلاثة أيام أو أربعة . وفي هذه الأحوال لا نظن أن البحارة المصريين كانوا يجمعون عن القيام بثل هذه الرحلات وبخاصة إذا كانت تعود عليهم بالفائدة ولا سيما أنهم قد شقوا غمار البحار من قبل الى يلوص وسواحل فينيقية عامة . على أن مثل هذه السياحات لم تكن وفقا على المصريين بل لا بد كان يقوم بمثلها أهالي كريت ، إذ كانوا متعودين الملاحة بين جزر بحر إيجه فكان من الجائز أن يندفعوا في سياحاتهم نحو الجنوب حتى الدلتا أو يتقابلون مع السفن المصرية على الساحل السوري . كل هذه النظريات والفروض ممكنة في ظاهرها ، ولكن ليس هناك ما يلزمنا على أن نقرر هنا مع السير « ايفانز » ان الكريتين كان لهم الشرف الأول في شق عباب اليم حتى السواحل المصرية والسورية (2) .

علاقة مصر بالبحر الأحمر وبلاد بنت في عهد الدولة القديمة

إن أقدم وثائق في متناولنا عن ملاحة المصريين في البحر الأحمر يرجع تاريخها إلى الملك « سحورع » أحد ملوك الأسرة الخامسة . وتدل

(1) G. Glotz, La Civilisation Egéenne, p. 5.

(2) Evans, Early Nilotic Relations, p. 6 sq.

الأحوال على أن البحر الأحمر لم يركب المصريون منه في سياحاتهم إلا نادرا ، إذ كان معظم ملاحظهم في البحر الأبيض المتوسط ، وذلك أنه منذ العهد الطينى وربما قبله ، كان يجلب النحاس من شبه جزيرة سيناء بالسفن ، ولكن بعد شحنها عند سواحل سيناء كانت تسلك أحد طريقين في العودة إلى مصر ، إما طريق الشمال حتى خليج السويس ، وإما طريق الجنوب حتى القصير . وفي الحالة الأولى كانت الشحنة تنقل إلى البر مارة بالبحيرات المرة ووادى طميلات حتى مدن الدلتا أو مقر الملك « منف » . أما الذين يتبعون الطريق الثانى فكان لزاما عليهم أن يقطعوا صحراء العرب من القصير حتى النيل عن طريق وادى حمامات ، ومن ثم يركبون النيل ، ولا يبعد أن يكون هذا الطريق الأخير هو الذى كان متبعا فى عهد ملوك العصر الطينى ، لأن العاصمة كانت فى الوجه القبلى ، إلا إذا كانوا يفضلون الطريق الطويل عن وادى طميلات لأنها كانت أقل متاعب وعناء وخطراً وقد لاحظنا فيما سبق أن هذه السياحات البحرية كانت تستلزم عدة وعتادا وجما غفيرا من الموظفين على اختلاف أنواعهم ، كالبجارة والضباط ، وعمال المناجم ورؤساء الأعمال ، والحجارة ، ورؤساء القوافل والجنود وضباطهم ، هذا عدا رجال الإدارة الذين كانوا يرافقون البعثة . وكانت هذه البعث بطبيعة الحال حكومية ، أما أهميتها أو كثرتها فكانت تتوقف على حاجيات العصر الذى أرسلت فيه ، وعلى أمان الطرق التى كانت تهددها القبائل المتردة ، ثم على مقدار نفوذ الفرعون وقوة بطشه . ويلاحظ أن التجارة البحرية مع هذه السواحل القاحلة المتاخمة لخليج السويس لم يكن لها أهمية تذكر إذا

استثنينا جلب النحاس من شبه جزيرة سيناء ولكن منذ أن خاطر البحارة المصريون الشجعان متجهين في سياحتهم نحو الجنوب ، باحثين عن بلاد الآلهة الخرافية ، التي وصلوا إليها وأحضروا منها بعض محاصيل كانت إلى ذلك المهد مجهولة في مصر ، والملاحاة في البحر الأحمر بدأت تأخذ شكلاً جديداً وأهمية خاصة . وعلى أية حال فلا نعرف بالضبط الوقت الذي بدأ المصري يخر فيه عباب البحر قاصداً بلاد (بنت) ، وكل ما نعرفه أن أول رحلة دونت هي التي أرسلت في عهد الفرعون « سحورع » وقد دون فيها أن قد أحضر إلى مصر منها المر ، ومعدن الالكتروم ، والأخشاب الأجنبية بكميات وافرة (1)

وقد كان المصريون يتخيلون بلاد (بنت) ذات أشكال غامضة سرية كما كان القوم يتخيلون بلاد الهند وغيرها من البلاد النائية في الأزمان السالفة ولم يكونوا أنفسهم عن كنهها رأياً قاطعاً .
والحقيقة أن موقع بلاد (بنت) كان موضوع بحوث عدة عند علماء الآثار . فقد تكلم عنها « بروكش » ، و « مريت » و « لبلين » و « كرال » ، و « مسبرو » وغيرهم (2) .

(1) Br. A. R. t. I, p. 5, 161.

(2) (a) Lieblein, Handel und Schiffahrt auf dem Rothen Meere, p.p. 52-75. (b) Krall, Studien zur Geschichte des Alten Aegypten, IV, Das Land Pounit, Litz des Kais Akad. der Wiss in Wien Phil. Hist. Kl. Band CXXI Abh II, 1890. (c) Maspero, Le pays de Pouanit, Etudes de Myth. & Arch. Eg. t. VI p.p. 38-41; De Quelques Navigations des Egyptiens sur les Côtes de la mer Erythrée, Même Ouvr. t. IV. p.p. 75-118. (d) Paul-Wissowa Article Saba.

فبعضهم يقول إنها بلاد العرب وبعضهم يقول إنها بلاد الصومال أو
الاثنان معا . والظاهر أن بلاد (بنت) كانت عند المصريين أنفسهم
غير محدودة العالم ، بل كانوا يعدونها البلاد العجيبة التي يصل إليها
الإنسان عند ما يسبح في البحر الأحمر متجها نحو الجنوب ، وهذه البلاد
كان يجلب منها البخور والروائح العطرية والصمغ المقدسة التي كانت
تفتقر إليها مصر ، وكما ذكرنا فإن هذه البلاد لا بد كانت في نظر المصري
كما كانت بلاد الهند والشرق في نظرنا حتى عهد قريب ؛ إذ كانت هذه
الجهات ليس لها معنى جغرافي معين ومن أجل ذلك لا يجدر بنا أن نشهد
القريحة في تعيين موقع بلاد (بنت) عند المصريين أنفسهم إذ لم يعنوا هم أنفسهم
بضبط موقعها ، لأنها كانت عندهم من الأماكن التي يحيط بها الغموض
والخيال والرغبة ، ولا غرابة في ذلك فقد كانوا يعتقدون فيها أنها الأماكن
المقدسة التي نشأت فيها آلهتهم .

وكل ما يهمننا عمليا في هذا البحث أن بلاد (بنت) كانت تقع في المنطقة
التي تشمل بلاد الإثرتية ، والصومال من جهة ، وشواطئ بلاد العرب السعيدة
من جهة أخرى . والآن بقى علينا أن نعرف الأماكن التي كانت تشحن
منها السفن المصرية على ساحل البحر الأحمر ، وتدل الأحوال على أن
المر والبخور كانا يشحنان من اليمن ، والأقاليم الإفريقية الواقعة على البحر
الأحمر . أما الذهب والأبنوس فكانا على العكس يجلبان من القارة السوداء
(إفريقية) . ولا بد أن المصريين كانوا في عهد الدولة القديمة يتبعون
في سياحاتهم إلى هذه البلاد طريق وادي طميلات حتى خليج السويس (1) .

(1) Meyer, Histoire de l'Antiquité, t. II, p.p. 256, 265.

وذلك لأن عاصمة البلاد كانت في هذا الوقت « منف » . والواقع أن « يبي نخت » في ترجمة حياته (جزء أول ص ٣٩١) يقص علينا أن « يبي الثاني » قد أرسله إلى بلاد « العامو » لإحضار جثة « عنخت نبي » . وقد كان الأخير ضابطا بحريا لسفينة ومعه جنود وبحارة ، وكلف ببناء سفينة للإبحار بها إلى بلاد بنت . ومما يؤسف له أن الحملة قد داهمها سكان الرمال « حريوشع » وقتلوا رجالها . ومن ذلك يتضح أن الملاحة إلى بلاد بنت كانت تبتدىء من ساحل خليج السويس ، لأننا نعلم أن « العامو » و « الحريوشع » هم القبائل السامية الرحل الذين كانوا يسكنون في هذه الجهات . على أن كل البعوث التي كانت ترسل إلى (بنت) لم تتخذ هذا الطريق ، اللهم إلا إذا كانت كل البعوث تجهز في عاصمة البلاد القريبة من خليج السويس ، إذ كان حكام مقاطعة (الفتين) العظماء مشهورين بالقيام بمثل هذه الرحلات كحرخوف وغيره . وكان السفر من المقاطعات الجنوبية في الوجه القبلي حتى خليج السويس يضيع على البعثة وقتا طويلا في النيل حتى منف ، ومن أجل ذلك كانوا يتخيرون طريق وادى حمامات الذى يؤدي من قفط على النيل إلى إقليم « ساو » (القصير) على البحر الأحمر وهذه كانت الطريق التي سلكها ملوك الأسرة الحادية عشرة ومن جاء بعدهم . وقد ترك لنا رجال بعوثها بعض تفاصيل عن هذه الطريق (1)

ولا نزاع في أن هناك طرقا أخرى جنوبى قفط تصل بين النيل وشاطئ البحر الأحمر ، ولكننا نجعل تماما ما إذا كان المصرى قد استعملها ولكن المؤكد لدينا هو أن طريق الصحراء الذى يمر بوادى حمامات كان

(1) Erman Ranke, *Ægypten und Ægyptisches Leben*, p. 600 sq.

مستعملا منذ عهد الفراعنة حتى يومنا هذا .

والظاهر أن السفر إلى بلاد (بنت) لم يكن بالشئ المعتاد ، إذ كانت القوافل تقطع المسافة في مدة أربعة أيام من قفط إلى البحر الأحمر سالكة طريقا وعرا لأماء فيه ، شمس محرقة ، وفي النهاية يصل الإنسان إلى ساحل قاحل لاسكان فيه ولا حياة ، ومن أجل ذلك كان أول هم للبعثة أن تحمل معها كل المعدات لبناء السفينة أو السفن التي كانت تقلع إلى بلاد (بنت) ، إذ لم يكن هناك مرفأ للسفن ميثا كما كان الحال عند مصبات النيل على البحر الأبيض المتوسط حيث المدن العظيمة ، ولذلك كانت كل بعثة تريد الابحار إلى بلاد بنت تبتدىء بتجهيز المعدات من جديد فكانت تحضر معها المواد الغذائية ، والماء بمقادير عظيمة كما كانت تحضر سلعا للتبادل ورجال من كل نوع ، كالبحارين والجند ، والحمار الخ . ولا بد أن تتصور كل المشاق التي يجب أن يتحملها رجال البعثة قبل بدايتها ، والواقع أنه حتى في أيامنا نجد الملاحة في البحر الأحمر مشهورة بصعوبتها ، إذ الجو في مياه هذا البحر الواقع بين شاطئين قاحلين حار جدا ، هذا إلى وجود جزر صغيرة قاحلة ، وعقبات من المرجان وغيرها مما يجعل الملاحة محفوفة بالمخاطر . ولا شك في أن بحارة الدولة القديمة كانوا يتخيرون الأوقات المناسبة للسفر في هذا البحر حتى لا يتعرضوا إلى مخاطره ، وذلك حسب هبوب الرياح . فمن شهر يونية إلى شهر أغسطس تهب رياح شمالية غربية على البحر الأحمر ، وفي سبتمبر جنوبي خط عرض ١٦ شمالا ، تكون الرياح نادرة ، ومن أكتوبر إلى إبريل كانت الرياح تهب من الشرق إلى الشمال الشرقي في خليج عدن ، ومن الجنوب الشرقي في بوغاز

« باب المندب » ثم يتجه نحو الشمال فى الجهة الشمالية من البحر الأحمر (1). وفى هذه الأحوال كانت البعوث تبحر من القصير فى شهر يونية وبذلك يمكنها أن تقطع ٢٠٠٠ كيلو متر فى ثلاثين يوما أو أربعين يوما وهى المسافة التى تفصل القصير عن باب المندب . وفى منتصف شهر يولية كان فى مقدور البعثة أن تستمر فى سيرها نحو الشرق حتى رأس جردفوى . ولكن كان لابد من العودة حوالى أكتوبر بعد انتهاء عمليات التبادل التى كانت تحتاج إلى زمن . وإذا سار الإنسان بسرعة مع ريح رخاء فقد يصل فى نهاية ديسمبر عند خط عرض ٢٠ شمالا ، وعندئذ لا تبقى إلا مسافة ٥٠٠ كيلومتر تقطع بالمجاديف فى رياح مضادة وإذا كانت الأحوال الجوية حسنة - تصل البعثة أخيرا إلى القصير فى شهر يناير أو فبراير أى إلى النقطة التى أبحرت منها بعد غياب عام بأكمله .

ومما سبق يتضح أنه كانت هناك سلسلة عقبات للوصول إلى هذه البلاد وذلك على فرض أن البحارين يعرفون أوقات هبوب الرياح الملائمة للسياحة والمعاكسة لها طوال العام ، وأنه يمكنهم أن يوجدوا علاقات حسنة مع أهالى (بنت) يضمنون بها شحن البضائع اللازمة لهم فى مدى بضعة أسابيع ، وألا يجحدوا فى طريقهم بحرا ، أية عقبة من العقبات الخطرة وعلى أية حال فإنه يوجد شك كبير فى أن معظم البعوث التى أرسلت إلى بلاد بنت فى عهد الدولة القديمة قد تعدت تجارتها بلاد « الأثرية » أو بلاد العرب السعيدة . هذا إلى أن الوصول إلى هناك كان يعد من

(1) Koster, Seefahrten der Alten Ägypter, p. 26.

الأعمال العظيمة في نظر سكان وادى النيل وما لدينا من المعلومات يحملنا على الظن بأن الملاحاة إلى هذه الجهات الخيالية لم يبدأ المصريون القيام بها إلا بعد أن عرفوا بلاد سوريا ووصلوا إليها ويدل على ذلك أن السفن التي كانت تمخر عباب البحر الأحمر كانت تسمى « كبنت » وهو اسم بلدة جبيل (يبلوص) ، إذ يبرهن ذلك على تتابع تاريخي (1) .

وعلى أية حال فقد ذكرنا أن أقدم بعثة معروفة لنا إلى هذه البلاد قامت من مصر في عهد الملك « سحورع » كما جاء ذكر ذلك في حجر « بلرم » ، ولا نزاع في أنها لم تكن أول شيء من نوعه إذ نشاهد رسم أحد سكان (بنت) مع أحد أولاد « خوفو » الذي كان أميراً للبحر في هذا العهد . وهذا الرسم يشبه أسرى بلاد بنت الذين أحضرهم « سحورع » من هذه الجهة . ولا بد إذن أن يرجع عهد هذه الرحلات إلى زمن بعيد ، ورغم ذلك فليست لدينا معلومات تدل على أن مثل هذه البعثات كانت ترسل إلى هذه الجهات قبل العهد المنفى . ومن آخر بعثة ذكرناها إلى هذه الجهات لم نثر على وثائق تمكننا من أن نتحقق منها بصفة قاطعة على قيام بعثات معينة ، ففي نقوش مقبرة بأسوان من عهد « بيبي الثانى » قرأ أن « خنوم حتب » يفتخر قائلاً : « لقد راققت سيدى خوى » إحدى عشرة مرة إلى بلاد بنت (2) .

على أننا لا نعرف إذا كان « خوى » هذا مخلصاً في قوله أو أن هذه الرحلات لوسلنا أنها تمت فعلاً قد نفذت عن طريق البحر ، إذ يجب أن

(1) Kees, *Ægypter*, p. 122.

(2) Br. A. R. t. I, p. 361; Sethe, *Urk. I*, p.p. 140-141.

نلاحظ هنا أن في الامكان الحصول على منتجات بنت عن طريق بلاد النوبة والسودان . وسنرى عند الكلام على هذه الجهات أن المصرى قد توغل نحو الجنوب والجنوب الشرقى من الفتين منذ زمن بعيد . وقد كان أمراء هذه الجهات لهم شهرة عظيمة بصفتهم رؤساء القوافل . وقد كان منهم « حرخوف » الذى عاش فى عهد « بيبى الثانى » ، وقد قص علينا فى تاريخ حياته رحلته إلى أعلى النيل وفى خلالها أحضر قزما مماثلا للذى أحضره « باوردد » من بلاد بنت فى عهد إيسيسى أحد ملوك الأسرة الخامسة (جزء أول ص ٣٤٨) . وكذلك أحضر البخور ومعدن الالكتروم ، والحشب الأجنبى الذى ذكر فى تاريخ « سحورع » أنه أحضر من بلاد (بنت) ، وذكر كذلك بين قوائم المحصولات السودانية التى جلبتها القوافل التى أعدت فى « الفتين » . وما سبق يحتمل جدا ألا تكون البعوث البحرية إلا مكملة للتجارة البرية . وقد كانت هذه تعد لجلب كميات عظيمة من الصنع والطور ، لسد النقص الذى كان عساه يحدث من تأخر المبادلات التى تقوم بها القوافل . على أن هذه البعوث ربما كانت أحيانا ترسل على سبيل التقليد بمثابة إعلان لبداية حكم الملك الذى أرسلها .

العلاقات التجارية مع البلاد المتاخمة

١ تكن تجارة مصر مع البلاد المجاورة لها ذات أهمية تذكر ؛ إذا سنينا بلاد النوبة ، إذ كانت تجارتها مع فلسطين وبلاد سوريا تجرى معظمها بطريق البحر . على أن هذا لم يكن عائقا لقيام التجارة بينها

وبين مصر بالقوافل عن طريق الصحراء مارا بالقنطرة وشرقي بحيرة المنزلة . وعلى أية حال فإن المصرى كان فى كل عهود تاريخه يعمل كل ما فى وسعه ليتحصن ضد أية غارة تأتى له من جهة البلاد المتاخمة ، ولذلك كان يقيم الحصون والقلاع .

ولما أصبحت حدود الأرضين قوية الحصون ، أخذت منطقة نفوذ البلاد تمتد تدريجيا حتى ضمت شبه جزيرة سيناء وسهول فلسطين الواقعة بين البحر الميت وساحل يافا وعسقلان وغزا ، بل لقد سار « ونى » الشهير بجنوده حتى سفح جبال الكرمل . وقد كانت المحاصيل المصرية ترد إلى هذه الجهات ويؤخذ بدلا منها النبيذ وزيت الزيتون وهما من أهم محاصيل هذه الأقطار . وقد كان يجتمع فى هذه التخوم رجال القوافل السورية الذين كانوا يوثقون الروابط التجارية مع بلاد نهر الأرنط (العالمى) بسهل (سارون) . ومن المحتمل جدا أن انتشرت بوساطتهم بعض السلع أو الصناعات الفنية بين مصر وبلاد دجلة والفرات منذ عصر ما قبل الأسرات (1) .

أما من جهة بلاد لوىيا وهضبة برقة فقد كان فيها قبائل رعاة ثور أحيانا ، مما كان يحمل الفرعون على السهر على حماية تخوم الدلتا الغربية وقد كان يجلب منها الزيت الذى يطلق عليه الزيت اللوى ، وكان يستعمل حسب التقاليد لذلك الأجسام (2) .

وقد كانت هجمات هؤلاء اللوبيين تدعو الفرعون للقيام بحملات ضدهم

(1) Meyer, Histoire de l'Antiquité, t. II, p. 182. (2) Newberry, Ta Tehenou, Oliveland in Anc. Eg. (1915) p. 97-102.

فينكل بهم ثم يعود إلى مصر ولا يلبث أن يقوم بهجمة أخرى فينقض عليهم كرة ثانية وهكذا . وقد ترك لنا الفرعون « سحورع » ، نقشا غائرا يمثل انتصاره على اللويين وفيه نرى جماعة المهزومين من قبيلتي « باقت » و « باسن » ومعهم قطعانهم من البقر والماعز والحير تعد بالآلاف . (1) وقد كان سكان الواحات وهم من الجنس اللوي أيضا خاضعين لسلطان الفراعنة . وكانت صناعتهم رعى بعض الحيوان وحنى ثمار نخيلهم هذا إلى أنهم كانوا يزرعون الكروم التي كانت لها شهرة خاصة (2) وكان الفرعون كذلك يخضع من شوكتهم إذا قاموا بأى عصيان .

أما سكان « ايوتيو » وهم سكان الكهوف فى صحراء العرب فلم يكن لهم أية شوكة أو سطوة لأنهم كانوا قوما جياعا وأهم ميزة لهم أنهم كانوا قواد قوافل مجيدين عند ما كانوا يفضلون هذه المهنة على القيام بغارات على بلاد النيل المجاورة وكان الفرعون فى هذه الحالة يرسل عليهم صواعق من جنوده فيرتدون إلى كهوفهم مدحورين .

وفى الجملة كانت العلاقات التجارية تجرى بدون عناء كبير بين لوبيا والواحات وشبه جزيرة سيناء وبدو صحراء العرب على أنه فى الواقع كانت الأقاليم الخارجة عن وادى النيل والمتاخمة له تعتبر أنها جزء من الدولة المصرية ولكنها فى الوقت نفسه كانت تتطلب يقظة مستديمة من قبل الفرعون وغالبا ما كان يقوم بهذه المهمة رجال من بين رجال هذه القبائل نفسها مقابل أجر يدفعه الفرعون لهم .

(1) Borchardt, Das Grabdenkmal des Königs Sahure, t. II, pl. I, p. 72 sq. (2) Kees, Aegypten p. 50.

العلاقات التجارية بين مصر وبلاد النوبة والسودان .

كان إقليم أسوان منذ أقدم العهود المصرية يعتبر الجهة التي تتجمع فيها تجارة سكان القطر المصرى وبلاد النوبة السفلى . ولا غرابة في ذلك فإنه كانت بين البلدين روابط جنسية وثقافية إذ نجد أن نوا البلدين وثقافتها العامه من الشلال الاول قد بقيت واحدة شكل ظاهر ، ولكن الوحدة الثقافية التي كانت بين البلدين انفصم عراها حوالى العصر الذى بدأ فيه ملوك « نفخن » (الكوم الأحمر) يتولون عرش البلاد المصرية . ومنذ العهد الطينى أخذت بلاد النوبة السفلى بما هو معروف عن أهلها من بطء الحركة تتباعد عن الصعيد وتنحاز إلى السودان فغلب عليهم في ذلك عوامل الدم .

وعلى أية حال فإن مقاطعة « الفنتين » المتاخمة لحدود بلاد النوبة رغم أنها كانت تابعة لمصر سياسيا ، فقد بقي سكانها من الجنس النوبى حتى هضبة السلسلة وكان هذا الإقليم يطلق عليه اسم (أرض ست) « تاست » أى نوبية أو مقاطعة النوبيين . وقد بقيت صبغة إقليم أسوان كما هى حتى يومنا هذا ، رذلك لأن موقعها الجغرافى قد جعل منها إقليم انتقال بين البلدين من الوجهة الجنسية ، وكذلك من الوجهة التجارية ويدل على ما كان بين مصر وبلاد النوبة من النشاط التجارى نفس كلمة « آب » (الفنتين) ومعناها العاج . وكذلك « سونت » أى أسوان الحالية ومعناها التجارة (1)

(1) Erman Ranke, *Ægypten und Ægyptisches Leben*, p. 592.; Kees, *Ægypten* p.p. 107, 339. sq.; Meyer, *Hist. de l'Ant.* t. II, p. 44.

والواقع أن إقليم بلاد النوبة السفلى كانت أهميته تنحصر في أنه الطريق الموصل إلى الصحراء التي كانت تحتوى على مناجم الذهب الواقعة في الشرق وكذلك نحو الأقاليم اليانعة الواقعة في أعلى النيل . وقد كان سكان قبائل هذه المقاطعة يعيشون على تربية الماشية ومن تسهيل سبل المبادلة بين القطرين . ولما كانوا بطبهم ينجحون إلى العصيان كما هو الحال مع كل الأقوام المتاخمة لمصر ، فإن الفرعون كان يرسل عليهم حملات شديدة لكبح جماحهم ، على أنهم كانوا دائما على استعداد للقيام للهيئة الحاكمة بقيادة القوافل أو الانخراط في سلك الجيش بصفتهم جنوداً مرتزقة (1) . وقد كان ملوك الدولة القديمة يرسلون الحملات المسلحة إلى هذه الجهات لتأمين الطرق التي تؤدي إلى السودان ، أو لإخضاع أهالي النوبة المغيرين على بلاد القطر . وقد كانت هذه الحملات تأتي بفوائد من كل جهة إذ كانت أحيانا تستولى على ما لديهم من العاج والأبنوس . فتدلنا الآثار على أن الملك « خع سخموى » أحد ملوك الأسرة الثانية وبعده الملك « زوسر » ، قد توغلا في بلاد النوبة وقد أخضع الأخير منهما لسلطانه ما يقرب من اثني عشر فرسخا من أسوان إلى المحرقة ؛ وهذا الإقليم أطلق عليه اليونان اسم « دوديكاشين Dodecashene » . وجاء في تواريخ حجر « بلرم » أن الملك « سنفرو » أول ملوك الأسرة الرابعة ذهب لإخضاع هذه الجهات وقد رجع معه ٧٠٠٠ أسير و ٢٠٠٠ رأس ، من الحيوانات الكبيرة والصغيرة (2)

(1) Moret, Des clans aux empires, p. 196 ; Meyer, Hist. de l'Ant. t. II, p. 46. ; Cf. Meyer, op. cit. t, II, p.p. 155, 185 et 233.

(2) Br. A. R, t. I, p. 146.

وفى عهد الملك « يبي الأول » نجد فى النقوش بعض أسماء القبائل النوبية التى جند منها « وفى » جيشه لإخضاع الأسويين . منها قبائل : « إرتت » و « مجا » ، و « أمام » و « واوات » و « كاوو » . وقد ذكر « مسبرو » أن قبائل « واوات » ، و « المجا » كانوا فى شرق النيل ، أما البقية فكانت على الضفة الغربية (1).

ومن المحتمل جدا أن هذه القبائل لم تمتد قط نحو الجنوب ، ولم تصل الفتوح المصرية إلى الشلال الثانى . أما الأقاليم السودانية التى كانت تقع فى الشرق فإنها لم تكن معروفة إلا عن طريق روايات النوبيين ، من الخدم والجنود الذين قاموا برحلات متوغلين فى داخل هذه البلاد مع عظماء الفنتين .

وفى عهد الملك « مرنرع » خلف « يبي الأول » ، كلف « وفى » بحفر خمس ترع عند شلال أسوان لتسهيل مرور السفن والقوارب ، وقد صنعت هذه القوارب من خشب السنط من بلاد « واوات » . وقد قدمه له رؤساء هذه الجهة . وفى السنة الخامسة من حكمه ذهب الملك « مرنرع » بنفسه ليتقبل خضوع رؤساء « المجا » و « إرتت » و « واوات » . وقد وجد ذكرى هذا الحادث ممثلا فى نقش غائر على صخور الشلال وهو فى كنف الإله « خنوم » إله الشلال (2) .

وكذلك فى عهد حكومة الملك « مرنرع » قام « حرخوف » برحلته الأولى نحو الجنوب كما سبق ذكر ذلك (الجزء الأول ص ٣٨٢) .

(1) Msspero, Etudes de Myth. et d'Arch. Eg. t. VI, p. 36.

(2) Lepsius Denkmaler, t. II, p. 116 b.

ومن منطوق نقوش سياحات « حرخوف » ، يمكن الوصول إلى بلاد « بنت » بالتوغل من الفتين نحو الجنوب الشرقى . على أن العقبة الوحيدة في عدم إمكاننا تتبع « حرخوف » في مخاطراته والبعوث التي قام بها هي عدم معرفتنا بالضبط المواقع الجغرافية التي ذكرها لنا أى أننا لم نوفق للآن إلى تحديد أقصى نقطة وصل إليها في حوض نهر النيل الأعلى .

وعلى أية حال فإن حفائر الأستاذ « ريزنر » في السودان قد أظهرت أن الأسرة السادسة قد بلغت في توغلها حتى (كرمه) عند الشلال الثالث⁽¹⁾ إذ أقيم هناك متجر .

ولا نزاع في أن وعناء الطريق ومخاطرها كانت عظيمة جدا ، ولذلك كان يعد التوغل في هذه الجهات من أعظم الأعمال الجليلة بالنسبة لهذا العصر . ولذلك يقول « مسبرو » كان الطريق البرى متعبا ولا نهاية له ولم يكن لدى القوم غير الحخير من حيوانات الحمل ، ولم يكن في مقدورها غير قطع مسافات قصيرة ، فكان الإنسان يقضى الأشهر تلو الأشهر في السير في أقاليم ، كانت قوافل الجمال تقطعها في بضعة أسابيع . أما الطرق التي كان المسافرون يتحتمونها فهي التي كان قد حفر فيها آبار للماء على مسافات متقاربة وقد كانت الحاجة لإرواء ظمأ الحخير كبيرة ، واستحالة نقل المياه معهم بكيات وفيرة من الأسباب التي أجبرت المسافر على أن يسلك طرقا ملتوية مرتبكة . وقد كانوا ينتخبون لأجل التبادل ما خف حمله

(1) Reisner, Excav. at Kerma (Harvard African studies) t. V-VI (1923); Kees, *Ægypten*, p. 346.

وغلا ثمنه فكان المصري يحمل معه من بلاده الخرز المختلف الأنواع ،
والمجوهرات والسكاكين الخشنة الصنع ، والروائح الشديدة الشذى ، ولقافات
النسيج البيضاء أو الملونة التي لا تزال تروق في أعين هذه الجهات الإفريقية
حتى الآن . أما أهالى النوبة والسودانيون فكانوا يدفعون ثمن هذه الذخائر
التي لا تقدر بثمن في نظرهم ، الذهب على هيئة تبر أو قطع ، أو ريش
النعام ، أو جلود الأسود أو الفهود ، أو العاج ، والودع ، وقطع خشب الأبنوس ،
أو البخور ، أو الصنع العربى . وكذلك كان يهتم المصريون بأخذ القرود
والنسانيس التي كان الملوك والأمراء يتسلون بها ويعرضونها موثوقة في قوائم
كراسيهم في أيام المقابلات الرسمية ؛ أما القزم الذى كان من السلع النادرة
(دنج) فكان دائما يطلب ولكن دون الحصول عليه قط .

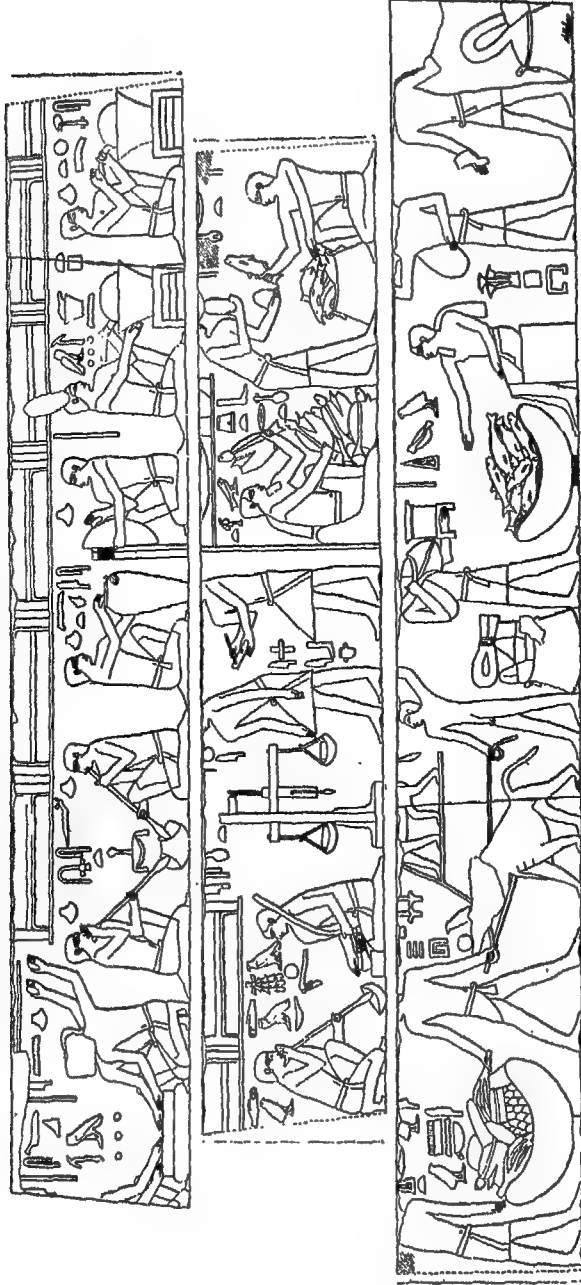
وقد أصبح أمراء « الفنتين » من أهل اليسار وذلك إما بالنهب أو
بالتجارة وصاروا يعدون من عظماء أشراف الصعيد (1) .

وكذلك يقص علينا « بيبى نخت » أمير « الفنتين » أعماله العظيمة
في بلاد النوبة (انظر جزء أول ص ٣٨٩ الخ) إذ يقول إنه بناء على أمر الملك
« بيبى الثانى » قام بمهاجمة بلاد « واوات » ، و« إرتت » الثائرة وذبح من أهلها خلقا
كثيرين وقد أحضر معه رؤساءهم رهينة ، وعددا عظيما من الأسرى
والماشية وقد قام بعده بفترة « سبنى » بحملة لإحضار جثة والده (انظر
جزء أول ص ٣٩١) « نخو » الذى مات في بلاد « واوات » ليحفظه ويدفنه
في بلده الأسمى .

(1) Maspero, Hist. Anc. des Peuples de l'Orient, t. I, p.p. 426;
Pirenne, Hist. des Inst t III, p.p. 127 sq

وقد انتهز هذه الفرصة وحمل مائة حمار من محاصيل هذه البلاد الأجنبية وهذا آخر عمل من نوعه نعرفه، في عهد الدولة القديمة وربما ما خفي كان أعظم .

وهكذا نرى أنه منذ العصر الطيني حتى نهاية الدولة القديمة كان تراء البلاد الاستوائية يجذب المصريين إلى بلاد النوبة والسودان ويحملهم على القيام ببعثات بالقوافل مخوفة بالمخاطر . ويلاحظ في خلال تلك الفترة أن الرسل الذين كان يرسلهم الفرعون وأمراء أسوان كانوا يتبعون بلا هوادة سياسة حكيمة قبلتها توسيع نفوذ الفرعون في هذه الجهات ، وقد كان هذا يتطلب من وقت لآخر إرسال حملات تأديبية لإخضاع الثوار كما كان الحال في سيناء وسوريا وفلسطين .



مناظر صنایع مصریہن پودوں عملہم و سوق مصریہ تجری فیہا البادلات

الفن

الفنون والحرف الدقيقة في العصر الطيني وما بعده .

تكلمنا في عصر ما قبل الأسرات عن بداية ظهور الفن عند المصريين وقد تمثل ذلك في بعض الصور المنحوتة في العاج أو على الأحجار الصلبة كحجر البازلت وغيره ، وكذلك في صنع بعض أوان من الفخار والأحجار الصلبة وغيرها كالديوريت والشيست والمرمر مما يدل على ذوق سليم ، ولكن أمارات الفن الصحيح بدأت تظهر في أوائل عصر الأسرات وأخذت في التدرج والرقى بخطوات واسعة ، حتى بلغت أوجها في عهد الأسرتين الرابعة والخامسة .

هور أمارات
الحقيقى ،

ويجب أن يراعى عند الكلام على الفن في القطر المصرى في هذه الفترة البحث في جميع نواحيه ، إذ في الواقع لم يكن يجرى على نظام معين في التقدم والرقى ، بل كان خاضعا لمؤثرات عدة ، أهمها المكان أو البيئة التى نشأ منها ، والمعتقدات الدينية التى تحيط بهذه البيئة ، وكذلك الفرعون الذى كان يسيطر على البلاد في ذلك الوقت ، ومقدار تشجيعه للفنون والحرف والصناعات الدقيقة المختلفة . فقد يحدث أن تكون الفنون مثلا في عهد أحد الملوك نامية زاهرة لتشجيعه لها ، ثم يأتى بعده عدة ملوك آخرين ينحط في أيامهم الفن ، ولا أدل على ذلك مما نشاهده في عهد الملك « زت » (شعبان) . إذا حكمنا على عصره بمقدار ما وجدناه من الذوق الفنى في لوحته ، إذ كانت الفنون في عهده زاهرة ، ثم جاء من بعده خلف انحطت في عهدهم الفنون الجميلة حسب ما وصل إلينا من الآثار التى كشفت ، كما سيأتى شرح ذلك .

ع رقى الفن
زئترات

فن العمار

لم يبق لنا الدهر من مباني هذا العصر الديوية شيئا يذكر ، ولذلك تنحصر كل معلوماتنا عن المباني فيما بقى لنا من مبانيهم الجنائزية من قبور ومعابد وهياكل الخ . ولحسن حظ التاريخ أقام المصريون هذه المباني على حافة الصحراء بعيدة عن مياه الفيضان ، ولذلك بقيت لنا محفوظة حتى عصرنا هذا في الوجه القبلي مما لم توفق اليه أمة أخرى في العالم .

سبب حفظ المباني
الجنائزية

أما مبانيهم الديوية فكانت على العكس تقام في وسط المزارع من اللبن ، ولذلك كان اختفاؤها محتما ، لعدم صلابة المادة التي تبنى منها أولا ، ولتعاقب المدينيات ثانيا ، وكان ظهور أول مميزات واضحة في فن المعمار المصري في خلال الأسرتين الأولى والثانية ، انتشار استعمال اللبن في إقامة الجدران وصنع الأبواب والعمد والسقف من الخشب وهما المادتان اللتان كانتا في متناول المصري في ذلك العصر ، ولا غرابة في ذلك فطمي النيل الذي كان يخلط ببعض مواد أخرى وخاصة التبن كان صالحا لعمل قوالب من اللبن صلبة ، قاومت عدة آلاف من السنين كما يشاهد ذلك في مدن الأهرام المكشوفة حديثا ؛ إذ نجد أن القالب منها يبلغ طوله أحيانا نحو ٤٥ سنتيمترا في عرض ٢٥ سنتيمترا ولا يزال باقيا على حالته ، وقد بقيت أقامه المعابد باللبن تقليدا متبعا في كل عصور التاريخ المصري وذلك لأن المصري كان بطبعه محافظا .

يضاف إلى ذلك أن طبيعة البناء باللبن في جو حار كجو البلاد المصرية لا تمتص الحرارة بسهولة كالأحجار الصلبة ، وربما كان ذلك من أهم الأسباب التي جعلت المصري العادي بل الملك أيضا يحافظ على إقامة مبانيه

انتشار المباني باللبن
ومتانتها

الديوية باللبن ، وقد لاحظ المصرى هذه النظرية أى أن اللبن موصل ردىء للحرارة فى أمور طبقتها هو بنفسه ، وذلك أننا شاهدنا فى مقبرة العظيم «رع ور» أنه قطع لنفسه مائدة قربان عظيمة من المرمر ووضعها فى مقبرته ، ولكنه لاحظ أن تعرضها لحرارة الشمس يجعل حجرها يتفتت ، فأحاطها بقوالب من اللبن فبقيت محفوظة لنا للآن ، أما الجزء الذى تداعى من حوله اللبن فقد وجد مفتتا . ومن ثم نقل المهندس المعمارى المصرى شكل المبنى التى كانت باللبن إلى تلك التى شيدها بالحجر الجيرى عندما اهتدى إلى كيفية استعماله (1) . ولاغربة فى ذلك فإن المصرى كان دائما يريد أن يمثل مايقع تحت حسه فى حقله ومزارعه ، فى بيته وفى معبده وفى قبره ، وهذا أمرطبيعى وقد لازمته هذه التقاليد طوال تاريخه العظيم رغم التقلبات والرقى والفتوح والمؤثرات الخارجية التى تناولت حياته .

سبب إقامة المبنى
باللبن

بداية استعمال الحجر
فى المبنى

ويرجع الفضل فى ذلك إلى مهندس المعمار العظيم «إمحوتب» إذ قد استعملها فى بناية معبدى الهرم المدرج ولمحقاته وكذلك فى إقامة قبر «زوسر» نفسه أول ملوك الأسرة الثالثة . وقد استعمل «إمحوتب» على وجه عام قطعا صغيرة من الحجر الجيرى الأبيض فى مبانيه الجميلة الصغيرة الحجم ، أما فى المبنى الضخمة فكان يستعمل فى بنائها قطعا صغيرة كذلك من الحجر المحلى كما يشاهد ذلك فى هرم سقارة المدرج . وبعد حوالى قرن من الزمان من حكم «زوسر» ؛ جاء كل من الملكين «سنفرو»

«إمحوتب» المهندس
المصرى
وبناء هرم سقارة
المدرج

(1) Maspero, Ars Una p. 41.

(وقد بقى محافظا على تمثيل الحشب فى الاحجار حتى أنه كان يمثل جذوع النخل فى أحجار السقف والاعمدة .)

و « خوفو » فى بداية الأسرة الرابعة ، واستعمالا قطعاً ضخمة من الحجر فى بناء الهرم وفى كسوته وفى بناء جدران المعابد ، وقد شوه أن بعض القطع الفردية يبلغ طول الواحدة منها أربعة عشر متراً فى ارتفاع سبعة أمتار (كما يشاهد ذلك فى معبد الوادى والمعبد الجنائزى لهرم « خفرع ») ويرجع الفضل فى ذلك إلى كثرة استعمال النحاس لتسهيل قطع الأحجار فى البلاد كما سنفصله فيما بعد .

وفى عهد « خوفو » بدأ المهندسون المماريون يستعملون حجر الجرانيت الذى كان يجلب من أسوان وحجر البازلت بدلاً من الحجر الجيرى فى إقامة الجدران وفى كسوتها ، وهذا التقدم فى فن المعمار قد استمر فى عهد ملوك الأسرة الرابعة الذين خلفوا « خوفو » ، وكان من نتائج استعمال هذه الأحجار الصلبة القطع أن أقام منها الملك « خفرع » معبد الوادى الساذج التصميم ، البسيط المنظر ، وعمده المربعة الشكل ، المصقولة صقلاً بديعاً ورصف رقعة مدخله بالمرمر (١) .

وفى عهد الأسرة الخامسة ازداد استعمال الجرانيت ، وتفنن المصرى فى صنع الأعمدة منه ، كما يظهر ذلك فى معبد « سحورع » حيث صنعت عمدته على شكل سيقان النخيل وغيرها من الأشكال النباتية ، مما يشعر بحافظة المصرى على استعمال الأشكال القديمة التى كانت مألوفاً لديه قبل معرفته الأحجار الصلبة .

أما كثافة الجدران - وتلك كانت من المميزات الضرورية فى أشكال المباني القائمة من اللبن - فأنها بقيت على حالها فى المباني الحجرية التى

(١) كان يستخرج من محاجر قرية من حلوان .

سادت في عهد الأسرة الرابعة ، وكذلك صنعت من الحجر في أواخر الدولة القديمة الأجزاء التي كانت تصنع من الخشب في المباني كالسقف والعمد ، ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن المصري كان يمثل الأبواب المصنوعة من الخشب في الحجر كما يشاهد ذلك في معبد الملك « زوسر » فأن أبوابه كانت مصنوعة من الحجر وإن كانت لا تستعمل ، وذلك محافظة على القديم من جهة ، ورغبة في طول بقائها من جهة أخرى .

تقليد الحجر للأجزاء الخشبية

وقد استعمل « شبسكاف » ابن الملك « منكورع » المباني الضخمة المميزة للأسرة الرابعة بإقامة مصطبة الغريبة الشكل في دهشور « مصطبة الفرعون » (انظر جزء أول ص ٣١٣) ورغم أن الأهرام في عهد الأسرة الخامسة أصبحت أقل حجما وصلابة في تركيبها ، فإن استعمال الأحجار الصلبة كان سائرا نحو الرقي ، وبخاصة في إقامة العمد وتنوع أشكالها ، وتقوشها ، ونحتها وليس هناك أى مجال للشك في أنه كان يوجد في أسوان ، وفي محاجرها مصانع ، ومدارس لا يتقان فن النحت وقطع الأحجار وتوريدها للمعابد الملوك في ذلك العصر ، ولا أدل على ذلك من السفن التي كانت تشق عباب النيل محملة من أسوان بالأعمدة ، والشرفات ، والأفاريز المجهزة لتقام في الأماكن التي أعدت لها (انظر جزء أول ص ٣٥٤) .

المصانع المصرية في أسوان لقطع الأحجار وتجهيزها

ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن المصري في ذلك الوقت قد توصل إلى اختراع البكرات التي تستعمل لرفع الأحجار الضخمة ، وقد عثر حديثا في منطقة الأهرام على بكرة كاملة مصنوعة من حجر الجرانيت تدار بواسطة ثلاثة حبال ، وقد وجدت في إحدى منازل مدينة الهرم الرابع ، وكذلك عثر على جزء كبير من بكرة أخرى في معبد الهرم الثاني الجنائزى كما ذكرنا

استعمال البكرات

آنما (انظر جزء أول ص ٢٨٨) وبهذا الكشف هدم كثير من النظريات التي كان ينسجها خيال المهندسين في كيفية رفع الأحجار إلى ارتفاع شاهق

جبانات هذا العصر ومقابره

كانت الجبانات تقام في هذا العصر كما ذكرنا عند حافة الصحراء ، ولم يختلف القبر في بداية العهد الطيني عن قبر ما قبل الأسرات ، إلا في إدخال بعض التحسينات ، فمثلا نجد أن في عهد الأسرة الأولى أخذ القوم يقيمون قبورهم على شكل حجرات مستطيلة عظيمة الحجم بالنسبة لقبور ما قبل الأسرات ، وقد زادوا في تنميقها وتجميلها ، فكسوها من الخارج باللبن ، وأحيانا كانت تكسى بكساء ثان من الخشب . وكان يتوصل إلى حجرة الدفن من أعلى أو بواسطة سلم مبنى في صلب المقبرة . وهذا الشكل المستطيل للمقبرة قد أطلق عليه العلماء لفظة « مصطبة » فيما بعد ، وذلك لوجه الشبه بينها وبين المصطبة التي تبنى أمام بيوت الفلاحين في عصرنا هذا ، والمتأمل في الجدران التي تحيط بهذه المصطبة يجد أنها مائلة بعض الشيء . ويلاحظ أنه من أول الأسرة الأولى إلى الأسرة الثالثة كانت جدران المصطبة من كل نواحيها محلاة بكوى على هيئة أبواب أطلق عليها علماء الآثار « الأبواب الوهمية » أو « الأبواب الكاذبة » . وكانت هذه الأبواب تحذف في المصاطب الصغيرة من الجهة المقابلة للصحراء ، أي من الجهة الغربية . وأحيانا كانت تحذف من كل الجهات إلا جهة الوادى ، وقد انحصر وضعها في الجهة الشرقية فقط منذ الأسرة الرابعة بدون أى استثناء .

تركيب المقبرة في
العهد الطيني

المصطبة وشكلها

موضع الباب الوهمي

أما القرايين التي كانت توضع حول جثة المتوفى في حجرة دفنه في عصر ما قبل الأسرات ، فقد أصبحت الآن توضع في حجرات صغيرة ؛ أقيمت حول حجرة الدفن في مقابر عظماء القوم . وكان القبر يغطى بسقف مصنوع من ألواح خشبية ، تتركز على كتل عظيمة من الخشب كذلك ، وفوق هذا السقف كان يقام مبنى من الحصى والرمل مغطى بكساء من اللبن ، وقد كشف عن مقابر عدة من هذا النوع في سقارة في السنين الأخيرة ، وحوها بعض مبان إضافية . على أن هذا لايعنى أن المصرى في هذا العهد لم يكن يستعمل الأحجار ، فقد وجد في سقارة أن الحجر كان يستعمل في بناء أجزاء من هذه المقابر ، كالعتب ، واللوحه المائتية وقد عثر على مقبرة من عهد الأسرة الأولى كسيت جدران إحدى حجراتها بالحجر الجيري وكذلك سقفا .

موضع القرايان
في القبر

استعمال الحجر في
بعض أجزاء مقابر
هذا العصر

وأول بناء شوهد من الحجر الصلب كان في عهد الملك « ودمو » رابع ملوك الأسرة الأولى ، إذ وجد أن رقعة مقبرته مرصوفة بالجرانيت . وفي نهاية الأسره الثانية وجدنا قبر الملك « خع سخموى » مكسوا بأكمله بالحجر الجيري الأبيض . ويلاحظ في هذا العهد أن باب القبر كان يوضع في الجهة الشرقية ، وكان يدل على موقعه لوحتان جنازيتان . وربما كان وجود الباب في هذه الجهة دليلا على انتشار عبادة الشمس ، إذ يستقبلها المتوفى عند شروقها في الصباح .

أول استعمال للحجر
بصفة ظاهرة

وقد كشف حديثا في سقارة عن مقبرة رئيس وزراء الملك « ودمو » ويدعى « حم كا » ، وهى تحتوى على مبنى علوى مؤلف من ٤٢ حجرة خاصة بكل الأدوات المائتية من مأكولات ، وأسلحة وأوان ، وكل

ما يحتاج إليه المتوفى في حياته حسب اعتقاد المصريين في ذلك العهد . وكانت جدران القبر الخارجية ، مزينة بأبواب وهمية ، أو كما يعبر عنها بعض علماء الآثار بواجهة أبواب القصر الملكي . والظاهر أن المصرى كان يعتقد أن لكل من محتويات هذه الحجرات قرينا ؛ أو روحا مادية يتقمصه كما يتقمص القرين جسم المتوفى في حياته الثانية ، وإلا فليس لوجود هذه الأبواب في واجهة كل حجرة أى تفسير آخر ، إذ هى في الواقع المرشد للقرين عن مكان الجسم الذى لا بد من أن يتقمصه ليحيا حياة ثانية .

الغرض من الباب
الوهمى

أما مقابر ملوك هذا العصر فتتقسم إلى نوعين الأول مبنى باللبن على شكل مصاطب ضخمة تتألف من عدة حجرات ، وقد عثر عليها في جهة العرابة وقادة . وهى لملوك الأسرة الأولى (انظر جزء أول ص ٢٦٩ الخ) ، وبعض ملوك الأسرة الثانية . والثانى عثر عليه في « سقارة » بجوار أهرام الملك « وناس » وهى جبانة نحتت في الصخر تحت الأرض ، وتبلغ مساحتها . المكشوفة إلى الآن عدة أفدنة ، ويرجع تاريخها إلى عهد الأسرة الثانية ، إذ عثر فيها على عدة أوان من الفخار مقفلة بسدادات عليها خاتم الملك « نتمو » أحد ملوك الأسرة الثانية ومن المحتمل أن المعبد الذى أشير إليه في حجر « بلرم » ، والذى بناه هذا الملك من الحجر ، كان مقاماً فوق هذه الجبانة ثم اختفى على مر الأيام ، وهذه النظرية تنطبق على قبره المنحوت تحت الأرض وفيه بقايا آثار من عهده .

أنواع المقابر
في هذا العصر

كشف جبانة شاسعة
منحوتة في الصخر
في سقارة

وكذلك عثر على بقايا أوان من المرمر ، وحجر الشيست ، والديوريت ؛ عليها نقوش من عهد ذلك الفرعون . وعلى قطعة منها ألقاب إحدى نسائه ،

وهذه القطع الصغيرة من الجرانيت ، والبورفير ، والمرمر تشبه في صنعها ما عثر عليه في الهرم المدرج .

ولكن مما يؤسف له جد الأسف أن هذه الجبانة قد استعملت في العصور المتأخرة مرة ثانية وعلى الأرجح في العصر الفارسي ، إذ وجدت فيها آلاف من الجثث المكدسة بعضها فوق بعض ومعظمها محروق . ومن جهة أخرى أوقف البحث فجأة في العام الماضي فلم يتم فحصها وستبقى محتوياتها غامضة إلى أن يتم بحثها بحثاً علمياً . غير أنه مما لا شك فيه أنها كانت للملوك والعظماء ، وكانت تعتبر بقعة مقدسة حتى أن ملوك الأسرات التي تلت ، وعظماءها أقاموا فوقها وجوها المقابر ، والمعابد ، وبخاصة في عهد الأسترتين الخامسة ، والسادسة .

محتويات هذه الجبانة

أما مساكن الأحياء التي كان لا بد من أن توجد بالقرب من مقابرهم فلم يعثر على شيء منها قط ، للأسباب التي ذكرناها آنفاً . ولقد عوضنا عن ضياع هذه المدن ما وجدناه من تخطيط بيوتها على اللوحات التي عثر عليها في مقابرهم . فقد عبر عنها المصري بسور ذى شرفات ، ومن المحتمل جداً أن المدن كانت مقامة داخل سور من اللبن ذى شرفات . ولا يبعد أن قلعة « هراكنبوليس » (الكوم الأحمر الحالى) التي يرجع تاريخها إلى ذلك العهد كانت محوطة بجدار مزدوج ، الداخلى منها أعلى من الخارجى . وليس لدينا أية فكرة عن بيوت تلك الفترة ، وكل ما نعلمه أننا عثرنا على قطعة من العاج من عهد الملك « عحا » قد مثل عليها كوخ من القصب مسقوف بجريد نخل . وكذلك نشاهد أكواما أخرى من هذا النوع تقريبا منقوشة على رأس دبوس من عصر الملك « نعرمر » . ولا شك في أن أشكال هذه

شكل البيوت في
هذا العصر

البيوت كانت موجودة في ذلك العصر ثم درجت نحو الرى كما هو الحال في المقابر .

وفي عهد الأسرة الثالثة نجد أن فن بناء المقابر قد تطور تطورا عظيما جدا وخاصة عند الملوك وعلية القوم ، وافراد الشعب .

ففي أوائل عصر الأسرة الثالثة نجد أنه قد حل محل القبر الذى يملوه بناء آخر من اللبن في عهد الأسرتين الأوليين بناء آخر من اللبن على شكل مستطيل عظيم الحجم في غالب الأحيان ، ويطلق عليه العامة لفظة مصطبة . ويختلف شكل المصطبة في هذا العهد عنها من قبل فقد أصبح بناء المصطبة مستطيلا وجدرانها من الحجر الجيري المذهب الذى أخذ ينتشر . أما داخل هذا المستطيل فكان يملأ بالحصى وبقايا المباني وكان أحيانا يبنى في هذا المستطيل بعض مبان باللبن لمنع شدة الضغط على السور الخارجى الذى يحيط بالمصطبة .

ومنذ ذلك العهد كان لايقام الباب الوهمى إلا في الجهة الشرقية ، وقد تحتوى المصطبة على أكثر من باب واحد . وذلك حسب عدد من دفن فيها ، فإذا كانت زوجة المتوفى مدفونة معه في مصطبه أقيم فيها بابان وهميان ؛ وكان في العادة باب الزوجة أصغر حجما من باب الرجل ، وقد جرت العادة أن يكون باب الزوجة في الجهة اليسرى من المصطبة وكان الباب الوهمى يصنع من قطعة ، أو قطعتين فأكثر من الحجر الجيري المجلوب من طرة أو من الحجر المحلى حسب ثراء المتوفى ومركزه في البلاط الملكى ، وكان يثبت في أصل الجدار الشرقى من المصطبة كما ذكرنا وقد كان الغرض منه لإرشاد القرين أوالروح المادية « كا » إلى المكان

المصطبة وشكلها

محتويات المصطبة

الذى وضعت فيه الجثة أى حجرة الدفن لتتضم إليها بعد الموت ، إذ بها كان المتوفى يحيا ثانية فى القبر .

وكان الباب الوهمى فى بادىء الأمر خاليا من كل نقش ثم كتب عليه اسم المتوفى ، وبعد ذلك نقش عليه صلوات دينية ، وتضرعات للمتوفى ؛ وبعد ذلك تدرج فرسم عليه المتوفى ، وزوجته وبعض أفراد أسرته ، وبخاصة الابن الأكبر ، الذى أخذ يلعب دورا هاما فى تقديم القرابين لوالده منذ الأسرة الرابعة . وفى النهاية كان يرسم فى الجزء الأعلى من الباب الوهمى المتوفى وحده ، أو هو وزوجته ، وأمامه مائدة قربان صور عليها كل مالد وطاب من أنواع المأكولات ، والشراب .

نقوش الباب الوهمى

وخلف هذا الباب الوهمى كان يوجد البئر الذى كان يؤدى إلى حجرة الدفن ، وكان يصل عمقه أحيانا ، إلى نحو أربعين مترا ؛ وهذه الآبار كان الجزء العلوى منها مبنيًا بالأحجار إلى أن يصل إلى الصخر فينحت فيه إلى العمق المطلوب ؛ ثم تنحت فى النهاية حجرة الدفن فى إحدى جوانب البئر . وكانت مساحتها تختلف حسب مقدرة المتوفى . فكانت تبلغ أحيانا ٧ فى ٦ مترا ، وكان يدفن المتوفى إما على رقعة الحجرة مباشرة ، أو فى تابوت من الحجر الجيري ، أو الجرانيت حسب الأحوال . وكان يوضع حول هذا التابوت كل الأثاث المأتمى الذى كان يظن المتوفى أنه فى حاجة إليه فى آخرته . وأحيانا كانت توجد حجرة الدفن سليمة لم يسها إنسان من قبل ، ومع ذلك لم نجد مع المتوفى أى أثاث مأتمى . مع أنه كما نتنتج من ألقابه ودقة صنع مقبرته من عليه القوم . وليس هناك أى شك بعد ذلك فى أن موضوع

مكان حجرة
الدفن ومحتوياتها

كوضع الأثاث المأتمى فى حجرة الدفن ، ان يتوقف على الاعتقادات الدينية لصاحب المقبرة نفسه .

وليس من الضرورى أن يكون عدد آبار الدفن التى كانت تقام فى المقبرة بقدر عدد الأبواب الوهمية التى كانت مثبتة فى الجدار الشرقى منها ؛ وقد يحدث أن يقيم صاحب المقبرة لنفسه بابين وهميين ، ويكتب على كل منهما اسمه وألقابه . وفى هذه الحالة تكون حجرة الدفن موضوعة بينهما فى أعماق الصخر . وأحيانا كان يستعاض عن حفر بئر عمودى فى قلب المصطبة بجحر منزلق فى إحدى جوانب المصطبة يودى فى النهاية إلى حجرة الدفن التى كان موقعها دائما خلف الباب الوهمى . وكان هذا المنزلق يصنع لسبيين ، أولهما لتسهيل إدخال التابوت فى حجرة الدفن ، وثانيهما لتضليل اللصوص ، وفى كلا الحالين سواء أكان البئر ، أو المنزلق مؤديا إلى حجرة الدفن ، فإن اللصوص كانوا يعانون المشاق العظيمة فى الوصول إلى مكان حجرة المتوفى ، وذلك لأن البئر كان يملا بعد الدفن بالبقايا المتخلفة من نحته

ويظهر أن ذلك كان من الطقوس الدينية ، إذ لم نجد قط بئرا قد ملئت فوهته بغير المخلفات التى تنجت من نحته فى الصخر . وهذه من الوسائل التى تساعد الحفار على معرفة عما إذا كان البئر سليما أو سطا عليه عليه اللصوص من قبل . فإذا وجد أن الأحجار الصغيرة والحصى التى تملأ فوهة البئر مكونة كلها من مخلفات النحت لم يخالطها شئ آخر عرف أن حجرة الدفن سليمة . وقد ثبتت هذه النظرية فى الآبار التى وجدت على هذه الحالة . أما الآبار التى نهبت فنجد فى فوهها أجساما غريبة ،

علامات حجرة الدفن
التي لم تمس

وهذا دليل على أنها نُهبت من قبل . هذا إلى أن حجر الدفن كان يسد بابها بأحجار ضخمة : أما المنزلق فكان يقفل من أوله إلى آخره بأحجار ضخمة من الحجر ؛ الواحدة تلو الأخرى مما يجعل انتزاعها من المنزلق صعبا .

ومن المدهش أن الحفائر التي عملت في منطقة الأهرام حديثا كشفت لنا عن ظاهرة جديدة : فقد وجد بجوار البئر التي تؤدي إلى حجرة الدفن بئر أخرى لا تؤدي إلى حجرة دفن ، وتعم هذه الظاهرة في أكثر من مائة وخمسين مصطبة ؛ أى أنه يوجد بجوار البئر الحقيقية بئر أخرى لا تؤدي إلى حجرة دفن ، ولا يعرف السبب الذي من أجله حُفرت ، وقد ظن البعض أنها بئر قد ابتدئ فيها ولكن لم يكمل حفرها غير أن تكرار هذه الظاهرة يدحض هذا الزعم . وفي اعتقادنا أنها بئر وهمية للمصطبة كما أن لها بابا وهميا ، وكما أنه كان للمصطبة باب وهمي تدخل منه القرينة (الروح الجسمية) لتحل في الجسم وتغذيه حتى لا يموت أبديا ، كذلك كان للجسم ظل « خو » كما يعبر عنه المصريون ، مقره البئر الوهمية يصل منها إلى الجسم الحقيقي ، ويحل محله إذا أتلفه الدهر ، وبذلك كان المصرى يحتاط لنفسه من كل الوجوه . وإلا فليس هناك أى تفسير آخر لهذه البئر الوهمية ، على أن وجود هذه البئر كان شائعا في الدولة القديمة ، وبخاصة عند عليّة القوم .^١ تدل على ذلك مقابر أهرام الجيزة ، ومنطقة سقارة .

البئر الكاذب
وسبب حفره

السبب في تقدم بناء المصاطب وتعدد حجراتها .

كان أقارب المتوفى يجلسون أمام الباب الوهمي عند زيارتهم له في أيام

الأعياد والمواسم ؛ ومعهم القرايين التى كانوا يضعونها على مائدة قربان مصنوعة من الحجر ، وبتقدم العمران والمدنية أخذ القوم يفكرون فى الاعتناء بمقابرهم عناية تتفق مع مكانتهم فى الهيئة الاجتماعية . فبدلا من الجلوس أمام الباب الوهمى بنوا حجرة للجلوس ولتقديم القربان فى صلب المصطبة ، وجعلوا الأبواب الوهمية فى جدارها الغربى . أما باب هذه الحجرة فكان فى العادة فى الجهة الشرقية ، أو البحرية وأحيانا يكون فى الجهة القبلية ولكن لم نعثر على باب للحجرة فى الجهة الغربية لمقبرة ، إلا فى واحدة بجبانة الأهرام ، وهذا كان لضرورة ملحة وهى ضيق المكان . أما الباب الوهمى فكانه لم يتغير قط ، إذ كان دائما يتجه إلى الشرق ليواجه الشمس عند الشروق ، وتسطع عليه عندما تطلع ولذلك كانت تصنع فى القبور المسقوفة فتحة فى الجهة الشرقية قبالة الباب الوهمى . بطريقة تجعل أشعة الشمس تنفذ منها فى الصباح ، وترسل خيوطها على الباب الوهمى وهذه الحجرة كانت على ما يظهر فى بادىء الأمر لجلوس أقارب الميت ، وللقرايين وبعد ذلك نشاهد أن مدخلها أخذ ينقش عليه صلوات دينية ، واسم المتوفى وألقابه على العتب العلوى ثم تدرج بعد ذلك فنقش جانباه الخارجيان برسم المتوفى ثم بأقاربه ، وبعد ذلك نقش جانباه الداخليان بما يشبه ذلك . ولما كان المصرى يعتقد أنه سيحيا حياة أخرى فى القبر مماثلة لحياته الدنيوية ، أراد أن يمثل كل ما كان يتمتع به فى الدنيا على جدران هذه الحجرة التى كانت فى الأصل لوضع القرايين ، وجلوس أقاربه ، فأخذ يعنى أولا ببناء هذه الحجرة ، وكان أحيانا يشيدها من الحجر الجبرى الأبيض أو ينحت مصطبة فى الصخر محتوية

الزيادات التى أدخلت
فى مباني المصطبة

الرسوم التى نقشت
على جدران المصطبة

على حجرة جميلة ، ثم أخذ ينقش على جدرانها كل مناظر الحياة اليومية ، وما كان ينعم به من بذخ وترف . ولما كانت الحجرة الواحدة لا تكفى لذلك أخذ يضيف إليها حجرات أخرى ، وممرات حتى إن واحدا من علية القوم كانت مقبرته تحتوى على أكثر من ثلاثين حجرة . وخص كلا منها برسوم معينة ، إذ كان يعتقد أنه بقوة السحر يمكن أن يتمتع بما تمثله هذه الرسوم . ويرجع الفضل في معرفتنا حياة المصرى القديم الاجتماعية والدينية من كل الوجوه لهذه النقوش ، فنشاهد على جدران هذه المقابر أنواع القرايين التى كانت تقدم للمتوفى ، وما كان يلهو به من صيد البر ، والبحر ، ومعيشته المنزلية وحقوقه وما فيها من زرع مختلف ألوانه ، ونوعه وكذلك الرياضة البدنية ؛ وغير ذلك مما سنتكلم عنه عند الكلام على فن النحت . وفى الواقع أصبحت هذه المقابر بمثابة بيوت للأموات تؤلف مدينة بشوارعها ، وأزقتها كما يشاهد ذلك فى جبانات الجيزة ، وسقارة ، وكانت هذه المدينة فى عهد الدولة القديمة تقام حول قبر الملك (الهرم) ، وذلك لأن عظماء القوم كانوا يريدون أن يلتفوا حول ملكهم فى آخرتهم كما كانوا يلتفون حوله فى دنياهم .

مقابر الملوك

أما مقابر الملوك فى هذا العصر . فكانت فى أول الأمر تبنى على هيئة مصطبة ، ومعظمها عثر عليه فى (العرابة المدفونة) ، و (نقادة) ؛ وقد عثر على أول قبر بنى للملك « زوسر » فى (بيت خلاف) القرية من العرابة وقد وجد فيه حجرة مبنية بالحجر الجبرى ؛ وهو على شكل

مصطبة حقيقية . غير أنه على ما يظهر لم يرض بأن تكون مقره الأخير ويحتمل أن « إمحوتب » مهندس المعماري العظيم ، وجه نظره إلى منطقة سقارة المقدسة التي كانت تعتبر من هذا العصر مهبط العبادة ، والمقر الأخير لبعض الملوك كما أثبتت ذلك الكشف الحديثة . هذا إلى أنها كانت على مقربة من محاجر طرة حيث كان من السهل قطع الأحجار الجميلة لبناء القبور والمعابد ، وكذلك كانت قرية من مقر حكمه .

كيفية بناء الهرم
الدرج وسبيلها

وتدل الظواهر على أنه أقام لنفسه مصطبة من الحجر الجيري المحلي المذهب ؛ ثم بنى فوقها ثانية أصغر مساحة ، ثم ثالثة أقل مساحة من الثانية وهكذا ، حتى بلغ عدد المصاطب سبعا بعضها فوق بعض ، غير أن تعاقب الدهور قد أغار على السابقة منها فحماها من الوجود ، ولم يبق منها إلا ما يدل على أثرها . وقد أطلق على هذا المبنى خطأ اسم (الهرم المدرج) إذ أن شكله لا ينطبق تماما على مدلول الهرم الحقيقي . ولا غرابة في أن « زوسر » رفع بتيان قبره إلى هذا الحد ، لأن في ذلك معنى عميقا ، إذ كان يريد علوا في المات كما كان في الحياة . فكان غرضه أن يشرف قبره على قبور رجال بلاطه ، وعظماء دولته ، التي كانت حول قبره ؛ ويكون أول بناء ترسل الشمس أشعتها عليه من كل جوانبه عند ما تشرق في الصباح ، وبخاصة إذا علمنا أن الإله الأعظم لهذه المنطقة في هذا العصر هو الإله « آتوم » الذي أصبح فيما بعد إله الشمس بكل معانيها .

وقد أسفرت البحوث الأثرية التي قام بها علماء الآثار في الجزء الأسفل الذي تحت الهرم المدرج ، وما حوله عن معلومات ، وثروة أثرية لا تقدر بقيمة . فقد عثر في جوف الصخر الذي تحت مسطح الهرم ، على

حجرة الدفن العظيمة المكسوة بالجرانيت ، وعلى حجرتين مرصعتين بألواح صغيرة من القاشاني الأزرق ، وقد كانتا معروفتين منذ زمن بعيد . وتعد الطريقة الفنية الحاذقة التي نسقت بها هذه الألواح في الملاط بالغلة حد الإعجاب والدهشة ودالة على ما وصل إليه القوم من المهارة الفنية في هذا العصر ، وهذه الألواح كان سطحها الخارجى مقوسا بعض الشيء ، وكان في ظهر كل منها ثقبان صغيران ، يوضع فيها خيط من القنب يلصق بالملاط . وقد أمكن بالألقاب الرسمية التي وجدت منقوشة على إطارى باب الحجرتين ، أن نحدد بالضبط تاريخهما ؛ ولكن أحد علماء الآثار قد شك في أن لون القاشاني الأزرق ، والمهارة العظيمة التي رصعت بها هذه الألواح ، وكذلك كتابة اسم الملك « زوسر الحورى » « نب معات » يرجع عهدها إلى عصر هذا الملك . وفي اعتقاده أن هذه ترميمات ، وإصلاحات عملت في عهد الأسرة السادسة والعشرين ، أى في عهد النهضة المصرية الأخيرة . غير أن هذا رأى قد دحض نهائيا بالكشوف الحديثة ، ولم يأخذ به أحد من العلماء . وذلك لأنه فى عام سنة ١٩٢٧ عثر فى الجهة الجنوبية من الهرم فى جوف الأرض ، على مقبرة أخرى تحتوى على حجرة دفن من الجرانيت ، وعلى عدد عظيم من الممرات ، والحجر المستطيلة الشكل معظمها مزين بألواح من القاشاني مشابهة لما وجد فى المقبرة الأولى ، ووجد منقوشا على إطارات الأبواب « تترخت » ، وهو لقب الملك « زوسر » ، ووجد فى إحدى الحجر ثلاث لوحات كل منها على شكل الباب الوهمى ؛ وعلى كل مثل الملك « زوسر » . ولا نزاع إذن فى أن هذا القبر هو لمؤسس الأسرة الثالثة .

وصف الحجرتان
اللتان تحت هرم
زوسر

المتور على حجرة
دفن تحت الهرم
المدرج

وفي عام سنة ١٩٣٧ اكتشف في رقعة إحدى هذه الحجرات ثقب
لصوص يؤدي إلى ردهات أكثر عمقا ، يظهر أن جدرانها كانت مكسوة
بالخشب . وقد عثر على تابوتين من المرمر ، يحتوى أحدهما على صندوق
من الخشب مغشى بورقة من الذهب مثبتة بمسامير صغيرة ، رؤوسها من الذهب
لا يبعد الواحد منها عن الآخر سوى بضعة مليمترات . ولكن مما يوسف
له أن هذه الورقة كانت قد انتزعها اللصوص ؛ غير أنه لحسن الحظ
بقى منها جزء يمكن به معرفة كيفية تركيبها كما كانت في الأصل . وتدل
البقايا الآدمية التي بقيت في التابوت على أنها لطفلة صغيرة السن ، ويحتمل
أنها بنت الملك « زوسر » .

محتويات الردهات
التي كشف عنها
في الهرم المدرج

وعند ما كان البحث مستمرا في عام سنة ١٩٣٤ لتتبع الممرات المختلفة
التي تحت الهرم المدرج ، لاحظ بعض العمال وجود قطع عدة من أوان من
المرمر وغيره من الأحجار لاصقة في جدران إحدى الردهات ؛ فحول
العمل إلى هذه الجهة ، وفعلا عثر على ردهة مكدسة بأكوام من الأواني
المصنوعة من المرمر ، والإردواز ، والديوريت ، والبورفير ، وأحجار أخرى
صلبة . ثم على ردهتين أخريين مشابھتين للأولى . وقد استخرج من
هذه الردهات الثلاث ما يربو على الثلاثين ألف إناء ، ولكن مما يؤسف
له أن سقف هذه الردهات قد خر على الأواني ، فلم يترك منها إلا عدداً
صليلاً سليماً . وقد تقلت هذه القطع المهشمة حسب موضعها بكل عناية حتى
يمكن تركيب عدد عظيم منها وإعادة إلى حالته الأصلية .

الأواني المصنوعة
من المرمر وغيره
التي عثر عليها في
جوف الهرم

ولا نزاع في أن الأشكال المختلفة التي وجدت بين هذه الأواني ،
وتعدد أنواع الأحجار التي صنعت منها ، والنقوش الهيروغليفية التي وجدت

على مقاض الكثير منها دالة على أسماء بعض الملوك ، وعطاء القوم في هذا العصر وألقابهم ، كل هذا يجعل لهذه الأواني أهمية عظيمة ، وبخاصة عند ما تدرس درسا علميا مستفيضا ، وهذا طبعاً يحتاج إلى بحث طويل ، وعمل شاق بضع سنوات ولكن على الرغم من ذلك فإن أصلح منها يدل على أن صناعة هذا العصر قد بلغت مبلغاً عظيماً في سلامة الذوق ، والحدق في تقليد صناعة الفخار للحفر في المرمر ، وأعجب هذه الأمثلة أواني المرمر التي كان يصنعها حفار هذا العصر لتحاكي آنية الفخار ممثلاً فيها الجبال التي كانت تربط بها لتعلق منها . هذا إلى أن الحفار قد تقن في صنع أشكال جديدة خلاصة المنظر لم تكن معروفة من قبل ، وهذه الأواني كانت تصنع بأحجام مختلفة . تبلغ الواحدة منها أحياناً ما يقرب من متر في عرض أربعين سنتيمتراً . ولسنا نبالغ إذا قررنا حسب رأى أحد الفنانين الحاليين أن الأبناء الواحد كان يحتاج إلى عمل نحات طول العام ، هذا إذا كان الفنان يشتغل بالآلات ساذجة كالتي سندكرها ، أما إذا كانت لديه آلات أخرى تفضل هذه الآلات ، كانت سرعته في إنجاز صنع الأبناء أقل مما ذكرنا .

هبة هذه الاواني

ولم نعتد للآن على أهرام الملوك الذين خلفوا « زوسر » مباشرة على عرش الملك . والظاهر أن الهرم الذي ينسب إلى الملك « حوفى » في « دهبور » آخر ملوك الأسرة لم يثبت بصفة قاطعة للآن أنه هو المشيد له أما هرم ميدوم الذي بناء الملك « سنفرو » فيشبه هرم « حوفى » في الشكل ، أى أنه لا يمكن أن يسمى أحدهما هرماً بالمعنى الحقيقى ، وربما سمي هرم « سنفرو » (الهرم الكذاب) .

ويعتقد « ماسبرو » أنه بنى هذا الهرم ليكون مأوى له بصفته ملك الوجه القبلى ، ولكن وجدنا أن هذا الملك قد أقام لنفسه هرما ثانيا فى « دهشور » تنطبق عليه كل صفات الهرم الحقيقى ، فقاعدته مربعة الشكل ، وكل وجه من وجوهه الأربعة على شكل مثلث ، وهو مبنى بالحجر الجبرى المهنذب ، ومكسو بالحجر الجبرى الأملس . وظاهر هذا الهرم يجمع بين الفخامة والبساطة فى آن واحد ، ومن ثم بنى خلفاؤه كثيرا على منوال هرمه هذا ، ولا تختلف عنه إلا فى الحجم وفى قطع الأحجار التى كانت تستعمل للبناء وقد شيد بعده « خوفو » و « خفرع » و « منكورع » أهرامهم على هضبة الجيزة . وقد تكلمنا عنها وعما يتبعها من الملحقات فى حينه .

أما الملك « دد فرع » الذى يعتبره بعض المؤرخين أنه جاء بعد « خوفو » (وهناك قول أنه جاء بعد « منكورع ») فقد بنى هرمه فى « أبورواش » لأسباب داخلية (انظر جزء أول ص ٢٩٥) .

معابد الأهرام : لم يكن القبر الملكى يشمل الهرم وحده بل كان لكل هرم معبدان ، وقد تكلمنا عن المعابد وماهىة كل منها فى عهد الأسرة الرابعة وكذلك عن معبد الشمس خلال الأسرة الخامسة (انظر جزء أول ص ٣٢٩ الخ) .

فنا النقش والنحت فى عهد الدولة القديمة

بدأ الفنان المصرى منذ عصر ما قبل الأسرات يظهر مهارة وحذقا فى حفر الصور ، والأشكال المختلفة على الأحجار الصلبة والمهشة وعلى

العاج ، ولا أدل على ذلك من النقوش التى على لوحة الملك « نمرمر » التى أظهر فيها تفوقاً عظيماً بالنسبة للعصر الذى صنعت فيه ، وقد استمر الفنان يعمل فى هذا المضمار بشئ من الدقة عند ابثاق فجر التاريخ فى الألواح الجنائزية ، وفى صفائح العاج التى بقى منها بعض ما يدل على مبلغ ما وصل إليه من الإتقان فى هذا الفن .

لوحة الملك « زت » وأدق قطعة جمعت بين الرشاقة والانسجام هى لوحة الملك « زت » (الثعبان) المحفوظة الآن بمتحف اللوفر ، وهى لوحة من الحجر الجيرى الأبيض ، مستطيلة الشكل ، مقوسة من أعلاها ، وقد نقش على رقعتها صورة الإله « حور » واقفاً على بناء مستطيل يمثل واجهة القصر الملكى يحيط به سور ، وفى وسط هذا السور نقش اسم الملك بعلامة الثعبان وهذا الرسم وهذه الكتابة يرمزان للحماية التى يقوم بها الإله للملك والدولة المصرية ولا شك فى أن عين الفنان تجددت فى مجموعة رسوم هذه اللوحة الرشاقة فى التفاصيل وكذلك البساطة ، والحدق والانسجام ، مما يشعر بالعظمة ويبعث فى النفس الإعجاب ، ويملاً النظر سروراً وراحة .

على أننا من جهة أخرى نشاهد من هذا العصر لوحات أخرى ليس فيها شئ من الجمال يثير الإعجاب فى النفس رغم أنها ملكبة . من ذلك لوحة الملكة « مرنيت » المأتمية ، ولوحة الملك « بر إيب سن » أما لوحات الأمراء فكانت فى مجموعها خشنة الصنع وليس عليها إلا صورة المتوفى ، وأهم مثل من هذا النوع لوحة « سا إف » الذى عاش فى عهد الملك « قع » ومن المدهش أن هذه الألواح لم تكن وقفاً على بنى البشر ، بل كانت كذلك تقام على قبور الكلاب ، وكانت هذه

اللوحات المأتمية فى
العصر الطينى

الحيوانات تدفن في معظم الأحيان بجوار قبور أسيادها ، وقد عثر على أمثلة من هذا النوع في حفائر شمال سقارة من عهد الأسرة الأولى والثانية ،
لوحات مائتية للكلاّب
والانقزام وقد استمر تصوير الكلاّب على اللوحات طوال عهد الدولة القديمة وفي عهد الدولة الوسطى أيضا ، وذلك أن كبار موظفي هذا العصر كانوا يمثلون كلابهم على لوحاتهم الجنائزية لاعتقادهم أنهم سيتمتعون بها في حياتهم الآخرة كما كانوا يتمتعون بها في دنياهم . يضاف إلى ذلك أن لوحات الأقزام العدة التي كشف عنها تدل على أن هذه المخلوقات العجيبة كانت تتمتع بمحظوة كبيرة في القصر الملكي وقد أظهر الفنان مهارة فائقة في تصوير هؤلاء الأقزام المشوهي الجسم بكل دقة ، وأمانة ، وحقق يفوق ما كان ينتظر منه في ذلك العصر السحيق في القدم ، ولا غرابة في ذلك فإن هؤلاء الأقزام كانوا أعظم أداة للسمر والسرور والترويح عن النفس عند الملوك في ذلك العصر (١) (انظر جزء أول ص ٣٨٦ الخ) .

أما لوحات العاج الصغيرة التي يرجع تاريخها إلى ذلك العصر ، فلها قيمة تاريخية عظيمة جدا ففيها حاول الفنان أن يتخلص من قيود العصر السابق ، ويظهر في الأشكال التي يحضرها الحركة والحياة وإن كان لم يوفق ويمكننا على وجه عام أن نحكم على فن النقش في ذلك العصر بأنه قد انحط عما كان عليه في عصر ما قبل الأسرات ؛ ولذلك لا يمكننا أن نقارن لوحة منقوشة من هذا العصر الطيني بلوحة من عصر ما قبل الأسرات الحديث مثل لوحة «نعرمر» ، ورءوس الدبابيس ، وسكين جبل العرق فكل هذه تم عن جمال في الفن ، وحسن في الذوق مما لم يصل إليه فنان العصر الطيني (جزء أول ص ١٠٧)

قيمة الاالواح الفنية
في هذا العصر

(1) Devies, Rock Tombs, of Sheikh Saïd, p. 12.

والواقع أن هذا الانحطاط الفنى لم يأت بسبب عدم ذكاء الفنان ، بل جاء نتيجة ميله لحب الاختراع ، والتجديد ، والخروج عن القيود القديمة ، إذ كان يحاول أن يرسم مناظر معقدة تحتاج إلى -مران فنى كبير ، حتى تبرز فى عالم الفن قطعاً فنية جميلة . وفى الحق يمتاز هذا العصر الطينى بتركه الصور التقليدية المقيدة بالموضوعات الخاصة ، التى كانت شائعة الاستعمال فى عصر ما قبل الأسرات ، وأخذ يبحث عن فن جديد قوى راق ، ولا شك فى أنه ليس هناك ما هو أدعى إلى الإعجاب والسرور من عصور التكوين الفنى التى نرى فيها الفنان يتلمس طريقه فى مجاهد الفن المتشعبة ليتهدى فى النهاية إلى السبيل القويم ، بعد أن يضل مرات عدة فى تجارب تنتهى بالفوز أخيراً .

سبب انحطاط الفن
فى هذا العصر

على أن الكتابة المصرية القديمة نفسها كانت أكبر ساعد للمصرى لينبغ فى فن الرسم والنقش ، لأن طرق كتابتها ، وتعدد رموزها يحتاج لمهارة عظيمة قوامها الفنان السابقان ، إذ كان المصرى عند تدوينها على الأحجار يرسمها أولاً ؛ وبعد ذلك ينقشها ، وهذه الكتابة كلها كانت إشارات أقرب محاكاة للطبيعة ، كان جاهلاً أبهى ، وأعظم ، ولذلك كانت تعد من الفنون الجميلة . ورغم أن الكتابة فى ذلك العصر لا تزال فى طفولتها فإن تصوير الملك (ثعبان) ، وهو يمثل بحرف زأى فى اللغة المصرية القديمة قد نقش على لوحته بإتقان مدهش بالنسبة للكتابة فى العصر الذى نحن بصددده ويمكننا أن نتبع الخطوات التى خطتها الكتابة المصرية القديمة تدريجاً نحو الرقى مما نشاهده على أختام الموظفين فى ذلك العصر ، واستمرارها فى طريق الإتيقان حتى بلغت القمة فى عهد الأسرتين الرابعة ، والخامسة ،

الكتابة المصرية
عامل من عوامل
تقدم الفن

إذ كانت تظهر الحروف منقوشة على الأحجار في مقابر بعض عظماء الدولة وكان كل حرف منها بمثابة قطعة فنية فريدة في بابها ، إذ كان ديدن الفنان في ذلك أن يحاكي الطبيعة في الطيور ، والأشكال المختلفة التي كانت تتألف منها الأشارات المصرية القديمة .

ولا شك في أن أكبر مجال أظهر فيه الفنان المصرى براعته ، في النقش والتصوير . هي المناظر التي مثلها على جدران مصاطب الدولة القديمة ، وفي معابد ملوكها . وكانت بداية هذه النقوش ما كان يكتب على اللوحة التي كانت توضع أمام باب قبر المتوفى إذ كان يقتصر فيها أولا على اسم صاحب القبر ، ثم أخذت تتدرج شيئا فشيئا بتطور نظام الأسرة الاجتماعى (كما سيأتى بعد) ، حتى أصبحت تنقش كلها برسوم ، ومناظر تمثل صاحب القبر ، وزوجته ، وأسرته . ولما نمت الاعتقادات الدينية ، وازدادت ثروة البلاد الداخلية ، وأصبح القبر مؤلفا من عدة حجرات ، نقش على جدرانها رسوم ، ومناظر تمثل مواضيع مختلفة عن الحياة . وهذه الرسوم كانت في بادئ الأمر يقصد منها تأدية وظيفة نفعية محضة ، ولكن بقدر ما كان يظهره الفنان من المهارة والدقة في تصوير الأشياء على حقيقتها كانت المنفعة أكثر وأهم ، ولأجل أن نصل إلى كنه هذه المنفعة يجب أن نشرح الاعتقاد الدينى الذى من أجله كانت تنقش هذه المناظر على الجدران . وتفسير ذلك أن المصرى كان يعتقد أنه سيجيا حياة ثانية في قبره ؛ وكان يعتقد أن الإنسان مركب من عناصر مختلفة نذكر منها الجسم المادى « زت » ثم القرينة ، وهى الروح المادية ، وكانت تنضم إليه في قبره بعد مماته ، وبها كان يمكنه أن يعيش في قبره ويخرج منه نهارا ، ويعود

الابداع الفنى الذى
ظهر فى النقوش التى
على جدران المقابر

إليه ليلا ثم الروح النورانية ، وكانت تصعد إلى السماء وتنضم إلى عالم الأرواح ، الذى كان يمثل بالنجوم بالقرب من الإله « رع » إله السماء وقد جاء فى متون الأهرام ما يثبت ذلك .

وكان هم المصرى طوال حياته أن يعمل لما فيه راحة قرينه فى قبره ، وذلك كان يتطلب أشياء عدة ، فكان لزاما على المصرى أن يحافظ على جسمه بعد الموت من التلف أو العطب ؛ لأنه إذا حدث فيه تشويه ، أو تمزيق ، لا يمكن للقرين أن يتعرف عليه ، ولذلك كان يصنع لنفسه قبرا فى أعماق الصخر ، ويضع جسمه فى تابوت ضخم عظيم الغطاء محكم الإغلاق بعد أن يحنطه ، ويكفنه فى لفائف عدة ، ومعه كل حليه ، وأثاثه الذى كان يتمتع به فى الحياة الدنيا ، أو الذى صنع خاصا بقبره ، وزيادة فى الحيلة كان يوضع بجانب تابوت المتوفى رأس من الحجر الجيري الأبيض ، أو الجرانيت تحاكي رأس المتوفى بكل دقة ممكنة . فإذا ما جاء القرين إلى القبر لينضم إلى المتوفى كانت هذه الرأس المرشد له فى القبر . ولكن القرين لم يكن يكفيه ذلك بل كان يتطلب ما يعيش عليه ، وينقل منه للمتوفى . من أجل ذلك كان المصرى يحبس الأوقاف ويعين الكهنة للإشراف عليها ، وليكونوا فى خدمة الروح المادية « كا » ، (أى القرينة) ويعدون لها الطعام كل يوم عند الباب الوهمى للقبر الذى كانت تخرج وتدخل منه كل يوم لتأخذ الطعام من مائدة القربان التى كانت توضع أمامه . وهؤلاء الكهنة كان يطلق على كل منهم « حم كا » (أى خادم القرين) . وبدون هذه القرايين كانت القرين لا تنضم إلى المتوفى فى قبره وبذلك يفنى فناء أبديا ، وكان المصرى يحتاط

الاحتياطات التى كانت
تتخذ للمحافظة على
الروح المادية

لنفسه من جهة أخرى لتبقى حياته دائمة في القبر ، وذلك أنه خوفاً من أن يبلى جسمه أو يمزق فتضيع معالمه ، وتضل القرين الطريق للوصول إلى معرفته ، كان يصنع لنفسه تمثالا يعتنى فيه بدقة تصوير ملامح الوجه لتحل فيه القرين بدلا من الجسم الحقيقي ، وستكلم عن ذلك فيما بعد . ورغم كل هذا كان المصرى لا يهدأ له بال لما عساه أن يحل به في قبره بعد موته إذا أهمل خدام القرين تقليم القربان له ، أو اغتصبت الأوقاف التى حبسها ليقدم منها القربان كل يوم للقرين ، فكان يلجأ إلى فنون السحر وقوتها ، إذ كان يعتقد أن كل ما يرسم على قبره من مأكل ومشرب ، ومن مناظر مما كان يتمتع به فى حياته ، وكتابة قوائم الطعام الذى كانت تتوق إليه نفسه ، كل ذلك يمكن أن ينقلب إلى صور حقيقية يتمتع بها فى آخرته . وذلك هو السر فى نقش هذه المناظر على جدران القبور فلم يكن يرسمها لحبه الفن أو سروره بالمناظر الجميلة ، بل لحبه التمتع بمحاثها بالطرق السحرية . ولعمري لست أدري من أين جاء الزعم بأن المصريين كانوا يعملون لآخرتهم طوال حياتهم ؛ وأنهم كانوا يفضلون الحياة الأخرى على الحياة الدنيا . فالأمر بالعكس إذ أن مجرد اعتقاد المصرى بأن الحياة الأخرى صورة مطابقة للحياة الدنيا ، ورسمه فى قبره كل ما كان يتمتع به فى دنياه ، وحمله كل ما كان يتمتع به من أثاث وحلى مدة حياته ليكون إلى جانبه فى القبر ، لا كبر دليل على تعلقه بالحياة الدنيا ومتاعها وعدم قدرته على تصور الآخرة بصورة أخرى . ذلك أن أعظم ما كان يتمناه المصرى فى حياته عمراً طويلاً ومن كل ما تقدم يمكننا أن نحكم بأن المصرى قد خصص كل جهوده

الاعتقاد فى قوة
التعاويز السحرية

المصرى كان متعلقاً
بالحياة الدنيا أكثر
من الآخرة

لخدمة القرين ، فنتج عن ذلك أنه توصل بطريق غير مباشر إلى النبوغ في فنى النحت والرسم وفن المعمار . فأقام المقابر الضخمة للمحافظة على جسمه لتعود إليه القرين ، وصنع التماثيل الجميلة لتحل فيها القرين ، وبنى المباني العظيمة لخدم القرين . ويوجد بزهان مادي يثبت لنا تمسك المصرى القديم بأمر روحه المادية « الكا » واعتقاده أنه بدونها لا يحيا حياته الثانية ، وأن الجرم الغفير من أفراد الشعب في عهد الدولة القديمة كانوا يدخلون لفظة « كا » أى (الروح المادية) في تركيب أسمائهم مما لم نشاهده في أى عصر من عصور التاريخ المصرى بعد . فمثلا نجد اسم « سخم كا » (روحى قوية) و « جنى كاي » (وجدت روحى) وهكذا .

وظيفة الكا أو الروح
المادية

وربما كان السبب فى ذلك أن المصرى فى هذا العهد كان لا يزال قريبا من المادة ، ولم ترتق فكرته إلى الأمور الروحانية التى تخرج عن دائرة المادة ، ولذلك فأتى أظن أن المصرى كان فى الأصل يعتقد فى أن الروح مادية ثم تدرج فى الرقى واعتقد أن هناك أخرى روحانية وهى « با » ؛ فسار على تقاليده وحافظ على اللفظين وهما « الكا » وهى الروح التى تدل على طفولة عقله ، والثانية « البا » التى تبهرن على نضوج فكره ، وربما كان هذا سببا فى أننا نجد اندماج لفظة « با » فى أسماء الأعلام المصرية فى الدولة القديمة قليلا ، على حين أن اندماج لفظة « كا » فى الأعلام فى هذا الوقت كان كثيرا جدا كما ذكرنا . يضاف إلى ذلك أن الملوك فى عهد الأسرتين الخامسة والسادسة كانوا يعطون عناية خاصة للروح المادية « كا » أكثر مما كانوا يعطونه للروح النورانية « با » ولا أدل على ذلك من ذكر كلمة « كا » فى متون الاهرام

الفرق بين الروح
المادية والروح
النورانية

أكثر من ضعف ذكر كلمة « با » إذ الواقع أن الأولى ذكرت نحو ١٠٤ مرة أما الثانية فقد جاء ذكرها نحو ٤٧ مرة .

ولم يظهر على النقوش المصرية رسم القرين لا لأفراد الشعب ولا للأثماء ، ولكن وجدنا رسم قرين الملك عند ولادته ، وهى صورة طبق الأصل منه وهى لا ترى فى الحياة الدنيا ولكنها تكون مع المتوفى فى قبره ، وتعيش على المادة ولذلك سميتها الروح المادية . وكثيرا ما شاهد القرين فى شكل تمثال منحوت فى أصل الباب الوهمى يخطو إلى الأمام خارجا من القبر ليأخذ الطعام من المائدة التى أمامه لغذاء المتوفى .

على أن بعض علماء الآثار يعتقد أن كل هذه المناظر قد مثلها صاحب المقبرة إرضاءً لمزاجه الخاص ، ولما تبعته من السرور فى النفس من الناحية الفنية ، وهذا طبعا لا يتفق مع المعتقدات المصرية سواء أكانت دينية أم سحرية ، ولا يكون هناك أى معنى لتمثيل المتوفى على الباب الوهمى جالسا على كرسىه وأمامه مائدة القربان عليها كل مالد وطاب لغرض اللذة الفنية فحسب ، ونرى تحت هذه المائدة نقشا يمثل ألفا من الخبز وألفا من الأوز ؛ وألفا من النبيذ ، وألفا من الجعة ، وألفا من الثيران ، ويطلب صاحب المقبرة إلى زائر قبره والمارين به أن يقرءوا هذه القرايين . أليس ذلك لاعتقاده بأنها متى تليت أمكن أن يتمتع بحقائقها ؛ وذلك عن عقيدة ثابتة راسخة فى أعماق نفسه ؟ ! . ولماذا كتبت قوائم أنواع الطعام وأوانه بما كان يبلغ أحيانا أكثر من ثمانين صنفا فوق صورته ، وقد بالغ بعضهم فجعلها تصل إلى مائة صنف ؟ ! ولماذا رسمت حاملات القرايين وحاملوا المأكولات من ضياع المتوفى وأوقافه الخاصة وكلهم متجهون فى سيرهم نحو

المقبرة قاصدين الباب ؟ ! كل هذه الرسوم والتقوش لا يمكن أن يكون القصد منها مجرد الزينة فحسب بل كان هناك سر أعمق من ذلك وغرض نفى أكثر مما تنصوره ، وذلك هو الاعتقاد بالحياة مرة أخرى ، وأن التعاويذ السحرية كان لها القدح المعلى في تحويل هذه الرسوم إلى حقائق يتمتع بها المتوفى .

ومما يؤكد أن المصرى لم ينقش هذه الرسوم في حجرات مقبرته لمجرد الزينة أننا وجدنا في إحدى مقابر عطاء القوم في جبانة أهرام الجيزة واسمه « حتبى » ويلقب بمدير الوثائق الملكية ورئيس كتاب الضياع الملكية ، أن صاحب المقبرة لم يشيد لنفسه حجرة للقرايين بل اكتفى بالباب الوهمى ، ولكنه من جهة أخرى صنع لنفسه تابوتا من الحجر الجيري الأبيض وزينه بالتقوش والأبواب الوهمية ، وكتب على حافته اسمه وألقابه ، ثم كتب على جدار تابوته الغربى من الداخل بالمداد الأسود قائمة بالمأكولات التى كانت تكتب عادة في حجرة القرايين فوق الباب الوهمى . يضاف الى ذلك أننا عثرنا على بعض مقابر في جبانتي أهرام الجيزة وسقارة قد نقشت على حجر دفنها كل ما يحتاج إليه من أوان ، وأثاث ، ومناظر أخرى ولم ينقش شئ من ذلك على حجرات القربان ، وأعتقد أن في كل ما ذكرنا ما يدحض القول بأن هذه المناظر كانت تعمل للزينة والفن فحسب ، لأنها في الحالات الأخيرة عملت في أعماق حجرة الدفن فلا يمكن لأحد أن يتمتع بجمال فنها قط إلا نابشو القبور للبحث عن الكنوز أو الحقائق التاريخية .

يضاف إلى ذلك أن حرص المصرى على الاستفادة من هذه المناظر في

التقوش التى
على جدران المقابر
ليست للزينة

حياته الأخرى جعله يفكر في صنع مجموعة عظيمة من الآلات النحاسية على شكل نماذج يبلغ عددها أحيانا أكثر من مائة قطعة كالتي عثر عليها حديثا في مقبرة ابن «تى» ، أو المجموعة التي عثر عليها للأمير «خنوم با إن» ابن «خفرع» ، أو لحفيد الملك «منكورع» في منطقة حفائر الجامعة بالأهرام ، فقد كانت هذه المجموعات الأولى من نوعها إذ عثر عليها في مقابر لم تمس بعد .

ومن ذلك يمكننا أن نستخلص أن المتوفى كان يحملها معه في قبره ليستعملها هو لنفسه أو ليستعملها أصحاب الحرف والصناعات عند الحاجة إليها في الآخرة كما كان يحتاج إليها في الدنيا ، والا فليس لوجود هذه الآلات مع المتوفى في القبر أى تفسير آخر .

سبب وضع النماذج
النحاسية وغيرها
مع المتوفى في القبر

على أن فكرة البعث هذه ثانية وقدرة السحر على قلب الصور إلى حقائق لم تكن وليدة أفكار عامة الشعب ، بل نبتت أولا عند الملوك ، ثم أصبح القوم فيما بعد على دين ملوكهم ، ولذلك نجد أن أقدم تعاويذ سحرية يرجع عهدها إلى ما وجد على جدران أهرام ملوك الأسرة الخامسة ، والمطلع عليها يجد أنها ترجع إلى عصور بعيدة في القدم ، وكذلك كان يظن بعض علماء الآثار أن المناظر لمتعددة التي نجدها على مصاطب الدولة القديمة كانت خاصة برجال البلاط وعامة الشعب ، وأنها لا توجد على الأهرام ومبانيها . ولكن الكشف الحديثة أثبتت أن كل هذه المناظر قد نقلت من معابد الملوك ومقابرهم ، إذ عثرنا أولا في المعبد الجنائزى للملكة «خت كاوس» كما عثرنا في هرم «خوفو» على بعض نقوش جنائزية ، ومناظر لبعض الأعياد والاحتفالات ، ولكن أعظم مجموعة

المناظر التي على
جدران المقابر منقولة
عن مناظر معابد
الأهرام

من هذا النوع عثر عليها في الطريق المؤدى من المعبد الجنازى إلى معبد
الوادى للملك « وناس » وذلك أنه وجد على جدران هذا الطريق المسقوف
مناظر تمثل كل الحياة الاجتماعية بأبهى مناظرها (انظر جزء اول ص ٣٥٣).
والآن بقى علينا أن نذكر كلمة عن المهارة الفنية فى نحت هذه المناظر
وتنسيقها .

تدل الأحوال على أن الفنانين فى هذا العصر كانوا ينكرون ذاتهم
رغم ميل المصرى إلى حب الظهور والفخر بأعماله العظيمة وتقصها على
قبره . ومن الأمثلة النادرة التى نجد فيها الفنان يضع أمضاءه على أعماله ،
الفنان الملكى « بتاح خو » وهو الذى نحت المناظر التى على مقبرة أمير
مقاطعة الأشمونين « ورأيرمن » الذى نحت لنفسه مقبرة فى جهة (الشيخ سعيد)
ويشاهد أن الفنان (١) قد رسم نفسه بين موظفى قصر هذا الأمير وكان
من بين الذين جلسوا على مائدته .

الفنان المصرى فى
ذلك العهد وندورة
ذكر اسمه على أعماله

ولا يبعد أن يكون مجبرا على عمل ذلك ، ولقد وجدنا أحد الفنانين
الذين نقشوا المناظر على طريق « وناس » قد كتب اسمه تحت أحد المناظر
والفنان الذى أبدع نقوش الأمير « نب إم آخت » ابن الملك « خفرع »
قد ذكر اسمه على هذه المقبرة . وكذلك عثرنا على مقبرة فى جبانة الجيزة
ذكر لنا فى نقوشها ذلك الفنان أنه هو الذى نحت مناظر كل مقبرة الأمير ،
والواقع أن مناظرها آية فى الإبداع ودقة الفن .

وكان الفنان فى هذا العصر يتبع إحدى طريقتين فى إبراز صوره :
الطريقة الأولى - كان يجهز سطح الحجر الجيرى ، ثم يرسم عليه المنظر بالمداد

(1) Davies, Rock Tombs, p. 18, pl. IV.

الأحمر أو الأسود بعد أن يقسمه حسب قانون الرسم ، وبعد ذلك ينحت المنظر بارزا، أو غائرا حسبما يتطلب صاحب المقبرة ، ثم يأخذ في وضع التفاصيل التي يبرز بعدها المنظر في صورته الأخيرة .

الطريقة الثانية : كانت يتبع فيها وضع طبقة من الجص على الجدار الذي يريد تصوير المنظر عليه ، وكان يضطر إلى ذلك عندما يكون الجدار من اللبن أو من الحجر المحلى الهش الأصفر اللون ، وبعد ذلك يرسم مناظره بالألوان المختلفة . وقد عثر على مقبرتين من هذا النوع في جبانة الجيزة ولم نستطيع حفظهما لأن الملاط الأبيض الرقيق سقط واختفت معه الرسوم ، غير أننا تمكنا من نقله ، ولا يزال بعض هذا (الفرسكو) موجودا للآن يشهد بدقة رجال الفن ومهارتهم في مقبرة الأميرة « حمت رع » التي تنسب إلى بيت « خفرع » والتي أبدع الفنان في تصويرها في ثوبها الجميل ذى الألوان الزاهية التي تمثل عدة أنواع من الخرز المختلف الألوان ، مما يجعل الإنسان يقف مذهوشا أمام ما وصل إليه الفنان في ذلك العصر البعيد . هذا إلى أن الطيور التي رسمت في هذه المقبرة محاكاة ألوانها الطبيعية لشاهد عدل على ما وصل إليه من تذوقه للفن وحبه لمحاكاة الطبيعة في أجمل صورها . وقد أظهر الفنان في المناظر والصور التي نقشها على الحجر الجيري الأبيض كل الأوضاع التي نشاهدها في الطبيعة للنبات ، والحيوان ، والإنسان ، ولم يستعص عليه إلا رسم الإنسان على الجدران من الوجه فإنه لم يفلح فيه قط كما سيأتى ذكر ذلك ، وكان دائما يرسمه بصورة جانبية حتى اقتضاء العصر الفرعونى . ويجب هنا أن نشير إلى كثرة هذه المناظر وتعددتها في مصاطب علية القوم ، وكبار رجال الدولة مما يشعر

طرق رسم المناظر
على الجدران

بتحسن حالتهم الاجتماعية ، وازدياد ثروتهم مما يتفق مع الهبات الملكية التي كان يمنحهم إياها الفرعون بمثابة وقف من أراضي التاج لما قاموا به من الخدمات لجلالته . ولذلك نرى أن كل واحد منهم ، بعد أن أصبح ذا ثروة طائلة يقيم لنفسه مقبرة عظيمة ، ويحبس عليها الأوقاف الجمّة ويباهى بذلك في النقوش التي يحفرها على جدران حجرات مقبرته . وقد بلغ فن النقش الغائر والبارز قته في أواسط الأسرة الخامسة ، إذ نشاهد الحذق في رسم تفاصيل أجزاء الطيور ، والحيوان والنبات ، وانسجام الألوان مع الذوق الفائق في توزيعها مما يسبغ على هذه المناظر حياة وروحا ، يعثان في النفس سرورا يفوق ما يشعر به الانسان أمام المناظر الطبيعية الحقيقية .

تعدد المناظر واتقانها
في هذا المصغر
يشعر بثروة أصحابها

تمثال القرين « كا » أو الروح المادية والتماثيل الآخري التي توجد في قبر المتوفى

في العهد الذي وصلت فيه حجرات القربان إلى قتها من الكمال في النقش والرسم ، قضت المعتقدات الدينية أن يصنع المصري لنفسه قبل مماته تماثلا أو تماثيل توضع معه في القبر كما كانت توضع أحيانا لأفراد أسرته ، تعرف بتمثال أو تماثيل القرين وذلك لأجل أن تحمل فيه روحه المادية إذا حدث لجثته تلف أو عطب ، أو اختفت لأي سبب ما حتى يحيا منها في قبره . والظاهر أن هذه التماثيل أخذ عددها في الزيادة تبعا لثراء صاحب المقبرة لأنه كان يخاف أن يتلف بعضها فلا تجد القرين لها مأوى فكان يصنع عددا عظيما منها بصفة احتياطية حتى أتيا وجدنا أحد عظماء

سبب صناعة تماثيل
القرين وغيرها مما
كان يوجد مع المتوفى

القوم قد صنع لنفسه أكثر من مائه تمثال فكان في ذلك يحاكي الملوك
كما ظهر منذ عهد الأسرة الرابعة أن عليّة القوم أخذوا يحتاطون لأنفسهم
احتياطاً آخر ، وذلك أنهم زيادة على رسم أصحاب الحرف والصناعات
على جدران مقابرهم لخدمتهم في الآخرة ، أخذوا ينحتونها من الحجر
الجيري الأبيض ، ويصنعونها من الخشب ، فنجد بجانب المتوفى تماثيل
عجائته ، وصانع فخاره وصانع جعته ، وخبازته ، وطاهيته ، وطحانه . كل
هذه التماثيل كانت تصنع بشكل خشن مما يمكن الفنان الحديث أن يلمس
فيها صدق التعبير ، إذ لم تكن خشونتها لانتسابها إلى حالة
القوم ، بل لتمثيل شكلهم وزينهم الحقيقي وتقاطيعهم الغليظة ، وهنا نجد أن
الفنان كان يرخي لنفسه العنان ، فكان يمثل كل صانع بجلسته الخاصة
وأمامه المادة التي يصنعها ممثلة معه في الحجر . وقد كانت مستلزمات الفن
تقرض عليه أحيانا أن يخرج عن حد المؤلف في وضع التمثال ، ولا أدل
على ذلك من الوضع الذي وجدنا عليه تمثالا جالسا أمام موقد وقد لفت
رأسه تقاديا من الدخان الذي كان ينبعث من الموقد ، وهذا من عجائب
الفن المصري من جهة الخروج عن الأوضاع المألوفة . وكانت كل هذه
التماثيل توضع في أماكن خاصة عرفت فيما بعد بالسرايب أو بيت
« الكا » (الروح المادية) ، وكانت توضع في بادي الأمر - كما
يشاهد في ميدوم - في الكوة الكبيرة التي توضع فيها القرايين ، وكانت هذه
على شكل باب وهمي وتعتبر بأنها مقصورة ليحفظ فيها تمثال المتوفى ،
وربما تقل الأفراد ذلك عن الملوك الذين يصنعون لأنفسهم تماثيل
للقرين .

أما في مقابر الجيزة التي من عهد بناء الأهرام فكانت توضع التماثيل في حجرات بنيت خصيصا لها وراء الباب الوهمي . وفي مقبرة الكاهن المرتل « كاعبر » المعروف (بشيخ البلد) ، وضع تمثاله وتمثال زوجته في كوة عريضة في الجدار الجنوبي لحجرة خارجية ربما كانت مقصورة . وفي عهد العظيم « حسي » كانت التماثيل توضع في نهاية حجرة القربان ، وفيما بعد أصبحت التماثيل حجرة خاصة منفردة في قلب المصطبة بالقرب من حجرة القربان . والواقع أنه في عهد الأسرتين الخامسة والسادسة كانت حجرات التماثيل توضع في أى جهة من جهات القبر ، كما يستدل على ذلك من السراييب التي عثر عليها في حفائر الجامعة المصرية بأهرام الجيزة ، إذ نجد سراييب في الجهات القبيلة والشرقية والبحرية والغربية ، غير أنها جميعا كانت بالقرب من الباب الوهمي أو حجرة الدفن . وقد عثر للكاهن الأعظم « رع ور » على أكثر من خمسين سردابا ومقصورة ، بعضها مكشوف ، وبعضها مغطى ، وبعضها في واجهة المصطبة نفسها . والسرداب بالمعنى الحقيقي المعروف لنا هو حجرة مشيدة من جهاتها الأربع ومسقوفة وليس فيها أى منفذ غير ثقب صغير يمكن لزائر المصطبة أن يرى التمثال منه وهذا الثقب يوضع في الجدار الخارجى للسرداب ويختلف ارتفاعه من سطح أرض الحجرة . باختلاف حجم التمثال ، فإذا كان التمثال صغيرا عمل في أسفل الجدار ، وإذا كان مرتفعا عمل في أعلى الجدار بحيث يمكن أن يراه الناظرُ كله ، وأحيانا يكون في السرداب عدة تماثيل في صف واحد فيكون عدد الثقوب بقدر عدد التماثيل وهكذا . يضاف الى ذلك أن هذا الثقب كان من وظائفه أن يوصل البخور لتمثال المتوفى .

أنواع السراييب
وأوضاعها المختلفة
ووظيفتها

تاريخ فن صناعة التماثيل منذ أقدم العصور إلى نهاية الدولة القديمة

لم نعثر على تماثيل ذات قيمة فنية بالمعنى الحقيقى فى عصور ما قبل التاريخ للآن ، وقبل أن نتكلم عن تماثيل عصر الدولة القديمة ، يجدر بنا أن نبحث عن القواعد التى كان لزاما على كل فنان أن يتبناها فى صناعة تماثيله ، ثم الخطوات التى كان يقفوها لإخراج تماثله كاملا .

والظاهر أن صناعتها لم تكن منتشرة فى هذا العهد ، وكذلك فى العهد الطينى لم تكن كثيرة . ويدل ماكشف منها حتى الآن على أن الفنان فى هذا الوقت كان يقصر همه على صنع تماثيل صغيرة من العاج لم تحفظ لنا الايام منها إلا أمثلة قليلة العدد ، وهى فى جملتها على جانب عظيم من الإتقان والرشاقة ، ولا أدل على ذلك من دمج المرأة العارية المحفوظة الآن فى متحف اللوفر ، وأقدم تماثيل بالمعنى الحقيقى يرجع تاريخها إلى نهاية الأسرة الثانية والواقع أن البحوث الفنية تدل على أن المصرى كان لا بد له أن يسير حسب قوانين وقواعد معينة عند تصوير التماثيل الإنسانية فى الحجر . وكان أول من أشار إلى وجود قانون النسب فى نحت التماثيل الآدمية المصرية هو العالم « لىسيوس » (1) وقد حقق نظريته ماثر عليه من الرسوم التى لم تكن قد تمت بعد على الجدران ، والتى لم تزل خطوط النسب الحمراء ظاهرة عليها ، وهذه الجدران يرجع عهدها إلى الدولة القديمة . وقد وجدت مثل هذه الرسوم كذلك على سدران مقابر (بنى حسن) المنحوتة فى الصخر ، ويرجع عهدها إلى

(1) Lepsius, Denk. Erg. t. I, p. 234.

أمراء المقاطعات في عهد الدولة الوسطى . فيلاحظ في مصاطب الدولة القديمة أن النسب كانت تقاس برسم خط عمودى في محور الصورة الآدمية المنحوتة على الجدار وذلك بنقط وخطوط متقاطعة ، أما المقاييس الجانبية فكانت تعلم بنقط على خطوط متقاطعة حمراء ، وهذه الخطوط الحمراء تدل على أن ارتفاع الشكل البشرى الواقف من أخمص القدم إلى منبت الشعر أو الشعر المستعار الذى على الجبهة كان مقسما إلى ست وحدات ، وكان طول القدم الأيسر الذى كان يرسم وهو يخطو دائما إلى الأمام في التماثيل والصور يقدر بأكثر من وحدة بقليل أما طول القدم الأيمن فكان يقدر بوحدة فقط ، أما ارتفاع الجسم إلى الركبة فيقدر بوحدين ، وإلى منبت الرقبة بخمس وحدات . أما التمثال الجالس فكان طوله خمس وحدات من أخمص القدمين إلى منبت شعر الرأس .

وفى عهد الدولة الوسطى شوهد أن الصور الإنسانية التى لم يتم نحتها كان مرسوما عليها شبكة مستطيلة الشكل من الخطوط الحمراء ، وحدتها تكاد تكون على وجه التقريب ثلث الوحدة القديمة ، وعلى ذلك كان يعتبر ارتفاع الشكل الآدمى الواقف ١٨ وحدة ، والشكل الجالس ١٥ وحدة . ولما كان الشكل يخطط على هذه الشبكة ، فقد سبب ذلك اختفاء المقاييس الجانبية التى كانت ترسم على الشكل فى الدولة القديمة . ومن المحتمل أن شبكة الخطوط المستطيلة كانت تستعمل فى الدولة القديمة للعناظر المعقدة ؛ وقد بقيت مستعملة حتى نهاية التاريخ المصرى . وقد تغير عدد الوحدات كرة أخرى فى عهد عصر النهضة أى فى الأسرة السادسة والعشرين ، فكان ارتفاع الشكل الواقف مقسما إلى ٢١ وحدة إلى منبت الشعر ، و ٢١ و ١/٤

إلى قمة الرأس .

وعلى أية حال فإن عين الفنان كانت تستعمل في تخطيط الأشكال سواء أكان ذلك في الطريقة التي كانت متبعة في عهد الدولة القديمة ، أو في الطريقة التي كان يستعمل فيها نظام شبكة الخطوط فيما بعد ، وتوجد لدينا أمثلة عدة لإعادة الرسم كرة أخرى عند ما كانت عين الفنان لا ترتاح لمحاولته الأولى . وكذلك كانت ترسم تفاصيل الوجه والملابس بخطوط حمراء وسوداء ، ولكنها كانت تختفي أثناء المسح في هذه التفاصيل . وكانت التحسينات الأخيرة تتوقف على مهارة الفنان ، أما درجات حسن نقش الصورة ، ونحتها فكانت ناشئة من دقة عين الفنان ، وتعود يده مساعدة عينه له في انسجام الشكل . ومن أجل ذلك نجد اختلافات في مقاييس الأشكال المنقوشة ، وبخاصة في التفاصيل مما يخرج بها عن تلك النسب الأصلية التي اتخذت في الأصل أساسا .

قانون رسم الاشكال
الآدمية في مختلف
المصور

وتمكن مشاهدة ذلك عند فحص النقوش والصور التي لم تتم بعد على الجدران وغيرها . ويجب أن نلاحظ هنا بنوع خاص أن قانون النسب لم يكن عائقا في سبيل رسم الأجسام الخارجة عن حد المؤلف ، أو الأجسام التي لم تكن في هيئة طبيعية معتادة كالآقزام ، وباني السفينة المسن ، والراعي النحيل الجسم الذي وجد مرسوما في مقابر (مير) ، أو الأشخاص الذين يحاربون البهائم ، أو الذين ينحنون ليحملوا أثقالا على ظهورهم أو البحارة الذين يحارب بعضهم بعضا في سفنهم ، أو العجانة ، أو الراقصة أو أصحاب الحرف ، والصناعات .

ويظهر أن تماثيل العصر الصاوي ، وما بعده حتى المصور الرومانية

فى مصر ، التى لم يكن قد تم صنعها بعد ، كانت تتبع نظام المقاييس الذى كان شائعا فى عهد الدولة القديمة ، وبخاصة إذا طبقناه على تماثيل الملك « منكاورع » . وذلك على رغم أن الامثلة التى لدينا من هذه العصور قليلة ؛ ونماذج النحت فى هذا العصر المتأخر نشاهد فيها - رغم اتباعها نظام الدولة القديمة - بعض أمثلة استعمال فيها نظام شبكة الخطوط المقسمة إلى ٢١ وحدة ، وقد وجدت محفورة أو مرسومة على ظهر التمثال ، ومعها كذلك علامات خاصة لتفسير تفاصيل معينة ؛ ولا شك فى أن القانون كان المقصود منه أن يستعمل فى التماثيل ، والنقوش على حد سواء .

الطرق الفنية فى صناعة التماثيل

رأينا فيما سلف أن الفنان المصرى كان يتبع قواعد فنية منظمة عندما يريد تصوير الأشكال البشرية ، أو نحتها على الجدران ، أو التماثيل ؛ ولذلك كان لزاما عليه أولا أن يحفظ قانون النسب كما ذكرنا آنفا ؛ ثم يتبع خطوات معينة ، الواحدة تلو الأخرى فى نحت تمثاله حتى يبرز فى صورته النهائية ،، كاملا من كل الوجوه . ولا شك فى أن هذه الخطوات كانت تختلف باختلاف المادة التى يصنع منها المثال تمثاله . وباختلاف درجة مهارته ، وما لديه من العدد والآلات .

وكانت تماثيل القرنين تنحت فى قطع من الأحجار ، أو فى جدران حجرة القربان المقطوعة من الصخر أو من الخشب . ولحسن الحظ قد عثرنا على تماثيل كثيرة لم يتم صنعها ، وكذلك على تماثيل قد بدأ الفنان

المواد التى يصنع منها
التمثال

في حفرها إلى درجة محدودة ثم أوقف العمل فيها فجأة فلم يتم صنعها ،
يضاف إلى ذلك أننا عثرنا على تماثيل أخذ الفنان ينحتها في جدار مقبرة
منحوتة في الصخر للكهنة « زدا » من عصر الملك خفرع في جبانة الجيزة ،
وهذه التماثيل تمثل لنا الخطوات التي كان يتدرج فيها الفنان لإبراز تماثله كاملاً⁽¹⁾

فنجد في لوحة رقم ١ في المرجع المذكور أن المثال حفر أولاً في
الصخر هيكل التمثال دون أن يبين فيه أى تفصيل ، وفي اللوحة رقم ٢
نجد أنه أخذ يظهر أعضاء الجسم بشكل مختصر دون أن يعطى لكل
منها ما يميزها بالتفصيل ، وفي لوحة أخرى نجد أن المثال أخذ يظهر
أولاً ملامح الوجه بكل دقة ، وذلك لأنه كان يعتبر أهم جزء في التمثال ،
أما الجزء الأسفل منه فلم يتم صنعه . وفي نفس اللوحة رقم ٢ نجد أن
الفنان أظهر تفاصيل كل الجسم بكل وضوح ودقة ، ولا تزال الخطوات
الحمر التي كانت ترشده ، باقية إلى الآن في التماثيل التي لم يتم صنعها .
ومن ذلك يتضح لنا أن النحات كان يضع التصميم أولاً برسم
الهيكل البشري مختصراً ، ثم يأخذ في إظهار التفاصيل مبتدئاً بالرأس
فالصدر ، ثم الأطراف . وهذه المصطبة تكاد تكون الوحيدة من نوعها
من مصاطب الدولة القديمة ، التي يمكننا بواسطتها دراسة الخطوات التي
كان يضعها الفنان لنحت التماثيل في أصل الجدران الصخرية ، ومن
المحتمل أن هناك طرقاً أخرى لا نعلمها .

أما في تماثيل الملوك فقد كشف الأستاذ « ريزنر » في معبد الملك
« منكاورع » عن عدد عظيم من التماثيل التي لم يتم صنعها بعد بدرجات

١ (1) Excavations at Giza, Vol. I, p. 86, pls. LIII, LIV.

مختلفة ، وسبب ذلك أن هذا الملك كما ذكرنا آفنا توفي قبل أن يتم بناء هرمه ؛ ومن التماثيل التى وجدت فى معبد غير كاملة يمكننا أن تتبع الخطوات التى قام بها الفنان لإخراج تمثاله كاملا . وقد دل الفحص على أن الأشكال أو الحالات التى وجد عليها التمثال أثناء صنعه من البداية إلى النهاية ثمانية ، سندكرها هنا لعلها تكون ذات فائدة لفنانى عصرنا .

الحالة الأولى : تمثل لنا قطع الحجر بمقاييسه المطلوبة ، فإذا كان المطلوب تمثالا جالسا ، يظهر من الحجر شكل غير واضح للكرسى أو القطعة التى تمثل مقعد التمثال ، ولا يظهر هنا فى الحجر أى تمييز للوجه أو الذراعين ، أو الساقين . وبعد ذلك ينقر سطح تلك الكتلة الحجرية كأنها دقت بحجر صلب ، ثم تسوى بعض هذه الثغرات أو الثقوب المتخلفة عن الدق ، وفى أما كن كانت تملأ بمعجينة تشبه مسحوقا معجوناً بالماء . وتسوية سطح هذه الكتلة بهذه الكيفية كان بطبيعة الحال يعمل بواسطة حجر خاص لذلك . ويلاحظ فى هذه الحالة كذلك أن على الكتلة الحجرية خطوطا يبلغ طولها بين اثنين وخمسة ملايين فى العرض رسمت باللون الأحمر ، وهى تحدد الرسم المختصر للذراع الأيمن . ولا شك فى أن كبير الفنانين فى المصنع كان يرسم كل خطوة فى نحت التمثال ويترك الأعمال السهلة التى لا تحتاج إلى مهارة ليقوم بها تلاميذه كما هى القاعدة المتبعة فى الصناعات المصرية فى كل العصور .

الخطوات التى اتبناها
التمثال فى حفر التماثيل
الملكية

الحالة الثانية : فى هذه الخطوة كان يتقدم التمثال فى تشكيل تمثاله خطوة جديدة إلى الأمام فيرسم الوجه ، والذراع الأيمن ، والمقعد الذى يتركز عليه التمثال بهيئة مختصرة . غير أن سطح الحجر كان لا يزال ظاهرا

فيه أثر العلامات والتسوية التي كانت في الحالة الأولى ، وكذلك الخطوط الحمراء التي تحدد الوجه ، والذراع الأيمن وجزءا من الذراع الأيسر .

الحالة الثالثة : في هذه الحالة ينحت الفنان الذراع الأيمن باليد مقفلة والوجه بلحيته ، والشعر المستعار بشكل واضح يمكن تمييزها به ؛ على حين أن الذراع الأيسر باليد مفتوحة يظهر هنا واضحا بعض الشيء ، وكذلك تظهر بنوع خاص الخطوط الحمراء التي ترشد الحفار إلى الحافة العليا للساعد الأيمن الذي لم يكن قد تم تدويره بعد ، وكذلك إلى مقدمة الحافة اليمنى لقاعدة التمثال .

الحالة الرابعة : في هذه الحالة نشاهد تقدما محسوسا في إظهار مميزات أجزاء الرأس . فيلاحظ أولا أن الكتلة الحجرية التي سيشكل منها الصل الملكي أخذت تبرز ؛ وكذلك يلاحظ أن الجزء الأوسط من الوجه قد مهد إلى أربعة أسطح مستوية لتتألف منها الجبهة . ونهاية الأنف ، والسطح الذي من طرف الأنف إلى طرف الذقن ، وآخر من الذقن إلى نهاية اللحية ، وكذلك جانبا الوجه فإنهما عولجا بنفس الكيفية غير أن انحدارهما لم يظهرهما كبيرين أو مميزين . أما الخط الذي يفصل الساقين فقد نحت وميز بخطوط طويلة بوساطة حجر معد لذلك ، حافته منحنية بعض الشيء ، ويلاحظ هنا وجود بقايا خط أحمر على الذراع الأيمن .

الحالة الخامسة : في هذه المرحلة يلاحظ أن ملامح صاحب التمثال أخذت تظهر وتميزه عن غيره . وهنا يلاحظ أن الثغرات ، والتكاسير البسيطة لا تزال ظاهرة على سطح التمثال ، ولكن بجمالة أقل مما كانت عليه من قبل ، والظاهر أن الضربات التي كانت توجه للسطح في هذه الحالة

لجعله مستويا كانت تضرب برفق حتى لا يكسر الأنف أو اللحية أو غيرها من أجزاء التمثال البارزة ، التي كانت عرضة للتشيم بسرعة . أما عملية المسح الخفيف ، وتسوية سطح التمثال فلا بد من أنها كانت تستعمل بوجه خاص لهذه الحالة وما بعدها ، ولم يشاهد هنا أى أثر للخطوط الحمراء .

الحالة السادسة : هذه الحالة هي التي تمثل الهيئة الخشنة التي يظهر فيها التمثال قبل أن يصقل فلا يظهر على سطحه الكسور البسيطة ، وعلامات المسح والتسوية التي كانت في الحالة الخامسة . وهنا يظهر التمثال صورة ناطقة لصاحبه ؛ غير أن أصابع القدمين ، واليدين لم تكن قد شكلت بعد بهيئة واضحة ، وكذلك الخطوط التي حول العينين كانت لا تزال مبهمة . وهذه التفاصيل الدقيقة كانت تعمل على ما يظهر خلال الصقل النهائي للتمثال .

الحالة السابعة : وهي التي يمكن أن يطلق عليها حالة بروز التمثال في

هيئته التامة ، وهنا نشاهد أن التمثال أخذ يصقل بعض الشيء وذلك بإزالة كل آثار التقدير الخفيف ، ثم ظهور التفاصيل نوعا ما ؛ ولكن من الواضح أن عملية تجميل التمثال يمكن أن تستمر حسب نوع جودة الصنعة التي يرغب في أن يكون عليها التمثال في حالته النهائية ؛ ولا نزاع في أن هذه المرحلة هي التي يجب أن يصل فيها التمثال إلى درجة الإتيان الفنى ؛ ولكن جمال مجموعه كان يتوقف على مقدار الوقت والعمل اللذين كانا يصرفان للوصول إلى هذه الغاية .

الحالة الثامنة : وهي خاصة بالتماثيل التي كان ينقش عليها اسم صاحبها وألقابه بعد صقلها صقلا بديعا ، والظاهر أن عملية الصقل الأخيرة كانت تتم باستعمال مادة جافة من المؤكد أنها مادة السفرة التي نستعملها الآن في صقل الأشياء .

وقد كان من أعظم ما يهتم به الفنان بعد الفراغ من عمل تمثاله أن يلونه بالألوان التي كان مصطلحا عليها في عهد الدولة القديمة . وذلك أن البشرة عند النساء كانت تلون باللون الأصفر (من المدهش أننا وجدنا تمثال الملك « زوسر » ملونا باللون الأصفر ، والسبب في ذلك مجهول) ، أما الرجال فكانت بشرتهم تلون باللون الأحمر القاتم . والشعر المستعار كان لونه أسود فاحم ، والملابس لونت في معظم الأحيان باللون الأبيض ، أما المجوهرات التي كان يتحلى بها الرجال والنساء على السواء كالعلائد ، والأساور ، والحجول ، فكانت تلون بألوان مختلفة أهمها الأزرق المائل للخضرة لتحاكي لون الفيروز ، واللون الأحمر الباهت لتمثل لون الكرنيلين ، والحزام الذي كان يلبسه التمثال كانت ألوانه مختلفة تدل على حسن ذوق وانسجام في تركيب الألوان . وأحسن أمثلة لدينا في تلوين التماثيل، يحتمل أن يكون تمثالا « رع حتب » وزوجته « نفرت » المحفوظان بمتحف القاهرة . وقد كان من الصعب جدا تمييز نوع الحجر الذي عمل منه التمثال عند ما يكون التلوين متقنا . على أن الدقة في نحت التمثال المصنوع من الحجر الجيري الأبيض كان يغطي عليها أحيانا بالتلوين .

ويرى فنانو عصرنا في تلوين التماثيل القديمة أن المصري كان لا يتذوق فنه ، ولا يقدره ، ولا نزاع في أن المثال المصري في ذلك العصر لم يكن يحسب حساب التقدير الفني لتمثاله ، وذلك لأنه رجل حقائق ، جل همه أن يبرز قطعه الفنية حسب أفكار ذاك العصر ، أى أن كل غرضه أن يحصل للرجل الذي يمثله على صورة حياة مستقبلية هنيئة فكان لزاما عليه أن يجعل صورته طبقا للشخص لتحل فيه

روحه المادية بعد الموت ؛ ومن أجل ذلك كان تلوين التمثال ضروريا ،
فإذا وضع اللون في ذلك الوقت بذوق يخالف ذوق عصرنا في استعمال
الألوان فإنه كان على أية حال يقوم بأداء ما تطلبه عين الرجل المصرى ،
وعقله حتى يصير تمثال الرجل أو المرأة صورة كاملة . على أنه رغم ذلك
لم يكن يوضع إلا التزر اليسير من هذه التماثيل في حجر المقبرة أو المبد
المكشوفة ، بل بالعكس معظم هذه التماثيل في الدولة لقدمية كانت توضع
في السرايب فلا يراها أحد بعد ذلك .

تكوين التماثيل
وضرورتها

ومن المدهش أن بعض التماثيل التي كانت تصنع من الجرانيت ،
والشيست ، والاردواز ، قد لوحظ فيها بعض الألوان ، وبخاصة حول العينين
وفي تخطيط الشارب أى أن التلوين وصل إلى هذه التماثيل أيضا .

يضاف إلى ذلك أن ملابس المتوفى كان يراعى فيها كل الدقة .
فكان كل شخص لابد أن يرتدى ملابسه التي كان يتقمصها مدة حياته
وإلا ضلت في معرفته الروح المادية . وقد كان من جراء اتباع الدقة في
إلباس كل تمثال لباسه الأسمى أن عرفنا شيئا كثيرا عن ملابس القوم
في هذا العهد مما لم يكن في مقدورنا معرفته بدون ما وصل إلينا من
التفاصيل التي وجدناها على التماثيل مرسومة بكل دقة وأمانة . ولم نجد من
التماثيل العارية ، إلا قطعة من تمثال لامرأة من عهد الأسرة الرابعة في
حفاثر الجيزة ، وكانت من حظيات أحد ملوك الأسرة الرابعة . على
أننا وجدنا كثيرا من صور الأطفال المنحوتة على جدران المقابر
ترسم عارية . وقد عثر كذلك على بعض تماثيل الرجال قد نُحِتَتْ
كذلك عارية.

تمثيل ملابس التمثال

تماثيل الخشب

كان الفنان المصرى مرتبطا فى عمل تماثله على وجه خاص ، بالمادة التى كان يصنع منها التمثال . ولذلك نجده دائما يهتم بتلك المادة ويتخذ لها الشكل الذى يمكن أن تظهر فيه جميلة أنيقة فمثلا نجد أن الخشب والعاج والمعادن بين الأشياء التى لم يلق مقاومة فى تمثيلها بخلاف ما كان يعانيه مع الأحجار الصلبة ، لأن مادتها كانت سهلة التشكيل حتى أنه كان فى صنعها يتحرر من القيود ، والمصاعب التى كانت تعترضه فى نحت التماثيل من الأحجار الصلبة . غير أنه رغم ذلك كان مقيدا فى صنعها بقيود أخرى . فمثلا لم يستطع أن يصنع من العاج إلا تماثيل صغيرة الحجم كتمثال « خوفو » الذى عثر عليه « بترى » فى (المرابة) فرغم أن صناعته معتنى بها إلا أنه من الوجهة الفنية ليست له قيمة عظيمة .

سهولة نحت التمثال
تتوقف على المادة
التي يصنع منها

وكانت مصر فى ذلك العهد - كما هى الحال فى كل عهودها - لا تثبت أشجارا صالحة لعمل التماثيل ؛ أما ما كانت تشتريه من الشام من الأخشاب كالصنوبر والأرز والسرو ، فكان يصل إليها قطعاً صغيرة ، أو كتلا لا يمكن عمل تماثيل كبير من قطعة واحدة منها . ولذلك كان يصنع الجذع والرأس ، وأحيانا الفخذان من كتلة واحدة ، أما الذراعان فكانا يصنعان على حدة ويلصقان بالتمثال ، وكانت الحال كذلك فى الفخذين فى بعض الأحيان ، وكانت أجزاء التمثال تربط بوساطة (خوابير) دقيقة من الخشب مستطيلة الشكل ؛ ثم يغلب كل هذا بملاط خفيف يأتى فوقه اللون الذى

يلون به التمثال ، وبذلك تختفي كل المعالم التي تشعر بأن التمثال مركب من أجزاء منفصلة عن بعضها . وذلك هو السر في أننا نجد التماثيل الخشب يدها اليسرى ممدودة إلى الأمام قابضة على عصا يتوكأ عليها . على حين أن هذا الوضع لا نجد في التماثيل المصنوعة من الحجر بل نجد دائما أن ذراعي التمثال ملصقتين بجسمه مما يشعر بأن التمثال لم يكن حرا في تشكيل التماثيل الحجرية كما يريد لأن المادة كانت تعيده .

كيفية صناعة تماثيل
الخشب

أما في المعادن كالذهب والنحاس والبرنز ، فكان يمكن صنع قطعة عظيمة واحدة منها إذ كانت صناعة صب المعادن متقدمة في هذا العصر ، والظاهر أن الصانع وقتذاك لم يجسر إلا على صب قطع صغيرة ، وربما كان من السهل عليه صب التماثيل الصغيرة ، وأشكال التعاويذ . أما التماثيل الكبيرة فكانت أجزاء منها تصنع بطرق المعدن . والأجزاء التي كانت تحتاج إلى عناية ودقة في الصنع كالوجه واليدين والرجلين ، تعمل لها قوالب خاصة تصب فيها . أما الجذع والذراعان ، والفخذان فكانت تصنع بالطرق ثم تتركب فوق قالب على الشكل المطلوب ، وتربط بمسامير وبهذه الطريقة صنع تماثالا « يبي الأول » الموجودان بمتحف القاهرة . فرباط التمثال كان مصنوعا من الخشب أما منطقته فكانت مصنوعة من الذهب ، ولباس رأسه من اللازورد ، وقد اختفى بطبيعة الحال الحزام ولباس الرأس لأن قيمتهما المادية أغرت اللصوص على انتزاعها ورغم سذاجة الطريقة التي اتبعت في صنع هذين التماثيلين والتمزيق الذي أصابهما فإنهما يعدان من أهم القطع الفنية التي يمكن وضعها في مرتبة تماثيل « خضرع » المنحوت من الديوريت .

كيفية صناعة التماثيل
من المعدن

ولا يفوتنا أن نلفت النظر هنا إلى أن المصرى نفسه كان يشعر ويعلم تمام العلم أن صناعة التماثيل من الخشب هي أسهل بكثير من صناعة التماثيل الحجرية ، ولا أدل على ذلك من المنظر الذى عثر عليه فى مقبرة العظيم « وب إم نفرت » وهو يمثل الحرف والصناعات ، وفيه فنانان أحدهما يصنع تماثلاً من الخشب والآخر يصنع تماثلاً من الحجر ، فالنحات الذى فى الجهة اليسرى من المنظر يقول لرفيقه : « لقد انقضى شهر منذ الوقت الذى بدأت فيه العمل فى التمثال الذى فى يدي » فاجابه التمثال الثانى الذى على يمينه قائلاً : « إنك رجل أحق فى حسابك . أما كان الأجدر بك أن تقول هل الخشب مثل الحجر (؟) » يقصد بذلك أن صناعة الخشب لا تحتاج إلى العناء والوقت اللذين يتطلبهما النحت فى الحجر (١) . كنا قد تكلمنا فيما سبق عن الأدوار التى كان يربها التمثال المنحوت قبل أن يصبح كاملاً ؛ ولنا أن نتساءل الآن عن الآلات التى كان يستعملها النحات المصرى لإخراج تماثله . فنجد نهاية عصر الأسرات كانت الآلات النحاسية معروفة فى مصر ، وكانت تصب فى قوالب بسيطة مفتوحة ، ثم بعد ذلك كانت تشكل بالطرق ، وهى باردة بمطارق من الحجر المصقول وهذه الآلات كانت قليلة العدد فى ذلك العهد السحيق ، وأهمها المقص الذى لا مقبض له ، وكان يرهف أحياناً من طرفيه ، أما طوله وسمكه فكانا يختلفان حسب الأحوال ، ومنها السكين المسطح العريض الذى ظهر منذ بداية العصر التاريخى ، ثم القدمون الذى كان يستعمل فى صنع الأخشاب .

ولما كشف المصريون البرنز الذى هو خليط من النحاس ، والقصدير

(1) Excav. at Giza II, p. 194-195.

انتشرت الآلات المعدنية بكثرة وأدخل عليها تحسينات كثيرة ، فظهر خلافا
للآلات القديمة ؛ الآلة المدية التي كانت تستعمل لقطع كتل الحجر العظيمة
من الصخر ؛ والمنشير ذات الأحجام المختلفة ، والثقاب الذي
كان يدار بالوتر . وهذا الأخير كان يستعمل في التماثيل التي تصنع
من الخشب ، غير أنه لم يكن آلة مجدية في الحجر ، وبخاصة
أحجار الجرانيت والديوريت التي كان يستعملها المصريون بكثرة في صنع
تماثيلهم وأوانهم .

الآلات التي كانت
تستعمل لنحت التماثيل

ومن المدهش أن المصريين لم يهتموا - أو على الأقل لم يظهر
اهتمامهم - بالحاجة إلى اختراع آلات صالحة للحفر في الحجر أحسن مما كان
لديهم ؛ وقد بقيت الحال كذلك إلى أن اختلطوا باليونان فاستعملوا الآلات
التي تستعمل الآن .

وعلى ذلك فالمصريون لم يدخلوا تحسينات في الآلات المعدنية للحفر
في الحجر ، وذلك يعني أنهم لم يكونوا في حاجة إلى ذلك ، وأنه كان
لديهم آلات متقنة لهذا العمل .

والحقيقة أن سكان وادي النيل قبل معرفة النحاس كانوا ينحتون
الأحجار الصلبة جدا ويصنعون منها أواني . ففي ظهور المدنية الأولى في
عصر ما قبل التاريخ ، كان يستعمل البازلت ، والحجر السنيقي (نسبة إلى
أسوان) ، وحجر البورفير ، وحجر الحية ، ثم الديوريت ، وقد بقيت
الأحجار المختارة حتى عصر الأهرام . وفي العصر الثاني مما قبل التاريخ
كانت الأواني لها مقابض تثقب في الحجر لتعلق منه ، ولكن منذ بداية
الأسرة الأولى ، عند ما أصبحت الآلات النحاسية شائعة ، لاحظنا أن

استعمال الأحجار للصلبة يقل على حين أن حجر الشيست والمرمر أصبحا كثيرى الاستعمال ؛ وذلك لأن الأوانى كانت تصنع بطريقة ميكانيكية بواسطة المثقاب والوتر ، ولكنها أقل جودة من صناعة ما قبل الأسرات . ولدينا أمثلة من المهارة التى تفوق الوصف التى كان يظهرها مصرى ما قبل الأسرات فى صناعة الظران ، ولم يفقه فيها أحد فى المدنات الحجرية من كل الوجوه ، وعند ما كان يريد الصانع المصرى أن يحضر الأوانى من الحجر الصلب كان يستعمل سحاقيات من الحجر تستعمل فوق السنفرة (حجر مسن) . أما الأوانى التى كانت تصنع من الحجر اللين فكان يستعمل لتفريغها المثقاب المصنوع من الظران الذى كان على شكل هلال . وعلى ذلك كان السبازج (السنفرة) معروفا منذ أقدم العصور مع أن موطنه الأصيل (كنوسوس) أحد جزر أرخبيل اليونان ، وهو أحد حجر بعد الماس ؛ ولذلك عند ما يدب طرف هذا الحجر ، كان يثقب أصلب الأحجار . وعند ما كان يستعمل مسحوقا كان يأكل الحجر عند ما كان يفرك أو يحك به ، وكان حث الأحجار وصلبها بواسطة أحجار مختلفة فى الحجم والشكل . وهذا الاستعمال الفنى قد بلغ من الكمال ما يفوق حد المألوف منذ أقدم العصور ؛ من ذلك أن الأستاذ « فلندرز بترى » عثر فى « هرا كنبوليس » على إناء من الحجر السنيق الأبيض والأسود عظيم الحجم ، يبلغ قطره نحو ٦٠ سم فى ارتفاع ١٥ سم ، ويزن نحو ٢٠٠ ك.ج . وهو أصم . قد أفرغ بالحك ، وجدرانه بعد تفريغه أصبحت رقيقة جدا ، حتى أن الإنسان يمكنه أن يرفعه بأصبع واحدة . ولا نزاع فى أن هذه المهارة اليدوية ، وتلك الدقة المدهشة ، والخلق فى الحفر ، والصبر

طريقة صنع الادانى
الحجرية

الذى لاحد له . كانت كلها من العوامل التى تغلبت على الصعوبات التى اعترضت الفنان المصرى فى تلك الأحجار الصلبة .

على أن آلات البرنز لم تتمكن يوما ما من أن تحل محل حجر المسن (السبازج) ، أو حجر البلور الصخرى وذلك لأن كلا من البرنز ، أو النحاس كان لينا لا يأخذ فى الأحجار الصلبة . وأحيانا نجد أن النوعين كانا يستعملان معا ، ولذلك نرى القوم منذ الأسرة الأولى يصنعون المناشير من النحاس المركب فيه أسنان من السنفرة ، وكذلك نجد أسنان المثاقيب من نفس الحجر .

ولما قضت الاعتقادات الدينية بعمل التماثيل ، كان لزاما على المختصين فى صناعة الأحجار الصلبة أن يوجهوا حذقهم الفنى طبعاً إلى الشكل الجديد وكانوا يتبعون فى صناعتهم الخطوات التى ذكرناها سافاً .

ولا يتسرب إلى الذهن أن الفنان وبخاصة ناحت التماثيل كان عاملاً بسيطاً ؛ بل كان لابد له من أن يسيطر على أصول فنه حتى يمكنه أن يتبع خطوة خطوة تعاليم رئيس الفنانين ولأجل أن يصل إلى ذلك كان لابد من أن يتعلم أشياء أخرى غير الرسم ، كفن الكتابة ، إذ كان التمثال عند الانتهاء من نحته فى غالب الأحيان ينقش عليه اسم صاحبه وألقابه .

ثقافة الفنان المصرى

والآن نسأل عن النموذج الذى كان يستخدمه الحفار المصرى لأبراز تمثاله ، والظاهر أنه كان هناك ثلاثة طرق ، وهى أولاً : أن ينقل المثال الصورة التى ينحتها من الطبيعة مباشرة . ثانياً : أن يحاكي نموذجاً متفقاً عليه من قبل .

ثالثاً : أن يصنع تمثاله من الطبيعة بوساطة صورة مطبوعة من الأصل .

وقد ذكرنا آنفاً أن التمثال كان يصنع في الأصل لضرورة دينية (أى لتحل فيه الروح المادية إذا اختفى الجسم الأصلي) . وذلك في عهد الدولة القديمة ، ولكن فيما بعد نشاهد أن التمثال أصبح لا يوضع في سرداب بل كان يوضع في معبد الإله . والظاهر أن هذه الفكرة نتجت من أن المتوفى كان يتلمس حاية الإله . إذ تقول النصوص أن التمثال « كان يجلس في ظل البيت المقدس ، ويستمع إلى الأدعية والصلوات في الصباح من فم الكهنة » .

السبب في صناعة
التمثيل

ولا نزاع في أن موضع التمثال سواء أكان في السرداب أم في المعبد لا يتطلب أن يرسم بأوضاع مختلفة ، كما تنحت التماثيل التي توضع في الميادين العامة ، على أن التمثال المصرى كان في معظم الأحيان يصنع ليرى من الوجه . ولذلك كان لا يعتنى بنحت تفاصيل الأجزاء الخلفية ، كما أن الصورة التي كانت ترسم على جدران المقابر كانت ترسم جانبية . وذلك لأنه في الحالة الأولى كان التمثال يصنع لتعرفه الروح المادية عند ما تدخل في القبر أو تخرج منه . أما الصورة الجانبية للأشخاص وغيرها فكانت ترسم جانبية لأنها كانت دائماً تمثل سائرة أو تنظر إلى شيء أمامها ، أو تسير نحوه مرسوماً كذلك بشكل جانبي فكان المتوفى يرسم وهو ينظر إلى مائدة طعامه ، أو سائرنا نحو بابه الوهمي ، أو داخلاً قبره . وهكذا كان حاملو القرايين وغيرهم يرسمون ذاهبين نحو الباب الوهمي .

سبب رسم
الصور المصرية
بوضع جانبي

وكان من جراء ذلك وجوب تمثيل المتوفى على الشكل المتقدم ، مع مراعاة أن وجه التمثال كان ينحت بوضع واحد دون إظهار أية

حركة فيها تغيير ملامحه . ولذلك كان من السهل جدا أن يرسم للشخص عدة تماثيل ؛ ولم يكن التمثال في حاجة إلى أن ينقل ملامح الوجه كل مرة من صاحب التمثال بل كان يكتفى بنقلها مرة واحدة . ولما كان التمثال يصنع لتحل فيه الروح المادية أبديا كان ينتخب للمتوفى صورته وهو في ريعان شبابه وغفوان قوته .

أما طريقة نحت التمثال عن صورة مطبوعة من الأصل بالجبس ، فالظاهر أنها قد استعملت في عهد الدولة الحديثة في تل الهارنة ، وإن كان لدينا بعض نماذج من قوالب الوجه المطبوعة عن الأصل من الدولة القديمة . عثر عليها الأستاذ « ينكر » في حفائره بالأهرام وسنتكلم عنها في حينها .

تدرج فن النحت البارز في الأسرة الأولى

يمثل فن النحت في عصر الأسر الأولى بعض نقوش نحتت على ألواح من حجر الشيست ، ورؤوس الدبابيس ، وأوان من الحجر المختلف الأنواع ؛ وأشياء أخرى متنوعة من العاج ، وكذلك أشكال رجال وحيوانات حفرت في العاج ، والأحجار والقاشاني . نذكر منها هنا أهم ما عثر عليه : عدد من الأشكال المصنوعة من العاج تمثل رجالا ونساء عثر عليها في « هراكنبوليس » ، والعراية المدفونة . وكذلك عثر على ثلاثة تماثيل للآله « مين » في بلدة قسط وعلى تماثيل راكعين من الحجر الجيري لرجل في هراكنبوليس ، وتمثال لرجل واقف في نفس المكان .

ثم تمثال صغير لرجل متربع في « هراكنبوليس » أيضا . ولكن مما يؤسف له أن معظم هذه التماثيل قد وجدت في حالة تفكك وتحلل شديدة . على أننا نشاهد مما بقي منها تقدما في المهارة الفنية عن عصر ما قبل الأسرات ، وبخاصة في عمل التماثيل الصغيرة ، وكذلك النقوش التي كانت تعمل بحجم صغير . فمثلا نجد أن رأس التمثال الصغير المتربع جيدة في صنعها مثل الصورة المحفورة على العاج ، وكذلك نشاهد مثل هذه المهارة والابتقان في أحد التمثالين الرامكين . أما تماثيل الإله « مين » الثلاثة فقد وجدت للأسف في حالة لا تمكننا من أن نحكم عليها بحق . ولكن يظهر على وجه عام أنها كانت لا تقل مهارة عما ذكرنا . وعلى الرغم من أن هذه التماثيل الكبير منها والصغير قد نحت من مادة لينة ، فإن صناعتها بعيدة عن جودة تماثيل الأسرة الرابعة . حقا إن الفنان في هذا العصر قد وصل إلى إتقان ملائح الوجه الإنساني ، وتقاطيعه إلى درجة أصبح من السهل معها تمييز جنس صاحب الوجه في بعض الأحيان . ولكن من جهة أخرى كان نحت التمثال على وجه عام لا يزال يحتاج إلى إتقان . يضاف إلى ذلك أن الأشكال كانت لا تزال عليها مسحة من الجمود مما يجعلنا نحكم بأن الفن كان في هذا الوقت قريبا من عهد الطفولة .

تدرج رقى صناعة
التماثيل

أما في النقش على الجدران فإن مثالي هذا العصر كانوا لا يزالون يعالجون صعوبة تمثيل الوجه الإنساني في وضع جانبي كما سنرى في عهد الدولة القديمة . وعند ما كان ممكنا تمثيل الذراع الأقرب للناظر خلف الجسم كان يمثل الصدر كأنه يواجه الإنسان . على حين أن باقي الجسم كان يمثل جانبيا ، وعند ما تكون اليدين قابضتين على شيء أمام الجسم كان يبدو

ظهر الكتف قبيحا كما حدث مثل ذلك في الأزمان التي تلت هذا العصر وكان جانب القدم الداخلي يظهر ممثلا ، فيرى لكل تمثال قدمان يسريان ، أو قدمان يمينان . ولكن اليدين كانتا ترسمان في العادة رسما صحيحا ، يدا يميني ، ويذا يسرى ، لكل شخص . ومن المحتمل جدا أن إخفاق بعض النحاتين الذين أتوا فيما بعد في النقش على الجدران وغيرها . راجع إلى أن الفنانين في العصر الذي نحن بصددده قد وضعوا تقاليد في رسم الأشكال في وقت لم تكن فيه مهارة الفنان قد بلغت مبلغا عظيما من الرقي والالتقان .

الاعلاط التي شاعت
في صناعة التماثيل

وقد كانت الأوضاع والحالات المختلفة ، التي ترسم بها الأشكال في هذا الوقت متداولة في نحت الدولة القديمة . ولكن ملابس الملك وأفراد الشعب كانت تختلف في أمور معينة إذ نجد أن التماثيل ، والأشكال كانت تمثل في هياث وملابس خاصة ؛ كتمثال الإله « مين » والتماثيل الراكمة ، والدمى ، والأشكال المصنوعة من العاج لرجل مرتد عباءة ، وكل هذه لها نظائرها في الأزمان التي أتت بعد هذا العصر . وكانت التماثيل والأشكال الواقفة أذرعتهما في معظم الأحيان مدلاة على الجانبين . أما راحة اليد فكانت تمثل مفتوحة أو مقفلة في أوضاع مختلفة . وكذلك كانت تمثل القدم اليسرى تخطو إلى الأمام عند الرجال أما في النساء فكانت القدمان ترسمان . أو تمثلان منضمة إحداهما إلى الأخرى في معظم الأحيان . كما هو الحال فيما بعد .

الاضاع المختلفة
للتماثيل

وأهم ما يلفت النظر في أوضاع تماثيل العصر الأول من الأسرات هو وضع اليد اليمنى والساعد في بعض الأحيان على الصدر في تماثيل

الذكور ، وعلى الثدي عند النساء ، وهذا الوضع يشاهد فى تمثال
هراكنبوليس وكذلك فى دمي العاج للأنثى والذكور ، التى عثر عليها
فى نفس المكان .

وأقدم تماثيل جميلة عثر عليها ويرجع عهدا إلى أواخر الأسرة الثانية
وأوائل الأسرة الثالثة هى تمثال الملك « خع سخموى » (أواخر الأسرة
الثانية) ، وتمثال الملك « زوسر » فاتحة ملوك الأسرة الثالثة ، والأخير
مصنوع من الحجر الجيرى الأبيض ، عثر عليه فى سقارة ، وكذلك عثر له
على قطعة من تمثال من الرمر ، ورأس من الجرانيت . وهذه التماثيل
تعد أقدم تماثيل مؤرخة .

وقد عثر على تمثال الملك « زوسر » المذكور فى سردابه الذى أقيم له
بجوار الهرم المدرج وقد عمل خاصة لروحه المادية ، ومثل مرتديا عباءته
وعلى رأسه لباس مقدس يعلوه النمى الملكى (غطاء للرأس يشبه
الكوفية) ومثلت يده اليمنى مقفلة على صدره وهى قابضة على طرف
عباءته . أما يده اليسرى فمفتوحة ، وراحتها على ركبته اليسرى . أما تمثالا
الملك « خع سخموى » فيوجد واحد منها فى متحف القاهرة ، والثانى فى
متحف أكسفورد وقد عثر عليها « كويل » فى هراكنبوليس أحدهما
من الجير الأبيض — وجد مهشما تهشما شديدا ؛ والثانى من الحجر
الشيست ، ويكاد يكون سليما ، ويمثل الملك لابسا التاج الأبيض جالسا
على أريكة مكعبة الشكل فى هيئة تشع بالجلال والهيبة اللتين نشاهدهما
غالبا فى نماذج فن هذا العصر ، ويلاحظ أن اليد اليسرى موضوعة على
صدره ، واليد اليمنى على ركبته . وقد توشح بعباءة لها كمان ، وقد لفته

تمثالا الملك
« خع سخموى »

كله ولم يظهر من جسمه إلا اليدان والقدمان .
ولا نزاع في أن صناعة هذه القطع تدل على أنها ملكية ، ويظهر
فيها تدرج الفن في الرقي عن سابقتها ، وبخاصة في نحت الفم وتشكيله
أما سطح التمثال وصقله فكان لا يزال ينقصه شيء كثير من الدقة كما
كان الحال عليه من قبل .

ويقرب من صنع هذه التماثيل تثالان للأميرة « رد زيت »
واحد منها من الجرانيت موجود الآن في متحف « تورين » والثاني
من الحجر الجيري الأبيض بمتحف « بروكسل » ،

صناعة تماثيل
علية القوم

أما تماثيل الأشراف في هذا العصر فلدنا منها بعض أمثلة نخص
بالذكر منها تمثال « سبا » وزوجه « نسا » وهما من طرائف متحف
الوفر . وكان « سبا » هذا من كبار موظفي رجال الدولة في عهد
الأسرة الثالثة .

على أن هناك تماثيل أخرى من صناعة خشنة لهذا العصر وبواسطتها
يمكن التمييز بين الصناعة الملكية ، والصناعة الشعبية . وأهمها تثال جالس
من الجرانيت لشخص يدعى « نزم عنخ » بمتحف الوفر ، وآخر
له من الجرانيت الأسود بمتحف ليدن ؛ ولا نزاع في أن هذين
التمثالين يمثلان صناعة الفن الحر ، في الأحجار الصلبة خلال الأسرة
الثالثة . على حين أن قطعتي المرمروالجرانيت اللتين تنسبان للملك « زوسر »
وكذلك تثال الأميرة « رد زيت » من حجر الديوريت ،
كلها تمثل الصناعة الملكية في نفس العصر في الأحجار الصلبة .
وهناك تماثيل أخرى كثيرة تشبه تثال الأميرة « رد زيت » يحتمل

الفرق بين تماثيل
الملوك والاشخاص

جدا أنها من هذا العصر ، ولكنها غير مؤرخة .

تماثيل العصر الأول من الأسره الرابعة

يعتبر تمثال الملك « خوفو » الصغير المصنوع من العاج أقدم تمثال عثر عليه إلى الآن في عهد الأسرة الرابعة ، وقد كشف عنه الأستاذ « فلندرزبترى » في معبد العراية . وكذلك عثر على قطع صغيرة من صوره المنحوتة على الأحجار في حفائر الأهرام ، وعلى صورة له كاملة على قطعة من الحجر الجيري الصلب ، وقد مثل فيها وهو لابس تاج الوجه البحرى وتعد فريدة في بابها .

وعثر لغير الملوك في هذه الفترة على ثلاثة تماثيل تنسب إلى عهد « سنفرو » ، أو عهد « خوفو » ، وهى تمثال صغير لموظف كبير يدعى « متن » عثر عليه « لبيوس » الأثرى الألمانى فى سرداب مقبرة هذا الموظف الواقعة بين أبو صير ، و سقارة ثم تمثال الأمير « رع حتب » ، وقد عثر عليه فى سرداب مقبرته فى ميدوم ؛ ومعه تمثال زوجته « نفرت » ، ولا يفوتنا أن نذكر هنا تماثلا آخر لسيدة يحتمل جدا أنها أم « خفرع » وهذا التمثال يرتدى ثوبا غريبا فى زيّه ، وقد عثر عليه فى منطقة اهرام الجيزة .

ولا نزاع فى أن أهم هذه التماثيل من الوجهة الفنية هما تماثلا « رع حتب » ، و « نفرت » ويرجع تاريخهما إلى عصر الملك « خوفو » ، وربما ركبما معا بعد عهد هذا الملك ويرجع حسن صنعها وجمالها إلى

أجل تماثيل فى
الدولة القديمة
مصنوعة من الحجر
الجيرى

سهولة النحت في الحجر الذي صنعا منه ، وكان ذلك بشيرا بتحسين الصناعة في الأحجار الصلبة في عهدى الملكين « خفرع » و « منكاورع » ويلاحظ أن أهم ما تمتاز بها هذه التماثيل في وضعها ، أننا نجد اليد اليمنى موضوعة على الصدر أما اليسرى فموضوعة على الركبة مفتوحة . وأول مثال لهذا الوضع تمثال الملك « زوسر » من الأسرة الثالثة ، وتدل الأمثلة التي لدينا على ما يظهر أن هذا الوضع كان المتبع عادة في تماثيل الرجال الجالسين في أوائل الأسرة الرابعة .

أوضاع التماثيل الصغيرة والكبيرة في عهد الدولة القديمة

دلت الأبحاث الأثرية التي عملت إلى الآن على أن أكثر عدد من التماثيل وجد سليما هو للملك « منكاورع » . وقد وجدت على أوضاع مختلفة . ويمكننا أن نتخذها أساسا للمقارنة بتماثيل الملوك في عهد الدولة القديمة . والواقع أننا لم نجد إلى الآن أوضاعا أخرى جديدة للتماثيل الملكية غير التي وجدناها لهذا الملك . وقد كشف الأستاذ « ريزنر » عن تماثيل واقفين ، وواحد وعشرين تمثالا جالسا للملك « منكاورع » وتمثال واقف للملكة ، وتماثيل للملك والمملكة واقفين ، وخمسة تماثيل يمثل كل منها الملك ، والإلهة « حنحور » ، وإلهة مقاطعة من مقاطعات القطر . ويشاهد في تماثيل الملك الواقف المنحوت من حجر البورفير وتمثاله المصنوع من العاج وكذلك في مجاميع التماثيل أن القدم اليسرى للملك تخطو إلى الأمام ، والذراعين متدليان على الفخذين ، واليد مقفلة . ومن الغريب أننا نلاحظ خلافا للقاعدة المتبعة أن الملكة في تمثيلها مع التماثيل

تخطو بقدمها اليسرى إلى الأمام قليلا ، إذ القاعدة في كل تماثيل السيدات بوجه عام أن القدمين ملتصقتان . (ومن الشواذ تماثل الأميرة تدعى « مرسى عنخ » (١) من عهد الأسرة الخامسة ويلاحظ فيه أن القدم اليسرى تخطو إلى الأمام) ، ويشاهد في تماثيل الملك الجالسة أن الذراعين مثنيان عند المرفق ، واليد اليسرى مقفلة ومتكئة على الفخذ الايمن ، والايهام فيها إلى أعلى ، وممسكة بمنديل أما تماثلا الملك ، والمملكة فيشاهد فيهما أن المملكة تطوق الملك بذراعيها الأيمن ويدها اليسرى على ذراعه الأيسر . وأما تماثيل مجاميع المقاطعات (الثالوث) فيظهر فيها خمسة أوضاع مختلفة على الأقل ونذكر هنا بعض التماثيل الأخرى الملكية التي عثر عليها في عهد هذه الأسرة وأهمها (١) تماثل الملك « خوفو » الذي وجد في العرابة (٢) سبعة تماثيل جالسة للملك « خفرع » خمسة منها من حجر الديوريت ، وواحد من الشيست ، وواحد من المرمر ؛ وقد عثر على ستة منها في بئر معبد الوادى « لخفرع » في الحجرة التي كانت منصوبة فيها ، وواحد في معبد « فتاح » بميت رهينة . (٣) عثر على بقايا أكثر من مائتي تماثل في حفائر الأهرام كلها مهشمة . ومن الأجزاء الباقية يستدل على أنها كانت آية في الإتيان الفنى ومن الأحجار الصلبة المختلفة الأنواع (٤) تماثلان للملك « خفرع » ، والإلهة « باست » من حجر الديوريت لم يتم صنهما ، عثر عليهما في معبد « خفرع » أيضا . (٥) تماثل جالس للملك « منكاورع » من الديوريت بمعبد الإله « فتاح » بميت رهينة . (٦) سبعة تماثيل من الحجر الجيري مهشمة عثر عليها في حفائر الكونت « جلاوزا »

(١) Excav. at Giza, vol. II, pl. LXVI.

في منطقة الأهرام وكلها لأمرأ من أسرة « خرع » (٧) تمثال جالس
 الملك غير معروف اسمه يحتمل أنه « ددف رع » عثر عليه في معبد
 « فتاح » بميت رهينة ، وهو مصنوع من المرمر . (٨) رأس جميل
 بلحية مصنوع من الحجر الجيري الأبيض لأمر في حفائر الجامعة بمنطقة
 الهرم ، ويمتاز بابتسامة على وجهه . (٩) رأس ضخمة من الجرانيت
 الأسود للأمير « نب إم آخت » عثر عليه في حفائر الجامعة
 بمنطقة الهرم أيضا (١٠) تمثال صغير للملك من الحجر الجرانيت الأسود لم
 يعرف اسمه وجد في معبد الملكة « خنت كلوس » ، ويحتمل أنه للملك
 « منكاورع » والدها . (١١) تمثال جالس من الجرانيت للملك
 « نوسر رع » من ملوك الأسرة الخامسة ، وجد في معبد « فتاح »
 بميت رهينة (١٢) الجزء الأسفل من تمثال الملك « نوسر رع » يده
 اليمنى مقفلة على فخذه عثر عليه في بحيرة الكرنك . (١٣) تمثال جالس
 من المرمر للملك « منكاورع » من الأسرة الخامسة متشح بلباس
 عيد « حب سد » عثر عليه بمعبد « فتاح » بميت رهينة . (١٤)
 قاعدة تمثال جالس للملك « يبي » من الأسرة السادسة عثر عليه في
 الكوم الأحمر ، ومصنوع من الجرانيت . (١٥) تمثال واقف من النحاس
 وآخر صغير من النحاس أيضا للملك « يبي الأول » عثر عليهما في
 هراكنبوليس ، والتمثال الكبير يفوق الحجم الطبيعي بقليل ويده اليمنى
 مقفلة ، ومدلاة على فخذه الأيمن ، ويده اليسرى ممدودة قابضة على
 عصا أما التمثال الصغير فيداه مقفلتان

التمثيل التي عثر عليها
 للملك الاسر الرابعة
 والخامسة والسادسة
 في مختلف جهات
 القطر

ويلاحظ أن أوضاع كل هذه التماثيل تماثل تماثيل الملك « منكاورع »

الهم إلا تماثل الملك « منكاو حور » ، وتماثل الملك « يبي الأول »
المصنوعين من النحاس . على أن التغيير في تمثيل « منكاو حور »
يرجع إلى أنه ممثل بملابس عيد « حب سد » أما في تماثل « يبي الأول »
فلأنه يرجع إلى تقليد صناعة التماثيل الخشبية للنحاس .

أوضاع التماثيل الخشبية في الأسرتين الخامسة والسادسة

كانت التماثيل التي تصنع جالسة ، أو واقفة مألوفة في التماثيل التي
من الحجر صغيرها ، وكبيرها ، وذلك في عهد الأسرتين الخامسة والسادسة .
وأهم تغيير حدث ، في وضع التماثيل الجالسة كان ينحصر في تصوير اليد
المقفلة مقبوبة ، بحيث يكون ظهرها ، وعقل الأصابع في أعلى ، ففي
كتاب « بورخرت » عن التماثيل في الدولة القديمة ، نجد أن ٦١ تماثلاً
تبع التقاليد القديمة على حين أن ٣٦ تماثلاً نجد فيها التجديد الذي
ذكرناه الآن .

وكان وضع التماثل واقفاً هو السائد في التماثيل المصنوعة من الحجر
فنجد في كتاب « بورخرت » ٣٤ تماثلاً منفردة ، وعشر مجاميع كلها
واقفة . أما التماثيل الخشبية التي على نمط تماثل « يبي الأول »
النحاسي فنجد منها تسعة تماثيل ، وكذلك عشر أخيراً في سقارة على تماثيل
من الخشب واقفين على أننا نجد في مجاميع تماثيل الدولة القديمة ، أوضاعاً
مختلفة اختلافاً عظيماً . وعلى أية حال فإننا نلاحظ أن أوضاع تماثيل
الملوك « خفرع » ، و « منكاورع » كانت السائدة في الدولة القديمة .

سواء أكانت لأكابر رجال الدولة أم للموك والأمرء .

الترتيب التاريخى لأوضاع التماثيل التى كان

يستعملها الفنان المصرى

يظهر مما تقدم أن أوضاع اليدين والذراعين فى كل التماثيل كانت على ثلاثة أنواع فى ثلاثة عصور مختلفة (١) وضع اليد اليسرى أمام الجسم ، وتلك كانت من مميزات عهد الأسرة الثالثة ، وربما امتد ذلك إلى عهد الملك « سنفرى » . والواقع أن ذلك كان أحد الأوضاع للتماثيل الصغيرة المصنوعة من العاج التى نسبت إلى عهد فجر الأسرات ، وهو ما يسمى بالعهد العتيق . (٢) وضع اليد اليمنى أمام الجسم ، وكان خاصا بتماثيل « خوفو » ومن المحتمل أن ذلك كان التقليد فى عهده . (وتمثال « زوسر » على هذا الوضع ولو أنه من الأسرة الثالثة) (٣) وضع اليد مقفلة على الركبة اليمنى فى التماثيل الجالسة ، واليد اليسرى مفتوحة . وقد ظهر أولا هذا الوضع فى تماثيل « خفرع » . أما التمثال الواقف لنفس هذا العصر فكانت ذراعه مبسوطين على الفخذين ، ويده مقفلتين والأبهام ظاهرا . (٤) وهناك فوق ما ذكرنا ملاحظة خاصة بتماثيل الدولة القديمة المصنوعة من الحجر ، وعى أن كل تماثيل هذا العصر مقفلة اليدين ، أو واحدة مقفلة ، والثانية . مبسوطة ، ولم يحدث قط إلى الآن أننا وجدنا تماثلا من هذا العصر فيه اليدين مفتوحتان . أما تماثيل الأسرتين الخامسة ، والسادسة المصنوعة من الخشب فكانت تصنع حسب التقاليد المتبعة فى التماثيل الواقفة ، والقاعدة . والوضع الخاص بالتماثيل الخشبية الواقفة يمثل شيخ البلد .

ويوجد على أقل تقدير عشرة أمثلة من هذا الوضع في متحف القاهرة
ويوجد كثير غيرها في متاحف أوروبا وأمريكا . أما التماثيل الخشبية
للأطفال ، والسيدات فلا تختلف في وضعها عن التماثيل الحجرية .

تأثير تماثيل « خفرع » و « منكاورع » في صناعة تماثيل الأفراد في الاسرتين الخامسة والسادسة

يوجد في المتحف المصرى أكثر من مائة تمثال جالس من عهد الدولة
القديمة ، ويشمل ذلك العدد المجاميع من التماثيل ، وقد لوحظ أن ستين
تمثالا منها قد نحتت حسب التقاليد المتبعة في تماثيل الملك « خفرع » من
حيث الوضع ، ومنها نحو ٣٦ قد انحرفت عنه بتغيير بسيط ، وذلك في
كيفية وضع اليد اليمنى المقفلة . فمثلا نلاحظ في هذه التماثيل أن راحة
اليد تكون مقلوبة إلى أسفل بدلا من جل الأبهام إلى أعلى . وقد عثر
على ٣١ تمثالا من الستة والثلاثين في سقارة ويرجع تاريخها إلى الأسرة
الخامسة ، والظاهر أن هذه التماثيل قد أخرجتها مدرسة واحدة على رأسها
فنان واحد ، وتلاميذه الذين عثوا معه في منف ، وابتدعوا هذا التجديد
الذى يختلف بشئ بسيط عن إنتاج فنانى الجيزة ، وتقاليدهم . ويفلب
على الظن أن تقاليد الجيزة هى التقاليد الرسمية ، إذ وجدنا التمثال الوحيد
الملكى الذى عثر عليه من الأسرة الخامسة ، وهو للملك « نوسررع » قد
وضع على هيئة وضع تمثال الملك « خفرع » .

الفرق بين تماثيل
الجيزة وسقارة

على أننا إذا استبعدنا هاتين المجموعتين أى الستين تمثالا التى نحتت

فى مدرسة الجيزة والـ ٣٦ تمثالا التى نحتت فى مدرسة سقارة لم يبق لدينا إلا بضعة تماثيل قد ظهر فيها بعض تغيير مخالف لكل ماسبق ، فى اثنين منها نجد أن اليد اليسرى مقفلة وموضوعة على الركبة . وفى اثنين آخرين نجد أن اليدين مقفلتان . أما تماثيل الرجال الواقفة ، وتماثيل السيدات الجالسات فليس فيها اختلافات تقريبا ، ومن بين تماثيل السيدات الواقفة ثلاثة نجد فى كل القدم اليسرى تخطو إلى الأمام قليلا ، ونجد ذلك الوضع فى تمثال الملكة زوجة « منكاورع » ، وتمثال « مرسى عنخ » هذا إلى تمثال سيدة مع رجل واقفين فنجد يديها مقفلتين ومتدليتين على فخذيها كالرجل .

ومن كل ماتقدم يمكننا أن نستخلص بعض حقائق عن تماثيل الدولة القديمة تكاد تنطبق على كل ماثر عليه حتى الآن . فنلا نجد أن قطعتين مؤرختين ، وهما تمثال الأميرة « نزم رعنخ » والملك « خع سخموى » لكل منهما كرسى خشبى . وأن الدراع الأيسر موضوع أمام الجسم . غير أن الصناعة فى كل منها مختلفة جدا ، وكذلك تمثال الملك « زوسر » له كرسى خشبى ، وذراعه الأيمن أمام جسمه ويلاحظ أن صناعة تماثلى « خع سخموى » ، و « زوسر » يظهر فيها الصناعة الملكية التى سارت فى عهد الأسرة الثالثة . أما صناعة تمثال « نزم عنخ » فيظهر فيها الصناعة الشعبية لهذه الفترة .

وهنا يجب أن نلفت النظر إلى أنه لافائدة من تأريخ التماثيل التى عثر عليها قبل هذا العهد . إذ من المحتمل جدا أن فكرة صناعة التماثيل للملوك وللأفراد من الحجر لم تظهر قبل أواخر الأسرة الثانية ، والسند الوحيد

الذى تركز عليه فى ذلك هو اننا لم نغتر للآن على تماثيل من هذا النوع وربما تطالعنا الكشوف فيما بعد بما لم يكن فى الحسبان . وتم صناعة تماثيل الملكين « زوسر » ، و « خع سخموى » على أن بعض الفنانين الملكيين قد وصلوا إلى درجة لا بأس بها جعلتهم يمثلون صورا حية تقرب من الحقيقة . ومن المحتمل جدا أنهم صنعوا تماثيل لكل ملوك هذه الأسرة .

صناعة تماثيل الافراد
فى عهد الاسرة
الثالثة وما قبلها

أما تماثيل الموظفين فلا بد أنه قد صنعها طائفة من الفنانين أقل مهارة من مثالى الملك . وقد اتخذوا الجرائيت مادة محببة لهم ليظهروا فيها براعتهم الفنية . ولكن النتائج جاءت خشة ساذجة ، وبخاصة عند ما أرادوا أن يقلدوا التماثيل الملكية . على أنهم كانوا يصنعون بعض التماثيل من الحجر الجيرى مثل تماثلى الاميرة « ردزيت » و « سبا » ، وعلى ذلك يحتمل أنهما من نهاية الأسرة الثالثة ، أو من عهد الملك « سنفرى » وذلك عند ما أخذ استعمال هذا النوع من الحجر ينتشر فى عهد الأسرة الرابعة ، ثم أصبح المادة السائدة لصناعة التماثيل فى عهد الأسرة الخامسة . نجد بعد ذلك أمامنا تماثال الأمير « رع حتب » ، وزوجته « نفرت » وهما من أسرة الملك « سنفرى » . ومن المحتمل أنهما عاشا إلى عهد الملك « خوفو » الذى ظهر فى عهده كثير من الصفات العالية فى فن النحت المصرى إذ بلغ قوته من الإتقان ، وحسن الذوق .

وتدل التماثيل التى كشفت من عهد « خوفو » وما قبله بقليل ، على أن الفنانين قد ألبسوا تماثيلهم الجالسة ثوبا جديدا من الروعة والتجديد . مما يدل على أنهم لم يكونوا مرتبطين بالهوى التى سبقت إذ نجد فى الواقع على حسب ماوصلت إليه معلوماتنا أن الفنان أو جماعة الفنانين الذين صنعوا

تمثال الملك « خفرع » ، ثم تماثيل الملك « منكاورع » قد ابتدعوا شكلا مقبولا للتماثيل في البلاط المصرى فى ذلك العصر يحمل فى ثناياه الروعة الملكية ، وأبهة الملك الحقيقية . فوجد للملك « خفرع » الذى كان (حسب معلوماتنا إلى الآن) أول من صنع له فنان المدرسة الجديدة أكثر من أربعة وعشرين تمثالا فى معبد فى الوادى فقط لا تزال آثار أماكنها ظاهرة إلى الآن حول جدار ردهة المعبد العظيمة بالحجم الطيى ، ومن المؤكد أنه صنع له أكثر من هذا العدد فى المعبد الجنازى إذ أثبتت الكشف الحديثة أنه وجد له بقايا أكثر من ثلثة تماثيل صغيرة ، وكبيرة من الأحجار الصلبة المختلفة الأنواع . ومن المحتمل أن الملك « منكاورع » قد صنع لنفسه ما يقرب من هذا العدد ، ولا أدل على ذلك من أنه قد صنع ثلاثا لكل مقاطعة من الاثنتين والاربعين مقاطعة التى يتألف منها القطر المصرى . وقد عثر على بعضها الأستاذ « ريزنر » .

تماثيل الملوك فى عهد
الأسرة الراجعة

ويمكننا أن نقرر هنا أنه قد صنع على وجه التقريب فى عصرى هذين الملكين « خفرع و منكاورع » ما يربو على خمسمائة تمثال معظمها من الديوريت والمرمر ، والشيست وغيرها من الأحجار الصلبة على يد جيل واحد من الفنانين . ولا نزاع فى أن أساتذة من هذا العصر كان لهم تلاميذ قد خلفوهم ، وبخاصة فى مثل هذه الأعمال الفنية العظيمة التى كان يتطلبها البيت المالك فى تلك الفترة ؛ ولذلك لا يستغرب أن تكون الأسرة الخامسة قد بدأت أعمالها العظيمة بطائفة من الفنانين المدربين الذين تلقوا دروسهم فى معامل « خفرع و منكاورع » . ولا نزاع فى أن هذه المعامل كانت تقام بجوار المعابد نفسها ، بل ربما كانت فيها ؛ كما يدل على

ازدهار صناعة
التمائيل الملكية
فى الإحجار الصلبة
ة عددها

ذلك القطع الكبيرة التي وجدناها لم تتم بعد في المعابد . وفي الوقت نفسه كان لتقدم فن المعمار أثر عظيم في عهد بناء أهرام الأسرة الرابعة أدى إلى استثمار المحاجر في مختلف جهات القطر ، وبخاصة حجر طرة الأبيض ، وأنتج طرقا فنية في قطع الأحجار ، وتهذيبها ، ومن ثم نشأت طائفة عظيمة من مهرة الحجارين . والواقع أن مصانع الأهرام كانت مدرسة عملية لكل الصناعات والحرف ، وهي التي وضعت الأساس لإيحاء فن النحت والعمارة في العصور التي تلت .

مصانع قطع
الاحجار

وكان لتكون طائفة عظيمة من النحاتين ومدم بأحجار طرة البيضاء السهلة النحت أثر عظيم في تخفيض تكاليف عمل التماثيل ، وسهلت الأمور لانتشار فن النحت في عهد الاسرتين الخامسة و السادسة انتشارا عظيما . لذلك نرى أن كل موظف كبير ، أو متوسط الحال ينحت لنفسه تماثلا يطابقه تماما ليوضع معه في سردابه الذي أقامه في قبره كما يشاهد ذلك في جبانتي الجيزة وسقارة .

سبب كثرة تماثيل
الافراد في عهد
الاسرتين الخامسة
والسادسة

ولم يقتصر هؤلاء العظماء على عمل تماثيل لأنفسهم فحسب ، بل كانوا يصنعون تماثيل لأفراد أسرهم ، وخدمهم مما يسهل علينا معرفة نسبة أفراد الأسرة بعضهم إلى بعض . ولم يقتصر عمل التماثيل على الجبانات الملكية ، ورجال بلاطها ؛ بل كذلك وجدنا تماثيل في جهات أخرى بعيدة عن مقر الملك . ولا نكون مبالغين إذا قررنا أنه لم يصنع في أى عصر من عصور التاريخ المصرى عدد من التماثيل يضارع ما عمل في عهد الدولة القديمة . والواقع أن الفرصة لم تسنح ثانية قط لمتوسطى الحال في مصر أن يصنعوا لأنفسهم تماثيل كما أتاحت لهم في هذا العصر .

وكان الفنانون بطبيعة الحال يقلدون تماثيل أساتذتهم الذين نحتوا تماثيل « خفرع » ، و « منكاورع » وهم الذين أصبحت أشكال تماثيلهم وأوضاعها ، تقليدا في مصر في خلال الدولة القديمة . هذا إذا استثنينا الأوضاع البسيطة التي أدخلت على التماثيل التي نحتت في سقارة . وأغرب شيء يلفت النظر في تماثيل هذا العصر قلة ما وجدناه منها ملوك الأسرة الخامسة ؛ ولا نزاع في أن سراديب معابد أهرام (أبو صير) كانت تحتوى على عدد عظيم منها غير أنه مما يؤسف له جد الأسف أن الحفائر التي قامت في هذه الجهة لم يعثر فيها إلا على قطعة صغيرة من تمثال ، وهو فم بالحجم الطبيعي من المرمر صنع صناعة دقيقة ؛ وقد وجد في معبد الشمس للملك « وسركاف » . هذا رغم أنه كشف عن خمسة سراديب ، في كل معبد من معابد هذه الأهرام ، وكذلك عثر فيها على مخازن عظيمة ذات حجم كبير ، وهذه المعابد قد خربت تخريبا ذريعا من الداخل كالأهرام الكبيرة . ولا بد أن التماثيل التي كانت فيها قد عرضت للتلف مدة آلاف السنين وبخاصة بعد سقوط الدولة القديمة عند ما قامت الثورة الاجتماعية وحطمت كل آثار المعابد . (انظر جزء أول ص ٣٩٨ الخ) فلم يبق منها شيء ؛ ولا غرابة إذا كانت التماثيل التي عثر عليها لهؤلاء الملوك قد كشفت عنها في جهة أخرى .

سبب قلة تماثيل
الملوك في عهد
الاسرتين الخامسة
والسادسة

وبعد الدولة القديمة بقي وضع التماثيل واقفة تقليدا سائدا إلى أواخر التاريخ المصرى . أما التماثيل الجالسة في عهد الدولتين الوسطى ، والحديثة فقد اتخذت شكل الوضع الذى كان متبعاً في سقارة مع بعض التجديد بأن تكون اليد اليمنى مقلوبة إلى أسفل ، وكذلك ظهر لأول مرة وضع

ليدين مفتوحتين على فخذى التمثال الجالس فى الدولة الوسطى ، وهناك
وضع أخرى يمكن مشاهدتها فى مجموعة تماثيل الدولة القديمة .

الصناعات الدقيقة

ذكرنا فى عهد ما قبل الأسرات أنه وجد فى بعض المقابر ، قطع فنية
تدل على نبوغ المصرى منذ ذلك العهد السحيق فى صنع حليه ، وأدواته
المأتمية . ولا بد أنه كان بطبيعة الحال يستعمل مثلها فى حياته الدنيوية ،
ولذلك نعتبر أنه ضرب من السخافة والغلو ، ما يقال عن المصرى من أنه
كان يصنع هذه الأشياء ، لفرض دينى محض . إذ الواقع أن المصرى
كان يعتقد أن الحياة الآخرة هى صورة مطابقة للحياة الدنيا ؛
وأن ما كان يستعمل فى دنياه يمكن أن يستعمله فى آخرته ، ولذلك
نجد كثيرا من الأدوات المنزلية المستعملة ، قد وضعت مع المتوفى فى
القبر ؛ وما ذلك إلا لىستمر فى استعمالها فى الآخرة . ولا نكون مغالين
إذا قلنا إن المصرى كان يتذوق الفن لأجل الفن من
هذه الناحية ، ويتقنه لـحبه للإتقان لا لأجل أن يستعمله فى قبره فحسب .
لذلك إذا تكلمنا عن أثار المتوفى فى قبره فإنما نتكلم عن أثاره فى
بيته ، إذ كان الأول صورة من الثانى .

وقد ظهرت بعض صناعات دقيقة ، بلغت من الكمال حداً بعيداً ،
فى عهد الدولة الطينية ، ولا ادل على ذلك من قطع الأثاث ، والألواح
المرصعة بالعاج والمعادن التى كشف عنها فى سقارة ، والعراصة المدفونة .

الأثاث الدنيوى
كان يستعمل أثاراً
جنائزياً

مما ينبىء عن مهارة وحسن ذوق فى الزخرفة يسترعيان النظر . يضاف إلى ذلك المجوهرات التى وجدت فى قبر الملك « زرز » ، إذ نجد فى نظمها ورشاقة تأليف مجاميعها من خرز ، وتعاويز ذات ألوان مختلفة ما يجذب النظر ويستوقفه إعجابا ودهشة .

بعض بدائع حلى
العصر الطينى

ويجب أن نذكر هنا على وجه خاص سوار كل ما فيه من زخرف هو إفريز وجات القصر الملكى يملؤه صور الإله « حور » . وأهم ما يلفت النظر فى هذه الفنون الجميلة ؛ أنه ليس فيها ما يمله النظر . ويرجع الفضل فى ذلك إلى عدم استعمال مادة واحدة ؛ إذ كان وقتئذ الذهب والفيروز يستعملان . وتدل الأشكال المصنوعة من الأول فى هذا الحين على أن صناعته كانت قد تقدمت أكثر من صناعة الثاقب ، مما يدل على أن صياغ هذا العصر ، كانوا قد تقدموا فى صناعتهم فى زمن قصير جدا .

تقدم الصناعة فى
هذا العصر

وتدل الآثار المكشوفة فى مقبرة « حكا » على أن المدنية المصرية قد بلغت شأوا بعيدا فى أواسط الأسرة الأولى ؛ إذ تعتبر المجموعة التى وجدت فيها من الأسلحة ، والأدوات المختلفة التى صنعت بإتقان ، فريدة فى بابها . يضاف إلى ذلك مجموعة ثمينة من الأقراص رصعت من مواد مختلفة (الحجر ، والنحاس ، والخشب ، والعاج) وقد ثقب كل منها فى وسطه بثقب ينفذ منه عصا ، ولم يعرف إلى الآن استعمال هذه الأقراص . وقد زينت رقعة بعضها بمنظر صيد برية ، وبحرية ، أو بأشكال هندسية تم عن رشاقة خلاصة ترجع إلى المهارة التى استعملها الفنان فى ترصيعها بالألوان المختلفة وإلى انسجام تأليف المناظر وتوزيعها حول العصا التى فى رقعة القرص ؛ وإلى الإتقان الفنى الذى أظهره الفنان فى كل هذه الأشكال المرسمة

القطع الفنية التى عثر
عليها فى مقبرة
« حكا »

ولا يفوتنا أن نذكر هنا قطعة من الحجر الجيري الأبيض عثر عليها في هذه المقبرة وقد رسم عليها ثور بالألوان ولا يبعد أن يكون هذا أول رسم ظهر في التاريخ للمجل « أيس » إذ نجد في شكله كل ما ينطق على صفات هذا المجل التي عرفناها فيما بعد .

أما في عهد الأسرات التي تلت فلدينا بعض أمثلة تدل على أن الفن في هذه الفترة كان سائرا في طريقه نحو الرقي ، وبخاصة في عهد الأسرة الرابعة . إذ نجد صناعة المعادن ، وصناعة الأواني من الحجر والفخار ، وصناعة الأخشاب ، وكل الصناعات الأخرى الدقيقة ، قد برع فيها الصانع الفنان وضرب فيها بسهم صائب في الروق والجمال والرشاقة بما قد يكون بلغه فنان عهد الأسرة الثالثة . ولكن لم يفتها بعد صناعة في المصنوع التي تلت . وأعظم نموذج لصناعة هذا العصر ، الكنز الذي عثر عليه في مقبرة الملكة « حتب حرس » والدة الملك « خوفو » ، إذ نشاهد من بين طرائفه المحفة ذات الشكل الأنيق والزخرف البسيط مما يشهد بمقدار ما وصل إليه الصانع في هذا العصر من الذوق الفني الراقى . أما الخلاخيل المصنوعة من الفضة ، والمحلاة برسوم على شكل ذباب ضخم والمرصعة بالفيروز ، واللازورد فتعد من النفائس التي يفخر بها فنان أى عصر من عصور التاريخ هذا إلى أن الألواح المطعمة بالقاشاني والذهب قد صنع بعضها وفق أشكال معروفة ، وبعضها وفق أشكال لم تكن في الحسبان ، وكذلك الإشارات الهيروغليفية المصنوعة من الذهب على إطار المحفة وأدوات الفسل والزينة المصنوعة من الذهب أو النحاس ، وثلاثة الأواني التي من الذهب النضار ويفوق كل ذلك النقوش المعجبة التي على جانبي باب الكوة التي تضم

ازدهار صناعة
المجوهرات في عهد
« خوفو »

كنز « حتب حرس »

سرير الملكة . كل ذلك يضع أمامنا صورة ناطقة لقوة الاختراع ،
والمهارة ، والدق السليم في عهد أسرة « حتب حرس » . وتدل شواهد
الأحوال ، وظروف كشف هذا الكنز على أن معظم هذه الأدوات قد
نقلت من قصرها الخاص لتكون معها في مقرها الأخير . ولا غربة في
هذا فإن « حتب حرس » هي أم الأسرة الرابعة ونسلها هم الذين بلغ
في عصرهم فن الممار والنحت مبلغا لم تفقه أسرة من الأسرات التي تلت .
على أن هذه المهارة في الحرف الدقيقة لم تكن وقفا على فنانى الملوك
وصناعهم بل وجدنا كذلك ما يثبت أن علية القوم ومتوسطى الحال منهم
كانوا يصنعون لأنفسهم جواهر ومصوغات تعد من فرائد الفن المصرى حتى
الآن . وقد جادت الصدف بالعثور على حجرة دفن لم تمس لسيدة يدل
قبرها على أنها من أصحاب اليسار وإن لم تكن من علية القوم (1) .
ومن هذه المقبرة يمكننا أن نعرف على وجه التقريب مقدار
تذوقهم للفن ، وللصناعات الدقيقة . وقد عثر على نفائس هذا القبر داخل
التابوت الحجري الذى فيه السيدة ، وكان أول ما لفت النظر عند رفع غطاء
التابوت ، التاج المصنوع من الذهب الوهاج الذى كان يحيط برأس تلك
السيدة ويتألف من شريط طوله ٣٨ سم ، وعرضه ٢٥ سم محلى بثلاثة
أقراص من الذهب كل منها مرصع بفص من الكرنلين (حجر يشبه
العقيق) . . وهذا الشريط المصنوع من الذهب الخاص مثقوب فى وسطه
وعلى مسافتين متساويتين من الثقب الأوسط يوجد ثقبان آخران ، وذلك
ليثبت فيه ثلاثة الأقراص الذهب بأربطة أسطوانية الشكل ؛ وقد نقش

(1) S. Hassan, Excav. at Giza, Vol. II, p, 149 pls. L, LI, LII, etc.

القرص الذى يتوسط التاج برسم أربع من أزهار البشنين . أما الرسم الذى على كل من القرصين الجانبين فيحتوى على زهرتين مفتحتين من أزهار البردى يتقابلان عند فص مستدير مرصع فى القرص ؛ وعلى كل من الزهرتين قد حط طائر يعرف باللغة المصرية القديمة « أخو » ينقر بمنقاره نهاية الزهرة . وكان يحمى هذا التاج آخر من النحاس الموشى بورقه رقيقة جدا من الذهب ، كأنها الهباء لتستر لون النحاس الذى يقبل الصدا بسرعة وكان هذا الشريط كذلك مثقوبا مثل الشريط الذهبى فى ثلاثة مواضع فى كل ثقب مسمار من النحاس . قد استعملا لحل التاج الذهبى خوفا من تآكله . وقد عثر الأستاذ « أشتايندورف » على تاج مثله من النحاس فى منطقة الأهرام سنة ١٩٠٣ . ومن المحتمل جدا أن صانعيها واحد ، وقد قال الأستاذ « شيفر » العالم الأثرى الألمانى أن الطائر الذى ينقر الزهر هو « الغرموق » (مالك الحزين) ولكنه فى الواقع الطائر الذى يسمى الكركى « إيس » ؛ وهذا التاج يعد من فرائد الفن التى أخرجتها يد الصانع فى هذا العهد . وعثر حول رقبة هذه السيدة على قلادة جميلة الصنع من الذهب تحتوى على خمسين قطعة كل منها يمثل خنفساء ، وقد نظمت كلها فى خيط من الذهب يمر فى وسط كل منها ، ومن المحتمل جدا أن كلا من هذه القطع كان يعد تعويذة يرمز بها للإلهة « نيت » وأن السيدة التى نظمت هذا العقد بهذه الكيفية كانت ترغب فى حماية هذه الإلهة ولا يمكننا أن نعرف الآن لماذا كانت هذه الحشرة رمزا للإلهة « نيت » ، ومن المحتمل جدا أنها الحشرة « عنخ » (الحياة) التى ذكرت فى متون الأهرام (1)

كنز عثر عليه فى
مقبرة بحفائر الجامعة
بمنطقة الهرم من عهد
الأسرة الرا

(1) Pyr. 1301, C, etc.

ويظن بعض العلماء أنها الحشرة المقدسة التي سبقت « الجمل » (الجعران) وكانت الأولى تقديس منذ قبل الأسرات إلى الدولة القديمة والثانية كان تقديسها شائعا في العصور التي تلت إلى نهاية التاريخ المصرى . وعثر على قلادة أخرى حول رقبة هذه السيدة يستدل من نظمها على أناقة الجنس اللطيف في هذا العصر ، وتتألف من محبين من الذهب بينهما حبات من الذهب والخرز وقد وجد مع هذه القلادة ست قطع من البرنز الموشى بالذهب كل منها على شكل حرف النون بالمصرية أى كموج الماء وهذه كانت تنظم على مسافات متساوية في وسط القلادة لتعطيها صلابة ومتانة . أما جثة هذه السيدة فوجدت مغطاة بثوب مصنوع من الخرز ، وفي أطرافه قطع من النحاس مخروطية الشكل كانت توضع كأهداب لتجعله مسدلا على الجسم بدون حركة كثيرة . وقد عثر على قطع متماسكة تدلنا على كيفية نظم الخرز على هذا الثوب .

وكذلك عثر في مقبرة الأميرة « حمت رع » في حفائر الأهرام ، على رسم ثوب محلى بالخرز بألوانه الزاهية . أما أعجب ما كشف في هذه المقبرة فمقد قد انفرط نظمه ، وهو يتألف من حبات من الفيروز بلغ من دقتها وصغر حجمها أنه لا يمكن أن يلتقطها الإنسان بطرفى أصبعيه ، ومما يزيد العجب والدهشة أنها مثقوبة ولا يمكن لأى خياط أن ينفذ منها مهما كان دقيقا ، وهذه الحبة نفسها كانت مركبة داخل أخرى من الذهب مثقوبة أيضا ؛ وقد عثر على آلاف من هذه الحبات ، ولم يمكن نظمها للآن . وليس لدينا أى تعليق على كيفية صنعها غير أننا نتساءل عن تلك الآلات المتناهية في الدقة التي استعملت في ذلك العهد السحيق

دقة قطع الخرز
وصنعه

عهد الأسرة الرابعة أى منذ خمسة آلاف سنة تقريبا لصنع هذه الحبات .
وأظن أن الجواب على ذلك سيقى من العضلات وينضم إلى العضلات
المصرية الأخرى التى لم يهتد لحلها بعد .

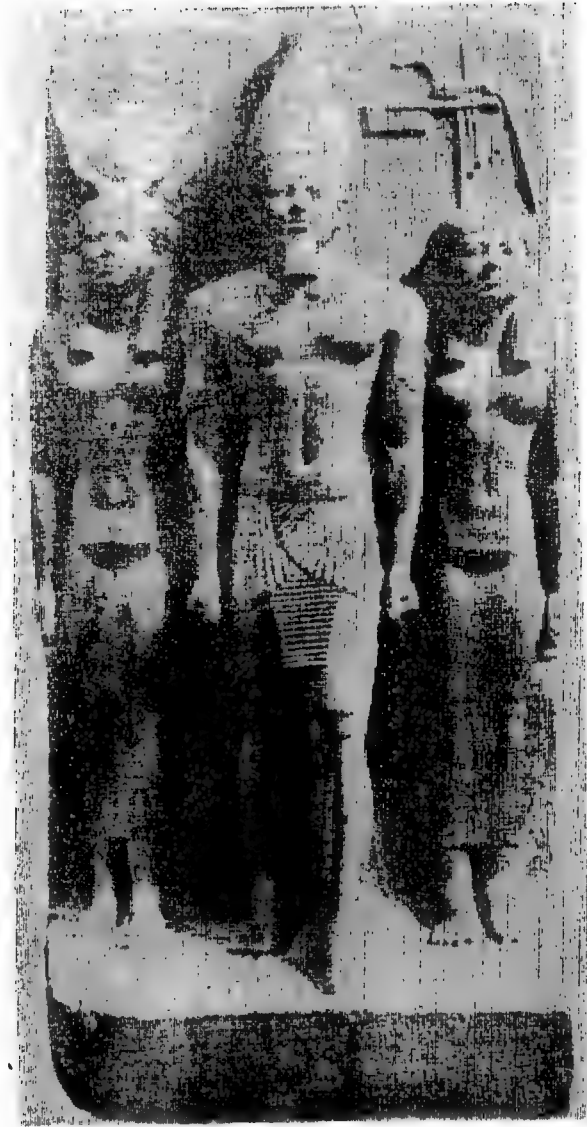
الادوار التى يمر
بها الفن

وقبل أن نختتم كلامنا فى هذا الفصل الموجز عن الفن عند قدماء
المصريين نقول أن كل فن فى أية بقعة من بقاع العالم لا بد أن يمر
بأطوار ثلاثة . النشوء ، والارتقاء ، ثم الانحطاط . وأنه لم ينشأ فن فى
بلد ما لأجل الفن بل كان دائما بداية نشأته المنفعة قبل كل شئ ففن الرسم
والتصوير والنحت فى كل التاريخ القديم كان الغرض منه السحر والدين ، وقد
استمرت هذه البواعث هى المقصودة ولكن على مر الأيام تربي الذوق الفنى وأصبح



الفنان يتذوق فنه فبرع فيه
حتى بلغ القمة ، وبعد ذلك
يأخذ الفن فى الانحطاط
لأسباب عدة منها ما هو
دينى ومنها ما هو اقتصادى
ولكن الروح القديمة التى
حافظت عليها التقاليد تنبعث
من وقت لآخر فى وسط
هذا الانحطاط فتبرز لنا بعض
قطع ممتازة تظهر لنا جمال الفن
المصرى كما كان فى عهد عنفوانه
فى وسط التدهور الذى حاق به .

الملك «خفرع» ويمد أجهل قطعة حفر فى حجر الديوبوليت



الملك «منكاورع» ممثل بين إلهتين ، عثر عليه في معبد الوادي لهرمه بالجيزة.

مصادر فصل الفن

إن معظم ما كتب عن الفن المصرى لا يمكن فصله عن المعتقدات الدينية، إذ كان كل منها يؤثر فى الآخر لأن العقائد الدينية كان لها القدر المثل فى تسيير الفن وتطوراتها ولذلك نجد أحيانا مظاهر فى الفن لا تتفق مع ذوقنا الحديث ولكن كان لابد من وجودها خضوعا للمؤثرات الدينية والجنائزية واهم المصادر التى استقينا منها هذا الفصل ما يأتى:

(1) Capart, Les Débuts de l'Art en Egypte, Bruxelles, 1931.

ويبحث عن بداية الفن فى مصر بدقة وعناية .

(2) H. Schäfer, Von Ägyptischen Kunst, 3rd Ed. Leipzig 1930.

يعد هذا المؤلف أكبر عمدة فى تاريخ الفن المصرى

(3) Schäfer, und Andrae. Die Kunst des Alten Orient, Berlin, 1925.

هذا الكتاب يبحث عن تاريخ الفن فى الشرق القديم وبه فصل

ممنوع عن مصر بقلم الأستاذ شيفر .

(4) Bissing, Ägyptische Kunstgeschichte, Berlin, 1934-35.

يشمل هذا الكتاب تاريخ الفن المصرى منذ البداية حتى الفتح العربى

والمؤلف له آراء خاصة فى الفن المصرى .

(5) Klebs, Die Reliefs des alten Reiches .

هذا المؤلف يشمل كل مناظر الحياة والصناعات والحرف فى عهد

الدولة القديمة فى صور متقنة متبوعة بالشرح .

(6) Maspero, Histoire générale de l'art en Egypte, Paris 1911 (Ars Una)

يعتبر مؤلف الأستاذ مسبرو هذا من أمتع الكتب عن الفن . ورغم

قدم آرائه فإنه لا يزال يعتمد عليه فى كثير من البحوث .

(7) Petrie, The arts and crafts of Ancient Egypt, London, 1923.

هذا الكتاب مختصر بسيط عن الفنون والحرف في مصر في كل عصورها وقد ترجم للفرنسية .

- (8) Perrot et Chipiez, Histoire de l'art, dans l'antiquité t. I. : L'Egypte, Paris, 1882.

رغم قدم هذا الكتاب فإنه يعد من الكتب الهامة في تاريخ الفن المصرى المقارن .

- (9) Boreux, L'art Egyptien, Paris, 1926.

هذا الكتاب مختصر صغير عن الفن ويمتاز بصوره المتقنة .

- (10) Capart, Documents pour servir à l'Etude de l'art égyptien 2 Vol. Paris 1927-31

صور هذا المؤلف غزيرة ومفيدة في دراسة تدرج الفن .

- (11) Steindorff. Die Kunst der Aeypter, Leipzig, 1928.

يتناول هذا الكتاب فن البناء والتماثيل والصناعات الدقيقة بطريقة سهلة .

- (12) H. Ranke. The Art of Ancient Egypt. Vienna - London

وأهم بحوثه فن البناء والنحت والرسم بالألوان والفن التطبيقى .

- (13) Borchardt, Statuen und Statuetten Von Konigen und pri-
vatleuten, 5 vol. 1911-1836.

في هذا المؤلف أكبر مجموعة عن التماثيل في الدولة القديمة ومنها عملت كل المقارنات التى تكلمنا عنها في فصل الفن .

- (14) Reisner, Mycerinus, Cambridge, Massachusetts, U. S. A. 1930.

كتب الأستاذ ريزنر في هذا المؤلف فصلا هاما عن التماثيل من (١٠٨ إلى ١٣١) في عهد الدولة القديمة وخاصة في عهد الأسرة الرابعة .

العلوم المصرية

يعزو المصري كل ما وصل إليه من علوم ومعارف إلى الإله تحوت (إله القمر) ، وبخاصة علوم الفلك والحساب والطب ، ولا غرابة في ذلك فإن الكهنة كما يقال كانوا هم الطائفة المتعلمة في البلاد منذ فجر التاريخ ، وقد بقوا كذلك طوال مدة التاريخ المصري . فكانوا ينسبون كل ما هو مشرف وكل ما هو عظيم لآلهتهم ، ولكن كل ذلك كان من نسج خيال هؤلاء الطائفة رغم تبجرهم في العلوم . والواقع أن الحاجة وسنة الرق والبيئة كانت الدافع الأكبر للتطور الذي نجده سائرا نحو الكمال في الحياة المصرية العلمية والعملية على السواء فنشاهد أن ما كانت تحتاج إليه البلاد من أعمال الرى العظيمة وإقامة المباني الضخمة كالأهرام والمسلات والمعابد وقطع التماثيل الهائلة ، كل هذا كان يتطلب تعمقا في المسائل الميكانيكية العلمية ، والهندسة التطبيقية ، مما كان لازما لنقل الأثقال وإقامتها في أماكنها المخصصة لها . هذا إلى أن التفنن في صناعة المعادن ، وعمل الفخار ، والزجاج الملون ، والقاشاني قد كشف للمصرى عن خواص الأشياء الطبيعية والكيميائية مما جعله يفرد عن باقي العالم بالنبوغ في العلم الذى اشتق اسمه من كلمة « بكى » المصرية ولذلك كان المصرى أول من حنط الأجسام وعرف تشريحها .

وتدل الأبحاث العلمية على أن المصرى كان ماهرا في العلوم التطبيقية وفى المسائل الفنية ، ولكنه لم يكن موهوبا في البحوث النظرية المحضة ولذلك يقول « هردوت » ، أن علم الهندسة كان وليد الحاجة عند

تحوت إله العلم

الحاجة أم الاختراع

تفوق المصرى في
العلوم التطبيقية

المصرى وذلك عندما اراد أن يقسم الأراضي الزراعية إلى قطع منتظمة . وعلى أية حال نرى الحالة الاجتماعية في وادى النيل قد حثمت نشوء نظام ثابت عام للمقاييس . وقد استعمل المصرى في المقاييس السطحية الذراع والشبر والقبضة والأصبع والقيراط وكان الذراع العادى يساوى ٤٥٠ ر . من المتر والذراع الملكى ٥٢٥ ر من المتر وهذان المقياسان كانا يستعملان في المباني العادية . أما في حساب المساحات الكبيرة (١) فكان يستعمل مقياس يسمى « إيترو » وهو « سونيوس » الأغريق ويساوى تقريبا نحو ٥٠٠٠ ذراعا . وكان المساحون الملكيون يقيسون الأرض بوحدة تسمى « ستا » وتساوى نحو ٢٧٥٦ مترا مربعا وكانت وحدة المكايل تسمى « هنو » ويساوى ٤٥ سنتيمترا أما معيار الوزن فكان « الدين » ويساوى نحو ٩٢ جراما . واستعمل المصرى الميزان لوزن الأشياء العادية وبخاصة التى كانت تحتاج إلى دقة .

سبب اختراع علم
الهندسة

ولم تكن النقود بالمعنى المتعارف بيننا معروفة عند المصريين حتى العصر الفارسى ، ولكن كان يوجد لديهم معيار لتقدير قيمة الأشياء يسمى « شعت » للدفع به أو للمبادلة بما يساوى قيمته كما شرحنا ذلك .

علم الرياضيات

تدل الوثائق التى فى متناولنا على أن المصرى كان يستعمل الأرقام فى الحساب منذ فجر التاريخ بل قبل عهد الأسرات بقليل ، ولكن لم تصل إلينا وثائق مكتوبة عن الرياضيات إلا منذ زمن الأسرة الثانية عشرة .

(1) Griffith, Proc. S. B. A. 1892 p. 403.

ويمكننا أن نؤكد أنه منذ عهد الملك « نعرمر » كان يوجد في مصر نظام الأرقام بكل علاماته حتى العلامة التي تدل على ألف يضاف إلى ذلك أن نقوش حياة « متن » قد كشفت لنا عن وجود مقاييس للأراضي ، وقد حصل عليها بنفس الطريقة التي كانت متبعة في ورقة (رند) التي يرجع تاريخها إلى عهد الدولة الوسطى . وقد أعطى فيها مساحة سطح المستطيل مضبوطة . وكان المصري قد اتخذ وحدة للمقاييس السطحية الكبيرة « الحكات » وقد جاء ذكر ذلك في أوراق بردية ترجع إلى الأسرة السادسة (1) ومن المحتمل أنه كانت توجد وحدات للموازين أيضا .

وخلافا لما ذكرنا لانجد لدينا ما يسمح بتتبع تاريخ بداية علم الرياضيات في مصر حتى الأسرة الثانية عشرة . وهي الفترة التي نجد فيها وثائق عظيمة ذات اصطلاحات ثابتة . وهذه الوثائق هي ورقة مسكو وورقة كاهون وبرلين . وكذلك يعزى إلى هذا العصر ورقة رند (2) وإن كانت النسخة التي وصلت إلينا كتبت في عهد الهكسوس . ومن هذه الوثائق يمكننا أن نأخذ فكرة عن علم الرياضيات المصري قبل أن يتأثر بالرياضيات الإغريقية .

وستترك أوراق الدولة الوسطى جانبا الآن وتقتصر في كلامنا على ورقة (رند) التي يعتقد بعض المؤرخون أنها كورقة « ادون سميث الطيبة » ترجع إلى عصور قديمة جدا قبل الدولة الوسطى .

وقد اشترى رند هذه الورقة عام ١٨٥٢ من أحد المباني الأثرية

(1) Z. A. S. 48, p. 100. (2) Peet, The Rhind Mathematical Papyrus p. 9 .

الواقعة بجوار معبد الرميوم بالأقصر وكان معها ورقة « ادون سميث »
الطية التي تتكلم عنها فيما بعد . وقد ذكر كاتب الورقة أنها كتبت في
السنة الثالثة والثلاثين من حكم الملك « أبوفيس » وهذه النسخة منقولة
عن أصل من عهد الدولة الوسطى .

وقد قسم الأستاذ « بيت » محتويات هذه الورقة إلى أربعة أقسام :
الأول : المقدمة : وتحتوى على جداول لحل الكسور التي بسطها اثنان . والباقي ثلاثة
كتب : الأول عن الحساب ، والثاني عن المقاييس ، والثالث عن مسائل حساية
والكتاب الثانى قسم إلى ثلاثة أقسام هى : كتاب الأحجام والاحجام
المكعبة ، وكتاب المسطحات ، وكتاب زوايا الميل الهندسية .

ورقة رند ومحتوياتها

وقد عرض المؤلف بعض مسائل حساية عن الدخل والخرج فى مصالح
خزينة الدولة وعن المبادلات .

وقد استعمل فى العمليات الحساية الجمع والطرح والضرب والقسمة ،
غير أنه كان يستعمل فى الضرب والقسمة طريقة الجمع فمثلا لايجاد حاصل
ضرب ٨ x ٨ كانت المسألة تحل بالكيفية الآتية :

			مسألة ضرب	
٨	(مرة واحدة)	يساوى	٨	١
١٦	»	(مرتين)	١٦	٢
٣٢	»	(أربع مرات)	٣٢	٤
٦٤	»	(ثمانى مرات)	٦٤	٨

أما فى عملية القسمة فلنأخذ مثلا رقم ٧٧ مقسوما على ٧ فتكون
نتيجة ترتيبه كالآتى :-

مسألة قسمة	فاستعمل نفس الطريقة الأولى في الضرب وجعل	٧	١
	يأخذ من جهة اليسار الأرقام التي يكون مجموعها ٧٧	١٤	٢
	فكانت ٧ و ١٤ و ٥٦ ثم أخذ ما يقابل هذه الأرقام	٢٨	٤
	من جهة اليمين فكانت ١ و ٢ و ٨ أى مجموعها رقم ١١.	٥٦	٨

أما حساب الكسور فكان ساذجاً إذ كان المصرى يستعمل في العادة البسط ١ فإذا أراد مثلاً ان يكتب الكسر $\frac{5}{6}$ كتبها كذلك $\frac{1}{6} \frac{1}{6} \frac{1}{6} \frac{1}{6} \frac{1}{6}$ ومع ذلك نجد مستعملاً في كسورهم $\frac{2}{3}$ و $\frac{2}{4}$ وأحياناً كان الكاتب يريد أن يتلهم بهذه الاصطلاحات الكسرية فيعبر عن الرابع والعشرين من الشهر بالكيفية الآتية : $\frac{2}{3} \frac{1}{3} \frac{1}{3}$ يوماً فعلينا أن نأخذ $\frac{2}{3}$ من الشهر أى ٢٠ يوماً ثم $\frac{1}{3}$ من الشهر أى ٣ أيام وأخيراً $\frac{1}{3}$ من الشهر أى يوماً واحداً فيكون مجموع الايام التي يقصد التعبير عنها $20 + 3 + 1 = 24$ يوماً وسنكتفى هنا بهذا القدر عن الرياضيات في عهد الدولة القديمة على أن نعود للموضوع بإسهاب عند الكلام عن الرياضة في عهد الدولة الوسطى والحديثة .

علم الفلك عند قدماء المصريين

إن معلومات المصريين العامة عن علم الفلك لا تختلف كثيرا عن المعلومات الكلدانية الآشورية فيما يختص بالأجرام السماوية ؛ وتدل المصادر الوثيقة على أنه كان هناك علاقات متصلة بين القطرين منذ حوالى ٢٤٠٠ ق م وهو العهد الذى نزلت فيه أقوام كلدانية وآشورية إلى أراضى الدلتا (١) . ولا بد أنه كانت توجد بين البلدين علاقات قبل هذا الوقت ولكنها كانت ضئيلة .

وتتحصر مميزات الفلك المصرى على وجه خاص باختراع النتيجة المصرية التى تكلمنا عنها فى (الجزء الأول ص ١٥٢) . على أن بعض علماء الفلك عارض أخيرا فى البحوث التى قام بها العلماء فى موضوع النتيجة المصرية قائلين إنها لا تتركز على أساس علمى .

والواقع أن المصرى القديم كان يمتاز عن باقى أمم العالم بقوة ملاحظاته وميله إلى الأشياء العملية وبعده عن الفلسفة ونظرياتها كما نرى ذلك فى بحوثه فى علم الرياضيات والطب والهندسة وغيرها .

رصد الشمس

ولا أدل على ذلك من أنه كان فى (عين شمس) كاهن كان خاص لمراقبة سير الشمس يسمى الرأى العظيم ، وكذلك كان فى المعابد جماعات كهنة لمراقبة سير النجوم . على أن تقسيم السنة إلى أشهر قمرية كل منها ثلاثون يوما ، أكبر دليل على معرفة تامة بمنازل القمر .

أما النجوم فتذكر لنا متون الأهرام من عهد الدولة القديمة أنها كانت

(1) Moret, Des Clans aux Empires, p. 246.

تنقسم إلى نوعين : النجوم التى لا تفنى « إخوسك » أى التى تكون دائماً ظاهرة فى السماء . ثم النجوم التى لا تتعب وهى النجوم السيارة « إخوورز » وقد عرف المصرى من الأخيرة الخمسة التى ترى بالعين العارية وهى المشتري وزحل ، وعطارد ، والمريخ ، والزهراء . وقد شوهدت منذ الدولة القديمة على الأقل . أما النوع الثانى فينحصر فى ٣٦ نجماً (1) قد خصصها المصريون لمعرفة الوقت . وكان كل منها فى نظرهم يعتبر إلهة لعشرة أيام من الثلاثمائة والستين يوماً التى تتألف منها السنة البسيطة ويخرج من ذلك أيام النسيء الخمسة . وأقدم قائمة بأسماء هذه الآلهة وجدت على غطاء تابوت من الدولة الوسطى فى طيبة وقد عثر على قوائم أخرى لهؤلاء الآلهة فى مقابر الملوك « سبتى الأول ورعمسيس الرابع » وكذلك وجدت مرسومة فى سقف معبد الرمسيوم وفى معابد البطالسة . أما البروج الاثنا عشر فلم تظهر إلا فى العصور المتأخرة جداً وقد استعيرت أسماؤها من أسماء البروج اليونانية التى نقلتها بدورها عن الكلدانية فهى ليست مصرية وهذه البروج هى : الحمل والثور ، والقوس ، والعقرب ، والسرطان ، والأسد ، والسنبلة والميزان ، والدلو ، والحوت ، والجدي والجوزاء .

ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن أسماء الشهور التى تعزى إلى مصر قديماً قد نشأت فى العهد الإغريقى القبطى ، غير أن أسماءها قد أخذت من أسماء أعياد قديمة كانت تقام للآلهة الذين سماها بها وهى خمسة أيام النسيء ثم توت وبابه وهاتور وكيهك ويتألف منها فصل الفيضان ، ثم طوبة

أسماء الشهور ظهرت
فى العصر المتأخر

(1) Ann. du Serv. Ant. t. I, p. 79. ; Spiegelberg Z. A. S. t. XLVII p. 146 ; XLIX p. 67. ; LVI p. 202.

وأمشير وبرمات وبرمودة ويتألف منها فصل طلوع النبت ، ثم بشنس ، وبثونة وأيب ومسرى ويتألف منها فصل الصيف . وكان اليوم في نظرهم ينقسم إلى اثنتي عشرة ساعة نهائياً واثنتي عشرة ساعة ليلاً . كانت فصول السنة وقد كانت تقاس . أوقات اليوم بساعات على أنواع مختلفة منها الساعات الشمسية أو المزولة وهي آلة تعرف ساعات النهار بوساطة الظل ولا يزال الفلاح المصري يستعملها حتى الآن (1) ، وساعة مائية وهي انا . ذو حجم معين مقسم إلى أقسام كل منها يفرغ في زمن محدد وقد عثر على واحدة منها (2) أما خلال الليل فكانت كذلك تعرف الساعات بمراقبة النجوم ورصدها .

رصد النجوم

وقد عثر في مقابر الملوك من عهد الأسرة العشرين على قوائم نجوم بعضها خاص بالنصف الأول من الشهر وبعضها خاص بالنصف الثاني منه ، وقد عمل هذا الرصد بالنسبة لبعض أجزاء الجسم (على الرأس أو على ارتفاع العين أو الكتف) لرجل جالس أمام الراصد وهذا الراصد كان يرصد النجوم بالآلة معلق بها خيط فيه ثقل . ويلاحظ أن الراصدين كانا في الجهة الجنوبية (3) .

وقد كان يوجد بجانب علم الفلك الحقيقي علم التنجيم وكان يعتقد فيه المصريون كثيراً . إذ كان لكل شهر ولكل يوم ولكل ساعة إله حارس يتدخل في أقدار الناس وحظوظهم سعيدة كانت أو شقية . وقد

(١) ويلاحظ أنه في إحدى مواقع تحتمس الثالث في مم (ألوانا) و(مجدو) في جبال الكرم نقرأ

أن الجيش كان يسير في وقت الظهيرة « في الساعة التي رجع فيها الظل »

Moret, Le Nil, p. 315.

(2) Erman-Ranke, Ægypten, p. 400. (3) Z. A. S. t. XII p. 222.

وقعت بعض حوادث الآلهة في تواريخ معينة فكان منها ما هو سعد وما هو بؤس . وكان من فائدة بنى البشر أن يعرفوا هذه الأوقات ولذلك ألف الكهنة والسحرة كتباً في هذا الموضوع وأقدمها يرجع إلى عهد الدولة الوسطى وقد عدد فيها أيام الشهر ونعت بعضها بكلمة (خير) أو بكلمة (شر) أو (خير وشر) معاً حسب الوقت فوجد في الشهر تسعة أيام شراً وثلاثة أيام خيراً وشرّاً معاً وما بقي خيراً .

علم التنجيم

ولدينا ثلاث ورقات من عهد الدولة القديمة تشمل كل منها أيام السنة وتمتاز بأنها عرفت السبب الخرافى للسعد أو النحس ، والخير أو الشر ، وقد كان الأخير يكتب بالمداد الأحمر لون الإله « ست » رب الشر . وقد طبع العالم شاباس إحدى هذه الأوراق باسم نتيجة السنة للأيام السعيدة وأيام النحس (1) . فمثلاً يقول أن يوم ٢٦ توت يجب ألا يعمل فيه شيء قط لأنه اليوم الذى تحارب فيه « حور » مع « ست » فهو مثل شر ، على حين أن اليوم السابع والعشرين من شهر هاتور هو يوم الصلح بين « حور » و « ست » فهو مثل سعد . الخ وكانت هذه الأوراق تلف بعناية وتستعمل تعاويذ تقي حاملها الشر ، يتمنحه الخير .

وقبل أن نترك موضوع الفلك عند المصريين ذكر العالم « ابل رى » أن الفلك المصرى لا يختلف عن الفلك الكلى والصينى فى عامته إلا فى نقطتين (2) : الأولى أننا لا نجد فى الفلك المصرى أية إشارة إلى خسوف

(1) Le Nil p. 531.

(2) Abel Rey, La Science Orientale avant les Grecs, p. 301.

القمر وقد يعزى هذا إلى قلة المصادر لدينا مع أنه قد وجد على الآثار المصرية إشارات فلكية عدة لم يأت فيها ذكر خسوف القمر ورسمه بهذه الحالة قط خلافا للآثار الكلدية والصينية ، هذا رغم أن « أرسطو » قد ذكر لنا أن المصريين كانوا يرصدون سير الفلك من زمن بعيد جدا والظاهر أن هذا الموضوع كان في نظر المصرى ثانويا .

النقطة الثانية ولها علاقة بالأولى : هي أن القمر لم يلعب إلا دورا ضئيلا جدا بالنسبة لأهميته في كلدنيا والصين . إذ لا نجد له (خلافا لتعداد الأشهر بوساطته) أى دور هام في علاقته بالشمس كما هو الحال في كلدنيا فمن ذلك نلاحظ أن القمر لم يلفت نظر المصريين كالشمس أو النجوم . والواقع أن أساس الفلك المصرى يرتكز في معظمه على النجوم مما يدل على روح قوة الملاحظة العملية التى كانت تميز المصرى فى كل أعماله . ولكن كشف حديثا فى منطقة أبويس بالشرقية عن غطاء تابوت للعجل « باكاور » معبود هريبط منقوش عليه منازل القمر فى بوجه المختلفة أثناء الشهر والسنة كلها وعددها ٣٦ منزلا (١)

الطب

ذكرنا عند الكلام على الطقوس الدينية للدفن فى عصر ما قبل الأسرات أن المصريين كانوا أحيانا يشرّحون الأجسام الآدمية ويتزعون ما عليها من لحم ثم يلفون العظام بكل دقة وعناية ويضعونها فى المقابر (أنظر جزء أول ص ٧٧) وفى هذا دليل على أن المصرى كان منذ الأزمان المتوغلّة فى القدم

(١) وقد كتب عن ذلك العالم « بورخارت » ضمن مذكراته الخاصة وأرسل لمدير خزانة أبويس خطابا يشرح فيه هذا الكشف والمذكرات الخاصة بالكشف المذكور لم تظهر إلى عالم الوجود بعد.

يعرف تشريح الجسم وفصل أجزائه المختلفة بعضها عن بعض .
وفي العصر الطينى رأينا المصرى يخطط الجسم منذ الأسرة الثانية
وهذا دليل آخر نعلم منه أن المصرى كان يعرف تشريح الجسم ومعالجته
ظاهرا وباطنا وإن كان بعض العلماء يعتقد أن المخططين كانوا طبقة خاصة
غير طبقة الأطباء كما سنشير إلى ذلك فيما بعد .

علم التشريح منذ
عصر ما قبل الاسرات

وعلى أية حال فإن المصرى منذ فجر التاريخ كانت عنده فكرة واضحة
عن الأمراض وأسبابها وطبائعها .

ولا شك في أن علم الطب قد أكتسب في مصر أولا بالتجارب
والملاحظات ثم تلا هذا الدور تعليم فن الطب الحقيقى في مدارس خاصة
ولا غرابة في ذلك فقد كان الإغريق يشيدون بذكر الأطباء المصريين
ويتناقلون كتب طبهم ويحفظونها ليهتدوا بهديها (1) .

مهنة الطب في عهد
الدولة القديمة

وتدل النقوش المصرية من عهد الدولة القديمة على أنه كان في مصر أطباء
من كل نوع في درجات مختلفة ، فقد كشف حديثا عن مقابر أطباء
في منطقة الجيزة بجفائر الأستاذ ينكر وجفائر الجامعة المصرية فنحس بالذكر
من بينهم طبيب القصر الملكى « إرى » (2) ولم يكن « إرى » هذا طبيب
القصر الملكى فحسب بل كان رئيس أطباء البلاط ، يضاف إلى ذلك أنه
كان متخصصا في مرض العين والأمراض الباطنة ولذلك كان يحمل
لقب (الذى يفهم السوائل الداخلية وحارس الدبر) مما يدل دلالة واضحة
على أنه كان مختصا بالطب الباطنى وعالما بالأمراض الخاصة بأعضاء الهضم .
وهذا الاختصاص في عهد الدولة القديمة يعززه وجود أطباء أسنان للقصر

(1) Moret, Le Nil, p. 523.

(2) Z. A. S. t. 63 p.p. 53-70.

الملكي . والواقع أنه عثر في عهد الأسرة الرابعة على حالة ندل على تقدم جراحة طب الأسنان في ذلك العهد أى منذ ٢٨٠٠ سنة ق . م . إذ وجد فك في مقبرة من هذا العهد أجريت فيه عملية في التتوات السنخية وذلك بثقبها لأجل إخراج المادة القيحية من دمل تحت الضرس الأول (1) كل ذلك يدل على معلومات قيمة مفصلة تشعر بالتخصص في فروع الطب . وتدل النقوش على أن وظيفة الطيب كان يتناقلها الابن عن الأب كباقي صناعات مصر في ذلك العهد .

التخصص بين
الاطباء

وكلمة طيب بالمصرية « سنو » ربما كان معناها المصلح او الشافي . والظاهر أن هذه الوظيفة كانت في بدايتها دينية إذ نجد غالباً أن صاحبها الذي يحمل لقب طيب كان في الوقت نفسه كاهناً للإلهة مثل الإلهة « سلكت » أو الإلهة « نيت » .

وتدل الأحوال على أن نشأة الطب كانت في الوجه البحرى وأن أهم مراكزه كانت المعابد وبخاصة معبد عين شمس ومعبد الإلهة « نيت » في صا الحجر ومعبد الإله « أنوب » في بلدة (ليتوبوليس) ومعبد الإلهة « باست » (القطنة) في تل بسطة وكان كاهن تلك الجهة يحمل لقب كبير الأطباء . (2)

نشأة الطب في الوجه
البحرى

وتدل النقوش التي وصلت إلينا على أن أقدم كتاب في الطب يرجع تاريخه إلى عصر الملك « أوسافيس » (دن) من الأسرة الأولى كما جاء ذكر ذلك في فاتحة ورقة « إيبرس » (أول كتاب خاص بشفاء الأمراض هو الذى وجد بالكتابة القديمة في صندوق من عهد

(1) Hooton, Oral Surgery in Egypt during the Old Empire (Harvard African Studies, I) (2) Urkunden, t. I, 42.

الملك « أوسافيس ») ولدنا من جهة أخرى وثيقة من الدولة القديمة (انظر الجزء الأول ص ٣٤٢) تدل دلالة واضحة على أن الملك « نفر إركارع » قد أحضر المخطوطات الطبية من مكانها الخاص للإسعاف مهندسو العظيم الذى كان يحضر ، وعلى ذلك يمكننا القول بأنه كانت توجد كتب طبية منذ بداية الأسرة الخامسة (منذ ٢٨٠٠ ق م . م) ولكن لم يصلنا منها شيء بخط هذا العهد .

الوثائق الطبية منذ
الأسرة الأولى

وكل ما لدينا من الأوراق الطبية قد وصلنا من عصور متأخرة عن الدولة القديمة وإن كان بعضها يرجع إلى ذلك العهد وأهمها ما يأتي : (١) ورقة برلين ويرجع تاريخها إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد (٢) ورقة إيبس الموجودة الآن في متحف لينزج ويحتمل أنها كتبت في القرن السابع عشر ق . م (٣) ورقة هرست وهي الآن في جامعة كاليفورنيا (٤) ورقة لندن وربما يرجع تاريخها إلى القرن الثامن عشر قبل الميلاد (٥) وأهم من كل هذه الأوراق بردية ايدون سميث وقد ثبت من الفحص اللغوى أنها ترجع إلى عهد الدولة القديمة رغم أن النسخة التى عثر عليها يرجع تاريخها إلى عصر الهكسوس أو على وجه التقريب في عهد تحتمس الأول . والواقع أن محتوياتها قد فتحت لنا دنيا جديدة في عالم الطب الجراحى في مصر فقد ثبت لنا بالبراهين الناصعة أن الطب المصرى لم يكن يتركز على مجرد تعاويند سحرية في معظم الأحوال كما كان الأمر قبل درس محتويات هذه الورقة وكذلك أكدت لنا أن الطب كان متقدما في مصر منذ عهد الدولة القديمة وأنه كان قائما على أسس علمية محضة لا تختلف عن الطب الحديث في شيء ويرجع الفضل في إظهار كل هذا إلى الدرس

الأوراق الطبية التى
وصلت إلينا

الدقيق الذى قام به الاستاذ برستد (1) لهذه الورقة وبخاصة بعد أن ثبت أنها ترجع إلى عهد الدولة القديمة .

وتنقسم مواد هذه البردية إلى ثلاثة أقسام ظاهرة كل منها مأخوذ من منبع مختلف عن الآخر : القسم الأول يحتوى على سبعة عشر عموداً مكتوبة على وجه الورقة وتنحصر أهمية هذه الورقة المنقطعة القرين من الوجهة العلمية فى محتويات هذه الأعمدة وهى بحث فى الجراحة وطب الجراحة ومعالجة الأمراض الظاهرة والتشريح ، والقسم الثانى يشتمل على تعويذة لإبعاد الهواء فى سنة الطاعون

ورقة ادون سمس
ومحتوياتها

والقسم الثالث تعويذة لإرجاع الشيخ إلى صباه . فنرى أن القسمين الأخيرين هما تعويذتان سحريتان تشبهان فى نوعهما الوثائق الطبية التى بقيت لنا من الطب المصرى القديم ، ولكن القسم الأول من الورقة هو كما ذكرنا وثيقة فريدة فى بابها قد قلبت كل الآراء التى كانت معروفة حتى الآن عن الطب المصرى رأساً على عقب إذ تحتوى على معلومات مرتبة ترتيباً علمياً منطقياً فقد فحص مؤلفها الجسم الإنسانى من الرأس إلى القدمين ورتب مادتها بطريقة دقيقة وهى أوصاف طبية وبحوث عن حالات خاصة بجراحة العظام والعلاج الظاهرى وهذا يذكرنا بدقة المشاهدات التى نجدها فى الطب الحديث .

ونرى أن مؤلف هذه الورقة قد دون عشر مشاهدات (حالات) عن الجمجمة وسبعاً عن الألف وعشراً عن الفك والأذن والشفيتين وستاً عن الزور والرقبة وخمساً عن الترقوة والكتف ومشط الكتف وستاً عن الصدر ومقدمته

(1) Breasted, The Edwin Smith Surgical papyrus, Oxford, 1930.

وواحدة عن العمود القفرى . ومما يؤسف له جد الأسف أن الورقة قطعت عند هذا الحد . غير أن النظام العلمى لم ينحصر فى ترتيب أبواب هذه الوثيقة ووصف تشريح الجسم الإنسانى لأن ذلك وحده لاستخلص منه شيئا كثيرا (رغم أننا لم نشر عليه فى كل ما لدينا من الأوراق الأخرى) بل المهم أننا وجدنا مع كل مشاهدة أو حالة ما يأتى : - (١) العنوان العام الذى ينطبق على الحالة وهو : عمليات لأجل (يتلو ذلك اسم المرض) - (٢) يأتى بعد ذلك الفحص الطبى ويعبر عنه بالصيغة الآتية : إذا فحصت إنسانا عنده (يتلو ذلك وصف أعراض المرض) (٣) تشخيص المرض وابتدىء بالكلمات التقليدية الآتية : أما فيما يختص بذلك فإنه مريض يتألم من (اسم المرض) . (٤) رأى الطبيب أو كما تترجم اللفظة المصرية (الحكم) ويعبر عن رأى الطبيب فى الورقة بثلاث حالات فيقول : (١) مرض يمكننى معالجته (رأى حسن) (٢) مرض يمكننى محاربته (رأى فيه شك) (٣) مرض لا أعالجه (رأى يدل على اليأس) (٥) يعرض الطبيب العلاج وبعد ذلك تأتى شروح تفسيرية وعددها سبعون . ولسنا فى حاجة أن نذكر هنا أن الطبيب الذى ألف هذه الورقة كان صافى الذهن منظم الفكر منطقى القول فلم يكتف بجمع تعاويز سحرية ووصفات طبية متخبطا فى ذلك خبط عشواء كما هو الحال فى الأوراق الطبية الأخرى التى عثر عليها حتى الآن وقصارى القول نجد فى هذه الورقة بحثا علميا رجع فيه المؤلف الى مصادر أصلية كانت لاتزال مجهولة فأبرزها أمامنا بطريقة واضحة لأول مرة فى تاريخ البشر ولا غرابة إذن إذا اعتبرناه الجندى المجهول فى تاريخ الطب فى العالم .

ولا يتسع المجال لنا هنا للتكلم بالتفصيل عن الشروح السبعين التى تتبع الحالات التى ذكرناها إذ هى فى الواقع تعاريف للتعابير والألفاظ التى جاءت فى

المتن وكان الغرض منها غالبا تفسير بعض مسائل في التشریح لها أهميتها وسنكتفي هنا بذكر مثال واحد على جانب عظیم من الأهمية لأنه يصف وصفا دقيقا القلب والدورة الدموية التي جاء ذكرها في ورقة «إيبرس» بطريقة مبهمه وهو: «يوجد في القلب قناة تتصل بكل عضو في الجسم فإذا وضع الطبيب: أصابعه على مؤخرة الرأس أو على اليد أو على النبض أو على الذراع فإنه يحس بالقلب لأن القلب متصل بكل عضو ويتكلم في كل عضو⁽¹⁾.

والخلاصة أن محتويات هذه الورقة قد وضعت الطبيب المصرى في أول صحيفة الأطباء في العالم من الوجهة العلمية. والظاهر أنه كان يوجد في مصر في عهد الدولة القديمة بل وفي كل عصور التاريخ المصرى القديم أطباء يعالجون بالطرق العلمية وبجانبهم طبقة ثانية من الأطباء يعالجون بالسكر والطب معا وسبب ذلك طغيان العقائد الدينية وتدخلها في الأمور الدنيوية، هذا إلى تمسك المصرى بالمعتقدات القديمة الخرافية التي ورثها عن أجداده منذ عصر ما قبل الأسرات ولا تزال آثارها باقية إلى الآن عند عامة الشعب المصرى إذ نجد أن الجم الغفير لا يزال يعتقد في قوة التعاويذ السحرية مع وجود الأطباء الذين يعالجون بالطرق العلمية بين ظهرانيهم.

(1) Breasted, The Edwin Smith Pap. (The New York - Hist. Soc. Quart Bull.) 1922, Vol VI, p. 4-31.

التحنيط

لقد غالى هردوت كما يقول مسبرو (1) عندما ذكر أن المصرى كان لا يفرق بين الطبيب الكهنوتى وبين الطبيب الذى يعالج بالتعاويذ السحرية وأنه لافرق بين الطبيب العام وبين الجراح المتخصص .

وقد ذكر بعض العلماء أن المصرى لم يكن نابغة فى علم التشريح لأن جراحة الجسم كانت محرمة فى العقائد الدينية ولذلك كان المخطون يؤلفون طبقة خاصة ليست لها علاقة بالأطباء وكان أفراد هذه الطبقة أقل درجة من الأطباء لأنهم كانوا مختصين بالجثث الآدمية وتحنيطها فحسب غير أن ورقة « إدون سميث » برهنت على أن الجراحة الطبية كانت متقدمة تقدما عظيما منذ الدولة القديمة . وعلى أية حال فإن ذلك لا يمنع من أن المخطنين كانوا يؤلفون هيئة خاصة على علم تام بأجزاء الجسم وتركيبه من الوجهة التشريحية كما سنرى فى سياق الكلام عن طرق التحنيط منذ أقدم العصور إلى نهاية عهد البطالسة .

إن عملية التحنيط التى اختصت بها مصر دون سواها من ممالك العالم ، لم تحقق بدايتها إلا فى عهد الأسرتين الرابعة والخامسة رغم أن كويل (2) عثر فى عهد الأسرة الثانية على عدد من المقابر كانت الأجسام المدفونة فيها مكفنة فى لفائف بعناية ودقة ، وكان كل عضو ملفوف على حدة مما يشعر بنوع من التحنيط الذى عرفناه فيما بعد . ولكن منذ عهد الأسرة الرابعة عثر على بعض أجسام محنطة تحنيطا تاما فى حفائر الجامعة

(1) Histoire Anc. des peuples de l'Orient, p. 214 (2) Quibell, Excav. at Saqqara, (1912-1914) p.p. 11, 19, 28, 32 pl. XXIX (3).

بمنطقة الاهرام . بعضها من الأسرة المالكة وبعضها من أفراد الشعب .
يضاف إلى ذلك أن صندوق الأحشاء الذى عثر عليه للملكة « حتب
حرس » والدة « خوفو » لا يزال يحتوى على صرة مفروضة أنها تضم
أحشاء المتوفاة . وهى محفوظة فى النطرون ، مما يدل على أن الجسم كان
محفظاً ، غير أنه لم يثر عليه فى القبر (1) . وتوجد موميا من عهد الأسرة
الخامسة فى المتحف الملكى لكلية الجراحة فى لندن (2) ، ومن ذلك
العهد أخذ المصريون يحفظون الأجسام حتى أوائل العهد المسيحى .

والرأى الشائع حتى الآن هو أن التحنيط عند قدماء المصريين سر لم
يكشف عنه حتى الآن ، وهذا فى الواقع مخالف للحقيقة إذ أن معظم مواد
الحنيط وطرقه معلومة لدينا إلا بعض تفاصيل صغيرة ، وعلى العكس فإن
طريقة التحنيط معلومة الآن أكثر من العهد الذى كانت تستعمل فيه ،
فقد كانت كل هذه العمليات فى تلك الأزمان الغابرة لا تخرج عن دائرة
التجارب ، على حين أن كل المبادئ الأساسية معلومة لنا ! الآن
وأقدم وصف للحنيط وصل إلينا من عهد هردوت (3) ومن بعده « ديدور »
الذى زار البلاد بعده بنحو أربعة قرون . وقد كتب كل منهما كتاباً عما
رأى وسمع ومن ذلك عملية التحنيط .

فذكر لنا هردوت أن المصريين كانوا يستعملون ثلاث طرق مختلفة
للحنيط . فى الأولى وكانت باهظة الثمن ، كان نخاع المني يستخرج بعضه
بالآلة خاصة والباقي بمقاقير لم يذكر لنا اسمها أما محتويات الجوف فكانت

طرق التحنيط كما
ذكرها « هردوت »

(1) Reisner, Bull. Mus. of Fine Arts, Boston, XXVI (1928) No
157 (2) Elliot Smith, Egyptian Mummies, p.p. 74-5.

(3) H. II, 86 - 8.

تستخرج (وربما كان المقصود من ذلك أن يشمل محتويات الصدر ماعدا القلب ، والكليتين) وبعد تنظيف الجوف بنبيد البلح والتوابل ، كان يملأ بالمر وخيار شنبر وغير ذلك من المواد العطرية ولم (تعرف أسماؤها) ولم يكن الكندر منها وكان الجزء الذى يفتح من الجسم لأجل التحنيط يحاط ثانية . ثم بعد ذلك يعالج كل الجسم بالنظرون ، ثم يغسل ويلف فى لفائف من الكتان كانت تلتصق بالصمغ .

أما فى الطريقة الثانية فكان يستعمل زيت خشب الأرز الذى كان يحقن به الجسم ثم يعالج بالنظرون . والطريقة الثالثة وهى أرخصها كانت للفقراء وتتخلص فى تنظيف الأحشاء البشرية ثم بعد ذلك يعالج الجسم بالنظرون .

أما ما كتبه « ديدور » عن التحنيط فإنه يعطينا بعض تفاصيل لم يذكرها لنا « هردوت » . فإنه وإن كان قد ذكر لنا ثلاث درجات للاحتفال الماتى إلا أنه لم يذكر لنا إلا طريقة واحدة للحنيط ، وهى إزالة الأحشاء ما عدا القلب والكليتين وذكر لنا أيضاً تنظيف الأحشاء بنبيد البلح ومعه توابل مختلفة (لم يعين اسماءها) ثم بعد ذلك يدلك الجسم بزيت خشب الأرز ، ثم يمسح بالمر والقرفة ومواد مماثلة وذلك لتعطير الجسم وحفظه . وفى مناسبة أخرى ذكر لنا « ديدور » عند ما كان يصف قار البحر الميت « أنهم كانوا يحملون هذا القار إلى مصر ويبيعونه هناك لتحنيط الموتى ، لأنهم إذا لم يخلطوا هذه المادة بتوابل عطرية أخرى ، فإن الأجسام لا يمكن أن تحفظ مدة طويلة دون تعفن . ويجب أن نلفت النظر هنا إلى أن وصف كل من « هردوت »

ما ذكره ديدور
عن التحنيط

« وديدور » متأخر جداً ، وأن المدة التي تقع بين أول بداية استعمال التحنيط وما كتبه هذان الكاتبان تبلغ نحو ٣٠٠٠ سنة ولابد أنه في خلال هذه الفترة قد تغيرت طرق التحنيط تغيراً عظيماً ولذلك لا يمكننا أن نعد وصفهما دقيقاً في تفاصيله . . . وسنلخص هاتين الطريقتين ونفحص ما فيهما من الأغلاط ونتكلم كذلك عن المواد التي استعملت في التحنيط حسب ما وصلت إليه البحوث العلمية الأخيرة .

عدم الاعتماد على ما ذكره هردوت وديدور في جملته

ففي الطريقة الغالية الثمن ، كان المخ ، والمعدة والأمعاء تزال ما عدا القلب والكليتين وهذا القول يتفق في جملته مع النتائج التي وصلنا إليها بعد فحص عدة موميات ، إذ نجد أن القلب دائماً قد ترك في مكانه وكذلك الكليتان ، أما الأمعاء والأحشاء فقد أزيلت (١) غير أننا نجد أحياناً بعض عظام القوم وهم الذين كانت تحنط جثثهم بالطريقة الغالية جداً ، لم تزل أحشائهم . مثال ذلك الملكة « عاشيت » زوجة الملك « منوحيب » الثاني أحد ملوك الأسرة الحادية عشرة وكذلك جثة « مابت » التي يحتمل جداً أن تكون أميرة ، وقد وجد « ونلوك » (٢) كليتيهما في الدير البحري ، وفحصهما الأستاذ « دري » (٣)

أما تنظيف الأمعاء والأحشاء بنبيذ البلح ، والتوابل ، فهي عمليات لم تترك طبعاً أي أثر

-
- (1) G. Elliot Smith (a) A Contribution to the Study of Mummification in Egypt, in Mem de l'Institut. Egyptien, V fasc. I, 1906. (b) The Royal mummies in Cat. Gen. du Musée du Caire. & W. R. Dawson Making a Mummy in the J. E. A. XIII (1927) p. 40-9. (2) Winlock. Egyptian Exped 1920-1921 Bull. Metrop. Mus. of Art. New-York, 11, p.p. 36-52. (3) Derry, Report upon the Examination of Tut-Ankh Amen's Mummy in the Tomb of Tut-Ankh Amen by Howard Carter II, p. 146.

أما التجاويف التى كانت تتخلف فى الجسم بعد هذه العملية فكانت تملأ بالمر وخيار شنبر ومواد أخرى عطرية ثم بعد ذلك يخاط الجزء الذى فتح لاجراء عملية التحنيط . وقد ذكر لنا « هردوت » بصفة خاصة أن هذه العمليات كانت تحدث قبل معالجة الجسم بالنظرون ، ورغم أن الدكتور Pettigrew (1) ، واليوت سميث (2) ، ودوسون يشكون فى ذلك ، فإن ذلك من الجائز إذ ربما كانت توضع هذه المواد العطرية لتحفظ رائحة الجسم جميلة أثناء فتحه وقد لوحظ أن الفتحة التى كانت تعمل فى الجسم للتحنيط لم تخط ، هذا إلى أنه لم يمكن تمييز المر أو الخيار شنبر بالتحقيق فى تجويف المعدة أو الصدر أما أهم المواد التى حشيت بها هذه التجاويف فقد وجدت أنها كتان (3) أو الكتان (4) والراتينج ، والشار (5) ، أو نشار (6) وراتينج ، وتراب ونظرون وحزاز صخرى ، وأحيانا توجد بصله أو أكثر . ثم كان يعالج الجسم بالنظرون وقد ذكر ذلك « هردوت » فقط ، وسنتكلم عنه فيما بعد .

نتائج فحص مواد
الحنيط

بعد ذلك كان يغسل الجسم ولم يأت ذكر ذلك إلا فى « هردوت » ولكن هذا أمر طبعى كان لابد من حصوله . ويظن الكيائى « لوكاس » (7) أن العطب العظيم الذى يشاهد غالبا فى لفائف الموميات ، القرية للجسم ، بالنسبة لللفائف الخارجية كان سببه نمو الفطريات التى تنشأ من لف الجسم وهو لا يزال مبللا ، مما يدل على أنه فى هذه الاحوال قد غسل .

-
- (1) History of Egyptian Mummies p. 83-4 (2) Elliot Smith & Dawson op. cit. p.p. 61. (3) Smith & Dawson op. cit. p.p. 82, 83, 85, 103. (4) Smith & Dawson op. cit. p.p. 75, 80, 97, 99, (5) Smith & Dawson op. cit. p.p. 114, 115, 117, 118, (6) Smith & Dawson op. cit p.p. 81 (7) J. E. A. XVIII 1932 p. 139-40.

بعد ذلك كان يدهن الجسم ، بزيت خشب الأرز ، ومسوح أخرى ثمينة ثم يدلك بالمر ، والقرفة وما شابهها من التوابل ولم يأت ذكر ذلك إلا في « هردوت » ولكن نظرا للدور العظيم الذى تلعبه الزيوت والمسوح عند الاحياء ، فان دهان الأموات لم يكن أمرا مستغربا .

وقد ذكر لنا « هردوت » فى الطريقة الثانية حقن الجسم بزيت خشب الأرز ، ثم منع الحقنة من التسرب حتى نهاية معالجة الجسم بالنظرون . وفى الطريقة الثالثة التى وصفها « هردوت » لم يذكر لنا طبيعة الشربة التى كانت تستعمل لتنظيف الاعضاء ، بل قال إن أى سائل حتى ولو كان ماء فإنه لو حقن به الجسم بكية كافية لآتى بنتيجة .

والمواد التى كانت تستعمل فى تحنيط الجسم كما ذكرها « هردوت » و « ديدور » و « بلىنى » وما وصلت إليه البحوث الحديثة هى على وجه التقريب ما يأتى :

شمع النحل ، والقار والخيار شنبز ، وزيت خشب الأرز والقرفة ، والصمغ والحناء ، وحب العرعر ، والنظرون ، والمرام والبصل ، ونبىذ البلح ، والراتينج ، (ويشمل ذلك صمغ الراتينج والبلاسم) والملح ، والنشادر ، والتوابل وقطران الخشب ، أو الزيت وستكلم عن معظمها .

شمع النحل : كان يستعمل شمع عسل النحل فى التحنيط لتغطية الأذنين والعينين والأنف والفم ولتحنيط الجرح وكذلك كان يستعمل الشمع فى أجزاء أخرى من الجسم فمثلا وجد أنه كانت توضع طبقة منه على فخذى المومياء (1)

(1) Lucas, Preservative Materials used by the Ancient Egyptians in Embalming p. 5

القار تدل ظواهر الأمور على أن القار كان يستعمل فى التحنيط والمقصود بالقار (الزفت الطيبى) الذى كان يستخرج من البحر الميت كما جاء ذكر ذلك على لسان الكتاب الأغريق والرومان ، وقد ظل هذا هو الاعتقاد السائد عند الكتاب المحدثين الذين كتبوا عن التحنيط ولكن الكيمائى « لوكاس » فحص هذا الموضوع ووجد أن الزفت لم يستعمل قط فى تحنيط الأجسام الآدمية عند المصريين قبل عصر البطالمة (1). والظاهر أن الخطأ فى ذلك نشأ من أن كثيراً من هذه المادة وبخاصة ما وجد منها فى موميات العصر المتأخر كانت سوداء وتظهر كالقار وكذلك لم تعمل تحاليل منظمة على يد كيميائين مهرة . وقد قام « لوكاس » وغيره وأثبتوا فعلاً أن هذه المادة السوداء ليست قارا .

القرفة وخيار شنبر : والقرفة كما هو معلوم هى لحاء شجر ينبت فى الهند وسيلان والصين والخيار شنبر من نفس فصيلة القرفة وليس بينهما فرق إلا أن الخيار شنبر نوع من التوابل حريف وقابض أكثر من القرفة . هذا إلى أن مذاقه أقل لذة . ولم يكن يستعمل قديماً من الخيار شنبر والقرفة لحاؤهما بل زهورهما وأعشابهما وخشبهما .

وأقدم إشارة لخيار شنبر فى المتون المصرية هى ورقة هاريس التى يرجع تاريخها إلى الأسرة العشرين أما أقدم إشارة للقرفة فيرجع إلى عهد الأسرتين الثامنة عشرة .

(1) Lucas (a) Arch. Survey of Nubia, Report for 1907-1908, II, (1910) p.p. 372-4. (b) Preservative Materials used by the Ancient Egyptians in Embalming 1911. (c) J. E. A. t. I, 1914 p.p. 241, 245. (d) Ancient Materials, 1926 p. 122.

والتاسعة عشرة (١) ولم تذكر لنا المتون المصرية استعمال هذين الصنفين غير أنهما مما لاشك فيه كانا يستعملان لتشبة الطعام ، والتعطير ومن المحتمل أنهما يستعملان بخورا وكما ذكر « هردوت » كانا يستعملان فى التحنيط وقد عثر على بعض موميات يظن أنه وجد فيها بقايا القرفة ولكن ذلك ليس مقطوعا به . (٢)

زيت خشب الأرز Cedri, Succus Cedrium : الظاهر أن زيت

الأرز الذى ذكره كل من هردوت وديدور لم يكن مستخرجا من خشب الأرز بل من العرعر . ولكن اختلاف كل منها فى كيفية استعماله (إذ يقول أحدهما أنه كان يحقن به والثانى يقول أنه كان يستعمل للمسوح) ، يدل على أن واحدا منها كان مخطئا أو أنه كانت توجد مادتان مختلفتان تستعملان ولما كان من غير المؤكد كيفية استعمال زيت الأرز فإنه من المستحيل التحقق من طبيعته . وقد استعمل زيت خشب الأرز فى التحنيط حتى القرن الأول الميلادى . (٣)

الصمغ : يقول هردوت ان الصمغ كان يستعمل للصق لفائف الكتان

التي كانت توضع فيها الموميا . وقد قال إن المصريين كانوا يستعملون بدلا منه الفراء . وقد وجد لوكاس الصمغ على موميات يرجع عهدها إلى الأسرة العشرين وكذلك وجد على وجه موميا « أمنحتب الثالث » قطعة من القماش مشبعة بالصمغ (٤) ولما كان شجر السنط ينبت كثيرا فى مصر فى

(1) Breasted A. R. IV, 234, 344, 379. op. cit. II, 265, & III. 116.

(2) W. O'sburn, An Account of an Egyptian Mummy presented to the Museum of Leeds Philosophical & Literary Society (1828) p. 6.

(3) B. p. Grenfell & A. S. Hunt, The Amherst Papyrus II, p' 150,

(4) G. Elliot Smith, The Royal Mummies in Cat. Gen, du Musée du Caire, p. 48.

ذلك العهد وهو يعطى مادة الصمغ فمن المحتمل جدا أن كل الصمغ الذى كان يستعمل فى التحنيط كان محليا . وقد ذكر « بلىنى » أنه فى أيامه كان أحسن نوع من الصمغ يجلب من مصر. (1)

الحناء : كانت الحناء تستعمل قديماً كما فى أيامنا هذه ، لتعطير المرامم وللتجميل لخضاب راحة اليد والكفين والشعر . وهو نبات ينبت فى مصر بكثرة وهو يزرع فى الحدائق لرائحته الشديدة ، ولورقه ، وأهم استعمال له أن يتخذ أداة للزينة ، ومادة للصبغة .

وقد وجد أن بعض الموميات كانت فيها أصابع اليدين والرجلين مخضبة بالحناء (2) وقد وصف اليوت سميث شعر مومياء (3) « حتوى » من الأسرة الثامنة عشرة بأنه خضب بلون لامع مائل للأحمرار ويعتقد أنه صيغ بالحناء .
حب العرعر Juniperus, phoenicea : إن أقدم تاريخ عثر فيه على حب العرعر فى المقابر المصرية يرجع إلى الأسرة الثامنة عشرة (4) وكذلك عثر على هذه الحبوب فى مقبرة « توت عنخ آمون » . وكذلك يوجد فى المتحف المصرى حبوب عرعر من عهد الأسرة العشرين من خيئة الدير البحرى .
والظاهر أن زيت هذه الحبوب كان يستعمل لمسوح المتوفى .

النطرون : استعمل فى التحنيط منذ الأسرة الرابعة حتى العصر الفارسى وقد كان حانوت المحنط يسمى « مكان التطهير » وكان المتوفى يعالج فيه

-
- (1) Pliny, XIII, 20; XXIV, 67. (2) P. C. Rouyer, Notice sur les embaumements des Anciens Egyptiens, dans Description d'Egypte, Mémoires Antiquités t. I, (1809) p.p. 207-20
(3) G. Elliot Smith op. cit. pl. 9.
(4) E. Schiaparelli, Relazione, Sui Lavori della Missione Archeologica Italiana in Egitto (1903-20) II, p. 165 .

بالنظرون الذى كان يعتبره المصريون مادة مطهرة عظيمة ، وقد دلت
الانبحاث على أن الجثة كانت تعالج بالنظرون فى حالته الطبيعية لافى محلوله
وقد جاء الخطأ الشائع فى أن الجسم كان يغمس فى النظرون من سوء
فهم ترجمة ما ذكره هردوت فى هذا الموضوع (1) . على أنه لا يزال بعض
علماء التشريح يعارضون هذا الرأى (2) .

الدهان : لم يذكر لنا هردوت نوع الدهان الثمين الذى كان يسمح به الجسم
بعد التحنيط ، على أنه من جهة أخرى ليس لدينا دلائل من الموميات
تعرفنا تركيب هذه المواد . وقد ذكر فى بعض الاوراق البردية من عصر
البطالسة (3) الاحتفالات الدينية التى كانت تقام بعد أن يهيىء المخطون الجسم
ليلف فى الأكفان وفى خلال التكفين . وقد كان يستعمل فى الحالة
الأولى نوع من الدهان مؤلف من صمغ الراتينج (الكندر واللبان والمر)
وزيوت أخرى مختلفة وشحم ، منها زيت خشب الأرز ، والشحم
المغلى وشحم الثور . وفى ورقة أخرى نجد زيت الأرز وزيت الزيتون
وبعد لف الجثة كان يصب عليها سائل أو شبه السائل الراتينجى .
ولكن كنهه لم يعرف بالضبط . والظاهر من بعض التحاليل التى عملت
أنه يحتوى على قار الأرز المخلوط بالطين وبعض الروائح العطرية .
البصل : وجد البصل فى لفائف أكفان الموميات منذ الأسرة الثالثة عشرة
وكذلك وجد قشر البصل على عين المتوفى . وكان يوضع فى التجويف

(1) Lucas, J. E. A. XVIII 1932 p.p. 125-40 (2) Lucas, Ancient
Egyp. Materials p. 247 etc.

(3) Mariette, Les papyrus Egyptiens du Musée de Boulaq. &
Maspero, Mémoires sur quelques papyrus du Louvre.

الجوفى ، وفى التجويف الصدرى وعلى الأذن . وفى عهد الأسرة العشرين والواحدة والعشرين والثانية والعشرين كان البصل يستعمل فى عملية التحنيط (1)

نبذ البلح : ذكر كل من هردوت و ديدور أن نبذ البلح كان يستعمل فى تنظيف الجثة ولكن ليس لدينا أى دليل مادى على ذلك إلا ما قاله « دوسون » (2) من احتمال وجود مادة كثولية فى بعض أنسجة الجثث المحنطة وربما كان ذلك معززا لرأى « هردوت » و « ديدور »

الملح : تدل الأبحاث الكيائية أن الملح لم يستعمل جافا أو محلولاً فى تحنيط الأجسام . ويعزى وجود الملح مع بعض الموميات فى العصور الأولى إلى أن النظرون الذى كان يستعمل فى التحنيط يحتوى على كمية عظيمة من الملح (3) النشارة : ذكر لنا كل من « دوسون » و « اليوت سميث » أن النشارة كانت توجد وحدها أو مع الراتينج فى تجاويف الموميات منذ الأسرة الحادية عشرة والثانية عشرة (4)

-
- (1) Elliot Smith, Mem. de L'Inst. Egyptien, V, 1906. fasc I, p.p. 28, 31. & Elliot Smith, The Royal Mummies p. 64. (2) Elliot Smith & Warren Dawson, op. cit. p. 125; J. E.A. XIII p. 49.
(3) J. E. A. XVIII p. 127-9.
(4) The Tomb of Yuua and Thuiu in Cat. Gen. du Musée du Caire, p.p. 75-7



آلة لقياس ساعات الليل



ساعة مائة من الحجر مقسمة من الداخل



أثر عملية في التتواتر السنجية ويرى الثقب الذي عمل لاختراع المادة الفيحية
من دمل تحت الضرس الاول

الكتابة



إن الرأي السائد بين علماء اللغات القديمة في العالم أن المصريين هم أول من اخترع نظاما للكتابة . والمتفق عليه حتى الآن أن الفينيقيين قد نقلوا عن المصريين نظام كتابتهم ومن ثم إلى أوروبا بعد تحوير وتبديل في شكل الحروف الأبجدية .

والواقع أن اختراع مصر للكتابة قد وضعها في مكانة ممتازة عن باقي أمم العالم وجعل الحياة العقلية تنمو وتزدهر فيها في وقت كانت الأمم الأخرى في انحاء العالم قاطبة لا يزال أهلها يعيشون مع الحيوانات المفترسة في الغابات والأحراج ، ولذلك كان لزاما علينا أن نتكلم بالإجمال هنا عن الكتابة المصرية وكيفية نشوئها لأنها أقدم كتابة معروفة وتدل كل الظواهر على أن نظام الكتابة في مصر قد بدأ بالصور كما فعل غير المصريين ، وهذه الطريقة في الواقع غير محكمة وقد استعملت ليتذكر بها الإنسان شيئا ما في ذهنه ، ويصعب على شخص آخر أن يكشف الفكرة المراد التعبير عنها بالصور .

خذ مثالا خياليا لذلك : إذ اتفق شخصان على أن يورد أحدهما للآخر في مدة ثلاثة أشهر ثورا وفي مقابل ذلك يعطيه الطرف الآخر خمس جرات من عسل النحل . فيكفي لتفاهم كليهما رسم القمر ليعبر به عن الشهر ، والثور والنحلة والجرة ثم يضاف إلي ذلك ثلاث شرط أفقية لتدل على عدد الأشهر . وإذا وضعت أمام شخص آخر هذه الإشارات فإنه لا يمكنه أن يفهم بالتحقيق المراد منها .

وعلى ذلك كان لا بد لهذا التركيب الأول من أن يرتقى كثيرا . وقد حاول كل قوم على حدتهم بطرقهم الخاصة ذلك حتى وصلوا إلى كل أنواع الكتابات والكلمات والمقاطع .

وكان للمصريين وحدهم الحظ في أن اتبعوا طريقة مجددة وصلوا بها إلى خير شكل للكتابة : الحروف الأبجدية .

وكانت الطريقة في أصلها بسيطة سهلة إذ كان الغرض الأول كتابة كلمات كان من الصعب أو من المستحيل رسمها ومن ذلك أتت الفكرة بأن يستبدل بالكلمة الصعبة الكتابة كلمة غيرها يمكن رسمها على أن تماثلها في النطق . وكان على القارىء أن يفهم من سياق المتن المعنى المقصود حقيقة وبخاصة حينما أصبح الاستعمال شائعا وكان كل فرد قد اعتاد مثلا في لفظة عصفور الجنة  « ور » أن يفكر في « ور » بمعنى عظيم ، وإذا ذكرت مثلا كلمة جبل  فكر في « خبر » بمعنى يصير . ولما كان معنى الكلمة في اللغة المصرية - كما في اللغات السامية - يرتبط بحروفها الساكنة وأن حركات إعرابها تبين موقعها من الناحية النحوية ، أصبح يلتفت إلى أن الكلمة التي استعيرت لتحل محل أخرى يلزم أن تحتوى على حروفها الساكنة نفسها فحسب أما حركات الأعراب فلم يلتفت إليها فمثلا كلمة « نخل » في اللغة العربية كانت ترسم بشكل ثلاث فخلات متجاورة وكلمة « شعر » كانت ترسم بشكل حصلة من الشعر .

وكثير من العلامات التي كانت تستعمل في معنى واحد انتقلت إلى كلمات كثيرة على مر الأيام حتى أصبح من النادر أن تستعمل هذه الكلمات في معان خاصة وصارت لاتدل إلا على إشارات ساكنة (أى



أنها صارت تكون جزءا من كلمات أخرى تشترك معها فى بعض حروفها .
فمثلا عصفور الجنة لم يعد يستعمل كما فى المثال الأول ليدل على « ور »
بمعنى عظيم فحسب ، بل ليدل أيضا على الحرفين الساكنين و ، ر إذا
دخلوا فى تركيب كلمات أخرى مثل حور ، سور ، ورس ، وريت الخ .
ومن هنا اكتسبت الكتابة إشارات مركبة من حرفين ساكنين .

وقد وصل أقوام آخرون الى هذه الخطوة بطريقة قريبة الشبه ،
ولكن المصريين تقدموا خطوة ثانية الى الأمام واستعملوا كلمات قصيرة
لاحتوى على أكثر من حرف واحد ساكن لكتابة هذا الساكن فمثلا
« ر » بمعنى فم كانت تستعمل لكتابة حرف الراء « زت » (افمى)



تأليف الحروف
الأبجدية

كانت تستعمل لكتابة حرف الزاى (التاء علامة التأنيث) « ش »
(بحيرة) كانت تستعمل لحرف الشين وهكذا . وكانت نتيجة هذه
الخطوة أن تكونت حروف أبجدية من أربعة وعشرين حرفا ساكنا وهي
التي انتهت فيما بعد إلى أرض كنعان وصارت الحروف الأبجدية التي أخذت
منها الحروف الأبجدية الأوربية .



وبهذه الحروف الأبجدية كتبت كلمات قصيرة مفردة مثال ذلك « ر »
(إلى) « م » (فى) « إو » (يكون) ، أو
نهايات لغوية أصبحت توضح هكذا « خبرف » بمعنى هو يصير .
ولقد سهلت كذلك قراءة الإشارات التي تدل على كلمات فمثلا فى
الضامة أو « من » فأس . من الجائز أن يفكر الإنسان فى كلمات أخرى
للوح الضامة أو الفأس غير « من » و « مر » ولكن إذا أضيف الحرف
مصر القديمة ج ٢

الأخير لكل منهما « ن » و « ر »  و  فان التارى يرى فى الحال أن لفظتى « من » و « مر » هما المقصودتان .

وكان كثير من الكلمات يكتب بالحروف الأبجدية فقط مثال ذلك

 « بين » بمعنى (ردى) و  « نمت » بمعنى

« شجرة جميز » ، على أن نظام الكتابةبقى خليطا من علامات تدل على ألفاظ فى معناها الأصلية أو المعنى المنقولة إليها ، ومن علامات أبجدية متصلة بها . وقد خطت الكتابة خطوة ثالثة نحو النمو وأدخل عليها عنصر جديد

وهو ما يسمى « بالمخصص » فأضيف إلى الكلمة الواحدة إشارة تدل على المعنى المقصود من الكلمة . فمثلا « نمت » أى جميز أضيف إليها شجرة فأصبحت تكتب هكذا  . « نمر » أى جميل أضيف إليها مالهف بردى لتدل على الشئ المعنوى فأصبحت هكذا  الخ .

والكتابة التى تمت بهذه الطريقة كان من الممكن لكل مصرى أن يقرأها بسهولة وأن يفهم معناها على وجه التحقيق ، ويدلك على ذلك أن المصرى لم يبذل أى مسعى لتغيير هذا النظام وجعله كله حروفا أبجدية . ولا شك فى أن لهذا النظام نقائصه لأننا نشعر بصعوبة كبيرة فى فهم كتب المصريين ، وسأعود إلى هذه النقطة ثانية .

تعودنا على عادة الأغريق — أن نسمى الكتابة المصرية « الإشارات المقدسة » (هيروغلىفى) وأن نسمى نوعا آخر خاصا « الهيراطيقى » والاسمان مستعملان فى لغتنا وليس هناك استعداد عند أى شخص لمحوهما وإن كان كل منهما سخيلا بعض السخف وبخاصة الأخير

أنواع الخط المصرى

لأنه — وهو الذى ترجم عنه معظم ما فى الكتب — ليس بكتابة خاصة مطلقا ولا يخرج عن كونه « خط رقعة » للكتابة الهيروغليفية والفرق بين الاثنين كالفرق بين حروف المطبعة وخط اليد .

ومما ساعد الأدب المصرى بوجه عام الأدوات التى كان يستعملها الكتاب فى الكتابة . ولم يكن علمهم كعلم زملائهم البابليين وهو طبع إشاراتهم على ألواح من الطين فهذه طريقة انتجت أشكال الخط المسمى الفصح الشكل . والواقع أنهم كانوا يكتبون كما يكتب العالم الحالى الذى أخذ طريقة الكتابة عنهم . فكان عندهم المداد الأسود الثابت اللون ، وكانوا يطحنون المادة التى يأخذون منها المداد على ألواح من الخشب ، وكان عندهم أقلام يتخذونها من القصب ويبرون أطرافها ويديونها على حسب رغبة الكاتب ؛ وكان عندهم فوق ذلك ورق ناعم جميل متخب من لباب سيقان البردى (١) ، كل هذه الأدوات كانت وسائل مساعدة على الكتابة مما لم يتهيا لغيرهم من الأمم الأخرى ويمكن أن يشاهد إلى الآن فى النسخ الخطية الجميلة كيف كان الكاتب يرسم إشاراته ويده ثابتة وقلبه منشرح .

وكان من السهل أن تعمل ملفات طويلة من ورق البردى بضم الأوراق المنفصلة بعضها إلى بعض وإصاقها ، وبهذه الطريقة يسهل أن تعمل ملفات بأطوال مختلفة ؛ وهناك ملفات خطية بديعة يبلغ طول الواحد منها عشرين أو أربعين مترا . وكانت الكتابة عادة على وجه واحد من ملف البردى وهو الوجه الذى تكون الألياف فيه أفقية حتى يأخذ القلم

استعمال البردى .
للكتابة

سبيله بلا مقاومة . وهذه الطريقة تستلزم الإسراف فى الورق على أنه لم يكن فى مقدور كل فرد - من هذه الناحية - أن يستعملها . ولدينا أمثلة كثيرة تسترعى النظر للكتابة على وجهى الملفات للاقتصاد . والشخص الذى نحن مدينون له بأمتع مثال لدينا من هذا النوع هو صاحب ورقة « هريس » رقم ٥٠٠ إذ حصل على أوراق مكتوبة من البردى وغسل ماعليها من المداد وكتب على أحد وجهيها ثلاث مجاميع من أغاني الحب وأنشودة الشراب القديمة وجاء بعده كاتب آخر وكتب على الوجه الثانى من الورقة قصتين . وقد استعمل كاتب ورقى « لينينجراد » ^(١) طريقة مختلفة وقد حفظت لنا هاتان الورقتان تعاليم الملك « مرى كارع » ونبوءة « نفر رهو » وكان هذا البكاتب يشتغل كاتب حسابات فأخذ وثائق من مصلحته والصق بعضها ببعض ونسخ الورقتين الآنف ذكرهما على الوجه الأبيض لتلك الوثائق على أن تكون ملكا له « ولأخ عزيز موثوق به » أما الفرد الذى لم يكن فى مقدوره الحصول على ورق البردى فكان يجد فى قطع الخزف ما يسد حاجته . وهى مادة رخيصة الثمن تحمل محل الورق . وقد يطلق هذا الاسم على قطع من الأواني الفخارية أو من الحجر الجبرى الناعم ونشاهد هذه الآثار الكتابية ملقاة على الأرض فى أى مكان فى مصر . ولما كانت هذه القطع الخزفية يستعملها تلاميذ المدارس لكتابة تمارينهم فإن كثيرا من المتون المصرية قد تقل عنها

استعمال الخزف
للكتابة عليه

فهرست للمتنون المصرية

إن الطالب الذى يوازن بين ترجمتين لمتن صعب من المتن المصرية

إحداها قديمة العهد والأخرى حديثة ، قد يشك في أن هاتين الترجمتين المتباينتين هما لقطعة واحدة . والسبب في ذلك هو نقص نظام الكتابة عند المصريين القدماء فالألفاظ المصرية لم توضع فوقها حركات تبين بالضبط موقعها من الجملة ونتيجة ذلك أنه يمكن نطق الكلمة بأشكال مختلفة تعطيها معاني متباينة : مثال ذلك « سزم » فإنها تحمل معنى من المعاني الآتية : سماع ، يسمع ، سمع ، سامع ، مسموع الخ ، وليس لدينا طريقة لتحقيق المعنى المقصود بالضبط إلا سياق الكلام . على أننا لانجد صعوبة حينما نبحث في متن بسيط ، فإننا نجد من السياق ومن الاستعلامات المعروفة لدينا حق المعرفة ما يعيننا على سهولة البحث . ونجد الأمر على عكس ذلك إذ كان المتن يحتوى على غير المألوف من الجمل والأفكار فهناك يترك المترجم الأمين هذه الجمل من غير ترجمة غالبا أو يترجمها ويعترف بأن هناك تراجم أخرى لها يمكن اتباعها .

ولا يدهش القارئ عند ما يرى أن بعض المتون قد ترك من غير ترجمة في كثير من الوثائق المصرية .

وهناك عقبات أخرى غير العقبات التي نصادفها بسبب غموض نظام الكتابة تعترضنا وربما أثارت منا ضحكا ، وهي ناشئة عن خفة الكاتب وجهله : على أن كثرة الأغلاط الكتابية في كل مخطوط كتابي تكاد تكون لسوء الحظ أمراً عادياً . وليست هناك مخطوطات يعد الخطأ الكتابي فيها خطراً كما في الكتابة الهيروغليفية ، فإنه يكفي للكاتب أن يضيف (خطأ) مخصصاً إلى كلمة فيتغير معناها إلى معنى مختلف كل الاختلاف عما يقصده الكاتب ، وقد تؤدي غلطة من هذا النوع

صعوبة فهم المتون
المصرية بسبب
الحروف الساكنة

جهل الكاتب

إلى خطأ فى الترجمة ، وتسرب أمثال هذه الأغلاط إلى سهل الوقوع وذلك لغموض طبيعة الكتابة وهذا الخطأ فى الترجمة نتيجة طبيعية لهذا النظام الغامض . على أن المصريين القدماء كانوا أقل احتفالاً منا بأمثال هذه الأغلاط ، فكانوا يصححون هذا الخطأ أثناء القراءة ومن الواجب أن نفرض حصول ذلك منهم ، وإلا فإنه لا يصدق أن فرداً كان ينقل كتاباً لاستعماله الشخصى ثم يفض النظر عما فيه من أخطاء كثيرة .

ولنتكلم الآن عما خلفه لنا تلاميذ المدارس فى عهد الدولة الحديثة - وأعنى بذلك أوراق البردى وقطع الخرف التى كانوا يسطرون عليها واجباتهم اليومية التى يأمرهم بها معلمهم . يظهر أن هؤلاء التلاميذ كانوا لا يؤدون واجباتهم دائماً عن طيب خاطر لذلك كثرت الأغلاط الشنيعة التى كانوا يرتكبونها فى مثل هذه المتون . ولم تحل أسس المتون عبارة من بعض الأغلاط ، وعلى ذلك لانشك فى أن جزءاً كبيراً من متن موقعة « قادش » كان مصيره الغموض ولم نستند فى تصحيحه إلى النقوش التى ساعدتنا على إصلاح كثير من أغلاطه وما كانت نسخة « بنتاور » لتغنينا عن ذلك شيئاً .

أغلاط التلاميذ فى
نقل المتون

وكان التلميذ عند ما يكلف نقل كتاب يصعب عليه فهمه لما فيه من التعبيرات اللغوية القديمة يغير فيه تغييراً يضيع من المعنى ، وإذا كانت الحال كذلك فإننا نشكر الله إذا استطعنا أن نلص الصواب فى بعض أنحاء الموضوع الذى يتحدث عنه الكتاب ، وبما يؤسف له أن كتاباً قima كتماليم « دواوف » قد وقع فريسة فى يد تلاميذ مدارس الأسرة

التاسعة عشرة ، ولا يعزينا عن ذلك أن نرى بعد بضعة قرون تلاميذ مدارس الأسرة الثانية والعشرين قد أساءوا من ناحيتهم — على النحو السابق — نقل كتابات الأدب المصرى الحديث . وتقرر هنا أننا مدينون بالشكر للمدارس المصرية فقد حفظت لنا كثيراً من هذا الأدب من الضياع غير أن الشكر الذى يهديه مترجم أمثال هذه الكتابات المحشوة بالأغلاط لهذه المدارس سيكون دائماً ممزوجاً بشئ من الفتور .

نظرة اجمالية فى تطور الادب المصرى

لقد بقى التاريخ المصرى والأدب المصرى ، وكل مايتعلق بالحياة المصرية سرا غامضاً فى كل العالم حتى بداية القرن التاسع عشر؛ أما ما نقله اليونان عن المصريين مدة اختلاطهم بهم فلم يكن إلا حقائق مشوهة نقلت بالرواية فضلاً عن أن ماوصل إلينا لايمثل إلا جزءاً من تاريخ البلاد فى أيام شيخوختها وتدهورها . وقد كان اليونان الذين نقلوا إلينا بعض معتقدات المصريين وعاداتهم الموروثة من أزمان سحيقة ينظرون إليها بعين الاحتقار والرغبة معا لأنها لاتتفق مطلقاً مع دنيا حضارتهم . وقد بقى المصريون فى نظر الأوروبيين والمصريين الحاليين كالصينيين الأقدمين . ومن المدهش أنه رغم حركة الكشف الحديثة التى قامت فى عصرنا فإنهم لا يزالون معروفين بأنهم قوم لا ثقافة لهم ولا علوم ولا آداب كباقي أمم العالم حتى أن المصرى الحديث عندما يريد أن يتكلم عن الأدب فى مصر لا يذكر شيئاً عن مصر القديمة بل يقصر كلامه

نظرة الاغريق
والمصريين المعاصرين
إلى الادب المصرى

على الأدب العربى فى مصر . وكأن مصر منذ فجر التاريخ حتى الفتح العربى لم يكن لها شئ قط من التراث الأدبى يمكن أن يفاخر به أبناؤها كما يفاخر الفرنج بأدبهم الخاص فى مختلف العصور ، والواقع أن المصرى لا يلام على جهله بأدب بلاده العتيق وربما يرجع السبب فى ذلك إلى عاملين هامين : الأول أنه منذ الفتح العربى اختفت لغة البلاد جملة وحلت محلها اللغة العربية وآدابها فأسدل الستار على لغة القوم وأصبحت نسيا منسيا ولم يبق للمصرى مجال فى أن يدرس تاريخها أو أدبها وبخاصة إذا علمنا أن اللغة قد ماتت .

سبب جهل المصرى
بالادب المصرى
القديم

العامل الثانى أنه لما حلت رموز اللغة القديمة لم يعتن المصرىون بدروسها بل تركوا مجال هذا الدرس للأوربيين إلى عهد قريب جدا عندما بدأ نفر من المصرىين يتعلمون لغة البلاد القديمة ، ولكن رغم ذلك فإن معظم المثقفين فى مصر أو الذين يدعون أنهم مثقفون ، لا يزالون يعتقدون أن مصر القديمة لم يكن فيها حياة أدبية وثقافة خلقية كالتي عند الشعوب المتحضرة .

على أن المصرىين فى عهد تاريخهم الأول كانوا على عكس الفكرة الشائعة عنهم ، إذ كانوا قوما لهم هبات عقلية ، وكانوا متوقدى العزيمة ، أيقاظا على حين كانت أمم أخرى من الأرض لا تزال فى سباتها ؛ ولقد كانت نظرتهم للعالم ملتهبة متوقدة مملوءة بالمغامرة كظفرة الإغريق الذين أتوا بعدهم بآلاف السنين . ويشاهد ذلك جليا فيما وصلوا إليه من الأعمال الفنية الواسعة النطاق ، بل يشاهد بوضوح أكثر فى أعمال التصوير والنحت التى تبرز الحياة عندهم فرحة ناطقة .

مكانة المصرى
ومقدار ذكائه

إن قوما هذه مواهبهم جديرون بأن يجدوا سرورا في إعطاء أغانيهم وقصصهم شكلا أغنى وفنا أكثر . وكذلك نمت بينهم من وجوه أخرى حياة عقلية وعالم فكرى يبحث فيما وراء الأشياء الدنيوية ودائرة الدين . ومنذ أن اخترع المصريون نظام الكتابة نمت بينهم من زمن بعيد مجموعة من الكتابات المختلفة الأنواع تمهدوها بالتنمية ، وجعلوا لها صبغة أدبية وإن الكثير منا لم يحفل بها ولم يعتقد يوما بأن للمصريين القدماء أدبا يعتقد به .

ولقد حفظ لنا التاريخ شيئا كثيرا من أعمال التصوير عند المصريين حتى استطعنا أن نكون عنها فكرة تكاد تكون ثابتة لاتقبل التغير كثيرا ، على حين أن موقفنا بالنسبة للأدب المصرى - لسوء الحظ - لايزال مختلفا جدا إذ ليس لدينا منه إلا شئ قليل . لأن العثر على مؤلف أدبى يتوقف على مصادفة غير متوقع حدوثها كبقاء ملف من البردى الهش فى جوف الأرض من ثلاثة أو أربعة آلاف من السنين . ولذلك لم نعثر إلا على قطع منفردة كانت بلاشك فى الأصل أجزاء من مجاميع عظيمة من الكتابات ؛ على أن كل كشف جديد من ذلك النوع يضيف خاصية جديدة إلى الصورة التى صورناها لأنفسنا عن الأدب المصرى وهذه الصورة أصبحت فى الجملة تكاد تكون صحيحة لأنها تشتمل على احتمال له قيمته الفعلية ؛ فإن كل مرحلة تاريخية يظهر لنا فيها الأدب المصرى مطبوعا بطابع خاص يميزه عن غيره ويتفق مع ما نعرفه عنها من الحقائق التاريخية وبقدر ماتسع له طاقتنا من استقراء آثار اللغة المصرية القديمة ، نستطيع أن نقول إن هناك دلائل تدل على أن العناية كانت موجهة إلى

لم يصلنا من الادب
المصرى الا القليل

تنمية اللغة . فهي غنية بالاستعارات والتشبيهات أى أنها « لغة مثقفة »
« لغة إنشاء وتفكير » للشخص الذى يكتب بها . ومن المحتمل أن أحد كتب
الأمثال القديمة^(١) على الأقل قد أنشئ في عهد الدولة القديمة في
خلال حكم الأسرة الخامسة (سنة ٢٧٠٠ ق . م تقريبا) وهذا هو
العصر المعروف لدينا بعصر المستوى العالى لفن التصوير على الخصوص .
ولكن يظهر أن الرقى التام للأدب المصرى القديم لم يبلغ غايته إلا في
العصر المظلم الذى يفصل الدولة القديمة عن الدولة الوسطى^(٢) ، وكذلك
في عهد الأسرة الثانية عشرة المشهورة (١٩٩٥ - ١٩٧٠ ق . م) .
وكتابات هذا العصر ظلت تقرأ في المدارس خمسمائة سنة ولم يجرؤ أحد أن
يحيد عن لغتها أو أسلوبها في الكتابة . والخاصية التى يمتاز بها هذا الادب
القديم ظاهرة في الولوج بالتمايز الممتازة ولاستطيع أن نسى ذلك تصنعا .
وحلاوة الالفاظ مع عذوبتها ، كانت تعد صناعة عالية لا بد أن يبذل
الإنسان جهدا ليصل إليها . ويشاهد كذلك أن هذا كان حقيقة ميل هذا
العصر من نقوشه التى طالما كان يقوم بتأليفها جماعة من المتعلمين ، فإنها
كانت تكتب بالأسلوب المزخرف .

ازدهار الادب
في عصر الاقطاع

وبعيد عن الصواب أن يقال إن كل مجهودات هذا العصر كانت
موجهة إلى تنميق الالفاظ فحسب ؛ فإن كتاب هذا العصر أقدموا على

(١) انظر الجزء الاول من ٣٩٩ الخ (٢) ثلاثة من أهم الكتب في الادب القديم .
وهي تماثيل الملك « مري كارع » وتعاليم دواوف وشكاوى الفلاح . كتبت في عصر الملوك الذين
حكوا مصر الوسطى والدلتا من عاصمتهم هراكليبوليس . ولا نعلم إلا الشيء اليسير عن هؤلاء
الملوك وهذا ما يجعلنا نظن أنهم لم يلعبوا دورا هاما في ترقية الشعب المصرى ولكن من
المحتمل أن الادب ازدهر في بلادهم وهذا رأى « بلاكان » أيضا وهو يلفت النظر إلى مستوى الفن
العالى في هذا العصر كما يظهر في مقابر « مير »

الكتابة فى موضوعات هامة ولم يجمعوا عن الخوض حتى فى المسائل العميقة .
ونلاحظ من جهة أخرى أن الديانة تأخذ مكانا ثانويا فى هذه
الكتابة ولا يكاد يذكر شىء فى هذه الكتب الأدبية عن كل الآلهة الذين
كان المصريون يهتمون بهم كثيرا على حسب الفكرة الشائعة عنهم . ومن
المحتمل أن الاعتقاد القديم كان مجرد وراثته عند الفرد المذهب ، فكان
لزما عليه أن يأخذ بناصره ظاهرا ، وكان يرضى نفسه فى عالم فكره
بالفكرة غير المحدودة « الله » .

فكرة الوجدانية
عند المصرى

وليس قصدنا أن نفرض النظر عن الحقيقة الواقعة وهى أن جزءا عظيما
من هذا الأدب القديم قد ضاع ؛ وليس معنى هذا أنه لم يكن للمصريين
أدب فقد وجدنا أمثلة كثيرة . وعقيدتنا أن الضائع منها أكثر ، وما وجدناه
يرجع الفضل فى عثورنا عليه إلى المصادفة المحضة ، فقد وجدنا بعضه فى قبور
التلاميذ مدفونا معهم . على حين أن كتبنا من نوع آخر كانت تحفظ مع الأحياء
فيدركها العفاء .

ومما يكن من أمر فإن المدارس لم يقل شأنها فى العصر الثانى
للأدب ، وهو عصر الدولة الحديثة الأخير (حوالى ١٣٥٠ ق . م .) .
وقد نما هذا الأدب الحديث مضادا للأدب القديم فإنه إلى هذا
الوقت كانت لغة الآداب القديمة هى لغة الأدب فى كل القرون ، وغاية
ما حدث أن اقتربت من لغة المحادثات فى الوثائق الحيوية أو فى القصص
الشائع (١) وأخيرا أصبح الفرق بين اللغتين عظيما إلى حد أن اللغة

(١) من ذلك قصة الملك خوفو والسحرة . وسيلاحظ القارىء سهولة لغتها حتى فى الترجمة .

القديمة لم يعرفها أحد من عامة الشعب (١) . غير أن هذه القيود قد حلت في عهد الثورة الدينية العظيمة التي حدثت في أواخر عهد الأسرة الثامنة عشرة أيام « امنحوتب الرابع » ؛ فقد بدأ القوم يكتبون الشعر بلغة العامة . وقد كتبت بهذه اللغة « انشودة الشمس » الجميلة وهي عبارة عن منشور للإصلاح الديني . وقد اختفى كل جديد أدخل على هذا النظام الدائع بعد انهياره اللهم إلا نظام الكتابة بلغة العامة فإنه كتب له البقاء وذلك — بلا شك — لأن الأحوال التي استمرت إلى هذا الوقت قد أصبحت بقاؤها مستحيلا . وفي عهد الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين ازدهر أدب قوى مكتوب باللغة الجديدة التي نسميها « المصرية الجديدة » . وفي عصر « المصرية الجديدة » كان كذلك للمدارس القديح المعلى ولكن كتاباتها في ذلك العهد اتخذت صيغة أكثر حياة مما كانت لها في العصر القديم . وهذه الحيوية تظهر بوضوح في أدب هذا العصر إذ رأى الناس الدنيا كما هي وشغفوا بها ، وعلى قدر ما وصل إلينا من كتاباتهم يلاحظ أن الأفكار العميقة ليس لها محل في أدبهم ، على أنه من الجائز أن كشفاً جديداً قد يصحح حكمنا من هذه الناحية .

ولم يستمر الأدب المصرى الجديد طويلا في طريقه باستعمال لغة الشعب كما بدأ حقيقة (كما كنا نظن) إذ سرعان ما أخذ الكتاب يبخثون وراء تهذيب العبارات ، وهذه كانت علامة ظاهرة في الأدب القديم . وقد أصبحت لغة الفرد المذهب محلاة بالفاظ وجمل متقاة ، وكان

ظهور اللغة العامية
والكتابة بها

(١) ولولا أن كتابة الكلمات المصرية مهمل فيها كل الحركات الشكالية لظهر أماننا الفرق عظيما جدا كما يمجده القارىء الحديث بين اللغة الايطالية واللاتينية أو اللغة العربية الفصحى واللغة العامية .

تنسيق العبارات
واستعمال ألفاظ
أجنبية

يجد سروراً في تزيينها بألفاظ أجنبية . وقد بقي هذا النوع من الأدب يهذب نحو خمسة قرون على ما يظهر ثم أصبحت لغته منعقدة ، وكان على الأولاد في المدارس أن يتعلموها ؛ وبذلك يظهر أنه قد قضى على الحياة الأدبية في مصر الآيلة إلى السقوط وقد بقي الحال كذلك عدة قرون إلى أن ظهر أدب جديد يسمى بالديموطيقى .

قد تكلمت فيما سبق عن الكلمات الأجنبية التي كثرت في كتابات العصر الأخير من الدولة الحديثة ، وكلها تقريباً مستعارة من لغة أهل فلسطين وهي ترينا كما نعلم من مصادر أخرى العلاقات الينة بين مصر وفلسطين ويمكننا حينئذ أن نفرض أن « كنعان » قد تأثرت بمصر من ناحية الأدب كما تأثرت بها من ناحية النحت . ولا شك في أنه لو وصل إلينا شيء من الأدب الفينيقي لرأينا فيه التأثير المصري ؛ ولكن نرى في الأدب العبراني - وإن كان يقع في عصر متأخر بكثير عما نحن بصده الآن - عدة أشياء تذكرنا جلياً بنوع من الكتابات المصرية كما في المزامير ونشيد الإنشاد في الأدب الحكيم عند العبرانيين . ومن المحتمل أن متشابهات من هذا النوع يمكن اقتفاء أثرها على الأقل من طريق غير مباشر بمايائلها في اللغة المصرية وإذا كانت الحال كذلك فليس من البعيد أن نكون قد تأثرنا نحن أنفسنا بالحياة العقلية المصرية .

العلاقة بين الادب
المصري والادب
العبراني

الكتاب المتعلمون

نجد من أقدم المصور فجوة عميقة تفصل المصري المتعلم تعليماً راقياً عن عامة القوم . وقد وجد ذلك عندما اخترع المصريون الكتابة لأن الفرد الذي

كان يظهر البراعة فيها كان يحوز قصب السبق على إخوانه مهما كان مركزه في الظاهر حقيرا فإن الحاكم نفسه لم تكن له أهمية وقتئذ بدون مساعدة كتابه ، ولذلك كان لكبار الموظفين في الدولة القديمة سبب قوى في جبههم لتمثيل أنفسهم في هيئة الكتاب ؛ فقد كانت الكتابة هي المهنة التي وصلوا بها إلى مراكزهم وقوتهم . وكانت الطريق مفتوحة إلى كل وظيفة للشخص الذي تعلم الكتابة وعرف كيف يعبر عما في ضميره بألفاظ مختارة مهذبة .

أهمية الكتابة
والكتاب في المجتمع
المصري

وعلى ذلك فشا بين الكتاب نوع من الفطرسه والكبرياء والاعتزاز بطائفتهم . ويظهر هذا واضحا جدا في الأدب القديم الذي كونه ويجب أن توسم هذه الطائفة بالاحترام لأنها وضعت مثلا أعلى للموظف العظيم . فكان واجب الموظف أن يكون محايدا ، وأن يكون الشخص الذي يحول دون عبث القوى بالضعيف ؛ والحاذق الذي يعرف كيف يجد سبيلا حتى بين أعقد المصاعب ؛ والفرد المتواضع الذي لا يقذف بنفسه قط إلى الأمام ؛ ومع ذلك فإن آراءه يؤخذ بها في مجلس الشورى . وكل كتابة أو قول له يجب أن يميز عن العامة . بهذه الروح كان الكتاب يعملون جيلا بعد جيل كما أنشأوا الشباب من أبناء طائفتهم على هذه المبادئ نفسها . وفي عهد الدولة الحديثة بقي الميل إلى البيروقراطية ومدارسها كما كان من قبل ، وعلى الرغم من كل الخلافات الظاهرة فإن رسائل المعلمين لم تعظ بشيء غير ما وعظت به كتب الحكمة القديمة . وليس هناك فرق إلا أن تعليمهم كانت مستورة تحت ثوب أكثر حذقا وإن ما تنطوى عليه مرامهم من الكبرياء كان أكثر تجسما في هذه الكتابات منه في أي وقت آخر .

المغنون والقصصيون

مما لاجدال فيه أن الكتاب المتعلمين قد أنشئوا الأدب المصرى ،
غير أنه كان فى حيز الوجود قبلهم أفراد يمارسون فنا أقل من قتهم
وكان لهذا الفن تأثيره على الأدب .

وكل من له اتصال تام بالمصريين فى عصرنا لا يسهه إلا أن يحمل معه ذكرى
غناء الفلاحين والبحارة تتجاوب فى الحقل الخضراء وعلى مياه النيل
الصفراء اللون . ولسنا نعرف إذا كان هذا الغناء الخاص الذى
يخرج من الأنف يرجع إلى الوراثة من الزمن القديم ، ولكن الشعور
بلذة الغناء يرجع بلا شك إلى الوراثة . فكل من الفلاح وصاحب المهنة
فى مصر القديمة كان يستعين على عمله الشاق بغناؤه المتواضع حتى لقد كان
الغناء يعد جزءاً من العمل الذى يقوم به العامل ؛ يدلنا على ذلك أن المثال
عند تمثيل ما يريده كان يضيف الأغنية إلى الصورة الممثلة . وسنورد أمثلة
من هذه الأغاني فى العصور المختلفة فى المقام المناسب . ومن سوء
الحظ أن الأغاني التى كان يغنيها فائزات القيان فى حضرة سادتهن لم
توجد ممثلة معهن ونشاهد فقط أن طائفة من البنات يغنين وفقاً لحركات
أخريات يرقصن ؛ ولا يبعد أن تكون تلك الأغاني ساذجة بريئة
كالأغاني التى كان يتغنى بها العمال . ونشاهد فى كل العصور مغنين مكفوفى
البصر (١) . وليس هناك شك فى أن هؤلاء التعمين كانوا يحترفون الغناء .
وكذلك كان هناك نساء اتخذن الغناء حرفة لهن ؛ وفى نهاية الدولة الحديثة
— فى قصة — « سياحة ونامون » سنشاهد مغنية مصرية فى سوريا عملت

حب المصرى للغناء
والموسيقا

نمرا الحضارة
المصرية بالفن

(1) See, e. g, Blackman, Rock Jombs of Meir, II. pl. 12 f.

على نشر الحضارة المصرية من هذه الناحية .

وإذا كان كل من المغنى والمغنية قد وجد له مكانا فى المناظر التى كانت ترسم على القبور ، فإننا نحاول عبثاً أن نجد القصصين ممثلين . ولا عجب فى ذلك فإن القصصى لا يعرض سلعته فى بيت الأمير الشريف ، ولا فى حقله بل كان يقص حكاياته على عامة الشعب وعلى قارعة الطريق ، و حياة الطرق لم تمثل فى المقابر . ولا شك فى أن القصصى فى الزمان القديم كان يتمتع سامعيه كما يتمتعهم الشاعر المصرى فى أيامنا هذه .

ولدينا قصص للعامة من كل عصور التاريخ تدل نعمتها ومحتوياتها على أنها من أصل قديم وإذا كان قصص الروائيين الحاليين تدور حول شخصية تاريخية مثل « الظاهر بيبرس » والخليفة « هرون الرشيد » ، فإن القصص القديمة كذلك لها علاقة بأشخاص لهم شهرتهم فى التاريخ فلدينا قصة من العصر المسيحى فى مصر خاصة « بقمبيز » ولدينا قصة من العصر الأغريقى عن « قطاناب » ، وقد حفظ لنا هردوت مما كتبه حكاية ممتعة عن « رمبزينتس » ، وفى الأوراق البردية الديموطيقية نقرأ قصة الملك يتوبستس وحكاية رئيس الكهنة خاموس وفى نهاية الدولة الحديثة نجد قصة الملك « تحتمس الثالث » وقصة ملك الهكسوس « ابوفيس » ومن أواخر الدولة الوسطى نقرأ قصص الملك « خوفو » .

انتشار القصص فى
كل عصور التاريخ
المصرى

وقد نجد أمثال هذه النعمة الساذجة والتى قد تكون مبتذلة أحيانا ظاهرة فى كثير مما خلفه لنا المصريون فى خرافاتهم الدينية كأسطورة « إزيس » ، وخرافة إله الشمس المسن ورسوله الثمل (١) ، وإلاهة التى

(١) كان كتاب الدولة الحديثة يفصلون الجمل بعضها عن بعض بواسطة نقط حمراء وكانوا يستعملون هذه النقط أيضا فى النصوص النثرية كنقط وقف .

لم يمكنها العودة ثانية إلى مصر. ويخيل إلينا أن هذه القصص كأغنا وصلت على يد أفراد عرفوا ميول العامة وأذواقهم . على أنها وإن . كانت قد وصلت إلى الدخول في الدين بهذا الشكل العامي فإن ذلك يمنع من أنها عامة الأصل .

أوزان الشعر

كل ما يكتبه المصرى بلغة عالية يقع في أسطر قصيرة متقاربة الطول ولو أننا لانعرف شيئاً عن نغماتها إلا أننا نرجح كثيراً اعتبار هذه الاسطر أبيات شعرية منسوبة إلى وزن من الأوزان الشعرية . ولاشك في أن هذا صحيح في كثير من الأحوال ومحقق في الحالات التي يكون فيها على الدوام عدد محدود من الأسطر تتوازن معاً كما ثبت ذلك المعنى . ويكون عدد الأسطر عادة ثلاثة أو أربعة كما ترى فيما يأتي :

انت تنزل في سفينة من خشب الصنوبر ،
تتحرك من المقدم الى المؤخر ،
وتصل الى قصرك الجليل هذا ،
الذى بنيت له نفسك ،

فك مفعم بالنبيذ والجمعة ،
والخبز واللحم والفطير ؛
وتنزع التيار وتفتح أبواب النبيذ ،
والغناء الحسن أمامك .

ورئيس مضحكك يضحكك بمطر « كى » ،
وساقبك يحمل تيجان الازهار ،
ورئيس فلاحيك يقدم الدجاج ،
وصيادك يقدم السمك .

وكثير من أمثال هذه الأشعار تمتاز مقطوعاتها بأن كل منها تبتدىء
بكلمات مشتركة في الكل . فمثلا في « مناظرة بين إنسان سم الحياة
وبين روحه » نجد ثمانية المقطوعات المركبة منها الأغنية الأولى تبتدىء كل
مقطوعة منها بما يأتي : « انظر إن اسمي ممقوت » ومقطوعات الأغنية
الثانية تبتدىء بما يأتي « لمن أتكلم اليوم ؟ » الخ
وفي أنشودة النصر « لتحتمس الثالث » نجد رابطة المقطوعات بعضها
بعض في الحقيقة مزدوجة لأن السطر الثالث من كل مقطوعة يبتدىء
بألفاظ واحدة أيضا ، فالأسطر الأولى تبتدىء بما يأتي : « إني قد أتيت حتى
أجعلك تطأ » والسطر الثالث يبتدىء بما يأتي : « إني
أريهم جلالتك » أما كل من السطر الثاني والرابع فبدايته
ليست مقيدة . .

غير أن هذه البدايات المتشابهة توجد كذلك في متون فقراتها
مختلفة الطول ، وعدد سطورها ليس واحدا . ويمكن أن نعتبر هذه
الفقرات غير المنتظمة مقطوعات ليست مقيدة في تركيبها . ولا بد من أنه كانت
هناك مقطوعات كهذه في الشعر ليست مقيدة في تركيبها ولا تظهر كأنها
شعر لعدم تماثل الكلمات التي تبتدىء بها كل واحدة منها . وظاهر هنا
أننا لازلنا نلمس الحقائق في ظلام دامس ، ومن المحتمل أننا سنبقى دائما
هكذا ، إذ أن السؤال الذي يتوقف عليه كل شيء لا يزال غامضا لدينا
ولا يمكن الجواب عليه أعنى : ماهو الوزن الذي كان يتبعه المصري في
صناعة الشعر ؟

الشعر غير المقفى

هذا السؤال لا يمكننا أن نجسر على الجواب عليه بأي فرض كان

وإذا فرضنا كما هو محتمل من الوجهة النحوية - أن كل كلمة في اللغة سواء أكانت اسما أم نعتا أم فعلا الخ - لها حركة خاصة فإنه ينتج من ذلك أن كل بيت من الشعر لابد أن يكون فيه من حركتين إلى أربع حركات ؛ وبذلك تكون أبيات الشعر عندهم حرة في نغماتها وليست مقيدة بوزن . ومما يؤيد هذا الفرض أن مصري العصر المسيحي (الأقباط) كانوا ينظمون شعرهم بهذه الطريقة الخالية من القيود الوزنية مثل :

رجل آخر يذهب الى الخارج
يمكث سنة ثم يعود الى بيته
ولكن « ارشليت » قد ذهب الى المدرسة
وما عدد الايام حتى أرى وجهه .

ولابد أن المقطوعات الشعرية المصرية المركبة من أربعة أسطر كانت تشبه في نغماتها الرباعيات القبطية . على أن أمثال هذه النغمات الخالية من القيود الوزنية كانت تقرر كذلك في ظرف آخر . ذلك أنه حينما يكرر بيت من الشعر مثلا في أول المقطوعة فإنه يمكن وضع جملة أطول بدلا من اسم فردى ، فبدلا من « أوزير يستيقظ بسلام » الذي تبتدىء به المقطوعة الأولى فإنه يمكن أن يتغنى في الثانية « الباقي أبديا ؛ رب المأكولات الذي يعطى مايقوم الحياة لمن يحب ، يستيقظ بسلام » ، ولشعرهم ميزته الخاصة ، وهي العادة الغريبة في بابها التي تعودنا أن نطلق عليها « توازن أجزاء الجملة » فليس بكاف أن يعبر الشاعر عن فكرة مرة واحدة بل يجب أن يعبر عنها مرتين ، وعلى ذلك نجد جملتين قصيرتين ، معناهما متشابه أو واحد : تتبع احدهما الأخرى مثال ذلك : « القاضي يستيقظ » ، « تحوت يجلس » ، أو : « ثم تكلم هؤلاء

السبب في عدم
امكان معرفة
أوزان الشعر المصري

تكرار المعنى
بألفاظ مختلفة

أصدقاء المسك » ، « وأجابوا أمام إلههم » . ففي كل من المثليين يلاحظ أن الجملة الثانية مرادفة لما قبلها ولا فائدة منها . مثال آخر : « وهم الذين يدخلون في هذا القبر » ، « وهم الذين يشاهدون ما فيه » حيث نجد أن التكرار يحدث فكرة جديدة .

والسبب في التعبير بهذه الطريقة هو الغرام بزخرف القول فإن المتكلم يشعر بأنه يمكنه أن يستعمل جملة ثانية في معنى ما نطق به أولاً ، وعلى ذلك لا يسهه إلا النطق بها في الحال مرة أخرى في شكل جديد . وعلى مر الأزمان أصبحت هذه طريقة مقررة في الكتابة ، إذ كانت تعد حلية طبيعية للكلام الراقى ، وقد عودنا كتاب العهد القديم هذا النوع الغريب من التعبير لأنه كان سائداً عند العبرانيين والبابليين ولذلك لم يدهشنا ذلك كثيراً في التون المصرية . وتقدر تماماً غرابة هذه الطريقة في التعبير بمجرد تحويل قطعة من شعر آخر إلى هذا الأسلوب المصرى .

وعلى أية حال فإن هذا التوازن أو الترادف في الجمل لم يوضع قط يوماً من الأيام ليكون قالباً ثابتاً للشعر ، ولكنه بقى دائماً مجرد حلية لفظية كان من المحقق أن تستعمل بدون أى تحفظ في الوقت الذى يريد الشاعر فيه أن يعبر عما في ضميره بلغة عالية .

استعمال المترادفات
في لغة الشعر وسببه

وقد أدى كذلك الشغف بتنوع الأساليب إلى عادة الإشارة إلى الشخص المدحوق في الأنشودة بأسماء جديدة وألقاب مختلفة . من ذلك « أنشودة الصباح » المترجمة فيما بعد ؛ فإن البيت الواحد منها يتنوع بهذه الطريقة إلى مالا نهاية له . ويظهر هذا مملاً وثقيلاً على آذاننا ، ولكن ذلك يرجع إلى أننا لم نذوق بعد أسرار المسميات المختارة ولم نفهمها بعناية

وهذا النوع من الأسلوب خاص كذلك بأناشيد المديح التي يمتاز بها الأدب
المصرى وهي تبدى باسم المدوح مسبقا : بجملة تعجب ، مثال ذلك :
« المديح لك ! » أو « التعبد لك ! » . ثم يتبع هذا نعوت محضة ،
وأسماء ، وأسماء أفعال ، وجل موصولة تنعت الفرد المدوح وتعيد إلى الذاكرة
جليل أعماله ^(١) وتستمر هذه النعوت تباعا بلا نهاية ومن غير ترتيب
ويظهر ذلك جليا حينما لا يعبر الشاعر ترتيب هذه النعوت المتتابعة في ذهنه
آية أهمية . ومن ذلك يستخلص أن الشعر المصرى على وجه عام ليس له معنى
ومن يقرأ « تحذيرات نبى » ^(٢) التي يصف فيها يؤس زمانه فإنه يدهش
حينما يرى أن هذا الشاعر لم يبذل أى مجهود فى ربط كلامه بعضه ببعض
بطريقة منسجمة . فهو شاعر ، قلبه مفعم بيؤس بلاده فينفجر قلبه حينما بهذه
الشكوى ، وحينما بتلك . وعلى ذلك يمكن فهم أناشيده من هذه الناحية .
ولكن الإنسان إذا أنعم النظر فى جملة ما رآها شيئا مخالفا ؛ لذلك فالرجل
يتكلم على البديهة ، وعلى ذلك فكل كلمة استعملها فى آخر البيت الذى
قاله تحدد به إلى فكرة أخرى جديدة ليس بينها وبين سابقتها علاقة
فيعبر عنها فى الحال . وإليك مثلا : يقول الشاعر أن كل شئ مفعم
بالحياة حتى الأطفال الصغار ، وعند ذكر الأطفال يحضر فى ذاكرته أن
الأطفال يقتلون ويلقى بهم على تلال الصحراء ، ثم تذكره تلاع الصحراء
بالموميات التي تتزع هناك من القبور ويلقى بها عليها .
ويجب قبل أن نختم هذا البحث أن نذكر حليتين أخريين كان

(١) نجد مثلا لأناشيد المديح فيما بعد بين الاشعار الدينية فى العصر القديم .

(٢) جزء أول ص ٤٠٠ الخ .

المصريون مولعين بتزيين كلامهم بهما . وليس حتما علينا أن نعددها خاصيتين
مميزتين للشعر المصرى وهما الجناس ، وبداية الكلمات بحروف واحدة .
أما الجناس فكان أسلوباً محبباً لدى المصريين . وقد وجدت طقوس
دينية قديمة جداً لتقديم القرابين لوحظ فيها الجناس فى كل اسم من أسماء
مواد الطعام واستعمل الجناس كذلك بنظام فى قصيدتين من أدب الدولة
الحديثة قد دوتنا فيما بعد^(١) غير أن هذا الجناس لا يمكننا وصفه فى الترجمة .
وفى المصور التى نحن بصدددها الآن لا نلاحظ حالات الجناس الحرفى
إلا من وقت لآخر . مثال ذلك يتان من الشعر يشيران إلى
« أمنحوتب الثالث » : « حاربت عصاه بلاد النهرين ، وأخضع قوسه
السود » .

الجناس فى الشعر
المصرى

ولابد أن الأشعار التى تبتدىء كلماتها بحروف متجانسة وجدت
فى ذلك الوقت ، وإلا فكيف حصل المصريون فى العصر اليونانى
- الذين لم يكونوا مطبوعين على التجديد - على نموذج أشعارهم التى
تبتدىء كلماتها بحروف متشابهة وهو النموذج الذى كانوا يميلون إلى استعماله
فى نقوش معابدهم ؟ وقد كان رجال الدين فى ذلك العصر يجدون لذة
فى ذكر كلمات تبتدىء بحروف متشابهة فى الجملة الواحدة . واستعمال مثل
هذه الأساليب يمكن أن يعزى أيضا إلى الدولة الحديثة .

(١) أنشودة غرام ، والشعر الخاص بالمركمة الحرية

مختارات من أدب الدولة القديمة أمثلة من الشعر

لم تكشف لنا الآثار حتى الآن عن أى نوع من الأغاني والأشيد والأحاديث المنظمة من عهد الأسرة الأولى، ولكن رغم ذلك يجب أن نسلم بأنها كانت موجودة. والواقع أنه يوجد كثير من التراكيب الشعرية فى لغة العصر التاريخى مما ترجع نغماته إلى العصر السحيق على أنه لم يبق لنا من هذا الشعر القديم إلا النزر اليسير، وهو على قلته لا يكشف لنا عن عذوبة الشعر الفطرية : لأن ما لدينا منه ينحصر فى صيغ وأناشيد دينية ومع ذلك فإن الطالب المصرى الذى يعرف كيف يقرأ ذلك الشعر الدينى يمكنه أن يأخذ فكرة عامة عن حقيقة الشعر الدينى المقابل له — فهو شئ مختلف جد الاختلاف عما يصوره لنا أدب مصر فى عصر ازدهاره عند ما كان غنيا بنغماته وقوافيه . ولقد كان التعبير فى هذا الشعر القديم حيا ساذجا، وكانت الأفكار متقلة غير مستقرة، وكانت الضمائر فى هذه المتون تتغير فجأة من استعمال إلى استعمال وكل هذا يدل على طرافة الشعر وجدته — وإذا تفاضينا عن سذاجة هذه الصيغ القديمة وغرابتها فإننا نستطيع أن نكشف الغطاء من حين لآخر عن روح شعرية فطرية قل أن نجد لها فى عصور أخرى أكثر تهديبا .

منتخبات من متون الاهرام

تكلمت عن متون الأهرام والغرض منها فى الجزء الأول ص ٣٥٧ الخ

وهذه المتون تهتم اهتماماً خاصاً برغبة المتوفى العظم (الملك) في الابتعاد عن تمضية حياة مظلمة في العالم السفلى، فإن هذا العالم هو مصير المتوفين العاديين، أما المتوفى الأعظم فإنه يعيش في السماء كما تعيش الآلهة وهناك يمكنه أن يسبح مع إله الشمس في سفينته أو يسكن في حقول المنعمين أو يمرح في حقول قربان الطعام أو حقل « يارو » ؛ ومن الممكن أن يصير نفسه إلهاً وقد اقتن الشعراء في تصوير هذا الدور كما شاء لهم خيالهم فلم يكتفوا بتصويره (الملك) في أروع مظاهر الاستقبال من الآلهة بل رفعوه إلى مرتبة الغزاة الفاتحين لعالم السماء.

وتتصل بهذه الأفكار فكرة أخرى لها علاقة بالإله أوزير الذى يعتبر المثل الأعلى للموتى من بنى الإنسان فقد قتل مرة ثم أعيد إلى الحياة وصار حاكم الأموات وهو بهذه الكيفية يعتبر في متون الاهرام أنه ساكن في السماء .

ولغة متون الاهرام عتيقة ولا يزال فيها محفوفاً بصعوبات عظيمة إذ تشير إلى حوادث وأساطير ليست معلومة لنا وبخاصة الأساطير الدينية .

١ — **سباحت المتوفى الى السماء :** (١) إن الطائر يطير ! إنه يطير بعيداً

عنكم أنتم أيها الناس . ولم يعد بعد على الأرض فهو في السماء .

وأنت يا إله مدينته أن روحه (كا) (٢) بجانبك وهو يندفع إلى السماء مثل

الواق (اسم طائر ،) ويمطى السماء مثل الصقر ، ويتهاذى نحو السماء كجرادة . (٣)

(١) من فصل ٤٦٧ من متون الاهرام (٢) وقد سميتها الروح المادية (٣) هذا التشبيه الساذج قد حفظ في متون هرمين غير أنه لم يعجب ذوق الناشر المثقف الذى كان يحضر متون هرم « بيبي » فوضع بدلاً من الجراد « حور أختي » آله الشمس وبذلك أفسد المعنى ، غير أن هذا الوضع كان يتفق مع ذوق الملك المتدين أكثر من مقارنته بجرادة

ب — ومنها^(١) : ما أسعد الذين يشاهدونه متوجا بتاج « رع » !
ومثزه عليه كنزر « حتحور » ، وريشه كريش صقر . وهو يصعد إلى
السما بين إخوانه الآلهة .

ج — ومنها^(٢) : إن قلبك معك يا « أوزير » ومعك قدمك يا
« أوزير » ؛ ومعك ذراعاك يا « أوزير » . وإن قلبه معه ، ومعه قدماه ،
وذراعاها معه^(٣) لقد أقيم له منحدر إلى السماء ليصعد عليه إلى السماء^(٤)
إنه يصعد على دخان البخور العظيم .

إنه يطير كطائر ، ويحط كجمل في مقعد خال في سفينة « رع » :
قف ، اخرج إنك بدون حتى يجلس في مكانك^(٥)
إنه في السماء - يجدف في سفينتك يا « رع » . وينزل على الأرض
في سفينتك يا « رع » .

وعندما تكون فوق الأفق ، فإنه يكون هناك ، وعصاه في يده كملاح
سفينتك يا « رع » . إنك تصعد إلى السماء بعيداً عن الأرض ،
د — ومنها^(٦) : استيقظ أيها القاضى^(٧) ! يا « تحوت » ، أنهض !
استيقظوا يانيام ! تحركوا يامن في « كنست » !^(٨) أمام الأنيس العظيم

(١) فصل ٣٣٥ من متون الاهرام (٢) فصل ٢٦٧ من متون الاهرام
(٣) كما ان جسم « أوزير » لم ينقص منه شيء فكذلك كان حال التوفى .
(٤) في عصرنا يعمل سلما من خشب أما في عصر قدماء المصريين فكانوا يبنون
منحدرات من اللبن للصعود عليها وذلك لقلة الخشب في مصر (٥) أى أنه يسبح
كجدف في قارب الشمس ، واكراما له يخرج « رع » أحد الآلهة من مكانه ليحل التوفى محله
(٦) فصل ٢١٠ من متون الاهرام (٧) اسم آله القمر « تحوت » الذى كان يفعل في
المحرمات بين الآلهة (٨) شمالى بلاد النوبة ، غير أنه من المحتمل هنا أنه يقصد بها مكانا
في السماء . والواقع أن المصريين كانوا يمتقدون أن عالم الآخرة كعالم الدنيا في أسمائه وشكله وصفاته

(طائر مائي) الذى ارتفع من النيل ، ولأجله ابن آوى الذى خرج من شجرة الأثل (١) .

إن فيه لطاهر ، وإن تأسوعى الآلهة قد بجراه ، وإن لسانه الذى فى فيه طاهر ، إنه يكره الروث ويعاف البول (٢) وهو يكره ما يكره . وهو يكره هذا ولا يأكل هذا

وأنما أيها التويمان اللذان يسيحان فى السماء : « رع » و « تحوت » (٣) خذاه إليكما ليكون معكما : حتى يأكل مما تأكلان ؛ ويشرب مما تشربان وحتى يعيش مما تعيشان وحتى يسكن حيث تسكنان ؛ وحتى يصير قويا بما يجعلكما قويين ؛ وحتى يسيح هناك حيث تسيحان .

إن كوخه قد أقيم فى « حقل يارو » ومرطباته فى حقل « قربان الطعام » . ومأكولاته معكما أيها الإلهان ، وشرابه كشراب « رع » إنه يحيط بالسماء « كرع » ويحترق السماء « كتحتوت »

هـ — المتوفى بظفر على السماء (٤) : « إن فى السماء شجارا ، وإنا لنرى شيئا جديدا » هكذا تقول الآلهة الأولى (٥) .

وتأسوع (٦) « حور » يهر ، وإن أرباب الأشكال لفى ذعر منه .

(١) كان المتوفى يظهر فجأة على هيئة عصفور يطير ، وعلى هيئة ابن آوى يتسلل الى الخارج .

(٢) كان المصرى الاولى يمقت كل المقت أن يضطر الى أكل برازه بعد الموت (٣) الشمس

والقمر (٤) فصل ٢٥٧ من متون الاهرام (٥) التى تشاهد الشجار (٦) التأسوع

(بسجت بالمصرية القديمة) هو اسم لآله الشمس والآلهة الثمانية التى تعد فى الاساطير

المتفق عليها أنها أولاده وأحفاده وأولاد احفاده : شو وتفنوت ، جب ونوت ثم الاحوان

والاختان أوزير وست وإزيس ونفتيس . وزيادة على ذلك كان هناك تأسوع آخر

على رأسه حور فثلا نرى فيما بعد وفيما سلف أيضا التأسوع المزدوج أى أن التأسوعين

قد ذكرا متضمنين الى بعض .

وكلا التاسوعين يخدمه ؛ وهو يجلس على عرش رب العالمين
والسموات مطويات يمينه ، وهو يشق معناها (١) ، ويرزف في طريقه
إلى « خبر » ويغيب حيا في الغرب ، وسكان العالم السفلى (٢) يتبعونه
ويشرق مجددا في الشرق .

وذلك الذى فصل فى الشجار (٣) يأتى إليه مطأطئ الرأس . والآلهة
تخافه لأنه أكبر سنا من « الواحد العظيم » إنه صاحب السلطان على
مكانه . وهو الذى يقبض على القيادة (٤) . والأبدية تجلب إليه .
والحكمة (٥) موضوعة له عند قدميه . صح له عاليا فرحا فانه قد استوى
على الأفق

و — المتوفى يلتمس الآلهة : (٦) إن السماء محجبة بالغيوم
والنجوم تمطر (؟) والاقواس تتحرك للرعى ، وأوصال آلهة الأرض
ترتعد (٧) حينما تشاهد كيف يظهر فى شكل واضح كآله
يعيش على آباءه ويأكل أمهاته . إنه رب ال . . . الذى لا تعرف

(١) الذى يتكون منه السماء وما يلى يصف كيف أن المتوفى يقوم بالسياحة اليومية

مع الشمس فى مجراها (٢) العالم السفلى أو السماء السفلى . (٣) الآلهة

« تحوت » مستشار آله الشمس (٤) الكلمة المصرية « حو » وهى تمثل مظهر

القوة الملكية التى تتجلى فى الكلمات التى تخرج من فم الملك

See A. H. Gardiner, Proceedings of the Society of Biblical Archaeology, XXXVIII. p. 49)

(٥) أى الحكمة التى يحتاج إليها للحكم

(٦) فصل ١٧٣ - ١٧٤ من متون الاهرام . ترجمة :

J. H. Breasted, Development of Religion and Thought in Ancient Egypt, p. p. 127, 129; R. O. Faulkner, Journ. of Egypt. Archaeology, X. p. p. 97, 103.

(٧) أى أن العالم بأجمعه فى اوتباك بسبب الخوف منه . والاقواس هى جزء من السماء .

أمه اسمه (١). له الفخار في السماء ، وله القوة في الأفق مثل «آتوم»
والده الذى ولده ، وقد ولده ولكنه (المتوفى) أقوى منه . أرواحه
حوله وصفاته تحت قدميه ؛ وآلهته فوقه وصلاله على حاجبه وحيته (٢)
فوق جبهته : وقواه تحميه . إنه ثور السماء ، وقلبه ميال إلى
النطاح ؟ وهو الذى يعيش على حياة كل إله ، وهو الذى يأكل أعضاءهم
عندما يكونون قد ملثوا بطونهم بالسحر في جزيرة «نيسيسى» (٣)
وهو يظهر هكذا الواحد العظيم رب الخدم الإلهية وهو يجلس
وظهره إلى «جب» (٤) . وهو الذى ينفذ الحكم مع من خفى اسمه في يوم
ذبح المسنين (٥) . وهو رب طعام القربان الذى يعقد الحبل (٦) ويهيئ طعامه .
وهو الذى يأكل الناس ، ويعيش على الآلهة ، ويملك الحمالين ،
ويرسل الرسل (٧) . وهو الذى يلقف سحرهم ويتلع سيادتهم . فالكبار
منهم غذاؤه في الصباح ، والمتوسطون حجبا وجبته في المساء ، وصغارهم
أكلته في الليل . والمسنون من رجالهم والمسنات من نسائهم قد حصصوا
لبخوره (٨) والعظماء الذين في شمالى السماء يوقدون له النار تحت القدور
ووقود هذه النار أفخاذ المسنين (٩) وسكان السماء يخدمونه ، وقدور الطبخ
تمسح له بسيقان نسائهم .

(١) لانه إله أرفع مرتبة منها (٢) أى الحية التى تسمى الصل وهى شارة الملك
التي كان يعتقد فيها أنها تحرق أعداءه . (٣) من المعتقدات المعروفة أن آكل
لحم الانسان كانوا يعتقدون أنهم يأكلهم لحم أعدائهم يكتبون قوتهم أما جزيرة نيسيس
فإنها تذكر كثيرا في الحرافات المصرية (٤) إله الأرض (٥) الذين حكمت
عليهم المحكمة بالاعدام . (٦) يحتل أنه الحبل الذى يوقع به فريسته للذبح
(٧) كان له خدمه الذين ذكروا بأسماء غريبة في القطعة التى تلى هذا في متون الاهرام .
(٨) أى أنهم كانوا يحرقون كبخور . (٩) أى أنها كانت تستخدم وقوداً .

وقد أحاط بالسمايين جميعا وقد اخترق شاطئ النهر . وهو « الواحد القوى » صاحب السلطان على الأقوياء وإنه لياكل من يعترضه نيئا (؟) ، ومكانه فوق رأس الأشراف الذين فى الأفق . وهو إله أكبر من أكبر سنا . الأثوف تخدمه والمثات تضع له القرايين وقد منحه « أريون » (نجم) أب الآلهة عهدا بتعيينه واحدا عظيما قويا (١) وقد توج فى السماء من جديد ، وإنه ليلبس التاج ، كرب الأفق . وقد كسر عظم الظهر والنخاع الشوكى ، وقد اختطف قلوب الآلهة وقد أكل التاج الأحمر وابتلع التاج الأخضر وهو يعيش على رثات الحكماء ؛ ويرتاح لأن يعيش على القلوب وسحرها ويفرح حين يلتهم ال التى فى التاج الأحمر (٢) . وهو ينمو وسحرها فى بطنه وألقابه لم تقتصب منه . وقد ابتلع عقل كل إله .

مدة حياته الخلود ، وحدوده الأبدية إذا أراد فعل ، وإذا لم يرد لم يفعل ، وهنا تتجلى مكانته - وهو الواحد الداخلى فى حدود الأفق إلى أبد الآبدين . تأمل فان روحهم فى بطنه وسيادتهم معهم وإن فضلات طعامه تفضل طعام الآلهة وما يحرق له هو عظامهم وأرواحهم معه وظلالهم مع زملائهم ؟ (٣)

المتوفى يأتى رسولا إلى أوزير (٤)

(رجاء موجه الى النوتى (المعداوى) فى السماء لينقل المتوفى حيث يسكن أوزير) .

(١) مما يلفت النظر أن البيروقراطية تتدخل حتى فى وسط هذه الوحشية المتناهية

فالآلهة تاكل لحم الانسان يحتاج الى منحه عهدا ليعين فى وظيفة (٢)

كان للتيجان قوى خارقة للمادة (٣) الملقى غامض (٤) متول الأهرام فصل ٥١٨

أيها العابر إلى « حقل قربان الطعام » أحضر لى هذا !
أسرع إنه هو ! . إنه هو تعال ! هو ، ابن سفينة الصباح التى قد ولدته
على الأرض ، إن ولادته تامة لاتشوبها شائبة وعلى تمامها حياة الأرضين .
إنه هو بشير العام ^(١) يا « أوزير » انظر ، إنه يأتى برسالة من إليك
« جب » : محصول العام سعيد ، ما أسعد محصول العام ، محصول العام
حسن ، ما أحسن محصول العام !

لقد نزل مع التاسوعين إلى « نهر الماء البارد » ^(٢) وهو المنشئ
للتاسوعين ومؤسس « حقل قربان الطعام » ^(٣) . وقد وجد الآلهة .
منتظرين ، ملفوفين فى ملابسهم ، ونعالهم البيضاء فى أقدامهم . وعندئذ
ألقوا بنعالهم البيضاء على الأرض وخلعوا ملابسهم ^(٤) . « لم يهدأ لنا
قلب حتى أتيت » هكذا قالوا

مصير أعداء المتوفى

(من فقرة طويلة ^(٥) ؛ وهى خاصة بأعداء يريدون أن يقتصبوا
منه طعامه ونفسه)

إنه أقوى منهم حينما يظهر على شاطئ نهره . وقلوبهم تسقط بين
أصابعه ^(٦) . ويأخذ ممن فى السماء أحشاءهم وممن فى الأرض ^(٧) دمهم

(١) يظن أنه الشخص الذى يقدم تقريراً إلى سيده عن نتيجة المحصول كذلك
يحضر إلى أوزير رسالة سارة من إله الأرض « جب » ^(٢) اسم النهر
السماوى ^(٣) لا بد أن آلهة أنشأ هذا السكان للآلهة والنعمين وقد شبه
به المتوفى ^(٤) إشارة الفرح أو السرور وفى مصر الحديثة تخلع النسوة النعال
فى الأرياف علامة على الاحترام عند المرور بشخص عظيم فى قريتهن ^(٥) فصل ٢٥٤
من متون الاهرام ^(٦) أى يمزقهم ^(٧) الطيور والحيوانات المفترسة

الأحر . الفقر وربهم ، والماضى مساكنهم ، والنيل المرتفع ^(١) أبوابهم
(ولكنه) فرح القلب ، فرح القلب ، هو ، الواحد الأحد ثور السماء
وقد جعل الذين عملوا له هذا يفرون ، وقضى على خلفائهم .

الفرح بالفيضان ^(٢) : (من فقرة طويلة بعض الطول ومعناها
مبهم) ؛ يرتعش من يرون النيل في فيضان تام . والحقول تضحك
وشاطئا النهر يفيضان وقربان الإله ينزل ^(٣) ووجوه القوم مستبشرة ،
وقلوب الآلهة فرحة .

أناشيد الصباح

كان يرحب بالآلهة في المعابد في الصباح بأنشودة تشتمل — على
الأخص — على النداءات التي كانت تكرر دائماً « استيقظ في سلام »
ويتبع تلك النداءات في كل مرة اسم مختلف للإله ، وعلى ذلك كان
المفروض أن الآلهة كانت تستيقظ كذلك في السماء بهذه الطريقة نفسها
بوساطة آلهة أيضاً . وهذا يساعدنا على فهم كنه هذه الأنشودة وهي
الأغنية التي كانت النسوة يوقظن بها الملوك في الصباح في أقدم عهود
مصر التاريخية .

ويمكن أن يفرض الإنسان أن ألفاظا مثل « أنت ياملك ، أنت ياسيد
مصر ، أنت يارب القصر » قد حلت محل الاسماء الإلهية في النسخة
الأصلية للأنشودة ، وكانت تغنيها النساء بهذا الشكل أمام مسكن الإله
على وتيرة واحدة وبدون انقطاع ما أسعفتها الذاكرة المغنية بأسماء صالحة

(١) نيل مرتفع يغمر بمائه (٢) فصل ٥٨١ من متون الاهرام (٣) حتى الآلهة
ستحصل على طعام أكثر .

ا — إلى إله الشمس^(١) : استيقظ بسلام ، أنت يأيها الواحد
المطهر^(٢) ، في سلام ! استيقظ بسلام ، أنت يا حور الشرق ، في سلام استيقظ
بسلام ، أنت يأيها الروح الشرق ، في سلام ! استيقظ بسلام ، أنت يا « حور أختي »
في سلام ! أنت تنام في قارب الغروب ، أنت تستيقظ في قارب الصباح ،
لأنك أنت الذى تشرق على الآلهة ، ولا إله يشرق عليك !

ب — إلى الفصل الملكى^(٣) استيقظ في سلام ! يأيها الملكة العظيمة
استيقظ في سلام ؛ إن استيقاظك ممتلئ بالسلام . استيقظ في سلام !
يأيها الحية التى على حاجب (الملك الفلانى) ، استيقظ في سلام ؛ إن
استيقاظك ممتلئ بالسلام . استيقظ في سلام ! يأيها الحية الصعيدية ، في
سلام ، إن استيقاظك ممتلئ بالسلام . استيقظ في سلام ! يأيها الحية
البحرية ، استيقظ في سلام ، إن استيقاظك ممتلئ بالسلام . استيقظ في
سلام ! يا « رنوتث »^(٤) ، استيقظ في سلام ؛ إن استيقاظك ممتلئ بالسلام .
استيقظ في سلام ! يا « وزيت » صاحبة الفاخر ، استيقظ في سلام
إن استيقاظك ممتلئ بالسلام . استيقظ في سلام ! أنت يا صاحبة الرأس
المنتصبة ، وذات الرقبة العريضة^(٥) ، استيقظ في سلام ، إن استيقاظك
مفعم بالسلام . الخ الخ

(١) من متون الاهرام فصل ٥٧٣ (٢) الشمس تفصل نفسها عند خروجها
من الظلام . (٣) الحية التى توضع فى تاج الملك وتعد كآهة
(٤) إلهة الحصاد (٥) هكذا يصور الفصل الملكى

تعاليم « فتاح حتب »

بعد تعاليم « فتاح حتب » أقدم مصدر في أدب العالم صور لنا الخلق المستقيم والواقع أن حكمة « فتاح حتب » التي جاءت عن تجارب ملخص لنا كثيرا من الأدب الخلقى لهذا العصر وكما جاء في مقدمة هذه التعاليم نجد أن الوزير المسن قد شعر بضعف الشيخوخة وطلب إلى الملك أن يسمح له بتعليم ابنه (ابن الوزير) ليحل محله في وظيفته . ولما قبل الملك ملتس وزيره أخذ الأخير يحذر ابنه بالألا يسئ استعمال الحكمة التي سيقنه إياها بل ينتهج سبيل التواضع فقال : « لا تكونن متكبرا بسبب معرفتك ، ولا تتقن بأنك رجل عالم ، فتشاور الجاهل والعاقل لأن نهاية العلم لا يمكن الوصول إليها ، وليس هناك عالم يسيطر على فنه تماما . وإن الكلام الحسن أكثر اخفاء من الحجر الأخضر الكريم ، ومع ذلك فإنك تجده مع الإماء اللاتي على أحجار الطواحين » .

ثم يأتي بعد ذلك اثنتان وأربعون فقرة في نصائح مختلفة دون أي مجهود من المؤلف في ترتيبها أو تنظيمها بل كتب كلا منها عفوا حسبما كان يحضر ذهنه من تجارب الحياة ومسئوليتها . وسنكتفي هنا بذكر أهمها .
معاملة الخطيب : « إذا وجدت خطيبا في زمانه سليم العقل أمر منك فأثن له ذراعك وأحن له ظهرك . أما إذا تكلم هجراً فلا تقصرن حينئذ في مقاومته حتى ينادى به الناس : أنت إنسان جاهل .

ولكن إذا كان مماثلا لك فأظهر بصمتك أنك أحسن منه إذا أخطأ في الكلام ، وعندئذ سيدحه السامعون ولكن اسمك سيعتبر حسنا بين العظماء . »

أما إذا كان شخصاً حقيراً لپس ندا لك فلا تفضبن عليه لأنك تعلم أنه تعس احتقره وبذلك يؤنب نفسه . وإنه لقيح أن يضر الإنسان شخصاً محقرًا .

إنك تفوز بالحياة بمساعدة الحق والصدق : إذا كنت قائداً وتصدر الأوامر للجم الففیر فاسع وراء كل كمال حتى لا يكون نقص في طبيعتك . إن الصدق جیل وقيمته خالدة وإنه لم يترحزح مند يوم خالقه (١) والذي يتحظى نواميسه يعاقب . وهو أمام الضال كالطريق المستقیم . إن الخطأ لم يقد مقترفه إلى الشاطئ . حقيقة أن الشر يكسب الثروة ولكن قوة الصدق في أنه يمكث والرجل المستقیم يقول إنه متاع والذي (٢) .

أدب السلوك في الضیافة : إذا اتفق أنك كنت من بین الجالسین على مائدة من هو أكبر منك مقاماً فخذ ما يقدم لك حينما يوضع أمامك ، ولا تنظرن إلى ماهو موضوع أمامه بل انظر إلى ماهو موضوع أمامك . ولا تصوبن لحظات كثيرة إليه لأن ذلك مما تشمئز منه النفس إذا أحفظها الإنسان : وانظر بمحيالك إلى أسفل إلى أن يحبك وتكلم فقط بعد أن يرحب بك واضحك حينما يضحك فإن ذلك يدخل السرور على قلبه وما تفعله يكون مقبولا لأن الإنسان لا يعلم مافی القلب (٣)

والرجل العظيم يتوقف عزمه على إرادة نفسه حينما يجلس أمام الطعام والرجل العظيم يعطى لمن يجاوره ولكن نفسه تمد يدها من أجله

(١) « رع » الذي جلب الصدق إلى العالم (٢) یعنی أن أحسن شيء ورثني إياه والذي هو أنه أنشأني على الصدق (٣) يجب أن تكون متحفظا في حضرة الرجل العظيم لأنك لاتعرف طمائه .

(البعيد) (١) والخبز يؤكل بأمر الله (٢)

كن أميناً في تبليغ الرسائل : إذا كنت فرداً ممن يوثق بهم

وأرسلك رجل عظيم إلى آخر ، فاعمل بنصح في الأمر حينما يرسلك .
فيجب عليك أن تبلغ الرسالة كما قالها ، ولا تكونن كسوما فيما يمكن أن
يقال لك واحذر النسيان . واحرص على الصدق ولا تتخطه حتى لو كنت
مخبراً شيئاً لايسر . واحذر أن تقبح الكلام ، فربما يصير العظيم محترماً
عند آخر بوساطة لقاء الكلام كالعامية . « وصيرورة العظيم واحداً من العامة
أمر تكرهه النفس . »

إذا حرثت وكان هناك نبات في الحقل ، وأعطاك الله الخير العميم فلا
تشبعن فك بجانب أقاربك (الباقي غير مفهوم)

لاتصفرن من شأن أولئك الذين ارتقوا في الدنيا : إذا كنت رجلاً

متواضعاً ، وكنت في ركاب رجل ذائع الصيت من الذين على وئام مع
الإله (الملك) ، فتجاهل ماضى وضاعته ، ولا تحقدن عليه ، بما تعرفه
عنه فيما سلف ، واحترمه على حسب مكاتته التي أصبح فيها لأن الغنى
لايأتى وحده

خصص لنفسك وقتاً لترويح نفسك : اتبع لبك مادمت حياً

(روحك) ، ولا تفعلن أكثر مما قيل لك . ولا تنقصن من الوقت الذي
تتبع فيه قلبك ، لأنه مكروه عند النفس (الكا) إذا انتقص وقتها (ويظهر

(١) كان الرجل العظيم يقدم عند الأكل ما لذ وطاب لمن هم بجواره ولكن إذا كانت حالته النفسية
حسنة فإنه يمد يده للبعيد . (٢) قد يعنى بذلك الروح المادية وقد ورد في مكان آخر
أن الله موجود في الإنسان .

على الأخص أن تحذيراً ذكر ضد ؟) العناية الزائدة بمنزلك .
معاملة ابنك : إذا كنت محترماً ، وكان لك بيت ، وولد لك ابن
رضى الله عنه - فإذا عمل صالحاً ، ومال إلى طبعك ، وسمع تعاليمك ،
وكانت خططه ذات نتيجة حسنة في بيتك ، ومعتنياً بك كما يجب ، فابحث
له عن كل شيء حسن .

فهو ابنك الذي ولدته لك « كاك » (نفسك) ولا تفرن قلبك منه .
ولكن إذا عمل سوءاً ، وأعرض عن خططك (نصائحك) ولم يعمل
حسب تعاليمك ، وصارت خططه لاقية لها في بيتك ، وتحدى كل ما تقوله
..... عندئذ أقصه لأنه ليس ، ولم يولد لك

السلوك في بهو العظماء

إذا وقفت أو قعدت في البهو ، فانتظر بهدوء حتى يأتي دورك .
واضع إلى الخادم الذي يعلن : ومن نودى فله مكان متع (١) . والبهو
له نظامه ، وكل ترتيب فيه على حسب خيط القياس . وإن الإله هو
الذي يبين المكان الأول - ولا يصل الإنسان إلى شيء بالمرفق .
كن حازماً في حديثك مع الناس .

أعلن عملك بدون خفاء ، وتقدم بأفكارك في مجلس سيدك
ويجب على الإنسان أن يقول بوضوح ما يعرفه وما لا يعرفه . (السطر
الأخير هكذا) : فهو صامت ويقول : « لقد تكلمت » .
معاملة أصحاب المظالم : إذا كنت ممن يقدم لهم الشكاوى ، فكن

(١) أى أن الإنسان ليس فى حاجة الى أن يندفع الى الامام بحالة تنافى مع الذوق

شفيقا حينما تسمع كلام المتظلم ، ولا تسيء ممانته إلى أن يفصل بطنه (١) .
وإلى أن يقول ما قد جاء من أجله ، وإن المتظلم يحب كثيراً أن يهز
الإنسان رأسه إلى كلامه إلى أن ينتهى عما جاء من أجله
وأن مجلسا حسنا يسر القلب .

ولكن من يثل القسوة نحو المتظلم ، فإن الناس يقولون : « لاى
سبب يفعل هو كذلك ؟

التحذير من النساء : إذا أردت أن تحافظ على الصداقة فى بيت
تدخله سيدا أو أخا أو صاحباً ، فاحذر القرب من النساء ؛ فإن المكان
الذى هن فيه ليس بالحسن .

ومن أجل هذا يذهب ألف إلى الهلاك : فإن الرجال يصيرون
مجانين بأعضائهن المبهرجة وبعد ذلك ! تصير مثل « حجر هرست » (٢)
شيئاً تافهاً مثل الحلم ، والموت يأتى فى النهاية .

التحذير من الشراة : إذا أردت أن يكون خلقك محموداً ، وأن
تحرر نفسك مما هو قبيح ، فاحذر الشراة فإنها مرض مملوء بالداء
ولا يشفى . والصداقة معها مستحيلة ، فإنها تجعل الصديق العذب مرأ ،
وتقصى ذا الثقة من سيده ، وتجعل كلا من الأب والأم قبيحا وكذلك
الأخوال ، وتفصل الزوج من زوجته . وهى حزمة من كل أنواع الشر
وحقية من كل شئ مردول . وإن الرجل الذى يتبع طريقة حقنة فى

(١) ان المشابة بين إزالة الموم التى تنقل القلب وبين غسل البطن قد ورد ذكرهما كذلك فى
شكاوى الفلاح

(٢) أى أن أعضاء المبهرجة تجذبك غير أنها بعد لفظة قصيرة الامد تظهر باهتة اللون مثل
حجر هرست الذى يعتبر فى غير هذا المكان علامة العذاب .

سلوكه ويسير على الضراط السوى ، يعيش طويلا : ويكسب الغنى بذلك
ولكن الشره لا قبر له (١) .

لا تكون شرها في القسمة ، ولا تكون ملحا إلا في حقك ، ولا تطعمن
في مال أقاربك ، فإن التماس المتواضع يجدى أكثر من القوة . .
فإن القليل الذى اختلس منه يولد العداوة (حتى) عند صاحب الطبع اللين
فائدة الزواج : إذا كنت رجلا ذا مكانة ، فأسس لنفسك بيتا ،

وأحب زوجتك في البيت كما يجب (٢) . وعليك أن تملأ بطنها وتستر
ظهرها ؛ والعطور هي دواء أعضائها . واشرح قلبها طالما عاشت فإنها تحل
شمر لربها .

كن كريما مع أصدقائك : أشيع أصدقاءك بما جد لك كإنسان نال
الخطوة عند الآله (الملك) ومن الحزم أن تفعل ذلك إذ ليس هناك
إنسان يعرف مصيره إذا فكر في الغد . فاذا أصابت المقربين مصيبة فإن
الأصدقاء هم الذين لا يفتنون يقولون مرحبا له ف عليك أن تستبق
ودهم لوقت السخط الذى يهدد الإنسان .

كن حذرا في الكلام : إذا كنت رجلا ذا مقام سام يجلس في
محفل سيده فوطن عقلك على ماهو حسن . الزم الصمت فإن هذا أحسن من أزهار
" تقتف " . وتكلم فقط إذا كنت تعلم بأنك ستحل المضلات وإن الذى
يتكلم في المحفل لفنان (في الكلام) . والكلام أصعب من أى حرفة أخرى .

(١) أى لا يجيد قبرا يدفن فيه وهذا دليل على الفقر المدقع (٢) وفي رواية أخرى :
وخذ لنفسك زوجة تكون سيدة قلبك .

لا تتقن بالحظ : إذا أصبحت عظيما بعد أن كنت صغير القدر ،
وصرت صاحب ثروة بعد أن كنت محتاجا في المدينة التي تعرفها (موطنك
القديم) ، فلا تنسين كيف كانت حالك في الزمن الماضي . لا تتقن بثروتك
التي أتت إليك منحة من الآله (الملك) فإنك لست بأحسن من غيرك
من أقرانك الذين حدث لهم ذلك (الفقر) .

احترام الرؤساء : أحسن ظهرك لمن هو أعلى منك (رئيسك في إدارة
الملك) . وبذلك يبقى بيتك بخيره . ويدفع لك مرتبك في حينه .
ومقاومتك من في يده السلطة قبيح . والإنسان يعيش مادام متساهلا . .
الحزم في المصاحبة : إذا كنت تبحث عن أخلاق من تريد مصاحبتة
فلا تسألته ، ولكن اقترب منه ، وكن معه منفردا . . . وامتحن قلبه
بالمحادثة فإذا أفشى شيئا قد رآه ، وأتى أمرا يملك تفجّل له فسنذند
أحذر حتى في أن تجاوبه كن صبور الوجه مادمت حيا .
وسنكتفي بهذا القدر من نصائح « فتاح حنب » .

ولدينا نصائح وتعاليم أخرى يرجع عهد كتابها إلى الدولة القديمة ولكن
النسخ التي وصلتنا محرفة كتبت في عصور متأخرة وأهمها تعاليم « كاجنى »
وتعاليم « دواوف » وسنتكلم عنها في حينها .

٢ - من الدولة القديمة :

أغاني العمال

أغنية الرعاة : عند ما ينتهى الفيضان يسوق الرعاة أغنامهم فوق التربة اللينة
لتحرث الحقل بجوافرها الحادة . وفي أثناء اشتغالهم بذلك كانوا يغنون في الدولة القديمة :

الراعى فى الماء بين الأسماك . ويتحدث إلى البلطى ويرحب بالـ :
سمك . أيها الغرب ! من أين آتى الراعى ؟ راعى الغرب (١) .

أغنية السباكين : أثناء جرسبكة كانت تغنى هذه الأغنية : إنها
تأتى وتحضر لنا صيداً جيلاً !

أغنية حاملى الحفة : كان الرجال الذين يحملون سيدم فى محفته
يفنون : خير لنا أن تكونى مملوءة من أن تكونى خالية ! أو . ما أسعد الذين
يحملون الحفة ! خير لنا أن تكون مملوءة من أن تكون خالية !

الآغانى فى الولائم

عند ما كان أهل المتوفى يولون وليمة له فى قبره كانوا يجهزون أكلة
ويعتقدون أنه سيكون حاضراً معهم ، وكانت هذه الوليمة لا يتقصها شئ مما
يحتاج إليه فى مثل هذه المناسبة فكان فيها الخمر والموسيقا والأزهار
والمطور .

وقد حفظ لنا لوح قبر من العهد الإقطاعى بداية إحدى هذه الآغانى
التي كانت تطرب الضيفان أثناء هذه الولائم . وقد مثل عليه عواد بدين يغنى :
آه يا أيها القبر لقد أقمت للأفراح ، لقد أسست لما هو جميل (٢) . ولدينا
أغنية كاملة تلفت النظر كانت تغنى فى مثل هذه المناسبات . وهى تصف
زوال كل الأشياء الدنيوية لتحث السامعين على التمتع بأكثر ما يمكن مدة

(١) معنى الغرب هنا غامض

(٢) المعنى : أنك لست مكان حزن .

(2) Steindorff, Z. A. S. XXXII. p. 124.

حياتهم . والدولة الحديثة التي قد حفظتها لنا ^(١) عرفت أنها مأخوذة من بيت الملك « أنتف » ^(٢) أى من قبره ، وقد كتبت أمام العواد أيضاً . وتوجد صورة كاملة منها بين أغاني الدولة الحديثة .

ما أسعد هذا الأمير الطيب ، والمقدر الجميل قد وقع ^(٣) تذهب أجسام وتبقى ^(٤) أخرى منذ عهد الذين كانوا من قبلنا . والآلهة ^(٥) الذين وجدوا في الزمن الغابر راقدون في أهرامهم ، والأشراف قد دفنوا في أهرامهم كذلك والذين بنوا بيوتا قد أصبحت مساكنهم كأن لم تكن . فماذا جرى لهم ؟ لقد سمعت أحاديث « إمحوتب » و « حارددف » ^(٦) اللذين يتحدث بكلماتهما في كل مكان — فما هي مساكنهما (الآن) ؟ جدرانها دمرت ومساكنهما لا وجود لها كأن لم تكن قط .

ولم يأت أحد من هناك ليحدثنا كيف حال من قبلنا ويخبرنا عما يحتاجون إليه لتطمئن قلوبنا (؟) قبل أن نذهب نحن كذلك إلى المكان الذي ذهبوا إليه .

كن فرحاً حتى تجعل قلبك ينسى أن القوم سيحتفلون يوماً ما بموتك ، فتح نفسك مادمت حياً ، وضع العطر على رأسك ، والبس الكتان الجميل ، وذلك نفسك بالروائح الذكية المقدسة .

(1) Preserved in Pap. Harris, No. 500, and partly also on a tombstone of the Eighteenth Dynasty. See W. Max Müller, Die Leibes poesie der alter Ägypter (Leipzig, 1899) p.p. 31 ff.

(٢) لابد أنه أحد أفراد أسرة أنتف في نهايتها

(٣) الموت (٤) على حسب النسخة الحديثة يكون المعنى : تحمل عملها .

(٥) الملوك القدماء (٦) من أشهر الحكماء وقد كان أمحوتب يعتبر أنه ابن فتاح أما

حرددف فكان يعتبر أنه ابن الملك خوفو .

وزد كثيرا فى السرّات التى تملكها ولا نجملن قلبك يكتئب . اتبع
رغباتك وافعل الخير لنفسك (؟) افعل ما تميل إليه على الأرض ولا
تفضين قلبك حتى يأتى يوم نعيك . ومع ذلك فإن صاحب « القلب
الساكن »^(١) لا يسمع عويلهم وإن الصياح لا ينجى إنسانا من العالم السفلى .

وفى أسفل كتب هذا « الحداء »

اقض اليوم فى سعادة ولا تجهدن نفسك ! اصغ ، لا يمكن أحدا أن
يأخذ متاعه معه . اصغ ، وليس فى قدرة انسان قد ولى أن يعود ثانية .

ازدهار الأدب المصرى فى العهد الانقطاعى

لقد كان لانحلال السلطة الملكية وتآليف مقاطعات صغيرة مستقلة ، فى
نهاية الأسرة السادسة أثر عميق فى رجال الفكر الذين رأوا زوال ما كانت
عليه البلاد من المجد والسؤدد . والاتحاد وانحدارها إلى الانحطاط والفوضى
والمشاغبات التى استعرت نارها بين أمراء تلك المقاطعات . وقد قامت فى وسط
هذه الفوضى حكومة فى هراكليوبوليس ولكن كما ذكرنا فى الجزء الأول لم
نعرف عن حكامها من الوجهة السياسية إلا التزير اليسير ، ولكن رجال
الفكر فى هذا العصر قد أسعفونا بوثائق كشفت لنا عن حقيقة حالة البلاد
النفسية والمادية والسياسية ولا نكون مبالغين إذا قلنا هنا إن هذا
العصر يعد أزهر عصور الأدب فى كل تاريخ البلاد ، لأن كل الوثائق التى
وصلتنا تعبر عن شعور نفسانى يصور لنا حالة البلاد فى أيام بؤسها والواقع

(١) هو أوزير إله الموتى .

أن الإنسان أقدر على التعبير عن شقوته وبؤسه أكثر منه على تصوير فرحه وسروره وأهم هذه الوثائق ما يلقى :

١ - تحذيرات نبى : وقد اقتبسنا معظمها فى الجزء الأول عند الكلام على أسباب سقوط الدولة القديمة .

٢ - تعاليم الملك خبى لابنه مرى كارع : وقد اقتبسنا منها بعض مقتطفات عند الكلام على العهد الأهناسى عند ذكر حالة البلاد السياسية (انظر جزء أول ص ٤٣٠) وتمتاز هذه الورقة بما جاء فيها من الأفكار الدينية على أن مثل ذلك يكاد يكون معدوما فى كل التعاليم الأخرى . ومن الحكم الرائعة التى جاءت فيها :

قيمة حسن الكلام والحكمة : كن حاذقا فى صناعة الكلام ، لأن قوة الرجل لسانه : والكلام أقوى من أية محاربة والحاذق لا يمارضه أحد . والذين يعرفون أنه عاقل لا يهاجمونه : ولا يلحقه مكروه أيضا كان . ويأتى إليه الصدق بعد أن اختبر تماما (١) ، كما كان يتكلم به الأجداد .

الله وبنو الإنسان : يمر الجيل من الناس ، والله الذى يرعى الخلف قد أخفى نفسه

احترم الآله فى طريقه (احتفاله) حتى الإله الذى سوى من أحجار

(١) المشابهة مأخوذة من صنع الجملة وكانت تسجن الارغفة المصنوعة من الشعر بالما . عجا خفينا ثم تخمر ، ومن ثم تصنع الجملة فضلية المجين هذه قد عملت لك لان الصدق الذى فرغ من تشكيله من قبل يقدم اليك فى الكتابات القديمة .

كريمة ، أو من نحاس ، كالماء الذى حل مكان الماء (١) . ولا يوجد
نهر يسمح لنفسه أن يبقى مختبئاً ، إذ لابد له من أن يحطم السد الذى قد
أخفاه .

والروح يذهب إلى المكان الذى يعرفه ولا يضل طريقه بالأمر
فاجعل منزلك فى الغرب (الآخرة) جيلاً ، ومكانك فى الجبلة
فاخرا كالرجل العادل الذى عمل عملاً صالحاً فذلك هو المكان الذى يرتاح
فيه قلبه (٢) .

إن الفرد الذى يحمل فضيلة الحق فى قلبه أحب إلى الله من ثور
الظالم (أى الثور الذى يقدم قرباناً) اعمل شيئاً لله حتى يعمل لك المثل
بقربان يوضع على المائدة وتقوش تخلد اسمك : إن الله عليم بمن يعمل
له شيئاً .

وقد ختم هذا الملك الحكيم كلامه بتأملات تدل على اعتقاده بالوحدانية
ووصف خالقه المسيطر على العالم نذكرها فيما يلى : إن الله قد عنى عناية حسنة
برعيته فقد خلق السموات والأرض طبق رغبتهم وخفف الظمأ بالماء وخلق
لهم الهواء حتى تحيا به أنوفهم وهم صوره التى خرجت من أعضائه وهو
يرتفع إلى السماء حسب رغبتهم ، وخلق النبات والماشية والطيور والاسماك
غذاء لهم وهو كذلك يعاقب فذبح أعداءه وعاقب أطفاله بسبب ما دبروه
حينما عصوا أمره (٣) . ويضع النور حسب رغبتهم كذلك يجعلهم ينامون

(١) بما أن الآله ينفى نفسه فلا بد من احترام صورته إذ أنها بدل كلف عنه (٢) تحتاج
الارواح الى قبور حسنة تحوى الطعام وتجد فيها سكناً صالحاً حينما تأتى الى الارض
لتستريح بالنور

(٣) إيمان الى اسطورة عميان بنى الانسان انظر جزء اول من ٢٤١ .

ويسمع عندما يكون وجعل لهم حكما من الفرج (١)

٣ - شجار بين إنسان قد سُم الحياة وبين روحه : (ورقة محفوظة

بمتحف برلين) تعد محتويات هذه الورقة أقدم وثيقة في متاولنا عن موضوع روحى فى تاريخ العالم وهى تشبه « كتاب يعقوب » الذى كتب بعدها بنحو ١٥٠٠ سنة . ولانزاع فى أن اختيار المؤلف لهذا الموضوع كان وفقا لحالة الاضطراب والفقر والعوز التى كانت تسود البلاد فى هذا العهد المظلم .

ومما يؤسف له جد الاسف أن مقدمة هذا الكتاب التى ذكرت فيها أسباب هذه الثورة الروحية قد فقدت ولكن مما بقى لنا من الوثيقة يمكننا من أن نتلمس تلك الأسباب .

والواقع أن هذا البائس كان رجلا رقيق الروح ولكنه رغم ذلك قد دامه الحظ العائر إذ أصبح مريضا واتعد عنه أصدقائه ، وحتى إخوته الذين كانوا من واجبه أن يواسوه فى مرضه ، ولم يجد بجانبه خلا وفا . وفى وسط تلك المصائب سرق جيرانه متاعه وماعله من صالح بالأمس قد نسى اليوم ، ورغم أنه كان صاحب حكمة فإنه قد أقصى عندما كان يريد أن يتراجع عن حقه ، وقد حكم عليه ظلما ، واسمه الذى كان يجب أن يكون موضع الاحترام ، « أصبح تننا فى أنوف الناس »

وفى هذا الوقت العصيب عندما كان يسبح فى الظلام واليأس صمم على أن ينتحر؛ فتراه وهو واقف على حافة القبر ، على حين أن روحه كانت تفر من الظلمة فى فزع وتأبى أن تتبعه ، وبعد ذلك تجد فى الورقة أن

(١) اى جبل لهم ملوكا شرعيين .

هذا التمس يكلم نفسه أى يتحدث إلى روحه كأنه يتحدث إلى شخص آخر .
وقد كان أول سبب فى عدم إطاعة روحه فى اتباعه إلى الآخرة
خوفها من ألا تجدد طعاما فى القبر بعد الموت ، وقد يظهر ذلك غريبا
جدا لأول وهلة من رجل يشك كثيرا فى مثل هذه التحضيرات التى
كانت تعمل للمتوفى فى آخرته ، ولعل هذا التعليل حيلة أدبية يريد
الكاتب أن يتخلص منها إلى عدم فائدة هذه المعدات الجنازية .
والظاهر أن الروح نفسها قد اقترحت عليه الموت حرقا ولكنها فرت
بنفسها من هذه النهاية الفظيعة . ولما لم يكن من بين الأحياء لهذا
التمس صديق أو قريب يقف بجانبه ، ويقوم بالاحتفالات الجنازية ،
أخذ يستحلف روحه أن تقوم له بكل هذا ، ولكن الروح على
أية حال أبت الموت فى أى شكل وأخذت تصف فظائع القبر :
ثم فتحت روحى فيها وأجابت عما قلته : إذا تذكرت الدفن ،
فانه حزن ، وذكراه تثير الدمع . وتنفهم القلب حزنا ؛ فهو ينتزع
الرجل من بيته ويلقى به على الجبل (الجبانة) ولن تخرج قط
ثانية لترى الشمس . على أن هؤلاء الذين بنوا الجرانيت الأحمر ،
وأقاموا حجر دفن فى الهرم ، وهؤلاء الجيولون الذين شيدوا هذا
المبنى الجليل وأصبحوا مثل الآلهة ، ترى موائد قربانهم هناك خاوية كموائد
أولئك المتعبين الذين يموتون على الجسر من غير خلف لهم ، فيتلع
الفيضان ناحية من أجسامهم وتلفحهم حرارة الشمس كذلك ويلتهمهم سمك
شاطئ . النهر ويمبث بهم . اصغ إلى وإنه لجدير بالناس أن يصفوا .
تمتع يوم السرور وانس المموم .

وهذا هو جواب الروح عندما تمثل أمامها منظر الموت ولكن البائس قد أكد أن « من كان في هرمه ومن وقف بجوار سرير موته » ، أحد الأحياء ، يكون سعيدا ، وقد سعى أن تقوم روحه بدفنه بتقديم القربان ، وتقف عند القبر يوم الدفن ، لتجهز السرير في الجبانة « ولكن كان مثله مثل ضارب العود في الأغنية التي ذكرناها فيما سبق ، فقد تذكرت روحه قبور العظماء التي خربت ، وموائد قربانهم التي أصبحت خاوية كموائد العبيد التعسفين الذين ماتوا كالذباب في وسط الأعمال العامة ، على جسور الرى ، وقد أصبحت أجسامهم عرضة للحر اللافتح ، والأسماء الملتزمة في انتظار الدفن . فلم يكن هناك إلا حل واحد لكل ذلك : « أن يعيش الإنسان جاعلا الحزن نسيا منسيا ، وينغمس بكمليته في السرور .

ويلاحظ أنه إلى هذا الحد لم تختلف هذه المناظرة التي تنحصر كل فلسفتها في أن « يأكل الإنسان ويشرب ويكون مرحا لأنه سيموت غدا » عما جاء في أغنية الضارب على العود ، ولكن بعد ذلك نشاهد أنها تمشي نحو نتيجة هامة تمتاز بها عن تلك الأغنية إذ أخذت تبرهن على أن الحياة رغم أنها ليست فرصة للسرور ، والملاذ التي لاحد لها ، فإنها عبء لا يمكن احتماله أكثر من الموت . وقد أوضح هذا في أربع مقطوعات شعرية خاطب بها هذا التعس روحه . وهذه المقطوعات تؤلف الجزء الثانى من هذه الوثيقة ولحسن الحظ نجد معظمها مفهوما .

المقطوعة الأولى : تصف لنا مقت العالم بغير حق لاسم هذا التعس :

المقطوعة الثانية : نجد في هذا الشعر أن ذلك الشقى ينتقل من نفسه

ليصف هؤلاء الذين كانوا سبباً في تعسه ، فينظر إلى مجتمع عصره فلا يجد فيه إلا النش والخيانة والظلم وعدم الوفاء حتى بين أقاربه .

المقطوعة الثالثة : أنشودة في مدح الموت . على أننا نجد فيها تأملات

في ميزات الموت كما سجد بعد ذلك بنحو ١٥٠ سنة فيما ذكره افلاطون عن عن أستاذه سقراط ولكنها أول شكوى لرجل حاق به الظلم . ومن المدهش أنها لا تحتوى على أفكار عن الآله ، بل تنحصر في خلاصه من آلام الماضي التي لا تحتل . ولا تنظر قط للمستقبل . هذا من ميزات العصر الذي عاش فيه . ولا نزاع في أن الصورة التي رسمها هذا الكاتب قد أخذت من الحياة اليومية في وادى النيل في تلك الفترة .

المقطوعة الرابعة . يختم هذا البائس كلامه بالالتجاء إلى العدالة في الآخرة

وبذلك قد جعل من الموت مدخلا إلى قاعة المحاكمة ، وكان عليه أن يذهب إليها بأسرع ما يمكن .

الشعر الأول

انظر إن اسمي ممقوت . أكثر من رائحة اللحم الثن . في أيام الصيف
عند ما تكون السماء حارة .

انظر إن اسمي ممقوت . أكثر مما يجت صيد السمك . في يوم صيد
تكون السماء فيه حارة .

انظر إن اسمي ممقوت . أكثر من رائحة الطيور . وأكثر من تل من
الصفصاف ملء بالأوز .

انظر إن اسمي ممقوت ، أكثر من رائحة السمك . وأكثر من

شواطئ المستنقعات عند ما يصاد عليها .
انظر، إن اسمي ممقوت . أكثر من رائحة التماسيح . وأكثر من
الجلوس حيث التماسيح .
انظر، إن اسمي ممقوت . أكثر من زوجة ، عند ما يقال عنها
الأكاذيب لزوجها .
انظر، إن اسمي ممقوت ، أكثر من صبي شديد ، قد قيل عنه إنه . . لمن يكرهه (١)
أنظر، إن اسمي ممقوت . أكثر من مدينة . أكثر
من ثائر ولى الأدبار .

الشعر الثانى

لمن أتكلم اليوم ؟ . الأخوات شر . وأصدقاء اليوم ليسوا جديرين بالحب
لمن أتكلم اليوم ؟ . الناس شرهون . وكل إنسان يفتال متاع جاره .
لمن أتكلم اليوم ؟ . اللطف قد باد ، . والوقاحة صارت فى كل القوم .
لمن أتكلم اليوم ؟ . فإن من كان ذا وجه باش أصبح خيثا وأصبح
الخير ممقوتا فى كل مكان .
لمن أتكلم اليوم ؟ . فإن الذى يستفز غضب الرجل الطيب بأعماله الشريرة
يسر منه الناس (٢) ويضحكون كلما كانت خطيئته شنيعة .
لمن أتكلم اليوم ؟ . الناس يسرقون وكل إنسان يغتصب متاع جاره .
لمن أتكلم اليوم ؟ . فقد أصبح الرجل المريض هو صاحب الذى

(١) يقصد بغير شك انه ولد من أم أخرى .

(٢) يسخر الناس من الرجل الطيب عندما يستفزه المسىء .

يوثق به ، أما الأخ الذى يعيش معه فقد صار العدو (١) .
لمن أتكلم اليوم ؟ إذ لا يذكر أحد الماضى ، ولن يفعل أحد الخير لمن
يسديه إليه .

لمن أتكلم اليوم ؟ الأخوات شر ، والانسان صار يعامل كعدو رغم
صدق ميوله .

لمن أتكلم اليوم ؟ . إذ لانرى الوجوه وأصبح كل نسان يلتقى بوجهه
فى الأرض إعراضاً عن اخوانه (٢)

لمن أتكلم اليوم ؟ والقلوب شرهة . والرجل الذى يعتمد عليه القوم
لاقلب له .

لمن أتكلم اليوم ؟ . فالصديق الذى يعتمد عليه معدوم ، وأصبح يعامل
الانسان كأنه فرد مجهول رغم أنه قد جعل نفسه معروفاً (3)

لمن أتكلم اليوم ؟ إذ لا يوجد أحد فى سلام ، والذى ذهب معه
لاوجود له (٤) .

لمن أتكلم اليوم ؟ . فأني مثقل بالشقاء وينقصنى خل وفى .

لمن أتكلم اليوم : . فإن الخطيئة التى تصيب الأرض لاحت لها .

الشعر الثالث

إن الموت أمامى اليوم . كمثل المريض حينما يشفى وكمثل الذى يمشى
فى الخارج بعد المرض .

(١) قد يعنى : بما ان أقاربه قد هجروه فانه لم يعد له صديق الا الآن إلا من كان فى حالة سيئة

(٢) أى انه لا يوجد انسان يواجه انساناً آخر وجهاً لوجه .

(3) See Gunn, Rec. de Trav., XXXIX. p. 105.

إن الموت أمامى اليوم كرائحة بخور المر . وكمثل إنسان يقعد تحت
الشرع فى يوم شديد الريح (١) .
إن الموت أمامى اليوم كرائحة زهرة السوسن وكما يقعد الانسان على
شاطئ السكر (٢) .
إن الموت أمامى اليوم كطريق معبد . وكما يعود الرجل من الحرب إلى بيته .
إن الموت أمامى اليوم كسماء صافية وكرجل . . . لمن لا يعرفه
إن الموت أمامى اليوم كرجل يتوق إلى رؤية بيته بعد أن مضى
سنين عدة فى الأسر .

الشعر الرابع

إن الذى هنالك (٣) ، سيقبض على (المذنب) كإله حى . ويوقع
عقاب الاجرام على من اقترفه .
إن الذى هنالك ، سيقف فى سفينة الشمس ويجعل أحسن القرايين
هناك تقدم للمعابد .
إن الذى هنالك سيكون رجلا عاقلا لم ينبذ (٤) . مصليا « لرع »
حينما يتكلم .
هذا ما قالته روحى لى : اترك العويل ظهرياً يا خلى ويا أخى . . .
سأسكن هنا إذا كنت ترفض الغرب . ولكن حينما تصل إلى الغرب

(١) ربما يقصد انه كمثل إنسان يعنى من التجديف (٢) يقصد الشاعر : وليمة على
شاطئ النهر البارد (٣) أى التوفى (٤) لا شك فى ان الرجل السكاره للحياة
يشير هنا الى مصيره .

ويتحد جسمك مع الأرض فأني سأنزل عندئذ بعد أن تستريح . دعنا
إذا نسينا معا .

شكاوى الفلاح الفصيح (1)

لدينا أربع نسخ من كتاب أطلق عليه علماء الآثار « شكاوى »
الفلاح ويرجع تاريخ كتابها إلى عهد النوبة الوسطى . وهذا الكتاب
مثال للفصاحة ، فتعايره غاية في الرشاقة والبلاغة ؛ وموضوعه هو أن شخصا
فصيحا ألقى تسع خطب في ثوب شكاو من أبداع وأروع ما قيل بسبب
حادث ظلم وقع له . ومخوّر هذه الخطب مدح العدل وذم دناءة الموظفين ، ولكن
التعابير التي كانت تندفق من فم الخطيب جعلتنا نكاد ننسى الغرض الذي قيلت
من أجله ولا شك أن هذه الخطب قد تظهر للقارئ الحديث مملة متشابهة ، غير
أنها ربما كانت في الحقيقة حسنة الوقع في أذن المصري ، يحس بما فيها
من رشاقة وحنق مما يتعسر علينا إدراكه ، وبخاصة إذا عرف أننا لم نفهم
هذا الكتاب إلا بشكل ناقص جدا .

وقد وقعت حوادث هذه القصة في عهد الملك « نب كا وريع » أحد ملوك
هراكليوبوليس (أهناس المدينة الحالية) ويحمل لقب « خيتي » وقد حكم
البلاد في نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد (أنظر جزء أول ٤١٤ الخ) وتتلخص
القصة في أن فلاحا من مقاطعة الفيوم من إقليم وادي النطرون كان
يسكن ببلدة تسمى حقل النطرون . واتفق أن هذا الفلاح وجد مخازن
غلاله تكاد تكون خاوية ، فحمل حميره محصولات قريته واتجه نحو

(1) J. E. A., IX p.p. 5 etc .

اهناس طلبا للمبادلة بالفلال . وقد كان عليه أن يمر في طريقه إلى العاصمة بمنزل « تحوتى نخت » أحد موظفى « رنزى » الذى كان المدير العظيم لبيت الملك . وقد راقى هذه الحمير فى عين « تحوتى نخت » فدبر حيلة للاستيلاء عليها عنوة هو وأتباعه ، فاتخذ من أكل أحد الحمير بضع سيقان من القمح سببا لضرب الفلاح ضربا مبرحا واغتصاب حميره وقد مكث ياب « تحوتى نخت » أربعة أيام يرجو فيها إرجاع حميره ولكن بدون جدوى . ولما علم هذا الفلاح بشهرة عدالة « رنزى » المدير العظيم لبيت الملك ، ولّى وجهه شطر المدينة ليشكو إليه ما حاق به ؛ ولحسن حظ الفلاح صادف المدير العظيم لبيت الملك وهو يتأهب لركوب قاربه فأخذ يقص عليه ما أصابه بلغة فصيحة مما استرعى سمعه فأرسل أحد خدمه ليسمع قصة الفلاح . ولما عاد وأخبر « رنزى » بسرقة « تحوتى نخت » للحمير ، عرض المدير العظيم لبيت الملك الموضوع أمام زملائه من الموظفين وقد حذى المؤلف فى جعل جوابهم يتفق مع ما يحدث فى مثل هذه الاحوال ، وهو تحامل الموظف على الفقير فى الدوائر الحكومية مما كان الحق فى جانبه ، ولذلك نرى أن زملاء المدير الكبير لبيت الملك قد انمازوا إلى جانب « تحوتى نخت » وأجابوا « رنزى » بفتور عظيم بأن المسألة ربما كانت تنحصر فى موضوع فلاح قد دفع ماعليه من الضرائب خطأ لرئيس غير رئيسه ، وأن « تحوتى نخت » قد استولى بحق على ما يستحقه من الضرائب . ثم تساءلوا فى غضب : هل سيعاقب « تحوتى نخت » من أجل قليل من النظرون وقليل من الملح ؟ فليطلب اليه أن يميدها وهو لا يتأخر . « ويلاحظ أنه من خصائص هذه الطبقة أنهم

يتجاهلون الحير التي هي بيت القصيد والتي يسبب ضياعها موت هذا الفلاح وأسرته جوعاً . وعندما سمع الفلاح بذلك تقدم إلى « رنزي » وأخذ يقص عليه شكايته بفصاحة ولباقة :

الشكوى الأولى

عندئذ أتى هذا الفلاح ليقدم ظلامته إلى مدير البيت العظيم « رنزي » ابن « مرو » فقال . « يامدير البيت العظيم ، ياسيدى ، يا عظيم العظماء يا حاكماً على ما قد غنى ومالم يفن ^(١) ! وإذا ذهبت إلى بحر العدل ^(٢) وسحت عليه فى نسيم عليل ، فان الهواء لن يمزق شراعك وقاربك لن يتباطأ ، ولن يحدث لساريتك أى ضرر ، ومرسالك لن يكسر ، ولن يفوص (قاربك) حينما ترسو على الأرض . ولن يحملك التيار بعيداً ، ولن تذوق أضرار النهر ، ولن ترى وجها مرتاعاً . والسماك القفاز سيأتى إليك وستصل (يدك) إلى أسمن طائر . إنك أب لليتيم ، وزوج للأرملة ، وأخ المهجورة ، ومُزِر لذلك الذى لأُم له ^(٣) . دعنى أجعل اسمك فى هذه الأرض فوق كل قانون عادل ؛ فتكون حاكماً خلوا من الشره وشريفا بعيداً عن الدنيا ومهلكاً للكذب ومقيماً للعدل ، رجلاً يلجى نداء المستغيث . إني أتكلم ؛ فهل لك أن تسمع . أقم العدل أنت يأبها المدوح الذى يمدح من المدوحين . أكشف عنى الضرائط إلى إن حلى ثقيل « اختبرنى ، إني ضمت »

(١) أى حاكماً على كل شيء (٢) يقصد بالسطور التالية التمدح ببدل « رنزي »

(٣) أى إنك لباس للطفل الفقير الذى ليس له أم تمنح له لباساً .

مقدمه الشكوى الثانية

وقد اتفق أن هذا الفلاح قد القى هذه الخطبة في عهد الملك
« نب كا ورع »

وقد ذهب المدير العظيم للبيت « رنزي » بن « مرو » أمام جلالة
وقال : « سيدى لقد عثرت على أحد هؤلاء الفلاحين ، وفي الحق أنه
فصيح ، وهو رجل قد سرق متاعه ؛ وانظر إنه قد حضر ليتظلم لى من أجل ذلك . »
عندئذ قال جلالة : « بقدر ماتحب أن ترانى فى صحة دعه يتباطأ
هنا دون أن تجيب عن أى شىء قد يقوله . ولأجل أن تجعله يستمر
فى الكلام الزم الصمت . ثم مر بأن يؤتى لنا بذلك مكتوبا حتى نسمعه
ولكن مد زوجته وأطفاله بالمشوثة ؛ ثم انظر لابد أن يأتى أحد الفلاحين
إلى مصر وذلك بسبب فقر بيته . وزيادة على ذلك مد هذا الفلاح
نفسه . فلا بد من أن تأمر باعطائه الطعام دون أن يعلم أنك أنت الذى
أعطيته إياه . وعلى ذلك أعطى عشرة أرغفة وإبريقين من الجمعة كل
يوم . وقد تعود رب البيت العظيم « رنزي » بن « مرو » أن يعطى
تلك الأشياء أحد أصدقائه وكان هذا يعطيها إياه (إلى الفلاح) . ثم أن
المدير العظيم للبيت « رنزي » بن « مرو » أرسل إلى شيخ بلدة
« سخت حموت » ليصنع الطعام لزوج ذلك الفلاح ومقداره ثلاثة
مكايل من القمح كل يوم .

الشكوى الثانية

ثم إن هذا الفلاح قد أتى ليتظلم له مرة ثانية وقال : يأياها المدير

العظيم للبيت الملكي ، ياسيدى . يا عظيم العظماء ، يا أغنى الأغنياء ، يا من عطاؤه لهم واحد أعظم منهم ، يا من أغنياؤه لهم واحد أغنى منهم . أنت يا سكان السماء ، ومثقال ميزان الأرض ، ويا خيط الميزان الذى يحمل الثقل ، يا أيها السكان لا تنحرف . ويا مثقال الميزان لا تتحول ، ويا خيط الميزان لا تتذبذب . إن السيد العظيم يأخذ (فقط) مما ليس له مالك وينهب واحد (فقط) . إن أودك فى بيتك ، قدحا من الجمعة وثلاثة رغفان . وما الذى يمكن أن تصرفه لإطعام عملائك ؟ على أن الإنسان سيموت مع خدمه ؛ وهل ستكون رجلا مخلدا ؟

أليس من الخطأ - ميزان يميل وثقل ينحرف ورجل مستقيم يصير معوجا ؟ تأمل إن العدل يفلت من تحتك وذلك لأنه أقصى عن مكانه فالحكام يشاغبون ، وقاعدة الكلام تنحاز إلى جانب ، والقضاة يتخاطفون ما اغتصبه (؟) . ومعنى ذلك أن محرف الكلام عن دقته يخرج به عن معناه (؟) فأتع النفس يتلاشى على الأرض ؛ وذلك الذى يأخذ راحته يجعل الناس يلهثون ؛ والمحكم متلف (١) ؛ ومبيد الحاجات يأمر بصنعها ، والبلدة فيضان لنفسها والمنصف مشاغب »

ثم قال المدير العظيم للبيت « رنزي » بن « مرو » ، هل تعتقد فى قلبك أن ممتلكاتك أمر أهم من أن يقصيك خادمي ؟ » (٢)

وقال هذا الفلاح : إن كيال أكوام الغلال يعمل لمصلحته الشخصية وذلك الذى يجب عليه أن يقدم حسابه تاما يحجور على متاع غيره ؛

(١) حرقا مقسم الارث متلف (٢) قاطع « رنزي » الفلاح يسؤال خشن : أيهما أهم لديك المتاع الذى تدعيه أو الضرب بالمصا اذا استمررت فى شكايك ؟ غير أن الفلاح لم يمره اهتماما .

وذلك الذى يجب عليه أن يحكم بمقتضى القانون يأمر بالسرقة . فمن
ذا الذى يكبح الباطل ؟ وذلك الذى يجب عليه أن يقضى على الفقر
يعمل بالعكس . ويسير الإنسان إلى الأمام فى الطريق المستقيم
بوساطة منحنيات . وآخر ينال الشهرة بالأضرار فهل تجد لنفسك
هنا أى شىء ؟ (١) « إن إصلاح الخطأ قصير ولكن الضرر طويل (٢) .
والعمل الطيب يعود ثانية إلى مكانه بالأمس . والواقع أن الحكمة
تقول : « عامل الناس بما تحب أن تعامل به » ؛ وذلك كشكر
إنسان على مايعمله ؛ وكمنع شىء قبل تشكيكه مع أن الأمر قد
أعطى للصانع .

يتبنى الشر للأمير : ليت لحظة تخرب ، فتجعل كرمك رأسا على
عقب ، وتفتك بطيورك وتودى بدواجنك المائبة . فالبصر قد غشى بصره
والمستمع قد صم ، وذلك الذى كان يجب أن يكون مرشدا أصبح
مضللا

« تأمل إنك قوى شديد البأس ، وإنك نشيط الساعد وقلبك
مفترس . وقد تختطك الرحمة ؛ ما مقدار حزن الرجل الفقير الذى قضى
عليه بجوارك . ومثلك كرسول التماسح بل انك تفوق « ربة الوباء » (٣)
فاذا كنت لا تملك شيئا فهى لا تملك شيئا كذلك ؛ وإذا كانت لاتدين
بشىء فكذلك أنت لاتدين بشىء ؛ وإذا كنت لاترتكبها فهى لاترتكبها

(١) قد يقصد بها : هل تجد نفسك ينطبق عليها هذا الوصف .

(٢) إن الضرر يستمر مدة طويلة فى حين أن اصلاحه لا يحتاج إلا إلى فترة قصيرة، فالنعاف .

الفلاح يتوقف على إصفاء « رنزي » إلى شكايته مدة قصيرة

(٣) هى الآلهة « سغمت » .

كذلك . وذلك الذى يملك خبزا يجب أن يكون رحيما ، وإن كان المجرم
فظا . على أن السرقات أمر طبعى لمن لامتاع له وكذلك خطف المجرمين
لأمتعة الغير . حقا إنه عمل مشين إلا أنه لامندوحة عنه . ويجب على
الإنسان ألا يصوب اللوم إليه لأنه يبحث لنفسه (١) . على أنك قد
غصصت بخبزك وسكرت بجعتك ؛ إنك غنى . إن وجه مدير السكان
متجه إلى الأمام (ومع ذلك ؟) فإن القارب يتجه كما يشاء . فالملك
فى داخل قصره ، والدقة فى يدك ، ومع ذلك فإن المشاغبات منتشرة
فى جوارك . إن عمل الشاكي طويل والفصل فيه يسير ببطء ، ويتساءل
الناس ما معنى ذلك الرجل الذى هناك (٢) . كن معينا حتى تظهر قيمتك
واضحة ، تأمل إن مسكنك قد أصبح موبوءا . اجعل لسانك يتجه إلى
الحق ، ولا تفضل . وإن لسان الرجل قد يكون سبب تلفه .

« لا تقل الكذب . واحترس من الموظفين . إن قول الكذب
نباتهم ، ومن المحتمل أن يكون خفيفا فى قلوبهم . وأنت يا أكثر الناس
علما ، هلا تريد أن تعرف شيئا عن أحوالى (؟) وأنت يا من تقضى
حوائج الماء تأمل فإنى أملك مجرى ماء من غير سفينة ، وأنت يا مرشد
كل غارق إلى البرنج من غرقت سفينته ، نجنى (؟) . . . »

الشكوى الثالثة

ثم حضر هذا الفلاح مرة ثالثة ليشتكو فقال : يأبها المدير العظيم
للبيت ، ياسيدى . إنك « رع » رب السماء فى صحبة حاشيتك . إن أقوام

(١) أن الإنسان يمتد المحتاج إذا سرق ولكنه لا يمتد رجلا غنيا كالدير العظيم للبيت .
(٢) حرفيا : يتساءل الناس : من هو ذلك الرجل الذى يتكلم مع المدير العظيم للبيت الملكى .

بنى الإنسان منك لأنك كالفيضان . وأنت كإله النيل الذى يخلق المراعى الخضراء ويمد الاراضى القاحلة . ضيق الخناق على السرقة ، وارحم الفقير ؛ ولا تكون كالسيل ضد الشاكي ؛ واحذر من قرب الآخرة . ارجب فى أن تعيش طويلا كما يقول المثل : إن اقامة العدل هو « نفس الأنف » . عاقب من يستحق العقاب وليس هناك شئ مماثل الاستقامة . هل الميزان يتحول ؟ وهل يميل لسانه إلى جهة ؟ هل يظهر « تحوُّث » تساهلا ؟ فإذا كان الأمر كذلك فيمكنك أن ترتكب أضرارا . واجعل نفسك معادلا لهذه الثلاثة ؛ فإذا أظهرت الثلاثة تساهلا فكن متساهلا . ولا تجب على الخير بالشر . ولا تضعن شيئا مكان آخر ^(١) . كيف ينمو الكلام أكثر من عشب خيث — أكثر مما يتفق مع من يشمه ! فلا تجبين عليه وعلى ذلك تروى المتاعب وينمو عليها غطاء . وقد كان لديه ثلاث فرص تحمله على أن يعمل (؟) . قد الدفة على حسب الشراع ^(٢) وصد الفيضان على حسب ما يقتضيه العدل . واحترس من أن تصطدم على الشاطئ مع حبل السكان . وإن أصدق وزن للبلاد هو إقامة العدل . ولا تكذبن وأنت عظيم . ولا تكون خفيفا وأنت رزين . ولا تقولن الكذب ؛ فإنك الميزان . ولا تنكش ، فإنك الاستقامة . انظر إنك على مستوى واحد مع الميزان فإذا انقلب انقلبت أيضا . لا تحيدن بل أدر السكان واقبض على حبل الدفة . لا تقتصين بل أعمل ضد المعتصب . وذلك العظيم ليس عظيما مادام جشعا . إن لسانك هو ثقل الميزان ، وقلبك هو ما يوزن به ، وشفتاك

(١) ورد ذكر هذه الحكمة فى تعاليم « فتاح حنب » . (٢) هل معنى ذلك : ارشد السفينة كما يتطلب الريح ، أى اعترف بشكايتى والا فأتى سأستمر فى الكلام كالفيضان .

هما ذراعاه . فإذا سترت وجهك أمام الشرس فمن ذا الذى يكبح الشر؟
« تأمل إنك غسال يائس ، وشخص جشع لاتلاف صاحبه ، يهجر
شريكه من أجل عميله .

« تأمل إنك نوقى تعبر بمن معه الأجر؛ ورجل مستقيم فى معاملته
ولكن تلك الاستقامة أصبحت مذبذبة .

« تأمل إنك رئيس مخابز لا يسمح لأحد خلو (مفلس) أن يمر إهمالا (؟) .
« تأمل إنك صقر لعامة القوم يعيش على أحقر الطيور .

« تأمل إنك مورد سروره الذبح ، إذ لا يوقع عليه التقطيع .

« تأمل إنك راع لا وليس عليك أن تدفع . ولذلك يجب
عليك أن تظهر شراهة أقل من تمساح جشع ، والأمان قد انتزع من كل
مساكن البلاد قاطبة . أنت يأيها السامع ، انك لاتصنى ولماذا لاتصنى؟ واليوم
قد كبحت جماح المتوحشين ، وتقهر التمساح . وما الفائدة التى تعود عليك ،
وقد وجد سر الصدق وسقط ظهر الكذب على الأرض ، ولكن لاتتجهز^(١)
للفد قبل أن يأتى ، لأن الإنسان لا يعلم المتاعب التى ستواجهه . »

وقد قال الفلاح هذا الكلام إلى المدير العظيم للبيت « رنزى »
بن « مرو » عند مدخل قاعة المحاكمة ، ثم أمر حاجبين أن يتعهداه بسياط
وقد آتخناه ضربا بالسياط فى كل أجزاء جسمه .

عندئذ قال هذا الفلاح : « إن ابن « مرو » لا يزال مستمراً فى غيه وإن
حواسه قد عميت عما ينظر ، وصمت عما يسمع ، وقد ضل عما ينسب إليه .

(١) يظهر أن الفلاح يحذر « رنزى » من الثقة التامة بالمستقبل : فمن يعرف ما تكون
نتيجة ظلمه ؟ .

انظر إن مثلك كمثل بلد لاعيد لها (١) ، أو كطائفة لارئيس لها ، أو كسفينة لاربان لها ، أو كعصابة أشقياء لامرشد لها .

انظر إنك حاكم يسرق وعميد قرية يقبل (الرشوة) ومقتش اقليم كان يجب عليه أن يقطع دابر التخريب لكنه أصبح نموذجاً للمجرم » .

الشكوى الرابعة

وبعد ذلك أتى هذا الفلاح ليشتكو له للمرة الرابعة ووجده خارجاً من معبد « ارسافيس » (٢) ، فقال له : « أنت أيها المدحوخ ، ليت « ارسافيس » الذى تخرج من معبده يمدحك . لقد قضى على الخير وليس له اندماج حقاً . وقد ألقى الكذب على الأرض . هل أحضر قارب التعدية إلى البر؟ بماذا إذن يمكن الإنسان أن يعبر؟ على أن هذا العمل لابد أن ينفذ كرها (٣)) وهل عبور النهر بالنعال طريقة حسنة؟ لا ، ومن ذا الذى يتمنى أن ينام الآن حتى مطلع الفجر؟ لقد قضى على السير ليلاً ، والسياحة نهاراً ، والسماح للإنسان أن يتعهد قضيته الحقّة . انظر إنه لافائدة لمن يقول لك : إن الرحمة قد تخطتكم فما أعظم حزن الرجل الفقير الذى قد خرب بسببك » .

« انظر إنك صياد يشقى غليله ، وإنسان منغمس فى إرضاء ملاذه فيصيد جاموس البحر ، ويخترق (نبله) الثور الوحشى ، ويضرب السمك ، ويرمى شباكاً للطيور . على أنه لا يوجد إنسان متسرع فى كلامه يخلو من العثار (٣) . وليس هناك شخص خفيف القلب يقدر أن يكون حازماً فى كبج

(١) العميد هنا هو شيخ البلد (٢) إلى منطقة أهناش (انظر جزء أول من ٢١٦) .

(٣) أى أن تسرع « رنزي » يجعله ظالماً .

شهواته . كن صبوراً حتى يمكنك أن تصل إلى العدل . اكبح جماح اختيارك حتى أن الشخص الذى تعود أن يدخل بسكون يمكنه أن يكون سعيداً . على أنه لا يوجد إنسان طائش يجيد عملاً ، ولا متسرع تطلب مساعدته . اجعل عينيك تتأملان ، وعلم قلبك . ولا تكون شديداً بمقدار قوتك خوف أن يحقق بك المكروه الذى يأكل هو الذى يتذوق ، والذى يخاطب يجب ، والنائم يرى الحلم ^(١) أما القاضى الذى نجب معاقبته فإنه يكون نموذجاً للمجرم . تأمل أيها الأحمق فإنك قد ضربت : تأمل أيها المغفل فإنك سئت ، وأنت يابنازح الماء تأمل فإنك قد دفنت . وأنت يا مدير السكان لا تجعل قاربك يرتطم . وأنت يا معطى الحياة لا تود بأحد ؛ ويا مخرباً لا تسبب خراب أحد . ويا أيها الفتى لا تكون كحرارة الشمس . ويا أيها الحى لا تجعل التمساح يفترس . والآن هل سأقضى طول اليوم فى الشكوى الرابعة ؟ » .

الشكوى الخامسة

ثم أتى هذا الفلاح يشكو للمرة الخامسة وقال : يا أيها المدير العظيم للبيت ياسيدى . . . لا تحرم رجلاً رقيق الحال من أملاكه ، ولا ضعيفاً تعرفه ، فإن أملاك الرجل الفقير بمثابة النفس له ومن يقتصبها يكتم أنه ^(٢) لقد نصبت لتسمع الشكاوى وتفصل بين المتخاصمين وتضرب على يد السرقة ولكن تأمل فإن ما تفعله هو أنك تنحاز إلى اللص . والآن إنسان يضع أمله فيك ولكنك أصبحت معتدياً لقد نصبت سداً للفقير لتحفظه من الغرق ولكن تأمل فإنك تياره السريع .

(١) ثلاثة أحوال لليلة والمعلول ، فكما أن المعلول يتبع العلة فى هذه الأحوال الثلاثة فكذلك يكون القاضى المتهم نموذجاً للمجرم (٢) الانف هى مركز الحياة .

الشكوى الثامنة

وبعد ذلك أتى هذا الفلاح ليشكو مرة ثامنة فقال : « يا أيها المدير العظيم للبيت الملكي ، يا سيدى ! إن الناس يتحملون السقوط بسبب الطمع ، والرجل القتال يعوزه النجاح ولكنه ينجح فى الحياة . إنك جشع وذلك لا يتفق معك ؛ إنك تسرق وذلك لا يليق بك ، أنت يا من يسمح للإنسان بأن تشرف على قضيته الحقّة ذلك لأن ما يقيم أودك فى بيتك ، ولأن جوفك قد ملئ ، ولأن مكيال القمح قد طفتح ، فاذا هز طفتح وضاع على الأرض .

« آه أنت يا من يجب عليه أن يقبض على اللص ويا من يعدد الحكام وقد نصبوا ليدرءوا السوء ، وهم حى للمعوز ، والحكام قد نصبوا ليقضوا على الكذب . وليس الخوف منك هو الذى يجعلنى أشكو إليك . إنك لا تبصر ما فى قلبى . وإنه لإنسان صامت من يجعله يرتد دائما عن توبيخك ، ولا يخاف ممن يطالبه بحقوقه ، وإن أخاه لا يؤتى به إليك من قارعة الطريق (١) :

« إنك تملك قطعة أرضك فى الريف . ومكافأتك فى ضياع الملك وخبزك فى المنجز والحكام يعطونك ، ومع ذلك تعتصب ، هل أنت لص ؟ هل يؤتى لك بجنود لتصاحبك عند تقسيم قطع الأرض ؟ (٢) « أقم العدل لرب العدل ، الذى أصبحت عدالته موجودة (٣) .

(١) هنا يماخر الفلاح بأن مثيله لا يوجد فى أى ركن من أركان الطريق (٢) هل تأخذ معك جنودا لتساعدك على السرفة عندما تقسم قطع الأرض ؟ (٣) ربما يقصد برب العدل آله الشمس « رع » الذى يعيش بالعدل .

أنت يأيها القلم ، وأنت يأيها البردية ، ويأيها الدواة ، ويا «تحت»
ابتعدوا عن عمل السوء ، وعندما يكون الحق حقا فهو إذن حق لأن
العدل أبدى ، ويذهب مع من يعمل إلى القبر ، وسيدفن وتطويه الأرض
أما اسمه فلن يمحي من الأرض بل سيذكر بسبب الحق وهكذا عدل
الله في كلمته ، هل هو ميزان ؟ إنه لا يميل ، هل هو لسان الميزان ؟ إنه
لا يحد إلى جانب (لا يزن غشا) وإذا حضرت أو حضر غيري فأجبه
ولا تخبين كإنسان يخاطب رجلا صامتا أو كإنسان يهاجم من لا يمكنه أن
يدافع ، إنك لا تظهر الرحمة ، إنك لا ترق ، إنك لا تغني (؟)
ولا تعطني مكافأة على تلك الخطب التي تخرج من «فم رع» نفسه ،
انطق بالعدل وأقم العدل لأنه عظيم وكبير ويعيش طويلا ، والاعتماد
عليه يؤدي إلى العمر الطويل المحترم ، هل الميزان يحد ؟ فإذا كان
الأمور كذلك فإن ذلك يكون بسبب كفته اللتين تحملان
الأشياء (١) ، ولا يجوز بنحس في العدل ، وإن العمل الحقير لا يصل إلى
المدينة على أن أصغر الأشياء (؟) ستصل إلى الريف .
ثم يأتي بعد ذلك الشكوى التاسعة وهي لا تخرج عن هذه المعاني .
ونرى من هذه الشكاوى الفصيحة أنها تصف لنا ما آلت إليه البلاد
في تلك الفترة الصعبة من تاريخ البلاد ، كما وصفها كل الوثائق الأدبية
التي وصلت إلينا من هذا العصر .

(١) الثقل والأشياء التي توزن .

الجيش والحروب

لقد حبت الطبيعة أرض مصر حدودا طبيعية جعلتها في الأزمان الغابرة منزلة عن العالم الذى يحيط بها مما جعل إغارة جيرانها عليها من أشق الأمور وأصعبها ، فقد كانت صحراء لوبيا سدا منيعا لكل غارة من جهة الحدود الغربية ، على حين أن سواحلها الشمالية لم تعرضها لأى خطر ، إذ في ذلك العهد من تاريخها لم يكن لها أعداء لهم أساطيل تمخر عباب البحر ، يخشى من غاراتها ، أما الأتقوام الذين يقطنون وراء حدودها الشرقية والجنوبية فإنهم كانوا أقل منها ثقافة ومدنية ، فكان خطرهم على تهديد سلامتها شيئا لا يحسب له حساب .

حدود مصر الطبيعية
حتمها الفارات قديما

من أجل ذلك بقيت بلاد مصر فترة طويلة من الزمن هادئة مطمئنة في عقر دارها ، مما جعل أهلها بطبيعة الحال يشتغلون بالزراعة ، وسيظلون كذلك طول حياتهم وأهم عمل لهم فلاحه الأرض واستثمارها - على أن كل ذلك لايعنى أن المصرى لم يكن بالرجل المحارب عند الحاجة ، إذ برهنت الأحوال على أن الجندى المصرى في ساحة الوغى يعد من أحسن جنود العالم وأشجعها وأكثرها صبرا . فقد جاء على مصر فترة من الزمن في تاريخها كانت هى سيدة ممالك العالم المتمدنين ؛ وذلك بقوة جيوشها وانتصاراتهم العظيمة التى وضعتهم فى قمة أمم الشرق ردحا من الزمن غير قصير .

عصر ما قبل التاريخ

على أن ما ذكرناه لا تقصد به أن مصر كانت مفعاة من الحروب الداخلية والخارجية منذ ما قبل الأسرات لأن ذلك يناقى طبيعة البشر وسنن مصر القديمة ج ٢

الحروب الاولى

الرقى ؛ فقد عثر على بعض ألواح من عصر ما قبل التاريخ يستدل منها على قيام حروب بين المصريين وبدو الصحراء وأهل بلاد النوبة . وكذلك تدل الآثار على قيام حروب مستمرة بين سكان مصر أنفسهم ، وبخاصة بين الوجه القبلى والوجه البحرى ، وبقي النزاع قائما إلى أن وجدت الأرضان فى عهد الفرعون مينا على قول معظم المؤرخين .

وما لدينا من الوثائق القليلة يلتقى بعض الضوء على اشتباك المصريين مع الأسويين فى حروب ، وكذلك على قيام حرب بين مصر العليا ومصر السفلى ، ولا أدل على ذلك من المناظر التى نشاهدها على لوحة الملك « نعرمر » ، وكذلك على رأس دبوس الملك « عقرب » فعلى هذين الأثرين نجد مناظر تدل على اشتباك المصريين معاً فى قتال عنيف . وكذلك اشتراك الأسويين مع أحد الحصنين لمساعدته . يضاف إلى ذلك أنه عثر على رأس دبوس ممثلة عليه حملة قام بها ملك الكاب « نخن » (الوجه القبلى) ، وتعد من الحملات الهامة جداً ضد بلاد الدلتا ؛ فقد حطمت الكتاب المصرية التى جمعها ملك الوجه البحرى لصد هذا الهجوم وكذلك قضت على جيش أنصاره من الأسويين جيرانه وحلفائه . وقد عثر فى « نخن »

الحرب بين الوجه القبلى والوجه البحرى

(هراكنبوليس) (جزء أول ص ٨٥) على نقوش ملونة يرجع عهدها إلى ما قبل الأسرات وهى موجودة الآن فى المتحف المصرى ؛ يشاهد عليها بعض هؤلاء المحاربين القدماء ، وهم فى ساحة الوغى ؛ وتدل كيفية تسليحهم دلالة واضحة على تقدمهم فى فنون الحرب مما يشعر بوجود جيش فى البلاد . إذ نجد أن المحارب كان مسلحاً بحربة فى نهايتها قطعة من

الفران الحاد المدب ، أو من العاج . وكان يحى الجندى مهم زرد ودرع مصنوع من جلد الفهد .

وتدل المعلومات التى لدينا على أن بلاد القطر كانت مقسمة إلى مقاطعات تكاد تكون كل واحدة منها مستقلة ، حتى وحد « مينا » القطرين وبقي هذا النظام شائعا فى عهد الأسرتين الأوليين حتى قضى عليه آخر ملوك الأسرة الثانية تدريجيا ، وكان الفضل فى القضاء على هذا النظام يرجع إلى الفرعون « خع سخموى » ، ومنذ ذلك العهد أصبحت كل المقاطعات المصرية فى يد الملك . ولهذا بدأ يكون للبلاد جيشا ثابتا منظما منذ أوائل الأسرة الثالثة ، وليس لدينا من الآثار ما يدلنا على وجود جيش موحد لكل البلاد المصرية قبل عهد « زوسر » وذلك لقلة المصادر ، وبما لاندفاع فيه أنه كان للملك الدلتا جيش ، وكذلك كان ملك مصر العليا جيش ، ولكن يغلب على الظن أن جنود كل جيش لم يكونوا خاضعين للملك . بل كانوا يجندون من المقاطعات ؛ التى كانت مقسمة إليها البلاد فى هذا العصر وكان يقود جند كل مقاطعة حاكمها لمساعدة ملكه وقت الحرب .

الاسرة الثالثة

ولما تولى « زوسر » حكم البلاد ، ووطد السلطة الإدارية فى يده ، كان لابد له من جيش قائم فى البلاد ليتمكنه من القبض على ناصية الحال فى داخل البلاد وخارجها ، وفعلما عثر على نقوش فى عصره تثبت وجود مصلحة خاصة لإدارة شئون الجيش .

وكان أهم ما عنى به هو حماية البلاد من الغارات الأجنبية ، التى كانت تحتاج البلاد من أطرافها ، وبخاصة أهل البدو . ولذلك قسم حدود البلاد

« زوسر » يؤسس جيشا
لحماية البلاد

إلى مناطق أطلق عليها اسم (أبواب المملكة) وجعل في كل منها حامية ، وهذه التسمية تم عما يقصد بها أى أنها كانت المواطن التى يمكن أن ينفذ منها العدو إلى داخل القطر . وقد نصب على كل من هذه المناطق حاكم خاص يلقب (مرشد الأرض) « ششم تا » وقد كان لهؤلاء الحكام ، الكلمة العليا على حكام المقاطعات ؛ وكان فى يدهم إدارة الشرطة كل فى منطقته ؛ ولذلك كانوا مسئولين عن النظام والأمن فى هذه المناطق التى لا يمكن البلاد أن تعيش فى أمان إلا فى ظلها .

ومن أجل ذلك وضعت حاميات ثابتة للمحافظة على الحدود تحت سلطة هؤلاء الحكام (مرشدى الأرض) مباشرة ؛ وقد أقيمت لها المعاقل وكان لكل معقل إدارة عسكرية خاصة ؛ فكان له مخازن غلاله الخاصة التى بها يمكنه أن يقاوم إذا حوصروا وقد حفظت لنا أسماء بعض هذه المعاقل منذ الأسرة الثانية ، فقد عثر فعلا على خاتم نقش عليه اسم معقل « سحر حتب » وكذلك عثر على لقب لمقل آخر من الأسرة الثالثة ، نقش على خاتم لكاتب هذا المعقل ويطلق عليه اسم (بطولة الأرضين) . (1)

ورغم أن الأبحاث فى الحفائر العلمية ؛ لم تسفر للآن عن وجود مبان تعد قلاعاً من هذا العصر السحيق ، إلا أننا من جهة أخرى عثرنا على بعض نماذج تشعير بإقامة معاقل فى هذه الفترة . وذلك أنه يوجد فى متحف برلين قطعة من قطع (لعبة الضامة) عثر عليها فى العراة المدفونة ويرجع عهدا إلى الأسر الأولى من التاريخ المصرى ؛ ويظن البعض أنها من عهد الأسرة الأولى نفسها . وهذه القطعة على هيئة برج صغير

(1) Weill, II-III Dyn. p. 194.

أى أنه يعلوه طئف على شكل رواق له شرفات يمكن منها الدفاع عن المكان . وهذه القطعة مصنوعة من العاج ولكن الحصن كان طبعاً في هذا العصر يصنع من اللبن . ولا غرابة في وجود نموذج الحصن في هذه الجهة . إذ تدل شواهد الأحوال على أنه أقيم في العراة حصن من أقدم الحصون المصرية وذلك ما كانت تتطلبه طبيعة المكان وحمايته . إذ كان أول ما يهتم المصري في هذه الأزمان السحيقة أن يحصن بلاده من مباغطة الأعداء له . فكان يقيم الحصون في الأماكن التي يرى أنها معرضة لخطر الغزو . أو أنه يمكنه أن يصد العدو منها بسهولة . فكان من جهة يقيم الحصون في المواقع التي يكون فيها النهر ضيقاً . فإذا باغته العدو في النهر أصبح من الصعب عليه أن يحترق هذا المكان الضيق الحصن بسهولة ؛ إذ يكون في استطاعة المصري أن يقهره بنباله على كسب منه . ومن جهة أخرى كان ينتخب النقط الضعيفة التي كان يسهل للعدو أن ينفذ منها للبلاد ، وبخاصة عند بداية الوديان التي تشرف على الصحراء مباشرة . والتي يسهل البدو وغيرهم أن ينقضوا منها على البلاد وينهبوا ما شاءوا . فكان يقيم فيها الحصون ويجهزها بكل المعدات ، وهذه الأماكن كانت تسمى أبواب الملكة ؛ والواقع أنه أقيم في العراة المدفونة (1) حصن في أوائل التاريخ المصري ، وموقعه هو كوم السلطان الحالي لأن المدينة تشغل شريطاً ضيقاً مستطيلاً من الأرض ، منحصر بين التربة وأول منحدر لجبال الهضبة اللوية ؛ وقد أقيم هذا الحصن ليحميها من غارات البدو . وكانت كل هذه الحصون (أبواب الملكة) مقامة على

(1) Maspero, Dawn of Civilisation, p. 450.

طراز واحد ، ولا تختلف بعضها عن بعض إلا فى مقدار مساحة كل حصن ، وكشافة جدرانه الخارجية . وكان تخطيط الحصن يشبه سطحاً متوازياً الأضلاع . وكان سورته الخارجى فى أغلب الأحيان مقسماً إلى كتل عمودية من المبنى يمكن تمييزها بسهولة من اختلاف وضع اللبن فيها . فى قلعة الكاب وغيرها مثلاً نجد أن (مداميك) اللبن الساذج محدودة بعض الشيء فتشبه بذلك قوساً عريضاً مقلوباً حافته الخارجية مثبتة بالأرض .

وفى أماكن أخرى كان يشاهد تعاقب منظم للعقود فى طول الجدار ولم يعرف السر فى إقامة هذه الجدران بهذا الشكل . وقد ظن البعض أن البناء بهذه الكيفية يكون أكثر مقاومة ، عند حدوث زلزال أرضى وكان هذا الحصن مبنياً على الطريقة التى ذكرناها . ولكن المقابر التى كانت تقام فى هذه البقعة المقدسة ، قد طغت على الحصن الأسمى حتى عهد الأسرة السادسة ؛ ثم أقيمت أخرى مماثلة لها على بعد نحو مائة متر من الجنوب الشرقى منها . وهذا المبنى الجديد يعد من أحسن القلاع الحربية المحفوظة لدينا الآن ويرجع تاريخ إقامتها إلى العهد الأقطاعى أى ما بين الأسرة السادسة والأسرة العاشرة .

والجزء الخارجى من هذا الحصن ليس فيه أبراج أو مبان بارزة من أى نوع كان . وهو على شكل مستطيل ، ضلعا الطويلان متوازيان ويبلغ طول الواحد منهما نحو ١٤٠ متراً من الشرق إلى الغرب والضلعان القصيران متوازيان كذلك ويبلغ طول الواحد منهما نحو ٨٤ متراً من الشمال إلى الجنوب . ويمتاز الجدار الخارجى بمتانته فهو مبنى بـ مداميك أفقية مائلة بعض الشيء ، ومزينة بأخاديد عمودية تعكس ضوءاً

وطلا يختلفان باختلاف ساعات النهار . وهذه الجدران كان طولها لا يقل عن أربعين قدما تقريبا .

وكان المشى الذى يحدق بالسور متوجا بمتراس صغير منخفض ، له شرفات مستديرة ، يصل إليه الإنسان بمراق مثبتة فى الجدران بكل اعتناء . ويحيط بهذا السور جدار حاجز ، له نوافذ ويبلغ ارتفاعه نحو خمسة أمتار تقريبا وبينه وبين السور نحو أربعة أقدام . والدخول إلى الحصن من بابين ، هذا إلى أبواب سرية وفى نقط مختلفة بين البابين العظيمين . وكانت وقفا على خروج رجال الحامية . وكان الباب الرئيسى تخفيه كتلة عظيمة من المبانى فى النهاية الجنوبية من الواجهة الشرقية . أما المدخل المقابل لذلك فى الجدار الحاجز فكان فتحة ضيقة تغلق بأبواب ضخمة من الخشب . وخلف هذا الباب مكان لحفظ الأسلحة ، فى نهايته فتحة ثانية تماثل الأولى فى ضيقها ، تؤدى إلى ردهة مستطيلة محصورة بين السور الخارجى وبين البرجين البارزين ، وهناك باب آخر يوضع فى أحد أركان الردهة ، وكان ينتخب لهذا الغرض ، الركن الذى يكون بعيدا عن الأنظار . ولا شك فى أن مثل هذا الحصن . كان يعد من المناعة بدرجة تكفى لصد أى هجوم لأقوى جيش فى هذا العصر . على أن الطرق التى كان يمكن بها الاستيلاء على أى حصن ثلاثة : الأولى أن يتسلق العدو الجدران . والثانية أن يقوض الحصن . والثالثة أن يقتحم الأبواب . أما تسلق الجدران فكان من الصعوبة بمكان ؛ وذلك لارتفاع الجدران . يضاف إلى ذلك أن طلائع الجيش المهاجم ، كانوا يضطرون إلى الابتعاد عن الحصن بمسافة

بعيدة ؛ لأن جنود الحصن الذين يربطون فى الأبراج كانوا يفوقون عليهم سهامهم وغيرها من آلات الحرب ، ولكن إذا أحدث العدو ثلعة فى البرج ، فإن المرات الضيقة التى خارج الأسوار كانت تمكن المحصورين من قهر العدو بالأحجار والمزاريق والحراى ، كلما تقدموا فى هجومهم . ومن جهة أخرى تجعل هدم مبانى الحصن من الأمور المتعذرة . وإذا حدث أن سلم حراس الباب الأول للمهاجمين ، فإن جماعة الأعداء عندئذ يزدحمون فى الردهة كأنهم محصورون فى حفرة ، لأنه من السير على الفاتحين أن يقتحموا المكان كلهم دفعة واحدة ، ولذلك يكون لزاما عليهم أن يهاجوا الباب الثانى تحت وابل من قذائف رجال الحصن ؛ وإذا ساء لهم الحظ وأفلحوا فى ذلك ، فإنهم يتكبدون خسائر فادحة فى هذا السبيل .

وفى هذا الوقت لم يعرف سكان وادى النيل شيئا عن المنجنيق ، ولم يعثر للآن على أى رسم للمنجنيق الذى يدار باليد فى كل الآثار المصرية . وذلك لأنهم كانوا يقتحمون أى معقل ، بكسر أبوابه بالبلط أو بمحرق الأبواب نفسها ؛ وفى الوقت الذى يكون فيه الجنود المكلفون بهدم أسوار الحصن منهمكين فى عملهم ، ييذل الرماة من الجنود جهد طاقهم فى تصويب سهامهم إلى العدو المتحصن لإخراجه من محبته ، وفى ذلك الوقت يعمل الجنود المختبئون خلف أستار متحركة بكل ما فى وسعهم لكسر وقاياتهم ، وهدم شرفاتهم بحراى معدنية الاطراف . وإذا هوجت حامية من الشجعان المستيتين فلا تغلب عليهم طريقة من هذه الطرق اللهم إلا إذا حوصروا وضيق عليهم الخناق حتى يموتوا جوعا أو إذا حدثت خيانة تجعلهم يسمون .

وكان إعداد الجنود المصريين ناقصا من جهة النظام والانسجام فكان الجنود المسلحون بالمقلع ، أو بالقوس والنشاب ، أو الحراب ، أو السيوف المصنوعة من الخشب ، أو العصي ، أو الحجارة ، أو البلط المصنوعة من المعدن ، يحاربون جنبا لجنب . أما لباس الرأس فكان قبة محشوة بالقش ، ويحمى الجسم درع صغيرة للمشاة الخفاف ، وعظيمة العرض لجنود الصف . وتتوقف نتيجة الواقعة على مبارزات فردية بين المتحاربين المسلحين بنوع مشترك من السلاح . والظاهر أن الجنود الذين يحملون الحراب هم الذين كانوا يقومون بالهجوم في خط واحد مختلفين خلف درقة ضخمة ، وكانت جراح الجنود في العادة خفيفة ، وذلك راجع إلى أن المهارة التي كانت يظهرها المحارب في استعمال درعه قللت من خطر الجروح ولكن هذا لا يمنع الحربة من أن تصوب أحيانا إلى صدر المحارب فتزديه ، والسيوف أو العصي تهوى على أم رأسه فتهدمها وتلقيه على الأرض لاهراك به . ولهذا السبب لم نجد إلا عددا قليلا من المجروحين في ساحة الوغى بعد انتهاء المعركة وقد أطلق عليهم المصريون الأسرى المضروبين وهذا يدل على كيفية أسرهم .

وفي عهد الملك ، « سنfro » تدلنا الآثار على أنه بعد عودته من حملة عظيمة ضد الزنوج أتم نظام حماية بلاده من غارات الأجانب ببناء قلاع في الوجه القبلى والدلتا وأطلق على كل منها اسم « حصن سنfro »⁽¹⁾ (حجر بلم) يضاف أيضا إلى ذلك أن مصر على ما يظهر كانت تحصن النقاط الضعيفة في حدودها بإقامه أسوار ضخمة عظيمة الامتداد ، من ذلك ما يروى

(1) Br. A. R. t. I, p. 146 .

أن الملك « زوسر » أقام سوراً من اسوان إلى الفيلة يبلغ طوله نحو ١٢ كيلو متراً ليضمن سلامة حدوده الجنوبية ويعتقد بعض علماء الآثار أن السور العظيم الذى أقامه « امينمحيث الاول » لسد برزخ السويس في وجه المغيرين لم يكن إلا تجديد السور أقيم في عهد الدولة القديمة . ويعزز هذه النظرية أن اسم البحيرات المرة كما كتب في متون الأهرام خصص في نهايته بسور (هرم بيبى الأول) يضاف إلى ذلك أن الفرعون « سنفرو » قد خلد اسمه ضمن أسماء عدة قلاع في هذه المنطقة (1)

ومما يدل على حرص فراعنة هذه الأسرة على حفظ النظام في داخل البلاد والقضاء على الخصومات التى كانت تقوم بين الوجه القبلى والوجه البحرى ، ما أقامه ملوكها من الحصون لكبح جماح أى عصيان أو ثورة داخلية ، ولا أدل على ذلك من القلعة التى بناها « زوسر » وأطلق عليها اسم « بطولة الأرضين » .

ولاجدال في أن الجيش في هذا العهد كان في تكوينه ملكياً . وكانت الفرق « عبر » في عهد كل الأسر المنفية تتألف من شباب يقودهم رئيس « خرب » وهذا اللقب كان يحمله فى الإدارة المصرية كل من له وظيفة يسيطر بها على عدد من الموظفين .

وكان رئيس فرقة الشباب المجندين يطلق عليه لقب قائد فرقة الجنود . وقد وصلت إلينا هذه المعلومات من نقش على خاتم من الأسرة الثالثة . ومن ألقاب الأمير « رع حتب » (2) الذى كان يسمى قائد الفرقة قبل أن يعين قائدا عاما للجيش .

(1) Baillet, Reg. Pharaonique, p. 241-2. (2) Weill, II-III Dyn, p. 274.

وكان يتألف من مجموع هذه الفرق الجيش العام أو أى جيش آخر .
ولانزاع في أن تأليف الجيش - كما يظهر - كان حديثا إذ لم يكن جيش
إقطاع قديم والدليل على ذلك لقب مدير « إمرا » الذى كان يحمله
قائد الجيش وهو لقب فى أصله إدارى ويدل دائما على تدخل
السلطة الرئيسية . فمثلا نجد أن حاكم الصحراء « نت نخت » (1)
كان يحمل لقب مدير الجيش « إمرا مشع » أى أنه كان القائد
الفعلى للجيش ؛ فكان فى عهد الفرعون « زوسر » يقود حملة
حرية إلى وادى مغارة . ويظهر أن الجيش كان مؤلفا من عدة
فيالق كل منها على رأسه قائد جيش « إمرا مشع » وكل هذه الفياق
كانت تحت إمرة رئيس أعلى يطلق عليه قائد الجيوش الأعلى . وهذه
الوظيفة كان يتقلدها رجل من أكبر عظماء الدولة . وفى عهد الأسرة
الثالثة كان يحمل هذا اللقب على ما نعلم اثنان أحدهما « رع حتب » أحد
أولاد الملك . وكان يلقب بالأمير والكاهن الأكبر لعين شمس
والثانى « نيسوزدف » وهو أمير ملكى .

أما الإدارة الحرية (2) فى عهد الأسرة الثالثة فمعلوماتنا عنها ضئيلة رغم
أن النقوش تدل على وجودها منذ الأسرة الثانية فمثلا نجد فى نقوش خاتم
من عهد الأسرة الثانية ما يشعرونا بوجود مخازن غلال للحصون قبل حصن
« سزاحتب » مما يدل على أن الإدارة الحرية التى سنقرأ عنها فى المتون
فما بعد كانت موجودة وقائمة على نظام ثابت .

والواقع أن هذه الإدارة كانت موكلة إلى مصلحة خاصة أطلق عليها

(1) Weill, II-III Dyn, p. 129.

(2) Pirenne, Institutions, Vol. I, p. 311. الألقاب الخاصة بالجيش وإدارته والاسطول

اسم (بيت الأسلحة) « برعنا » وهذه المصلحة كما يدل عليها اسمها كانت مهمتها السهر على تسليح الجيش الذى كان مؤسساً على نظام ثابت ، وكانت فضلاً عن تموين الجيش تجمع بين دفتيها كل المكاتبات الحربية فمثلاً نجد أن مدير هذه المصلحة « نفر »⁽¹⁾ كان فى الوقت نفسه مدير مكاتبات الفرق الحربية . ومن هذه الألقاب يمكننا أن نستخلص أنه كان لكل فرقة كما كان لكل حصن ، موظفون إداريون ، وأن كل هؤلاء كانوا تابعين لإدارة واحدة مقرها (بيت الأسلحة) وسرى عند الكلام على الجيش فى عهد الأسرة الرابعة ما يثبت هذا الاستنتاج . أما قواعد صنع الأسطول فكانت تحت إدارة شخصية عظيمة جداً بلقب (بانى السفن) « مدب دبت » وكان للأسطول المصرى أهمية عظيمة فى ذلك الوقت ويتألف من سفن مختلفة الأنواع وأعظمها حجماً يبلغ طولها نحو ٥٠ متراً وقد أرسل الفرعون « سنfro » حملات بحرية إلى لبنان لإحضار خشب الأرز . وكان عدد سفن هذه البعثات يبلغ نحو الأربعين فى البعثة الواحدة (أنظر جزء أول ص ٢٨٤) .

ورغم قلة المصادر التى عثر عليها عن النظام الحربى فى مصر فإن ما لدينا من الأسرة الثالثة كاف لتحقيق به من أن النظام الذى وجدناه فى الأسرة الرابعة كان متبعاً فى الأسرة الثالثة ، فكان يشمل (مناطق حدود) يحكم كل منطقة موظف خاص بلقب (مرشد الأرض) . وكانت كل منطقة يحمىها حصن وحامية ثابتة ، وجيش ملكى بقيادة قائد أعلى وهذا الجيش مقسم إلى فيالق كل فيلق يقوده قائد جيش « إمرامشع » وهذه الفياالق كانت مقسمة إلى فرق حربية « عبرو » يشرف على كل منها رئيس

(1) Pirenne, Instit. t. I, p. 316.

« خرب » . أما إدارة الجيش العامل المؤلف من شبان الأمة فكان لها ديوان خاص مقسم إلى مصالح أهمها مصلحة مخازن الغلال الحربية ، وإدارة الأسلحة ، وإدارة مصانع بناء سفن الأسطول .

الجيش في عهد الأسرة الرابعة

تدل الألقاب الحربية التي عثرنا عليها في عهد الأسرة الرابعة على أن المعلومات التي وصلت إلينا من عهد الأسرة الثالثة صحيحة في مجملها ففي عهد الأسرة الرابعة كان على رأس الجيش البري قائد الجيوش « إمرامشع » وكان في العادة ابن ملك ، ويجلس بين أعضاء المجلس الأعظم للعشرة ، مثل الأمير « مرياب » بن الفرعون « خوفو » .

وكذلك « تنتي » فإنه كان يحمل في وقت واحد لقب قائد الجيش وقائد الأسطول ومن ذلك يمكننا أن نفهم السر في أنه كان يحمل لقب مدير البعثات الملكية . وكان « متن » أحد عظماء الدولة في نهاية الأسرة الثالثة يحمل لقب مدير البعثات في المديرية القرية من الدلتا في عهد الفرعون « سنfro » وقد خولت له هذه الوظيفة أن يعلن أن حكاهم مقاطعات تلك الأقاليم تحت قدميه . وقد كان « متن » يحمل كذلك لقباً لم نعر عليه في المتون المصرية وهو « كبير المدينة في كل أماكنها » . ولا يبعد أن يكون بصفته قائد الجيش ومدير البعث الملكية صاحب السيادة على كل الموظفين في كل المدن التي كان سلطاناه ووظائفه تجعله مسيطراً عليها .

أما الأسطول الذي تصلنا معلومات عنه في عهد الأسرة الثالثة فإنه كان في عهد الأسرة الرابعة يقوده موظف كبير يحمل لقب حاكم الأسطول « عزمردبت » أو لقب قائد الجيش أو ضابط عظيم للجيش البري

ومن ذلك يتضح أن في هذه الفترة كان جيش البر وأسطول البحر في قبضة فرد واحد، على حين أن مدير (بيت الأسلحة) كان ينتخب من بين أعظم علية القوم، يدل على ذلك أن «كا إن نيسوت» بن الفرعون «سنقرو» كان يتقلد هذا المركز. وقد كان لفرق الجيش ولكل وحدات الجنود إدارتها المؤلفة من كتبة، وقد حفظت لنا النقوش اسم أحد هؤلاء المديرين وهو «عأخي» (1) الذي كان يحمل لقب «مدير كتبة الفرق» هذا فضلاً عن أنه كان يحمل ألقاباً أخرى.

ولا نزاع في أن اختصاصات موظفي بيت الأسلحة كانت تختلف عن اختصاصات «كتاب الفرق» وذلك أن بيت الأسلحة كما يظهر من الاسم نفسه كانت مهمته الرئيسية تنحصر في تجهيز الجيش بمعداته الحربية أما كتاب الفرق فكانوا يؤلفون مصلحة إدارية ويهتمون بالإدارة الحربية فعملون على تجنيد الجنود اللازمة. وسنرى أن التجنيد كان في الواقع يقوم به في الأقاليم المختلفة حاكم كل إقليم ومن المحتمل جداً أن «عأخي» الذي كان يحمل لقب «مدير كتاب الفرق» كان مكلفاً بتجنيد العساكر وإدارة شئونهم في إقليم نفوذه، وذلك لأنه كان حاكم المقاطعة «ساب عزمر».

الجيش في عهد الأسرة الخامسة

لم يطرأ على تأليف الجيش في عهد الأسرة الخامسة تغيير يذكر عما كان عليه في عهد الأسرتين الثالثة والرابعة إذ كان مؤلفاً من مجندين كان يطلق على الواحد منهم في هذا العهد «الشاب الجميل»؛ وتتألف منهم وحدات «عبر» كل منها تحت إمرة ضابط يحمل لقب رئيس الوحدة أو

(1) Junker, Giza, I pp. 132.

الفرقة « خرب عبر » ومن هذه الفرق مجتمعة كانت تتألف كتائب الجيش « عبر مشع » وعلى رأسها قائد يحمل لقب قائد كتائب الجيش .

وحرس الفرعون في القصر به فرق مختلفة من المجندين بإمرة « قائد فرق المجندين » وكانت تحمل كل واحدة اسما خاصا بها مثل « كم مقدار حب سحورع » (1) و « ما أجمل سحورع أمام القصر » ! وذلك مما يظهر اتصال هذه الفرق المباشر بالفرعون نفسه وتدل المعلومات المستقاة من وثائق هذا العصر على أنه كانت توجد فرق أخرى تتألف منها حاميات ثابتة في داخل البلاد وكانت تحت تصرف السلطة المدنية لضمان حفظ النظام ولتمكين رجال السلطة من الالتجاء إليها لتنفيذ القانون (2) . وكان الجيش يرسل بعوثا إلى البلاد الأجنبية في محاجر سيناء ومحامات وكان كذلك يكلف أحيانا بالعمل في المحاجر داخل البلاد وبخاصة في محاجر طرة (انظر ص ٢٧٠ جزء أول)

وقد كانت العناية بالمجندين عظيمة جدا لتدريبهم على الأعمال الحربية فكان الجنود (الشباب الجميل) يتلقون دروسا حربية قد خصصت لها مصلحة قائمة بذاتها كان يشرف على إدارتها العليا القائد الأعظم للجيش ونذكر هنا على سبيل المثال « كا إم ثنت » الذي كان يحمل لقب قائد جيوش البر والبحر ومدير التعليم للجيش .

ولا يتسرب إلى الذهن أن الجيش المصري كان مؤلفا من جماعات من الرجال المسلحين يقود كل جماعة منهم سيدهم ، بل كان في الواقع جيشا

(1) Borchardt, Grab des K. Sahure, pp. 71-74 .

(2) Décrets de Teti I. par Moret dans J. As. 1917 pp. 436-441.

حكوميا مؤلفا من وحدات حرية تحت إشراف ضباط فنيين ليس لهم أى عمل مدنى . وكان مظهر الجيش فى السلاح واللباس واحدا فى كل فرقة والبرهان على ذلك نجده فى الرسوم التى عثر عليها فى معبد الفرعون « سحورع » الجنازى إذ نرى فى مناظره (1) الجنود يخطون خطوات حرية ، وكلهم مجهزون بمدة واحدة وقابضون على سلاحهم بنظام واحد . ولا شك فى أن التعليم الحربى كان يلعب دورا هاما فى هذا النظام .

وكان الجيش فى ذلك الوقت مؤلفا من فرق تتألف منها فيالق ، كلها تحت إمرة القيادة العامة ، وكانت كل فيالق الجيش تخضع لقائد الجيوش العام الذى كان على ما يظهر هو القائد الأعظم لكل جنود مصر .

وسنرى أن الجيش المصرى منذ عهد الأسرة السادسة كان يشمل غير فيالق المجددين ، عساكر مرتزقة ، وكان يقود الكل قائد الجيوش العام . ومع ذلك فإن الجيش الوطنى كان يؤلف وحدة تحت إمرة قائد « إمرأ خبر إن نفرو » لقبه مدير رؤساء المجددين . وهو لقب لا يمكن أن يطلق إلا على قيادة الجيش النظامى المؤلف من كتائب جنود مصريين .

وكان قواد الجيوش دائما ينتخبون من بين الشخصيات العظيمة جدا وقد لاحظنا ذلك عند الكلام على الجيش فى عهد الأسرة الرابعة إذ كانوا ينتخبون من بين أمراء البيت المالك ، وفى عهد الأسرة الخامسة دلتنا الآثار على أنهم كانوا من حملة الألقاب الملكية العظيمة جدا فكانوا هم كلهم يحملون لقب حامل الخاتم الملكى والمقرب من الإله العظيم

(1) Borchardt, op. cit. pl. IX.

وكذلك كانوا يتحلون بأعظم الألقاب الفخرية مثل : « الذى فى قلب الملك » (أى صديقه الحميم) .

ويجب هنا أن نشير إلى لقبين يظهر أنهما من الألقاب الحربية وكان يحملهما القائد « سشمو » (1) ولم يثر على أمثلة لهما فى الدولة القديمة وهما : « إمرأ إستى نتر و خرب إستى نتر » . والظاهر أن معناهما . (قائد المسكرين الحريين للإله) أى الفرعون ، وهذان المسكران يحتمل أن يكون المقصود منهما هو مجموع جيش الوجه القبلى والوجه البحرى وذلك لأن قائدهما هو « سشمو » الذى كان يحمل فى الوقت نفسه لقب القائد العام للجيش وأمير البحر العام لمصر قاطبة .

ومما تجدر ملاحظته هنا أن الفرعون فى هذه الألقاب يسمى الإله ولذلك لا يستبعد أن لقب « حامل الخاتم الإلهى (الملكى) الذى شاهدنا كل الضباط العظام كانوا يحملونه ؛ من الألقاب التى لها علاقة بالإدارة الحربية وقد دلت البحوث الجديدة على أنه فعلا لقب حربى .

الاسطول

كان الأسطول الحربى مجهزا ببخارة يطلق عليهم اسم (عبر) ولم يقبوا باسم « عبر نفرو » كتيبة مجندة . ومن المحتمل أن نستنتج من ذلك أن البخارة ليسوا كجنود الجيش البرى مجندين ، بل إنهم كانوا جنودا محترفين . وقد كانت كل سفينة « دبت » على ما يظهر تحت إمرة ضابط . أما لقب « الضابط المدير العظيم » فيظهر أنه كان يمنح لضابط على الرتبة تحت إمرته كثير من الضباط . وهذا الضابط الكبير لابد أنه كان « رئيس أسطول » .

(1) L. D. II, 97, a, Saqqara .

على أننا نجد كذلك لقب « مدير الأسطول ورئيس الأسطول » وهذه الألقاب كان يحملها ضباط ذوو رتب عالية جداً .
والظاهر أن الأسطول الحربى كان مؤلفاً من سفن عظيمة « دبّت عات » ولا بد أنه كانت منها السفن التى كان يبلغ طولها نحو ٥٠ متراً وقد جاء ذكرها فى حجر بلم فى عهد « الملك سنفر » .
والواقع أن كبار رجال الأسطول الحربى كانوا يحملون لقب « مديرى بحارة السفن العظيمة » . وقد كان الأسطول مقسماً إلى طائفتين من السفن ومن أجل ذلك يطلق على الأسطول كله اسم الأسطولين البحرين .
وهذه الألقاب المختلفة التى يحملها ضباط البحرية العظام يظهر أنها كانت تمنح من بين درجاتها رتبة ضابط ممتاز للأسطول ؛ ومن ذلك يتضح أنه كان لكل من الجيش والأسطول قيادته الخاصة ولكن رغم ذلك كانا منذ عهد الأسرة الثالثة تحت إمرة قائد واحد فى عهد الأسرة الثالثة كان الأمير الملكى « رع حتب » (1)
قائد الجيش وأمير الأسطول . وفى عهد الأسرة الرابعة كذلك كان الأمير الملكى « مرايب » يحمل نفس اللقبين . وفى عصر الأسرة الخامسة قسم كل من الجيش والأسطول إلى فيلقين وذلك طبقاً لتقسيم البلاد إلى قسمين الوجه القبلى والوجه البحرى . ومع هذا نجد أن القيادة العليا كانت موحدة . فكان كل من الأمير الملكى « عنخ إيسى » (2) والأمير « كا إم ثنت » قائداً لجيش البر وأميراً لأسطول البحر ؛ وكذلك - تقرأ أن « شمو » كان القائد الأعلى لجيوش البر والبحر . وقد لوحظ فى القاب

(1) Weill II - III Dyn. p. 274; Miss Murry, Index, p. 411.

(2) Mar. Mast. D. 8 pp. 189-190.

هؤلاء القواد العظام للبحر والبر أنهم كانوا يلقبون كذلك بلقب « مدير كل الأوامر الملكية ». ولابد أن ذلك كان بطبيعة الحال للجيش فحسب . ومن ذلك يتضح أن كلا منهم كان الممثل المباشر للسلطة الفرعونية في رئاسة جيوش مصر .

وتدل النقوش على أن الجيش كان منفصلا تماما عن السلطة المدنية ؛ وقد كان القائد الأعلى إلى الأسرة الخامسة عضوا في مجلس العشرة العظيم ، مثل « رع حتب » من الأسرة الثالثة « ومرايب » من الأسرة الرابعة ، ولا نزاع في أنهما كانا ضمن أعضاء هذا المجلس من الوجهة الحرية فقط إذ لا نجد أنهما كانا يقومان بأداء أى عمل إدارى أو قضائى مثل الأعضاء الآخرين لهذا المجلس ؛ والواقع أن وجودهما بين أعضاء مجلس العشرة العظيم كان بمثابة رابطة بين الجيش والإدارة . وفي عهد الأسرة الخامسة فصلت الإدارة المدنية عن الإدارة الحرية فصلا تاما وذلك بعد الإصلاح الذى أدخل وبمقتضاه قسمت الإدارة والجيش إلى قسمين واضحين : لمصر العليا ومصر السفلى . ومن أجل ذلك لم نعد نرى أن قواد الجيش كانوا يجلسون ضمن أعضاء مجلس العشرة العظيم . ولكن فى مقابل ذلك أصبح كل منهم يلقب مثل الوزير « مدير كل أوامر الملك » . وقد ظهروا بذلك معادلين للوزير ، أى أنهم كانوا هم الممثلين للفرعون على رأس الجيش كما كان الوزير الممثل للملك على رأس الحكومة ، هذا إلى أن مدير الإدارة الحرية كان يجلس فى المجلس التشريعى الملكى . فكان « سشمو » مدير بيت الأسلحة والأشغال والمخازن الحرية ؛ يظهر اسمه بين الموظفين الملكيين الذين يحملون لقب « رئيس الأسرار لأوامر الفرعون » . ويلاحظ هنا أنه

لم ينتخب من بين العشرة العظام للجنوب مثل رؤساء الأسرار ، مستشارا سريا لكل أوامر الملك ، بل كانت مهمته قاصرة على أن يستشير الفرعون في المسائل الحربية فحسب .

الاداره الحربية

كان جيش مصر الثابت وجماعة ضباطه المحترفين . وقلاعه ، وأسطوله يستلزم قيام إدارة هامة لتصريف الأمور ، وهى بيت الأسلحة الذى عرفناه منذ الأسرة الثالثة وقد كانت إدارته دائما موكلة فى هذا العهد - مثل الجيش نفسه - إلى أمير ملكى أو لزوج أميرة ملكية فكان بذلك بعيدا كل البعد عن الإدارة المدنية وفى عهد الأسرة الخامسة أصبح بيت الأسلحة مزدوجا مثل الجيش : بيت للوجه القبلى وآخر للوجه البحرى . وقد استمر موظفوه ينتخبون من أعلى طبقات الموظفين وغالبا ما يكونون من قواد الجيش الذين كانوا من أعلى طبقة من أشرف البلاد . ولذلك نرى أن « سشمو » كان فى وقت واحد القائد الأعلى لجيوش البر والبحر ومدير إدارة الحربية مما يدل على أن ديوان إدارة الجيش كانت تحت سلطان القائد العام مباشرة رغم أنها كانت تابعة مثل الإدارة المدنية لسلطة الوزير العليا .

ويشمل بيت الأسلحة عدة مصالح وبخاصة مصلحة الأشغال (أنظر ص ٣٠ الح) لذلك نجد أن كل قائد أعلى للجيش كان يحمل لقب مدير أشغال الفرعون ، ولا شك فى أن هذه المصلحة هى التى كانت تقوم ببناء المعادل وصنع سفن الأسطول وكان يدير الأخيرة مهندس السفن . وكان من اختصاص هذه المصلحة كذلك إدارة شئون الغلال التى كانت معدة لتموين مصلحة الأعمال الحربية ولتقوم بخزن كل ما يلزم من المؤن فى

القلع على أن اسم هذه المصلحة « بيت الأسلحة » كما ذكرنا يدل على أنها كانت تجهز الجيش بالسلح والملايس . ومن أهم أعمال هذه المصلحة ضمان حسن سير مصلحة وكلاء الجيش وهى التى كانت تمتد الجيش بالمأكولات والمعدات اللازمة لرجاله . والواقع أن الجيش المصرى لم يقم على السخرة ولا على السلب ، بل كان حتى فى وقت الغزوات يعتمد فى عدته وعتاده وطعامه على الإدارة الحربية . وقد قص علينا « ونى » أثناء الحملات التى كان يقودها فى نهاية الأسرة السادسة أى فى وقت تدهور الدولة المصرية وتمزيق شملها ؛ أن تموين الجيش كان على أحسن ما يرام حتى أنه لم يوجد جندى قد أخذ خبزاً أو نعلا ممن كانوا فى طريقه اغتصابا ، ولم يكن من بينهم من أخذ عمداً ملايس من أى بلدة كانت : ولا من اغتصب معزا من أى شخص كان (انظر جزء أول ص ٣٧٨) ومن جهة أخرى نجد أنه فى خلال حملة شبه حرية أرسلت إلى خليج العرب فى عهد الفرعون « إمحوتب » ، أحد ملوك الأسرة السادسة قد وضعت إدارة الجيش تحت تصرف الجنود والعمال نحو ٥٠ ثوراً و ٢٠٠ من الماعز لمئوتهم .

وكانت إدارة الجيش هذه قد بلغت من الكمال حداً عظيماً من الدقة . يدل على ذلك وثيقة غربية فى بابها وصلتنا فى هذا الصدد . وهو خطاب كتبه قائد الجنود الذين كانوا فى محاجر طرة بالقرب من منف فقد وصل إلى هذا القائد أمر الوزير بإرسال كتيبة إلى منف لتأخذ أهبتها هناك ، ولكن هذه الكتيبة كانت قد مضت ستة أيام فى منف منذ زمن قصير فاحتج القائد على ذلك قائلاً أنه كان يجب تموين الجيش مدة إقامته فى العاصمة ، بدلا من ضياع يوم كامل إذا أرسل إلى هناك ثانية . وذلك مما يمتل سير

العمل ويؤخره . وقد تدل هذه الوثيقة من جهة أخرى على أن الكتيبة أضاءت ستة أيام لتأخذ مئونها وعدتها بدون جدوى (؟)؛ على أن حسن سير العمل في مصالح الجيش كان مضمونا لوجود كاتب لبيت الأسلحة والمصالح الإدارية التابعة لوحدات الجيش ؛ وذلك أنه كان لكل جيش موظفوه وهم كتاب الجيش الملكي وكل فرقة كان لها كتابها وهم كتاب الوحدات وكلهم تحت إمرة مدير كتاب الوحدات الحربية .

وكان الجيش كما نعلم مؤلفا من مجندين غير أننا لا يمكننا أن نعرف كيفية تجنيدهم إلا من متون يرجع عهدها إلى الأسرة السادسة ، إذ نجد في المرسوم الثالث من عهد الفرعون « يبي الثاني » الموجه إلى مدير الجنوب ، ما يشير إلى كيفية ذلك . وفي هذا الوقت أخذت مصر تنقسم إلى مقاطعات مستقلة تقريبا . ويظهر لنا من نقوش « وني » عند وصفه كيفية تجمع الجيش الملكي أن حكام المقاطعات والمراكز كانوا يأتون بالعساكر المجندين من الحصون والمدن التي كانوا يحكمونها .

ويمكننا أن نستنتج أنه في عهد الأسرات السالفة كان حكام المقاطعات مكلفين بفحص المجندين وتسجيل أسلحتهم . غير أننا لا يمكننا أن نقرر مع ذلك أنه كان في قبضة أيديهم قيادة هؤلاء الجنود كما كان الحال في عهد الأسرة السادسة ، والواقع أننا لم نجد في ختام الأسرة السادسة لقب القائد العام « إمرامشعو » ؛ إذ سيستولى على القيادة الحربية في هذا العهد حكام المقاطعات الذين أصبحوا أمراء إقطاعات ؛ على أن هذه السلطة نفسها لم يقبلها هؤلاء إلا بسبب الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها ، بوصفهم حكاما ملكيين ، ومن هذه الامتيازات أن يجندوا الجنود في

مقاطعتهم بحض إرادتهم لخدمة مليكهم أو لتنفيذ مآربهم . ويجب أن نستخلص من نظام هذا الجيش الوطنى المؤلف من مجندين ، أن سكان القطر كانوا خاضعين إلى إدارة حرية . ولا يمكننا أن نقطع بأن هذا التجنيد ينطوى تحت لوائه كل السكان أو بعضهم . ولكن من جهة أخرى يمكننا أن نلس الحقيقة عن نوع الرجال الذين كانوا ينخرطون فى سلك الجندية من اللفظ الذى يعبر به عن الرجل الذى كان ينتخب للجندية ، إذ كان المصرى يعبر عن المجندين بكلمة « نفرو » ومعناها « الشباب الغض أو الجميل » . ومن ذلك نعلم أن الطبقة التى كانت تتميز بهذه الصفة كان رجالها هم الذين يجندون فحسب على أن هذا الاستنتاج لا يخرج عن حد النظريات .

جيش الجنود المرتزقة

تدل النقوش التى دونت فى مرسوم دهشور (١) ومراسيم فقط (٢) ، ولوحة « ونى » (جزء أول ص ٣٧١ النخ) على أنه كان يوجد فى مصر جيش من الجنود الموالية « نحسى » وكان هذا الجيش يتألف من الزوج أو بتعبير أدق من «لنوبيين ومن المحتمل من اللوبيين أيضا ، وكانت الكتائب التى تؤلف من هؤلاء تكون جزءاً من الجيش المصرى ؛ إذ أنهم كانوا يظهرون فى ساحة القتال بين الجنود الذين جمعهم « يبي الأول » ليخضع بهم البدو تحت إمرة « ونى » وكانوا يؤلفون وخدم جيشا مرتزقا .

وكان الملوك يمنحونهم فى عهد الأسرة السادسة (٣) أراضى وينشئون لمصلحتهم ضياعا والتزامات معفاة من الضرائب الملكية . ويظهر أن هؤلاء الجنود المرتزقة

(١) Moret J. As. 1917 p.p. 387 et Suiv. (٢) Op. Cit. 1916 p.p. 296-322. (٣) Sphinx, XVII p. 118.

كانوا تابعين لنظام جديد وجد مذكورا في الألقاب منذ الأسرة الخامسة ، يطلق عليه « جس بر » (الجيش المنظم) بجوار الجيش الوطنى . ومن المحتمل جدا أن يكون الفرعون قد نظم هؤلاء الجنود المرتزقين في العهد الذى حدث فيه الانقلاب العظيم في الأسرة المالكة . وكان يرأس جيش المرتزقة هذا (مدير المرتزقة) « إمراجس بر » . وهذا اللقب كان يحمله دائما حاكم المقاطعة ولكنه كان خاصا بأصحاب الشأن والقوة منهم وبخاصة « إحيى » (1) الذى كان يلقب كذلك ، مدير البعوث أو الحملات الفرعوية في البلاد قاطبة وكذلك كان يلقب به « وسركاف عنخ » (2) حاكم مقاطعات الوجه البحرى و « بمخوكا » (3) و « وتب إم عنخ » (4) و « ييى عنخ » وقد أصبحوا وزراء وعينوا نوابا للملك في « نخن » (الكاب) . ومن ذلك يمكننا أن نقرر بأن (قواد الجنود المرتزقة) كانوا من الموظفين الذين في يدهم سلطة حكام الأقاليم . ومن جهة أخرى كان يشتمل جيش المرتزقة على مصالح مختلفة ، واحدة منها لمقاطعات الشمال تحت سلطان حكامها ؛ فكان « وسركاف عنخ » يلقب مدير مقاطعات الشمال في مصلحة الجنود المرتزقة المزدوجة ، ومن ذلك يستنتج أنه كانت هناك مصلحة أخرى للجنود المرتزقة لمقاطعات الجنوب وهذه النظرية قد وطدت دعائمها بنظائرها . وذلك أن مصلحة جيش الجنود المرتزقة أصبحت مزدوجة مثل المصالح الإدارية في عهد الأسرة الخامسة وأصبح يطلق عليها « جسوى بر » ويمكن حينئذ تفسير هذا اللقب « باليت الذى يدير الجيشين من المرتزقة »

(1) L. D. II, 88 a. b ملة صغيرة من الميزة (2) Br. A. R. t.I, No 276

(3) Mar. Mast. D. 70 p.p. 370 et Suiv. (4) Borchardt. Grab des K. Neuserre p. p. 71-74.

ولجيش المرتزقة أمناء أسرار وبخاصة للبلاد الأجنبية : « كبير أمناء السربلاب البلاد الأجنبية في بيت إدارة جيش الجنود المرتزقة » . وأبواب البلاد الأجنبية هي كما ذكرنا مناطق الحدود التي كانت تقام فيها حصون . ومن جهة أخرى نجد لكل من الأهرام الملكية والجبانات حرسا من الجنود المرتزقة . وقد ظهر في نقوش « وني » لقب مدير الجنود المرتزقة أيضا . وقد ذكر لنا « وني » قائمة بأسماء الشخصيات الهامة الذين جاء كل منهم على رأس جنوده ، مرتبة حسب مكانة كل منهم . وهم كما يأتي :

(١) الأمراء ، حاملو خاتم ملك الشمال . (٢) السمار الوحيدون ، والرؤساء العظام أصحاب الحصون العظيمة . (٣) حكام الحصون . (٤) السمار مديرو القوافل . (٥) رؤساء الكهنة . (٦) قائد الجيوش المرتزقة .

ثم يقول لنا المتن ، إن كلا من هؤلاء كان يقود جنودا من الجنوب ومن الشمال من الحصون ، ومن المدن التي يسيطرون عليها ومن « النحسى » أى الجنود المرتزقة الذين جلبوا من البلاد النائية : (انظر الجزء الأول ص ٣٨٠ الخ) وما سبق يتضح أن قواد الجنود المرتزقة كانوا مثل الضباط الآخرين الذين ذكرنا أسماءهم ، يقودون جنودهم إلى ساحة القتال . على أن قواد الجنود المرتزقة لم يكونوا حكاما لمقاطعات ولا مدن ، ولا ضياع ملكية معفاة من الضرائب مثل رؤساء الكهنة . كما أن حكام الأقاليم والمدن لم يكن تحت إمرتهم جنود من النوبيين في جيوشهم ، إذ لم نجد حاكم مقاطعة واحدا في عهد الأسرة الخامسة يحمل لقب رئيس الجنود المرتزقة . ومن ذلك نستخلص أن مصلحة الجنود المرتزقة هي التي تدير شئون هؤلاء الموالين من النوبيين الموزعين في طول البلاد وعرضها وقد كانوا في الحقيقة

يؤلفون قوة من رجال الشرطة وحامية ثابتة قد وكل إليها المحافظة على الأمن في مناطق الحدود والمقاطعات وحراسة الجبال والأهرام الملكية التي كانت دائماً مهددة بناهي القبور .

وكان الجيش مكلفاً بحراسة البعث التي كانت ترسل إلى مناجم سيناء ، وحمامات ، وكانت الكتائب البرية والسفن الحربية ترافق البعث التي يرسلها الفرعون « إيسيس » إلى شبه جزيرة سيناء لإحضار حجر الذهب . وكان يصحب هذه البعثة ضابط بحري وثلاثة ضباط جنود برية .

وفي عهد الفرعون « يبي الأول » قامت حملة إلى سيناء تصحبها كتيبة من الجنود بإمرة قائد جيش ومعه عدد من الضباط البحريين وضباط الجنود البرية وكذلك أرسلت في عهد نفس الفرعون حملة إلى حمامات غير أنه لم يذكر في نقوشها قائمة بأسماء ضباط الحملة ، ولكن ذكر عرضاً فيها اسم ضابط سفينة وقد ذكر في متن يرجع تاريخه إلى أواخر الأسرة السادسة أن أمراء الفنتين قد قاموا بإحدى عشرة بعثة بحرية إلى جيبيل (يبلوس) وبلاد « بت » (أنظر ص ٢٦٥) .

الجيش في عهد الأسرة السادسة

بقيت القيادة الحربية وراثية في الجيش المصري حتى أواخر عهد الفرعون « يبي الأول » . وقد حاول فراغت أول الأسرة السادسة أن يستبقوا السلطة المباشرة على الجيش في أيديهم بجعل القيادة في أيدي أشخاص من الأسرة المالكة ، يدل على ذلك أن قائدين للجيش في أوائل الأسرة السادسة كانا من أقرباء الفرعون الحقيقيين .

ولم يطرأ تغيير في نظام الجيش في عهد الملك « تيتي » بل بقي تحت

إمرة القائد الاعلى الذى كان ينصب عادة من أقرباء الفرعون ، وكان تحت أوامره ضباط فرق من المجندين ويهيمن على شئونهم « بيت الأسلحة » الذى كان تحت سلطان الوزير المباشر فى ذلك الوقت .

ويظن أنه قد حدث انقلاب فى عهد « يبي الأول » فى نظام الجيش بسبب انحلال الدولة وتقسيمها إلى مقاطعات مستقلة تقريباً ، فترى فى أواخر عهده أن الوظائف الحربية أصبحت نتيجة لهذا الانقلاب وراثية تقريباً ولذلك نجد أن « إبدو » (1) الذى قاد حملة إلى سيناء فى العام التاسع عشر من حكم « يبي الأول » ، كان يحمل لقب قائد الجيش الذى كان يلقب به والده « مرى رع عنخ » من قبله ومن جهة أخرى نلاحظ أن لقباً جديداً ستكون له أهمية عظيمة فى عهد الفرعون « يبي الثانى » قد ظهر وهو « مدير القوافل » ، وقد اعتاد علماء اللغة المصرية بترجمته « بمدير الترجمة » . وقد وجد حاملو هذا اللقب بين أسماء رؤساء البعثات التى كانت ترسل إلى محاجر سيناء ووادى مغارة أو إلى بلاد النوبة التى تدفع الجزية للفرعون مثل أقطار « مجا » و « إيام » و « أرث » : و « واوات » الواقعة فى جنوبى مصر وهذه الأقطار قد أصبحت لها أهمية عظمى للتاج فى العهد الذى كانت فيه سلطة الفرعون تتناقص تدريجاً ويتبعها نضوب موارده المالية وقوته الحربية ، فكانت هذه الأقاليم الجنوبية فى الواقع تدفع له الجزية وتمده كذلك بالجنود المرتزقة الذين كانوا يغنون جيشه .

وقد جاء فى مرسوم دهشور فى عهد « يبي الأول » أن مدير القوافل كان تحت إمرة رئيس مديرى القوافل . وتدلنا النقوش على أنه كان هناك

(1) Sethe, Urk. II No 11 (New Ed.)

مديرو قوافل من درجات مختلفة فى نقش من حكم « بيبى الأول »
عثر عليه فى سيناء نجد مذكورا عليه اسماء جماعة ممن يحملون لقب مديرى
قوافل تحت إمرة غيرهم فى نفس الحملة غير أن أهميتهم أخذت تعظم ونفوذهم
يزداد بسرعة ؛ وسرى أن عدداً منهم سيصير قريباً من بين أعظم الموظفين
الملكيين ويصبح لهم الحق فى تقلد اللقب الفخرى « السمر الوحيد »
وكذلك ظهروا بين الذين يحملون لقب المدير الأعلى لأوقاف القصر »

ومن ذلك نلاحظ أن القيادة العليا كانت فى سبيل التغير، فنجد
أن لقب القائد العام للجيش أخذ يختفى ، وكذلك أصبح تجنيد الجنود
بإشراف الفرعون ضرباً من المستحيل ويرجع ذلك إلى قيام الأمارات
الإقطاعية فأخذ الجيش الذى كان يجنده الفرعون من داخل البلاد يتضاءل
تدريجاً حتى اختفى نهائياً ومن ذلك العهد لم يبق فى يد الفرعون إلا جيشه
المرتزق الذى كان يقوده مدير القوافل . وقد أصبح قواد هذا الجيش من
القوة فى عهد « بيبى الثانى » إلى درجة أنهم صاروا أمراء إقطاعيين فى الفنتين
وأصبحوا من أهم حكام الإقطاع فى الجنوب ومن أعظمهم نفوذاً .

البعوث الفرعونية

تدل الوثائق والنقوش التى عثر عليها للآن على أن البعوث التى كان
يرسلها الملك إلى خارج البلاد أو فى داخلها ، كانت تجهز لأغراض ثلاثة
(١) بعوث لأغراض جنازية للفرعون نفسه (٢) بعوث تجارية (٣) حملات حرية .
فالنوع الأول من البعوث كان يرسله الفرعون إلى شبه جزيرة سيناء
فى وادى مغارة وكان يصحب كل بعثة حرس عظيم من الجنود ؛ وكذلك
كانت ترسل بعثات إلى محاجر حمامات و « حثوب » والظاهر أن كل رجالها

مديون . والنوع الثاني بعوث بحرية إلى شواطئ البحر الأحمر وفلسطين الغرض منها التجارة . أما النوع الثالث فكانت حملات حربية محضة للنزو والفتوح في بلاد النوبة وغيرها ويستخلص من الوثائق التي لدينا عن هذا العهد أن البعوث التي زارت وادى مغارة إلى عهد الفرعون « يبي الأول » كان لواؤها معقودا لقائد جيش « إمرا مشع » أو ضابط بحارة الأسطول وتحت إمرة كل منهما عدد من ضباط الجيش : ضباط كتائب ورؤساء تراجمة أى جنود مرتزقة « إمراعا » وضباط بحريين وقواد سفن .

أما الموظفون المدنيون فكانوا يتألفون من المستخدمين ويعرفون بوظائفهم مثل مدير كذا أو رئيس كذا وكان من بينهم موظف أو أكثر من الهلك القضائي مثل « القاضى الكاتب » و « القاضى المدير » وكذلك كان من بينهم عامل من مصلحة الأشغال الملكية مثل كاتب النحاس ، ومدير أشغال الحجر . وتدل الوثائق التي في متناولنا منذ عهد الملك « مر نرع » أن العنصر المدني والعنصر الدينى كان لهما أهمية تتزايد ؛ حتى أن البعوث التي كانت ترسل إلى سيناء كان يدير شئونها أحد عظماء رجال الملك مثل حامل الخاتم الإلهي (الملك) يساعده موظفون مدنيون وبرقعتهم كتيبة من الجنود يشرف عليهم ضباط فرق ، وضباط بحريون ومديرو جنود مرتزقة .

أما البعوث التي كانت ترسل إلى محاجر حمامات فلم يرافقها جنود حربيون إذ كان يقودها إما مدير الأشغال الملكية عامة ، ورئيس مصلحة الأشغال العمومية ، أو شخصية من شخصيات الدرجة الأولى مثل حامل الخاتم الملكي ، وهي وظيفة حربية وقد كان تحت إدارة مدير كل الأعمال الملكية

اثنان من حاملي الخاتم الملكي . والواقع أن حاملي الخاتم هذين كانا هما نفسيهما اللذين كانا في البعثتين اللتين أرسلتا في عهد الفرعون « يبي الأول » يقودهما مدير كل الأشغال الملكية ؛ « إخي » و « إحو »⁽¹⁾ . وقد قامت حملة ثالثة أخرى أقل أهمية برياسة حامل الخاتم الإلهي « إخي » . ويظهر من ذلك أن كان في خدمة الملك اثنان من حاملي الخاتم الإلهي (الملكى) ؛ أما الموظفون المدنيون الآخرون فكانوا مديري مبان ورؤساء عمال . وتجب هنا ملاحظة أن البعثة التي كان يقوم بها حامل الخاتم الإلهي (الملكى) كان الغرض منها جلب المواد اللازمة لبناء هرم الفرعون .

وأخيراً كان يصحب البعثة عادة قاض أو موظف قضائي أما البعوث التي كانت توجه إلى محاجر « حتنوب » في مصر الوسطى فكانت أقل أهمية . وقد كلف برياسة واحدة منها في أواخر حكم « يبي الأول » حاكم مقاطعة « ون » (الارنب) وهو « خم عنخس »⁽²⁾ وقام بحملة أخرى من هذا النوع في عهد الملك « مرن رع » ، حاكم الوجه القبلي « ونى » (الجزء الاول ص ٣٧٩) الجيش والبلاد الأجنبية : لم يكن في مقدور حكومة كل من الملكين « تيتي »

و « يبي الأول » أن تقف التيار الذي كان يدفع البلاد المصرية نحو الانحلال . والاتقسام ، وإن كانت قد ضمنت إلى حد ما ، ما يظهر هيبتها الحربية واستمرار سيادتها على أقوام بدو الشرق حتى فلسطين ، وكذلك على سكان بلاد النوبة الخاضعين لمصر . والواقع أنه كان في قبضة الحكومة في ذلك العهد جيش حسن الإدارة . فكان « بيت الأسلحة » تحت سلطان الوزير ، أما بناء السفن الحربية في « عهد « يبي الأول » ، فكان موكلاً إلى حاكم مقاطعة « ون » القوي « تيتي عنخ » .

(1) Br. A. R. t. I. p. 298-9

(2) Urk. II, No 14. (New Ed)

وكان للملك جنود تحت إمرة ضباط فنيين يقومون بالحملات خارج حدود البلاد . وقد بقى لقب « القائد العام للجيش » ، يستعمل فى عهد الأسترتين الرابعة والخامسة ، إلى عهد حكم « ييى الأول » . إذ أرسلت فى حكمه بعثة إلى محاجر « حنوب » على رأسها « إيدو » ويحمل لقب ، قائد الجيش ، وأمير الأسطول ، وهو ابن قائد الجيش « مرى رع عنخ » ومن هذا نرى أن قائد البعثة كان سلطانه ينتظم جنود البر والبحر الذين كانوا يرافقونها .

وقد حافظ الجيش على وحدته الحرية حتى عهد « ييى الثانى » إذ نجد فى نقوش سيناء ما يثبت لنا وجود لقب رئيس المجندين ، ولقب رئيس فرق المجندين . وقد ظلا يستعملان حتى نهاية حكم هذا الملك ، غير أنه رغم ذلك كان تأليف الجيش قد تغير تغيراً عظيماً فى عهد « ييى الأول » ويمكننا أن نفهم هذا من نقوش « ونى » .

وكان « ونى » هذا يحمل لقب مدير أوقاف القصر أى أنه كان كبير رجال البلاط ، وقد نصبه « ييى الأول » على رأس جيشه ليقوم بغزوة ضد البدو . وقد وصف « ونى » تأليف الفرق بأنها كانت بقيادة (١) الأمراء (٢) وحاملى أختام ملك الوجه البحرى (٣) والسمار الوحيدى ، ورؤساء الحصون العظيمة (٤) والرؤساء حكام الحصون (٥) والسمار مديرى القوافل (٦) ورؤساء الكهنة (٧) مديرى الجنود المرتزقة « إمرا جس بر » .

والمتن يوضح ذلك إذ يقول : « وكان كل واحد منهم على رأس كتيبة من جنود الجنوب وجنود الشمال ، والحصون والأوقاف (ويقصد بهذا الضياع العظيمة التى كانت معفاة من الضرائب وتابعة للمعبد) ، الذين

يقودونهم ، هذا إلى الجنود الموالين (نحسى) الذين جندوا من هاتيك البلاد
الثانية (أى بلاد النوبة) . وأول ملاحظة تلفت النظر فى هذا النص هى أن
الجيش لم يعد تحت إمرة « قائد جيش عام » بل كان يقوده كبير رجال
البلاط « ونى » .

أما الجيش نفسه فيتألف من الجنود الذين أحضرهم رؤساء المقاطعات
حسب ترتيبهم فى المكانة وعلو المرتبة .

وكانت المقاطعات محكومة بأمرأ أو بحكام حصون ، والفرق بين حكام
حصون المقاطعات ، وحكام الحصون الذين كانوا ينصبون على أجزاء
المقاطعات ، هو أن الحكام فى الحالة الأولى يحملون لقب حامل خاتم
ملك الوجه البحرى أما فى الثانية فانهم لا يحملون هذا اللقب . ولذلك
نجد أن « ونى » كان يقصد بلفظة « إمرا » أى أمرأ المقاطعات ؛
وحاملو خاتم ملك الوجه البحرى أى حكام المقاطعات الذين لم ينالوا
بعد رتبة أمير ، فهم بذلك حكام حصون وحاملو أختام ملك الوجه
البحرى فحسب .

وتدل الوثائق على أن السمار الوحيدين للحصون الكبيرة كانوا
حكام مقاطعات الدلتا . أما نواب الحصون فكانوا هم الذين يحكمون
مراكز المقاطعات . وعلى ذلك فإن كل حكام المقاطعات ونواب الحصون
الذين كانوا تحت سلطانهم ، كانوا يظهرون فى الجيش على رأس الفرق التى
جندت من رجال أقاليمهم . وقد كان بجانب الجنود التى جمعت من المقاطعات
آخرون جندهم رؤساء الكهنة أى كبار كهنة المعابد . وذلك أن المعابد كان
لها ضياع عظيمة قد أعفيت من الضرائب منذ نهاية الأسرة الخامسة وقد

كان من نتائج ذلك أن الإدارة العامة للحكومة وحكام المقاطعات ، لم يكن لهم الحق فى أن يتدخلوا فى شئون هذه الضياع الخاصة . ولذلك كان الكاهن الأعظم يتمتع بالسلطة التى خولتها له الحكومة دون أى تدخل من جانبها ؛ وقد كان الكاهن الأعظم منذ ذلك العهد هو الذى يجند الفرق الحربية من ممتلكاته ويقودها بنفسه للاشتراك مع عامة الجيش .

وأخيرا نجد بجانب هذا الجيش المصرى ، أن مديرى البعوث التى كانت توجه إلى بلاد الجنوب ، يحضرون على رأس جنودهم المتحالفة ، المؤلفة من أهالى « إيام » و « إرثت » و « واوات » وكلها أقاليم واسعة فى جنوبى الفنتين ؛ وكذلك كان قواد الجنود المرتزقة يظهرون على رأس جنودهم .

وإذا اتخذنا نص « وفى » أساسا لحالة الجيش فى عهد الأسرة السادسة فانا نشاهد أن شكل نظام الجيش قد تغير تغيرا تاما عما كان عليه منذ عهد الأسرة الخامسة ، إذ لم يعد مكونا من وحدات حربية بإمرة ضباط فنيين ليس لهم أى سلطان مدنى . بل أصبح الآن جيشا إقطاعيا محضا . ولذلك لم تعد الوحدة الحربية هى الفرقة « عبر » بل أصبح الجيش مقسما إلى فصائل « تس » مجموعة حسب تعداد الإقليم الذى جندت فيه وعلى رأسها أمير المقاطعة ، ونائب الحصن أو الكاهن الكبير الذى يحكم هذا الإقليم من الوجهة الدينية . أما جيش المرتزقة فقد بقى تحت قيادة رؤساء مختصين وهم قواد الجنود المرتزقة « إمرابس بر » الذين نعرفهم منذ الأسرة الخامسة وقواد القوافل الذين لم يظهروا إلا فى عهد الأسرة السادسة . على أن الجيش وإن كان قد أخذ صبغة إقطاعية محضة فإنه مع ذلك كان تحت إمرة الملك مباشرة وكان هو الذى يعين رئيسه الذى

كان أعظم أشرف البلاط مكانة . وتدل نقوش « وني » أن نظام مجلس تموين الحملة كان كما يظهر موكلا إلى « وني » نفسه إذ نجده يفاخر بأنه لم يتم بوضع خطط الحملة وقيادة الجيش فحسب ، بل كان يسهر على حاجته وعلى نظام الجنود حتى لا يسرق واحد منهم دقيقا ، أو نعلا من سائح أو يقتصب ملابس من أية بلدة كانت . على أن الحملة التي نظمها « يبي الأول » وقادها « وني » ، تشعر بأن الملك كان لا يزال في يده وسائل قوية لأن هذا الجيش قد نقل بحرا من مصر إلى سواحل فلسطين مما يتطلب نفقات وتدابير خاصة .

ولم نجد في النقوش أى أثر في عهد « يبي الثانى » ، لجيش إقطاعى جمعه الفرعون ووضعه تحت إمرة قائد معين من قبله ، بل وجدنا أن رؤساء الحملات الحربية في عهد هذا الفرعون وهم مديرو القوافل أى رؤساء جماعات من النحسى (النوبيين) ، قد جندوا من بين الأقباط النوبيين الخاضعين لحكم مصر وبخاصة بين أهل « إيام » ويحيط بهم جنود مصريون . وهؤلاء القواد (إمرعا) معروفون منذ حكم « يبي الأول » ؛ ولقد ظهر لقب مدير القوافل في المتون المصرية لأول مرة في نقوش « وني » وسيناء التي تروى قصة بعثة أرسلت في السنة ١٨ من عهد الملك « يبي الأول » ؛ وقد لاحظنا أن موظفيها كانوا تحت إمرة قائد « إرامشع » ؛ ويلوح أنهم كانوا في المرتبة التي بعد ضابط البحرية للأسطول ، غير أنهم كانوا أعلى مقاما من كل الضباط الآخرين الذين يرافقون الحملة . ونجد في الجيش الذى وصف لنا « وني » تأليفه فيما سبق أنهم ذكروا مباشرة بعد الأمراء ونواب المقاطعات وقبل السكينة العظام ومديرى الجيوش المرتزقة ؛ يضاف إلى ذلك

أنهم كانوا يحملون اللقب الفخرى « السمير » .

وعثر على نقش ساذج الصنع فى « توماس » من أعمال النوبة السفلية الواقعة عند تفرع طريق القوافل الذى يؤدى من جهة الشاطئ الأيسر للنيل إلى الواحات الكبيرة جاء فيه ذكر ثلاثة بعوث إلى بلاد « إرثت » والأقاليم الأخرى الجنوبية وكان يقود كلا منها « مدير قوافل » . وكان كل من المديرين فى البعثتين الأولين يحمل لقب « الرئيس الأعلى لأملاك أوقاف القصر » وفى الحملة الثالثة كان رئيسها يحمل لقب « مدير أملاك أوقاف القصر » زيادة على لقبه الأسمى ؛ وكان مساعده يحمل لقب « مساعد مدير القوافل » . ومن ذلك يتضح أن أمراء القوافل الذين ذكرت أسماؤهم على نقوش « توماس » كانوا من الشخصيات العظيمة الذين يحملون أعلى درجات الشرف فى البلاط الملكى .

وفى عهد الملك « مرن رع » نجد أن مدير قوافل كان مرءوسا فى حملة أرسلت إلى وادى مغارة . ومن ذلك يتضح أن لقب مدير القوافل يدل على وظيفة ضباط مختلفى الرتب . وقد عرفنا من مرسوم دهشور أنه كان يوجد لقب « مدير أعلى للقوافل » كان يمتد سلطانه على أقطار « مجا » و « إيام » و « إرثت » ، ومن المحتمل جداً أنه كان تحت سلطانه عدد من مديرى القوافل وكذلك عرفنا من منطوق هذا المرسوم أن مدير القوافل كان يقود جنوداً من المرتزقة قد جندوا من بلاد النوبة وعرفوا باسم « نحسى » (ربما كانت كلمة النخاسة مشتقة من هذا الأسم) ؛ وكان الملك يموئهم من ضياعه الخاصة حيث كانوا يقطنون ، وكان لهم الحق فى أن يستولوا على جزء من المحصول .

وكان مديرو القوافل يحملون ألقابا فخرية وألقاب شرف وذلك طبقاً للسلطة التي كانت في أيديهم . وقد ذكرنا فيما سلف أن بعض مديري قوافل لا يحملون ألقابا فخرية ، ولكن في نقوش « وني » نجد أنهم كانوا يحملون لقب « السмир » كما نجد آخرين يحملون لقب الشرف « خنت شى » قضية « سبك حتب » (انظر ص ٥٩) نجد أن هذا الرجل العظيم وابنه « تاو » كان كل منهما يحمل لقب « مدير قوافل » مع لقب قريب الملك وراثيا في وقت واحد .

وقد كان مديرو القوافل مكلفين على وجه خاص ، بالقيام ببعوث إلى بلاد النوبة . ومنذ عهد الفرعون « مرن رع » نجد أمراء قوافل قد استوطنوا الفتنتين بصفتهم حراس الحدود الجنوبية . ويظهر أن أقدم مدير قوافل في هذه الجهة هو « إرى » من عهد الملك « مرن رع » ويحمل لقب السмир الوحيد ، ومدير القوافل ، والواقع أنه كان شخصية ممتازة ، عظيم الاحترام لدى الفرعون إذ كان يقوم بوظيفة مرتل في الصلاة الملكية . ومن ذلك يتضح أنه لم يكن من أشرف الأقاليم بل كان موظفًا ملكيا ، وقد خلفه ابنه « حرخوف » ؛ وكان معاصرا للملكين « مرن رع » ثم « يبي الثانى » . وكان يلقب كذلك مدير القوافل ؛ ولكن نجم سعه قد علا بسرعة إذ قلده الملك أعظم الألقاب التي تدل على حظوته لديه : « المحبوب من سيده » ، « الذى فى قلب سيده » ؛ ثم رقى إلى رتبة أمير ، ونائب الملك فى « نخن » ، هذا إلى أنه كلف بعمل مرتل الفرعون وهى الوظيفة التى كان يشغلها والده .

وقد وكل الفرعون إلى « حرخوف » أمر حماية الحدود الجنوبية في مصر العليا ولما كان هو حاكم الأقطار التابعة للملك فإنه استوطن في وسط

جنوده بالقرب من الفتين حيث وجد قبره (انظر جزء أول ص ٣٨٨ الخ) وأشهر مديري القوافل بعد « حرخرف » في الفتين هو « يبي نخت » . والظاهر أنه ابن أحد الشخصيات العظيمة من الأجانب « حكايب » الذي وصل إلى قمة المجد ويلوح أنه رقى على ما يظهر بعد والده « بن إدب خو » أمير الفتين .

وقد دفن « حكايب » في اسوان ولكن ملاحظه لاتدل على أنه كان مصرياً . فقد مثل على جدران مقبرته مجعد الشعر اسمر الجلد وفي منطقته خنجر . وكان بصفته مدير القوافل يقود الجنود المرتزقة من النوبيين المسلحين بالقوس والنشاب ويتقدمهم اللاعبون على القيثارة . ولاشك في أنه كان من نسل أحد المرتزقة النوبيين ، ولايبعد أنه كان رئيس قبيلة دخل في خدمة الجيش المصرى ثم أظهر براعة ورقى إلى أعلى درجة في قيادة الجنود المرتزقة حتى حصل في النهاية من الفرعون على مقاطعة الفتين ولاية وراثية ؛ وقد بقيت الفتين منذ ذلك العهد إقطاعية لمدير القوافل حتى آتى « نخو » ثم ابنه « سبنى » وتركاً ظهرياً لقب رئيس الجنود المرتزقة ، ولم يحافظا إلا على لقب إمارة الفتين التي وضعتهما في صف أقوى أمراء الإقطاعات المصرية . وتاريخ رؤساء هؤلاء الجنود له أهمية خاصة ؛ إذ نجد أن قداماهم كانوا رؤساء جنود مرتزقة . ولم يكونوا أمراء مقاطعات بل كانوا موظفين ملكيين . وكانوا يقومون بحملات في بلاد النوبة في جهة أقاليم « إيام » و « إرث » و « نخو » و « تررس » و « سيثو » و « واوات » وكلها في جنوب الفتين ، ويعودون بثروة طائلة وقد كانوا يسيطون حمايتهم على رؤساء تلك الأقاليم التي كانت تعد بمثابة مستعمرة مصرية . وكانت

جيوشهم مؤلفة من مجندين من أهالى هذه الأقاليم وبخاصة من أهالى إقليم « إيام » ومعهم بعض الجنود المصريين . وهذه الحملات الاستعمارية كانت تقوم بغزوات تأديبية ضد السكان والرؤساء العصاة . وكان لأمرء القوافل أهمية خاصة عند الفرعون . وذلك أنه فى اللحظة التى كانت مصر تتمزق فيها إلى ولايات مستقلة ، وكانت السلطة الملكية تسكش بسرعة ، وكانت فيها موارد التاج تنقص يوما بعد يوم ، كان الملك يحفظ مباشرة تحت حمايته الأقاليم الجنوبية فكان يجبى منها جزية هامة ويجنّد منها جيش الجنود المرتزقة الذى كان يتألف منه فى عهد « ييبى الثانى » آخر نواة للجيش الملكى (على الأقل فى الوجه القبلى) . وتذكر لنا إحدى النقوش التى على صخور الشلال الأول أن الملك « مرن رع » ذهب بنفسه هناك ليتقبل خضوع رؤساء « مجا » و « إرثت » و « واوات » .

ورؤساء المرتزقة كانوا أكبر سند لسلطان الفرعون ، إذ كانوا ينصبّون أمراء نائبين عن الفرعون فى « نحن » ، ثم بعد ذلك لقبوا أنفسهم أمراء ، وبذلك أصبحوا أمراء مقاطعات وأسياداً لمقاطعة الفتين ، وهى الحصن الجنوبى الذى يحمى مصر ضد غارات الأقوام النوبيين ، ويضمن حماية الطرق التى تؤدى إلى الأقاليم التابعة لمصر . وتدل النقوش على أن رؤساء الجنود المرتزقة هؤلاء كانوا من أعظم حكام المقاطعات فى الوجه القبلى فى خلال النصف الأول من حكم « ييبى الثانى » .

ولانزاع فى أن أمراء مقاطعة الفتين قد وصلوا الى مرتبتهم هذه عن طريق وظائفهم رؤساء قوافل « إمراعا » . ولم تفتأ النقوش التى دونت تاريخ

حياتهم تذكرنا بالحملات التي قاموا بها للملك في بلاد النوبة وفي جهات بلاد « بنت » ، وكذلك تحدثنا عن شدة البأس والقوة والشجاعة التي بها أخذوا ثورات أهالي « إيام » و« إرثت » و« واوات » و« مجا » . ولقد كانوا دائماً في نضال ، وكثيرا ما كانوا يقومون بمصيان وكان « حرخوف » يتدخل في حروبهم للمحافظة على سلطان الفرعون فكان يساعد فريقا ليقضى على فريق آخر . وقد أخضع « يبي نخت » عدة رؤساء قبائل وساقهم معه أسرى تحت أقدام الملك في منف . هذا إلى أن هذه الحملات كانت منبع ثروة عظيمة إذ أحضر حرخوف من حملة ثلاثمائة حمار عملة بالبخور ، والأبنوس والعاج وكل المنتجات الطيبة . . . كالثيران والحيوانات الصغيرة . وكان كل من « حرخوف » و« يبي نخت » يفتخر بأنه حمل إلى الملك جزية أقاليم الجنوب ؛ على أن المركز الذي كان يشغله ، أمراء الفنتين عند الحدود الجنوبية لمصر باعتبارهم رؤساء طوائف المرتزقة جعلهم الأسياد الحقيقيين للأقاليم الجنوبية . وكان كل منهما فوق ذلك يلقب « برئيس أسرار كل حدود الجنوب على حين أن « يبي نخت » و« سبني » كان كل منهما فضلا عن ذلك يحمل لقب مدير الأقطار الأجنبية .

والحقيقة أن إدارة الجيش الملكي والأقطار الأجنبية الجنوبية أصبحت في أيدي رؤساء المرتزقة الأقدمين الذين أصبحوا أمراء المقاطعة (الفنتين) وقد بقوا رغم ذلك الحلفاء المخلصين للملك ولكن عند ما تحولت ولايتهم إلى مقاطعة وراثية تقلص سلطان الفرعون عليهم وبذلك انتزعوا من يد التاج البقية الباقية له من السلطان الفعلي ، إذ تلاشى على نفوذ جيش المرتزقة مما قضى على الدخل الذي كان يجنيه الفرعون من ممتلكاته الأجنبية بقوة هذا الجيش .

الجيش فى العهد الاهناسى

كانت حروب مصر فى عهد الدولة القديمة ضد اللويين فى الشمال الغربى من حدودها ، والنويين فى الجنوب وبدوسينا فى الشرق ؛ تختلف اختلافاً بيناً عن حروب الشعوب المجاورة لها كأهم غرب آسيا ، إذ كانت الاخيرة تشن الغارات للحصول على القوات أو لاستغلال الأراضى . أما حروب الفراعنة فكانت فى هذه الفترة ، لصد غارات القبائل المجاورة وتأديبهم ؛ أو للحصول على غنائم . ولاشك فى أن مصر كانت القاهرة المنتصرة فى هذه الحروب ، بسبب تقدمها فى الحضارة ، ومالديها من الأسلحة وحسن نظام فنونها الحربية ؛ التى كانت تفوق بكثير جيرانها الذين كانوا لا يزالون على الفطرة فى كل مرافق الحياة . وكان يفوق مصر رغم تنظيم جيوشها وما لديها من عدد القتال ، شعوب غربى آسيا ، وقد بقيت تمتاز عنها فى هذه الناحية ، حتى بداية عهد الدولة الحديثة كما سنفصله فيما بعد .

فى أواخر عهد الأسرة السادسة ، أنهار آخر سلاح الملك فى صعيد البلاد ، وذلك بانحلال جيشه من المرتزقة ، وتفكك سلطانه بقيام الإمارات المستقلة . والظاهر أن الفرعون كان لا يزال محتفظاً ببعض السلطان فى بلاد الدلتا . ولكن على وجه عام ساءت الأحوال فى جميع البلاد ، وانهز الأسيويون هذه الفرصة ، وعزوا البلاد وخرّبوا الدلتا تخريباً ذريعاً ؛ واستوطنوا البلاد كما تدل النقوش على ذلك . وقد سادت الفوضى فى مصر خلال الأسرتين السابعة والثامنة ، حتى أننا لم نقف على حوادث ثابتة فى هذه الفترة يمكن الاعتماد عليها من الوجهة التاريخية ، ولكن سلطان حكام

المقاطعات ، والبلاد العظيمة ؛ كان لا يزال قائما .

وقد أنقذ البلاد أسرة ملوك هرا كنبوليس (إهناس) في مصر الوسطى فكان أول عمل قاموا به على ما يظهر ، أنهم طردوا الغزاة ، وقاموا بتحسين الحدود المصرية (1) وبخاصة في الدلتا واتخذوا تدابير فعالة في الشمال الشرقى ، بتأسيس مدن صغيرة محصنة ؛ تبتدىء من الحدود عند طريق « حور » (بين القنطرة والقازم) ثم على طول نهر النيل ، حتى منطقة المنيا الحالية في مصر الوسطى . وقد جاء بعدهم « امينمحيث الأول » الذى فكر في تقوية هذه المعاقل ، وتدلتنا الآثار على أنه بنى حصنا أطلق عليه « جدار الملك » فى وادى طميلات . ولم تكن هذه الحصون قائمة لحماية حدود الدلتا فحسب ، بل كانت فى الوقت ذاته لمراقبة القبائل السامية من الأقوام الرحل الذين كانوا مسالمين ، ولكنهم كانوا يجولون بين السويس ومصر الوسطى . ولا أدل على قيام هذا النظام فى عهد فراعنة الأسرة الثانية عشرة وضرورته لهم من أنهم عهدوا إلى أمراء المقاطعة السادسة عشرة بحراسة الباب الشرقى ولقبوا أمراءه بلقب حاكم الصحراء الشرقية (2) .

وقد دلتا النقوش على أن اليقظة كانت شديدة ، والحراسة ساهرة فى هذه المعاقل ؛ إذ يقول لنا « سنوهى » عندما فر من معسكر الجيش موليا الأدبار : « ثم أسلمت الطريق إلى قدمى متجها نحو الشمال ووصلت إلى « جدار الأمير » الذى أقيم لصد الآسيوين . وقد خبأت نفسى فى شجيرات خوفا من أن يرانى حارس النهار فوق الجدار ، وعند الغروب مررت ، ولما طلع فجر النهار كنت قد وصلت إلى « بتن » ووقفت عند جزيرة « قمور »

(1) Erman, Literatur, (Sinuhe) p. 42. & 157. (2) A. Z. S, 65, p. 108.

(اسم للبحيرات التي عند برزخ السويس) « .
وكذلك عند عودة « سنوهى » إلى مصر وجد نفس اليقظة إذ قال :
« ثم سرت نحو الجنوب ووقفت عند ممرات « حور » (على حدود مصر ، على
الفرع البلوزى لليل ، ومنها كانت الجيوش المصرية تتحرك للغزو) . وأرسل
القائد الذى كان مكلفا بالحراسة هناك رسالة إلى مقر الملك تحمل الاخبار ،
فأرسل جلالة أحد ملاحظى الفلاحين ممن يثق بهم ، ومعه سفن محملة
بالهدايا من الفيض الملكى للبدو الذين تبعونى وأرشدونى إلى ممرات
« حور » ، وقد ناديت كلا منهم باسمه (لكى يقدمهم إلى الموظفين
المصريين) « . ولدينا كذلك لوحة معروفة فى مقابر أمراء بنى حسن تمثل جماعة
الساميين الرحل وقد أتوا إلى مصر بهدايا هى التى خولت لهم اجتياز
الحدود ، وهذه اللوحة تضع أمامنا صورة واضحة لدقة الحراسة ، وحسن
النظام ؛ فنشاهد فيها أن الذى يتقدم الجماعة هو الموظف الذى نراه دائماً فى
كل مناسبة ، وهو كاتب ملفات الفرعون . وهنا يقدم بياناً عن سبعة وثلاثين
أسيوياً ، ثم نرى بعد ذلك رئيس الحامية ، وهو الموظف المسئول ويحمل
لقب رئيس الصيادين .

ولقد عثر كذلك على لوحة من عصر الدولة الوسطى ، وهى الآن فى
متحف برلين ، لموظف آخر يحمل لقب رئيس الصيادين ، وفى الوقت نفسه
يلقب بمدير الصحراء الغربية (1) وفى هذه اللوحة وصف مختصر لنشاطه ،
ويقطعه بوصفه رئيساً للمرور والشرطة فى هذه الجهات فيقول : « لقد
وصلت إلى الواحات الغربية ، وخصت كل أطرافها ، وأحضرت الهاربين

(1) El Bersheh, II, pl. 13. Cairo, 20539. L. 16.

الذين وجدتهم هناك ، ولقد ظل كل جنودى سالمين ، ولم ، تحدث أية خسائر فى الأتفس بينهم » . يضاف إلى ذلك أننا نجد فى وصف البعوث التى كانت ترسل إلى وادى حمامات فى عهد الأسرة الحادية عشرة ؛ أن الصيادين كانوا فى الواقع كطلائع للبعوث . ولا شك فى أنه كانت تحت إمرتهم القبائل التى تسكن الصحراء كالعابدة والبشارين فى وقتنا الحالى .

ومما يدل على مقدار الهمة والنشاط واليقظة التى بذلها ملوك الأسرة الثانية عشرة ، ووسائلهم الناجعة فى تحصين مصر ما قاموا به من تحصين حدودهم الجديدة فى الجنوب ، إلى ما بعد الشلال الثانى بإقامة القلاع فى كل بلاد النوبة ، إلى جزر « بجه » و « الفنتين » حتى تمكن مراقبة جميع الوديان والسبل الموصلة إلى وادى النيل . وقد بقى هذا النظام قائماً حتى عهد الدولة الحديثة أما داخلية البلاد ، فكان التحصين فيها قد أوقف ؛ منذ القضاء على عهد استقلال المقاطعات فى عهد الأسرة الثانية عشرة . والواقع أن عواصم كل المقاطعات كانت محصنة بقلاع ، وذلك لصد غارات جاراتها إذا اعتدت إحداها عليها . ولقد كان هذا النظام بعينه متبعاً فى غربى آسيا حيث كانت كل عواصم المدن الكبيرة محصنة تحصيناً قوياً ، على أنه كان لمقر الملك والمعابد جدران تحيط بها ، ولكنها كانت تقام لأسباب أخرى اقتصادية وقانونية . إذ كانت تعد فى هذا الوقت معفاة من الضرائب .

الخدمة العسكرية : وقد كانت الخدمة العسكرية كما ذكرنا فى عهد الدولة القديمة ، خدمة إجبارية بطريق التجنيد . فكانت كل مقاطعة بما فيها المعابد وما تملكه يجند منها الجنود ليعملوا فى قطع الأحجار أو للقيام بغزوات فى الجهات التى تظهر فيها أية ثورة أو عصيان ، أو لمحاربة أمراء المقاطعات ،

ولا نعرف القاعدة التي كانت متبعة في التجنيد في البلاد ، والظاهر أنها موكولة للأحوال ، وقد عثر على لوحة من عهد الأسرة الثانية عشرة ، تلقى بعض الضوء على مقدار نسبة المجندين في هذه الفترة ، وإن كان ما جاء فيها لا يعد مقياساً يمكن اتخاذه قاعدة . وهذه اللوحة تخبرنا أن الإبن البكر لأحد الملوك كان كاتباً للجنود عند تجنيده بإحدى فرق إقليم طينة ، وأنه كان يأخذ المجندين بنسبة $\frac{1}{10}$ من الرجال . (1)

وتدل كل الأحوال أن النظام كان سائداً ، في فصائل الجنود الحربية ؛ منذ عهد الدولة القديمة . هذا إذا اتخذنا ما وجدناه على آثار هذه الفترة مقياساً ؛ إذ عثرنا في الرسوم التي على جدران الطريق الجنائزى لهرم الفرعون « وناس » أن كل فصيلة من الجنود كانت تحت إمرة ضابط معين ؛ فكان من بينهم ضابط الخمسة ، وضابط العشرة ، وقد ظن بعض المؤرخين أن هذا النظام لم يظهر إلا في عهد الدولة الحديثة ، على أن نماذج الجنود التي عثر عليها في مقابر جبانة أسيوط ؛ تشعر بأن مثل هذا النظام كان متبعاً في تلك الفترة أيضاً . ولا غرابة في ذلك فإن الروح الحربية في هذا العهد الذي بلغ فيه نظام الأقطاع أوجه كانت شديدة نامية ، ويرجع السبب الحقيقي في ذلك إلى الحروب التي كانت متفشية بين حكام المقاطعات أنفسهم ، أو بينهم وبين الفرعون ، وذلك للاستيلاء على أراض زراعية ، من الأراضي التي يرويها ماء النيل . ولا غرابة إذا كنا في خلال الاسرتين التاسعة والعاشر نجد نقوشاً هامة في مقابر أسيوط ، عن أخبار الحروب الطويلة التي نشبت في هذه المدة ، ولعب فيها أمراء أسيوط دوراً هاماً ،

(1) Erman & Schäfer. A. Z. S. t. 38 p. 42.

بجانب الفرعون وكذلك نجد رسوما تدلنا على مبلغ تنظيم الجيش ، وفرقه وتسليحه هذا ؛ إلى أننا نجد في مقابر الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة في بنى حسن والبرشا وغيرهما مناظر تدلنا على اعتناء القوم بتمرين الشباب على الألعاب الرياضية ، وكذلك على مناظر تمثل مواقع حربية ، وحصار الحصون والقلاع وغير ذلك مما يدل على انتشار الروح الحربية . ولا شك في أن كل هذا كان موروثا عن الدولة القديمة ، فقد وجدنا مناظر تشبه ذلك في هذا العهد ، وبخاصة التمرين على الألعاب الرياضية (مقبرة « تي ») . وقد جادت الصدف بأن عثر في عام ١٨٩٥ على بعض نماذج من الجنود مصنوعة من الخشب في إحدى مقابر عليا القوم في جبانة أسيوط ،

وقد شوهدها فيها أن الضباط كانوا مميزين عن الجنود بوضعهم على حوامل كل منفصل عن الآخر (١) .

وهذه المجموعة من النماذج تنقسم إلى قسمين ، فالتى على اليمين تمثل مشاة الصف ، وحاملى الحراب . والتى على اليسار تمثل المشاة الخفاف والرماة . ويلاحظ أن هؤلاء الجنود قد مثلوا سائرين صفا صفا ، كل صف مؤلف من أربعة جنود عرضا وعشرة جنود طولا . ويشاهد أن حاملى الحراب . برغم أنهم لم يجهزوا بعدة واحدة مشتركة لكل الجنود كان ارتفاع قامته كل جندي منهم فوق المتوسط . أما لونهم الأحمر فبينم عن أصلهم المصرى الصميم ويضعون على رؤوسهم شعرا مستعارا قصيرا يقوم مقام القبعة وكان فى الحقيقة يحمى الرأس من ضربات العدو ، كما كانوا يلبسون على أجسامهم

(1) Grebaut, Musée Egypt. I, pl. 33-36, & Klebs, Reliefs, Mr. p. 154.

قيصاً قصيرا من النسيج الأبيض مشدوداً على وسط الجندى بشريط رفيع مكشوف بعض الشيء من الأمام ومسدول على منتصف الجسم حتى منتصف الفخذ فيه كيس مدلى ليستر عضو التناسل .

أما الرماة فكانوا خليطاً من المصريين واللوبيين الذين جندوا من بين القوم الذين يعيشون على حافة الصحراء ، وهم في الغالب أقصر قامة من حاملي الحراب ؛ ويلاحظ أن بعضهم كان غاية في القصر ، وكان بعضهم يرتدى على رأسه القبعة التي يلبسها حاملوا الحراب ، وبعضهم يلبس شعرا مستعارا مختلفا وبخاصة أصحاب الشعر المجعد الذي مثل مصفوقا فوق بعضه . أما ملابسهم فكانت لا تتعدى شريطا أبيض من النسيج مثبتا على وسط الجندى بحزام من الجلد يتدلى منه شريط آخر مزين بألوان ، ويستر عضو التناسل . وهؤلاء القوم كان لون بشرتهم يميل إلى السمرة المائلة إلى السواد وهذا يرجع إلى فعل تأثير الشمس .

ويتسلح الجنود المشاة بحربة وخنجر ودرع ؛ ويبلغ طول الحربة قامة الرجل المتوسط الطول أى نحو ٧٠ سنتيمترا ، وتنتهى كل حربة بسلاح مدبب على شكل ورقة الصفصاف ، وكان الجندى يحمل الحربة مرفوعة إلى نصفها وقت المسير ، ويكون جسم الجندى مع ذراعه الذى يقبض على الحربة زاوية قائمة . أما الدرقه فشكلها مستطيل من أسفل ، ومقوس من أعلى ، ومادتها خشب خفيف كسى سطحه الظاهر بجلد ثور حيك بسير من الجلد ، وكانت تلون رقعة الدرقه باللون الأبيض ثم تزين برسوم مختلفة ، ولا يوجد للدرقه إلا مقبض واحد من الخشب مثبت فى وسطها الداخلى حتى ثلثى ارتفاعها . وكان الجندى يحملها بذراعه المنعطف نحو الجهة اليسرى

وقت المسير؛ أما في ساعة الحرب، فكان يستعمل حربته ودرقته كأهالى قبائل إفريقية الذين لا يزالون يستعملون نفس هذا السلاح . فكانت الدرقه توضع أمام الجندى كأنها جدار متحرك ، وكانت تخفى الجزء الأعلى من فخذه ، والجزء الأسفل من البطن والصدر والكتفين ؛ أما الجزء المقوس منها فكان يمكن الجندى من أن يرى منه خصمه ، ويتتبع حركاته بكل دقة ، مع أنه كان يغطى وجهه في الوقت نفسه . أما الحربه فكانت ترفع إلى محاذاة ارتفاع الرأس ، مع انحناء طرفها قليلا نحو الأرض . وكان لا يستعملها الجندى كما تستعمل الآن ؛ بل كان يجعلها تنزلق بين أصابع يده عند الطعن بها لتتطلق كما ينطلق المزارق ، ثم لا يلبث أن يقبض بيده عليها قبل أن تصل إلى نهاية مقبضها وذلك ليذكر الضربة ويجعلها تغوص في جسم العدو .

أما الرماة فلم يكن لديهم من آلات الحرب إلا القوس وبضعة سهام لا تتجاوز الاربعة . وقد ذكرت لنا قوائم القرايين المأتمية في الدولة الوسطى أنواعا عدة من الاقواس بأجهزتها ؛ وهذه القائمة تحدد لنا بصفة قاطعة معنى العلامة الهيروغليفية التي أراد بعض الأثريين أن يروا فيها المقلاع . والواقع أنها جبل قوس ؛ أى كان مصنوعا من خيوط من الجلد المجدول ، أو من ليف أو كتان أو قنب ، أو الشعر المجدول . أما حزمة السهام التي نجدها في غير هذا المكان فموضوعة في جلد ثعبان أو جلد أو قطعة من النسيج أو الكتان ؛ أما الكشانة فيقال إنها لم تستعمل إلا في عهد الهكسوس ، وذلك لأنها من أصل أسبوى ، كما يدل على ذلك اسمها . أما السهام فأطرافها مصنوعة من الطران وهي حادة في الغالب ؛ وكذلك كانت تصنع من

النحاس ، وهذا يبرهن على أن النحاس والظران كانا يستعملان معا رغم وفرة الأول ومثاقته .

ولانزاع في أن السبب في وجود مثل هذه الجيوش المنظمة في المقاطعات ؛ هو قيام الاضطرابات التي استمرت عشرات السنين في داخل البلاد بين الامراء أنفسهم وبين الفرعون كما أوضحنا ذلك في حينه عند الحروب التي كانت منتشرة في طول البلاد وعرضها في تلك الفترة ، ولذلك كان يرى كل أمير مقاطعة عظيمة أنه لا يمكنه الاحتفاظ بكيانه إلا بتأليف جيش يعتمد عليه من أتباع مخلصين من المصريين وغيرهم من النوبيين واللوبيين ، والساميين الذين كانوا يتخذون هذه المهنة حرفة لهم ، حتى أن أحد حكام المقاطعات ، كان يفخر بأن جنوده على أحسن ما يكون من شدة العناية بالأهلين ، والأمن في إقليمه . إذ يقول : « وجاء الليل وكان كل سابل في أثناء الليل يشكرني ، لأنه كان آمنا كمن كان في منزله لأن رهبة جنودي قد حتمه . »

على أن هذا الخليط من المجندين لم تجمعهم جامعة الوطنية بل جمعهم رابطة المنفعة المحضة ، فاذا تراخى أمير المقاطعة في إطعامهم أو ملاحظتهم عاثوا في الارض فسادا ، والنصوص القليلة التي ورثناها للآن عن هذا العصر تمدنا رغم قلتها بمعلومات لا بأس بها عن حالة هذه الجيوش في هذا الوقت المضطرب ، وترينا أنها كانت أحيانا كابوسا جاثما على الأهلين وذلك إذا ماغفل عن راحتها ولى أمرها .

ومن أجل ذلك نجد أن ابن حاكم مقاطعة هرموبوليس (الاتمنونين في هذه الفترة) كان يفاخر بأنه حتى الأقليم من ظلم الجنود (محاجر حثوب) .

وقد كان طيعيا أن تكون هذه الجيوش الإقطاعية سندا للملك الحاكم عند قيام أى حرب ، ولكنها فى الوقت نفسه ، كانت دافعا لحاكم المقاطعة لإعلان العصيان على سيده عندما تسنح له الفرصة اعتمادا على ماله من قوة وسلطان .

ولهذا نرى أن بعض الحكماء يحذرون من ذلك فيقولون : « لايدخلتك (١) الكبر اعتمادا على ماله من قوة يمثلها جنودك ، واحذر أن تتور ، فان المرء لايعلم ماذا يحدث وماذا يفعل الا له (الملك) ليعاقبك » ولكن بجانب هذا نرى أن أحد حكماء هذا العصر ينصح الملك بلجاجة أن يضع نصب عينيه سلامة جيشه والاستعاضة حالا عن يفقد منهم : « وافق على (١) العالوات التى تمنح لرجال حرسك حتى يجدوا الكفاية من المأكل وأعطهم الأرض ليستغلوها ، ويجب أن تكون فيها ماشية » . ومن ذلك نفهم أن احتياطي الجيش ، قد نظم على شكل مستعمرات فكان كل جندي يأخذ من سيده مقدارا معيناً من الأرض ليعيش هو وأسرته من ريعه ؛ والظاهر أن هذا النظام قد بقى متبعا فى البلاد طول حكم الفراعنة بل والإغريق ؛ وفى القرن الخامس قبل الميلاد ، كان كل جندي يملك نحو سبعة أفدنة ونصف فدان من الأرض الصالحة ، ويعد أنه يعيش فى رغد من العيش . وتنسب الأساطير إلى « سوزستريس » الخرافى « سنوسرت الثالث » ؛ القانون الذى حدد به هذا المقدار من الأرض ؛ ولم يكن يفرض على الجنود ضرائب ، وكذلك كانوا معفين من كل سخرة أثناء تأديتهم وظيفتهم فى ساحة القتال ، وفى غير هذا كانوا كباقي أفراد الشعب ، وقد

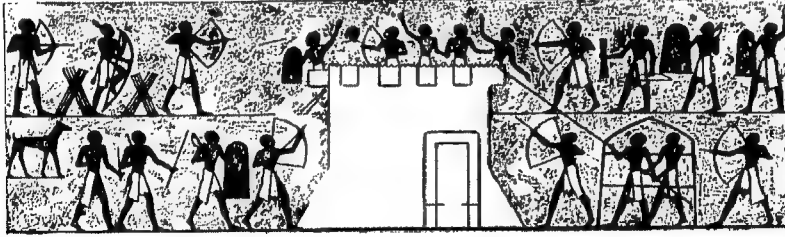
(١) Pap. Petersburg, 1116A; et ed. Gollenischeff L. 60.

كان الكثير منهم لا يملك أية ثروة أخرى . فكانوا بذلك يعيشون عيشة الفلاح المتقلبة فيفلحون الأرض ، ويحصدونها ، ويرعون ماشيتهم ما بين كل حرب وأخرى . أما أصحاب اليسار منهم ، فكانوا يؤجرون نصيبهم من الأطنان بأجر معتدل مما كان يزيد في دخلهم الذي ورثوه عن آبائهم ؛ وفي ذلك يقول « ديدور الصقلي » « كان الفلاحون يقضون حياتهم في زراعه الأراضي استأجروها بأجور معتدلة من الملك أو من الكهنة « أو من الجنود المحاربين » ولما كان يخشى نسيان هؤلاء الجنود الشروط التي تملكوها بها هذه الأراضي ، أو أن يعتبروا أنفسهم ملاكا حقيقين كانت لا تترك نفس قطع الأرض في أيديهم مدة طويلة إلا ماندر . وقد أكد هردوت أن أنصبتهم كانت تؤخذ منهم كل سنة ، ويعطون غيرها في مثل مساحتها وإنه لمن الأمور الصعبة جداً أن نعتقد دوام استعمال قانون تغيير الأراضي هذا ، غير أن هذا لم يمنع طبقة الجنود أن يكونوا من أنفسهم فئة أرستقراطية فيما بعد . ولم يكن في مقدور الملوك وأمراء المقاطعات التفاوض عنها ، وكانت تدون أسماؤهم في سجلات خاصة ، مع بيان ممتلكات كل واحد منهم في وقته ؛ وكان هناك كاتب حربي خاص بهذا السجل في كل مقاطعة ملكية أو ولاية إقطاعية وكانت وظيفته توزيع الأراضي ، وتسجيل الامتيازات ، يضاف إلى ذلك أنه كان في زمن الحرب يقود الجنود الذين كانوا يجندون من الإقليم الخاص بسجله ، وفي هذه الحالة ، كان له مساعد يقوم نائباً عنه في الحرب إذا قضت الضرورة بذلك .

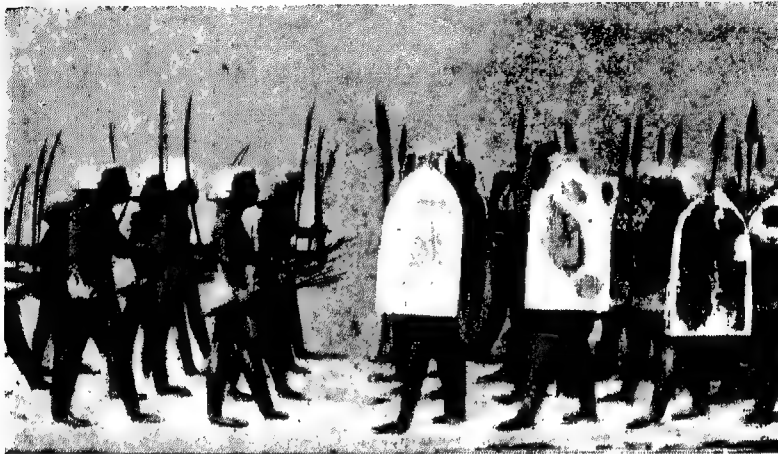
ولم تكن الخدمة العسكرية وراثية ، ومهما ظهرت فوائدها ضئيلة في نظرنا فإنها كانت في أعين الفلاحين عظيمة ، في حين أن معظم الذين

أدوها ، كانوا يخربطون أولادهم فى سلكها . وقد كان يؤخذ المجند وهو صغير السن إلى التكنات حيث كان يتعلم كيفية الرماية بالقوس والنشاب ، واستعمال بلطة الحرب ، والدبوس ، والحربة والدرقة ، وكذلك كانوا يتمرنون على الألعاب الرياضية التى تجعل الجسم مرنا ، وتدريبهم على فنون الحرب والسير العسكرى ، والسكر والفر والقفز ، والمصارعة بأيديهم مفتوحة أو بالمللكة ، وكانوا يعدون أنفسهم للموقعة على شكل رقص حربى منظم أو بالوثب واللف ، والتلويح بالقوس والنشاب فى الفضاء ؛ وعند الفراغ من تعلمهم كانوا يدبحون فى الفرق المحلية ويمنحون امتيازاتهم ؛ وعند ما تكون الحاجة ماسة إلى أحد منهم ، كان يطلب بعضهم أو كلهم للانخراط فى سلك الجيش ، وكانت الأسلحة التى فى بيت السلاح توزع عليهم ، ثم يحملون فى سفن إلى ميدان القتال ، ولم يكن المصرى فى هذه الفترة بطبعة حرياً لأن الحاجة لم تكن ماسة إلى ذلك ، ولأنه كان بطبعه زارعا .

والواقع أن العصر الأهناسى هو أول مظهر من مظاهر النشاط والرجولة الحربية التى أخذت تنمو فى البلاد تدريجاً ، وكان النواة التى نشأ منها جيش مصر من رجال مدربين بالوراثة وهم الذين كان من نسلهم الجنود الذين أسسوا ملك « أمنمحيث » وقاموا بحروب « سنوسرت الثالث » فى بلاد النوبة ، وطردوا الهكسوس من مصر وتوغلوا فى آسيا حتى دجلة والفرات بقيادة « تحتمس الثالث » .



المجوم على حصن مصرى بجنود مسلحين بأسلحة مختلفة



جنود مسلحون من المهد الاقطاعى (أنظر ص ٤٩٣)

مصادر عن الجيش في عهد الدولة القديمة والعهد الاقطاعي

لم تصلنا وثائق عن الجيش في عهد الدولة القديمة حتى الآن وكل ما لدينا ينحصر في الألقاب والوظائف الخاصة بالأُمُور الحربية وهذه وفيرة جدا، وبخاصة في عهد الأسرتين الخامسة والسادسة؛ ومنها أمكننا أن نكون هيكلا لنظام الجيش في هذا العهد؛ وقد ساعدنا على ذلك بعض الرسوم التي عثر عليها في المعابد الجنائزية. أما في العهد الإقطاعي فقد اسعفتنا الرسوم التي عثر عليها في مقابر أمراء المقاطعات تعززها الكتابات التفسيرية والمواقع البحرية والبرية التي حدثت في تلك الفترة.

على أنه من جهة أخرى لم تجمع كل المعلومات التي وردت في المتون المصرية عن الجيش بطريقة منظمة سلسلة يمكن بها تتبع تدرج الجيش والانظمة الحربية في هذين العهدين اللهم إلا بعض تف متفرقة مبعثرة في كتب التاريخ وغيرها وأهمها ما يأتي :

(1) Kees, *Ägypten* : p. 227-242.

فحص الأستاذ كيس في هذا الفصل نظام الجيش المصري وأصلحته والحصون والقلاع بصفة عامة في مختلف العصور.

(2) Pirenne, *Histoire des Institutions de l'ancienne Egypte*. 3 Vol.

أهم ما يلفت النظر فيما كتبه الأستاذ بيرن عن الجيش في عهد الدولة القديمة أنه جمع كل الألقاب والوظائف ومنها أمكن استخلاص بعض حقائق غاية في الأهمية عن الجيش ونظمه في تلك الفترة الغامضة في تاريخ الحروب المصرية.

(3) Erman- Ranke, *Ägypten und Ägyptisches Leben*. p.p. 620-657.

كتب الأستاذ إرمن مقالا عن جيش مصر وحروبها في مختلف عصور تاريخها القديم، غير أنه لم يذكر لنا شيئا كثيرا عن الجيش في عهد الدولة القديمة إلا أشياء طفيفة جداً.

- (4) Maspero, The Dawn of Civilisation, p.p. 305, 306, 307, 452, 450-3.

تكلم الأثرى العظيم مسبرو عن الجيش عامة فى كتابه هذا ونظامه وذكر ماكتبه هردوت وغيره من المؤرخين الأقدمين وعن بوصف الحصون فى ذلك العهد، والجيش الإقطاعية ونظامها وعددها وأسلحتها.

- (5) Bonnet, Waffen der Volker des Alten Orients, p. 70, 92, 135, 210.

تكلم هذا المؤلف عن الأسلحة التى كانت تستعمل فى الشرق القديم عامة، وكتب عن مصر فى جهات متعددة ووصف الأسلحة التى كانت مستعملة فى مصر فى كل عصورها القديمة.

- (6) Wolf, Bewaffung des Altägyptischen Heeres.

يعد هذا الكتاب أحسن ماكتب عن التسليح فى مصر قديما وقد عنى المؤلف برسم كل الآلات الحربية التى استعملها المصرى القديم فى كل عصور تاريخه. وقد ذكر لنا شيئا كثيرا عن الآلات الحربية فى عهد ما قبل التاريخ وعهد الدولة القديمة.

- (7) Grebaut, Musée Egyptien, pl. 33-36; & Wreszinski, Atlas, II pl. 15; Klebs, Reliefs MR. p. 154 f.

نجد فى هذه المؤلفات مناظر للجيش فى العهد الإقطاعى. هذا ونجد كثيرا من المعلومات وبخاصة الألقاب فى المتون التى جمعها الأستاذ زيته عن الجيش فى عهد الدولة القديمة فى كتاب أركندن Urkunden عن الدولة القديمة.

- (8) Breasted, A History of Egypt. p.p. 63, 84, 134-35, 153, 167-68.

أشار الأستاذ برستد فى كتابه عن تاريخ مصر إلى الجيش فى عهد الدولة القديمة بدون توسع وكذلك لمّح عن وجود جيش قائم فى عهد الدولة الوسطى).

الأسره فى عهد الدولة القديمة

نظام الفردية فى عهد الأسرتين

الثالثة والرابعة

أقدم الوثائق التى تنبئ عن كيفية تأسيس الأسرة المصرية يرجع عهدها إلى عصر متون الأهرام؛ إذ تقرأ فى قوشها أن الكهنة المصريين القدماء عند ما أرادوا أن يمثلوا للشعب تكوين العالم مثله فى صورة مما يحدث أمام أعينهم، ويقع تحت حسم وأضفوا عليها ثوباً دينياً عليه مسحة من الغموض والرغبة وإن كان فى أصله لا يخرج عن دائرة الحس والمحسوس .
لذلك يقول علماء اللاهوت فى أصل العالم إنه كان يطفو على سطح المحيط الأذى (نون) بيضة خرج منها الإله آتوم وهو المسمى فى التوراة والإنجيل والقرآن آدم عليه السلام . ثم تقص علينا الأسطورة أن الإله « آتوم » وفى رواية أخرى الإله « رع » عطس وتقل قنشا من ذلك ذكر وأثنى وهما الإله « شو » (ولفظه يمثل صوت العطس) إله الفضا ، والآلهة « تفت » (وتمثل صوت التفتة) وهى إلهة الندى . ثم تناسل هذان الإلهان « جب » إله الأرض « ونوت » إلهة السماء وكانت السماء والأرض رقاً ثم فتقتا . ثم كان منهما نسل فرزقا الإله « أوزير » والإله « ست » ثم الآلهتين « إزيس » و « نفتيس » . ويجد الباحث فى الديانات المختلفة ما يشبه ماورد فى هذه الأسطورة . وقد جاء فى أقاصيص المصريين أن العالم كان يحكمه الآلهة قبل أن يحكمه بنو البشر، وينسبون ملوك مصر إلى سلسلة النسب الإلهى الذى ذكرناه آنفا .

وتدل متون الأهرام على أن الآلهة كان يرث بعضها بعضا كبنى

البشر . وثبت ذلك من نصوص الأهرام إذ جاء فيها ما يأتي : — (1) « يا أوزير
 أنت ابن « جب » الأكبر وبكره وورثته ثم يقول : « إنه ابني وعزيزي
 وأول من ولد لي وهو الذي يجلس على عرش « جب » وهو الذي قد ارتاح
 إليه « جب » وهو الذي أعطاه ورثه أمام التاسوع الإلهي العظيم » . وبدلول هذا
 المتن يقرر بصراحة نظاماً للأسرة يظهر فيه الابن الأكبر بأنه هو وارث
 والده بعد وفاته ، وإن كان لا يمكن بالضبط أن تقرر في أي عصر أصبحت
 متون الأهرام معمولاً بها . ومهما يكن من شيء فإن بعضها يرجع إلى عصور
 سحيقة أعرق في القدم من عهد بناء الأهرام التي تقست عليها ، وبعضها
 حديث كتب في عهد بناء الأهرام ، من أجل ذلك يتعذر اتخاذ هذه المتون
 أساساً لمعرفة بداية تكوين الأسرة في عهد الدولة القديمة . وأقدم وثيقة
 شرعية وصلت إلينا لها علاقة بحقوق الأسرة هي ترجمة حياة العظيم « متن » (2)
 الذي عاش في عهد أواخر الأسرة الثالثة وبداية الرابعة وهو ابن « إنبوإم
 عنخ » الذي كان موظفاً قضاياً ، أما أمه فتسمى « نبست » والمطلع على
 تاريخ حياة هذا الرجل العظيم يجمع معلومات هامة جداً عن توارث العقار
 في أسرته . وعلى ما يظهر أنه ورث جزءاً من أملاك والده يشمل على أرض
 وفلاحها وعلى ماشية فيقول : « الموظف القضائي « إنبوإم عنخ » ، قد وهب
 عقاره ولم يكن من محتوياته جوب أو أثاث منزل بل كان يشمل
 ماشية وفلاحين » .

نظام الأسرة حسب
 جاء في متون الأهرام

أهمية نصوص « متن »
 من الوجهة الشرعية

أما أمه « نبست » فقد كتبت وصية لأولادها كان نصيب « متن »

(1) Sethe, Pyramiden Texte. 1814. (2) Sethe, Urkunden, I, p. 17
 et Suiv.; Moret, R. Tr. XXIX p.p.57, 75; Erman- Ranke, Ägypten,
 p.p. 99-100.

فيها ١٥٠ أرورا من الأرض . ويعتقد الأستاذ « موريه » أن « متن » قد وهب أولاده مدة حياته ١٢ أرورا من أطيانه . والواقع أننا لانعرف من أولاده بالضبط إلا ولداً واحداً ورد ذكره عرضاً ؛ ولا يبعد إذا أن أولاده الآخرين كانوا من الإناث . وهذه المعلومات كافية في وصف الموقف الشرعي للأسرة في أواخر الأسرة الثالثة .

فترى أولاً ان أم « متن » قد تصرفت بكامل حريتها في ملكها ، إما بالوصية أو بالهبه ما يدل على أنها كانت تملك في يدها سلطة شرعية مطلقة ، فلم تكن تحت سلطان زوجها أو تحت وصاية ابنها أو أى إنسان آخر ، وكذلك لم تحتلظ أملاكها بأملك زوجها أو أملك أولادها الذين قسمت أملاكها بينهم . ولم يذكر لنا « متن » زوجته في نقوش قبره مما يدل على أنها كانت مستقلة عنه شرعاً ، ومن المحتمل أنه كان لها مدفن خاص وشعائر خاصة . ويلاحظ هنا أننا لم نر ميزة خاصة للأبن الأكبر أو حق وراثة الأولاد ، ولكن من جهة أخرى لم يذكر لنا « متن » أنه هو الابن الأكبر ولم يذكر لنا إخوته الذكور أو الإناث وذلك طبعاً لأن ثروته لم تحتلظ بثروتهم . نستنتج من هذا أن الأولاد كانوا يرثون عقار والديهم بالتساوى من غير تفرقة في أنصبتهم . وهذه النتيجة تظهر لنا شرعية إذا علمنا أن « متن » من جهة قد وهب أولاده أملاكه دون أن يميز بين الذكور والإناث . ولدينا وثيقة لأحد العظماء من عهد « خوفو » تثبت حق وراثة الذكور والإناث أملاك والدم وأعنى بذلك وصية الوزير والأُمير « نى كا ورع » ابن « خوفو » ؛ وذلك أنه خلافاً لما أوصى به لزوجته قسم عقاره بين أولاده بوصية على وجه التساوى تقريباً . فأعطى كلا من ولديه ثلاث ضياع وأعطى

مساواة المرأة للرجل
في عهد الأسرة الثالثة

المساواة في الورث
بين الأولاد

بنتا وطفلا آخر لم نعرف اسمه ضيعتين⁽¹⁾ لكل منهما، ومن هذا المتن الأخير يتبين نظام الوراثة بين أفراد الأسرة المالكة، وقد نظم وفق مبادئ الحقوق العامة، ولا يبعد أن ذلك التقسيم كان في وقت عقد الزواج بين الرجل وزوجته، وأنه قد حددت فيه أملاك كل منهما، هذا لا يمنع الزوج من أن يوصي لزوجته بشيء من ممتلكاته تفوق غالباً نصيب أحد أولاده كما تدل على ذلك الوصايا التي عثرنا عليها من عهد الدولة القديمة. فمثلاً الأمير « نى كاورع » السالف الذكر قد أوصى لزوجته بأربع ضياع. وهذا أكبر نصيب أخذه كل واحد من أولاده وهو ثلاث ضياع. وكذلك نشاهد أن « نكمنخ » أحد كبار رجال الدولة في عهد الملك « وسركاف » من الأسرة الحامسة قد جعل لزوجته تشاطره في جزء هام من دخل⁽²⁾ إقطاعاته الجنازية. وكذلك أوصى الكاهن « إدو » الذى عاش في عهد كل من الملك « ييبى الأول » و « مرن رع » و « ييبى الثانى » لزوجته « دسك » بضبعة كاملة.

نصيب الزوجة من
أملاك بعلها

ولا يخفى إذا أن حقوق الأسرة في عهد الأسرة الثالثة قد ظهرت أمامنا متميزة بعضها عن بعض، وأن الأسرة نفسها تجلت في أضيق حدودها، إذ كانت تتألف من الأب والأم والأطفال فحسب ويعزز هذا الرأى أننا لم نجد فروع نسب في مصاطب الأسرة الثالثة؛ إذ اقتصر المتوفى على أن ينقش على جدران قبره تاريخ حياته أو يذكر لنا أسماء والديه وزوجته وأولاده كما نشاهد ذلك في مقبرتى « رع حتب » و « حسى » ولكن من جهة أخرى يذكر لنا المتوفى ألقابه غالباً كاملة، ولا نزاع في أن هذه إمارات

الفردية في الأسرة

(1) Br. A. R. t. I, 191-199. (2) Op. Cit. 213-235.

تدل على فكرة الفردية ، إذ أن الرجل كان يظهر نفسه قبل كل شيء بمظهر المستقل المنزل لأعضوا من أسرة مترابطة العناصر ، فلم يفاخر بأجداده بل كان كل فخره ينحصر في دائرة نفسه ومحيط ذاته . وفوق هذا فإن الأسرة في هذا التكوين الضيق الأتق لم تكن تؤلف وحدة شرعية بل كانت مؤلفة من شخصيات مميزة مستقلة فالزوج والزوجة على قدم المساواة المطلقة ولكل منهما ملكه الخاص يديره ويتصرف فيه بكل حريته والسلطة الزوجية معدومة ولا رقابة على النساء ، ونشاهد في قبور الأسرة الثالثة أن النساء لم يدفن مع الرجال ، فلم يذكر لنا العظيم « متن » في نقوشه اسم زوجته التي كانت على ما يظهر مدفونة في قبر غير قبره ، ولئن دفن الكاهن الأعظم « حسنى » في عين شمس من عهد الأسرة الثالثة في مقبرة واحدة مع زوجته « حتحور نفر حتب » فإن شعائر كل منهما كانت على حدة ، وهذا يدل على استقلال الشخصية حتى في الدار الآخرة . على أننا نشاهد أحيانا أن الزوجة كانت ترسم على قبر زوجها في عهد الأسرتين الثالثة والرابعة بالحجم نفسه الذى كان يرسم به الزوج مما يبرهن على أنها كانت مماثلة له في الشرف كما كانت مماثلة له في الحقوق .

المساواة بين الرجل
والمرأة في الحقوق
والشرف

ومن المحتمل جداً أن الزواج كان يعقد في عهد الدولة القديمة ، وإن لم تصل إلينا أية وثيقة من هذا النوع ، ولكن إذا كانت المرأة تملك عقارا خاصا بها ، فلا بد أن ممتلكاتها كانت تدون في وقت الزواج ، وعلى أية حال نجد أن الزوجة كانت تفوز بجزء من املاك زوجها ويكون نصيبها في العادة أكبر من نصيب أحد أولاده أخذاً من الوصايا التي ذكرناها . ومن الحق أن نبين هنا أننا لم نعثر للآن على حظيات لعطاء القوم في عهد الأسرة

الثالثة، ولكن يحتمل أن الملك كانت له حظيات وإن كان تعدد الزوجات معدوماً بين عظماء القوم وعامة الشعب. ومن الجائز أن المصرى كان يتزوج مرتين كما هو الحال مع « شرى »⁽¹⁾ بن « مرليب » مدير كهنة الملك « برليب سن » فى الجبانة الملكية من عهد الأسرة الرابعة وكذلك « دواكا » كاهن الملك « خفرع » فإنه قد رسم على قوش مقبرته زوجتين ولكن لم يكن له إلا زوجة شرعية واحدة. والواقع أننا لم نجد فى رسوم القبور ما يشعر بأى نوع من الحظيات كما سنرى فى الأسر التى تلت الأسرة الرابعة. أما الولدان الذين يذكرون فى النقوش سواء أكانوا ذكورا أم أنثا فانهم شرعيون وكانوا على قدم المساواة فى الحقوق فيثرون متاع والدم وأهمهم ويتمتعون مدة حياتهم ببهات آبائهم.

انعدام تعدد
الزوجات والحظيات
بين عامة الشعب

وبدئى بعد هذا البيان أن المرأة كانت مساوية للرجل تماما فى الحقوق كما كانت قادرة مثله على تملك عقار مما يؤكد الاستنتاجات التى استخلصناها من المركز الشرعى للزوجة. ولا يفوتنا بيان أنه لا وجود للسلطة الأبوية على الأولاد البالغين، إذ كان لهؤلاء أملاك خاصة منفصلة عن أملاك الأب والأم ولذلك كان فى مقدورهم أن يستفيدوا من كل هبة منهما ويمكنهم أن يتعاقدوا معها، وهذا مما كان يجعل فى يدهم كفاءة شرعية تامة مستقلة عن والديهم. وحالة الأنثا كحالة الذكور فلم يكن تحت رقابة الأب أو أية رقابة أخرى وذلك يثبت عدم وجود سلطة زوجية على المرأة.

عدم وجود السلطة
الأبوية على الأولاد
البالغين

(1) Mar. Mast. B. 3, p.p. 93 etc. Saqqara.

حق الوراثة

الأولاد هم الوراث
الشرعيون

كان عقار كل من الزوجين منفصلاً ، وكذلك كان كل منهما لا يرث الآخر إذ أن الوراثين هم الأولاد الشرعيون . فقد وجدنا أن « متن » قد استولى على عقار والده من غير وصية فامتلكه وفق القانون . وإذا كان « متن » قد أعطى أولاده هبة مدة حياته ، فإنه لم يكتب بذلك وصية فتملك عقاره أولاده بمقتضى القانون . على أن « متن » لم يرث عن أبيه فحسب بل كذلك ورث عن أمه . هـ أرورا من الأرض . ومن ذلك نرى أن الذكور والأنثى كانوا يرثون دون أن تكون هناك أية رابطة أسرية واضحة تجمعهم . ولم يكن لزاماً على الأب أو الأم أن يترك لأولاده كل عقاره إذ لم نجد بين ما تركه « إنبولام غنخ » والد « متن » أى أنثى أو ريش ولا شك فى أنه ترك هذا لزوجته إما بوصية وإما ضمن عقد الزواج .

ونجد فى عقد أوقاف تركه لنا أحد كبار رجال الدولة فى بلاط « خفرع » أنه اشترط حرمان خدام الروح « حوكا » الموكل بهم بإدارة الأوقاف حق التصرف فى أنصبتهم فى الوقف لا بالوصية ولا بالهبة ولا بطريقة العوض . بل يجب عليهم أن يتركوها لأولادهم وأحفادهم من بعدهم إلى الأبد . فإذا كان هذا العقد يحتم هذه الشروط على حرية والذ الأسرة (مدير الوقف) أى بعدم التصرف فى أملاكه الموقوفة مدة حياته فإن فى ذلك مايدل على أنه كان من حقه قانوناً أن يتصرف فيها لولا هذه الشروط . ومن ذلك يتضح أنه لم يكن هناك عقار أسرة غير مجزأ أجزاء مستقلة أى أن عقار الأب كعقار الأم كان كل منهما منفصلاً عن الثانى وأن وجود ذرية لهما لايفرض أى قيد على حقوق ملكية أحدهما ، وأن حقوق الأولاد

لا تكون شرعية إلا عند وفاة الأبوين وحينئذ تكون القسمة بينهما بالتساوى .

ومن ثم نوضح نظام الوراثة في عهد الأسرة الثالثة . فقد كانت تنفذ الوراثة عند الموت الطبيعي . أما ترتيب الورثة فقد نظمها القانون فالشرعيون منهم لهم الحق المطلق في عقار المتوفى (1) ولم يرع القانون في توزيع الإرث أصل العقار أو طبيعته . فلا يصبح ملكا للوارثين إلا مشفوعا بالتزامات واتفاقات وعهود كانت تفرض عليه وبخاصة الأوقاف الجنازية كما يتبين هذا في وصية « ثنتي » أحد أعضاء مجلس العشرة العظيم للجنوب ورئيس البعوث (2) . وكان العقار الموروث يسلم لأولاد المتوفى ، ومن تناسل منهم فإذا انعدم هؤلاء آل الإرث إلى إخوتهم وأخواتهم . وكانت أنصبة الأولاد ذكورا وإناثا متساوية اللهم إلا إذا كانت هناك وصية تنص على التفرقة . وكان أولاد المتوفى يحلون محل والدهم في عقاره ، على أن الورثة لم يكن لهم الحق في أملاك والدهم إلا بعد وفاته فحسب . أما توزيع الإرث فكان يمكن عمله بوصية من المتوفى وكان من حقه أن يورث أفرادا ليسوا بوارثين له كزوجته ، وكذلك كان يمكنه أن يميز أحد أبنائه عن إخوته كما ذكرنا آنفا . والظاهر أن التصرف الأخير كان لا يحرم أى ولد نصيبه الشرعى في إرث أبيه أو أمه ، فسئرى في عهد الأسرة السادسة أن « حرخوف » يقول : « إني لم أفصل بين أخوين بطريقة تجعل الابن يحرم من ميراث والده » . وفي هذا النص

نظام الورث في عهد
الأسرة الثالثة

(1) Br. A. R.t. I, 231. (2) Une Nouvelle Dispositive Testamentaire de L'Ancien Emp. A. C. Insc. p.p. 538. Paris, 1914

دلالة على أن كل أولاد المتوفى كان لهم الحق في عقار والدهم (1). ولا توارث بين الزوج والزوجة إلا بوصية.

الشعائر الدينية وإستمساك الأسرة بعروبيتها

إن إقامة الشعائر الدينية ترجع إلى بداية التاريخ المصرى . وتدل الدلائل على أن الأسرة في الأصل كانت تؤلف وحدة متماسكة متجمعة لإقامة الشعائر الدينية للجد الأكبر البعيد، ولما اختفى هذا المظهر أصبحت إقامة الشعائر فردية مستقلة في الأسرة فلم تعد تربط أفرادها بعضهم ببعض إقامة شعائر الجد المشترك القديم، بل كان لكل مصرى شعائر دينية مستقلة مما يدل على أن نظام الأنساب التاسلية قد زال منذ زمن بعيد جداً. ولا نزاع في أن التفكك في روابط ديانة الأسرة وإقامة شعائرها يرجع إلى أزمان سحيقة ويمكن أن نشاهد آثار ذلك في الأسرة الأولى . فمن ذلك أن ملكات مختلفات من هذه الأسرة قد دفن في القبر الملكى، وربما كان ذلك علامة على اشتراك الملكة في شعائر الملك، ومن ناحية أخرى نعلم أن إحدى الملكات قد دفنت في « نوبت » (نقاده وبلاص) وهي بلا شك تعتبر من الأسرة المالكة عابدة الإله « ست » ؛ وهي لم تدفن مع زوجها بل مع أجدادها، لأن الوحدة الأسرية قد اضمحلت ولم يكن لازماً على المرأة أن تقيم شعائر زوجها، وذلك لأن سلطة الزوج كانت قد أفل نجمها، أما شعائر الأسرة العامة فقد بقي منها القليل، وهذا هو سبب دفن المرأة في جبانة أجدادها. ومن الطبيعى أن يحدث تفكك الأسرة تطوراً في الشعائر الدينية، وذلك بالتوجه شطر الفردية التى وجدناها في الأسرتين الثالثة والرابعة فنشاهد ان الملكات الأسرة الرابعة قبورا منفصلة عن قبور الملوك

وحدة الأسرة في
العهد القديم والتغافيا
حول جد مشترك

آثار هذه الوحدة
وظهور نظام الفردية
في الأسرة

(1) Br .A. R. t. I, p. 331.

وفي المقبرة الملكية على مقربة من هرم « خوفو » مقابر عدة للملكات ولأبناء الملك وبناته (1)، وكان لكل من هؤلاء الملكات والأمراء شعائر خاصة تقام منفصلة عن شعائر الملك ، وقد ذكر في نقوش « متن » ما يدل على وجود أوقاف خصصت لإقامة شعائر الملكة « في معات حاب » على أن هذا لم يكن قاصراً على الملكات فحسب ، إذ تنبأ النقوش بأن « تححور نفر حتب » زوجة « خع باوسكر » وهو أحد رجال الدولة في عهد الملك « خع با » الذي يقال عنه إنه أحد أخلاف « زوسر » على العرش ، كان لها شعائرها وقرابينها الخاصة ، (2) ومن ذلك يتضح أن الفردية المستقلة قد امتدت حتى وصلت إلى إقامة شعائر الأموات وهذه الشعائر كان يحتفل بإقامتها أولاد المتوفى الذكور والأنثى وهذا كان آخر أثر للرابطة الأسرية وإن لم يكن ذا صبغة خاصة ، وسنرى أن المتوفين كانوا يجتهدون في أيام حياتهم أن يضمنوا استمرار إقامة شعائرهم ، وذلك بإنشاء وقف دائم . على أن الحكومة كانت تأخذ على عاتقها هذا العمل في بادئ الأمر فكانت تمنح موظفيها مرتبات ضخمة مدة حياتهم ، ومن جهة أخرى تضمن لهم الاحتفال بإقامة شعائرهم ، فتحبس عليهم دخلاً جنازياً خاصاً ولا أدل على ذلك من أن « متن » قد خصص لنفسه دخلاً جنازياً يشتمل على اثنتي عشرة ضيمة . أعطاه إياه التاج بصفته موظفاً ، ولم يمنع هذا الدخل على أنه وقف ، ولكن قد ضمتته الحكومة مباشرة ومن هذا نرى أن الحكومة كانت هي القائمة بتقديم القرابين الضرورية لإقامة شعائر

ظهور الفردية في
الشعائر الدينية

أصل الوقف

(1) Reisner, Mycerinus, p. 239. (2) Weill, II-III Dyn. p.p. 238 - 244. & Mar. Mast. p.p. 71-79.

موظفيها . ولدينا متون من عهد الأسرة السادسة تبرهن على أنه عند ما كان ينقطع نسل المتوفى تقوم الحكومة نفسها بتأدية شعائره . مثال ذلك أن « كارايبي نفر » حاكم مقاطعة أدفوي يعلن : « أنه دفن كل رجل لم يعقب ولدا في مقاطعته وجهزه بأكفان من الأوقاف الدائمة ⁽¹⁾ » . وكذلك يقول الوزير « رع نفر ششم » : « لقد دفنت من لا ابن له » ⁽²⁾ . وقد كان هناك إدارة خاصة تسمى (بيت الابدية) « برزت » متصلة بمصلحة القربان ، وكان واجبها القيام بهذه الاعمال الخيرية . وليس لدينا أية وثيقة تشبه هذه من عهد « متن » ؛ ومن المحتمل أن تدخل الحكومة في موضوع إقامة شعائر الأسرة كان موجوداً في هذا العصر . حقاً أن « متن » قد ذكر لنا حقوق الالتزامات الجنازية التي كانت له من الأثنتي عشرة ضبعة التي كان يسيطر عليها بحكم وظيفته ، غير أنه لم يبين لنا إن كان لهذه الالتزامات موظف خاص يديرها . كما لم يبين لنا الطريقة التي كانت تؤدي بها الشعائر ، ويمكننا أن نستنتج أن هذه الالتزامات كانت تنفذ حسب قواعد موضوعة . وسنجد أن هذه القواعد كانت في قبضة حاكم المقاطعة وهو الذي أصبح أميراً إقطاعياً .

مصلحة القربان
« برزت »

تطور نظام الأسرة في عهد الأسرة الخامسة

كان من نتائج أهمية إقامة الشعائر الدينية للملك في عهد الأسرة الرابعة ، أن تألفت طائفة من الكهنة المالكين كبيرة العدد قوية السلطان . وكانوا ينتخبون من بين موظفي البلاط وعظماء رجال الدولة والإدارة ، ولذلك أصل لقب المقرب كانوا يؤلفون طبقة خاصة في البلاد يطلق على كل منهم لقب (مقرب)

(1) Moret, un Monarque d'Edfu, de la fin de la VI Dy. C. R. Ac. Insc. 1918 p. 105. (2) Capart, Une Rue de Tombeaux à Saqqara, I, p.p. 17-26. Moret, op. cit. p. 105.

« إمنح » وكان الملك يهب كلا منهم ضيعة وامتياراً فكانوا يتمتعون من دخل كهاتهم الذى كان فى الغالب عظيماً كما كانوا يتمتعون بدفن جثثهم فى الجبابة الملكية بصفتهم مقربين ، وكذلك كانوا يشاطرون بعد موتهم (حسب اعتقادهم) الملك فى حياته الأخرى الإلهية ، والواقع أن الملك الإله كان يمنح كهنته المقربين ميزات عدة إذ كان يقدق عليهم دخلاً جنازياً ويهبهم لوحات مائمية ومقابر وضياعاً دخلها كاف لإقامة شعائر المتوفى . وهذا العقار صغر مقداره أو كبر فإنه يدخل ضمن أملاك الموهوب له ، وبذلك كان من حقه أن ينقله إلى ورثته ، غير أن الهبات التى كان يعطاها الكاهن بصفته من المقربين كانت مقيدة بشرطين . أولهما أن يكون الشخص الذى وهب له هذا العقار حاملاً لقب « مقرب » وثانيهما أن تجس هذه الهبة لإقامة شعائر الموهوب له . وقد كانت هذه الهبات فى أغلب الأحيان تزيد على ما يحتاج إليه المتوفى لإقامة شعائره . أما الزائد على دخلها فيعد ملكاً حقيقياً للشخص الذى وهب له العقار . وهذان الشرطان اللذان لا بد من توافرها قد جعلوا الورثة من كهنة الملك لأنهم من المقربين . هذا إلى أن هؤلاء (المقربين) أصحاب المنزلة الرفيعة كانوا يتمتعون بتربية أولادهم فى القصر الملكى مع أنجال الملك فكانوا منذ نعومة أظفارهم يتحلون بالشعائر ، ويقلدون الألقاب وينحون الوظائف الفخرية التى تجعلهم (مقربين) إلى الملك . فمن ذلك أن الأمير « كارابىي نقر » الذى كان لا يزال طفلاً فى عهد ييى الأول قد تربى فى القصر الملكى مع الأمراء وأولاد حكام المقاطعات ، وكان يحمل لقب السمر الوحيد ، ومدير الضياع الملكية ، وذلك يدل على أنه رغم

ميزات المقرب

أوقاف المقرب
وما يشترط فيها

أولاد المقربين يربون
فى القصر مع
أولاد الملك

حادثة سنة كان في طليعة « المقربين » . وهكذا أصبح المقربون « إغخو » في عهد الاسرة الخامسة طبقة وراثية ، ولكن على الرغم من ذلك كان تقليد الملك لا يزال ضروريا لحامل هذا اللقب . وكان قانون الوراثة المصرى يقضى بتقسيم ممتلكات الوالدين بين أولادهما . والضياح الجنازية الموهوبة لمن يحمل لقب المقرب خاضعة كذلك لقواعد وراثة الحقوق العامة ، إذ لا بد أن تقسم بين أولاد المقرب . ولما كان هذا التقسيم يؤثر على تقديم القربان وإقامة شعائر المتوفى ، وجدنا أن المصرى قد لاحظ هذا منذ بداية الأمر وأوقف الضياح التى وهبها إياه الملك وجعلها غير قابلة للتجزئة كما فعل أحد عظماء عصر الملك « خفرع » السالف الذكر ، وكما فعل العظيم « سنو عنخ » . وكانت هذه الاوقاف تفصل عن أملاك الواقف ، وتوضع تحت تصرف طائفة من الكهنة بشروط خاصة تضمن بقاء تقديم القرابين على الدوام ، وهذا التعاقد الذى أصبح به الكهنة ملاكا للضياح أو الإقطاعات قد جعل هذه الممتلكات غير قابلة للتجزئة بل موقوفة أبديا . ويتضح مما تقدم أن هذه المقاربات قد أصبحت عينا موقوفة عليها التزامات أبدية للمتوفى . أما ورثة صاحب هذه الاوقاف فلم يكن لهم حق فى هذه المقاربات الموقوفة ، اللهم إلا المراقبة على الكهنة فى تنفيذ شروط الواقف ، فإذا تراخوا فى تنفيذها عادت الضياح الموقوفة إلى أسرة المتوفى . والواقع أن نظام حبس عقار على إقامة شعائر المتوفى بهذه الكيفية كان يضمن استمرار تقديم القربان وإقامة الشعائر ، ولكنه من جهة أخرى حرّم أسرة المتوفى مورد دخل هام .

وقف المقرب لا يتجزأ

وفى أواخر الأسرة الرابعة ظهر نظام جديد فى موضوع الوقف ، وذلك

لأن الأوقاف الجنازية أصبحت توضع في يد جماعة من أسرة المتوفى .
وهذا النظام قد ضمن للمتوفى إقامة شعائره ، ومن جهة أخرى حفظ للأسرة
دخل المتوفى الذي كان يتمتع به غيرهم . وعقد أوقاف « حتى » (1) والد
« نكعنخ » من الأسرة الرابعة ويلقب مدير البيت ، قد جاء بهذه الكيفية ،
إذ وكل « حتى » إدارة دخله الجنازى إلى رئيس إقامة شعائره ، وهو ابنه
الأكبر الذى لم يكن لديه أى لقب يخول له هذا الإرث ، وكذلك نصب
أولاده الآخرين كهنة له مشاركين الابن الأكبر فى الملكية وفى دخل
العقار الجنازى « الذى كان تحت يد الابن الأكبر » .

انتقال وقف المقرب
الى يد أسرته بإدارة
ابنه الأكبر

غير أنه لم يكن فى مقدور واحد منهم أن يتصرف فى هذا العقار لا
بالوصية ولا بالهبة ولا يمكن تجزئته ، غير أنه كان من حق كل أن يترك
نصيبه لابنه من بعده ، ولكن تحت سلطة الابن الأكبر للمتوفى ؛ وسلطان
الابن الأكبر لم يكن فى هذه الفترة حقا شرعيا ولا يحل إلا إذا اشترط
المتوفى ذلك فى عقد الوقف . ومن ذلك نرى أن « حتى » قد أنشأ شخصية
مدنية مميزة كما فعل كل من عظيم بلاط خفرع السالف الذكر و « سنوعنخ » (2)
وقد كان « حتى » يمتاز فى وقفه بأن الطائفة المشرفة على هذا الوقف
من أولاده ، وعلى رأسهم الابن الأكبر . بخلاف « سنوعنخ » الذى جعل
المسترفين طائفة من الكهنة الذين لا يمتون إلى أسرته بقرابة . وبعمل « حتى »
تم تأليف جماعة أسرية لا ينقسم عراها يتوارثها جيل عن جيل . وتمتد سلطة
الابن الأكبر فيها إلى كل فروع الأسرة الأصلية ، وهذه الجماعة الأسرية
كانت قاصرة على ملكية الضياع الجنازية . وقد اشترط « حتى » صراحة أن

(1) Borchardt, Grab des K. Sahure, pp. 89 etc.

(2) Br. A. R. t. I, No. 231.

أن تكون سلطة ابنه الأكبر نافذة على إخوته الذكور والإناث فيما يختص بإدارة الإقطاعات الجنازية ؛ أما في أملاك الأسرة الأصلية فلم يكن للابن الأكبر عليها أى سلطان . وكانت ضياع الأسرة تتسع وتنمو من الهبات الملكية حتى أصبحت واسعة الأطراف ، فنشاهد في عهد الأسرة السادسة أن الملك وهب أحد عظماء بلاطه « إبي » ضيعة مساحتها ٢٠٤ أورو . وهذا يوضح لنا أن العقار الجنازى مضافا إليه العقار الموروث عن الأجداد كان يزداد ازدياداً مطرداً . ولما كانت هذه الضياع توضع تحت تصرف جماعة من الأسرة فقد زادت بطبيعة الحال في ربط أواصر الأسرة ، وأصبح كل فرع منها يؤلف وحدة يمثلها الابن الأكبر . وهذه الفروع التى كانت تؤلف للمحافظة على الضياع العظيمة كانت تجمع في الوقت نفسه طبقة الاغنياء والعظماء الذين كانوا يزدادون قوة على كثر الايام وتوالى الأعوام . ويجب أن نذكر هنا أنه في عهد الأسرة الخامسة كان المقربون للملك

سلطة الابن الأكبر كانت تنحصر أولاً في إدارة العقار الموقوف فقط

المقربون كونهوا طبقة الاشراف في البلاد

يؤلفون طبقة أشراف حقيقية لها امتيازاتها ؛ إذ لم يستولوا من الملك على مدافن وأوقاف جنازية فحسب بل استولوا كذلك على ضياع جنازية مشمرة . وقد كان لقب المقرب يجلب معه دائماً ضيعة ملكية ، وهذه الأوقاف الأسرية كانت تجرى على وجه خاص في الأسر الشريفة الغنية ، ومن ذلك نرى أن سلطة الابن الأكبر ستصبح ميزة لآولاد الأشراف .

ولم يكن المقربون يستحذون على الضياع الملكية فحسب ، بل كان لهم دخل الكهانة أيضاً . ولما أصبح أفراد هذه الطائفة في عهد الأسرة الخامسة من الوارثين ، احتكروا إقامة الشعائر الجنازية للملك وللإلهة « حتحور » وللإلهة « نيت » وللإله « رع » وللإله « فتاح » وللإله « مين » فحولوا بذلك

دخل أوقاف هذه الآلهة إلى عقار أسرى يتصرفون فيه . ونتج عن نظام الأوقاف الحرة والأوقاف الملكية أمران : أولها ازدياد العقار الموقوف وانتشاره في طول البلاد وعرضها ثانيهما : تجمع كل الأوقاف في يد أسر الكهنة فأصبحوا من الأشراف وتمتعوا بخصائص الأوقاف كلها . ولما أصبحت التزامات وظيفة الكاهن وما تبعها من الضياع وراثية ، استحال كل ذلك إلى أملاك عقارية للكهنة وأصبح ثقلها مقصورا على أحد أولاد الكاهن .

المقربون يحتكرون أوقاف الآلهة أيضا

كما كان لكل أولاد المتوفى الحق في وراثة هذه العقارات ، وهذا بلا شك هو السبب الذي دعا « نكعنخ » أن يضع التزاماته بصفته كاهنا أعظم للإلهة « حتحور » صاحبة قوص في يد جماعة من أسرته نظمت تحت إدارة ابنه الأكبر ، وبذلك جعل كل أولاده يستفيدون من دخل للكهنة لا يقبل التجزئة (1) ووصية « نكعنخ » لها أهمية خاصة في درس تطور الحقوق في عهد الأسرة الخامسة ؛ إذ تبرهن على أن الجماعة الأسرية قد نظمت لا لتحافظ على عدم تجزئة عقار خاص بإقامة شعائر الأوقاف فحسب ، بل لتحفظ لكل أفراد الأسرة دخل وظيفه دينية أصبحت وراثية . وقد كان « نكعنخ » هذا كما سبق ذكره الكاهن الأكبر للإلهة « حتحور » مالكا لضيعتين هلمتين الأولى مساحتها ٥٠ أرورا حبست على إقامة شعائره الجنازية ، وقد منحه إياها جده « خنوكا » . أما الضيعة الثانية فكانت خاصة بالتزامات كاهن الإلهة « حتحور » الأكبر وقد منحه إياها الملك ومساحتها كذلك ٥٠ أرورا . ولما أراد أن يحافظ « نكعنخ » على وحدة الضيعة الأولى دون أن يحرم أولاده دخلها أوصى بها جماعة من

أهمية وصية العظيم « نكعنخ » من الوجهة الشرعية

(1) Sethe, Urkunden, I, 24.

أسرته . أما الضيعة الثانية فبدلاً من أن يضعها تحت تصرف واحد من أولاده جعلها كذلك تحت إشراف جماعة أخرى من أسرته ، وكان ضمن أعضائها زوجته وأولاده ، وقد عين لكل نصيبه من الدخل ، كما حدّد الواجب الذى يقوم به كل فى الاحتفال بإقامة شعائر الإلهة « حتحور » خلال مدة معينة من السنة .

وإذا كان « نكفنخ » قد تمكن من التصرف بوصية فى التزاماته باعتباره كاهناً أعظم للإلهة « حتحور » ، فإن ذلك دليل على أنه كان يعد الضياع التى تصرّف فيها ضمن أملاكه بلا نزاع . وقد كانت جماعة الأسرة التى تصرّف منذ الآن فى كهنوت الإلهة « حتحور » تتألف من زوجة « نكفنخ » وبعض أولاده وكاهنين أجنيين عن الأسرة . وكان كل واحد من هؤلاء يخدم فترة معينة خلال مدة محدودة الأمد فى معبد « حتحور » كما جاء فى الوصية بوصفه كاهناً ، وكان يتسلم فى مقابل ذلك جانباً من دخل وظيفة الكهنوت بالنسبة لمدة عمله . وكان الابن الأكبر يتمتع بمكانة ممتازة ، فكان رئيس جماعة الأسرة ووارث والده (فى مكانه ككاهن) ومدير كل دخله . ولانزاع إذن فى أنه هو المدير لجماعة الأسرة . أما ضيعة « خنوكا » الجنازية فكانت تديرها جماعة من الأسرة تتألف من زوجة وبعض أولاد صاحب الوصية . ولكن إذا كان « نكفنخ » قد نصّب على أوقاف جده « خنوكا » جماعة أسرية فإنه لم يدخل فى ذلك إقامة شعائره الخاصة ، بل خصص لأقامتها أوقافاً مستقلة ووكّل أمرها إلى أربعة من أولاده لم يذكرُوا فى الوصيتين السابقتين ، ويظهر أنهم من أم ثانية ، أما بقية أملاكه فقد وصى بها ابنه الأكبر « حن حتحور » ومع

أن المتن ممزق عند هذه النقطة ففي مقدورنا أن نفهم منه أن « نكعنخ » قد خص زوجته بمعاش فوق ما تركه لها في الوصيتين السابقتين . ولكنها بدورها قد أوصت بكل ممتلكاتها لابنها الأكبر « حن حتحور » الذى كان له أن يجمع فى يده عقار والده ووالدته حسب الوصية على ما يظهر . وأسرة « نكعنخ » أسرة عريقة فى الشرف ، ويحمل أعضاؤها منذ عدة أجيال لقب « رخ نيسوت » (المعروف لدى الملك) وكلهم يحملون كذلك لقب « المقرب » . والواقع أن الضياع التى كانت تملكها هذه الأسرة كانت لها أهمية عظمى ، إذ أنها تولف ثروة ضخمة ، فساحتها ١٢٠ أرورا أى نحو ٩٠ فدانا وكانت كافية منذ « خنوكا » لإقامة شعائره الدينية وشعائر والده ، وأمه وكل الأسرة . وهكذا أخذت إقامة شعائر الأسرة الجنازية تنظم شيئا فشيئا حول الضياع الوراثية الموقوفة . ولكننا من جهة أخرى نلاحظ أن « نكعنخ » لم يضم إقامة شعائره إلى بيت جده « خنوكا » ؛ ويتضح لنا كذلك أن إقامة الشعائر بقيت فردية مستقلة وإن كانت فى الواقع ضيقة واحدة قد استخدمت لإقامة شعائر مختلفة . وهذا يدلنا على أن الضيعة كانت فى الأصل مركز إقامة الشعائر ، لأن الذين يتصرفون فى دخلها كانوا يستغلونه لمنفعتهم الشخصية ، ولكن الضيعة أصبحت بالتدريج عقارا للأسرة تحت سيطرة الابن الأكبر ، وتوحدت إقامة شعائر الزوجة التى كان يصرف عليها من ضياع زوجها ، وقد ضمها لنفسه الابن الأكبر .

بقاء إقامة الشعائر
فردية رغم الصرف
عليها من ضيعة واحدة

ونرى فى وصية « نكعنخ » أن الابن الأكبر قد نصب وراثا لكل أملاك والده ووالدته ، وكان بصفته رئيسا لإقامة الشعائر

مكلفاً كذلك بإدارة ضياع الأسرة ، ولكن أهمية هذه الضياع قد زادت واتسع نفوذ الابن الأكبر حتى شمل عقار الأسرة الخاص ، على أن الابن الأكبر لم يكن الوارث المطلق لوالديه ولكن أصبح بحكم العادة يكلف بوصية لإدارة كل عقار الأسرة كما فعل « نكغنج » وبقي مركز الزوجة على حاله لم يحدث فيه تغيير ، فقد أوصى « نكغنج » حسب العادة المتبعة بدخل لزوجته ، ولكن ابنه الأكبر أصبح وارثه الأوحده ، ولا يمكن أن يسلم هذا الدخل للأرملة إلا ابنها الأكبر ؛ ولما كانت عضواً في كل من جماعتي الأسرة التي كان يدير شئونها الابن الأكبر كانت هذه الزوجة الأرملة تحت إدارة ابنها الأكبر وتعتبر خاضعة لسلطانه من أجل ذلك . والواقع أن إقامة الشعائر وإن حافظت على صبغتها الفردية فإنها كانت تتشبه مع تطور الأسرة وهذا طبعي . وأن الأوقاف الوراثية التي أعادت تماسك الأسرة بجمع شملها حول الهبات قد أحدثت من جهة أخرى بإقامة الشعائر صلة وثيقة تربط أعضاء الأسرة برابط متين . فإن دخل كل فرد منها كان كافياً في الغالب لإقامة شعائر الأسرة كلها أو كثير من أفرادها . فقد كانت الزوجة والأولاد الذين كانوا كهنة جنازين لوالدهم يرون أن إقامة شعائرهم مشتركة مع شعائره وذلك بفضل الجزء الذي يمنحه إياهم من دخله الجنازي ، وهذا ما فعله « خنوكا » . والواقع أن مركز هؤلاء بالنسبة لوالد الأسرة في هذه الحالة كمركز المقرب بالنسبة للملك . فكما أن (المقرب) كان يحتفل بشعائر الملك ويتسلم جزاء هذه هبة خاصة ، كذلك كانت الزوجة والأطفال كهنة والد الأسرة يحتفلون بإقامة شعائره ويتقاضون جزءاً من إيراد أوقافه . ومنذ

الأولاد والزوجة
يصبحون كهنة مقرين
لرب الأسرة منذ
أواخر الأسرة الرابعة

ذلك العهد أصبحوا يسمون مقربين له «إمخو» ، ولذلك نجد الزوجة تعترف بأنها « مقربة » لزوجها والابن الأكبر كذلك « مقرب » لوالده . وهذه الألقاب بدأت تظهر في نهاية الأسرة الرابعة وأقدم مثل عثر عليه حتى الآن هي « حنوكا » ⁽¹⁾ التي عثر على مقبرة زوجها «إي» (مدير البيت) في حفائر الجيزة بمنطقة الأهرام . على أن وظيفة المقربة من زوجها أو المقرب من والده كانت لا توجد إلا في الأسر الشريفة التي تمتلك أوقافا محبوسة . وقد انمى لقب (المقرب) بين أفراد الأسرة في عهد الأسرة السادسة لأنه في عهد الأسرة الخامسة لم تكن وحدة الأسرة وحدة قانونية بل كانت تأتي من طريق الوصية للابن الأكبر بالإشراف على أملاك الأسرة . ومن جهة أخرى لم تكن الزوجة تحت سلطان الزوج ولم تشاطر في إقامة شعائره شرعا ، ولذلك عند ما كان الزوج يعترف بأنها مقربة له كانت تسارع إلى اعلان ذلك على نقوش قبر زوجها ، لأنها حظيت منه بعطف يماثل ما يحبو به الملك المقربين له . وكانت تنال إزاء ذلك مرتباً من أوقافه ولدينا وثيقة من أهم الوثائق التي عثر عليها في عهد الأسرة الخامسة تفسر لنا مركز أفراد الأسرة بالنسبة للأملاك الأب والنسبة لارتباطهم كوحدة أسرية . والمتن هو وصية للسمير الوحيد عظيم « نخب » ومدير القصر الملكي « وب إم نفرت » ⁽²⁾ . وقد تزوج من إحدى بنات الملك « نوسر رع » وتسمى « مريس عنخ » وابنهما الأكبر « إي » وقد ترك لنا « وب إم نفرت » وصية في مقبرة ابنه « إي » وهي تؤلف جزءاً من مقبرته . فيشاهد على الجدار الغربي لمقصورة « إي » صورة والده « وب إم نفرت » وأمامه ابنه

(1) Excavations at Giza, I, p. 101. (2) Op. cit. II, pp. 190, fig 219.

يقبض يده على ملف من البردى ويشير الوالد يده إلى نص الوصية المنقوشة على الجدار وهذه ترجمتها : « سنة ضم الأرضين لحكم الملك في الشهر الثالث من فصل الشتاء واليوم التاسع والعشرين . السمر الوحيد «وب» يقول : لقد أعطيت ابني الأكبر المرتل «إبي» أوقاف حجرة الدفن الشمالية وكذلك مقصورة القرايين الشمالية وهما في بيت الأبدية في الجبانة ، على أن يدفن هو فيها وتقدم له القرايين على الدوام هناك بصفته مقرباً لي ، وليس لأحد الحق في ادعائها لنفسه أخا كان أو زوجة أو ولدا اللهم إلا ابني الأكبر الكاهن المرتل «إبي» وقد كتب أمام وجه «وب إم نفرت» : « عملت الوصية في حضرته وهو على قيد الحياة » . وعلى يمين نقش الوصية صورة خمسة عشر رجلاً متربعين على الأرض مولين وجوههم شطر الوصية وقد كتب اسم كل منهم وصناعته في أعلى صورته . وكذلك نقش بخط كبير فوق الشهود العبارة الآتية : « كتبت في حضرة شهود كثيرين ودونت يده » . ولا نزاع في أن هذه الوصية تعد من أعظم الوثائق التي وصلت إلينا من عهد الأسرة الخامسة بل في الدولة القديمة كلها من الوجهة القانونية والاجتماعية بالنسبة للأسرة . فهي تدلنا على علاقة أفرادها بعضهم ببعض ، إذ نجد أن صاحب الوصية يعين لابنه الأكبر جزءاً من أملاكه الجنائزية على أن يكون دخله وقفاً على شعائر «إبي» نفسه وأن يكون وحده هو المشرف على هذا الجزء لأنه «مقرب» من والده . وقد أبعد من الوقف إخوته وزوجته وأولاده الذكور والإناث ؛ ويفهم من ذلك أنه كان لهم الحق في إرث أملاكه الأخرى لأن تحديد هؤلاء الأشخاص بالذات يشعر بحقهم في هذا الوقف لولا وجود هذه الوصية . يضاف إلى ذلك أن دفن

وصية «وب إم نفرت»
وأهميتها من الوجهة
القانونية

الابن الأكبر في مقبرة خاصة به يوحى بأن نظام استقلال الأسرة كان لا يزال قائماً وأن الصلة بين الابن الأكبر وبين والده من هذه الناحية كونه «مقرباً له» ، ومن المستغرب أن زوجة «وب إم نفرت» لم تدفن معه في مقبرة واحدة على حين أنها مثلت معه في المقبرة بحجم واحد ووجد لها أربعة تماثيل من الحجر الجيري الأبيض في سرداب زوجها . ويحتمل أن الملك والدها قد أهداها هذه التماثيل الجميلة فوضعتها في قبر زوجها كما رسمت معه على جدران مقبرته . ومما يستوقف النظر في هذه الوصية وجود شهود على صحة العقد ؛ وهذا لم يكن متبعاً قط في نقوش الدولة القديمة على ما نعلم ، فهو دليل واضح على أن الوصية ، كانت لها أهمية بالنسبة إلى «إبي» الابن الأكبر الذى كان يخاف منازعات أفراد أسرته ولذلك قال في الوصية إنها : « كتبت وهو حي (يمشى) على قدميه » .

أما في عهد الأسرة السادسة فكانت الأسرة تؤلف وحدة شرعية إذ للابن الأكبر الحق الشرعى فى الإشراف على ثروة الأسرة ، والزوجة خاضعة لسلطان زوجها وتخول لها صفتها الزوجية حق الاشتراك فى إقامة شعائر زوجها مما لم يكن فى مقدورها الحصول عليه فى عهد الأسرة الخامسة إلا بوصية . وحق اشتراكها فى إقامة شعائر زوجها يجعلها زوجته الخاضعة لسلطانه فتصيب جانباً من أملاكه وإن كانت وصية «وب إم نفرت» تشير بأن للمرأة الحق فى ميراث زوجها بعد وفاته فى غير ما أوصى به ؛ ولكن من جهة أخرى نشاهد فى بعض الأحايين أن الزوج كان يمنح زوجته هبة كمؤخر صداق . وحدث مثل ذلك فى عهد الأسرة السادسة فى عهد «بيبي

الاسرة تكون
وحدة شرعية
باشراف الابن الأكبر
فى عهد الاسرة
السادسة

الثاني « فذكر لنا «المقرب» «إدو» (1) ما يأتي : « إن الضيعة التي أعطيتها زوجتي المحبوبة «دسك» تعتبر ملكها الخاص وذلك لأنني أحببتها كثيراً » . والواقع أننا نعلم أن الضيعة التي أعطهاها «إدو» زوجته هي إقطاعية ملكية وقد أيدت ذلك «دسك» نفسها بقولها : « إذا اغتصب أحد هذا الصداق المؤجل سأرفع ضده دعوى أمام الإله العظيم أى أمام محكمة المقربين التي يرأسها الفرعون نفسه وهي المحكمة التي يتقاضى فيها الأشراف في الخصومات التي لها علاقة بعقارهم (انظر صفحة ٦٥) . نخرج من كل ذلك بنتيجة أن الأسرة قد أعيد تنظيمها على قاعدة إشراف الابن الأكبر شرعا على أملاك والده ، وأن الزوج كان يستولى على كل حقوق المرأة ويجعلها خاضعة تمام الخضوع لسلطانه . وحقوق الابن الأكبر لم تكن أمراً ضرورياً أو على الإطلاق ، فهو إنما نصّب وصيا لتحصيل مال الوقف ولم يكن في يده غير إدارة عقار والديه . وقد شاهدنا في أوقاف الأسرة أن كل فرع منها كان يمثل الابن الأكبر وهذه القاعدة قد جرت كذلك على عقار الأسرة الخاص . وقامت « مس مري » (2) بفحص انتقال العقار في عهد الأسرتين الرابعة والخامسة فوصلت إلى النتائج الآتية : أن العقار الموروث يمكن وقفه ويمكن تجزئته في عهد الأسرة الخامسة ، إذ في الواقع أن الإرث كان يتغير من جيل إلى جيل فكان يقسم أحيانا وأحيانا يزداد بإضافة ضياع جديدة . هذا إلى أن العقار الموروث قد استمر يقسم بين الورثين حتى في فروع الأسرة ، وكذلك كانت المرأة تأخذ حصتها في ميراث الأسرة ، ويلاحظ أن الضياع الكبيرة

(1) Sethe, Urkunden, II, p. 23 (New Ed.)

(2) P. S. B. A. XVII, p.p. 240-245.

كانت تتزايد باستمرار منذ الأسرة الرابعة حتى نهاية الأسرة الخامسة . ولقد كان من جراء تغيير مركز المرأة من الوجهة الشرعية أن حدث تغيير عظيم من الوجهة الخلقية ، وذلك أننا لم نجد قبل الأسرة الخامسة تمثيل حظيات على المصاطب ، ولكن منذ الأسرة الخامسة نجد أن الأشراف كان لهم حظيات وكانوا فخورين بهن ومن هؤلاء العظيم « تي » (1) زوج الاميرة الملكية « نفر حتبس » فكانت له حظيات يرقصن له وقد استعرضن على جدران قبره وسنعرف فيما بعد أن نساء « الحريم » كن يمثلن كثيراً في عهد الأسرة السادسة ونجد الرقص الخليع في مقبرة الوزير « مرا » (2) في عهد الملك « تيتي » يحيط به شيء من أسرار الحريم ، وكذلك في مقبرة الكاهن « دوا كا » (3) حيث نجد امرأة ترقص في وسط راقصين وراقصات عارية الجسد . ونشاهد كذلك منظراً في مقبرة « فتاح نفر سشم » (4) مثلت فيه جنازة مارة أمام باب « الحريم » والنساء يولولن ويعولن أثناء مرورها قائلات : « يأبها الأب الوديع ياسيد الجميع » . وفي المتحف البريطاني (5) يوجد رسم من عهد الدولة القديمة تظهر فيه صورة امرأة متمنطقة بحزام لتطش سيدها على عفافها . ولا شك في أنها كانت إحدى حظياته . وقد كان نساء الحريم يمثلن بمفتاح يتبعه ثلاث نسوة فالحظيات كن مخدرات ، كما جاء ذكره في « تحذيرات نبي » إذ يقول : « إن النساء اللاتي لم يرين النور قط قد ظهرن في العالم » ؛ ومن ذلك يتضح أن الحظيات لم يظهرن إلا في الوقت الذي بدأت تكون فيه المرأة تحت سيطرة الرجل ، فلم تعد بعد سيدة البيت الشاحنة بأنها المستقلة بحقوقها :

ظهور الحظيات في
الوقت الذي بدأت
تكون المرأة فيه
تحت سيطرة الرجل

(1) Montet, Scènes de la vie privée, p. 364. (2) Montet, ibid p. 366. (3) لم ينشر بعد (4) Capart, Une Rue de Tombeaux, p. 79. (5) Revillout, Cours de Droit Egyptien I, p. 110.

حقاً إنها استمرت زوجة تتمتع بسلطان عظيم ، إذ كانت تشغل وظيفة كاهنة لزوجها أو للإلهة « حتحور » أو الإلهة « نيت » ، غير أنها لم تعد مساوية لزوجها ولو كانت أعرق منه نسباً . وأصبحت المرأة سيدة البيت بحكم القانون لا غير ، وأصبح الرجل يعطف عليها بعد أن سلها حقوقها ، أكثر من قبل ، فكان « قى » يلقب زوجته « بالزوجة المشغوف بها زوجها » . أما نساء الحريم فلم يكن زوجات شرعيات ، إذ لم نجد في القبور أسماء حظيات ولا أسماء أولادهن قط . والحقيقة أنهن لم يؤلفن جزءاً من الأسرة ، لأن أولادهن لم يكونوا شرعيين ولا ينسبون إلا إلى أمهاتهم .

الحظيات لم يؤلفن
جزءاً من الأسرة

ومن كل ما تقدم يمكن معرفة تكوين طبقة اشراف لها امتيازات ، فقد استولت على كل الوظائف الدينية والإدارية في البلاد وجمعت في قبضتها ثروة مالية تزايد على التدرج ؛ وكان من نتائجها أن أخذت تقضى على الاستقلال الفردى في الأسرة رويداً رويداً ، وحل محله توحيد أواصر الأسرة ، بالتفافها حول الهبات الملكية التي أصبحت عقاراتها موقوفة ، وبقوة الروح في إقامة الشعائر ، وبالمركز الهام الذى أصبح يشغله الابن الأكبر ، وبانقصاص حقوق الزوجة تدريجاً حتى ذهب استقلالها شرعاً . كل هذه الاشياء قد تمت بسبب إعادة نظام تأليف الأسرة ، غير أنه يجب أن نلاحظ أن تجمع الأسرة الذى نراه فى الوصايا وفى المؤسسات الجنازية وفى شجرة الأنساب التى تظهر فى القبور ، كان من عمل العادة والعرف والتقاليد لا من عمل القانون .

تطور مركز الأسرة فى عهد الأسرة السادسة

تكلّمنا فيما سبق عن كيفية بداية تطور الأسرة فى عهد الأسرة

الخامسة وتجمعها تحت سلطان فرد واحد، وقد صار هذا التطور نحو الوحدة الأسرية يزداد على كثر الأيام حتى وصل إلى قمة الكمال في عهد الأسرة السادسة. وقد كانت بداية هذه الوحدة ما كسبه الابن الأكبر من حقوق الإشراف على أوقاف والده الجنازية، وكذلك إدارة عقار والده الخاص بوصية. وعلى ممر الأيام أصبح هذا الإشراف حقا مكتسبا يسرى على كل أملاك الأسرة ومن جهة أخرى نجد تطورا رجيا في حقوق الزوجة؛ فأصبحت مكانتها ثانوية ونقص استقلالها الشرعى تدريجا حتى فقدته نهائيا وأصبحت آخر الأمر تحت سلطة الزوج، وبعد مماته كانت تصير تحت سلطان الابن الأكبر، أو تحت إدارة وصى يعينه الزوج قبل مماته بوصية. وقضية «سبك حتب» التي شرحناها فيما سبق لاتدع مجالا للشك في إمكان تعيين وصى أجنبي (ص ٥٩) إذ منها نعلم أن السلطة الزوجية والسلطة الأبوية قد تطورتا، فقد صارت أملاك الأسرة واحدة لاتتجزأ سواء أكانت في يد «سبك حتب» الوصى أم في يد الابن الأكبر «تاو». وهذه الوحدة كانت تثول بحكم الشرع إلى الابن الأكبر ولكن كان للوالد الحق في أن ينصب وصيا كما يختار هو. ويثبت هذا الرأي نقوش «مرى ع» أمير المقاطعة العاشرة من الوجه القبلى (1) إذ يعلن ابنه «أنه صاحب كل أملاكه ورئيس أولاده». على أنه من المحقق أن كل ولد كان يحتفظ لنفسه بحقه بعد ممات أخيه الأكبر. ولا شك في أن الابن الأكبر أو الوصى الذى كان يعينه المتوفى، لم يكن مالكا حقيقيا لعقار الأب، بل كان في الواقع الأمين على أملاك الأسرة من ذكور وإناث، وهذا يؤكد لنا ما قاله خرخوف في هذا الصدد (انظر ص ٥١٠)

(1) Sethe, Urk. IV, 22 (New Ed.)

أما نوع الأملاك التى كان يدير شئونها الابن الأكبر من عمار الأسرة فيمكن استنتاجها من نقوش « إبي » أمير طينة إذ يقص علينا إنشاء مؤسسة جنازية لإقامة شعائره الخاصة فيقول : « إني أسستها من قرى ضيعتى ومن الهبة الجنازية التى منحني إياها الملك ، ولا يدخل فى ذلك أملاك والدى » . ومن ذلك نفهم أنه قد أقام مؤسسة من ماله الخاص وترك أملاك والده لأنه لم يكن له الحق فى التصرف فيها إذ كانت ملكا لأفراد الأسرة كلها . وعلى أية حال سنجد مثل هذا القول يتكرر فى نقوش الأسرة السادسة أى أن كل واحد قد أقام شعائره من ماله الخاص ، يضاف إلى ذلك أنه يمكننا أن نستنتج من قضية « سبك حتب » أن الزوج أصبح له سلطان شرعى على زوجته إذ مجرد تعيين وصى عليها وعلى أولادها لإدارة أملاكه يفهم منه أنه كان المسيطر على أملاكها مدة حياته ؛ وبذلك تكون قد فقدت استقلالها الشرعى ؛ وكذلك فقدت الرقابة التى كانت لها على أولادها فى حداثة أسنانهم وانتقلت هذه الرقابة إلى الابن الأكبر أو الوصى ويؤيد هذه الاستنتاجات خطاب كتبتة أرملة تدعى « نفر سفخى » لزوجها المتوفى . ومن هذا الخطاب نعلم أن « نفر سفخى » كانت لها ابنة أقيم عليها وصى ، وقد رفض الأخير أن يعطى الأرملة مالا لتربية ابنتها مما تستحقه من دخلها . ولذلك كتبت الأرملة لزوجها المتوفى خطابا تضرع إليه أن يتدخل فى أمرها فى عالم الآخرة حتى تنال حقها (1) . ومن هذا الخطاب نعرف أن الأم لم يكن لها حق الوصاية على ابنتها ولم يكن لديها المال لترفع به دعوى ضد هذا الوصى ولذلك لجأت

(1) Gardiner & Sethe, Egyptian Letters to the Dead. London. 1928 p. 115.

إلى الابتهال لزوجها في عالم الآخرة ليكون لها شفيعا أمام القضاء الآلى . ولا شك أن التطور التشريعى كان السبب الوحيد فى تماسك أعضاء الأسرة وتكوين وحدة منها ، بل إن عدم استتباب الأمن فى هذا العصر والحاجة لحماية الأرامل واليتامى كان من العوامل التى ساعدت على تقوية أواصر الأسرة وتماسك أفرادها وتضامنهم أمام أى خطر يهددهم . والواقع أن مصر أخذت تتفكك وحدتها فى عهد الأسرة السادسة إذ بدأت إدارة البلاد تنحل وتلاشت سلطة الملك وأخذت العقارات تتجمع بازدياد مطرد فى أيدي طائفة خاصة . فقد جمع الأشراف فى أيديهم الفنى والقوة وأصبح حكام المقاطعات الأقدمون أمراء وارثين كل منهم يفخر فى مقاطعته بأنه لم يعتد على الملاك وأنه حامى الضعفاء . فوجد مثلا « كاراييى نفر » أمير ادفو فى أوائل حكم الأسرة السادسة يفاخر بأنه خلص الفقير من يد من هو أ كثر منه ثراء (1) وكذلك يقول « خنوكا » أمير المقاطعة الثانية عشرة من الوجه القبلى : « إني لم أعتد قط على أملاك أى فرد ولم يوجد قط فى المقاطعة رجل يخاف آخر لأنه أغنى منه (2) »

الاسباب التى دعت
إلى تماسك الأسرة

والواقع أن مثل هذا الإعلان لا يدل إلا على عدم الاستقرار وبخاصة من جانب الضعفاء . كالأرامل والفقراء واليتامى . ولذلك كانت الوصاية على المرأة فى مثل هذه الأحوال المضطربة وسيلة لحماية .

نظام الأسرة الشرعى فى أواخر الأسرة السادسة

لقد كان للتطورات التى ذكرناها فيما سلف أثر فى تغيير مركز

(1) Moret, Un Monarque d'Edfu au début de la VI Dy. C. R. Ac. Insc. 1918 p. 105. (2) Sethe, Urk. II, No 2 (New Ed.) & Br. A.R. t. I, No 280-8.

الأسرة بالنسبة للمجتمع المصرى، إذ أصبحت وحدة اجتماعية تحت سيطرة الأب، وكذلك صارت المرأة بعد زواجها تحت السلطة المطلقة لزوجها، وبعد وفاة الزوج كانت تحت سلطان الابن الأكبر أو وصى يعينه الزوج. وبذلك لا يمكن المرأة المتزوجة أن تقف أمام القضاء فى أى موضوع إلا بإذن من زوجها أو الوصى عليها، إذا كان الزوج متوفى، كما أن سلطان الأب على أولاده قد ازداد فهو الذى يتولى أمور أملاكهم ويديرها ويزيد نفوذ الاب ويتصرف فيها ومن حقه أن يعين عليهم وصياً. أما إذا لم يترك وصية فالابن الأكبر بحكم القانون والعرف هو الوصى الشرعى عليهم وعلى أملاكهم يدير شئونهم لهم دون أن يتصرف فيها لحسابه الخاص. وإن مركز الأولاد الآخرين قد تغير من أساسه فقد كانوا فى عهد الأسرة الثالثة متساوين شرعاً ولكن مرا كزهم الشرعية فى الأسرة السادسة كانت متفاوتة؛ فإن الذكور كانوا متفوقين على الإناث؛ إذ كان الذكر يعتبر الأكبر بالنسبة لاخته مهما كانت هى أكبر منه سناً ولذلك لم نجد قط أن البنت قامت بدور الابن الأكبر؛ هذا فضلاً عن أن الأخير كان هو الفرد الوحيد الذى يمثل الأسرة فكان يعد رئيس إخوته الذكور والإناث كما أعلن ذلك الأمير «مرى عا». على أن حقوق الابن الأكبر كانت لانزال مقيدة إذ يقضى الواجب عليه أن يسهر على مصالح إخوته حتى يكفل لهم أمرهم وقد كان يفاخر بكونه رب الأسرة ويباهى بالحب الذى تكنه له أمه وإخوته فيقول «كارايبي نفر» أمير مقاطعة ادفو: «إنى أنا المحبوب من والده والمدوح من والدته، والذى يحبه إخوته» (1) على أن السلطة التى كانت فى

تفضيل الذكر على
الانثى

(1) Moret. C. R. Ac. Insc, 1918 p. 105

يد الابن الأكبر على أمه وإخوته لاتنضم عن الحقوق الواجة لهم عليه .
وفي ذلك يقول الوزير « نفر سشم رع » : « كنت أرهب والدى وكنت
مؤدبا مع والدتى وأطعمت (1) أولادهما » . وكذلك يخبرنا « سف عنخ » (2)
بأنه أقام مقبرة لأخوته فقال : « لقد بنيت هذا القبر لوالدى وإخوتى » . وتدل
ظواهر الأحوال على أن الأسرة كانت متجمعة تحت لواء واحد وهو لواء الابن
الأكبر الذى كان يعد المحيى لذكرى والده . فقد أعلن « زاو » (3) أمير مقاطعتى
طينة و« زوف » متكلماعن والده بأنه هو الابن الأكبر المخلوق من صلبه ؛ وعلى هذا
فالرابطة الأسرية لم تكن بين الأحياء فحسب بل كانت تمتد إلى الأجيال التى
خلت . ولا غرابة فى ذلك فإن هذا الجيل قد ورث الشرف والامتيازات
والثروة العظيمة عن أجداده . وقد ظهرت الأسرة وحدة قائمة بذاتها وأعضاؤها
هم المثلون لهذه الوحدة ، وهذا ما يفسر وجود فروع أنساب مفصلة فى النقوش
التى على جدران المقابر منذ الأسرة الخامسة ، وعلى الأخص فى عهد الأسرة
السادسة . ويلاحظ أنه فى عهد الأسرة الثالثة كان يكتب على جدران قبر
الميت تاريخ حياته فقط ، ولكن فى عهد الأسرة السادسة كان يدون نسبه
قبل أن يدون ترجمة نفسه بأن يكتب : « أنه المحيى لذكرى أسرته ونسلها ،
والأمين على عقارها والكاهن الذى يقيم شعائرها » .

علاقة الاسرة بالابن
الأكبر

ومن الامور التى تسترعى النظر أن أول ظهور سلسلة نسب كانت فى
عهد الأسرة الرابعة ، ويرجع السبب فى ذلك إلى تأليف طبقة أشراف جديدة .
حقاً إن أعضاء الأسرة المالكة كانوا عند ذكر أنسابهم يفخرون بنسبهم

أول ظهور سلسلة
النسب وأسبابها

(1) Sethe, Urk. III, No 36 (2) Sethe, Op. cit. t. III, No 42.
(3) Br. A. R. t. I, No 354.

العظيم . وفي الجملة فإن نسب الأسرة الرابعة المالكة معلوم لدينا ولكن عدا الأسرة الملكية كانت الأنساب قليلة ولا يرجع أقدمها إلى أكثر من عهد الملك « سنفرو » . وتنحصر هذه الأنساب في بعض الأسر التي تحمل لقب « المعروف لدى الملك » ، ولا يرجع تاريخ أقدمها إلى أكثر من ثلاثة أجيال . وفي عهد الأسرة الخامسة أصبحت طبقة الأشراف وراثية وأخذت إيرادات الأسرة تتكون ، يضاف إلى ذلك أن الأشراف بدءوا يعرفون أنسابهم التي من أجلها أصبحوا أشرافا وصار لهم سلطان ومال عظيمان . وقد وجدنا أن بعض الأسر يرجع نسبها إلى أربعة أجيال من أسر الأشراف الذين كان منهم الوزراء أو الذين كانوا يحملون لقب « المعروف لدى الملك » . وفي عهد الأسرة السادسة كان لقب « المقرب » في الأسرة هو الذي يجمع أعضائها حول رئيسها الذي كان يمثل في أكبر فروع الأسرة . ومنذ ذلك العهد لم يذكر في سلسلة الأنساب الفرع الأصلي فقط بل كذلك الفروع الثانوية .

لقب (المقرب) في
الأسرة السادسة

« الوراثة »

وفي عهد الأسرة السادسة كانت الملكية قد تطورت بدورها تطورا عظيما ، فبعد أن كانت فردية مستقلة أصبحت أسرية . حقا إن الابن الأكبر كان هو الذي يدير شئون أملاك الأسرة غير أنه لم يكن في مقدوره أن يتصرف فيها لحسابه ، إذ لم يكن في الواقع إلا أمينا عليها ، وبهذه الكيفية قد وجد تمييز ظاهر بين العقارات لم يكن معروفا في عهد الأسرتين الثالثة والرابعة . وقد كانت الثروة التي يرثها الابن الأكبر تتألف من أوقاف الأسرة ومن العقار الذي تركه له والده ، غير أنه لم يكن إلا أمينا عليها كما

ذكرنا . وكان له الحق هو واخوته المذكور في أن يكون لكل عقار خاص جديد يؤلف ملكا منفصلا عن أملاك الأسرة يتصرف فيه كما يشاء .
والظاهر أن أملاك الأسرة الخارجة عن الوقف كانت قابلة للتجزئة ونفصل هنا بعض التفصيل نظام التوريث لهذا العقار : ذكرنا أن وراثته إقامة الشعائر كانت تنتقل لابن المتوفى الأكبر ثم لآخيه الذى يليه سنا قبل أن تعود لابنه . والواقع أننا نلاحظ أنه قد ذكر على مصاطب عدة عدد من أولاد المتوفى يلقب كل منهم الابن الأكبر ، وأن أولاداً مختلفين يلقب الواحد منهم بالابن الأكبر على نقوش مصطبة الوالد ، ولا بد أن نستخلص من ذلك أنه عند وفاة الابن الأكبر كان ينتقل الميراث للابن الأكبر الذى بعده وبهذه الكيفية يمكن أن يقوم أولاد كثيرون بدور الابن الأكبر . وعندما يكون الأمر خاصا بإقامة الشعائر ؛ فإن الإرث ينقل للابن الأكبر من فرع الأسرة الأكبر . على أنه لو كان هذا النظام يسرى على عقار الأسرة الخاص ، فإن أملاكها كانت تبقى دائما موحدة ولكن البحوث التى قامت بها « مس مرى » حتى نهاية الأسرة الخامسة تدل على أن أملاك الأسرة لم تكن وحدة بل كانت تقسم من جيل إلى جيل بين فروع الأسرة المختلفة عندما يحتق آخر أخ . والظاهر أن هذا النظام بقى معمولاً به حتى الأسرة السادسة . ولكن على الرغم من ذلك تقرر هنا أن عقار الوالد كان يقسم بين الأخوة ، ولم تدخل فيه الأوقاف كما تدل على ذلك العبارات التى جاءت فى نقوش كل من « حرخوف » و « بيبى نخت » وغيرهما (انظر ص ٥١٠) . ومن ظاهر هذه النقوش نرى أن المذكور كانوا يقتسمون أملاك والدهم مع إغفال حقوق البنات .

سبب تعدد (الابن
الأكبر) على المقبرة

تقسيم أملاك الأسرة
بين فروعها

والظاهر أن الوحدة الأسرية كانت لا توجد إلا في مدة حياة الاخوة الذكور والأنثى ثم تختفي بعدهم ؛ إذ على أثر وفاة آخر ابن كان العقار الذى يشرف عليه يقسم إلى فروع حسب عدد الاخوة الذكور ومن المحتمل الأنثى ايضا (1) اما الأنثى فيغلب على الظن أنه كان لمن الحق كالذكور في أن يكن أعضاء في الوقف مثل الذكور ، وعلى ذلك كن يأخذن نصيبا من إيراده . ولا أدل على ذلك من نقوش مصطبة « نكغخ »

التي كان فيها تمثال أقامته ابنة المتوفى لوالدها وهى (المقربة) « إياخ نبت » البنات كان لمن حق الارث في العقار الموقوف وابنه المقرب « نى عنخ سسى » . وكذلك نجد ابنة ثانية للعظيم « نكغخ » تسمى « رع إنت » كانت ضمن أعضاء جماعى الأسرة اللتين ألفهما هذا العظيم إحداها لإقامة شعائر الإلهة « حتحور » والثانية لإقامة شعائر جده « خنوكا » .

أما فيما يختص بإرث البنت فى عقار والدها غير الموقوف ، فمعلوماتنا عنه ضئيلة ولا يمكن أن نستنتج منها شيئا قاطعا غير أنه بعد الدرس الدقيق قد وصلنا إلى أن المرأة يمكنها أن ترث إقطاع والدها عند اختفاء نسل الذكور ؛ على أنها فى الواقع كانت لاتدير هذا الإقطاع باسمها بل كان يتولى ذلك زوجها بما له من السلطة عليها . وإذا كانت أرملة فإن ابنها الأكبر يدير شئونها على أثر بلوغه السن القانونية إذا كان قاصرا .

البنت ترث الاملاك غير الموقوفة ولكن يدير شئونها زوجها أو ابنها

وسنكتفى هنا لقلة المصادر بأن تتصور أن ميراث المرأة فى عقار والدها كان يجرى على حسب القواعد المتبعة فيما يختص بالعقار الموقوف . ويظهر أن المرأة لم تكن محرومة تمام الحرمان من إرث والدها ، ولم يكن الذكور وحدهم هم الذين كانوا يتمتعون بذلك .

(1) Pirenne, Instit. III, p. 359.

وقد كان العقار مقسماً إلى أملاك الأسرة والأملاك الخاصة والأول .
كان ملك الأسرة الخاص وكان الثانى ملكاً خاصاً لمن اشتراه ، لا يدخل
في عقار الأسرة . وقد أعلن « إبي » (1) في صراحة أنه ترك كل الأملاك
الموروثة من والده سليمة ، ولكن من جهة أخرى تصرف بكامل حريته
في أملاكه الخاصة وتقدر بنحو ٢٠٣ أرورا منحها إياه الملك ليصبح من
أثرياء الناس .

الاملاك الخاصة
لا تدخل في عقار
الأسرة

أما البنت فلم يكن هناك من الأسباب ما يدعو لحرماتها عقار والديها
على أنه كان هناك عقار منقول غير الأرض عند الأسر الشريفة ، ولكن
مما يؤسف له أن معلوماتنا عنه محدودة ، وتنحصر كلها في الرسوم التي نجدها
مثلة في المقابر وبخاصة المجوهرات والذهب وقد كان لها شأن عظيم في
حياة البلاد الاقتصادية ، فمن ذلك أننا نشاهد في الضياع العظيمة المثلة على
قبور العظماء صناعات طرق الذهب وسبكها ، وهؤلاء في الواقع لا يعملون إلا
لأغراض جنازية ، هذا إلى أن الملك كان يوزع على كبار رجاله عطاءهم
من الذهب ، وقد بقيت هذه العادة شائعة مدة الأسرة السادسة . فيقول
المهندس الممارى « مرى رع فتاح عنخ » عند انتهائه من أى عمل كلفه
إياه الملك « يبي الثانى » كان يعطيه ذهب الحياة « نبوعنخ » ويقصد من
هذا مكافأة من الذهب ولا نزاع في أن الذهب كان يؤلف جزءاً من
عقار الأسرة وهذا هو السبب الذى من أجله نشاهد طائفة طيبة من الحلى
كالقلائد والأسورة من الذهب مصفوفة كأنما رصت على رف قد رسمت في
كثير من مقابر هذا العصر .

إرث البنت في
العقار المنقول

(1) Deir-el Gebrawi, I. p.p. 8 etc. et Br. A. R. t. I, No 375-9 & Urk. II, n. 82. (New Ed.) 32.

وقد لاحظنا في المقابر التي كشف عنها حديثاً في منطقة الجيزة أن كلا من المرأة والرجل كان يزين جثته كالأحياء، محلى من الذهب والمعادن النفيسة والأحجار الكريمة، ولا بد من أن المرأة كانت تترث هذا المتاع من والديها، ويغلب على الظن أن معظم العقار المنقول كان يثول إلى المرأة إذ دل الكشف على أن الحلى الثمينة من الذهب والأحجار الكريمة كانت توجد عادة مع الإناث أكثر من وجودها مع الرجال⁽¹⁾. ومما يلفت النظر ما نلاحظه في رسوم القبور من أن كبرى بنات المتوفى كانت لها مكانة خاصة منذ الأسرة الرابعة. فنشاهد أن « مرأيب » ابن الملك خوفو في مقبرته مع ابنه الأكبر ولكن في الوقت نفسه وجدناه مرسوماً مع ابنته الكبرى وهي قابضة بيدها على عصاه. أما الابن الأكبر فكان في يده قرطاس من البردي⁽²⁾ وهذا هو المثل الوحيد الذي شاهدنا فيه البنت تمثل في موقف من مواقف الابن الأكبر؛ ومن المحتمل إذن أن والدها أراد أن تكون هي وريثة إذا قطع نسل الذكور. على أننا من جهة أخرى نشاهد كثيراً في نقوش المصاطب البنت ممثلة وهي قابضة على ساق والدتها. وهذا المنظر يرى في مقابر الأسر الرابعة والخامسة والسادسة⁽³⁾.

ولا شك في أن تمثيل البنت بهذه الكيفية ينبئ عن أنها ستقوم مقام مكانة البنت الكبرى أمها وربما كان في هذا العصر تشريع للبنت الكبرى يشبه تشريع الابن الأكبر. والمنظر الذي نشاهده ممثلاً في مقبرة « هنقو » حاكم مقاطعة « زوف » يعزز هذا القول؛ إذ نجد فيه زوجته « خنت كا » جالسة أمام مائدة قربان

(1) Excav. at Giza, II, p. 139-150. (2) L. D. II, 18-22.

(3) L. D. II, 23-25 Giza, & 27-29, 49. & Davies, Deir-el Gebrawi I, p.p. 8 etc.

وبنتها تقترب منها مقدمة القرايين ، مما يشعر بأن البنت تقوم بدور خاص في إقامة شعائر والدتها وربما كان أوضح مثال لدينا في هذا الموضوع ما نشاهده في مقبرة رئيس كهنة الروح « فيفي » (١) . فنجد ممثلاً على الباب الوهمي كلا من « فيفي » وزوجته « حتب حرس » أمام مائدة قربان وقد رسم خلف الأب ابنه الأكبر ورسم خلف الأم بنتها الكبرى وكل منهما يقدم قربانا للأب والأم ، على التوالي ، ومما يلاحظ في هذا الرسم أن كل زوج قد رسم بحجم واحد فالابن والبنت رسما متساويين والزوج والزوجة رسما بحجم واحد . فإذا كانت البنت تقوم بدور خاص في إقامة شعائر والدتها فلا بد من أنها كانت تستولى على جزء معين من عقار الأسرة الموقوف لإقامة الشعائر الجنازية . ومهما يكن من شيء فإن نظام الوراثة الفردى الذى لاحظنا وجوده حتى عهد الأسرة الخامسة ، وهو الذى يخول لكل الأولاد فى الأسرة أن يقسموا فيما بينهم أملاك آبائهم ، قد حل محله نظام جديد ينطبق فى معناه على نظام وراثة الملك . والواقع أن تكوين طبقة من الأشراف ، كان أفراد كل أسرة منها ملتفين حول الأوقاف الجنازية الخاصة بها ، قد جعل وراثة الأملاك الخاصة بإقامة الشعائر ضمن أملاك الأسرة تدريجاً . وقد طبق هذا النظام على عقار الوالدين الخاص . ويلاحظ هنا أنه كلما اتضح نظام الفردية ، وتدهورت السلطة الملكية ، ازداد نفوذ المعتقدات الجنازية ازدياداً مطرداً . إذ أن أصل نشأة طبقة المقربين يرجع إلى العقائد الدينية ، وهى المنبع الأصل الذى انبثت منه فكرة الإقطاع والضيايع الجنازية التى كان من جرائها إعادة تجمع أفراد الأسرة بالثقافا حول هذه الضيايع الجنازية الموقوفة .

تأثير العقائد الدينية
فى تكوين طبقة
الأشراف ووحدة

(1) Excav. at Giza, I, p.p. 99.

وأخيرا نجد أن قاعدة الوراثة التي كانت متبعة في انتقال الالتزامات الكهنوتية قد اوجدت نظاما قانونيا جديدا للوراثة حل محل نظام الحقوق القديم . ويلاحظ أنه في الوقت الذي كان ينمى فيه نظام الفردية وقد كان أصلا للحقوق الشخصية ، ويتلاشى فيه تجمع السلطة الملكية وهي الأساس للحقوق العامة قبل الإصلاح الاستبدادى الذى كان في عهد الأسرة الرابعة ، أصبح كذلك يحتفى تدريجيا ذلك النظام الديوى الذى يسير على نهجه كل من الحكومة والأسرة .

الاولاد غير الشرعيين

لم تذكر لنا نقوش مقابر الدولة القديمة أولادا غير شرعيين ولكن على الرغم من ذلك ، نظن أن هذا العنصر من الاولاد كان دائما ، فنجد الأسرة الخامسة نجد أنه كان يمثل على مقابر بعض العظماء طائفة من النساء لم يذكرن بأسمائهن قط إلا مرة واحدة في أواخر الأسرة السادسة ، ومع ذلك كن يعتبرن في هذه الحالة نساء شرعيات كما سنوضح ذلك في حينه أما النساء الحظيات فإنهن لسن زوجات ولا يؤلفن جزءا من الأسرة ويجب أن نعتبرهن من طبقة الراقصات والقيان اللاتي يتخذهن أصحاب اليسار خليلات ، ولم نجد هن أولادا ممثلين على جدران المقابر ، مما يدل على أن الآباء كانوا ينكرونهم ؛ وبالرغم من صمت النقوش عن هذا الموضوع ، فإنه في الاستطاعة أن نصل إلى مركز الطفل غير الشرعى منذ أواخر الأسرة السادسة . ويرجع الفضل في ذلك إلى خطاب عثر عليه في جبانة ، كتب على قطعة من القماش . وقد أرادت كاتبته « إرقى » أن مخاطب حبيها « س عنخ . إن فتاح » لكى تشرح له المأساة التى حاقت بطفلها المولود سفاحا .

أولاد الحظيات
لا يؤلفون جزءا من
الأسرة

والواقع أن متن الخطاب مبهم وكل ما يمكن استخلاصه ما يأتي :
كانت الخادمة « إرتى » حظية لسيدها « س عنخ إن فتاح » وقد رزقت
منه ولداً . وأوصى « س عنخ إن فتاح » وهو على سرير الموت أخاه
« بحستى » أن يحافظ على أملاكه حتى يبلغ ابنه سن الرشد ويسلمها إياه .
ولكن الأخ تقض عهده مع أخيه وانتهى الأمر بأن قسمت أملاك المتوفى
بين ورثته الشرعيين . ولما لم يكن للحظية أية وسيلة لجأت إلى كتابة
خطاب لمحبوبها والد ابنها تشكو فيه سوء معاملة أسرته لها ولابنها لعله
يساعدها في الآخرة فيرد حق ابنها إليه . وقد دل فحص هذه الوثيقة على
أن الأولاد الذين يولدون عن طريق غير شرعى ليس لهم أى حق فى
وراثه أملاك والدهم وأن الاعتراف بابن غير شرعى وجعله وارثاً والده
بوصية أو بشرط ، كان على ما يظهر أمراً بعيداً . والسبب فى ذلك هو عدم
إمكان تجزئة عقار الأسرة فى حالة وجود ورثة شرعيين ، وهذا يدل على
أن عمل الوصية كان مقيدا . وقد دلت هذه الوثيقة على أن رابطة الأسرة كانت
عظيمة إلى حد أن جعلت الأخوة وأولاد الأخ وارثين عندما تسمح بذلك
أحوال الأسرة (1) .

الابن غير الشرعى
لا يرث وإن اعترف
به والده

إقامة شعائر الأسرة

كان من جراء النظام الجديد الذى ظهرت به الأسرة فى عهد الأسرة
السادسة أن حدث تطور فى إقامة الشعائر الجنازية . وفى عهد الأسرة الخامسة
كان قوام أداء الشعائر الجنازية الأوقاف التى كان يهبها الملك الأشراف

(1) Gardiner & Sethe, Egyptian Letters to the Dead, London, 1928. dans Chronique d'Egypte, Dec. 1928, p. 117.

فمثلا كان « ثنتى » (1) يتصرت فى أوقاف والدته « بى » الجنازية لإقامة شعائره هو، وقد كان نصيب كليهما مستقلا، ولكن الأوقاف المحبوسة على إقامة شعائرها معا كانت واحدة فكانا بذلك مرتبطين برابطة لا انفصام لها ولكن من جهة أخرى نشاهد أن زوجة « ثنتى » كان لها شعائر خاصة منفصلة عن زوجها . وفى بداية الأسرة الخامسة نجد أن « مرسو عنخ » (2) قد أقام باباً وهما لوالدته فى قبره، وكذلك نرى أولاده الثلاثة وعلى رأسهم ابنه الأكبر يقدمون له القربان، وتدل النقوش على أن شعائر الزوج والزوجة كانت فى أكثر الأحوال موحدة إذ نشاهد كثيراً تمثيل الزوج والزوجة على جدران المقبرة جالسين أمام مائدة قربان واحدة . وهذا المنظر قد شوهد كثيراً منذ عهد الملك « خفرع » ولكن فى الغالب كانت الزوجة تفصل إقامة شعائرها عن زوجها، فمثلا نجد أن زوجة (المعروف لدى الملك) «أخت حتب» (3) على الرغم من أن لها باباً وهما فى مقبرة زوجها قد كان لها قربانها الخاص .

والواقع أنه فى هذه الفترة قد أخذت مقابر الأسرات تزداد ازدياداً مستمراً . ولكن يلاحظ أنه كان لكل عضو من أعضاء الأسرة فى القبر باب وهى ومائدة قربان فى الأغلب الأعم . ونلفت النظر هنا إلى أن دفن أفراد الأسرة فى مقبرة واحدة لم يحدث إلا من جيلين ، ومن ذلك يمكننا أن نستنتج أن إقامة الشعائر قد بقيت فردية فى جملتها وإن كنا أحيانا نرى أن أعضاء الأسرة المختلفين يتحدثون جميعا فى إقامة شعائهم وذلك إما بإقامة قبر واحد أو بتجمعهم حول وقف واحد مشترك .

إقامة الشعائر بقيت
رغم الدفن فى
مقبرة واحدة

(1) Moret, une Nouvelle disposition testamentaire. Ac. Insc 1914. p.p. 588. etc. (2) Exca. at Giza. Vol. I, p. 104. etc. (3) Op. cit. p. 73 etc.

وكان لزاماً على الوارث أن يقيم شعائر المتوفى بعد استيلائه على أملاكه ويبنى قبره . على أننا لم نجد حتى الآن أثراً لإقامة شعائر الأسرة بصفتها وحدة تقيم شعائر الجد الأكبر لها . وهذا ينطبق تماماً على نظام الأسرة في هذا العهد إذ أنها رغم تملكها عقاراً أسرياً لا يتجزأ وجمعها برابطة قوية تتمثل في سلطة الوالد ثم الابن الأكبر من بعده فقد لاحظنا أن الأسرة لا تصطبغ بصبغة رابطة الأجداد بل كانت في كل جيل تنقسم إلى فروع بقدر ما فيها من الأولاد الذكور وعلى ذلك نجد أن حقوق الأسرة وإقامة الشعائر يسيران حسب تطور واحد .

تفريع الأسرة

ونضيف إلى ذلك أن إقامة شعائر الأسرة قد لعب دوراً عاماً في التقدم الاجتماعي الذي قامت به طبقة الأشراف بما حصلوا عليه من السيادة في البلاد . وهذه السيادة تشبه تمام الشبه المكانة التي أخذتها إقامة الشعائر الملكية ، وما نتج عنها من تغيير في الحقوق الأصلية والمجتمع في مصر منذ الأسرة الرابعة إلى السادسة . وتفسير ذلك كما ذكرنا آنفاً أنه قد نشأ في عهد الأسرة الخامسة مقربون للأسرة ومقربون للأشراف فالمقربون للأسرة هم الذين كانوا يقيمون شعائر المتوفى من أرملته وأولاده وكانوا في مقابل ذلك يستغلون ضيعته الموقوفة على الشعائر .

أما المقربون للأشراف فكانوا يعملون على الأساس نفسه فشلا في الضياع الجنازية الكبيرة مثل ضياع « قى » أو « فتاح حتب » كان كتاب الحسابات للضياع يشتركون في إدارة إقامة الشعائر وذلك بتقديم القربان الذي كان الأساس لأداء الشعائر . وكانوا نظير هذا يحملون لقب المقربين « مقربو » الأشراف لا سيادهم مدة حياتهم ؛ ولا نزاع في أنهم كانوا يحملون هذا اللقب بعد موتهم لتقام شعائرهم من دخل ضياع سيدهم .

ومن كل ذلك نرى أن تماسك الأسرة والنظام الاجتماعى الذى حدث فى الضياع العظيمة ، كان يدور حول إقامة شعائر المتوفى .

تمثيل الأسرة على جدران المقابر فى عهد الأسرة السادسة

إن النظام الذى ظهر به أفراد الأسرة على جدران المقابر فى عهد الأسرة السادسة يدل على أنه قد حدث فيها تطور يساير مبادئ سلطة الزوج والأب والابن الأكبر من بعده ثم إخوته الذكور بعد وفاته . فنجد أن إقامة شعائر المرأة تشترك مع إقامة شعائر زوجها ، فتكون شطرا آخر منها . او تكون وحدة معها . مثال ذلك أن « سش سشات » كبرى بنات الملك وزوجة « نفر سشم فتاح » كان لها مائدة قربان صغيرة موضوعة تحت مائدة قربان زوجها الكبيرة الحجم ، وقد جلست أمام مائدتها متربعة على الأرض مطوقة بذراعا ساق زوجها كأنها ابنته الأصلية ، وعلى الرغم من أنها البنت البكر للملك فإننا نشاهد أن إقامة شعائرها قد اندمجت فى شعائر زوجها بصفة ثانوية (1) وعلى العكس من ذلك نرى أن ثلاث أميرات لمقاطعة « زوف » كانت كل منهن ممثلة وهى جالسة على مائدة قربان واحدة مع زوجها مرسومة بمجمعه (2) والظاهر أن كبرى البنات كانت تقوم بدور فى إقامة شعائر أمها إذ نجد أن كبرى بنات « خنت كا » قد مثلت حاملة القربان لوالدتها التى مثلت جالسة وحدها أمام المائدة . وهذا الدور بذاته قد لعبته كبرى البنات فى عهد الأسرة الخامسة .

على أننا نجد نساء لم يثلن فى قبور أزواجهن وعلى الأخص فى عهد

كبرى البنات تقدم
لوالدتها القربان

(1) Capart, Rue de Tombeaux, I, p.p. 63-74.

(2) Davies, Deir-el Gebrawi, II, p. 19 etc.

الفرعون « يبي الأول » كزوج الوزير « غنخ ما حور » (1) . وربما كان السبب في ذلك أنها بنت منسوبة إلى الأسرة المالكة وأن إقامة شعائرها من أجل ذلك تابعة لإقامة شعائر الملك .

وكان رئيس الأسرة في عهد الأسرة السادسة هو الأب ، وبعد وفاته يحل محله الابن الأكبر وهذا يفسر لنا السبب في تمثيل الابن الأكبر على مقربة من أبيه ، بطريقة تميزه بجلاء عن إخوته الذكور وأخواته الإناث ؛ فيشاهد قابضاً على عصا والده (2) أو يتبعه وهو ممسك بيده ، أو يرسم بجانبه بهيئة تشعر بالاحترام ، وفي الغالب يمثل واقفاً بين عصا والده وساقه أو على رأس إخوته الذكور والإناث في وضع يظهره كأنه أرفع منهم ومن أمه ذاتها مقاما (3) ويصبح الابن الأكبر على أثر وفاة والده رب الأسرة . وقد ذكرنا أن أم « رع ور » قد مثلت واقفة أمامه في هيئة تشعر بالاحترام وهو جالس ، ولا شك في أن خضوع الأم لسيادة ابنها الأكبر كانت من أهم التطورات التي تشاهد في تماسك الأسرة ووحدتها وقد أخذت هذه الظاهرة تتجلى بارزة في عهد الأسرة السادسة .

مركز الابن الأكبر
في مناظر تمثيل الأسرة
يشعر بسيطرته على
أمه الأرملة

والواقع أنه منذ الأسرة السادسة حتى نهاية الأسرة الثانية عشرة كانت الأم ترسم غالباً جالسة على الأرض عند قدمي ابنها (4) . وعلى الرغم من أن الأم كانت تحفظ لنفسها كل سلطان الأم ، فإنها كانت من الوجهة الشرعية خاضعة لسلطان الزوج أو بعبارة أخرى كانت على قدم المساواة مع أولادها اللهم إلا الابن الأكبر الذي كان يمتاز في الحقوق ، لأنها

(1) Capart, Une Rue de Tombeaux I pl. XXXIV (2) Mar. Mast.

E. 1-2 p. 376 (3) Davies, Deir-el Gebrawi I, p.p. 8 etc.

(4) Gunn, Cemetery of Teti II, pl. 54.

بعد وفاة زوجها ستكون تحت إشرافه . وأظهر صورة تمثل لنا ذلك
هى صورة أسرة أميرمقاطعتى « زوف » و « تاور » (1) ويشاهد فى
مقبرة الوزير « مرى » (2) وفى مقبرة « فتاح شبسس » أن الزوجة ممثلة
بمحجم صغير جدارا كمة عند قدمى زوجها ، رغم أنها أميرنان من دم
ملكى ، ومثلها غيرهما من نساء عظماء القوم . والقاعدة العامة هى أن
الزوجة كانت تمثل صغيرة بالنسبة لزوجها فى كل أوضاعها . ولكن أحيانا
نشاهدها ممثلة فى حجم الزوج . وإذا فحصنا الأوضاع التى تكون فيها
الزوجة ماثلة للزوج فى حجمه نلاحظ أن ذلك لا يكون إلا فى المناظر
الخاصة ، أما فى معظم المواقف الرسمية فإن صورة الزوجة تصغر ، وتتضاءل ،
بجانب صورة زوجها . على أننا لم نصادف إلا أمثلة قليلة رسمت فيها بمحجم
زوجها فى المواقف الرسمية ؛ فزوجة أمير ادفو « كارا بيبى نفر » قد رسمت
بجوار زوجها بحجمه تماما وهو ممسك يده عصا الامارة وفى منظر آخر نجدها
مرسومة بمحجم صغير واقفة تحت عصاه (3).

الزوجة تمثل بمحجم
زوجها فى غير المناظر
الرسمية

ويظهر أن النساء للآتى كن يرسمن بمحجم أزواجهن كن كلهن يحملن
لقب « شبت نيسوت » (شريفة ملكية) . ويلاحظ أن النساء
اللاتى يحملن هذا اللقب كان لهن الحق فى أن يستولين على إقطاع والدهن
وينقلنها إلى خلفهن . وقبل أن نختتم موضوع تمثيل الأسرة فى الأسرة السادسة
يجدر بنا أن نلفت النظر إلى أسرة حاكم مقاطعة « وازيت » (العاشرة) التى كان
على رأسها « مرى عا » . إذ كانت زوجته « إسى » (4) قد مثلت عدة مرات

(1) Davies, Deir-El Gebrawi, I, p.p. 8. (2) Mar. Mast. E. 16.

(3) Sethe, Urkunden, IV, 13 (New Ed.)

(4) Davies, Deir el Gebrawi, t. II, pl. III, V, VII, XI, XVIII.

بمحجم زوجها وهي واضحة يدها على كتفه أو حول وسطه مستقبلة معه خضوع أفراد الأسرة . ولكن المدهش في هذه الأسرة أنها المثال الفذ المعروف لدينا في الدولة القديمة الذي نرى فيه أن الرجل كان له خمس زوجات شرعيات غير « إسى » ، وكان لكل منهن أولاد من « مرى رع » الأب . ومن ذلك فهم أن « مرى رع » كان له حريم على غرار حريم الملك ، من زوجات شرعيات ، وليس من بينهن إلا واحدة تحمل لقب الشرف ؛ وقد امتازت بأن مثلت بجانب زوجها ؛ أما البقية من نسائه فكان واقفات يقدمن الخضوع لها . وقد مثلت هاتيك النسوة بعد أولادهن بمحجم بناتهن وأصغر من أولادهن الذكور . ومنذ ذلك العهد نفهم المركز الذي كانت تشغله الزوجة العظيمة بتمييزها في الرسم عن بقية نسائه وأولادهن .

ويتضح مما سبق أن تمثيل أفراد الأسرة في عهد الأسرة السادسة وفي المصور التي قبلها كان يجري حسب مركز كل منهم في الأسرة فهو يماشى المركز الشرعى الذى كان يستمتع به كل فى محيط الأسرة .

البنوة فى عهد الدولة القديمة

بدهى أنه عندما يدلى أحد كبار العلماء ممن يعتد بقولهم برأى فى موضوع ما ، ينفذ رأيه إلى قلوب الناس بقوة ويتهاك تلاميذه على اتباعه والاحتفاظ به وإن كان باطلا لا ظل له من الحق ؛ وقد يظل هذا الرأى متاقلا عدة أجيال إلى أن يتصدى له من عنده الشجاعة والجرأة لدحضه وهدمه من أساسه . وليس تقضه بالأمرالهيّن السهل ، فلا بد من الصبر والأناة والحكمة حتى يصل المحقق إلى إثبات رأيه ، لأن نزع الرأى القديم من الأذهان وإحلال رأى جديد صائب مكانه من أشق الأمور فى التنفيذ .

والأمثلة على ذلك فى التاريخ كثيرة . والآن لدينا مسألة من مسائل الاجتماع المصرى القديم من هذا القبيل ظاهرها فيه الرحمة وباطنها من قبله العذاب ؛ وربما كان سبب انتشارها وتمسك بها هو خرابتها بالنسبة لمسائل الاجتماع الإنسانية . تلك الفكرة هى سيادة الأمومة على الأبوة فى نسبة الأولاد . إذ اعتقد بعض العلماء العظاماء فى الآثار المصرية أن الابن كان ينسب إلى أمه فى معظم الأحوال ويرون فى هذا أثرا من آثار سيادة الأمومة فى مصر ؛ وبذلك يكرر هؤلاء العلماء أن الوراثة عن طريق فرع الأم أقرب من الوراثة عن طريق فرع الأب ، وعلى ذلك يكون أولى الناس بالأشراف على تربية الولد هو خاله لا والده . وهذا رأى يرتكز فى الواقع على متون قليلة جدا قد التفتت من بين كل نصوص التاريخ المصرى . وقبل أن نفحص عن هذا الموضوع فحفا دقيقا علينا نورد هنا ما قاله المبرزون من علماء الآثار المصرية فى هذا الصدد .

أولا : يقول الاستاذ « إرمان » (1) : « يشاهد فى قوش مقابر الدولة القديمة غالبا ، بجانب اسم الزوجة ، ذكر اسم أم المتوفاة على حين أن اسم الوالد لا وجود له فى العادة ؛ وفى كثير من الأحيان يذكر نسب المتوفى من جهة والدته لا من جهة أبيه » . ومن المدهش أن المؤلف لم يذكر المصدر الذى استند فيه على هذا رأى . وستثبت بالبرهان أن الأمر كان على التقيض فى عهد الدولة القديمة .

ثم يقول : « وفى عهد الدولة الوسطى نجد فى أحوال كثيرة فى الأسر الشريفة أن الابن لا يرث والده ، بل ابن البنت البكر هو الذى

آراء العلماء فى نسبة الأولاد للأم

تنول إليه الوراثة ، وكذلك في عهد الأسرة التاسعة عشرة كان والد الأم هو الذى على ما يظهر المشرف الطبيعى على الطفل . وإذا حدث أن الشاب كان له مستقبل باهر ، فإن الذى يستمتع بذلك هو جده من جهة أمه . « وقد أورد المصادر الآتية(1).

ثم يقول : « ومع ذلك نجد الابن الأكبر يرث والده . ونرى فى كل المصور أن الأب يرجو أن يرثه ابنه فى وظائفه ، وكذلك كان الابن يسهر على إقامة شعائر والده ، وكان الملك يرى أنه واجب عليه أن يجعل الابن وارثا لأبيه . وكانت إقامة الشعائر واجبة للأب ولكل الأجداد .

ثانيا : يقول الأستاذ موريه(2) « إن المرأة مع ذلك لم تقدر سلطانها أو امتيازاتها القديمة . فنجد أن الأولاد ينسبون غالبا إلى أمهاتهم أكثر مما ينتسبون لأبائهم وفى بعض الأحوال يكون الحال هو المشرف على أولاد أخته كما هو الشأن فى الجماعات التى تسود فيها الامومة » . وفى صفحة ١١١ من الكتاب نفسه يقول : كل طفل مصرى يعلن أنه ولد من الام كذا ، ويندر من ذكر اسم والده ، والواقع أن نسبة النسوة للام قد بقيت من هذا الماضى المتوغل فى القدم ، حتى بعد أن أصبحت سلطة الاب ووراثته أمرا ثابتا لا مرا فيه(3) .

ثالثا : يقول الأستاذ « برستز » أن قانون الوراثة المتبع كان للبنت الكبرى ، ولكن يمكن تغيير ذلك بوصية ، وعلى ذلك يعتبر العقار الذى جاء من جهة الأم هو الأقرب وأن الوصي الطبيعى على الولد هو

(1) Pap. Sallier, 2, II, 3. & Pap. Anastasi 3, 6. & L. D. III, 12 d.

(2) Moret. Le Nil p. 318

(3) Br. Histoire d'Egypte trad. Fra. I, p. 86.

جده من جهة أمه لا والده الحقيقي « . وهنا ختم الاستاذ « برستد » كلامه ، غير أنه لم يذكر السند الذي ارتكز عليه في إثبات قوله هذا . والواقع أنه لا يوجد في كل ما لدينا من النقوش متن واحد يدل على ان البنت البكر قد ورثت أملاك والدها مفضلة على الابن .

ومن كل ما سبق يتضح أن الوثائق الوحيدة التي ذكرت في هذا الصدد ترجع إلى عهد الدولة الحديثة ، وهذه بلا شك وثائق متأخرة لا يمكننا أن نتلمس فيها أى أثر لتقدم هذه الفكرة . على أن الوثائق التي ذكرها « إرمن » ليس لها مناسبة قوية في موضوعنا . فأى شئ يمكننا أن نستخلصه من متن ورقة « سليه » الأدبية التي جاء فيها أن جدًا من جهة الأم كان يتمتع بنجاح حفيده في سلك خدمته الحكومية . أما ورقة « انستاسى » فإن المؤلف يجذ فيها صناعة الكاتب ويحقر مهنة سائق العرب . وعلماء الآثار يترجمون الفقرة التي يعينها بما يأتى :

« فكر فى أن تكون كاتباً ، لتقود كل العالم . تأمل إلى إحدئك عن تلك الحرفة التعيسة وأعنى قيادة العرب ، فإنه قد قبل فى المعسكر احتراماً لجده من جهة أمه ... أى لأنه كان من أسرة عريقة . فإذا نستنتج من ذلك خاصاً بالبنوة من جهة الأم ؟ على أن ترجمة المتن مشكوك فيها إذ نجد أن « مسبرو » يترجمه بما يأتى :

وعند ما التحق بالمدرسة (الحرية) بوساطة جده من جهة أمه ... (1)
أما فى متن دنكيلر جزء ٣ صفحة ١٢ فإننا نجد فيه أن رجلاً من عهد الدولة الحديثة يقيم قبراً لجده من جهة أمه . حقا إن هذا المتن هام ، ولكن

(1) Du Genre Epistolaire, p. 42.

ما الذى نستخلصه منه غير ورع حفيد وعطفه على جده من جهة أمه ؟ وكل ما يستنبط من هذا المتن هو أن القرابة من جهة الأم كانت موجودة فى هذا المصنف حسب . وأول ما يمكن تقريره فى هذا الموضوع أن كل استنتاجات المؤرخين الذين اقتبسنا آراءهم هنا فيما يختص بالدولة القديمة خاطئة . أعنى بذلك قولهم إن المصرى فى هذا العهد كان على وجه عام يعرف والدته أما والده فينكره فى معظم الأحوال . ولكن الواقع يثبت ما ينتقض هذا الزعم من أساسه . إذ دلت الإحصاءات التى عملت فى أنساب الأسر الرابعة والخامسة والسادسة أن فى (1) ٩٢ نسباً من غير الأسرة المالكة ، يوجد من بينها ٤٤ نسباً ذكر فيه الأب والأم على السواء و ٣٧ نسباً فضل فيها نسب الأب على الأم و ١١ ذكر فيها نسب الأم فقط .

وإذا فحصنا عن الانساب التى يرجع عهدها إلى ثلاثة أجيال فى قوائم الأنساب التى نحن بصدددها فإننا نجد عشرة منها تساوى فيها النسب للأب والنسب للأم وعلى الأخص أنساب مقاطعة امراء « زوف » ومقاطعة « تاور » و « قوص » فنجد أربعة يذكر فيها الجد من جهة الأب ، والأب ، والأم ، والأولاد ، وأربعة لم تذكر إلا النسل من الأب لابن ، ولا يوجد إلا ثلاثة لم يذكر فيها نسب الأب ، واحد منها فى نهاية الأسرة الرابعة وبداية الأسرة الخامسة ، وهو نسب « زوز ساويس » نساجة القصر الملكى (2) فقد ذكرت لنا خلفها : أى أولادها وأحفادها . ونسب آخر فى عهد الأسرة الخامسة وهو للوزير « بنحو كا » إذ نجد اسم أم الوزير وزوجته

(١) جمع هذه الانساب الأستاذ بيرن فى كتابه . Hist. Des Institutions vol. III, p. 401 - 418. واستخلص منها هذه الحقائق .

(2) Excav. at Giza, I, p. 104 etc.

وأولاده . وأخيراً في عهد الأسرة السادسة نرى أن الوزير « مري » يعرفنا اسم والدته وأولاده . وهذه هي الأنساب التي يمكننا أن نرى فيها عنصراً للأثومة ، ولكن الواقع أنه لا يوجد واحد من بينها يثبت تناسله من جهة الأم ، على أن الحال لم يذكر إلا في نسب واحد وهو نسب « حتيا »^(١) « زوج بيبي عنخ » أمير قوص ولكن « حتيا » ووالديها لم يذكر إلا في مقبرة زوجها « بيبي عنخ » الذي ذكر لنا عدداً من إخواته وأقاربه وخلفه وسلفه .

وعلى ذلك نكون في مأمن من الخطأ إذا عكسنا النتيجة التي وصل إليها علماء الآثار المصرية وقلنا : إنه في عهد الدولة القديمة كانت تحفظ مكانة عظيمة للأب والأم اللذين كانا في أغلب الأحيان معروفين . هذا على أن الأب والجد من جهة الأب كانا يذكران غالباً وحدهما ، ولم تذكر الأم وحدها إلا نادراً عند عدم وجود أب ، والجد من جهة الأب لم تذكر إلا نادراً جداً ، ولكن لم نشاهد قط أن البنوة كانت تنسب لفرع الأم . وقد ظهر مما سبق أن الابن الأكبر كان رئيس الأسرة بعد وفاة والده ؛ ولكن البنت الكبرى لم يكن لها شأن كبير يذكر ، وكانت الزوجة تحت سلطان ابنها الأكبر بعد وفاة زوجها في عهد الأسرة السادسة ؛ ولذلك يتبين في كل المقاطعات أن الوراثة تكون كالبنوة تتبع فرع الأب . والآن نتساءل أين سيادة الأثومة في البنوة ، ومن أين أمكن علماء الآثار أن يكشفوا أثراً لنسب البنوة للأم ؟ والواقع أن سبب هذا الخطأ الذي وقع فيه علماء الآثار هو الأخذ بالظاهر دون التعمق في البحث عن الأسباب

(١) The Rock Tombs of Meir, IV, p.p. I, etc. & IV, pl. IV, V, VII, IX.

وبخاصة في مقاطعة « زوف » إذ نجد أن الأمير « زوف شماي » قد استولى من والدته على المقاطعة المذكورة وكان يحكمها قبله جده من جهة أمه وهو « رع حم إسي » . ولكن فحص هذه الورثة قد أظهر أنها لا تخرج عن تطبيق دقيق طبيعي لقانون الورثة في فرع الأب وذلك أنه في أوائل الأسرة السادسة وقد ورث « هنوقو خيتتا » ومن بعده أخوه « رع حم إسي » إمارة هذه المقاطعة ؛ وكان الأخير هو الابن الأكبر لأن ابنه « إسي » كان يلقب « الشريف الملكي » (شبسس نيسوت) ، وهذا اللقب كان لا يحمله إلا ولي عهد المقاطعة . والظاهر أن النسل من المذكور قد انقطع ، لأن مقاطعة « زوف » آلت إلى أمير مقاطعة طينة « إبي » زوج « رع حم » بنت « رع حم إسي » . ولا شك في أن تلقيب « إبي » بأمير مقاطعة « زوف » يرجع سببه إلى أن زوجته قد ورثت هذه المقاطعة . ومما لا شك فيه أن « رع حم » لا يمكنها أن ترث المقاطعة إلا لسبب عدم وجود الوارث الأكبر ، هذا إلى أنها من جهة أخرى كان لزاماً عليها أن تسلمها إلى زوجها « إبي » بصفته مشرفاً على أملاكها حسب القانون المصري ، فأخذ في يده سلطة الأمير على المقاطعة ، ومن هنا يتضح أن الأميرة « رع حم » قد نقلت مقاطعة زوف إلى أسرة أمراء طينة

وليس هناك من ريب بعد البحوث التي أدلينا بها في موضوع الأسرة في أن الورثة والبنوة وإقامة الشعائر كلها على حد سواء كانت مرتبطة بنسل الأب في عهد الدولة القديمة .

والمتن الرئيسي الذي اتخذ علماء الآثار أساساً لنظرية البنوة يرجع تاريخه إلى الأسرة الثامنة عشرة أي لا يمت بصلة إلى الدولة القديمة في شيء . وهذا

المتن هو نقوش «بحرى» (1) وملخصه أن «أحمس» بن أمه «إيانا» ووالده «بابا» وكان «بابا» هذا ضابطا ، وقد أصبح أحمس بدوره ضابطا فى سفينة والده ثم درج فى الرقى حتى أصبح أميربحر عظيما . وكان من الأبطال الذين حاربوا ضد الهكسوس ، ولم يكن يحمل لقب شرف ، ولكن الملك أنعم عليه بهبات عقارية عظيمة . وقد رزق ثلاثة أطفال : ولدين وابنة أسماها « قم » ، وقد تزوجت من « اتفرونا » مربي الأمير « وزمر » (ابن تحتس الأول ؟) سبب نسب «بحرى»
لامه
فأنجبا ولدا اسمه « بحرى » أصبح فيما بعد ضابطا فى القصر ، ومنح لقب الشرف ، وتقلب فى عدة وظائف سامية . وقد أظهر فى نقوش قبره بوضوح نسبه من جهة أمه وزوجته : والسبب فى ذلك ظاهر هو أن «بحرى» لم يكن له إلا جد واحد عريق فى النسب وهو « أحمس » والدأمه فانتسب إليه للفخر به لا أقل ولا أكثر ولما كانت قد حظى بلقب الشرف فى أيامه الأخيرة فإنه فاخر كذلك بأصل زوجته ذات المجد التليد المونل . ويبدو للفاحص المدقق أن لا علاقة لهذا بالأئومة أو البنوة من جهة الأم ، فكل أمر ملابساته وظروفه .

(1) Griffith, Tomb of Pahari, p.p. 7-9.



« وب أم نوت » يقدم لابنه « إبي » نس الرعية (انظر ص ٥٢٣)
والشود الذين حضروا توبيخها

Abréviations

- Annales du Service des Antiquités de l'Égypte (Ann. Ser. Ant.)
(Ann. S. A.)
- Bulletin de l'Institut français d'Archéologie Orientale (Bull. I.F.A.O.)
(B. I. F. A. O.)
- Journal of Egyptian Archæology (J. E. A.)
- Proceedings of the Society of Biblical Archæology (Proc. S. B. A.)
(P. S. B. A.) or (Proc. Soc. Bib. arch.)
- Recueil des travaux relatifs à la philologie égyptienne et assy-
rienne... (Rec. Tr.)
- Zeitschrift für Ägyptische Sprache und Alterthumskunde. (Z.
A. S.) or (A. Z.)
- Mémoires de l'Institut Egyptien (Bull. I. Egy.)
- Mémoires de la Mission française d'archéologie du Caire. (Mém.
Miss. du Caire)
- Breasted, Ancient records of Egypt. (Br. A. R.) or (A. R.)
- Pyr. = Sethe, Pyramiden Texte.
- H. = Hérodote.
- L. D. = Lepsius Denkmäler
- Agr. A. E. Hart. = Hartmann, Agriculture of Ancient Egypt.
- Pirenne = Pirenne, Histoire des Institutions de l'Ancienne
Égypte.
- W. M. = Wilkinson, Manners and customs
- Comptes-Rendus de l'Académie des Inscriptions (C. R. Ac. Insc.)

فهرس (الجزء الثانى)

١. الحكومة فى عهد الدولة القديمة : (١) الملكة الطينية وإدارتها -
٧. (٢) الحكومة فى العهد المنفى - ٩. ألقاب الشرف - ١٠. ألقاب
خاصة بالملك وقصره - ألقاب كهنوتية - ١٣. الكهنة المطهرون - ١٤. (٣)
الالقب الادارية الرئيسية ، وألقاب الإدارة الإقطاعية - ١٦. (٤)
طائفة الكتبة .

١٧. إدارة مصالح الحكومة وتسييرها : (١) بيت الملك « بر نيسوت »
١٨. بيت التحريرات الملكية - ، بيت المكاتبات أو إدارة المحفوظات ،
بيت العقود المختومة - ١٩. ببت رئيس الضرائب أو التوزيع (؟) - مصلحة
التوزيع أو الضرائب - ٢١. (٢) مصلحة الحقول (الضياع) - ٢٢. (٣)
مصلحة المالية - ٢٤. بيت الذهب « برنوب » - ٢٥. إدارة الشونة
المزدوجة - ٢٦. إدارة التموين - ٢٧. الجمارك والتجارة الخارجية - ٢٩.
حسابات الخزينة - ٣٠. (٤) مصلحة الاشغال العمومية .

٣٤. حكومة المقاطعات :

٣٨. السلطة القضائية : ٤٣. السلطة القضائية فى عهد الأسرة الرابعة
٤٥. قاضى المدنيين « مدو رخت » - ٤٦. الإصلاح التشريعى ونظام
العدالة فى عهد الأسرة الخامسة - ٤٩. محاكم المقاطعات « حت ورت »
٥٠. المجلس « هاييت » - ٥١. الإدارة القضائية « وسخت » - ٥٣.
إدارة العرائض أو الشكاوى « سبر » ، الإدارة الرئيسية للعدل « حتى وزقى »
٥٤. قلم قضايا العدل والإدارة - ٥٥. النظام القضائى فى عهد الاسرة

الخامسة - ٥٨ . الاجراءات القضائية - ٦٣ . اجراءات محكمة الستة العليا ،
قانون العقوبات - ٦٥ . محكمة المقربين ، مقضاة الاشراف .

٦٧ . مصادر فصل نظام الحكم والقضاء :

٦٨ ثروة مصر الطبيعية ومنتجاتها :

٦٨ . الزراعة : الأشجار الكبيرة - ٦٩ . السنط ، النخيل - ٧٠ .
فخيل الدوم ، الجميز - ٧١ . البرساء (البخ عند العرب) - ٧٢ . شجرة
النبق ، شجرة الأثل ، شجرة الصفصاف - ٧٣ . شجر الخيط ، أشجار
التين ، الهجليج أو تمر العرب - ٧٤ . الاخشاب الاجنبية - ٧٥ .
الأبانوس « هبنى » ، البخور والروائح العطرية .

٧٦ . النباتات ذات الالياف : الغاب أو البوص - ٧٧ . السعد وحب

العزير ، البردي ، البشنين ، النباتات الطبية .

٧٨ . الحبوب التي كانت تزرع في مصر : ٨٠ . الحنظل ، الفول -

٨١ . العدس ، الحمص ، الباميا ، الفاقوس ، البطيخ ، الكراث - ٨٢ .

الكرفس ، الحس ، البصل - ٨٣ . الثوم ، التوابل ، الكزبرة ، الكراويا ،

الينسون ، الكون ، اشجار الفاكة - ٨٥ . الرمان - ٨٥ . زراعة نباتات الالياف

الكثان - ٨٦ . زراعة القطن واستعماله في مصر - ٨٧ . النباتات التي

تستعمل في الصباغة - شجرة الزيتون وزيتها - ٨٨ . نبات البردي ،

٩٠ . زراعة البساتين : ٩٣ . الآت الفلاحة : ٩٥ . الحراث ،

المحثة (المنجل) - ٩٧ . طرق الزراعة : ١٠٠ . صيد الحيوان وتربيته :

١٠٠ . لحوم الصيد : ١٠١ . فصيلة الأيائل ، عشيرة الظباء ، المها -

١٠٢ . المؤذر أو الديشون أو المهاة الوضحي ، التيتل ١٠٣ . غزال آدم ،
غزال إزابيل « جسا » ، الوعل أو البدن أوتيس الجبل - ١٠٤ . الكبش
البرى (مفلون) ، الماعز ، المعتر الأهلية ، الزرافة - ١٠٥ . الثعلب ،
الأرنب الجبلى . ١٠٥ . الحيوانات التى تصاد لجلودها أو فرائها : الفهد
١٠٦ . الصبنت أو فرس النهر . الذئب (ونش) ، الفيل ، وحيد القرن
أو الحريش . ١٠٧ . الحيوانات التى تصاد دفاعاً عن النفس أو للتسلية :
الأسد والبؤة ، التمساح - ١٠٨ . الصل أو الثعبان
١٠٨ . كلمة عامة عن المراعى وتربية الحيوان :

١١٠ . الحيوانات التى كانت تنتخب لترويضها وتربيتها : ١١١ . الخنزير
١١٢ ، الضبع ، الدواجن - ١١٣ . الدجاج - ١١٤ . البيض ، النحل
وتربيته : ١١٥ . الحيوانات التى كانت تربي لمنتجاتها الصناعية : الفم -
١١٧ . الحمار - ١١٨ . الثور ، الحصان ، الجمل
١١٩ . الحيوانات التى تربي لمساعدة الإنسان وحمايته : الكلب -
١٢١ . القطعة - ١٢٢ . الفمى المصرى (أو فأر فرعون) ، القرد
١٢٣ . الرفق بالحيوان والعناية بتربيته : ١٢٤ . الحظائر - ١٢٥ .
العناية بأجسام الحيوان - ١٢٧ . أمراض الحيوانات - ١٢٨ . معاملة الحيوان
برفق - ١٣٠ . تعداد الحيوان
١٣١ . أسماك النيل والبحيرات : ١٣٢ . (١) لاطس أو القشر ، (٢)
البلى أو المشط ، (٣) البورى ، (٤) القنومة ، ١٣٣ . (٥) القرموط ،
- (٦) الشال - (٧) الشلبة - (٨) الفقاقة - (٩) البنى

١٣٦ - طرق الصيد وأنواعها : صيد الاسماك . ١٣٦ - أدوات

صيد الطيور : عصا الرماية (البومرايح) - ١٣٧ . شباك صيد الطيور -
صيد السمان بشبك الحقول - فخاخ الصيد -

١٣٨ - أدوات صيد الحيوانات البرية : القوس والشاب - فخاخ

صيد الغزلان والياتل - ١٣٩ . الخية - ١٤٤ . أنواع الأحجار التي

استعملت في مصر قديما : الحجر الجيري الأبيض - ١٤٧ الحجر الرملي -

١٤٨ . حجر الجرانيت - ١٥٠ . حجر المرمر - ١٥٢ . حجر البازلت -

١٥٤ . حجر الكوارتسيت

١٥٥ . الأحجار التي استعملها المصري في غير البناء : حجر البرشيا ،

١٥٦ . حجر الديوريت أو حجر جبل النار - ١٥٨ . حجر الديوريت ، حجر

الدوليت - ١٥٩ . حجر الطران أو الصوان ، الجبس - ١٦٠ . الأبسديان

وهو حجر السبع أو حجر البحيرة - ١٦١ . الصخر البورفيرى - ١٦٢ .

حجر الشيست والأردواز - ١٦٣ . حجر الثعبان ، وحجر استايتيت (الطلق) -

١٦٤ - قطع الأحجار ١٦٦ - كيفية صناعة الأحجار

١٦٩ - الأحجار الكريمة وشبه الكريمة : ١٧٠ . العقيق والجزع -

١٧١ . حجر الجشت (أمتست) - ١٧٢ . الزمرد المصرى -

١٧٣ . حجر الدم والعقيق الأحمر - الخلكيدونى أو العقيق الأبيض -

١٧٤ . المرجان - حجر الأمزون أو الفلسبار الأخضر ١٧٥ . حجر

سيلان - حجر الممتيت - ١٧٦ . اليشم أو حجر الجاد - حجر اليشب -

١٧٧ . اللازورد - حجر السفنج - ١٧٨ . اللؤلؤ - ١٧٩ . حجر الكوارتس

والبلور الصخرى ، الفيروز أو الفيروزج

- ١٨٠ . المعادن : ١٨١ النحاس - ١٨٥ الكرسوكولا - ١٨٦ . الدهننج ،
البرنز (الشبه) - ١٨٨ . صناعة البرنز - ١٨٩ النحاس الأصفر ، الذهب -
١٩٣ . الألكتروليت - ١٩٥ . الحديد - ١٩٩ . الرصاص - ٢٠٠ .
الفضة - ٢٠٣ . القصدير - ٢٠٤ . الشب - ٢٠٥ . النطرون .
٢٠٦ . الشنون الاجتماعية : نظام العمل وقانون العمال في عهد الدولة
القديمة - الأعمال الحكومية - ٢١٠ . المصانع الحكومية - ٢١١ قانون العمال
الملكيين - ٢٢٠ . طرق المواصلات : ٢٢٣ . طرق النقل بالقواب وصناعتها -
٢٢٦ . الملاحة - ٢٣٠ . التجارة الداخلية والعملة : ٢٣٣ . التجارة الداخلية -
٢٣٧ . النقود - ٢٤١ . العملة الحقيقية والعملة الحسابية -
٢٤٦ . تجارة مصر الخارجية وعلاقتها بالاقليم المتاخمة : - العلاقات
بين مصر وآسيا - ٢٥٣ . علاقة مصر بجزر البحر الابيض المتوسط -
٢٥٨ . علاقة مصر بالبحر الأحمر وبلاد بنت في عهد الدولة القديمة -
٢٦٦ . العلاقات التجارية مع البلاد المتاخمة - ٢٦٩ . العلاقات التجارية بين
مصر وبلاد النوبة والسودان .
٢٧٦ . الفن : الفنون والحرف الدقيقة في العصر الطينى وما بعده -
٢٧٧ . فن المعمار - ٢٨١ . جبانات هذا العصر ومقابرهم - ٢٨٨ . السبب في
تقدم بناء المصاطب وتعدد حجراتها - ٢٩٠ . مقابر الملوك - ٢٩٥ . فنا النقش
والنحت في عهد الدولة القديمة - ٣٠٨ . تمثال القرنين « كا » أو الروح
المادية والتماثيل الأخرى التي توجد في قبر المتوفى - ٣١١ . تاريخ فن

صناعة التماثيل منذ أقدم العصور إلى نهاية الدولة القديمة - ٣١٤ . الطرق

الفنية في صناعة التماثيل - ٣٢١ . تماثيل الخشب -

٣٢٨ - تدرج فن النحت البارز في الأسرة الأولى

٣٣٣ تماثيل العصر الأول من الأسرة الرابعة

٣٣٤ . أوضاع التماثيل الصغيرة والكبيرة في عهد الدولة القديمة

٣٣٧ . أوضاع التماثيل الخشبية في الأسرتين الخامسة والسادسة

٣٣٨ . الترتيب التاريخي لأوضاع التماثيل التي كان يستعملها الفنان المصري

٣٣٩ . تأثير تماثيل « خفرع » و « منكاورع » في صناعة تماثيل

الأفراد في الأسرتين الخامسة والسادسة .

٣٤٥ . الصناعات الدقيقة .

٣٥٣ . مصادر فصل الفن .

٣٥٥ . العلوم المصرية . ٣٥٦ . علم الرياضيات - ٣٦٠ - علم

الفلك عند قدماء المصريين - ٣٦٤ . الطب - ٣٧١ . التحنيط ومواده :

٣٧٦ . شمع النحل - ٣٧٧ . القار - القرقة وخيار شنبير - ٣٧٨ . زيت

خشب الأرز - الصمغ - ٣٧٩ . الحناء - حب العرعر - النطرون

- ٣٨٠ . الدهان - البصل - ٣٨١ . نبيذ البلح - الملح - النشارة

٣٨٣ . الكتابة : ٣٨٨ . فهمنا للتمون المصرية - ٣٩١ . نظر إجمالية في تطور

الادب المصري : - ٣٩٧ . الكتاب المتعلمون - ٣٩٩ . المغنون

والقصصيون - ٤٠١ . أوزان الشعر - ٤٠٧ مختارات من أدب الدولة

القديمة :- أمثلة من الشعر - منتخبات من متون الأهرام - ٤٠٨ . سياحة

المتوفى إلى السماء - ٤١٠ . المتوفى يظفر على السماء - ٤١١ . المتوفى يلثم
الآلهة - ٤١٣ . المتوفى يأتي رسولا إلى « أوزير » - ٤١٤ . مصير أعداء
المتوفى - ٤١٥ . الفرح بالفيضان ، أناشيد الصباح - ٤١٧ . تعاليم
« فتاح حتب » ، معاملة الخطيب - ٤١٨ . إنك تفوز بالحياة بمساعدة الحق
والصدق ، أدب السلوك في الضيافة - ٤١٩ . كن أميناً في تبليغ الرسائل ،
لا تصفرن من شأن أولئك الذين ارتقوا في الدنيا ، خصص لنفسك وقتاً
لتروج نفسك - ٤٢٠ . معاملة ابنك ، السلوك في بهو العظماء - ٤٢١ .
التحذير من النساء ، التحذير من الشراة - ٤٢٢ . فائدة الزواج - كن
كريماً مع أصدقائك ، كن حذراً في الكلام - ٤٢٣ . لا تقن بالخط ؛
احترام الرؤساء : الحزم في المصاحبة .

٤٢٣ . أغاني العمال : أغنية الرعاة - ٤٢٤ . أغنية السالكين ، أغنية
حامل الحفة . ٤٢٤ . الأغاني في الولايم :

٤٢٦ . إزدهار الادب المصري في العهد الإقطاعي : ٤٢٧ . تحذيرات
نبي ، تعاليم الملك ختي لابنه « وري كارع » ، قيمة حسن الكلام
والحكمة ، الله وبنو الإنسان - ٤٢٩ . شجار بين إنسان قد سُم الحياة
وبين روحه - ٤٣٢ . الشعر الأول - ٤٣٣ . الشعر الثاني - ٤٣٤ . الشعر
الثالث - ٤٣٥ . الشعر الرابع - ٤٣٦ . شكاوى الفلاح الفصيح - ٤٣٨ .
الشكوى الأولى - ٤٣٩ . مقدمة الشكوى الثانية ، الشكوى الثانية - ٤٤٢
الشكوى الثالثة - ٤٤٥ . الشكوى الرابعة - ٤٤٦ . الشكوى الخامسة -
٤٤٧ . الشكوى الثامنة .

٤٤٩ . الجيش والحروب : عصر ما قبل التاريخ - ٤٥١ . الأسرة الثالثة

٤٦١ . الجيش في عهد الأسرة الرابعة — ٤٦٢ . الجيش في عهد الأسرة
الخامسة — ٤٦٥ . الأسطول — ٤٦٨ . الإدارة الحربية — ٤٧١ .
جيش الجنود المرتزقة — ٤٧٤ . الجيش في عهد الأسرة السادسة — ٤٧٦ .
البعوث الفرعونية — ٤٧٨ . الجيش والبلاد الأجنبية — ٤٨٨ . الجيش في
العهد الإلهاسي — ٤٩١ . الخدمة العسكرية .

٥٠١ . مصادر عن الجيش في عهد الدولة القديمة والعهد الإقطاعي :

٥٠٣ . الأسرة في عهد الدولة القديمة : نظام الفردية في عهد الأسرتين

الثالثة والرابعة — ٥٠٩ . حق الوراثة — ٥١١ . الشعائر الدينية واستمساك
الأسرة بعروتها — ٥١٣ . تطور نظام الأسرة في عهد الأسرة الخامسة
٥٢٧ . تطور مركز الأسرة في عهد الأسرة السادسة — ٥٣٠ . نظام الأسرة
الشرعي في أواخر الأسرة السادسة — ٥٣٣ . الوراثة — ٥٣٩ . الأولاد غير
الشرعيين — ٥٤٠ . إقامة شعائر الأسرة — ٥٤٣ . تمثيل الأسرة على جدران
المقابر في عهد الأسرة السادسة — ٥٤٦ . البنوة في عهد الدولة القديمة —
٥٥٥ . مختصرات أسماء بعض المصادر — ٥٥٦ . فهرس — ٥٦٤ .
خطأ وصواب .

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٦٤	١٢	هر	وادي الهر	٧	٣	موكل	موكلة
١٦٤	١٢	الفطيرة	فطرة	١٠	٦	ألقاب	ألقابا
١٦٥	٣	قطع	قطعا	١٤	١	الرئيسية	الرئيسية
١٧٤ و ١٩٧ و ١٨١ و ١٨	أدفيئا	دفة	عصرنا إلا اذا	٤٧	٨	آخرين	آخرين
١٨٦	١٤	عصرنا على	احتوى على	٥٧	١	مودع	مودعة
١٩٧ و ١٩٨ و ١٨١ و ١٦	نقراش	نوكراشيس	(كوم جيف)	٦٣	٩	وضوح	وضوح
٢٠٠	٧	مدينة	مدينة	٦٦	الهامش	لقاضى	لقاض
٢٠٠	١٧	الذهب	الفضة	٦٧	٦	أهما	أهما
٢٢٤	١٩	وكان	كان	٧٢ و ٧٣ و ٢ و ٤	عشر	عشرة	عشر
٢٣١	١	كان يقام	كانت تقام	٨١	١	هردوت	يقول هردوت
٢٤١	٩	صندوق صغير	صندوقا صغيرا	١٠١	٦	مقبرة مير	مقبرة مير
٢٥٢	٩	استعملت	استعمل	١٠٩	٢	ثورا	ثور
٢٥٢ و ٢٩٥ و ١٧ و ٧	محازاة	محاذاة	محاذاة	١٢٥	١٦	أواسط	أواسط
٢٥٥	٢	مقطوع	مقطوع به	١٤٠	١	الفر	الفر
٢٦٣	١١	ورجال	ورجالا	١٤٠	١٧	أن	أنه
٢٦٧	١١	العامى	العاصى	١٤٧	٨	كلبشا	كلبشة
٢٨٧	١	كوضع	وضع	١٤٨	١٢	تافا	طيفة
٢٨٧	١	أن	كان	١٥٢	١١ و ١٢	الديوريت	الدولوريت
٢٨٧	٧	بئر عمودى	بئر عمودية ...	١٥٣	٧	خطاب له	خطاب منه
٢٩٢	الهامش	الحجران اللتان	الحجرتين اللتين	١٥٤	٤	وتكون	تكون
٢٩٤	٤	فان أصلح	فان ما أصلح	١٥٩	١٣	أسمرا	أسمر
٣٠٤	١٧	لأحد	١٦٣	١٦	براميا	البرامية
٣٠٧	٨	نستطيع	نستطيع	١٦٣	١٧	شأيت	شيت

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣١٩	٦	فاحم	فاحا	٤٠٩	١٣	الهامش سلما	سلم.
٣١٩	١١	يكونا	يكون	٤٣٩	١٩	كانوا	كان
٣٢٢	٤	أن	٤٦١	٢	الذي	الذي لم
٣٢٥	١٨	سم ١٥	سم ٤٠	٤٧٨	٢٠	نفسهما	أنفسهما
٣٤٦	٥	سوار	سوارا	٤٨٧	٢	على نفوذ	نفوذه على
٣٥٦	٨	ذراعا	ذراع	٤٨٩	١٤	هيرا كنبوليس	هركليوبوليس
٣٦٠	١٤	كان	٤٩٤	٦	سم ٧٠	سم ١٧٠
٣٦٣	١٣	فيه	فيه	٤٩٨	١٩	استأجروها	التي استأجروها
٣٧٨	٩٧	منها	منها	٥١٦	١٧	الأصلية	الأصلية
٤٠١	٨	آيات	آياتا	٥٤٧		فيه على	عليه في

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدر الكتب ١٧٢٢ / ١٩٩٢

ISBN 977-01-2954-2

العراق للفنان محمود الهادي

